



أسئلة مُثَلَّت
تفضيلة الشيخ

١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

لتفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

عمر الله له ولوالديه والمسلمين

مِنْ إصْدَارَات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المؤلف سنة ٥٧٢٨ هـ

٢ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين ، محمد بن صالح

شرح العقيدة الواسطية . / محمد بن صالح العثيمين - ط ١٠ -

القصيم ، ١٤٤٠ هـ

٦٦١ ص : ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين : ١٠)

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٠٠-٩٣-٣

١- العقيدة الإسلامية . أ . العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٠ / ١٢٦

رقم الإيداع : ١٤٤٠ / ١٢٦

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٠٠-٩٣-٣

حقوق الطبع محفوظة

لِلْمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِيِّنِ الْخَيْرِيَّةِ
إلا أن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة العاشرة

٥١٤٤٣

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِيِّنِ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٥٧٣٢٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الذرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٢٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

شرح
العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ لِصَاحِبِ الْفَضِيلَةِ شَيْخِنَا الْعَلَامَةِ الْوَالِدِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنَايَتُهُ الْبَالِغَةُ بِمُتَوْنِ الْعَقِيدَةِ وَحِرْصُهُ عَلَى شَرْحِهَا وَالتَّعْلِيلِ عَلَيْهَا وَتَقْرِيبِهَا لَطُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْدَّارِسِينَ؛ وَذَلِكَ لِتَقْرِيرِ وَيَّانِ عَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَانَ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَنْ يَسَّرَ لِفَضِيلَتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- شَرْحَ (الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ) لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْمُتَوَفَّى عَامَ (٧٢٨هـ)^(١)، تَعَمُّدَهُ اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْجَامِعُ الْمُخْتَصَرُ، الْوَاسِعُ الْعِلْمِ، الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا -عَزَّ وَجَلَّ-، وَقَدْ شَرَحَهُ شَيْخُنَا -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَلَى طَلَبَتِهِ فِي جَامِعِهِ بِعُتْرَةِ عِدَّةٍ مَرَّاتٍ.

وَبَعْدَ تَفْرِيعِ وَقَائِعِ تِلْكَ الدُّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ أَشْرَاطِ التَّسْجِيلِ نُشْرَ الشَّرْحِ فِي كِتَابٍ مَطْبُوعٍ عَامَ (١٤١٣هـ)، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ أَطْلَاعِ فَضِيلَتِهِ عَلَى الْكِتَابِ الْمَطْبُوعِ قَرَّرَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-

(١) ترجم له الكثيرون ، انظر: (الذَّيْلُ عَلَى طَبَقَاتِ الْخَنَابِلَةِ) لابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ٤٩١)، و(تذكرة الحفاظ) للذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ١٤٩٦)، و(الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) لابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٤٤).

أَنَّ الشَّرْحَ الْمُتَلَقَّى مِنَ التَّقْرِيرِ لَيْسَ كَالشَّرْحِ الْمَكْتُوبِ بِالتَّخْرِيرِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَغْتَرِيهِ مِنَ النَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ مَا لَا يَغْتَرِي الثَّانِي؛ فَرَأَى أَنَّ مِنَ الْمِهْمِ أَنْ يَقْرَأَ الشَّرْحَ مِنْ أَجْلِ إِخْرَاجِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ، فَبَادَرَ إِلَى ذَلِكَ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى - وَحَذَفَ مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَزَادَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، لِتَكُونَ هِيَ النُّسخَةُ الْمُعْتَمَدَةُ، وَتَوَالَتْ طَبْعَاتُهُ مِنْذُ عَامِ (١٤١٥هـ)، وَهَاهُوَ الْيَوْمَ فِي مُقَدِّمَةِ إِصْدَارَاتِ مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ فِي طَبْعَةٍ مُبَيَّنَةٍ، هَذَا وَقَدْ كَانَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ حَرَّرَ بِخَطِّهِ عَامَ (١٣٨٤هـ) تَعْلِيْقًا عَلَى الطَّبْعَةِ الْأُولَى لِشَرْحِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ خَلِيلِ هَرَّاسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَلَى «الْوَاسِطِيَّةِ»، وَإِعْمَامًا لِلْفَائِدَةِ الْحَقْنَاءِ فِي نِهَايَةِ الْكِتَابِ.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مُوَافِقًا لِمَرْضَاتِهِ، نَافِعًا لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الثُّبُوتَ وَالْأَجَرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

الْقِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

٤ ذُو الْحِجَّةِ ١٤٣٩ هـ

— — — — —

نُبذة مُختصرة عَنْ

فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ

١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلَدُهُ:

هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ، الْفَقِيهَ الْمَفْسِّرُ، الْوَرَعَ الرَّاهِدُ، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ عُثَيْمِينَ مِنَ الْوَهْبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِدَ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، عَامَ (١٣٤٧ هـ) فِي عُنَيْزَةِ - إِحْدَى مُحَافَظَاتِ الْقَصِيمِ - فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

نَشَأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

أَحْلَقَهُ وَالِدُهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لِيَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَ جَدِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ الْمَعْلَمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّامِغِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، ثُمَّ تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ، وَشَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ، وَالنُّصُوصِ الْأَدَبِيَّةِ؛ فِي مَدْرَسَةِ الْأُسْتَاذِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صَالِحِ الدَّامِغِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِمَدْرَسَةِ الْمَعْلَمِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّحِيحَانِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حَيْثُ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وَلَمَّا يَتَجَاوَزِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ بَعْدُ.

وَبِتَوْجِيهِ مِنْ وَالِدِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَكَانَ فَضِيلَتُهُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السُّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يُدْرِّسُ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَرَبِيَّةَ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بُعَيْزَةَ، وَقَدْ رَتَّبَ اثْنَيْنِ^(١) مِنْ طَلَبَتِهِ الْكِبَارِ لِتَدْرِيسِ الْمُبْتَدِئِينَ مِنَ الطُّلَبَةِ، فَانَضَمَ الشَّيْخُ إِلَى حَلْقَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- حَتَّى أَدْرَكَ مِنَ الْعِلْمِ -فِي التَّوَحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالنَّحْوِ- مَا أَدْرَكَ.

(١) هما الشَّيْخَانِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ، وَعَلِيُّ بْنُ هَدِ الصَّالِحِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ جَلَسَ فِي حَلَقَةِ شَيْخِهِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَدَرَسَ عَلَيْهِ فِي التَّفْسِيرِ، وَالْحَدِيثِ، وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالْأُصُولِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالنَّحْوِ، وَحَفِظَ مُحْتَصِرَاتِ الْمُتُونِ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ.

وَيُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ شَيْخُهُ الْأَوَّلُ؛ إِذْ أَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ - مَعْرِفَةً وَطَرِيقَةً - أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِ، وَتَأَثَّرَ بِمَنْهَجِهِ وَتَأْصِيلِهِ، وَطَرِيقَةِ تَدْرِيسِهِ، وَاتَّبَاعِهِ لِلدَّلِيلِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عودَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَاضِيًا فِي عُنْيَةِ قَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ، كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ مُدَرِّسًا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا فُتِحَ الْمَعْهَدُ الْعِلْمِيُّ فِي الرِّيَاضِ أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِهِ ^(١) أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فَاسْتَأْذَنَ شَيْخَهُ الْعَلَامَةَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَأَذِنَ لَهُ، وَالتَّحَقَّ بِالْمَعْهَدِ عَامِي (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

وَلَقَدْ انْتَفَعَ - خِلَالَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ انْتَضَمَ فِيهِمَا فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ الْعِلْمِيِّ - بِالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُدَرِّسُونَ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَمِنْهُمْ: الْعَلَامَةُ الْمُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنَقِيطِيُّ، وَالشَّيْخُ الْفَقِيهَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ رَشِيدٍ، وَالشَّيْخُ الْمُحَدِّثُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِفْرِيقِيُّ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى -.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ اتَّصَلَ بِسَاحَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ: مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَمِنْ رَسَائِلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ؛ وَانْتَفَعَ بِهِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَالنَّظَرِ فِي آرَاءِ فُقَهَاءِ الْمَذَاهِبِ وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا، وَيُعَدُّ سَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنَ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُوَ شَيْخُهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ.

(١) هُوَ الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ حَمْدِ الصَّالِحِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

ثم عادَ إلى عَيْزَةِ عامٍ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ عَلَى شَيْخِهِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ، وَيُتَابِعُ دِرَاسَتَهُ انْتِسَابًا فِي كُلِّيةِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى نَالَ الشَّهَادَةَ الْعَالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجَابَةَ وَسُرْعَةَ التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ فَشَجَّعَهُ عَلَى التَّدْرِيسِ وَهُوَ مَا زَالَ طَالِبًا فِي حَلَقَتِهِ، فَبَدَأَ التَّدْرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بِعَيْزَةٍ.

وَلَمَّا تَخَرَّجَ فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ فِي الرِّيَاضِ عَيْنَ مُدَرِّسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ بِعَيْزَةٍ عامَ (١٣٧٤هـ).

وَفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوِّفِيَ شَيْخُهُ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَتَوَلَّى بَعْدَهُ إِمَامَةَ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ فِي عَيْزَةٍ، وَإِمَامَةَ الْعِيدَيْنِ فِيهَا، وَالتَّدْرِيسَ فِي مَكْتَبَةِ عُنْيَةِ الْوَطَنِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْجَامِعِ؛ وَهِيَ الَّتِي أَسَّسَهَا شَيْخُهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطُّلُبُ، وَصَارَتِ الْمَكْتَبَةُ لَا تَكْفِيهِمْ؛ بَدَأَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَدْرُسُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ نَفْسِهِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وَتَوَافَدُوا مِنَ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهَا؛ حَتَّى كَانُوا يَبْلُغُونَ الْمِائَاتِ فِي بَعْضِ الدَّرُوسِ، وَهَؤُلَاءِ يَدْرُسُونَ دِرَاسَةً تَحْصِيلٍ جَادًّا، لَا لِمُجَرَّدِ الْاسْتِمَاعِ. وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ -إِمَامًا وَخَطِيئًا وَمُدَرِّسًا- حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدَرِّسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ مِنْ عامٍ (١٣٧٤هـ) إِلَى عامٍ (١٣٩٨هـ) عِنْدَمَا انْتَقَلَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي كُلِّيةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ بِالْقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لْجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَظَلَّ أَسْتَاذًا فِيهَا حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

وَكَانَ يَدْرُسُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ وَرَمَضَانَ وَالْإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ، مُنْذُ عامٍ (١٤٠٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

وَلِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَسْلُوبٌ تَعْلِيمِيٌّ فَرِيدٌ فِي جُودِيَّتِهِ وَنَجَاحِهِ، فَهُوَ يُنَاقِشُ طُلَّابَهُ

وَيَتَقَبَّلُ أَسْئَلَتَهُمْ، وَيُلْقِي الدُّرُوسَ وَالْمَحَاضِرَاتِ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ وَاثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا
بَنْشِرِهِ لِلْعِلْمِ وَتَقْرِيْبِهِ إِلَى النَّاسِ.

آثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهِودُهُ الْعَظِيمَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- خِلَالِ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا مِنَ الْعَطَاءِ
وَالْبَذْلِ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسِ وَالْوَعْظِ وَالْإِزْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ وَإِلْقَاءِ الْمَحَاضِرَاتِ وَالدَّعْوَةِ
إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وَلَقَدْ اهْتَمَّ بِالتَّأْلِيفِ، وَتَحْرِيرِ الْفَتَاوَى وَالْأَجُوبَةِ، الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِالتَّأْصِيلِ الْعِلْمِيِّ الرَّصِينِ،
وَصَدَرَتْ لَهُ الْعَشْرَاتُ مِنَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ وَالْمَحَاضِرَاتِ وَالْفَتَاوَى وَالْخُطَبِ وَاللِّقَاءَاتِ
وَالْمَقَالَاتِ، كَمَا صَدَرَ لَهُ آفُ السَّاعَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي سَجَلَتْ مُحَاضِرَاتِهِ وَخُطْبَتَهُ وَلِقَاءَاتِهِ
وَبَرَامِجَهُ الْإِذَاعِيَّةَ وَدُرُوسَهُ الْعِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالشُّرُوحَاتِ الْمُتَمَيِّزَةِ لِلْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْنِ وَالْمَنْظُومَاتِ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ.

وَإِنْفَاذًا لِلْقَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي قَرَّرَهَا فَضِيلَتُهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ
مُؤَلَّفَاتِهِ، وَرَسَائِلِهِ، وَدُرُوسِهِ، وَمُحَاضِرَاتِهِ، وَخُطْبَتِهِ، وَفَتَاوَاهُ، وَلِقَاءَاتِهِ؛ تَقُومُ مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْحَثَرِيِّ -بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ- بِوَاجِبِ وَشَرَفِ الْمَسْئُولِيَّةِ لِإِخْرَاجِ
كَافَّةِ آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِنَايَةِ بِهَا.

وَبِنَاءً عَلَى تَوْجِيهَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوْقِعٌ خَاصٌّ عَلَى شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ
الدَّوْلِيَّةِ^(١)، مِنْ أَجْلِ تَعْمِيمِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ -بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى-، وَتَقْدِيمِ جَمِيعِ آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ
مِنْ الْمُؤَلَّفَاتِ وَالتَّسْجِيْلَاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وَجُهِودُهُ الْآخَرَى:

إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْجُهِودِ الْمُثْمِرَةِ فِي مَجَالَاتِ التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِمَامَةِ وَالْخُطَابَةِ وَالْإِفْتَاءِ

والدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كَانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ مُوَفِّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضْوًا فِي هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، مِنْ عَامِ (١٤٠٧هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- عُضْوًا فِي الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي الْعَامِنِ الدَّرَاسِيِّ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عُضْوًا فِي مَجْلِسِ كُتْلَةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ، بِفَرْعِ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقَصِيمِ، وَرَئِيسًا لِقِسْمِ الْعَقِيدَةِ فِيهَا.
- وَفِي آخِرِ فِتْرَةِ تَدْرِيسِهِ بِالْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ شَارَكَ فِي عُضُوبَةِ لَجْنَةِ الْخِطَطِ وَالْمَنَاجِحِ لِلْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الْكُتُبِ الْمَقْرَرَةِ فِيهَا.
- عُضْوًا فِي لَجْنَةِ التَّوَعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، مِنْ عَامِ (١٣٩٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، حَيْثُ كَانَ يُلْقِي دُرُوسًا وَمُحَاضَرَاتٍ فِي مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ، وَيُقِنِّي فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.
- تَرَأَّسَ جَمْعِيَّةَ تَحْفِيزِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْحَيَرِيَّةِ فِي عُيُزَةٍ مُنْذُ تَأْسِيسِهَا عَامَ (١٤٠٥هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- أَلْقَى مُحَاضَرَاتٍ عَدِيدَةً دَاخِلَ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ عَلَى فَنَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ النَّاسِ، كَمَا أَلْقَى مُحَاضَرَاتٍ عَبْرَ الْهَاتِفِ عَلَى تَجْمُعَاتٍ وَمَرَاكِزٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي جِهَاتٍ مُتَحَدَّةٍ مِنَ الْعَالَمِ.
- مِنْ عُلَمَاءِ الْمَمْلَكَةِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يُجِيبُونَ عَلَى أَسْئَلَةِ الْمُتَسَفِّرِينَ حَوْلَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَأُصُولِهِ، عَقِيدَةٍ وَشَّرِيعَةٍ، وَذَلِكَ عَبْرَ الْبَرَامِجِ الْإِذَاعِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَأَشْهَرُهَا بَرْنَامُجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرَبِ).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْإِجَابَةِ عَلَى أَسْئَلَةِ السَّائِلِينَ؛ مُهَاتِفَةً وَمُكَاتَبَةً وَمُشَافَهَةً.

- رَتَّبَ لِقَاءَاتِ عِلْمِيَّةٍ مُجْدُولَةً، أُسْبُوعِيَّةً وَشَهْرِيَّةً وَسَنَوِيَّةً.
 - شَارَكَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْتَمَرَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.
 - وَلَآئِهْ يَهْتَمُّ بِالسُّلُوكِ الرَّبُوبِيِّ وَالْجَانِبِ الْوَعْظِيِّ اعْتَنَى بِتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى سُلُوكِ الْمَنْهَجِ الْجَادِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَعَمِلَ عَلَى اسْتِقْطَائِهِمْ وَالصِّرِّ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ وَتَحْمِلِ أَسْئَلَتِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةَ، وَالْاهْتِمَامِ بِأُمُورِهِمْ.
 - وَلِلشَّيْخِ -رَحْمَةُ اللَّهِ- أَعْمَالٌ عَدِيدَةٌ فِي مَيَادِينِ الْحَيْرِ وَأَبْوَابِ الْبِرِّ وَمَجَالَاتِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَكِتَابَةِ الْوَنَائِقِ وَالْعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وَإِسْدَاءِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ.
- مَكَانَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ :**

يُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ -بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَهْ عَظِيمَةً فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ وَاتِّبَاعِهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَبَرِ أَغْوَارِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَانِي وَإِعْرَابًا وَبَلَاغَةً.

وَلَمَّا تَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْجَلِيلَةِ، وَأَخْلَاقِهِمُ الْحَمِيدَةِ، وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحَبَّةً عَظِيمَةً، وَقَدَّرَهُ الْجَمِيعُ كُلَّ التَّقْدِيرِ، وَرَزَقَهُ اللَّهُ الْقَبُولَ لَدَيْهِمْ، وَاطْمَأْنَنُوا لِاخْتِيَارَاتِهِ الْفَقْهِيَّةِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وَفَتَاوَاهُ وَآثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ وَمَوَاعِظِهِ.

وَقَدْ مُنِحَ جَائِزَةُ الْمَلِكِ فَيَّصَل -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- الْعَالِمِيَّةُ لِحُدُومَةِ الْإِسْلَامِ عَامَ (١٤١٤هـ)، وَجَاءَ فِي الْحَيَثِيَّاتِ الَّتِي أَبْدَتْهَا لَجَنَةُ الْاخْتِيَارِ لِمُنْحِهِ الْجَائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحْلِيهِ بِأَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي مِنْ أَبْرَزِهَا: الْوَرَعُ، وَرَحَابَةُ الصَّدْرِ، وَقَوْلُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالنُّصْحُ لِحَاصَتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.
- ثَانِيًا: انْتِفَاعُ الْكَثِيرِينَ بِعِلْمِهِ؛ تَذَرِيسًا وَإِفْتَاءً وَتَأْلِيفًا.

- ثالثًا: إلقاءه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.
- رابعًا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.
- خامسًا: أتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح؛ فكراً وسلوكاً.

عقبه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

توفي -رحمه الله- في مدينة جدة، قبل مغرب يوم الأربعاء، الخامس عشر من شهر شوال، عام (١٤٢١هـ)، وصلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيعته تلك الآلاف من المصلين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة. وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صلي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمه الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خيراً.

القسم العلمي

في مؤسسه الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



مُقدِّمة الشَّارِحِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا بِشَرْحِ (العَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ) الَّتِي أَلْفَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، تَقْرِيرًا عَلَى الطَّلَبَةِ الَّذِينَ دَرَسَوْهَا عَلَيْنَا فِي الْمَسْجِدِ، وَمِنْ أَجْلِ حِرْصِهِمْ عَلَى حِفْظِ التَّقْرِيرِ قَامُوا بِتَسْجِيلِهِ، ثُمَّ تَفَرِغَ كِتَابُهُ مِنْ أَشْرَاطِ التَّسْجِيلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ عِدَّةُ مَكَاتِبٍ نَشْرَ بِطَلَبِ طِبَاعَتِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الشَّرْحُ الْمُتَلَقَّى مِنَ التَّقْرِيرِ لَيْسَ كَالشَّرْحِ الْمَكْتُوبِ بِالتَّخْرِيرِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَعْتَرِيهِ مِنَ النِّقْصِ وَالزِّيَادَةِ مَا لَا يَعْتَرِي الثَّانِي؛ لِذَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُهِّمِّ أَنْ أَقْرَأَ الشَّرْحَ بِتَمَهُّلٍ مِنْ أَجْلِ إخراجِ الشَّرْحِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- وَحَذَفْتُ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَزِدْتُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَنا مِنْ دُعَاةِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِهِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْنِيُّ

١٤١٥/٣/٢٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي يُسَمَّى (الْعَقِيدَةَ الْوَاسِطِيَّةَ) أَلْفَهُ حَبْرُ الْأُمَّةِ فِي زَمَانِهِ: أَبُو الْعَبَّاسِ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَاثِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٨هـ).

ولهذا الرجل من المقامات -التي يشكر عليها والتي نرجو من الله له الثوبة عليها- في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبرها، والحقيقة أنه من نعم الله على هذه الأمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى كف به أموراً عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية.

وَهَذَا الْكِتَابُ كِتَابٌ مُخْتَصَرٌ، يُسَمَّى (الْعَقِيدَةَ الْوَاسِطِيَّةَ) أَلْفَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ حَصَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قُضَاةِ وَاسِطَ، شَكَا إِلَيْهِ مَا كَانَ النَّاسُ يُعَانُونَهُ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُتَحَرِّفَةِ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، فَكَتَبَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الَّتِي تُعَدُّ زُبْدَةَ لَعْقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي خَاصَّ النَّاسُ فِيهَا بِالْبِدْعِ، وَكَثُرَ فِيهَا الْكَلَامُ وَالْقِيلُ وَالْقَالَ.

وَقَبْلَ أَنْ نَبْدَأَ الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ نُحِبُّ أَنْ نُبَيِّنَ أَنْ جَمِيعَ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ - مِنْ أَوَّلِهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ - كُلُّهَا تَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

وذلك أَنَّ الخَلْقَ خُلِقُوا لَوَاحِدٍ، وَهُوَ اللهُ عَزَّجَلَّ، خُلِقُوا لِعِبَادَتِهِ؛ لِتَتَلَقَّ قُلُوبُهُمْ بِهِ؛ تَأْلَهُمْ، وَتَغْظِيَهُمْ، وَخَوْفًا، وَرَجَاءً، وَتَوَكُّلاً، وَرَغْبَةً، وَرَهْبَةً؛ حَتَّى يَنْسَلِخُوا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا لَا يَكُونُ مُعِينًا لَهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّجَلَّ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ مَخْلُوقٌ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَخَالِقِكَ، قَلْبًا وَقَلْبًا فِي كُلِّ شَيْءٍ.

ولهذا كَانَتْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الهَامِّ الْعَظِيمِ؛ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ولم يَكُنِ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ إِلَى الْبَشَرِ يَدْعُونَ إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ كَدَعْوَتِهِمْ إِلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ مُنْكَرِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ قَلِيلُونَ جَدًّا، وَحَتَّى الَّذِينَ يُنْكِرُونَهُ هُمْ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُنْكِرُوهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا قَدْ سَلَبُوا الْعُقُولَ الْمُدْرِكَةَ أَذْنَى إِذْرَاكِ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ يُنْكِرُونَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَكَابَرَةِ.

وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ التَّوْحِيدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ:

وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: فِي الْخَلْقِ، وَالْمُلْكِ، وَالتَّدْبِيرِ.

دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّهُ قَدْ مَّ دَمَ فِيهَا الْخَبَرُ الَّذِي مِنْ حَقِّهِ التَّأْخِيرُ، وَالْقَاعِدَةُ الْبَلَاغِيَّةُ: أَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْحُضَرَ.

ثُمَّ تَأَمَّلِ افْتِتَاحَ هَذِهِ الْآيَةِ بِـ«أَلَا» الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالتَّوْكِيدِ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] لَا لغيره؛ فَالْخَلْقُ هَذَا هُوَ، وَالْأَمْرُ هُوَ التَّدْبِيرُ.

أَمَّا الْمُلْكُ؛ فَدَلِيلُهُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجنات: ٢٧]، فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى انْفِرَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْمُلْكِ، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا سَبَقَ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ.

إِذَنْ؛ فَالرَّبُّ عَزَّجَلَّ مُنْفَرِدٌ بِالْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ مَا قَرَّرْتَ وَبَيْنَ إِبْثَابِ الْخَلْقِ لِعَزْرِ اللَّهِ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ فِي الْمُصَوِّرِينَ: «يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(١)، ومِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»^(٢)، كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِكَ: إِنَّ اللَّهَ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ. وَبَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ؟!

فَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْخَلْقَ هُوَ الْإِبْجَادُ، وَهَذَا خَاصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَمَّا تَحْوِيلُ الشَّيْءِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِخَلْقٍ حَقِيقَةٍ، وَإِنْ سُمِّيَ خَلْقًا بِاعْتِبَارِ التَّكْوِينِ، لَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ لَيْسَ بِخَلْقٍ تَامٍ؛ فَمَثَلًا: هَذَا النَّجَّارُ صَنَعَ مِنَ الْحَشَبِ بَابًا، فَيُقَالُ: خَلَقَ بَابًا. لَكِنَّ مَادَّةَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي خَلَقَهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَهْمَا بَلَّغُوا فِي الْقُدْرَةِ أَنْ يَخْلُقُوا عُدَّ أَرَاكِ أَبَدًا، وَلَا أَنْ يَخْلُقُوا ذَرَّةً، وَلَا أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا.

وَأَسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿الَّذِينَ﴾: اسْمُ مَوْصُولٍ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ وَبَشَرٍ وَمَلَكٍ وَغَيْرِهِ، كُلُّ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٢٣] وَلَوْ انْفَرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ بِذَلِكَ لَكَانَ عَجْزُهُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٢٣] حَتَّى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَوْ سَلَبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْ هَذَا الذُّبَابِ الضَّعِيفِ، وَلَوْ وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَى أَقْوَى مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ، وَمَصَّ مِنْ طَبِيبِهِ لَا يَسْتَطِيعُ هَذَا الْمَلِكُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ الطَّبِيبَ مِنْ هَذَا الذُّبَابِ،

- (١) لما أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لم يدخل بيتا فيه صورة، رقم (٥٩٦١)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يَعْبُدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».
- (٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك لو وَقَعَ عَلَى طَعَامِهِ؛ فَإِذَنْ: اللهُ عَزَّجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ وَخَدَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِكَ: إِنَّ اللهَ مُنْفَرِدٌ بِالْمُلْكِ. وَبَيْنَ إِبْنَاتِ الْمُلْكِ لِلْمَخْلُوقِينَ؛
مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحِشَهُ﴾ [النور: ٦١]، ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأول: أَنَّ مُلْكَ الْإِنْسَانَ لِلشَّيْءِ لَيْسَ عَامًّا شَامِلًا؛ لِأَنِّي أَمْلِكُ مَا تَحْتَ يَدِي، وَلَا
أَمْلِكُ مَا تَحْتَ يَدِكَ، وَالْكُلُّ مِلْكُ اللهِ عَزَّجَلَّ؛ فَمَنْ حَيْثُ الشُّمُولُ: مِلْكُ اللهِ عَزَّجَلَّ أَشْمَلُ
وَأَوْسَعُ، وَهُوَ مِلْكُ تَامٌ.

الثاني: أَنَّ مِلْكَِي لِهَذَا الشَّيْءِ لَيْسَ مِلْكًا حَقِيقِيًّا أَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا أَشَاءُ، وَإِنَّمَا أَتَصَرَّفُ
فِيهِ كَمَا أَمَرَ الشَّرْعُ، وَكَمَا أَذِنَ الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ اللهُ عَزَّجَلَّ، وَلَوْ بَعَثَ دِرْهَمًا يَدْرَهْمَيْنِ لَمْ
أَمْلِكْ ذَلِكَ، وَلَا يَحِلُّ لِي ذَلِكَ؛ فَإِذَنْ مِلْكَِي قَاصِرٌ، وَأَيْضًا لَا أَمْلِكُ فِيهِ شَيْئًا مِنَ النَّاحِيَةِ
الْقَدَرِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّصَرَّفَ لِلَّهِ، فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لِعَبْدِي الْمَرِيضِ: ابْرَأْ. فَيَبْرَأُ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ
أَقُولَ لِعَبْدِي الصَّحِيحِ الشَّحِيحِ: امْرَضْ، فَيَمْرَضُ، لَكِنْ التَّصَرَّفُ الْحَقِيقِيُّ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فَلَوْ
قَالَ لَهُ: ابْرَأْ. بَرَأَ، وَلَوْ قَالَ: امْرَضْ. مَرَضَ؛ فَإِذَنْ لَا أَمْلِكُ التَّصَرَّفَ الْمَطْلَقَ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا؛
فَمِلْكَِي هُنَا قَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ التَّصَرَّفُ، وَقَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ الشُّمُولُ وَالْعُمُومُ، وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ
لَنَا كَيْفَ كَانَ انْفِرَادُ اللهِ عَزَّجَلَّ بِالْمُلْكِ.

وَأَمَّا التَّدْبِيرُ: فَلِلْإِنْسَانِ تَدْبِيرٌ، وَلَكِنْ نَقُولُ: هَذَا التَّدْبِيرُ قَاصِرٌ؛ كَالْوَجْهَيْنِ السَّابِقَيْنِ
فِي الْمُلْكِ، لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ أَمْلِكُ التَّدْبِيرَ فِيهِ، وَإِنَّمَا أَمْلِكُ تَدْبِيرَ مَا كَانَ تَحْتَ حِيَازَتِي وَمِلْكَِي،
وَكَذَلِكَ لَا أَمْلِكُ تَدْبِيرَهُ إِلَّا عَلَىٰ وَفَى الشَّرْعِ الَّذِي أَبَاحَ لِي هَذَا التَّدْبِيرَ.

وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ أَنَّ قَوْلَنَا: «إِنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ مُنْفَرِدٌ بِالْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ»: كُلُّيَّةٌ عَامَّةٌ
مُطْلَقَةٌ، لَا يُسْتَشْنَى مِنْهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا أوردناه لَا يُعَارِضُ مَا ثَبَتَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْ ذَلِكَ.

القِسْمُ الثَّانِي: تَوْحِيدُ الْأَلُوْهِيَّةِ:

وهو إفرادُ الله عَزَّجَلَّ بالعبادة؛ بآلا تكونَ عَبْدًا لغيرِ الله، لا تُعْبُدُ مَلَكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا، وَلَا شَيْخًا، وَلَا أُمَّ، وَلَا أَبًا، لَا تُعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ، فَتَقْرُدُ اللهَ عَزَّجَلَّ وَحْدَهُ بِالتَّأَلُّهِ والتَّعْبُدِ؛ ولهذا يُسَمَّى: تَوْحِيدُ الْأَلُوْهِيَّةِ، وَيُسَمَّى: تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ؛ فباعتبارِ إِضَافَتِهِ إِلَى اللهِ هُوَ تَوْحِيدُ أَلُوْهِيَّةٍ، وباعتبارِ إِضَافَتِهِ إِلَى الْعَابِدِ هُوَ تَوْحِيدُ عِبَادَةٍ.

والْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ، هُمَا الْمَحَبَّةُ وَالتَّعْظِيمُ، النَّاتِجُ عَنْهُمَا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يُسَبِّحُكَ فِي الْخَبَرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا ﴿[الأنبياء: ٩٠]﴾، فَبِالْمَحَبَّةِ تَكُونُ الرَّغْبَةُ، وَبِالتَّعْظِيمِ تَكُونُ الرَّهْبَةُ وَالْخَوْفُ.

ولهذا كَانَتِ الْعِبَادَةُ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي: أَوَامِرُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الرَّغْبَةِ وَطَلِبِ الْوُصُولِ إِلَى الْأَمْرِ، وَنَوَاهٍ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالرَّهْبَةِ مِنْ هَذَا الْعَظِيمِ.

فَإِذَا أَحْبَبَتِ اللهَ عَزَّجَلَّ رَغِبْتَ فِيْمَا عِنْدَهُ، وَرَغِبْتَ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَطَلَبْتَ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَقُمْتَ بِطَاعَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ.

وَإِذَا عَظَّمْتَهُ؛ خِفْتَ مِنْهُ، كُلَّمَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ اسْتَشْعَرْتَ عَظَمَةَ الْخَالِقِ عَزَّجَلَّ، فَتَقَرَّرْتَ ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَدًّا بُرْهَنَ رَبِّي﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴿[يوسف: ٢٤]﴾، فَهَذِهِ مِنْ نِعْمَةِ اللهَ عَلَيْكَ؛ إِذَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ وَجَدْتَ اللهَ أَمَامَكَ، فَهَبْتَ وَخِفْتَ وَتَبَاعَدْتَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّكَ تَعْبُدُ اللهَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً.

فَمَا مَعْنَى الْعِبَادَةِ؟

الْعِبَادَةُ: تُطْلَقُ عَلَى أَمْرَيْنِ، عَلَى الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ.

تُطْلَقُ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ التَّعْبُدُ، فيقالُ: عَبْدَ الرَّجُلِ رَبَّهُ عِبَادَةً وَتَعْبُدًا، وَإِطْلَاقُهَا عَلَى التَّعْبُدِ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَصْدَرِ عَلَى الْمَصْدَرِ.

وَنَعْرِفُهَا بِاعْتِبَارِ إِطْلَاقِهَا عَلَى الْفِعْلِ بِأَنَّهَا: التَّذَلُّلُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ حُبًّا وَتَعْظِيمًا، بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. وَكُلُّ مَنْ ذَلَّ لِلَّهِ عَزَّ بِاللَّهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْغَنَرَةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ﴿[المنافقون: ٨]﴾.

وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَفْعُولِ؛ أَيِ: الْمُتَعَبَّدِ بِهِ، وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى تُعْرَفُ بِمَا عَرَفَهَا بِهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ؛ حَيْثُ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ»^(١).

هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي تَعَبَّدْنَا اللَّهَ بِهِ يَجِبُ تَوْحِيدُ اللَّهِ بِهِ، لَا يُصْرَفُ لغيرِهِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالدُّعَاءِ وَالنَّذْرِ وَالْحَشْيَةِ وَالتَّوَكُّلِ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُنْفَرِدٌ بِالْأُلُوْهِيَّةِ؟ فَالْجَوَابُ: هُنَاكَ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَأَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ الْعِلْمِ إِلَّا هَذِهِ الْمُنْقَبَةُ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ مَا أَخْبَرَ أَنَّ أَحَدًا شَهِدَ بِالْأُلُوْهِيَّةِ إِلَّا أُولُو الْعِلْمِ، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] بِالْعَدْلِ، ثُمَّ قَرَّرَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

هَذِهِ الشَّهَادَةُ الْحَقُّ؛ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تُقَرِّوْنَهَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْشِئُ إِلَهَةً غَيْرَهُ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وَمِثْلُ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿أَيْفَاكَ ءَالِهَةٌ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ؛ كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ أُلُوهُيَّةَ مَا سِوَى اللَّهِ أُلُوهُيَّةٌ بَاطِلَةٌ، مُجَرَّدُ تَسْمِيَةٍ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، فَأُلُوهُيَّتُهَا بَاطِلَةٌ، وَهِيَ وَإِنْ عُذْتُ وَتَأَلَّهَ إِلَيْهَا مَنْ ضَلَّ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ أَهْلًا لِأَنْ تُعْبَدَ؛ فَهِيَ أَهْلَةٌ مَعْبُودَةٌ، لَكِنَّهَا أَهْلَةٌ بَاطِلَةٌ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وَهَذَانِ النَّوعَانِ مِنَ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ لَا يَجْعَلُهُمَا وَلَا يُكْرِهُمَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ الْمُتَسَيِّينَ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُوَحَّدٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهُيَّةِ، لَكِنْ حَصَلَ فِيهَا بَعْدُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ ادَّعَى أُلُوهُيَّةَ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ؛ كَغُلَاةِ الرَّافِضَةِ مَثَلًا، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَلِيًّا إِلَهٌ؛ كَمَا صَنَعَ زَعِيمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَّأٍ؛ حَيْثُ جَاءَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ اللَّهُ حَقًّا! لَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَّأٍ أَصْلُهُ يَهُودِيٌّ، دَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَى النَّشِيعِ لَالِ الْبَيْتِ؛ لِيُفْسِدَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ دِينَهُمْ؛ كَمَا قَالَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا صَنَعَ كَمَا صَنَعَ بُولِصُ حِينَ دَخَلَ فِي دِينِ النَّصَارَى لِيُفْسِدَ دِينَ النَّصَارَى»^(١).

هَذَا الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَّأٍ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْتَ اللَّهُ حَقًّا! وَعَلِيِّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَا يَرْضَى أَنْ أَحَدًا يُنْزِلُهُ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ هُوَ، حَتَّى إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ إِنْصَافِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَخَبَرَتِهِ كَانَ يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ»^(٢)، يُعْلِنُ ذَلِكَ فِي الْحُطْبَةِ، وَقَدْ تَوَاتَرَ النُّقْلُ عَنْهُ بِذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي يَقُولُ هَكَذَا وَيَقْرَأُ بِالْفَضْلِ لِأَهْلِهِ مِنَ الْبَشَرِ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَقُولَ لَهُ قَائِلٌ: إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ؟! وَلِهَذَا عَزَّرَهُم

(١) أَخْرَجَهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٢٨٢٣) عن الشعبي، وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (١/ ٢٩)، وأشار إلى من أخرجه من العلماء.

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «المسند» (١/ ١١٠) وَفِي «فضائل الصحابة» رقم (٤٠)، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي الْمَقْدَمَةِ، بَابُ فِي فَضَائِلِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (١٠٦)، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السنة» (٢/ ٥٧٠)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْحَدِيثُ أَصْلُهُ فِي «صحيح البخاري»: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مَتَخِذًا خَلِيلًا»، رَقْمُ (٣٦٧١)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ.

أَبْسَعَ تَعْزِيرٍ؛ أَمَرَ بِالْأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ، ثُمَّ مِلَّتْ حَطَبًا، وَأَوْقَدَتْ، ثُمَّ أَتَى بِهِؤُلَاءِ فَقَدَهُمْ فِي النَّارِ وَأَحْرَقَهُمْ بِهَا؛ لِأَنَّ فِرْيَتَهُمْ عَظِيمَةٌ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَلَيْسَتْ هَيْئَةً. وَيُقَالُ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَبَّأٍ هَرَبَ وَلَمْ يُنْسِكُوهُ. الْمُهْمُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْرَقَ السَّبْيِيَّةَ بِالنَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ أَدَعَوْا فِيهِ الْأُلُوهِيَّةَ.

فَنَقُولُ: كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لَا يُنْكِرُونَ هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ مِنَ التَّوْحِيدِ: وَهُمَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي بَعْضِ أَهْلِ الْبِدْعِ مَنْ يُؤَلِّهُ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ.

لَكِنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ التَّرَاغُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ هُوَ:

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

هَذَا هُوَ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الْخَوْضُ، فَانْقَسَمَ النَّاسُ فِيهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، وَهَمُ: مُثَلٌّ، وَمُعْطَلٌّ، وَمُعْتَدِلٌّ. وَالْمُعْطَلُّ: إِمَّا مَكْذَبٌ، أَوْ مُحَرَّفٌ.

وَأَوَّلُ بِدْعَةٍ حَدَّثَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ هِيَ بِدْعَةُ الْخَوَارِجِ؛ لِأَنَّ زَعِيمَهُمْ خَرَجَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، حِينَ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ ذُهَيْبَةً جَاءَتْ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ هَذَا الرَّجُلُ: يَا مُحَمَّدُ! اعْدِلْ! ^(١) فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ خُرُوجٍ خَرَجَ بِهِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ثُمَّ عَظُمَتْ فَنَشَتْهُمْ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ، وَفِي الْفِتْنَةِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ، فَكَفَرُوا الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَحْلَوْا دِمَاءَهُمْ.

ثُمَّ حَدَّثَتْ بِدْعَةُ الْقَدَرِيَّةِ بِجُوسِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَقْدِرْ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، وَلَيْسَتْ دَاخِلَةٌ تَحْتَ مَشِيَّتِهِ، وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، بَلْ كَانَ زُعْمَاؤُهُمْ وَغُلَاظَتُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لِلَّهِ، وَلَا مَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُ النَّاسُ إِلَّا إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَمْرَ أَنْفٌ؛ أَيُّ: مُسْتَأْنَفٌ، وَهَؤُلَاءِ أَذْرَكُوا آخِرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) (١٤٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَصِرِ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ أَدْرَكُوا زَمَنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَجَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ، لَكِنَّهُ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ.

ثُمَّ حَدَّثَتْ بِدْعَةُ الْإِزْجَاءِ، وَأَدْرَكَتْ زَمَنَ كَثِيرٍ مِنَ التَّابِعِينَ، وَالْمُرْجِئَةِ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا تَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ مَعْصِيَةٌ! أَنْتَ مُؤْمِنٌ؟ تَقُولُ: نَعَمْ. يَقُولُ لَكَ: لَا تَضُرُّكَ الْمَعْصِيَةُ مَعَ الْإِيمَانِ؛ تَزْنِي، وَتَسْرِقُ، وَتَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَتَقْتُلُ! مَا دُمْتَ مُؤْمِنًا؛ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ الْإِيمَانِ وَإِنْ فَعَلْتَ كُلَّ مَعْصِيَةٍ!.

لَكِنْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِنَّ كَلَامَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِئَةِ حِينَ رَدَّهُ بَقَايَا الصَّحَابَةِ كَانَ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْفَاسِقِ، لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي رَبِّهِمْ وَصِفَاتِهِ.

فَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ! مِمَّنْ يَدْعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَحْيِ، فَقَالُوا قَوْلًا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ -قَوْلِ الْمُرْجِئَةِ وَقَوْلِ الْخَوَارِجِ- قَالُوا: الَّذِي يَفْعَلُ الْكَبِيرَةَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ كَمَا قَالَهُ الْمُرْجِئَةُ، وَلَيْسَ بِكَافِرٍ كَمَا قَالَهُ الْخَوَارِجُ، بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ؛ كَرَجُلٍ سَافَرَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى أُخْرَى، فَصَارَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ؛ فَلَا هُوَ فِي مَدِينَتِهِ، وَلَا فِي الْآخَرِ، سَافَرَ إِلَيْهَا، بَلْ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ، هَذَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ؛ فَهُمْ يُوَفِّقُونَ الْخَوَارِجَ فِي الْآخِرَةِ، لَكِنْ فِي الدُّنْيَا يُخَالِفُونَهُمْ.

ظَهَرَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ وَانْتَشَرَتْ، ثُمَّ حَدَّثَتْ بِدْعَةُ الظُّلْمَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَهِيَ بِدْعَةُ جَهْمِ ابْنِ صَفْوَانَ وَاتَّبَاعِهِ، وَيُسَمَّوْنَ الْجَهْمِيَّةَ، حَدَّثَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ، وَهِيَ لَا تَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ؛ مُؤْمِنٌ أَمْ كَافِرٌ أَمْ فَاسِقٌ، وَلَمْ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ؟ بَلْ تَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْخَالِقِ.

انْظُرْ كَيْفَ تَدَرَجَتِ الْبِدْعُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْخَالِقِ جَدِّ وَعَلَا، وَجَعَلُوا الْخَالِقَ بِمَنْزِلَةِ الْمَخْلُوقِ؛ يَقُولُونَ كَمَا شَاؤُوا، فَيَقُولُونَ: هَذَا ثَابِتٌ لِلَّهِ، وَهَذَا غَيْرُ ثَابِتٍ، هَذَا يَقْبَلُ الْعَقْلُ أَنْ يَتَّصِفَ اللَّهُ بِهِ، وَهَذَا لَا يَقْبَلُ الْعَقْلُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ؛ فَحَدَّثَتْ بِدْعَةُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِّلَةِ، فَانْقَسَمُوا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ إِلَى أَقْسَامٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

١- قَسَمَ قَالُوا: لَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ نَصِفَ اللَّهَ لَا بِوُجُودٍ وَلَا بِعَدَمٍ؛ لِأَنَّهُ إِنْ وُصِفَ بِالْوُجُودِ؛ أَشْبَهَ الْمَوْجُودَاتِ، وَإِنْ وُصِفَ بِالْعَدَمِ؛ أَشْبَهَ الْمَعْدُومَاتِ، وَعَلَيْهِ يَجِبُ نَفْيُ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ عَنْهُ. وَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ فَهُوَ تَشْبِيهٌُ لِلخَالِقِ بِالْمُتَتَعَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ؛ لِأَنَّ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْوُجُودِ تَقَابُلٌ تَقْيِصَيْنِ، وَالنَّقِيضَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفَعَانِ، وَكُلُّ عَقُولٍ بَنِي آدَمَ تُنْكِرُ هَذَا الشَّيْءَ وَلَا تَقْبَلُهُ؛ فَاَنْظُرْ كَيْفَ قَرَأُوا مِنْ شَيْءٍ فَوْقَهُوا فِي أَشَرِّ مِنْهُ!

٢- وَقَسَمَ آخَرُ قَالُوا: نَصِفُهُ بِالنَّفْيِ وَلَا نَصِفُهُ بِالْإِنْبَاتِ؛ يَعْنِي: أَتَاهُمْ يَجُوزُونَ أَنْ تُسَلَبَ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصِّفَاتُ، لَكِنْ لَا تُثَبَّتْ؛ يَعْنِي: لَا نَقُولُ: هُوَ حَيٌّ. وَإِنَّمَا نَقُولُ: لَيْسَ بِمَيِّتٍ! وَلَا نَقُولُ: عَلِيمٌ. بَلْ نَقُولُ: لَيْسَ بِجَاهِلٍ... وَهَكَذَا.

قَالُوا: لَوْ أَثَبَّتَ لَهُ شَيْئًا؛ شَبَّهَتْهُ بِالْمَوْجُودَاتِ؛ لِأَنَّهُ -عَلَى رَعِيهِمْ- كُلُّ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ مُشَابِهَةٌ؛ فَانْتِ لَا تُثَبَّتْ لَهُ شَيْئًا، وَأَمَّا النَّفْيُ فَهُوَ عَدَمٌ. مَعَ أَنَّ الْمَوْجُودَ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ مِنَ الْإِنْبَاتِ أَكْثَرُ مِنَ النَّفْيِ بِكَثِيرٍ.

قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: سَمِعٌ بَصِيرٌ!

قَالُوا: هَذَا مِنْ بَابِ الْإِضَافَاتِ؛ بِمَعْنَى: تُسَبِّحُ إِلَيْهِ السَّمْعُ، لَا لِأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّ لَهُ مَخْلُوقًا يَسْمَعُ؛ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْإِضَافَاتِ؛ (فَسَمِعٌ) يَعْنِي: لَيْسَ لَهُ سَمْعٌ، لَكِنْ لَهُ مَسْمُوعٌ. وَجَاءَ طَائِفَةٌ ثَانِيَةٌ، قَالُوا: هَذِهِ الْأَوْصَافُ لِمَخْلُوقَاتِهِ، وَلَيْسَتْ لَهُ، أَمَّا هُوَ فَلَا يُثَبَّتُ لَهُ صِفَةٌ.

٣- وَقَسَمَ ثَالِثٌ قَالُوا: يُثَبَّتُ لَهُ الْأَسْمَاءُ دُونَ الصِّفَاتِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزَلَةُ، أَثَبَّتُوا أَسْمَاءَ اللَّهِ؛ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سَمِعٌ بَصِيرٌ قَدِيرٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ... لَكِنْ قَدِيرٌ بِلَا قُدْرَةٍ، سَمِعٌ بِلَا سَمْعٍ، بَصِيرٌ بِلَا بَصَرٍ، عَلِيمٌ بِلَا عِلْمٍ، حَكِيمٌ بِلَا حِكْمَةٍ.

٤- وَقَسَمَ رَابِعٌ قَالُوا: تُثَبَّتُ لَهُ الْأَسْمَاءُ حَقِيقَةً، وَتُثَبَّتُ لَهُ صِفَاتٌ مُعَيَّنَةٌ دَلَّ عَلَيْهَا الْعَقْلُ، وَنُنْكِرُ الْبَاقِي؛ تُثَبَّتُ لَهُ سَبْعُ صِفَاتٍ فَقَطْ، وَالْبَاقِي نُنْكِرُهُ تَحْرِيفًا لَا تَكْذِيبًا؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَنْكَرُوهُ تَكْذِيبًا كَفَرُوا، لَكِنْ يُنْكِرُونَهُ تَحْرِيفًا، وَهُوَ مَا يَدْعُونَ أَنَّهُ «تَأْوِيلٌ».

الصفات السبع هي مجموعة في قوله:

لَهُ الْحَيَاةُ وَالْكَلَامُ وَالْبَصَرُ سَمِعُ إِرَادَةً وَعِلْمٌ وَاقْتَدَرُ^(١)

فهذه الصفات نُسبتُها؛ لأنَّ العقلَ دَلٌّ عليها، وبقيَّةُ الصفاتِ ما دَلَّ عليها العقلُ، فثبتَ ما دَلَّ عليه العقلُ، ونكِرُ ما لَمْ يَدَلَّ عليه العقلُ، وهؤلاءُ همُ الأشاعرةُ؛ آمنوا بالبعثِ وأنكروا البعْضَ.

فهذه أقسامُ التَّعطيلِ في الأسماءِ والصفاتِ، وكلُّها مُتَفَرِّعةٌ مِنْ بِدْعَةِ الجَهمِ «وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

فالحاصلُ أنَّكم -أيُّها الإخوة- لو طالَعتُم في كُتُبِ القَوْمِ الَّتِي تَعْتَنِي بِجَمْعِ أَقَاوِيلِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ لَرَأَيْتُمُ الْعَجَبَ الْعُجَابَ، الَّذِي يَقُولُونَ: كَيْفَ يَتَقَوَّهَ عَاقِلٌ -فَضْلاً عَنْ مُؤْمِنٍ- بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ؟! ولكنَّ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَهَذَا لَهُ مِنْ نُورٍ! الَّذِي أَعْمَى اللَّهُ بَصِيرَتَهُ كَالَّذِي أَعْمَى اللَّهُ بَصَرَهُ؛ فَكَيْفَا أَنْ أَعْمَى الْبَصَرَ لَوْ وَقَفَ أَمَامَ الشَّمْسِ الَّتِي تَكْسِرُ نُورَ الْبَصَرِ لَمْ يَرَهَا؛ فَكَذَلِكَ مَنْ أَعْمَى اللَّهُ بَصِيرَتَهُ لَوْ وَقَفَ أَمَامَ أَنْوَارِ الْحَقِّ مَا رَأَاهَا وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

ولهذا يَنْبَغِي لَنَا دَائِمًا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى الْأَمْرِ، وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ خَطِيرًا، وَالشَّيْطَانَ يَدْخُلُ عَلَى ابْنِ آدَمَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَمِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَيُشَكِّكُهُ فِي عَقِيدَتِهِ، وَفِي دِينِهِ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَهَذِهِ فِي الْحَقِيقَةِ الْبِدْعُ الَّتِي انْتَشَرَتْ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

ولكن -واللهِ الحمدُ- مَا ابْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ مَنْ يُبَيِّنُ هَذِهِ الْبِدْعَةَ، وَيَذْهَبُهَا بِالْحَقِّ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ مَذْهُولِ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

(١) العقيدة السفارينية (ص: ٥٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩]، هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لِهَذَا الدَّكْرِ، وَهَذَا أَيْضًا هُوَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَالرَّسَالَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى فِي الْأَرْضِ، وَإِلَّا لَكَانَ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ، وَإِذَا كَانَتِ الرَّسَالَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى فِي الْأَرْضِ؛ لَزِمَ أَنْ يَقْبِضَ اللَّهُ عَزَّجَلْ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ عِنْدَ كُلِّ بَدْعَةٍ مِنْ يُبَيِّنُهَا وَيَكْشِفُ عَوْرَهَا، وَهَذَا هُوَ الْحَاصِلُ؛ وَلِهَذَا أَقُولُ لَكُمْ دَائِمًا: احْرُصُوا عَلَى الْعِلْمِ؛ لِأَنَّا فِي هَذَا الْبَلَدِ فِي مُسْتَقْبَلِ إِذَا لَمْ تَنْسَلَخْ بِالْعِلْمِ الْمُبِينِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَحِلَّ بِنَا مَا حَلَّ فِي غَيْرِنَا مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذَا الْبَلَدُ الْآنَ هُوَ الَّذِي يَرَكُزُ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَيُسَلِّطُونَ عَلَيْهِ سِهَامَهُمْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُضِلُّوا أَهْلَهَا؛ فَلذَلِكَ تَسَلِّحُوا بِالْعِلْمِ؛ حَتَّى تَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ، وَحَتَّى تَكُونُوا مُجَاهِدِينَ بِالسِّيِّئَاتِ وَأَفْلَامِكُمْ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكُلُّ هَذِهِ الْبِدَعِ انْتَشَرَتْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ؛ فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَبْحَثُونَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَعَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةُ، وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ سَلِيمَةٌ، لَكِنْ أَتَى هَؤُلَاءِ الْمُتَبَدِّعُونَ، فَابْتَدَعُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مَا ابْتَدَعُوا: إِمَّا لِقَلَّةِ عِلْمِهِمْ، أَوْ لِقُصُورِ فَهْمِهِمْ، أَوْ لِسُوءِ قُضْدِهِمْ، فَأَفْسَدُوا الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْبِدَعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا، وَلَكِنْ كَمَا قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَمِنَّتِهِ وَفَضْلِهِ مَا مِنْ بَدْعَةٍ خَرَجَتْ إِلَّا قَبِضَ اللَّهُ لَهَا مَنْ يَدْخُضُهَا وَيُبَيِّنُهَا.

وَمِنْ جُمْلَةِ الَّذِينَ بَيَّنُّوا الْبِدَعَ وَقَامُوا قِيَامًا تَامًا بِدَخْضِهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَسْأَلَ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي نَفَعَ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَنْ عَلَى الْأُمَّةِ بِمِثْلِهِ أَلْفَ هَذِهِ (الْعَقِيدَةِ) كَمَا قُلْتُ إِبْجَابَةً لَطَلَبِ أَحَدِ قُضَاةِ وَاسِطَ، الَّذِي شَكَا إِلَيْهِ مَا كَانَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِدَعِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُؤَلِّفَ هَذِهِ «الْعَقِيدَةَ» فَأَلَّفَهَا.



شَرْحُ مُقَدِّمَةِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ

❖ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»:

الشرح:

الْبَدَأَةُ بِالسَّمْلَةِ هِيَ شَأْنُ جَمِيعِ الْمُؤَلِّفِينَ؛ اقْتِدَاءً بَكِتَابِ اللَّهِ؛ حَيْثُ أُنْزِلَ الْبَسْمَلَةُ فِي ابْتِدَاءِ كُلِّ سُورَةٍ، وَاسْتِنَادًا إِلَى سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَإِعْرَابُ السَّمْلَةِ وَمَعْنَاهَا تَكَلَّمَ فِيهِ النَّاسُ كَثِيرًا، وَفِي مُتَعَلِّقِهَا، وَأَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ مُتَأَخِّرٍ مُنَاسِبٌ لِلْمَقَامِ؛ فَإِذَا قَدَمْتَهَا بَيْنَ يَدَيِ الْاَكْلِ؛ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: بِسْمِ اللَّهِ أَكُلْ، وَبَيْنَ يَدَيِ الْقِرَاءَةِ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأْ.

نُقَدِّرُهُ فِعْلًا؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَمَلِ الْأَفْعَالُ لَا الْأَسْمَاءُ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَفْعَالُ تَعْمَلُ بِلَا شَرْطٍ، وَالْأَسْمَاءُ لَا تَعْمَلُ إِلَّا بِشَرْطٍ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ أَصْلٌ فِي الْأَفْعَالِ، فَرُغَ فِي الْأَسْمَاءِ.

وَنُقَدِّرُهُ مُتَأَخِّرًا لِفَائِدَتَيْنِ:

الْأُولَى: الْحَضَرُ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْحَضَرَ، فَيَكُونُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأْ، بِمَنْزِلَةِ: لَا أَقْرَأُ إِلَّا بِاسْمِ اللَّهِ.

الثَّانِيَةُ: تَيْمُّنًا بِالْبَدَأَةِ بِاسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَنُقَدِّرُهُ خَاصًّا؛ لِأَنَّ الْخَاصَّ أَدْلُ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْعَامِّ؛ إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَقُولَ: التَّقْدِيرُ: بِاسْمِ اللَّهِ أُبْتَدِئُ، لَكِنْ (بِاسْمِ اللَّهِ أُبْتَدِئُ) لَا تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ الْمَقْصُودِ، لَكِنْ (بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ) خَاصٌّ، وَالْخَاصُّ أَدْلُ عَلَى الْمَعْنَى مِنَ الْعَامِّ.

«اللَّهُ» عَلَّمَ عَلَى نَفْسِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمَعْنَاهُ: الْمَأْلُوءُ؛ أَيِ: الْمَعْبُودُ حُبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَهُوَ مُشْتَقٌّ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ

سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴿[الأنعام: ٣]، فَإِنَّ ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ؛ يَعْنِي: وَهُوَ الْمَالُوءُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ.

«الرَّحْمَنُ» فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ؛ لِأَنَّ (فَعْلَان) فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ وَالْإِمْتِلَاءِ؛ كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ غَضْبَانٌ. إِذَا امْتَلَأَ غَضَبًا.

«الرَّحِيمُ»: اسْمٌ يَدُلُّ عَلَى الْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ فِعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، فَهُوَ دَالٌّ عَلَى الْفِعْلِ.

فِيَجْتَمِعُ مِنَ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، وَأَنَّهَا وَاصِلَةٌ إِلَى الْخَلْقِ. وَهَذَا هُوَ مَا أَوْمَأَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: الرَّحْمَنُ رَحْمَةً عَامَّةً، وَالرَّحِيمُ رَحْمَةً خَاصَّةً بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْكَافِرِ رَحْمَةً خَاصَّةً فِي الدُّنْيَا فَقَطْ؛ فَكَأَنَّهَا لَا رَحْمَةَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ إِذَا سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاعْتَرَفَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَبْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فَلَا تَدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ، بَلْ يَدْرِكُهُمُ الْعَذْلُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلْ لَهُمْ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

* قَوْلُهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

الشرح:

قَوْلُهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ»: اللَّهُ تَعَالَى يُحْمَدُ عَلَى كِبَالِهِ عَزَّجَلَّ وَعَلَى إِنْعَامِهِ؛ فَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ كَامِلُ الصِّفَاتِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَنُحْمَدُهُ أَيْضًا لِأَنَّهُ كَامِلُ الْإِنْعَامِ وَالْإِحْسَانِ: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا مَسَّكُمْ أَلْصَقُ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وَأَكْبَرُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْخَلْقِ إِزْسَالُ الرَّسُولِ الَّذِي بِهِ هِدَايَةُ الْخَلْقِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ».

وَالْمُرَادُ بِالرَّسُولِ هُنَا الْجِنْسُ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ أُرْسِلُوا بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الرِّسَالََةَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنَّهُ قَدْ خَتَمَ اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَتَمَّ بِهِ الْبِنَاءُ؛ كَمَا وَصَفَ

النَّبِيِّ ﷺ نَفْسَهُ بِالنِّسْبَةِ لِلرُّسُلِ؛ كَرَجُلٍ بَنَى قَصْرًا وَأُمَّةً إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ، فَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ؛ إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ؛ يَقُولُ: «فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» ^(١) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: «بِالْهُدَى»: الْبَاءُ هُنَا لِلْمَصَاحِبَةِ، وَالْهُدَى هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ؛ أَيُ: إِنَّ الْمُرْسَلَ بِهِ هُوَ الْهُدَى وَدِينُ الْحَقِّ.

و«دِينِ الْحَقِّ» هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ الْعَمَلُ أَوْ الْجَزَاءُ عَلَى الْعَمَلِ، فَمِنْ إِطْلَاقِهِ عَلَى الْعَمَلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَسَلْتُكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَمِنْ إِطْلَاقِهِ عَلَى الْجَزَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]، وَالْحَقُّ ضِدُّ الْبَاطِلِ، وَهُوَ - أَيُ: الْحَقُّ - الْمُتَضَمِّنُ لَجُلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ.

قَوْلُهُ: «يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ، وَمَعْنَى «يُظْهِرُهُ» أَيُ: يُعْلِيهِ؛ لِأَنَّ الظُّهُورَ بِمَعْنَى الْعُلُوءِ، وَمَنْهُ: ظَهَرَ الدَّابَّةُ: أَعْلَاهَا، وَمَنْهُ: ظَهَرَ الْأَرْضُ: سَطْحُهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّتِهِ﴾ [فاطر: ٤٥].

وَالِهَاءُ فِي «يُظْهِرُهُ» هَلْ هُوَ عَائِدٌ عَلَى الرَّسُولِ أَوْ عَلَى الدِّينِ؟

إِنْ كَانَ عَائِدًا عَلَى «دِينِ الْحَقِّ» فَكُلُّ مَنْ قَاتَلَ لِدِينِ الْحَقِّ سَيَكُونُ هُوَ الْعَالِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «يُظْهِرُهُ» يُظْهِرُ هَذَا الدِّينَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَعَلَى مَا لَا دِينَ لَهُ، فَيُظْهِرُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَدِينُ أَحَبُّ مَنْ يَدِينُ بَاطِلًا؛ فَإِذَنْ: كُلُّ الْأَدْيَانِ الَّتِي يَزْعُمُ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ سَيَكُونُ دِينُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهَا ظَاهِرًا، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

وَإِنْ كَانَ عَائِدًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّمَا يُظْهِرُ اللَّهُ رَسُولَهُ؛ لِأَنَّ مَعَهُ دِينَ الْحَقِّ.

وَعَلَى كَيْلَا التَّقْدِيرَيْنِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَذَا الدِّينِ الْحَقِّ؛ فَهُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي، وَمَنْ ابْتَغَى الْعِزَّةَ فِي غَيْرِهِ؛ فَقَدْ ابْتَغَى الدَّلَّ؛ لِأَنَّهُ لَا ظُهورَ وَلَا عِزَّةَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا بِالْدِّينِ الْحَقِّ؛ وَلِهَذَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، رَقْمُ (٣٥٣٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ كَوْنِهِ ﷺ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، رَقْمُ (٢٢٨٦)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَنَا أَدْعُوكُمْ مَعْتَرِ الْإِخْوَةَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللَّهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ،
وَفِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ؛ حَتَّى تَقُومَ الْمِلَّةُ وَتُسْتَقِيمَ الْأُمَّةُ.

قَوْلُهُ: «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»: يَقُولُ أَهْلُ اللُّغَةِ: إِنَّ الْبَاءَ هُنَا زَائِدَةٌ؛ لِتَحْسِينِ اللَّفْظِ وَالْمُبَالَغَةِ
فِي الْكِفَايَةِ، وَأَصْلُهَا: «وَكَفَى اللَّهُ».

و«شَهِيدًا»: تَمَيِّزُ مُحَوَّلٍ عَنِ الْفَاعِلِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا «وَكَفَتْ شَهَادَةُ اللَّهِ».

الْمَوْلُفُ جَاءَ بِالْآيَةِ؛ وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا مُنَاسَبَةٌ «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» لِقَوْلِهِ: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ»؟

قِيلَ: الْمُنَاسَبَةُ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ يَدْعُو النَّاسَ وَيَقُولُ: مَنْ
أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ^(١). وَيَقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ: مَنْ أَطَاعَنِي سَأَلَمْتُهُ،
وَمَنْ عَصَانِي حَارَبْتُهُ. وَيُحَارِبُ النَّاسَ بِهَذَا الدِّينِ، وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ
وَذُرِّيَّتَهُمْ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَنْصُورٌ مُؤَزَّرٌ غَالِبٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ؛ فَهَذَا التَّمَكِينُ لَهُ فِي الْأَرْضِ؛ أَيْ:
تَمَكِينُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فِي الْأَرْضِ: شَهَادَةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَعَلَيْهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّ دِينَهُ حَقٌّ؛ لِأَنَّ كُلَّ
مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَمَأَلُهُ الْخِذْلَانُ وَالزَّوَالُ وَالْعَدَمُ، وَانْظُرْ إِلَى الَّذِينَ ادَّعَوْا النُّبُوَّةَ مَاذَا كَانَ
مَأَلُهُمْ؟ أَنْ تُسُوا وَأَهْلِكُوا؛ كَمُسْلِمَةِ الْكَذَّابِ، وَالْأُسُودِ الْعَنَسِيِّ... وَغَيْرِهِمَا مَنِ ادَّعَا النُّبُوَّةَ،
كُلُّهُمْ تَلَاشُوا، وَبَانَ بَطْلَانُ قَوْلِهِمْ، وَحُرِمُوا الصَّوَابَ وَالسَّدَادَ.

لَكِنَّ هَذَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَكْسِ، دَعَا إِلَى الْإِنِّ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - بَاقِيَةً، وَنَسَأَلُ اللَّهَ
أَنْ يُبَيِّنَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَيْهَا، دَعَا إِلَى الْإِنِّ بَاقِيَةً، وَإِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، ثَابِتَةً رَاسِخَةً، يُسْتَبَاحُ
بِدَعَايِهِ إِلَى الْيَوْمِ دِمَاءُ مَنْ نَأَوَّاهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَأَمْوَالُهُمْ، وَنُسَبَى نِسَائُهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ^(٢)، هَذِهِ

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)،
من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أَمْتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

(٢) لما أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب «إِنَّ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»، رقم (٢٥)،
ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، رقم (٢٢)، من حديث عمر

الشَّهَادَةُ فِعْلِيَّةٌ، مَا أَخَذَهُ اللهُ وَلَا فَضَحَهُ وَلَا كَذَّبَهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

﴿ قَوْلُهُ: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا». ﴾

الشرح:

«أَشْهَدُ» بِمَعْنَى: أَقْرُ بِقَلْبِي نَاطِقًا بِلِسَانِي؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تُنْطَقُ وَإِخْبَارٌ عَمَّا فِي الْقَلْبِ؛ فَأَنْتَ عِنْدَ الْقَاضِي تَشْهَدُ بِحَقِّ فُلَانٍ عَلَى فُلَانٍ، تَشْهَدُ بِاللِّسَانِ الْمُعْبَّرِ عَمَّا فِي الْقَلْبِ، وَاخْتِيرَتْ الشَّهَادَةُ دُونَ الْإِقْرَارِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ أَصْلُهَا مِنْ شُهُودِ الشَّيْءِ؛ أَيُّ: حُضُورِهِ وَرُؤْيَايِهِ، فَكَأَنَّ هَذَا الْمُخْبِرَ عَمَّا فِي قَلْبِهِ النَّاطِقُ بِلِسَانِهِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُ الْأَمْرَ بَعَيْنِهِ.

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أَيُّ: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ خَبَرُ (لَا) مَحْدُوفًا، وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ بَدَلًا مِنْهُ.

«وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»: «وَحْدَهُ»: هِيَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى تَوْكِيدٌ لِلْإِثْبَاتِ «لَا شَرِيكَ لَهُ»: تَوْكِيدٌ لِلنَّفْيِ.

«إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا»: «إِقْرَارًا» هَذِهِ مَصْدَرٌ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ مَعْنَوِيٌّ لِقَوْلِهِ: «أَشْهَدُ»، وَأَهْلُ النَّحْوِ يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْفِعْلِ دُونَ حُرُوفِهِ؛ فَهُوَ مَصْدَرٌ مَعْنَوِيٌّ، أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَإِذَا كَانَ بِمَعْنَاهُ وَحُرُوفِهِ فَهُوَ مَصْدَرٌ لَفْظِيٌّ. فَ: قُمْتُ قِيَامًا: مَصْدَرٌ لَفْظِيٌّ، وَ: قُمْتُ وَقُوفًا: مَصْدَرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَ: جَلَسْتُ جُلُوسًا: لَفْظِيٌّ، وَ: جَلَسْتُ قُعُودًا: مَعْنَوِيٌّ.

وَقَوْلُهُ: «وَتَوْحِيدًا»: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِقَوْلِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

== رَحِمَهُ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ؛ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابِهِمْ عَلَى اللهِ».

﴿ قَوْلُهُ: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

الشرح:

نقول في «أشهد» ما قلنا في «أشهد» الأولى.

و«مُحَمَّدٌ»: هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْقُرَشِيُّ الْهَاشِمِيُّ، الَّذِي هُوَ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، أَشْرَفَ النَّاسِ نَسَبًا، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هذا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ عَبْدُ النَّاسِ لِلَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ تَحْقِيقًا لِعِبَادَتِهِ، كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُومُ فِي اللَّيْلِ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، وَيُقَالُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(١)؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى الْعَبْدِ الشَّكُورِ حِينَ قَالَ عَنْ نُوحٍ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فَأَرَادَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ عِبَادَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَتَقَى النَّاسَ، وَأَخْشَى النَّاسَ لِلَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ عَبْدٌ لِلَّهِ، وَمُقْتَضَى عُبُودِيَّتِهِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لغيرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي الرُّبُوبِيَّةِ إِطْلَاقًا، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مُحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ، مُفْتَقِرٌ لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ وَيَخَافُهُ، بَلْ إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُعْلِنَ وَأَنْ يُبْلَغَ بِلَاغًا خَاصًّا بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(٢) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا^(٣) إِلَّا بِلَغَا^(٤) [الجن: ٢١-٢٣] ﴿إِلَّا﴾: اسْتِثْنَاءٌ مُتَقَطِّعٌ أَيُّ: لَكِنْ أُبَلِّغُ بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «يَعْفِرُكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»، رقم (٤٨٣٧)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨٢٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالحاصلُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَمُقْتَضَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ شُؤْنِ الرُّبُوبِيَّةِ إِطْلَاقًا.

وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ، فَمَا بِالْكَ بَمَنْ دُونَهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ؟! فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا لغيرِهِمْ أَبَدًا، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ سَفَهُ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَنْ يَدْعُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

* وَقَوْلُهُ: «وَرَسُولُهُ»: هَذَا أَيْضًا وَضْفٌ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي بَلَغَ مَكَانًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، بَلْ وَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِيمَا نَعْلَمُ، اللَّهُمَّ إِلَّا حَمَلَةَ الْعَرْشِ، وَصَلَ إِلَى مَا فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَصَلَ إِلَى مَوْضِعٍ سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ أَفْلَامِ الْقَضَاءِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي خَلْقِهِ^(١)، مَا وَصَلَ أَحَدٌ فِيمَا نَعْلَمُ إِلَى هَذَا الْمُسْتَوَى، وَكَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَآيَدُهُ بِالْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الرُّسُلِ قَبْلَهُ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا تَطِيرُ لَهُ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ أَبَدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ۝﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، هَذَا يَكْفِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، أَمَّا الْمُعْرِضُ؛ فَسَقُولُ كَمَا قَالَ مَنْ سَبَقَهُ: هَذَا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ!

الحاصلُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، خَتَمَ اللَّهُ بِهِ النُّبُوَّةَ وَالرَّسَالََةَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْتَفَتِ النُّبُوَّةُ -وهي أَعْمُ مِنَ الرَّسَالََةِ- انْتَفَتِ الرَّسَالََةُ الَّتِي هِيَ أَحْصَى؛ لِأَنَّ انْتِفَاءَ الْأَعْمِ يَسْتَلْزِمُ انْتِفَاءَ الْأَخْصِ؛ فَرَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسرائ؟، رقم (٣٤٩) أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعَ فِيهِ صَرِيفَ الْأَفْلَامِ».

﴿ قَوْلُهُ: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَرِيدًا». ﴾

الشرح:

معنى: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ»: أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ مَا قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى»^(١).

وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَ صَلَاةَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تَكُونُ لِكُلِّ أَحَدٍ؛ وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّكَ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: فَلَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَاخْتَلَفُوا: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: فَلَانُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ؟ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ غَيْرُ الرَّحْمَةِ. وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمَغَايِرَةَ، إِذَنْ: فَالصَّلَاةُ أَخْصَصُ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَصَلَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

﴿ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَعَلَى آلِهِ» وَآلُهُ هُنَا: أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ، هَذَا إِذَا ذَكَرْتَ الْآلَ وَخَدَهَا أَوْ مَعَ الصَّحْبِ؛ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِمَعْنَى أَتْبَاعِهِ عَلَى دِينِهِ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآلَ بِمَعْنَى الْأَتْبَاعِ عَلَى الدِّينِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] أَيُّ: أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ.

أَمَّا إِذَا قُرِئَتْ بِالْأَتْبَاعِ؛ فَقِيلَ: آلُهُ وَأَتْبَاعُهُ؛ فَالْآلُ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ آلِ الْبَيْتِ، أَيُّ: بَيْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الْأَتْبَاعَ هُنَا، قَالَ: «آلُهُ وَصَحْبُهُ» فنقول: آلُهُ هُمُ أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ، وَصَحْبُهُ كُلُّ مَنْ اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

وَعَطَفُ الصَّحْبِ هُنَا عَلَى الْآلِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ لِأَنَّ الصُّحْبَةَ أَخْصَصُ مِنْ مُطْلَقِ الْأَتْبَاعِ.

(١) أخرجه البخاري معلقاً عن أبي العالية في تفسيره سورة الأحزاب: باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ «فتح» (٨/ ٥٣٢)، ووصله القاضي إسماعيل بن إسحاق الجهمي في: «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٩٥) بإسناد حسن كما قال الشيخ الألباني.

قَوْلُهُ: «وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا»: (سَلَّمَ) فِيهَا السَّلَامَةُ مِنَ الْآفَاتِ، وَفِي الصَّلَاةِ حُصُولُ الْحَيَرَاتِ، فَجَمَعَ الْمُؤَلَّفُ فِي هَذِهِ الصَّبْغَةِ بَيْنَ سُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحَقِّقَ لِنَبِيِّهِ الْحَيَرَاتِ - وَأَخْصَّهَا: الثَّنَاءُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى - وَأَنْ يُزِيلَ عَنْهُ الْآفَاتِ، وَكَذَلِكَ مَنْ اتَّبَعَهُ. وَالْجُمْلَةُ فِي قَوْلِهِ: «صَلَّى» وَ«سَلَّمَ» خَبَرِيَّةٌ لَفْظًا طَلِبِيَّةٌ مَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الدُّعَاءُ. قَوْلُهُ: «مَزِيدًا»؛ بِمَعْنَى: زَائِدًا أَوْ زِيَادَةً، وَالْمُرَادُ تَسْلِيمًا زَائِدًا عَلَى الصَّلَاةِ، فَيَكُونُ دُعَاءٌ آخَرَ بِالسَّلَامِ بَعْدَ الصَّلَاةِ.

وَالرَّسُولُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ: «مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بَشَرٌ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ». وَقَدْ نَبَّيَ بِ﴿أَقْرَأْ﴾ وَأُرْسِلَ بِالْمَدَنِّ^(١) فَيَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] كَانَ نَبِيًّا، وَبِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَدَنُّ^(٢)﴾ [قُرْآنُكَرِيمٍ: ١٠٢-١٠٣] كَانَ رَسُولًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* قَوْلُهُ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرَقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».

الشرح:

«أَمَّا بَعْدُ»: (أَمَّا) هَذِهِ نَائِبَةٌ عَنِ اسْمِ شَرْطٍ وَفِعْلِهِ، التَّقْدِيرُ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ؛ قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

أَمَّا كَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ وَفَا لِنَلُو تَلَوَهَا وَجُوبًا أَلْفَا^(٣)

فَقَوْلُهُمْ: «أَمَّا بَعْدُ: التَّقْدِيرُ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا، فَهَذَا.

وَعَلَيْهِ: فَالْفَاءُ هُنَا رَابِطَةٌ لِلْجَوَابِ، وَالْجُمْلَةُ بَعْدَهَا فِي مَحَلِّ جَزْمِ جَوَابِ الشَّرْطِ، وَيُحْتَمَلُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَهَذَا» أَيْ: أَنَّ (أَمَّا) حَرْفُ شَرْطٍ وَتَفْصِيلٍ، أَوْ حَرْفُ شَرْطٍ فَقَطْ

(١) انظر: «صحيح البخاري»: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣ و ٤)،

من حديث عائشة وجابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) الألفية (ص: ٥٩).

مُجَرَّدٌ عَنِ التَّفْصِيلِ، وَالتَّقْدِيرِ: أَمَّا بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا؛ فَأَنَا أَذْكُرُ كَذَا وَكَذَا. وَلَا حَاجَةَ أَنْ نُقَدِّرَ فِعْلَ شَرْطٍ، وَنَقُولَ: إِنَّ (أَمَّا) حَرْفٌ نَابٍ مَنَابِ الْجُمْلَةِ.

«فَهَذَا اعْتِقَادٌ»: «فَهَذَا»: الْإِشَارَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ إِلَى شَيْءٍ مَوْجُودٍ، أَنَا عِنْدَمَا أَقُولُ: هَذَا. فَأَنَا أُشِيرُ إِلَى شَيْءٍ مُحْسُوسٍ ظَاهِرٍ، وَهُنَا الْمُؤَلَّفُ كَتَبَ الْخُطْبَةَ قَبْلَ الْكِتَابِ، وَقَبْلَ أَنْ يُرَرَّزَ الْكِتَابَ لِعَالَمِ الشَّاهِدِ، فَكَيْفَ ذَلِكَ؟!

أَقُولُ: إِنَّ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ: إِنْ كَانَ الْمُؤَلَّفُ كَتَبَ الْكِتَابَ ثُمَّ كَتَبَ الْمَقْدَمَةَ وَالْخُطْبَةَ، فَاَلْمُشَارُ إِلَيْهِ مَوْجُودٌ وَمَحْسُوسٌ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَتَبَهُ فَإِنَّ الْمُؤَلَّفَ يَشِيرُ إِلَى مَا قَامَ فِي ذَهْنِهِ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي سَيَكْتُبُهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَعِنْدِي فِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ قَالَ هَذَا بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُخَاطَبِ، وَالْمُخَاطَبُ لَمْ يُخَاطَبْ بِذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَرَزَ الْكِتَابُ وَصَدَرَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: «فَهَذَا الَّذِي يَبَيِّنُ يَدِيكَ كَذَا وَكَذَا».

هَذِهِ إِذَنْ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ.

«اعْتِقَادٌ»: افْتِعَالٌ مِنَ الْعَقْدِ، وَهُوَ الرِّبْطُ وَالشَّدُّ، هَذَا مِنْ حَيْثُ التَّصْرِيفُ اللَّغَوِيُّ، وَأَمَّا فِي الْأَصْطِلَاحِ عِنْدَهُمْ فَهُوَ: حُكْمُ الذَّهْنِ الْجَازِمِ، يُقَالُ: اعْتَقَدْتُ كَذَا. يَعْنِي: جَزَمْتُ بِهِ فِي قَلْبِي، فَهُوَ حُكْمُ الذَّهْنِ الْجَازِمِ، فَإِنْ طَابَقَ الْوَاقِعُ فَصَحِيحٌ، وَإِنْ خَالَفَ الْوَاقِعَ فَفَاسِدٌ، فَاَعْتِقَادُنَا أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، وَاعْتِقَادُ النَّصَارَى أَنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْوَاقِعِ، وَوَجْهُ اتِّبَاطِهِ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي حَكَمَ فِي قَلْبِهِ عَلَى شَيْءٍ مَا كَانَتْهُ عَقْدُهُ عَلَيْهِ وَشَدَّهُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَتَقَلَّتْ مِنْهُ.

وَالْفَرْقَةُ «بَكْسَرِ الْفَاءِ بِمَعْنَى: الطَّائِفَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٢٢]، وَأَمَّا الْفَرْقَةُ بِالضَّمِّ فَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْاِفْتِرَاقِ.

وَالنَّاجِيَّةُ اسْمٌ فَاعِلٍ مِنْ نَجَا، إِذَا سَلِمَ، نَاجِيَّةٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبِدْعِ، سَالِمَةٌ مِنْهَا، وَنَاجِيَّةٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّارِ.

وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا

فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

هَذَا الْحَدِيثُ يُبَيِّنُ لَنَا مَعْنَى (النَّاجِيَةِ) فَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَهُوَ نَاجٍ مِنَ الْبَدْعِ. وَكُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً: إِذَنْ هِيَ نَاجِيَةٌ مِنَ النَّارِ، فَالْنَّجَاةُ هُنَا مِنَ الْبَدْعِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ.

«الْمَنْصُورَةُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»: عَبَّرَ الْمُؤَلِّفُ بِذَلِكَ؛ مُوَافَقَةً لِلْحَدِيثِ؛ حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ»^(٢)، وَالظُّهُورُ الْإِنْتِبَارُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَهِيرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، وَالَّذِي يَنْصُرُهَا هُوَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فِيهِ مَنْصُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، مَنْصُورَةٌ مِنَ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ، وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى قَدْ يَنْصُرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْجَنِّ، يَنْصُرُهُ الْجَنُّ وَيُرْهَبُونَ عَدُوَّهُ.

«إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ» أَي: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِيهِ مَنْصُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَهُنَا يَرِدُ إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ بِأَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ^(٣)، وَأَنَّهَا لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يَقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ^(٤). فَكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَيَبَيِّنُ قَوْلِهِ: «إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»؟!

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي افْتِرَاقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، رَقْمُ (٢٦٤١)، وَالْأَجْرِيُّ فِي الشَّرِيعَةِ رَقْمُ (٢٣ - ٢٤)، وَاللَّكَاثِيُّ فِي «شَرْحِ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السَّنَةِ» رَقْمُ (١٤٧)، وَالْحَاكِمُ (١٢٩/١)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِإِسْنَادٍ فِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ بْنُ أَنْعَمٍ الْإِفْرِيقِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ لِسُوءِ حِفْظِهِ، وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ شَاهِدٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْرَجَهُ الْعُقَيْلِيُّ فِي «الضُّعْفَاءِ» (٢٦٢/٢)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ» رَقْمُ (٧٢٤)، وَبِهِ يَرْتَقِي إِلَى دَرَجَةِ الْحَسَنِ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ»، رَقْمُ (١٩٢٠)، مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَوُرِدَ عَنْ جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ: شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «اِقْتِضَاءِ الصَّرَاطِ» (٣٨/١)، وَالكِتَابِيُّ فِي «نَظْمِ الْمُتَنَائِرِ» رَقْمُ (١٤٥)، وَالزَّيْدِيُّ فِي «لَقَطِ اللَّالِئِ الْمُتَنَائِرَةِ» رَقْمُ (٦٨)، وَالْأَلْبَانِيُّ فِي «صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ» (ص: ٤٦).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ قَرَبِ السَّاعَةِ، رَقْمُ (٢٩٤٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ، رَقْمُ (١٤٨)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ: إِلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(١) أَوْ: إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، أَيْ: سَاعَتِهِمْ، وَهُوَ مَوْتُهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ؛ فَهُمْ مَنْصُورُونَ إِلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا لَجَأْنَا إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ لِذَلِكَ، وَالتَّأْوِيلُ بِدَلِيلٍ جَائِزٍ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

«أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»: أَضَافَهُمْ إِلَى السُّنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِهَا، وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَقُولُ: «أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»؛ لِأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ؛ فَكَيْفَ يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى نَفْسِهِ؟! إِلَى نَفْسِهِ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ كَلِمَةَ (الْجَمَاعَةِ) بِمَعْنَى الْاجْتِمَاعِ؛ فَهِيَ اسْمُ مَصْدَرٍ، هَذَا فِي الْأَصْلِ، ثُمَّ نُقِلَتْ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ إِلَى الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ، وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ مَعْنَى (أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ) أَيْ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْاجْتِمَاعِ، سُمُّوا أَهْلُ السُّنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِهَا، وَسُمُّوا أَهْلُ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا.

وَلِهَذَا لَمْ تَفَرِّقْ هَذِهِ الْفِرْقَةَ كَمَا افْتَرَقَ أَهْلُ الْبِدْعِ، نَجِدُ أَهْلَ الْبِدْعِ كَالْجَهَنَّمِيِّ مُتَفَرِّقِينَ، وَالْمُعْتَزِلَةَ مُتَفَرِّقِينَ، وَالرَّوَافِضِ مُتَفَرِّقِينَ، وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّعْطِيلِ مُتَفَرِّقِينَ، لَكِنَّ هَذِهِ الْفِرْقَةُ مُجْتَمِعَةٌ عَلَى الْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَحْصُلُ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ، لَكِنَّهُ خِلَافٌ لَا يَضُرُّ، وَهُوَ خِلَافٌ لَا يُضِلُّ أَحَدَهُمُ الْآخَرَ بِهِ، أَيْ: أَنَّ صُدُورَهُمْ تَتَسَّعُ لَهُ، وَلَا فَقْدَ اخْتَلَفُوا فِي أَشْيَاءَ يَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ، مِثْلُ: هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ بَعْنِيهِ أَمْ لَمْ يَرَهُ؟ وَمِثْلِهِ: هَلْ عَذَابُ الْقَبْرِ عَلَى الْبَدَنِ وَالرُّوحِ أَوْ الرُّوحِ فَقَطْ؟ وَمِثْلُ بَعْضِ الْأُمُورِ يَخْتَلِفُونَ فِيهَا، لَكِنَّهَا مَسَائِلُ تُعَدُّ فَرْعِيَّةً بِالنِّسْبَةِ لِلْأَصُولِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَصُولِ. ثُمَّ هُمْ مَعَ ذَلِكَ إِذَا اخْتَلَفُوا لَا يُضِلُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بِخِلَافِ أَهْلِ الْبِدْعِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمامة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» رقم (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: فَهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى السُّنَّةِ، فَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَعَلِمَ مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي طَرِيقَتِهِمْ، فَالْأَشَاعِرَةُ مَثَلًا وَالْمَاتَرِيدِيَّةُ لَا يَعُدُّونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي إِجْرَاءِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى حَقِيقَتِهَا؛ وَلِهَذَا يُخْطِئُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ثَلَاثَةٌ: سَلَفِيُّونَ، وَأَشْعَرِيُّونَ، وَمَاتَرِيدِيُّونَ، فَهَذَا خَطَأٌ، نَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ الْجَمِيعُ أَهْلَ سُنَّةٍ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ؟! فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟! وَكَيْفَ يَكُونُونَ أَهْلَ سُنَّةٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ يَرُدُّ عَلَى الْآخَرِ؟! هَذَا لَا يُمَكِّنُ، إِلَّا إِذَا أُمَكَّنَ الْجَمْعُ بَيْنَ الضُّدِّينَ، فَنَعَمْ، وَإِلَّا فَلَا شَكَّ أَنَّ أَحَدَهُمْ وَخَدَهُ هُوَ صَاحِبُ السُّنَّةِ، فَمَنْ هُوَ؟! الْأَشْعَرِيَّةُ، أَمْ الْمَاتَرِيدِيَّةُ، أَمْ السَّلَفِيَّةُ؟! نَقُولُ: مَنْ وَافَقَ السُّنَّةَ فَهُوَ صَاحِبُ السُّنَّةِ، وَمَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ فَلَيْسَ صَاحِبَ سُنَّةٍ، فَنَحْنُ نَقُولُ: السَّلَفُ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَا يَصْدُقُ الْوَصْفُ عَلَى غَيْرِهِمْ أَبَدًا، وَالْكَلِمَاتُ تُعْتَبَرُ بِمَعَانِيهَا.

لِنَنْظُرَ كَيْفَ تُسَمَّى مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ أَهْلَ سُنَّةٍ؟! لَا يُمَكِّنُ! وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ عَنْ ثَلَاثَ طَوَائِفَ مُخْتَلِفَةٍ: إِنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ؟! فَأَيْنَ الْاجْتِمَاعُ؟! فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ هُمُ السَّلَفُ مُعْتَقِدًا، حَتَّى التَّأَخَّرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَإِنَّهُ سَلَفِيٌّ.

* قَوْلُهُ: «وَهُوَ الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْإِيْمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

الشرح:

هَذِهِ الْعَقِيدَةُ أَصْلُهَا لَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي جَوَابِ جِبْرِيلَ حِينَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: مَا الْإِسْلَامُ؟ مَا الْإِيْمَانُ؟ مَا الْإِحْسَانُ؟ مَتَى السَّاعَةُ؟ فَالْإِيْمَانُ -قَالَ لَهُ-: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

«الإيمان بالله»: الإيمان في اللغة: يقول كثير من الناس: إنه التصديق؛ فصدقتُ وَاَمَنْتُ معناهما لغةً واحدٌ، وقد سَبَقَ لَنَا فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَصِحُّ، بَلِ الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: الْإِفْرَازُ بِالشَّيْءِ عَنْ تَصَدِيقٍ بِهِ، بِدَلِيلٍ أَنَّكَ تَقُولُ: آمَنْتُ بِكَذَا، وَأَفْرَزْتُ بِكَذَا، وَصَدَقْتُ فَلَانًا. وَلَا تَقُولُ: آمَنْتُ فَلَانًا.

إِذَنْ: فَالْإِيمَانُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى زَائِدًا عَلَى مُجَرَّدِ التَّصَدِيقِ، وَهُوَ الْإِفْرَازُ وَالاعْتِرَافُ الْمُسْتَلَزِمُ لِلْقَبُولِ لِلْأَخْبَارِ وَالْإِدْعَانِ لِلْأَحْكَامِ، هَذَا الْإِيمَانُ، أَمَّا مُجَرَّدُ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ فَهَذَا لَيْسَ بِإِيمَانٍ، حَتَّى يَكُونَ هَذَا الْإِيمَانُ مُسْتَلَزِمًا لِلْقَبُولِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْإِدْعَانِ فِي الْأَحْكَامِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ إِيمَانًا.

والإيمان بالله يتضمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

١- الإيمان بوجوده سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- والإيمان بِرُبُوبِيَّتِهِ، أَي: الْإِنْفِرَازُ بِالرُّبُوبِيَّةِ.

٣- والإيمان بِانْفِرَادِهِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ.

٤- والإيمان بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِذَلِكَ.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِوُجُودِ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ آمَنَ بِوُجُودِ اللَّهِ لَا بِانْفِرَادِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَانْفِرَادِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا بِالْأَلُوْهِيَّةِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَانْفِرَادِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ لَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَإِنْ كَانَ الْأَخِيرُ فِيهِ مَنْ يُسَلِّبُ عَنْهُ الْإِيمَانُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَفِيهِ مَنْ يُسَلِّبُ عَنْهُ كَمَا الْإِيمَانُ.

الإيمان بوجوده:

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؟

قُلْنَا: الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ: الْعَقْلُ، وَالْحِسُّ، وَالشَّرْعُ، ثَلَاثَةٌ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ،

وإن شئت فَرِد: الْفِطْرَةُ، فتكون الدَّلَائِلُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ أَرْبَعَةً: الْعَقْلُ، وَالْحِسُّ، وَالْفِطْرَةُ، وَالشَّرْعُ. وَأَخْرَجْنَا الشَّرْعَ لَا لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيمَ؛ لَكِنْ لِأَنَّنَا نُخَاطِبُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالشَّرْعِ.

* فَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ فنقول: هل وُجُودُ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ بِنَفْسِهَا، أَوْ وُجِدَتْ هَكَذَا صُدْفَةً؟

فإن قُلْتَ: وَجِدَتْ بِنَفْسِهَا فمُسْتَحِيلٌ عَقْلًا، مَا دَامَتْ هِيَ مَعْدُومَةً، كَيْفَ تَكُونُ مَوْجُودَةً وَهِيَ مَعْدُومَةٌ؟! الْمَعْدُومُ لَيْسَ بِشَيْءٍ حَتَّى يُوجَدَ، إِذَنْ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا!

وإن قُلْتَ: وَجِدَتْ صُدْفَةً، فنقول: هَذَا يَسْتَحِيلُ أَيْضًا، فَأَنْتَ أَيُّهَا الْجَاهِلُ، هَلْ مَا أُتْبِعَ مِنَ الطَّائِرَاتِ وَالصَّوَارِيخِ وَالسَّيَارَاتِ وَالْآلَاتِ بِأَنْوَاعِهَا، هَلْ وَجِدَ هَذَا صُدْفَةً؟ فيقول: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ. فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأَطْيَارُ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالشَّجَرُ وَالْجَمْرُ وَالزَّمَالُ وَالْبَحَارُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً أَبَدًا.

ويقال: إِنَّ طَائِفَةً مِنَ السَّمِيَّةِ جَاءُوا إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ، فَنَظَرُوهُ فِي إِبْطَاتِ الْخَالِقِ عَزَّجَلَّ، وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ مِنْ أَذْكَى الْعُلَمَاءِ، فَوَعَدَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، فَجَاءُوا؛ قَالُوا: مَاذَا قُلْتَ؟ قَالَ: أَنَا أَفَكَّرْتُ فِي سَفِينَةٍ مَمْلُوءَةٍ مِنَ الْبَضَائِعِ وَالْأَرْزَاقِ، جَاءَتْ تَشْقَى عُبابَ الْمَاءِ، حَتَّى أُرْسَتْ فِي الْمِينَاءِ، وَتَزَلَّتِ الْحُمُولَةُ، وَذَهَبَتْ، وَلَيْسَ فِيهَا قَائِدٌ وَلَا حَمَّالُونَ. قَالُوا: تُفَكِّرُ بِهَذَا؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: إِذَنْ لَيْسَ لَكَ عَقْلٌ! هَلْ يُعْقَلُ أَنْ سَفِينَةً تَأْتِي بِدُونِ قَائِدٍ وَتَنْزِلُ وَتَنْصَرِفُ؟! هَذَا لَيْسَ مَعْقُولًا! قَالَ: كَيْفَ لَا تَعْقِلُونَ هَذَا، وَتَعْقِلُونَ أَنَّ هَذِهِ السَّمَوَاتِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالذُّوَابَ وَالنَّاسَ كُلَّهُمَا بِدُونِ صَانِعٍ؟! فَعَرَفُوا أَنَّ الرَّجُلَ خَاطَبَهُمْ بِعُقُولِهِمْ، وَعَجَزُوا عَنْ جَوَابِهِ هَذَا أَوْ مَعْنَاهُ.

وقيل لأعرابيٍّ مِنَ الْبَادِيَةِ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: الْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، وَالْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، فَسَاءَ ذَاتُ أَجْرَاجٍ، وَأَرْضُ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارُ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى السَّمِيعِ الْبَصِيرِ؟! الْبَصِيرِ؟!

ولهذا قَالَ اللهُ عَزَّجَلُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فحينئذ يكون العقل دالاً دلالة قطعية على وجود الله.

* وأما دلالة الحس على وجود الله: فإنَّ الإنسان يدعُو اللهَ عَزَّجَلُ؛ يقول: يَا رَبِّ! ويدعُو بالشَّيء، ثُمَّ يُسْتَجَابُ لَهُ فِيهِ، وهذه دلالة حسيَّة، هُوَ نَفْسُهُ لَمْ يَدْعُ إِلَّا اللهَ، واستجاب اللهُ لَهُ، رَأَى ذَلِكَ رَأْيَ الْعَيْنِ، وكذلك نحنُ نَسْمَعُ عَمَّنْ سَبَقَ وَعَمَّنْ فِي عَصْرِنَا أَنَّ اللهَ استجابَ لَهُ.

فالأعرابيُّ الَّذِي دَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ يُخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَالَ: هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثَنَا. قَالَ أَنَسُ: وَاللهِ! مَا فِي السَّيِّئِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَرْعَةٍ (أَيُّ: قِطْعَةٍ سَحَابٍ) وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ (جَبَلٍ فِي الْمَدِينَةِ تَأْتِي مِنْ جِهَتِهِ السُّحُبُ) مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ... وَبَعْدَ دَعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ قَوْرًا خَرَجَتْ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، وَارْتَفَعَتْ فِي السَّيِّئِ، وَانْتَشَرَتْ، وَرَعَدَتْ، وَبَرَقَتْ، وَنَزَلَ الْمَطَرُ، فَمَا نَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لَحِيَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١).

وهذا أمرٌ واقعٌ يدلُّ على وجود الخالقِ دلالة حسيَّة.

وفي القرآن كثيرٌ من هذا، مثل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أِنِّي مَسِيئٌ ضَرْبٌ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﷻ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] وغير ذلك مِنَ الْآيَاتِ.

* وأما دلالة الفطرة: فإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ تَنْحَرْ فِطْرُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللهِ، حَتَّى الْبَهَائِمُ الْعُجْمُ تُوْمِنُ بِوُجُودِ اللهِ، وَقَصَّةُ النَّمْلَةِ الَّتِي رُوِيَ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَوَجَدَ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا، رَافِعَةً قَوَائِمَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ! إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ، فَلَا تَمْنَعُ عَنَّا سُقْيَاكَ. فَقَالَ: ارْجِعُوا؛ فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته، رقم (١٠٣٣)، ومسلم:

كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٤٤٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٦٢)، عن أبي الصديق الناجي من قوله.

فَالْفِطْرُ مَجْبُورَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَتَوْحِيدِهِ.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، فهذه الآية تدلُّ على أنَّ الإنسان مَجْبُورٌ بفطرته على شهادته بوجود الله ورُبوبيته، وسواءً أ قلنا: إنَّ الله استخَرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ واستَشْهَدَهُمْ، أو قلنا: إنَّ هَذَا هُوَ مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَى فِي فِطْرِهِمْ مِنَ الْإِفْرَارِ بِهِ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ بِفِطْرَتِهِ.

هَذِهِ أَدِلَّةٌ ثَلَاثَةٌ تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* وَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ: فَلأنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ شَرَائِعِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَجْمُوعِ مَا يُصْلِحُ الْخَلْقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي أَرْسَلَ بِهَا رَبُّ رَحِيمٌ حَكِيمٌ، وَلَا سِوَا هَذَا الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، الَّذِي أَعْجَزَ الْبَشَرَ وَالْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

«وَمَلَائِكَتِهِ»: الْمَلَائِكَةُ جَمْعُ: مَلَكٌ، وَأَصْلُ مَلَأَ: مَلَأَكَ؛ مَأْلَكَ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَلْوَكَةِ، وَالْأَلْوَكَةُ فِي اللُّغَةِ الرِّسَالَةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مِّنِّي﴾ [فاطر: ١].

فَالْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ مِنْ نُورٍ، وَجَعَلَهُمْ طَائِعِينَ لَهُ مُتَذَلِّلِينَ لَهُ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ وَظَائِفُ خَصَّةُ اللهِ بِهَا، وَتَعَلَّمُ مِنْ وَظَائِفِهِمْ:

أَوَّلًا جِبْرِيلُ: مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، يَنْزِلُ بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِلَى الرُّسُلِ.

ثَانِيًا إِسْرَافِيلُ: مُوَكَّلٌ بِنَفْخِ الصُّورِ، وَهُوَ أَيْضًا أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ.

ثَالِثًا مِيكَائِيلُ: مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ.

وهؤلاء الثلاثة كُلُّهُمْ مُوَكَّلُونَ بِمَا فِيهِ حَيَاةٌ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ وَفِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ،

= وأخرجه الدارقطني في السنن (٢/ ٦٦)، والحاكم في المستدرک (١/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً دون ذكر اسم النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وانظر: «اجتماع الجيوش» لابن القيم (ص: ٣٢٨ - ٣٢٩).

وَمِكَائِيلُ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ وَفِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، وَإِسْرَافِيلُ بِنَفْخِ الصُّورِ وَفِيهِ حَيَاةُ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَسَّلُ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَهُمْ فِي دُعَاءِ الْإِسْتِفْتَاكِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، فيقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ! فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ! عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ! أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١) هَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي كَانَ يَقُولُهُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مُتَوَسِّلًا بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَهُمْ.

كَذَلِكَ نَعْلَمُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ وَكَّلَ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ، أَوْ بِقَبْضِ رُوحِ كُلِّ ذِي رُوحٍ، وَهُمْ: مَلَكَ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ، وَلَا يُسَمَّى عَزْرَائِيلَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ اسْمَهُ هَذَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْعِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقْبِضُ الرُّوحَ؛ فَإِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا أَخْرَجَهَا مِنَ الْبَدَنِ تَكُونُ عِنْدَهُ مَلَائِكَةً، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَيَكُونُ مَعَهُمْ حَنُوطٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَفَنٌ مِنَ الْجَنَّةِ، يَأْخُذُونَ هَذِهِ الرُّوحَ الطَّيِّبَةَ، وَيَجْعَلُونَهَا فِي هَذَا الْكَفَنِ، وَيَضَعُدُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، حَتَّى تَقْفَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيْنِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتَرْجِعِ الرُّوحُ إِلَى الْجَسَدِ مِنْ أَجْلِ الْإِحْتِبَارِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ غَيْرَ مُؤْمِنٍ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مَلَائِكَةً مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنَ النَّارِ وَحَنُوطٌ مِنَ النَّارِ، يَأْخُذُونَ الرُّوحَ، وَيَجْعَلُونَهَا فِي هَذَا الْكَفَنِ، ثُمَّ يَضَعُدُونَ بِهَا إِلَى السَّيِّئِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، وَتُطْرَحُ إِلَى الْأَرْضِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿[الحج: ٣١]، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سَجِّينٍ^(١). نَسَأُلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ!

هَؤُلَاءِ مُوَكَّلُونَ بِقَبْضِ الرُّوحِ مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ إِذَا قَبَضَهَا، وَمَلَكُ الْمَوْتِ هُوَ الَّذِي يُبَاشِرُ قَبْضَهَا؛ فَلَا مُنَافَاةَ إِذَنْ، وَالَّذِي يَأْمُرُ بِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ، فَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمَتَوَفَّى.

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ سَيَّاحُونَ فِي الْأَرْضِ، يَلْتَمِسُونَ حِلَقَ الذِّكْرِ، إِذَا وَجَدُوا حَلَقَةَ الْعِلْمِ وَالذِّكْرَ جَلَسُوا^(٢).

وَكَذَلِكَ هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنِينًا ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

دَخَلَ أَحَدُ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَوَجَدَهُ يَتَنُّ مِنَ الْمَرَضِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! تَتَنُّ، وَقَدْ قَالَ طَاوُسٌ: إِنَّ الْمَلَكَ يَكْتُبُ حَتَّى أَنْيَنَ الْمَرِيضِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟! فَجَعَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَتَصَبَّرُ، وَتَرَكَ الْأَيْنَ^(٣)؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُكْتُبُ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾: (من): زَائِدَةٌ لَتوكيد العموم، أَيْ قَوْلِ تَقُولُهُ يُكْتُبُ، لَكِنْ قَدْ تُجَازَى عَلَيْهِ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ، هَذَا حَسَبَ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ.

وَمِنْهُمْ أَيْضًا مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿لَهُ، مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٧/٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، وغيرهما، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الحاكم (٣٩/١): هو صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وانظر: «أحكام الجنائز وبدعها» للالباني (ص: ١٥٦).

(٢) لما أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، رقم (٦٤٠٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجاتكم. قال: فيفهمهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا». واللفظ للبخاري.

(٣) لما أخرجه صالح ابن الإمام أحمد قال: «قال أبي في مرض موته: أخرج كتاب عبد الله بن إدريس فقال: اقرأ عليّ حديث ليث: إن طاووسًا كان يكره الأئين في المرض. فما سمعت لأبي أنيتًا حتى مات» «سير أعلام النبلاء» (٢١٥/١١)، وانظر: حلية الأولياء (١٨٣/٩)، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٥٤٦)، وعدة الصابرين لابن القيم (ص: ٢٧١).

وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿[الرعد: ١١].

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ رُكَّعٌ وَسُجَّدٌ لِلَّهِ فِي السَّاءِ؛ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ» وَالْأُطِيطُ: صَرِيرُ الرَّحْلِ؛ أَيُّ: إِذَا كَانَ عَلَى الْبَعِيرِ حِمْلٌ ثَقِيلٌ تَسْمَعُ لَهُ صَرِيرًا مِنْ ثِقَلِ الْحِمْلِ، فيقولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ، مَا مِنْ مَوْضِعٍ أَرْبَعِ أَصَابِعَ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لِلَّهِ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»^(١) وَعَلَى سَعَةِ السَّمَاءِ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ.

ولهذا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي مَرَّ بِهِ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ، قَالَ: «يَطُوفُ بِهِ (أَوْ قَالَ: يَدْخُلُهُ) سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّ يَوْمٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ»^(٢). والمعنى: كُلُّ يَوْمٍ يَأْتِي إِلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ غَيْرِ الَّذِينَ أَتَوْهُ بِالْأَمْسِ، وَلَا يَعُودُونَ لَهُ أَبَدًا، يَأْتِي مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ غَيْرَ مَنْ سَبَقَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١].

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِالْجَنَّةِ وَمُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ؛ فَخَازِنِ النَّارِ اسْمُهُ مَالِكٌ؛ يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ: ﴿يَمْلِكُ لِقَبْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، يَعْنِي: لِيُهْلِكَنَا وَيُمِيتَنَا، فَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ لَا يُصْبِرُ عَلَيْهِ، فيقولُ: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

المهم: أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالْمَلَائِكَةِ.

وكيف الإيمانُ بِالْمَلَائِكَةِ؟

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولفظه: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضح جبهته ساجداً لله...»، والحديث أخرجه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في قصة الإسراء.

نُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ لَا يُشَاهَدُونَ، وَقَدْ يُشَاهَدُونَ، إِنَّمَا الْأَصْلُ أَنَّهُمْ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، مَخْلُوقُونَ مِنْ نُورٍ، مُكَلَّفُونَ بِمَا كَلَّفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَهُمْ خَاضِعُونَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْتُمْ الْخُضُوعِ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

كَذَلِكَ نُؤْمِنُ بِأَسَاءٍ مَنْ عَلِمْنَا بِأَسَائِهِمْ، وَنُؤْمِنُ بِوِظَائِفٍ مَنْ عَلِمْنَا بِوِظَائِفِهِمْ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِذَلِكَ عَلَى مَا عَلِمْنَا.

وَهُمْ أَجْسَادٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ كَرُوسًا أُولَى أَجْحَقِ﴾ [فاطر: ١]، وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، لَهُ سِتَّةُ أَجْنَحٍ، قَدْ سَدَّ الْأَفَقَ^(١)؛ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ أَرْوَاحٌ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ لَهُمْ عُقُولٌ؟ نَقُولُ: هَلْ لَكَ عَقْلٌ؟ مَا يَسْأَلُ عَنْ هَذَا إِلَّا رَجُلٌ مَجْنُونٌ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، فَهَلْ يُتَنَبَّى عَلَيْهِمْ هَذَا الشَّيْءُ وَلَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ؟! ﴿يَسْتَحُونَ أَلْتَلْ وَالْتَهَارَ لَا يَقْتَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، أَنْقُولُ: هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ! يَأْتِمُرُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيُكَلِّغُونَ الْوَحْيَ، وَنَقُولُ: لَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ؟! أَحَقُّ مَنْ يُوصَفُ بِعَدَمِ الْعَقْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا عُقُولَ لَهُمْ!! «وَكُتْبِهِ» أَيُّ: كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا مَعَ الرُّسُلِ.

وَلِكُلِّ رَسُولٍ كِتَابٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ مَعَهُ كِتَابٌ، لَكِنْ لَا نَعْرِفُ كُلَّ الْكِتَابِ، بَلْ نَعْرِفُ مِنْهَا: صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، التَّوْرَةَ، الْإِنْجِيلَ، الزَّبُورَ، الْقُرْآنَ، سِتَّةٌ؛ لِأَنَّ صُحُفَ مُوسَى بَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ التَّوْرَةُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: غَيْرُهَا. فَإِنْ كَانَتْ التَّوْرَةُ فِيهَا خَمْسَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرُهَا فِيهَا سِتَّةٌ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ نَحْنُ نُؤْمِنُ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى الرُّسُلِ، وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ بِهِ، نُؤْمِنُ بِهِ إِنْجَمَالًا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ، رَقْمُ (٣٢٣٢)، (٣٢٣٣)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وَرُسُلِهِ» أَي: رُسُلِ اللَّهِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمْ بِالْشَّرَائِعِ، وَأَمَرَهُمْ بِتَبْلِيغِهَا، وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] يَعْنِي: وَخِيَا كَلَامِنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ وَحْيُ الرِّسَالَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وَفِي ذُرِّيَّتِهِمَا أَي: ذُرِّيَّةَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، وَالَّذِي قَبْلَ نُوحٍ لَا يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]، قَدْ نَقُولُ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: يَدُلُّ عَلَى مَا سَبَقَ.

إِذْنُ: مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَدِلَّةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ نُوحًا أَوَّلَ الرُّسُلِ.

وَمِنَ السُّنَّةِ مَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يَقُولُونَ لِنُوحٍ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١) وَهَذَا صَرِيحٌ.
أَمَّا آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ بِرَسُولٍ.

وَأَمَّا إِدْرِيسُ: فَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَيْضًا إِلَى أَنَّهُ قَبْلَ نُوحٍ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْدَادِهِ، لَكِنْ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ جِدًّا، وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَرُدُّانِهِ، وَالصَّوَابُ مَا ذَكَرْنَا.

وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولٌ اللَّهُ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَلَمْ يَقُلْ: وَخَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَتَمَ النُّبُوَّةَ خَتَمَ الرِّسَالَةَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

فَإِنْ قُلْتَ: عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ^(٢) وَهُوَ رَسُولٌ، فَمَا الْجَوَابُ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ: أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾، رَقْمُ (٣٣٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْزِلَةٌ فِيهَا، رَقْمُ (١٩٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لَمَّا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٣١٨/١)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِنَّهُ لَوَلَّمَ لِلنَّاسَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] قَالَ: هُوَ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ أَحْمَدُ شَاكِرٌ (٢٩٢١): إِسْنَادُهُ

نقول: هُوَ لَا يَنْزِلُ بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ، وَإِنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، وَعِيسَى يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَكَيْفَ يَصِحُّ قَوْلُنَا: إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ؟

فَالْجَوَابُ: أَحَدُ ثَلَاثَةِ وُجُوهِ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولٌ مُسْتَقِلٌّ مِنْ أُولِي الْعِزْمِ، وَلَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ الْمَقَارَنَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَاحِدِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَكَيْفَ بِالْمُقَاضَلَةِ؟! وَعَلَى هَذَا يَسْقُطُ هَذَا الْإِيرَادُ مِنْ أَصْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ التَّنَطُّعِ، وَقَدْ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ^(١).

الثَّانِي: أَنْ نَقُولَ: هُوَ خَيْرُ الْأُمَّةِ إِلَّا عِيسَى.

الثَّالِثُ: أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عِيسَى لَيْسَ مِنَ الْأُمَّةِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَهُوَ سَابِقٌ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ إِذَا نَزَلَ؛ لِأَنَّ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَكُونُ تَابِعًا، وَهُوَ يَقْتُلُ الْخِزْنِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَعَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يُقَرُّ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْجِزْيَةِ؟!

قُلْنَا: إِخْبَارُ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ إِقْرَارٌ لَهُ، فَتَكُونُ مِنْ شَرْعِهِ، وَيَكُونُ ﷺ تَسَخُّا لِمَا سَبَقَ مِنْ حُكْمِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ.

«وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ»: الْبَعْثُ بِمَعْنَى الْإِخْرَاجِ، يَعْنِي: إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ. وَهَذَا مِنْ مُعْتَقِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

= صحيح. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً» أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥). وقد ذكر ابن كثير الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الأرض من السماء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْ أَرْسِلْ لَكُمْ رَسُولًا لَأَؤْتِيَنَّهُمْ بَرْقًا مَوْتًا وَبَلَاءًا مَوْتًا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٥).

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذا ثابتٌ بالكتابِ والسُّنةِ وإجماعِ المُسلمينَ، بل إجماعِ اليهودِ والنصارى؛ حيثُ يُقرُّونَ بأنَّ هناك يومًا يُبعثُ النَّاسُ فيه ويمجَّزونَ:

■ أمَّا القرآنُ فيقولُ اللهُ عزَّجَل: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْتَوَّأَ قُلُوبُ بَنِي وَرَبِّ لَنُبَعِثَنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقالَ عزَّجَل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنَسْتَوُونَ﴾ ١٥ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

■ وأمَّا في السُّنةِ: فجاءتِ الأحاديثُ المتواترةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في ذلك.

■ وأجمعَ المُسلمونَ على هذا إجماعًا قطعيًّا، وأنَّ النَّاسَ سَيُبعَثونَ يومَ القِيَامَةِ، ويُلقَونَ رَهبَهم، ويمجَّزونَ بأعمالِهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] فتذكَّرْ هذا اللقاءَ؛ حتَّى تَعْمَلَ لَهُ؛ خوفاً مِنْ أنْ تَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّجَل يومَ القِيَامَةِ وليسَ عندَكَ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، انظُرْ ماذا عَمِلْتَ لِيَوْمِ الثَّقَلِ؟ وماذا عَمِلْتَ لِيَوْمِ اللِّقَاءِ؟ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ الْيَوْمَ يَنْظُرُونَ ماذا عَمِلُوا لِلدُّنْيَا، مَعَ الْعِلْمِ بأنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي عَمِلُوا لَهَا لَا يَذَرُونَ هَلْ يُذَرُّونَهَا أَمْ لَا؟ قَدْ يُحْطِطُ الْإِنْسَانُ لِعَمَلٍ دُنْيَوِيٍّ يَفْعَلُهُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، وَلَكِنَّهُ لَا يُذَرُّكَ غَدًا وَلَا بَعْدَ غَدٍ، لَكِنَّ الشَّيْءَ الْمُتَقَيَّنُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وأعمالُ الدُّنْيَا يقولُ: ﴿وَهُمْ أَغْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، فَأَتَى بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ الْمُفِيدَةِ لِلثَّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ: ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [ق: ٢٢]، بِعَنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَصَّرَكَ﴾ [يَوْمَ حَودٍ] [ق: ٢٢].

هَذَا الْبَعْثُ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأَدْيَانُ السَّامَوِيَّةُ وَكُلُّ مُتَدَيِّنٍ بِدِينٍ هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السُّنِّيَّةِ، وَهُوَ مِنْ مُعْتَقَدَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى مِلَّةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

«وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» هَذَا الرُّكْنُ السَّادِسُ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ.
الْقَدَرُ: هُوَ تَقْدِيرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْأَشْيَاءِ.

وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة^(١) كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله: «خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»: أمَّا وصف القدر بالخير فالأمر فيه ظاهر، وأمَّا وصف القدر بالشر فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل الله؛ فإن فعل الله عز وجل ليس فيه شر، كل أفعاله خير وحكمة، لكن الشر في مفعولاته ومقدوراتيه؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول، أمَّا باعتبار الفعل فلا؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «والشر ليس إليك»^(٢).

فمثلاً: نحن نجد في المخلوقات المقدورات شراً؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجذب، وما أشبه ذلك، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر؛ لأنها لا ثلاثتهم، وفيها أيضاً المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك، وكل هذه شر، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير؛ لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة، عرفها من عرفها، وجعلها من جهلها.

وعلى هذا يجب أن نعرف أن الشر الذي وُصف به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله.

ثم أعلم أيضاً أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شراً في نفسه، لكنه خير من جهة أخرى، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

(١) لما أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليها السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وعرشه على الماء».

(٢) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧١).

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١] التَّيَجُّ طَبِيَّةٌ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الشَّرُّ فِي هَذَا الْمَقْدُورِ شَرًّا إِضَافِيًّا، يَعْنِي: لَا شَرًّا حَقِيقِيًّا؛ لِأَنَّ هَذَا سَتَكُونُ نَتِيجَتُهُ خَيْرًا.

وَلِنَفَرِضَ حَدَّ الزَّائِي مَثَلًا إِذَا كَانَ غَيْرُ مُحْصَنٍ أَنْ يُجَلَّدَ مِئَةً جَلْدَةً وَيُسَفَّرَ عَنِ الْبَلَدِ لِمُدَّةٍ عَامٍ، هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلَائِمُهُ، لَكِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ كَفَّارَةً لَهُ، فَهَذَا خَيْرٌ؛ لِأَنَّ عَقُوبَةَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَقُوبَةِ الْآخِرَةِ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَمِنْ خَيْرِهِ أَنَّهُ رَدَّعَ لِعَیْرِهِ وَنَكَالَ لِعَیْرِهِ؛ فَإِنَّ غَیْرَهُ لَوْ هَمَّ أَنْ يَزِيَّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِذَا لَا زَنْدَعٌ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا لَهُ هُوَ أَيْضًا، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي سَبَّبَ لَهُ هَذَا النَّتِیَّةَ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ فَهُنَاكَ شَيْءٌ يَكُونُ شَرًّا بِاعْتِبَارِهِ مَقْدُورًا، كَالْمَرَضِ مَثَلًا، فَالْإِنْسَانُ إِذَا مَرَضَ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَرَضَ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ لَهُ، لَكِنْ فِيهِ خَيْرٌ لَهُ فِي الْوَاقِعِ، وَخَيْرُهُ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ، قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ ذُنُوبٌ مَا كَفَّرَهَا إِلَّا اسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ؛ لَوْ جُودَ مَانِعٌ، مَثَلًا لَعَدَمِ صِدْقِ نَبِيِّهِ مَعَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَتَأْتِي هَذِهِ الْأَمْرَاضُ وَالْعُقُوبَاتُ فَتُكَفِّرُ هَذِهِ الذُّنُوبَ.

وَمِنْ خَيْرِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالصَّحَّةِ إِلَّا إِذَا مَرَضَ، نَحْنُ الْآنَ أَصِحَّاءُ، وَلَا نَذَرِي مَا قَدْرُ الصَّحَّةِ، لَكِنْ إِذَا حَصَلَ الْمَرَضُ عَرَفْنَا قَدْرَ الصَّحَّةِ؛ فَالصَّحَّةُ تَأْتِي عَلَى رُؤُوسِ الْأَصِحَّاءِ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمَرَضَى... هَذَا أَيْضًا خَيْرٌ، هُوَ أَنَّكَ تَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ.

وَمِنْ خَيْرِهِ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي هَذَا الْمَرَضِ أَشْيَاءُ تُقْتَلُ جَرَائِمُ فِي الْبَدَنِ لَا يَقْتُلُهَا إِلَّا الْمَرَضُ، يَقُولُ الْأَطِبَّاءُ: بَعْضُ الْأَمْرَاضِ الْمُعَيَّنَةِ تُقْتَلُ هَذِهِ الْجَرَائِمُ الَّتِي فِي الْجَسَدِ وَأَنْتَ لَا تَذَرِي.

فَالْحَاصِلُ أَنَّنَا نَقُولُ:

أَوَّلًا: الشَّرُّ الَّذِي وَصِفَ بِهِ الْقَدَرُ هُوَ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ لِمَقْدُورِ اللَّهِ، أَمَّا تَقْدِيرُ اللَّهِ فَكُلُّهُ خَيْرٌ،

وَالدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١).

ثانياً: أَنَّ الشَّرَّ الَّذِي فِي الْمَقْدُورِ لَيْسَ شَرًّا مَحْضًا، بَلْ هَذَا الشَّرُّ قَدْ يَنْتُجُ عَلَيْهِ أُمُورٌ هِيَ خَيْرٌ، فَتَكُونُ الشَّرِّيَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَمْرًا إِضَافِيًّا.

هَذَا، وَسَيَتَكَلَّمُ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الْقَدَرِ بِكَلَامٍ مُوسَّعٍ يُبَيِّنُ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ.

* قَوْلُهُ: «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ»:

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَمِنَ الْإِيمَانِ»: (مِنْ) هُنَا لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ: الْإِيمَانَ بِوُجُودِهِ، وَانْفِرَادِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَبِالْأُلُوهِيَّةِ، وَبِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، يَعْنِي: بَعْضُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

* وَقَوْلُهُ: «بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ»: يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ، لَكِنْ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ الصِّفَةَ فَقَطْ، إِمَّا لِأَنَّهُ مَا مِنْ اسْمٍ إِلَّا وَيَتَضَمَّنُ صِفَةً، أَوْ لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي الْأَسْمَاءِ خِلَافٌ ضَعِيفٌ، لَمْ يُنَكِّرْهُ إِلَّا غُلَاةُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ، فَالْمُعْتَزَلَةُ يُنْتَبِهُونَ الْأَسْمَاءَ، وَالْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتَرِيذِيَّةُ يُنْتَبِهُونَ الْأَسْمَاءَ، لَكِنْ يُخَالِفُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي أَكْثَرِ الصِّفَاتِ.

فَنَحْنُ الْآنَ نَقُولُ: لِمَاذَا اقْتَصَرَ الْمُؤَلَّفُ عَلَى «مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ»؟

نَقُولُ: لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِأَنَّ كُلَّ اسْمٍ يَتَضَمَّنُ صِفَةً، وَإِمَّا لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي الْأَسْمَاءِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُتَسَبِّحِينَ لِلْإِسْلَامِ.

* «فِي كِتَابِهِ»: (كِتَابِهِ) يَعْنِي: الْقُرْآنَ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابًا؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَمَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ الَّتِي بِأَيْدِي السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ، وَمَكْتُوبٌ كَذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ

(١) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، رَقْمُ (٧٧١).

يَكْتُبُونَهُ فِي الْمَصَاحِفِ، فَهُوَ كِتَابٌ بِمَعْنَى مَكْتُوبٍ، وَأَضَافَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
فَهَذَا الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، فَكُلُّ حَرْفٍ مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَلَّمَ بِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَبَاحِثُ:

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْإِيمَانَ بِهَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ:

وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ -كَمَا سَبَقَ- يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِأَسَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ ذَاتَ اللَّهِ
تُسَمَّى بِأَسْمَاءٍ وَتُوصَفُ بِأَوْصَافٍ، وَوُجُودُ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنِ الْأَوْصَافِ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ؛ فَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ تُوَجَدَ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الْأَوْصَافِ أَبَدًا، وَقَدْ يَفْرِضُ الذَّهْنُ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُجَرَّدَةً مِنَ الصِّفَاتِ،
لَكِنِ الْفَرَضُ لَيْسَ كَالْأَمْرِ الْوَاقِعِ، أَيْ: أَنَّ الْمَفْرُوضَ لَيْسَ كَالْمَشْهُودِ، فَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ
-أَيْ: فِي الْوَاقِعِ الْمُشَاهِدِ- ذَاتٌ لَيْسَ لَهَا صِفَاتٌ أَبَدًا.

فَالذَّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ مَثَلًا شَيْئًا لَهُ أَلْفُ عَيْنٍ، فِي كُلِّ أَلْفٍ عَيْنٍ أَلْفُ سَوَادٍ وَأَلْفُ بَيَاضٍ،
وَلَهُ أَلْفُ رَجُلٍ، فِي كُلِّ رَجُلٍ أَلْفُ أَصْبُعٍ، فِي كُلِّ أَصْبُعٍ أَلْفُ ظُفْرٍ، وَلَهُ مَلَائِينُ الشَّعْرِ، فِي كُلِّ
شَعْرَةٍ مَلَائِينُ الشَّعْرِ... وهكذا! يَفْرِضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَاقِعٌ، لَكِنِ الشَّيْءُ الْوَاقِعُ لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ بِدُونِ صِفَةٍ.

لِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِصِفَاتِ اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ
مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ، وَهَذَا بِاتِّفَاقِ النَّاسِ، وَعَلَى هَذَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صِفَةٌ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ نَحْوَ
الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ: أَنْ يُؤْمِنَ بِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ دُونُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى شَيْءٍ سِوَى النُّصُوصِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «لَا يُوصَفُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، لَا يَتَجَاوَزُ
الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ»^(١).

يَعْنِي: أَنَّنَا لَا نَصِفُ اللَّهَ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

ويدلُّ لذلك القرآن والعقل:

ففي القرآن يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فإذا وصفت الله بصفة لم يصف الله بها نفسه فقد قلت عليه ما لا تعلم، وهذا محرم بنص القرآن. ويقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولو وصفنا الله بها لم يصف به نفسه لكننا قفونا ما ليس لنا به علم، فوقعتا فيما نهى الله عنه.

وأما الدليل العقلي؛ فلأن صفات الله عَزَّجَلَّ من الأمور الغيبية، ولا يمكن في الأمور الغيبية أن يدركها العقل، وحينئذ لا نصف الله بها لم يصف به نفسه، ولا نكيّف صفاته؛ لأن ذلك غير ممكن.

نحن الآن لا نذكر ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث الحقيقة، مع أنه مخلوق، في الجنة فايهة ونخل ورمّان وسرر وأكواب وحور، ونحن لا نذكر حقيقة هذه الأشياء، ولو قيل: صفها لنا، لا نستطيع وصفها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]؛ ولقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

فإذا كان هذا في المخلوق الذي وُصف بصفات معلومة المعنى ولا تعلم حقيقتها، فكيف بالخالق؟!

مثال آخر: الإنسان فيه روح، لا يحيا إلا بها، لولا أن الروح في بدنه ما حيي، ولا يستطيع أن يصف الروح، لو قيل له: ما هذه الروح التي بك؟ ما هي التي لو نزعْتَ منك صرْتَ جثةً وإذا بقيت فأنت إنسان تعقل وتفهم وتذكر؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَصِفُهَا أَبَدًا، مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنْهُ، فِي نَفْسِهِ وَبَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَيَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِهَا، مَعَ أَنَّهَا حَقِيقَةٌ، يَعْنِي: شَيْءٌ يُرَى، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِ«أَنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»^(١)، فَالْإِنْسَانُ يَرَى نَفْسَهُ وَهِيَ مَقْبُوضَةٌ؛ وَلِهَذَا تَبَقَّى الْعَيْنُ مَفْتُوحَةً عِنْدَ الْمَوْتِ تُشَاهِدُ الرُّوحَ، وَهِيَ قَدْ خَرَجَتْ، وَتُوْخِذُ هَذِهِ الرُّوحَ، وَتُجْعَلُ فِي كَفَنٍ، وَيُصْعَدُ بِهَا إِلَى اللَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا، وَهِيَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَكَيْفَ يُحَاوِلُ أَنْ يَصِفَ الرَّبَّ بِأَمْرِ لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ!

وَلَا بُدَّ إِذَنْ مَحَقُّ ثُبُوتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: أَتَنَّا لَا نَصِفُ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ:

وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَيْضًا مِنَ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ:

ذَكَرْنَا مِنَ السَّمْعِ آيَتَيْنِ.

وَأَمَّا مِنَ الْعَقْلِ فَقُلْنَا: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ، لَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْعَقْلِ، وَضَرَبْنَا لَذَلِكَ مَثَلَيْنِ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: وَجُوبُ إِجْرَاءِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى ظَاهِرِهَا، لَا تَتَعَدَّاهَا:

مِثَالُ ذَلِكَ: لَمَّا وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ عَيْنًا، هَلْ نَقُولُ: الْمَرَادُ بِالْعَيْنِ الرَّؤْيِيَّةُ لَا حَقِيقَةُ الْعَيْنِ؟ لَوْ قُلْنَا ذَلِكَ مَا وَصَفْنَا اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

وَلَمَّا وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٤] لَوْ قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ لَهُ يَدٌ حَقِيقَةٌ، بَلِ الْمَرَادُ بِالْيَدِ مَا يُسَبِّغُهُ مِنَ النَّعْمِ عَلَى عِبَادِهِ، فَهَلْ وَصَفْنَا اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟ لَا!

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: عُمُومُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْخَبَرِيَّةِ وَالصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له، رقم (٩٢٠)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَالصِّفَاتُ الدَّائِيَّةُ: هِيَ الَّتِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا، وَهِيَ نَوْعَانِ: مَعْنَوِيَّةٌ وَخَبَرِيَّةٌ:
فَالْمَعْنَوِيَّةُ: مِثْلُ الْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ
التَّمَثِيلِ لَا الْحُضْرِ.
وَالْخَبَرِيَّةُ: مِثْلُ الْيَدَيْنِ، وَالْوَجْهِ، وَالْعَيْنَيْنِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا سَمَّاهُ، نَظِيرُهُ أِبْعَاضُ
وَأَجْزَاءُ لَنَا.

فَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ لَهُ يَدَانِ وَوَجْهٌ وَعَيْنَانِ، لَمْ يَخْدُثْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ،
وَلَنْ يَنْفَكَّ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا وَلَا يَزَالُ حَيًّا، لَمْ يَزَلْ عَالِمًا وَلَا يَزَالُ عَالِمًا، وَلَمْ
يَزَلْ قَادِرًا وَلَا يَزَالُ قَادِرًا... وَهَكَذَا، يَعْنِي: لَيْسَ حَيَاتُهُ تَتَجَدَّدُ، وَلَا قُدْرَتُهُ تَتَجَدَّدُ، وَلَا سَمْعُهُ
يَتَجَدَّدُ، بَلْ هُوَ مَوْصُوفٌ بِهَذَا أَزَلًا وَأَبَدًا، وَتَجَدَّدُ الْمَسْمُوعُ لَا يَسْتَلْزِمُ تَجَدُّدَ السَّمْعِ؛ فَأَنَا مِثْلًا
عِنْدَمَا أَسْمَعُ الْأَذَانَ الْآنَ، فَهَذَا لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ حَدَثَ لِي سَمْعٌ جَدِيدٌ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَذَانِ، بَلْ هُوَ
مِنذُ خَلَقَهُ اللَّهُ فِيَّ، لَكِنِ الْمَسْمُوعُ يَتَجَدَّدُ، وَهَذَا لَا أَثَرُ لَهُ فِي الصِّفَةِ.
وَاضْطَلَحَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنْ يُسَمُّوهَا الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ؛ قَالُوا: لِأَنَّهَا مُلَازِمَةٌ لِلذَّاتِ،
لَا تَنْفَكُ عَنْهَا.

وَالصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ هِيَ الصِّفَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِمَشِيئَتِهِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَهَا سَبَبٌ مَعْلُومٌ، مِثْلُ الرِّضَا، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ إِذَا وَجَدَ سَبَبَ الرِّضَا رَضِيَ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾
[الزمر: ٧].

وَصِفَاتٌ لَيْسَ لَهَا سَبَبٌ مَعْلُومٌ، مِثْلُ النُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ
الْآخِرِ.

وَمِنَ الصِّفَاتِ مَا هُوَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ بَاعْتِبَارَيْنِ، فَالْكَلَامُ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ بَاعْتِبَارِ أَحَادِهِ،
لَكِنْ بَاعْتِبَارِ أَصْلِهِ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا، لَكِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ مَتَى
شَاءَ، كَمَا سَيَأْتِي فِي بَحْثِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

اضطَلَحَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُسَمُّوا هَذِهِ الصِّفَاتِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ؛ لِأَنَّهَا مِنْ فِعْلِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولها أدلة كثيرة من القرآن، مثل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]،
﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْيَاكَهُمْ فَجَبَطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ
هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه، بل هذا من كماله أن يكون فاعلاً
لما يريد.

وأولئك القوم المحرفون يقولون: إثباتها من النقص؛ ولهذا يُنكرون جميع الصفات
الفعليَّة، يقولون: لا يحيي، ولا يرزق، ولا يسخط، ولا يكره، ولا يحب... يُنكرون كل هذه
بدعوى أن هذه حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، وهذا باطل؛ لأنه في مقابلة النص،
وهو باطل بنفسه؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل.

المبحث السادس: أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات؛ لأن مدار إثبات
الأسماء والصفات أو نفيها على السمع، فعقولنا لا تحكم على الله أبداً، فالمدار إذن على
السمع، خلافاً للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل تعطيل، الذين جعلوا المدار
في إثبات الصفات أو نفيها على العقل، فقالوا: ما اقتضى العقل إثباته أثبتناه، سواء أثبتته الله
لنفسه أم لا! وما اقتضى نفيه نفيناه وإن أثبتته الله! وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه
فاكثرهم نفاؤه، وقال: إن دلالة العقل إيجابية فإن أوجب الصفة أثبتناها، وإن لم يوجبها
نفيناها! ومنهم من توقف فيه فلا يثبتها؛ لأن العقل لا يثبتها، لكن لا ينكرها؛ لأن العقل
لا ينفيها، ويقول: نتوقف؛ لأن دلالة العقل عند هذا سلبية، إذا لم يوجب يتوقف، ولم
ينف!

فصار هؤلاء يحكمون العقل فيما يجب أو يمتنع على الله عز وجل.

فَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا: مَا اقْتَضَى الْعَقْلُ وَصَفَ اللَّهُ بِهِ وَصِفَ اللَّهُ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ، وَمَا اقْتَضَى الْعَقْلُ نَفْيَهُ عَنِ اللَّهِ نَقْوَهُ، وَإِنْ كَانَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

ولهذا يَقُولُونَ: لَيْسَ لِلَّهِ عَيْنٌ، وَلَا وَجْهٌ، وَلَا لَهُ يَدٌ، وَلَا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَلَا يَنْزِلُ
إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا... لَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ، وَيُسَمُّونَ تَحْرِيفَهُمْ تَأْوِيلًا، وَلَوْ أَنْكَرُوا إِنْكَارَ جَحْدٍ
لَكَفَرُوا؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا، لَكِنَّهُمْ يَنْكَرُونَ إِنْكَارَ مَا يُسَمُّونَهُ تَأْوِيلًا، وَهُوَ عِنْدَنَا تَحْرِيفٌ.

والحاصل: أَنَّ الْعَقْلَ لَا جَمَالَ لَهُ فِي بَابِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُكَ هَذَا يُنَاقِضُ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾
[المائدة: ٥٠]، والتفضيلُ بَيْنَ شَيْءٍ وَآخَرَ مَرْجِعُهُ إِلَى الْعَقْلِ، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾
[النحل: ٦٠]، وَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]... وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ
مِمَّا يُحِيلُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَقْلِ فِيمَا يُثَبِّتُهُ لِنَفْسِهِ وَمَا يَنْفِيهِ عَنِ الْأَلْهَةِ الْمُدَّعَاةِ!

فالجوابُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْعَقْلَ يُدْرِكُ مَا يَحِبُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ
الْإِجْمَالِ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، فَمَثَلًا: الْعَقْلُ يُدْرِكُ أَنَّ الرَّبَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الصِّفَاتِ،
لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْعَقْلَ يَثْبُتُ كُلَّ صِفَةٍ بَعِيْنَهَا أَوْ يَنْفِيهَا، لَكِنْ يَثْبُتُ أَوْ يَنْفِي عَلَى سَبِيلِ
الْعُمُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الصِّفَاتِ، سَالِمًا مِنَ النِّقْصِ.

فَمَثَلًا: يُدْرِكُ بَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ سَمِيعًا بَصِيرًا، قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿يَتَّابَتِ لِمَ
تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مریم: ٤٢].

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٢٠].

يُدْرِكُ هَذَا، وَيُدْرِكُ بَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حَادِثًا بَعْدَ الْعَدَمِ؛ لِأَنَّهُ نَقْصٌ؛
وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

إِذَنْ: يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ حَادِثًا بِالْعَقْلِ.

العقل أيضًا يُدرك بأنَّ كُلَّ صِفَةٍ نَقْصٍ فِيهَا مُتَّبَعَةٌ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كاملاً، فيُدركُ بأنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ مُسْلُوبٌ عَنْهُ الْعَجْزُ؛ لِأَنَّهُ صِفَةُ نَقْصٍ، إِذَا كَانَ الرَّبُّ عَاجِزًا، وَغُصِي، وَأَرَادَ أَنْ يُعَاقِبَ الَّذِي عَصَاهُ، وَهُوَ عَاجِزٌ، فَلَا يُمَكِّنُ!

إِذَنْ: الْعَقْلُ يُدْرِكُ أَنَّ الْعَجْزَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِهِ، وَالْعَمَى كَذَلِكَ، وَالصَّمَمُ كَذَلِكَ، وَالْجَهْلُ كَذَلِكَ... وَهَكَذَا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، تُدْرِكُ ذَلِكَ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُدْرِكَهُ، فَتَتَوَقَّفُ فِيهِ عَلَى السَّمْعِ.

سؤال: هَلْ كُلُّ مَا هُوَ كَمَا لَ فِيْنَا يَكُونُ كَمَا لَ فِي حَقِّ اللَّهِ؟ وَهَلْ كُلُّ مَا هُوَ نَقْصٌ فِيْنَا يَكُونُ نَقْصًا فِي حَقِّ اللَّهِ؟

الجواب: لَا؛ لِأَنَّ الْمِقْيَاسَ فِي الْكَمَالِ وَالنَّقْصِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِ مَا يُضَافُ لِلْإِنْسَانِ؛ لظُهُورِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، لَكِنْ بِاعْتِبَارِ الصِّفَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ صِفَةٌ، فَكُلُّ صِفَةٍ كَمَا لَ فِيهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ بِالنِّسْبَةِ لِلْخَالِقِ نَقْصٌ؛ لِأَنَّ سَبَبَهُمَا الْحَاجَةُ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، لَكِنْ هُمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ كَمَا لَ؛ وَلِهَذَا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَأْكُلُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلِيلًا بِمَرَضٍ أَوْ نَحْوِهِ، هَذَا نَقْصٌ.

وَالنَّوْمُ بِالنِّسْبَةِ لِلْخَالِقِ نَقْصٌ وَلِلْمَخْلُوقِ كَمَا لَ، فَظَهَرَ الْفَرْقُ.

التَّكَبُّرُ كَمَا لَ لِلْخَالِقِ وَنَقْصٌ لِلْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الْجَلَالُ وَالْعَظَمَةُ إِلَّا بِالتَّكَبُّرِ؛ حَتَّى تَكُونَ السَّيْطَرَةُ كَامِلَةً، وَلَا أَحَدٌ يُنَازِعُهُ؛ وَلِهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يُنَازِعُهُ الْكِبْرِيَاءَ وَالْعَظَمَةَ، قَالَ: «مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ»^(١).

فَالْمِهُمُّ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ كَمَا لَ فِي الْمَخْلُوقِ يَكُونُ كَمَا لَ فِي الْخَالِقِ، وَلَا كُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ

(١) لما أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يَنَازِعَنِي عَذَبْتُهُ»، وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢/ ٤١٤) بِنَحْوِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَكُونُ نَقْصًا فِي الْخَالِقِ إِذَا كَانَ الْكَمَالُ أَوْ النَّقْصُ اغْتِبَارِيًّا.

هَذِهِ سِتَّةُ مَبَاحِثَ تَحْتَ قَوْلِهِ: «مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ» وَكُلُّهَا مَبَاحِثُ هَامَّةٌ، وَقَدَّمْنَاهَا بَيْنَ يَدَيِ الْعَقِيدَةِ؛ لِأَنَّهُ سَيَنْبَغِي عَلَيْهَا مَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: «وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ»: وَوَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَبِّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا بِالْقَوْلِ، أَوْ بِالْفِعْلِ، أَوْ بِالْإِفْرَارِ.

أ- أَمَّا الْقَوْلُ فَكَثِيرٌ، مِثْلُ: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١)، وَقَوْلُهُ فِي يَمِينِهِ: «لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ»^(٢).

ب- وَأَمَّا الْفِعْلُ فَهُوَ أَقَلُّ مِنَ الْقَوْلِ، مِثْلُ إِشَارَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَشْهِدُ اللَّهُ عَلَى إِقْرَارِ أَمَّتِهِ بِالْبَلَاغِ، وَهَذَا فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ فِي عَرَفَةَ، خَطَبَ النَّاسَ، وَقَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يَرْفَعُ أَصْبُعُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ^(٣). فَرَفَعُ أَصْبُعِهِ إِلَى السَّمَاءِ هَذَا وَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعُلُوِّ عَنْ طَرِيقِ الْفِعْلِ.

وَجَاءَهُ رَجُلٌ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ... فَرَفَعَ يَدَيْهِ^(٤). وَهَذَا أَيْضًا وَصَفُ اللَّهِ بِالْعُلُوِّ عَنْ طَرِيقِ الْفِعْلِ.

وغير ذلك من الأحاديث التي فيها فعل النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا ذَكَرَ صِفَةً مِنْ صفاتِ الله.

وأحيانًا يَذْكُرُ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصِّفَةَ مِنْ صفاتِ الله بِالْقَوْلِ، وَيُؤَكِّدُهَا بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ حِينَئِذَا تَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقي، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب ﴿يُحَوِّلُ بَيْنَكَ أَلَمَهُ وَقَلْبَهُ﴾، رقم (٦٦١٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته، رقم (١٠٣٣)، ومسلم:

كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْيَمْنَى، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ^(١). وَهَذَا إِبْثَاتٌ لِلسَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: إِنَّ إِبْثَاتَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلصِّفَاتِ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَيَكُونُ بِالْفِعْلِ، مُجْتَمِعِينَ وَمُنْفَرِدِينَ.

ج- أَمَّا الْإِقْرَارُ: فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبْلَهُ، مِثْلُ إِقْرَارِهِ الْجَارِيَةِ الَّتِي سَأَلَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَأَقْرَرَهَا، وَقَالَ: «أَعْتَقَهَا»^(٢).

وَكَمَا إِقْرَارِهِ الْحَبْرَ مِنَ الْيَهُودِ، الَّذِي جَاءَ وَقَالَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ... إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ^(٣)، وَهَذَا إِقْرَارٌ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا وَجْهٌ وَجُوبِ الْإِيمَانِ بِهَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ؟ أَوْ: مَا دَلِيلُهُ؟

نَقُولُ: دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَاكُتِبَ إِلَيْكَ الْإِيمَانُ الَّذِي تَزَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ءَاكُتِبَ إِلَيْكَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وَكُلُّ آيَةٍ فِيهَا ذِكْرٌ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبْلَغٌ فِيهِ دَالَّةٌ عَلَى وَجُوبِ قَبُولِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِهَا وَبَلَّغَهَا إِلَى النَّاسِ، وَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ تَبْلِيغٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَئِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ، وَأَنْصَحُ النَّاسِ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَأَصْدَقُ النَّاسِ فِيمَا قَالَ، وَأَفْصَحُ النَّاسِ فِي التَّعْبِيرِ، فَاجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ مِنْ صِفَاتِ الْقَبُولِ أَرْبَعٌ: الْعِلْمُ، وَالنُّصْحُ، وَالصِّدْقُ، وَالْبَيَانُ.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقْبَلَ كُلَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَهُوَ -وَاللَّهُ- أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَعْلَمُ مِنْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَبِعَهُمْ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمَنَاطِقَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ!»

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السَّنَةِ، بَابُ فِي الْجَهْمِيَّةِ، رَقْمُ (٤٧٢٨)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٣٧٣/١٣): أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ».

(٢) قِصَّةُ الْجَارِيَةِ أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، رَقْمُ (٥٣٧)، مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السَّلْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، رَقْمُ (٤٨١١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رَقْمُ (٢٧٨٦) (١٩)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَوَاضِعِهِ» [النساء: ٤٦]، والتعبيرُ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ الْقُرْآنُ أَوَّلَى مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ أَذَلُّ عَلَى الْمَعْنَى.

الوجه الثاني: أَنَّهُ أَذَلُّ عَلَى الْحَالِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْعَدْلِ؛ فَاَلْمَوْؤُلُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُسَمِّيَهُ مُؤَوَّلًا، بَلِ الْعَدْلُ أَنْ نَصِفَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّفًا.

الوجه الثالث: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ بَاطِلٌ، يَحِبُّ الْبُعْدُ عَنْهُ وَالتَّنْفِيرُ مِنْهُ، وَاسْتِعْمَالُ التَّحْرِيفِ فِيهِ أَبْلَغُ؛ تَنْفِيرًا مِنَ التَّأْوِيلِ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيفَ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، لَكِنِ التَّأْوِيلُ لَيِّنٌ، تَقَبُّلُهُ النَّفْسُ، وَتَسْتَفْصِيلُ عَنْ مَعْنَاهُ، أَمَّا التَّحْرِيفُ بِمَجَرَّدِ مَا نَقُولُ: هَذَا تَحْرِيفٌ، يَنْفِرُ الْإِنْسَانُ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ التَّحْرِيفِ فِيمَنْ خَالَفُوا طَرِيقَ السَّلَفِ الْيَقِيْنَ مِنْ اسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلِ.

الوجه الرابع: أَنَّ التَّأْوِيلَ لَيْسَ مَذْمُومًا كُلُّهُ؛ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ فَتَّهِّهِ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ»^(١)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ٧] فَاَمْتَدَحَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ.

والتَّأْوِيلُ لَيْسَ كُلُّهُ مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ لَهُ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ، يَكُونُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى صَرْفِ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ.

أ- يَكُونُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عِنْدَمَا يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ، يَقُولُونَ: تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى كَذَا وَكَذَا. ثُمَّ يَذْكُرُونَ الْمَعْنَى، وَسَمِّيَ التَّفْسِيرُ تَأْوِيلًا؛ لِأَنَّا أَوَّلْنَا الْكَلَامَ، أَيُّ: جَعَلْنَاهُ يُوَوَّلُ إِلَى مَعْنَاهُ الْمُرَادِ بِهِ.

ب- تَأْوِيلٌ بِمَعْنَى عَاقِبَةِ الشَّيْءِ، وَهَذَا إِنْ وَرَدَ فِي طَلَبٍ، فَتَأْوِيلُهُ فِعْلُهُ إِنْ كَانَ أَمْرًا،

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١/٢٦٦)، وَالْفَسَوِيُّ فِي «الْمَعْرِفَةِ وَالتَّارِيخِ» (١/٤٩٣ - ٤٩٤)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَصَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ (٢٣٩٧).

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوُضُوءِ، بَابُ وَضْعِ الْمَاءِ عِنْدَ الْخَلَاءِ، رَقْمُ (١٤٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَقْمُ (٢٤٧٧)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. دُونَ قَوْلِهِ: «وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ».

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ»، رَقْمُ (٧٥)، بِلَفْظٍ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ».

لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

❖ قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ».

الشرح:

فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانُ صِفَةِ إِيْمَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِهَا إِيْمَانًا خَالِيًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ: التَّحْرِيفُ، وَالْتَعْطِيلُ، وَالتَّكْيِيفُ، وَالتَّمَثِيلُ.

«فَالْتَّحْرِيفُ» التَّغْيِيرُ، وَهُوَ إِمَّا لَفْظِيٌّ وَإِمَّا مَعْنَوِيٌّ.

وَالْغَالِبُ أَنَّ التَّحْرِيفَ اللَّفْظِيَّ لَا يَقَعُ، وَإِذَا وَقَعَ فَإِنَّمَا يَقَعُ مِنْ جَاهِلٍ، فَالتَّحْرِيفُ اللَّفْظِيُّ يَعْنِي: تَغْيِيرَ الشَّكْلِ، فَمَثَلًا: فَمَا تَحِدُّ أَحَدًا يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» بفتح الدال، إِلَّا إِذَا كَانَ جَاهِلًا... هَذَا الْغَالِبُ!

لَكِنِ التَّحْرِيفُ الْمَعْنَوِيُّ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إِيْمَانُهُمْ بِهَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ خَالٍ مِنَ التَّحْرِيفِ، يَعْنِي: تَغْيِيرَ اللَّفْظِ أَوْ الْمَعْنَى.

وَتَغْيِيرُ الْمَعْنَى يُسَمِّيهِ الْقَائِلُونَ بِهِ تَأْوِيلًا، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَهْلِ التَّأْوِيلِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَضْبُغُوا هَذَا الْكَلَامَ صِبْغَةَ الْقَبُولِ؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ لَا تَنْفَرُ مِنْهُ النُّفُوسُ وَلَا تَكْرَهُهُ، لَكِنْ مَا دَهَبُوا إِلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ تَحْرِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُولُوا: تَحْرِيفًا! وَلَوْ قَالُوا: هَذَا تَحْرِيفٌ لِأَعْلَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَرَفْضِ كَلَامِهِمْ.

وَلِهَذَا عَبَّرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالتَّحْرِيفِ دُونَ التَّأْوِيلِ مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَتَكَلَّمُونَ فِي هَذَا الْبَابِ يُعَبِّرُونَ بِتَفْسِي التَّأْوِيلِ، يَقُولُونَ: مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ، لَكِنْ مَا عَبَّرَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ أَوْلَى لَوُجُوهِ أَرْبَعَةٍ:

الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ اللَّفْظُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَتَرْكُهُ إِنْ كَانَ نَهْيًا، وَإِنْ وَرَدَ فِي خَيْرٍ فَتَأْوِيلُهُ وَقُوعُهُ.

مثالُهُ فِي الْحَبْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴿[الأعراف: ٥٣]﴾، فَاَلْمَعْنَى: مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا عَاقِبَةُ وَمَالٌ مَا أُخْبِرُوا بِهِ، يَوْمَ يَأْتِي ذَلِكَ الْمُخْبَرُ بِهِ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ.

وَمِنْهُ قَوْلُ يُوسُفَ لِمَا خَرَّ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ سَجْدًا، قَالَ: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءُيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ﴾ [يوسف: ١٠٠] هَذَا وَقُوعُ رُؤْيَايَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سَجَدُوا لَهُ.

وَمِثَالُهُ فِي الطَّلَبِ قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ (١) أَيُّ: يَعْمَلُ بِهِ.

ج- الْمَعْنَى الثَّالِثُ لِلتَّأْوِيلِ: صَرَفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَهَذَا النَّوعُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ، فَإِنْ دَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَيَكُونُ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ التَّفْسِيرُ، وَإِنْ لَمْ يَدَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَيَكُونُ مِنْ بَابِ التَّخْرِيفِ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ.

وَهَذَا الثَّانِي هُوَ الَّذِي دَرَجَ عَلَيْهِ أَهْلُ التَّخْرِيفِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ: اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ، وَعَلَا عَلَيْهِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَعْنَى ﴿اسْتَوَى﴾ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فَنَقُولُ: هَذَا تَأْوِيلٌ عِنْدَكَ؛ لِأَنَّكَ صَرَفْتَ اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ، لَكِنْ هَذَا تَخْرِيفٌ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، بَلِ الدَّلِيلُ عَلَى خِلَافِهِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فَمَعْنَى: ﴿أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: سَيَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ؛ فَهَذَا مُحَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ، لَكِنْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، رقم (٤٩٦٧ و ٤٩٦٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأننا علمنا من السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يقرأ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم^(١)، لا إذا أكمل القراءة، فالتأويل صحيح.

وكذلك قول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ إذا دخل الحلاء قال: «أعوذ بالله من الخُبث والخبائث»^(٢)، فمعنى «إذا دخل»: إذا أراد أن يدخل؛ لأن ذكر الله لا يليق داخل المكان؛ فلهذا حملنا قوله: «إذا دخل» على: إذا أراد أن يدخل. هذا التأويل الذي دل عليه الدليل صحيح، ولا يعدو أن يكون تفسيرًا.

لذلك قلنا: إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذي ليس عليه دليل صحيح أولى؛ لأنه الذي جاء به القرآن، وأنه ألصق بطريق المحرف، وأنه أشد تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التحريف كله مذموم؛ بخلاف التأويل؛ فإن منه ما يكون مذمومًا ومحمودًا، فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه.

«ولا تعطيل»: التعطيل بمعنى: التخلي والترك، كقوله تعالى: ﴿وَبَرِّ مُعْطَلَةً﴾ [الحج: ٤٥] أي: مُحَلَّة مَرْوَكَةٍ.

والمراد بالتعطيل: إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات، سواء كان كليًا أو جزئيًا، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجهود، هذا كله يُسمى تعطيلًا. فأهل السنة والجماعة لا يُعطّلون أي اسم من أسماء الله، أو أي صفة من صفات الله، ولا يَجْحدونها، بل يُقرّون بها إقرارًا كاملاً.

(١) انظر: «سنن أبي داود»: كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، رقم (٧٦٤)، وابن ماجه:

كتاب إقامة الصلاة، باب الاستعاذة في الصلاة، رقم (٨٠٧)، من حديث جبر بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الحيض، باب ما

يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّخْرِيفِ؟

قُلْنَا: التَّخْرِيفُ فِي الدَّلِيلِ، وَالتَّعْطِيلُ فِي الْمَذْهَبِ، فَمَثَلًا: إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أَيْ: بَلْ قُوَّتَاهُ، هَذَا مُحَرَّفٌ لِلدَّلِيلِ، وَمُعْطَلٌ لِّلْمَرَادِ الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّ الْمَرَادَ الْيَدَ الْحَقِيقِيَّةَ، فَقَدْ عَطَّلَ الْمَعْنَى الْمَرَادَ، وَأُثْبِتَ مَعْنَى غَيْرِ الْمَرَادِ.

وَإِذَا قَالَ: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ، لَا أَذْرِي! أَفَوَضَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ، لَا أُثْبِتُ الْيَدَ الْحَقِيقِيَّةَ، وَلَا الْيَدَ الْمُحَرَّفَ إِلَيْهَا اللَّفْظَ. نَقُولُ: هَذَا مُعْطَلٌ، وَلَيْسَ بِمُحَرَّفٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُغَيَّرْ مَعْنَى اللَّفْظِ، وَلَمْ يُقَسَّرْهُ بِغَيْرِ مُرَادِهِ، لَكِنْ عَطَّلَ مَعْنَاهُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ، وَهُوَ إِبْثَابُ الْيَدِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَّبِعُونَ مِنَ الطَّرِيقَتَيْنِ:

الطَّرِيقَةُ الْأُولَى: الَّتِي هِيَ تَحْرِيفُ اللَّفْظِ بِتَعْطِيلِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ الْمَرَادِ إِلَى مَعْنَى غَيْرِ مُرَادٍ. وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَّةُ: وَهِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ التَّفْوِیْضِ، فَهُمْ لَا يُقَوِّضُونَ الْمَعْنَى كَمَا يَقُولُهُ الْمُقَوِّضَةُ، بَلْ يَقُولُونَ: نَحْنُ نَقُولُ: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ أَيْ: يَدَاهُ الْحَقِيقَتَانِ ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾، وَهُمَا غَيْرُ الْقُوَّةِ وَالنَّعْمَةِ.

فَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَرِيئَةٌ مِنَ التَّخْرِيفِ وَمِنَ التَّعْطِيلِ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ ضَلَالَ أَوْ كَذِبَ مَنْ قَالُوا: إِنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ التَّفْوِیْضُ، هُوَ لِأَنَّ ضَلُّوا إِنْ قَالُوا ذَلِكَ عَنْ جَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَكَذَّبُوا إِنْ قَالُوا ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ نَقُولُ: كَذَّبُوا عَلَى الْوَجْهَيْنِ عَلَى لُغَةِ الْحِجَازِ؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ عِنْدَ الْحِجَازِيِّينَ بِمَعْنَى الْخَطَأِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: لَا شَكَّ أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ هُوَ التَّفْوِیْضُ. أَتَاهُمْ أَخْطَؤُوا؛ لِأَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ هُوَ إِبْثَابُ الْمَعْنَى وَتَفْوِیْضُ الْكَيْفِيَّةِ.

وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّ الْقَوْلَ بِالتَّفْوِیْضِ - كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ ^(١) - مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ

الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ!

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٠٥).

عندما يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ التَّفْوِيزَ يَقُولُ: هَذَا جَيِّدٌ، أَسْلَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، لَا أَقُولُ بِمَذْهَبِ السَّلَفِ، وَلَا أَقُولُ بِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، أَسْلَمْتُ سَبِيلًا وَسَطًا، وَأَسْلَمْتُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَأَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَا نَذْرِي مَا مَعْنَاهَا. لَكِنْ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: هَذَا مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ!

وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، إِذَا تَأَمَّلْتَهُ وَجَدْتَهُ تَكْذِيبًا لِلْقُرْآنِ، وَتَجْهِيلًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتَطَالَةَ لِلْفَلَا سِفَةٍ.

تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وَأَيُّ بَيَانٍ فِي كَلِمَاتٍ لَا يُدْرَى مَا مَعْنَاهَا؟! وَهِيَ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ، وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ، إِذَا كُنَّا لَا نَذْرِي مَا مَعْنَاهَا، هَلْ يَكُونُ الْقُرْآنُ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ؟! أَيْنَ الْبَيَانُ؟!

إِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ الرُّسُولَ ﷺ لَا يَدْرِي عَنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ! وَإِذَا كَانَ الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَدْرِي فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ يَقُولُونَ: الرُّسُولُ ﷺ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ وَلَا يَدْرِي مَا مَعْنَاهُ! يَقُولُ: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»^(١) وَإِذَا سُئِلَ عَنْ هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي! وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»^(٢) وَإِذَا سُئِلَ: مَا مَعْنَى «يَنْزِلُ رَبُّنَا؟» قَالَ: لَا أَدْرِي... وَعَلَى هَذَا فَاقْسُ.

وَهَلْ هُنَاكَ قَدْحٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْقَدْحِ بِالرُّسُولِ ﷺ؟! بَلْ هَذَا مِنْ أَكْثَرِ الْقَدْحِ! رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا مَعْنَى آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَتَ اللَّهِ» رقم (٧٤٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب التريغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وسيأتي الحديث بطوله (ص: ٣٤٥).

بِالْكَلَامِ وَلَا يَذْرِي مَعْنَى ذَلِكَ كُلِّهِ!

فهذان وجهان: تكذيب القرآن، وتجهيل الرسول.

وفيه فَتْحُ البابِ لِلزَّادِقَةِ الَّذِينَ تَطَاوَلُوا عَلَى أَهْلِ التَّفْوِيزِ، وَقَالُوا: أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَعْرِفُ، وَأَخَذُوا يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ، وَقَالُوا: كَوْنُنَا نُنَبِّئُ مَعَانِيَ لِلنَّصُوصِ خَيْرٌ مِنْ كَوْنِنَا أُمِّيِّينَ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا، وَذَهَبُوا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يُرِيدُونَ مِنْ مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ!! وَلَا يَسْتَطِيعُ أَهْلُ التَّفْوِيزِ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي يَرِيدُ اللَّهُ هُوَ مَا قُلْتُمْ! فَفَتَحُوا بَابَ شُرُورٍ عَظِيمَةٍ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْعِبَارَةُ الْكَادِبَةُ: «طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَسْلَمٌ، وَطَرِيقَةُ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ»!

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ قَالَهَا بَعْضُ الْأَغْيَاءِ»^(١) وَهُوَ صَحِيحٌ، أَنَّ الْقَائِلَ غَيِّبٌ.

هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ أَكْذَبِ مَا يَكُونُ نُطْقًا وَمَذَلُولًا: «طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَسْلَمٌ، وَطَرِيقَةُ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ» كَيْفَ تَكُونُ أَعْلَمَ وَأَحْكَمَ وتلك أسلم؟! لَا يُوجَدُ سَلَامَةٌ بِدُونِ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ أَبَدًا! فَالَّذِي لَا يَذْرِي عَنِ الطَّرِيقِ لَا يَسْلَمُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ عِلْمٌ، لَوْ كَانَ مَعَهُ عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ لَسْلَمَ، فَلَا سَلَامَةَ إِلَّا بِعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.

إِذَا قُلْتَ: إِنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمٌ. لَزِمَ أَنْ تَقُولَ: هِيَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَإِلَّا لَكُنْتَ

مُتَنَاقِضًا.

إِذَنْ: فَالْعِبَارَةُ الصَّحِيحَةُ: «طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَسْلَمٌ وَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ» وَهَذَا مَعْلُومٌ.

وطريقة الخلف ما قاله القائل^(٢):

وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا

عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ

فَلَمْ أَرِ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥).

(٢) البيتان لعبد الكريم الشهرستاني. انظر: «الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/١٦٦)، شرح الطحاوية لابن

أبي العز (ص: ١٧٨).

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَقُولُ عَنْهَا: إِنَّهُ مَا وَجَدَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى دَقَنِ، وَهَذَا لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، أَوْ آخَرَ: قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقَ السَّلَامَةِ أَبَدًا.

وَالرَّازِي - وَهُوَ مِنْ كُبَرَائِهِمْ - يَقُولُ^(١):

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ وَأَكْثَرُ سَفْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ

وَأَزْوَاحُ خَافِي وَخَشَةِ مِنْ جُسُومِنَا وَغَايَةُ ذُنُوبِنَا أَذَى وَوَبَالٌ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ثُمَّ يَقُولُ: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطَّرِيقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهَجَ الْفَلَسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَالِيًا، وَلَا تَرْوِي غَلِيًّا، وَوَجَدْتُ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِنْبَاتِ: ﴿الرَّحْنَ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرِّبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي».

أَهْؤَلَاءُ نَقُولُ: إِنَّ طَرِيقَتَهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ؟!

الَّذِي يَقُولُ^(٢): «إِنِّي أَتَمَمْتُ أَنْ أَمُوتَ عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ» وَالْعَجَائِزُ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ، يَتَمَنَّى أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْأُمِّيَّاتِ! هَلْ يَقَالُ: إِنَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ؟! أَيْنَ الْعِلْمُ الَّذِي عِنْدَهُمْ؟!

فَبَيَّنَّ أَنَّ طَرِيقَةَ التَّفْوِيزِ طَرِيقٌ خَاطِئٌ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَ مَفَاسِدَ: تَكْذِيبَ الْقُرْآنِ، وَتَهْجِيلَ الرُّسُولِ، وَاسْتِطَالَةَ الْفَلَاسِفَةِ! وَأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ التَّفْوِيزُ. كَذَبُوا عَلَى السَّلَفِ، بَلْ هُمْ يُثَبِّتُونَ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى، وَيُفَرِّقُونَهُ، وَيَشْرَحُونَهُ بِأَوْقٍ شَرِحَ.

(١) فِي كِتَابِهِ «أَقْسَامُ اللَّذَاتِ»، انْظُرْ: «الصَّوَاغِقُ الْمُرْسَلَةُ» لِابْنِ الْقَيْمِ (١/ ١٦٧)، طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَةِ لِلْسَّبْكِ (٩٦).

(٢) الْقَاتِلُ هُوَ أَبُو الْعَالِي الْجَوْنِي، انْظُرْ: «الصَّوَاغِقُ الْمُرْسَلَةُ» لِابْنِ الْقَيْمِ (١/ ١٦٧ - ١٦٨)، طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَةِ لِلْسَّبْكِ (٥/ ١٩١).

أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُحَرِّفُونَ وَلَا يُعْطِلُونَ، وَيَقُولُونَ بِمَعْنَى النُّصُوصِ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] بِمَعْنَى: عَلَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ: اسْتَوَى. ﴿بِيَدِهِ﴾: يَدٌ حَقِيقِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ الْقُوَّةُ وَالنَّعْمَةُ، فَلَا تَحْرِيفَ عِنْدَهُمْ وَلَا تَعْطِيلَ.

«وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ» (تَكْيِيفٍ): لَمْ تَرُدَّ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَكِنْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى النَّهْيِ عَنْهَا.

التَّكْيِيفُ: هُوَ أَنْ تَذْكُرَ كَيْفِيَّةَ الصِّفَةِ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: كَيْفَ يُكَيَّفُ تَكْيِيفًا. أَيْ: ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ الصِّفَةِ، وَالتَّكْيِيفُ يُسْأَلُ عَنْهُ بـ (كَيْفَ) فَإِذَا قُلْتَ مَثَلًا: كَيْفَ جَاءَ زَيْدٌ؟ نَقُولُ: رَاكِبًا. إِذَنْ: كَيْفََتْ حَيْثُ. كَيْفَ لَوْنُ السَّيَّارَةِ؟ أَيْضًا. فَذَكَرْتَ اللَّوْنَ.

أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُكَيِّفُونَ صِفَاتِ اللَّهِ، مُسْتَنِدِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّلِيلِ السَّمْعِيِّ وَالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ:

أَمَّا الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

فَإِذَا جَاءَ رَجُلٌ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ عَلَى هَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ... وَوَصَفَ كَيْفِيَّةَ مُعَيَّنَةً. نَقُولُ: هَذَا قَدْ قَالَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ! هَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى هَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ؟! لَا، أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى، وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ اسْتَوَى. فَنَقُولُ: هَذَا تَكْيِيفٌ وَقَوْلٌ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا قَالَ لَكَ الْجَهْمِيُّ: إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ، فَكَيْفَ يَنْزِلُ؟ فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ يَنْزِلُ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ يَنْزِلُ. وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُفِيدَةٌ.

دَلِيلٌ آخَرُ مِنَ السَّمْعِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، لَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ؛ فَكَيْفِيَّةُ الشَّيْءِ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِوَاحِدٍ مِنْ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: مُشَاهَدَتِهِ، أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ، أَوْ خَيْرِ الصَّادِقِ عَنْهُ، أَيْ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ شَاهِدَتَهُ أَنْتَ وَعَرَفْتَ كَيْفِيَّتَهُ. أَوْ شَاهَدْتَ نَظِيرَهُ، كَمَا لَوْ قَالَ وَاحِدٌ: إِنَّ فَلَانًا اشْتَرَى سَيَّارَةً (داتسن) مُوَدِّلَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ رَقْمَ الْفَيْنِ. فَعَرَفَ كَيْفِيَّتَهَا؛ لِأَنَّ عِنْدَكَ مِثْلَهَا. أَوْ خَبَرَ صَادِقٍ عَنْهُ، أَنَّكَ رَجُلٌ صَادِقٌ وَقَالَ: إِنَّ سَيَّارَةَ فَلَانٍ صِفَتُهَا كَذَا وَكَذَا... وَوَصَفَهَا تَامًّا، فَتُدْرِكُ الْكَيْفِيَّةَ الْآنَ.

ولهذا أيضًا قَالَ بعضُ الْعُلَمَاءِ جَوَابًا لَطِيفًا: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِنَا: «بِدُونِ تَكْيِيفٍ»: لَيْسَ مَعْنَاهُ أَلَّا نَعْتَقِدَ لَهَا كَيْفِيَّةً، بَلْ نَعْتَقِدُ لَهَا كَيْفِيَّةً، لَكِنِ الْمُنْفِيُّ عِلْمُنَا بِالْكَيْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ اسْتِوَاءَ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ لَا شَكَّ أَنَّ لَهُ كَيْفِيَّةً، لَكِنِ لَا نَعْلَمُ، نُزُولُهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَهُ كَيْفِيَّةٌ لَكِنِ لَا نَعْلَمُ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ مَوْجُودٍ إِلَّا وَلَهُ كَيْفِيَّةٌ، لَكِنَّهَا قَدْ تَكُونُ مَعْلُومَةً، وَقَدْ تَكُونُ مَجْهُولَةً.

سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠]: كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَأُطْرُقَ مَالِكٌ بِرَأْسِهِ حَتَّى عَلَاهُ الْعَرَقُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: «الْاِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» أَيْ: مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى مَعْلُومٌ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بَيْنَ أَيْدِينَا، كُلُّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا ﴿اِسْتَوَى﴾ مُعَدَّاةٌ بِـ(عَلَى) مَعْنَاهَا: الْعُلُوُّ. فَقَالَ: «الْاِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ»؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُدْرِكُ الْكَيْفَ، فَإِذَا انْتَفَى الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ وَالْعَقْلِيُّ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ وَجَبَ الْكُفُّ عَنْهَا، «وَالْإِبْرَانُ بِهِ وَاجِبٌ»؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، فَوَجَبَ تَصْدِيقُهُ، وَ«السُّؤَالُ عَنْهُ بِدَعَةٍ»^(١). السُّؤَالُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ بِدَعَةٍ؛ لِأَنَّ مَنْ هُمْ أَحْرَصُ مِنَّا عَلَى الْعِلْمِ مَا سَأَلُوا عَنْهَا، وَهُمْ الصَّحَابَةُ، لَمَّا قَالَ اللَّهُ: ﴿اِسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] عَرَفُوا عِظَمَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمَعْنَى الْاِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْأَلَ: كَيْفَ اسْتَوَى؛ لِأَنَّكَ لَنْ تُدْرِكَ ذَلِكَ. فَحَنُّ إِذَا

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٦٦٤)، والبيهقي في «الأساء والصفات» رقم (٨٦٧)، وقال الحافظ في «الفتح» (٤٠٧/١٣): إسناده جيد، وأخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١٠٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٥/٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٥١/٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد قول مالك: «وهذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا موقوفًا ومرفوعًا، ولكن ليس في إسناده مما يعتمد عليه، وهكذا سائر قولهم يوافق مالك». «مجموع الفتاوى» (٣٦٥/٥).

سُئِلْنَا فنقول: هَذَا السُّؤَالُ بِدْعَةٌ.

وكَلَامُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ مِيزَانٌ لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ. فَإِنْ قِيلَ لَكَ مَثَلًا: إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، كَيْفَ يَنْزِلُ؟ فَالْتَزَوُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيْيَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ.

وَالَّذِينَ يَسْأَلُونَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ النَّزُولُ وَثُلُثَ اللَّيْلِ يَنْتَقِلُ؟!

فنقول: السُّؤَالُ هَذَا بِدْعَةٌ، كَيْفَ تَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، وَهُمْ أَخْرَصُ مِنْكَ عَلَى الْخَيْرِ، وَعَلَى الْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَسْنَا بِأَعْلَمَ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَهُوَ لَمْ يُعْلِمْهُمْ. فَسُؤَالُكَ هَذَا بِدْعَةٌ، وَلَوْ لَا أَنَّنَا نُحْسِنُ الظَّنَّ بِكَ لَقُلْنَا مَا يَلِيقُ بِكَ بِأَنَّكَ رَجُلٌ مُبْتَدِعٌ.

وَالْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «مَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا» ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ؛ لِأَنَّ السَّلَفَ يَكْرَهُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ وَكَلَامَهُمْ وَاعْتِرَاضَاتِهِمْ وَتَقْدِيرَاتِهِمْ وَمُجَادَلَاتِهِمْ.

فَأَنْتَ -يَا أَخِي- عَلَيْكَ فِي هَذَا الْبَابِ بِالتَّسْلِيمِ، فَمِنْ تَمَامِ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ أَلَّا تَبْحَثَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ؛ وَلِهَذَا أَحَذَّرُكُمْ دَائِمًا مِنَ الْبَحْثِ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالتَّنَطُّعِ وَالشَّيْءِ الَّذِي مَا سَأَلَ الصَّحَابَةُ عَنْهُ؛ لِأَنَّنَا إِذَا فَتَحْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا هَذِهِ الْأَبْوَابَ انْفَتَحَتْ عَلَيْنَا الْأَبْوَابُ، وَتَهَدَّمَتِ الْأَسْوَارُ، وَعَجَزْنَا عَنْ صَبْطِ أَنْفُسِنَا؛ فَلِذَلِكَ قُلْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَمَّا وَصَدَّقْنَا، آمَنَّا وَصَدَّقْنَا بِالْخَيْرِ، وَأَطَعْنَا الطَّلَبَ، وَسَمِعْنَا الْقَوْلَ؛ حَتَّى تَسْلَمَ!

وَأَيُّ إِنْسَانٍ يَسْأَلُ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللَّهِ عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، فَقُلْ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ؛ فَإِنَّ لَكَ سَلَفًا: السُّؤَالُ عَنْ هَذَا بِدْعَةٌ. وَإِذَا قُلْتَ ذَلِكَ لَنْ يُلِحَّ عَلَيْكَ، وَإِذَا لَحَّ فَقُلْ: يَا مُبْتَدِعُ! السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، أَسْأَلُ عَنِ الْأَحْكَامِ الَّتِي أَنْتَ مُكَلَّفٌ بِهَا، أَمَّا أَنْ تَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالرَّبِّ عَزَّجَلَّ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، فَهَذَا لَا تُقْبَلُ مِنْكَ أَبَدًا!

وهناك كلامٌ للسلفِ يدلُّ على أنَّهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رُسوله من الصفات، كما نُقلَ عن الأوزاعيِّ وعُثْرَةَ، نُقلَ عنهم أنَّهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: «أمروها كما جاءت بِلَا كَيْفٍ»^(١) وهذا يدلُّ على أنَّهم يُثبتون لها معنى من وجهين:

أولاً: أنَّهم قالوا: «أمروها كما جاءت» ومعلومٌ أنَّها ألفاظٌ جاءت لِمَعَانٍ، ولم تأتِ عبثاً، فإذا أمرزناها كما جاءت لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ نُثَبِّتَ لها معنى.

ثانياً: قولهم: «بِلَا كَيْفٍ» لأنَّ نفي الكيفية يدلُّ على وجودِ أصلِ المعنى؛ لأنَّ نفي الكيفية عن شيءٍ لا يوجد لغوٌ وعبثٌ.

إذن: فهذا الكلامُ المشهورُ عند السلفِ يدلُّ على أنَّهم يُثبتون لهذه النصوصِ معنى. * «ولا تمثيل» يعني: ومن غير تمثيلٍ، فأهل السنة يتبرؤون من تمثيلِ الله عزَّ وجلَّ بخلقه، لا في ذاته ولا في صفاته.

والتَّمثِيلُ: ذِكْرُ مُمَثِّلٍ للشيءِ، وبينه وبين التَّكْيِيفِ عمومٌ وخصوصٌ مُطلق؛ لأنَّ كُلَّ مُثَمِّلٍ مُكَيَّفٌ، وليس كُلُّ مُكَيَّفٍ مُثَمِّلًا؛ لأنَّ التَّكْيِيفَ ذَكَرُ كَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مَقْرُونَةٍ بِمُمَثِّلٍ، مثلُ أَنْ تَقُولَ: لِي قَلَمٌ كَيْفِيَّتُهُ كَذَا وَكَذَا. فَإِنْ قُرِنتَ بِمُمَثِّلٍ صَارَ تَمَثُّيلاً، مثلُ أَنْ أَقُولَ: هَذَا الْقَلَمُ مِثْلُ هَذَا الْقَلَمِ؛ لِأَنِّي ذَكَرْتُ شَيْئًا مُمَثِّلًا لشيءٍ، وَعَرَفْتُ هَذَا الْقَلَمَ بِذِكْرِ مُمَثِّلِهِ.

وأهل السنة والجماعة يُثبتون لله عزَّ وجلَّ الصفاتِ بدونِ مُثَالَّةٍ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ حَيَاةٌ وَلَيْسَتْ مِثْلَ حَيَاتِنَا، لَهُ عِلْمٌ وَلَيْسَ مِثْلَ عِلْمِنَا، لَهُ بَصَرٌ وَلَيْسَ مِثْلَ بَصَرِنَا، لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ مِثْلَ وَجْهِنَا، لَهُ يَدٌ وَلَيْسَتْ مِثْلَ أَيْدِينَا... وهكذا جميع الصفاتِ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُمَثَّلُ خَلْقُهُ فِيمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَبَدًا، وَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أدِلَّةٌ سَمْعِيَّةٌ وأدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ:

أ- الأدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ:

تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: خَيْرٍ، وَطَلَبٍ.

(١) أخرجه الأجرى في الشريعة رقم (٧٢٠)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٨٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم (٩٣٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٩٥٥).

■ فَمِنْ الْخَيْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فَالْآيَةُ فِيهَا نَفْيٌ صَرِيحٌ لِلتَّمثِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ إِنْشَاءً، لَكِنَّهُ بِمَعْنَى الْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، فَهَذِهِ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْمِثَالَةِ، وَهِيَ كُلُّهَا خَبَرِيَّةٌ.

■ وَأَمَّا الطَّلَبُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، أَيْ: نُظَرَاءَ مُثَالِينَ. وَقَالَ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

فَمَنْ مَثَلَ اللهِ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَذَّبَ الْخَبَرَ، وَعَصَى الْأَمْرَ؛ وَلِهَذَا أَطْلَقَ بَعْضُ السَّلَفِ الْقَوْلَ بِالتَّكْفِيرِ لِمَنْ مَثَلَ اللهُ بِخَلْقِهِ، فَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ شَبَّهَ اللهُ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ»^(١)؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ التَّكْذِيبِ بِالْخَبَرِ وَعِصْيَانِ الطَّلَبِ.

وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَى انْتِفَاءِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ:

فَمِنْ وَجُوهِ:

أَوَّلًا: أَنْ نَقُولَ: لَا يُمَكِّنُ التَّمَاثُلُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ إِلَّا أَضَلُّ الْوُجُودِ لَكَانَ كَافِيًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ وَاجِبٌ، فَهُوَ أَزَلِّيٌّ أَبَدِيٌّ، وَوُجُودَ الْمَخْلُوقِ مُمَكِّنٌ مُسَبِّقٌ بَعْدَمٍ وَيَلْحَقُهُ فَنَاءٌ، فَمَا كَانَا كَذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمَا مُتَمَاثِلَانِ.

ثَانِيًا: أَنَّا نَجِدُ التَّبَايُنَ الْعَظِيمَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فِي صِفَاتِهِ وَفِي أَفْعَالِهِ، فِي صِفَاتِهِ: يَسْمَعُ عَزَّجَلَّ كُلَّ صَوْتٍ مَهْمًا خَفِيًّا، وَمَهْمًا بَعْدَ، لَوْ كَانَ فِي قِعَارِ الْبَحَارِ لَسَمِعَهُ عَزَّجَلَّ.

وَأَنْزَلَ اللهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ نَحْوَ رُكْمًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، تَقُولُ عَائِشَةُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٩٣٦)، وصححه الألباني في «مختصر العلو» (ص: ١٨٤)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠/ ٦١٠).

الأصوات؛ إِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»^(١)، والله تَعَالَى سَمِعَهَا مِنْ عَلَى عَرْشِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَا لَا يَعْلَمُ مَدَاهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ سَمَعَ اللَّهُ مِثْلَ سَمْعِنَا.

ثالثاً: نقول: نحنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبَايِنٌ لِلخَلْقِ بذاتِهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا؛ فَإِذَا كَانَ مُبَايِنًا لِلخَلْقِ فِي ذَاتِهِ فَالصِّفَاتُ تَابِعَةٌ لِلذَّاتِ، فَيَكُونُ أَيْضًا مُبَايِنًا لِلخَلْقِ فِي صِفَاتِهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُمَكِّنُ التَّمَثُّلَ بَيْنَ الخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ.

رابعاً: نقول: إِنَّا نَشَاهِدُ فِي المَخْلُوقَاتِ أَشْيَاءَ تَتَّفِقُ فِي الْأَسْمَاءِ وَتُخْتَلِفُ فِي الْمُسَمِّيَّاتِ، يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِي صِفَاتِهِمْ: هَذَا قَوِيُّ الْبَصَرِ وَهَذَا ضَعِيفُهُ، وَهَذَا قَوِيُّ السَّمْعِ وَهَذَا ضَعِيفٌ، هَذَا قَوِيُّ الْبَدَنِ وَهَذَا ضَعِيفُهُ، وَهَذَا ذَكَرٌ وَهَذِهِ أُنْثَى... وَهَكَذَا التَّبَايُنُ فِي المَخْلُوقَاتِ الَّتِي مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، فَمَا بِالْكَ بِالمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ؟ فَالتَّبَايُنُ بَيْنَهَا أَظْهَرُ؛ وَلِهَذَا لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ لِي يَدًا كَيَدِ الْجَمَلِ، أَوْ لِي يَدًا كَيَدِ الذَّرَّةِ، أَوْ لِي يَدًا كَيَدِ الْهَرِّ.

فعندنا الآن: إنسانٌ وَجَمَلٌ وَذَرَّةٌ وَهَرٌّ، كُلُّ وَاحِدٍ لَهُ يَدٌ مُخْتَلِفَةٌ عَنِ الثَّانِي، مَعَ أَنَّهَا مُتَّفِقَةٌ فِي الْأَسْمِ. فنقول: إِذَا جازَ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْمُسَمِّيَّاتِ فِي المَخْلُوقَاتِ مَعَ اتِّفَاقِ الْأَسْمِ، فَجَوَازُهُ بَيْنَ الخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

بَلْ نحنُ نقول: إِنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ لَيْسَ جَائِزًا فَقْطً، بَلْ هُوَ وَاجِبٌ. فعندنا أَرْبَعَةٌ وَجُوهٌ عَقْلِيَّةٌ، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الخَالِقَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَثِّلَ المَخْلُوقُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

(١) أخرجه البخاري معلقاً: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، «الفتح» (١٣/ ٣٧٢)، وقد وصله أحمد في «المسند» (٤٦/ ٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨) بهذا اللفظ، وأخرجه ابن ماجه أيضاً: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣) بلفظ: «تبارك».

رَبًّا نَقُولُ أَيْضًا: هُنَاكَ دَلِيلٌ فِطْرِيٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْطُرُهُ بَدُونُ أَنْ يُلَقَّنَ يَعْرِفُ
الْفَرْقَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، وَلَوْلَا هَذِهِ الْفِطْرَةُ مَا ذَهَبَ يَدْعُو الْخَالِقَ.

فَتَبَيَّنَ الْآنَ أَنَّ التَّمثِيلَ مُتَنَفٍ سَمْعًا وَعَقْلًا وَفِطْرَةً.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَنَا بِأَحَادِيثَ تُشَبِّهُ عَلَيْنَا، هَلْ هِيَ تَمثِيلٌ أَوْ غَيْرُ تَمثِيلٍ؟
وَنَحْنُ نَضَعُهَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَرَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَافُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(١)،
فَقَالَ: «كَمَا» وَالْكَافُ لِلتَّشْبِيهِ، وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ مِنْ قَاعِدَتِنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِمَا قَالَ
الرَّسُولُ كَمَا نُؤْمِنُ بِمَا قَالَ اللَّهُ، فَأَجِيبُوا عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟

نَقُولُ: نُجِيبُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَعَنْ غَيْرِهِ بِجَوَابَيْنِ: الْجَوَابُ الْأَوَّلُ مُجْمَلٌ، وَالثَّانِي
مُفَصَّلٌ.

فَالْأَوَّلُ الْمُجْمَلُ: أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ تَعَارُضُ بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ الَّذِي صَحَّ
عَنْهُ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْكُلَّ حَقٌّ، وَالْحَقُّ لَا يَتَعَارَضُ، وَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاقَضُ
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فَإِنْ وَقَعَ مَا يُوهِمُ التَّعَارُضَ فِي فَهْمِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِحَسَبِ النَّصِّ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ
مَا عِنْدَكَ، فَانْتَ إِذَا وَقَعَ التَّعَارُضُ عِنْدَكَ فِي نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فِيمَا لِقَلَّةِ الْعِلْمِ، وَإِمَّا
لِقُصُورِ الْفَهْمِ، وَإِمَّا لِلتَّقْصِيرِ فِي الْبَحْثِ وَالتَّدْبِيرِ، وَلَوْ بَحَثْتَ وَتَدَبَّرْتَ لَوَجَدْتَ أَنَّ التَّعَارُضَ
الَّذِي تَوَهَّمْتَهُ لَا أَصْلَ لَهُ، وَإِمَّا لِسُوءِ الْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، بَحِثْ تَسْتَعْرِضْ مَا ظَاهَرَهُ التَّعَارُضُ
لَطَلَبِ التَّعَارُضِ، فَتُحْرَمِ التَّوْفِيقَ، كَأَهْلِ الزَّيْفِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ الْمُجْمَلِ أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْكَ عِنْدَ الْاِسْتِثْنَاءِ أَنْ تَرُدَّ الْمُشْتَبَهَ إِلَى الْمُحْكَمِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد
ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن
عبد الله رضي الله عنه.

لأنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ طَرِيقَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧٧]، وَيَحْمِلُونَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى الْمُحْكَمِ حَتَّى يَبْقَى النَّصُّ كُلُّهُ مُحْكَمًا.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَلُ فَإِنْ نُجِيبَ عَنْ كُلِّ نَصٍّ بِعَيْنِهِ، فنقول:

إِنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» لَيْسَ تَشْبِيهًا لِلْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِي، وَلَكِنَّهُ تَشْبِيهُ لِلرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا «تَرُونَ... كَمَا تَرُونَ» فَالْكَافُ فِي: «كَمَا تَرُونَ»: دَاخِلَةٌ عَلَى مَصْدَرٍ مُؤَوَّلٍ؛ لِأَنَّ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: كَرُؤْيَيْتُمْ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ التَّشْبِيهُ لِلرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا لَا الْمَرْئِي بِالْمَرْئِي، وَالْمَرَادُ أَنَّكُمْ تَرُونَهُ رُؤْيَا وَاضِحَةً كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ وَلِهَذَا أَقْبَعَهُ بِقَوْلِهِ: «لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» أَوْ: «لَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» فَزَالَ الْإِشْكَالُ الْآنَ!

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(١)، وَالصُّورَةُ مُثَالَةٌ لِأُخْرَى، وَلَا يُعْقَلُ صُورَةٌ إِلَّا مُثَالَةٌ لِأُخْرَى؛ وَلِهَذَا أَكْتُبُ لَكَ رِسَالَةً، ثُمَّ تَدْخُلُهَا الْآلَةُ الْفُوتُوغَرَفِيَّةُ، وَتُخْرِجُ الرِّسَالَةَ، فَيَقَالُ: هَذِهِ صُورَةُ هَذِهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ، فَالصُّورَةُ مُطَابَقَةٌ لِلصُّورَةِ، وَالْقَائِلُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»: الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْلَمُ وَأَصْدَقُ وَأَنْصَحُ وَأَفْصَحُ الْخَلْقِ.

وَالْجَوَابُ الْمُجْمَلُ: أَنْ نَقُولَ: لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنَاقِضَ هَذَا الْحَدِيثَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فَإِنْ يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ الْجَمْعَ فَاجْمَعْ، وَإِنْ لَمْ يَتيسَّرْ فَقُلْ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧٧]، وَعَقِيدَتُنَا أَنَّ اللَّهَ لَا مِثْلَ لَهُ، فَبِهَذَا تَسَلَّمَ أَمَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

هَذَا كَلَامُ اللَّهِ، وَهَذَا كَلَامُ رَسُولِهِ، وَالْكُلُّ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّهُ كُلُّهُ خَبَرٌ وَلَيْسَ حُكْمًا كَيْ يُنْسَخَ، فَأَقُولُ: هَذَا نَفْيٌ لِلْمِثَالَةِ، وَهَذَا إِبْثَابٌ لِلصُّورَةِ؛ فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، فَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ، وَهَذَا كَلَامُ رَسُولِهِ، وَالْكُلُّ حَقٌّ نَوْْمٌ بِهِ، وَنَقُولُ: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَنَسْكُتُ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ مَا تَسْتَطِيعُ.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ فنَقُولُ: إِنَّ الَّذِي قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»: رَسُولُ الَّذِي قَالَ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١]، وَالرَّسُولُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْطَقَ بِمَا يُكَذِّبُ الْمُرْسِلَ، وَالَّذِي قَالَ: «خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»: هُوَ الَّذِي قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ»^(١)، فَهَلْ أَنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، أَوْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ، لَكِنْ فِي الْوَصَافَةِ وَالْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَاسْتِدَارَةِ الْوَجْهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ؟! فَإِنْ قُلْتَ بِالْأَوَّلِ فَمُقْتَضَاهُ أَنَّهُمْ دَخَلُوا وَلَيْسَ لَهُمْ أَعْيُنٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ آنَافٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَفْوَاهٌ! وَإِنْ شِئْنَا قُلْنَا: دَخَلُوا وَهُمْ أَحْجَارٌ!

وَأِنْ قُلْتَ بِالثَّانِي زَالَ الْإِشْكَالُ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَلَزِمُ مِنْ كَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى صُورَةِ الشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ مِثْلًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

فَإِنْ أَبَى فَهَيْئَتُكَ، وَتَقَاصَرَ عَنْ هَذَا، وَقَالَ: أَنَا لَا أَفْهَمُ إِلَّا أَنَّهُ مِثْلٌ.

قُلْنَا: هُنَاكَ جَوَابٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْإِضَافَةَ هُنَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَى خَالِقِهِ، فَقَوْلُهُ: «عَلَى صُورَتِهِ» مِثْلُ قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ فِي آدَمَ: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» [ص: ٧٢]، وَلَا يُمَكِّنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَعْطَى آدَمَ جُزْءًا مِنْ رُوحِهِ، بَلِ الْمُرَادُ الرُّوحَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ إِضَافَتُهَا إِلَى اللَّهِ بِخُصُوصِهَا مِنْ بَابِ الشَّرِيفِ، كَمَا نَقُولُ: عِبَادُ اللَّهِ، يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُسْلِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالشَّهِيدَ وَالصَّادِقَ وَالنَّبِيَّ. لَكِنَّا لَوْ قُلْنَا: مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ، هَذِهِ إِضَافَةٌ خَاصَّةٌ، لَيْسَتْ كَالْعُبُودِيَّةِ السَّابِقَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، رقم (٢٨٣٤)، من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

فقوله: «خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» يعني: صُورَةً مِنَ الصُّورِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ وَصَوَّرَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، والمصور آدم.

إذن: فآدم على صورة الله، يعني: أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعدُّ أَحْسَنَ صُورَةٍ فِي المَخْلُوقَاتِ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فإضافة الله للصورة إليه مِنْ بَابِ التَّشْرِيفِ، كَأَنَّهُ عَزَّجَلَّ اعْتَنَى بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ فَتَعْيِيهِ حَسًّا، وَلَا تُقَبِّحْهُ فنقول: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشَبَّهَ وَجْهَكَ. فَتَعْيِيهِ مَعْنَى. فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ الصُّورَةُ الَّتِي صَوَّرَهَا اللَّهُ وَأَصَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا لَا تُقَبِّحُهَا بَعِيْبٌ حَسِّيٌّ وَلَا بَعِيْبٌ مَعْنَوِيٌّ.

ثُمَّ هَلْ يُعْتَبَرُ هَذَا الْجَوَابُ تَحْرِيفًا أَمْ لَهُ نَظِيرٌ؟

نقول: لَهُ نَظِيرٌ، كَمَا فِي: بَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، وَعَبْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ (أَي: صُورَةَ آدَمَ) مُتَفَصِّلَةٌ بَائِتَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَصَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ مُتَفَصِّلٌ بَائِتٌ عَنْهُ فَهُوَ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، فَحِينَئِذٍ يَزُولُ الإِشْكَالُ.

وَلَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيُّهَا أَسْلَمُ: الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَوِ الثَّانِي؟ قُلْنَا: الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَسْلَمَ، مَا دُمْنَا نَجِدُ أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ مَسَاعًا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِمْكَانًا فِي الْعَقْلِ، فَالوَاجِبُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ وَجَدْنَا أَنَّ الصُّورَةَ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا مُثَالَّةُ الصُّورَةِ الْأُخْرَى، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْأَسْلَمُ أَنَّ نَحْمِلَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ.

فإِذَا قُلْتَ: مَا هِيَ الصُّورَةُ الَّتِي تَكُونُ اللَّهُ وَيَكُونُ آدَمُ عَلَيْهَا؟

قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَهُ وَجْهٌ، وَلَهُ عَيْنٌ، وَلَهُ يَدٌ، وَلَهُ رِجْلٌ عَزَّجَلَّ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مُثَالَّةً لِلْإِنْسَانِ، فَهَنَّاكَ شَيْءٌ مِنَ الشَّيْءِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْمُثَالَّةِ، كَمَا أَنَّ الزُّمَرَةَ الْأُولَى مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا شَبَّهَ مِنَ الْقَمَرِ، لَكِنْ بَدُونِ مُثَالَّةٍ، وَهَذَا يَصْدُقُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ أَنَّ جَمِيعَ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَتْ مُثَالَّةً لَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، مِنْ

غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

نَسْمَعُ كَثِيرًا مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي نَقْرُؤُهَا يَقُولُونَ: تَشْبِيهِ. يُعْبَرُونَ بِالتَّشْبِيهِ وَهُمْ يَقْصِدُونَ التَّمْثِيلَ، فَأَيُّهَا أُولَى: أَنْ نُعْبَرَ بِالتَّشْبِيهِ أَوْ نُعْبَرَ بِالتَّمْثِيلِ؟
نَقُولُ: بِالتَّمْثِيلِ أُولَى.

أولاً: لِأَنَّ الْقُرْآنَ عَبَّرَ بِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]... وَمَا أَشَبَّهَ ذَلِكَ، وَكُلُّ مَا عَبَّرَ بِهِ الْقُرْآنُ فَهُوَ أُولَى مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّا لَا نَجِدُ أَفْصَحَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا أَذَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْ كَلَامِهِ، فَتَكُونُ مُوَافَقَةُ الْقُرْآنِ هِيَ الصَّوَابُ، فَنُعْبَرُ بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ. وَهَكَذَا فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَإِنَّ مُوَافَقَةَ النَّصِّ فِي اللَّفْظِ أُولَى مِنْ ذِكْرِ لَفْظٍ مُرَادِفٍ أَوْ مُقَارِبٍ.

ثانياً: أَنَّ التَّشْبِيهَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ يَعْنِي إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ؛ وَلِهَذَا يُسَمُّونَ أَهْلَ السُّنَّةِ: مُشَبِّهَةً، فَإِذَا قُلْنَا: مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَهَذَا الرَّجُلُ لَا يَفْهَمُ مِنَ التَّشْبِيهِ إِلَّا إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ صَارَ كَأَنَّا نَقُولُ لَهُ: مِنْ غَيْرِ إِثْبَاتِ صِفَاتٍ! فَصَارَ مَعْنَى التَّشْبِيهِ يُؤْهِمُ مَعْنَى فَاسِداً؛ فَلِهَذَا كَانَ الْعُدُولُ عَنْهُ أُولَى.

ثالثاً: أَنَّ نَفْيَ التَّشْبِيهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ مِنَ الْأَعْيَانِ أَوْ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَالِاشْتِرَاكُ نَوْعٌ تَشَابُهُ، فَلَوْ نَفَيْتَ التَّشْبِيهَ مُطْلَقًا لَكُنْتَ نَفَيْتَ كُلَّ مَا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ فِي شَيْءٍ مَا.

مثلاً: الوجودُ، يَشْتَرِكُ فِي أَصْلِهِ الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ، هَذَا نَوْعٌ اشْتِرَاكٍ وَنَوْعٌ تَشَابُهُ، لَكِنْ فَرْقٌ بَيْنَ الْوُجُودَيْنِ، وَوُجُودُ الْخَالِقِ وَاجِبٌ، وَوُجُودُ الْمَخْلُوقِ مُمَكِّنٌ.

وَكَذَلِكَ السَّمْعُ، فِيهِ اشْتِرَاكٌ، الْإِنْسَانُ لَهُ سَمْعٌ، وَالْخَالِقُ لَهُ سَمْعٌ، لَكِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، لَكِنْ أَصْلُ وَجُودِ السَّمْعِ مُشْتَرِكٌ.

فَإِذَا قُلْنَا: مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَنَفَيْتُمَا مُطْلَقَ التَّشْبِيهِ صَارَ فِي هَذَا إِشْكَالٌ.

وَبِهَذَا عَرَفْنَا أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالتَّمْثِيلِ أُولَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ.

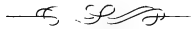
فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّكْيِيفِ وَالتَّمثِيلِ؟

فالجواب: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمثال، فتقول: يد فلان مثل يد فلان. والتكليف ذكر الصفة غير مقيدة بمثال، مثل أن تقول: كيفية يد فلان كذا وكذا.

وعلى هذا نقول: كل مثل مكيف، ولا عكس.

الثاني: أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: في العدد.



* قوله: «بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].»

[الشورى: ١١].»

الشرح:

قوله: «بَلْ يُؤْمِنُونَ...» أي: يُقرُّ أهل السنة والجماعة بذلك إقراراً وتصديقاً بأن الله ليس كمثله شيء، كما قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فهنا نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر، فنفى العيب، ثم أثبت الكمال؛ لأن نفى العيب قبل إثبات الكمال؛ ولهذا يقال: التخليّة قبل التحلية. فنفي العيوب يبدأ به أولاً، ثم يذكر إثبات الكمال.

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبداً عز وجل، أي مخلوق وإن عظم فليس مثلاً لله عز وجل؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكاثل تجعله ناقصاً؛ كما قيل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا^(١)

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٤٢)، غير منسوب.

فَهَذَا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ مِثْلًا. لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ تَنْقُصُ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ فلهَذَا نَقُولُ: نَفَى اللَّهُ عَنْ
نَفْسِهِ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ نَقْصٌ وَعَيْبٌ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ نَاقِصٌ، وَتَمَثُّلُ
الْكَامِلِ بِالْناقِصِ يَجْعَلُهُ نَاقِصًا، بَلْ ذِكْرُ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمَا يَجْعَلُهُ نَاقِصًا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي مَقَامِ
التَّحَدِّي؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ
اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رَدُّ صَرِيحٌ عَلَى الْمُثَلَّةِ، الَّذِينَ يُثْبِتُونَ أَنَّ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ مِثْلٌ.

وَحُجَّتُهُ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْفُرْآنَ عَرَبِيٌّ، وَإِذَا كَانَ عَرَبِيًّا فَقَدْ خَاطَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِمَا
نَفْهَمُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخَاطَبَنَا بِمَا لَا نَفْهَمُ، وَقَدْ خَاطَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّ لَهُ وَجْهًا، وَإِنَّ لَهُ
عَيْنًا، وَإِنَّ لَهُ يَدَيْنِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا نَعْقِلُ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ هَذِهِ
الْأَشْيَاءِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَشَاهِدُ، وَعَلَى هَذَا فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَذْلُومُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُمَاثَلًا لِمَذْلُومِهَا
بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ: يَدٌ وَيَدٌ، وَعَيْنٌ وَعَيْنٌ، وَوَجْهٌ وَوَجْهٌ... وَهَكَذَا، فَنَحْنُ إِنَّمَا قُلْنَا بِذَلِكَ
لَأَنَّ لَدَيْنَا دَلِيلًا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَاهِيَةً، وَيُوْهِيهَا مَا سَبَقَ مِنْ بَيَانِ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ،
وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ خَاطَبَنَا بِمَا خَاطَبَنَا بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ، لَكِنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الصِّفَةَ بِحَسَبِ
الْمَوْصُوفِ، وَدَلِيلُ هَذَا فِي الشَّاهِدِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: لِلْجَمَلِ يَدٌ وَلِلذَّرَّةِ يَدٌ، وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنَ الْيَدِ
الَّتِي أَضَفْنَاهَا إِلَى الْجَمَلِ أَنَّهَا مِثْلُ الْيَدِ الَّتِي أَضَفْنَاهَا إِلَى الذَّرَّةِ! هَذَا وَهُوَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ،
فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَوْصَافِ الْخَالِقِ؟! فَإِنَّ التَّبَاطُحَ يَكُونُ أَظْهَرَ وَأَجْلَى.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُثَلَّةِ مَرْدُودًا بِالْعَقْلِ كَمَا أَنَّهُ مَرْدُودٌ بِالسَّمْعِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السَّمْعَ وَالْبَصَرَ؛
لِبَيَانِ كَمَالِهِ، وَتَنْقُصِ الْأَضْنَامِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَالْأَضْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى لَا
يَسْمَعُونَ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا، وَلَا يُبْصِرُونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

دُونَ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمُوتُوا غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾
 [النحل: ٢٠-٢١]، فَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سَمْعٌ وَلَا عَقْلٌ وَلَا بَصَرٌ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ لَهُمْ ذَلِكَ مَا اسْتَجَابُوا:
 ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بَانْتِفَاءِ الْمَائِلَةِ عَنِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا غَيْبٌ، وَيُثْبِتُونَ لَهُ السَّمْعَ
 وَالْبَصَرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإيمان الإنسان بذلك يُثَمِّرُ للعبد أن يُعَظِّمَهُ غَايَةَ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ أَحَدٌ مِنَ
 الْمَخْلُوقَاتِ، فَتُعَظَّمُ هَذَا الرَّبِّ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُبَايِنُهُ أَحَدٌ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فَائِدَةٌ مِنْ
 إِيْمَانِكَ بِأَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

إِذَا آمَنْتَ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَخْتَرِّزُ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ يُغْضِبُ اللَّهَ؛ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ
 يَسْمَعُكَ، فَتَخْشَى عِقَابَهُ، فَكُلُّ قَوْلٍ يَكُونُ فِيهِ مَعْصِيَةُ اللَّهِ عَزَّجَلْ فَسَوْفَ تَحَاشَاهُ؛ لِأَنَّكَ
 تُؤْمِنُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ، وَإِذَا لَمْ يُجِدْ لَكَ هَذَا الْإِيْمَانُ هَذَا الشَّيْءَ فَاعْلَمْ أَنَّ إِيْمَانَكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 إِيْمَانٌ نَاقِصٌ بِلَا شَكٍّ.

إِذَا آمَنْتَ بِأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ فَلَنْ تَتَكَلَّمَ إِلَّا بِمَا يُرْضِيهِ، وَلَا سِيَّيَا إِذَا كُنْتَ تَتَكَلَّمُ مُعَبِّرًا عَنْ
 شَرْعِهِ، وَهُوَ الْمُفْتِي وَالْمُعَلِّمُ؛ فَإِنَّ هَذَا أَشَدُّ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فَإِنَّ هَذَا
 مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وَهَذَا مِنْ
 عُقُوبَةِ مَنْ يُفْتِي بِلَا عِلْمٍ، أَنَّهُ لَا يَهْدِي؛ لِأَنَّهُ ظَالِمٌ.

فَحَذَارِ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ أَنْ يَقُولَ قَوْلًا لَا يُرْضِي اللَّهَ، سِوَاءَ قُلْتَهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ عَلَى غَيْرِ
 هَذَا الْوَجْهِ.

وَتَمَرَّةُ الْإِيْمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ أَنْ لَا تَفْعَلَ شَيْئًا يُغْضِبُ اللَّهَ؛ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ تَنْظُرُ
 نَظْرَةً مُحَرَّمَةً لَا يَفْهَمُ النَّاسُ أَنَّهَا نَظْرَةٌ مُحَرَّمَةٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَى هَذِهِ النَّظْرَةَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي

قَلْبِكَ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، إِذَا آمَنْتَ بِهَذَا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفْعَلَ
فِعْلًا لَا يَرْضَاهُ أَبَدًا، اسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحْيِي مِنَ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْكَ، وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيمًا
مِنْكَ.

إِذَنْ: إِذَا آمَنَّا بِأَنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ فَسَوْفَ نَتَحَاشَى كُلَّ فِعْلٍ يَكُونُ سَبَبًا لِعَظَبِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ،
وَلَا فَإِنْ إِيْمَانَنَا بِذَلِكَ نَاقِصٌ.

لَوْ أَنَّ أَحَدًا أَشَارَ بِأَصْبُعِهِ أَوْ شَفَتِهِ أَوْ بَعِيْنِهِ، أَوْ بِرَأْسِهِ لِأَمْرِ مُحَرَّمٍ، فَالنَّاسُ الَّذِينَ حَوْلَهُ
لَا يَعْلَمُونَ عَنْهُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ، فَلْيَحْذَرْ هَذَا مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَلَوْ أَنَّنَا نُوْمِنُ بِمَا تَقْتَضِيهِ
أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ لَوُجِدَتِ الْاِسْتِقَامَةُ كَامِلَةً فِينَا. فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.



* قَوْلُهُ: «فَلَا يَنْفَوْنَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ».

الشرح:

قَوْلُهُ: «لَا يَنْفَوْنَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ» أَيُّ: لَا يَنْفِي أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَنِ اللَّهِ مَا
وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِلنَّصِّ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا؛ فَكُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ يُثْبِتُونَهُ عَلَى
حَقِيقَتِهِ، فَلَا يَنْفَوْنَ عَنِ اللَّهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، سِوَاءُ كَانَ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ أَوِ الْفِعْلِيَّةِ
(أَوِ الْحَرِيَّةِ).

الصِّفَاتُ الذَّاتِيَّةُ: كَالْحَيَاةِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْعِلْمِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَتَنْقَسِمُ إِلَى: ذَاتِيَّةٍ
مَعْنَوِيَّةٍ، وَذَاتِيَّةٍ خَرِيَّةٍ؛ وَهِيَ الَّتِي مُسَمَّاها أَبْعَاضٌ لَنَا وَأَجْزَاءٌ: كَالْيَدِ، وَالْوَجْهِ، وَالْعَيْنِ، فَهَذِهِ
يُسَمِّيها الْعُلَمَاءُ ذَاتِيَّةً خَرِيَّةً.

ذَاتِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا تَنْفَصِلُ، وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا. خَرِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُا مُتَلَقَّاةٌ بِالْخَرِ،
فَالْعَقْلُ لَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنَا أَنَّ لَهُ يَدًا مَا عَلِمْنَا بِذَلِكَ، لَكِنَّهُ أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ،
بِخِلَافِ الْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ فَإِنَّ هَذَا نَذْرُكُهُ بِعُقُولِنَا مَعَ دَلَالَةِ السَّمْعِ؛ لِهَذَا نَقُولُ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الصِّفَاتِ الْبِيدِ وَالْوَجْهِ وَمَا أَشْبَهَهَا: إِنَّهَا ذَاتِيَّةٌ خَرِيَّةٌ. وَلَا نَقُولُ: أَجْزَاءٌ وَأَبْعَاضٌ، بَلْ

تَحَاشَى هَذَا اللَّفْظَ، لَكِنْ مُسَمَّاها لَنَا أَجْزَاءً وَأَبْعَاضٌ؛ لِأَنَّ الْجُزْءَ وَالْبَعْضَ مَا جَارَ انْفِصَالُهُ عَنِ الْكُلِّ، فَالرَّبُّ عَزَّجَلَّ لَا يُتَصَوَّرُ أَنَّ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ -كَالْيَدِ- أَنْ تَزُولَ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِهَا أَرْلًا وَأَبَدًا؛ وَلِهَذَا لَا نَقُولُ: إِنَّهَا أَبْعَاضٌ وَأَجْزَاءٌ.

وَالصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ: هِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِمَشِيئَتِهِ، إِنْ شَاءَ فَعَلَهَا، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلَهَا، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ مِنْهَا مَا يَكُونُ لَهُ سَبَبٌ، وَمِنْهَا مَا لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ذَاتِيًّا فَعَلِيًّا.

قَوْلُهُ: «وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»: (الْكَلِمُ): اسْمٌ، جَمْعُ كَلِمَةٍ، وَيُرَادُ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ.

لَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، أَيُّ: عَنْ مَذْلُولَاتِهِ، فَمَثَلًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] يَقُولُونَ: هِيَ يَدٌ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ. وَالْمُحَرِّفُونَ يَقُولُونَ: قُوَّتُهُ، أَوْ: نِعْمَتُهُ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَيَقُولُونَ: الْقُوَّةُ شَيْءٌ وَالْيَدُ شَيْءٌ آخَرُ، وَالنِّعْمَةُ شَيْءٌ وَالْبِدُّ شَيْءٌ آخَرُ، فَهُمْ لَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَإِنَّ التَّحْرِيفَ مِنْ ذَأَبِ الْيَهُودِ ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، فَكُلُّ مَنْ حَرَّفَ نِصْوَصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِيهِ شَبَهُ مِنْ الْيَهُودِ، فَاحْذَرْ هَذَا، وَلَا تَتَّشَبَهْ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، لَا تُحَرِّفْ، بَلْ فَسِّرِ الْكَلَامَ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

وَمِنْ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ مَا يُذَكِّرُ عَنْهُ: «أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ، وَأَمَنْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ».



* قَوْلُهُ: «وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «لَا يُلْحِدُونَ...» أَيُّ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

والإلحاد في اللُّغَةِ: المِيلُ، ومنه سُمِّيَ اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ؛ لِأَنَّهُ مَائِلٌ إِلَى جَانِبٍ مِنْهُ، وَلَيْسَ مُتَوَسِّطًا، وَالْمُتَوَسِّطُ يُسَمَّى شَقًّا، وَاللَّحْدُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّقِّ.

فَهُمْ لَا يُلْحَدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَلَا يُلْحَدُونَ أَيْضًا فِي آيَاتِ اللَّهِ، فَأَفَادَنَا الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الإِلْحَادَ يَكُونُ فِي مَوْضِعَيْنِ: فِي الْأَسْمَاءِ وَفِي الْآيَاتِ.

هَذَا الَّذِي يُفِيدُهُ كَلَامُ الْمُؤَلَّفِ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فَأُثْبِتَ اللَّهُ الإِلْحَادَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، فَأُثْبِتَ اللَّهُ الإِلْحَادَ فِي الْآيَاتِ.

فَالإِلْحَادُ فِي الْأَسْمَاءِ هُوَ الْمِيلُ فِيهَا عَمَّا يَحِبُّ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ، كَمَا سَمَاهُ الْفَلَاسِفَةُ: عِلَّةً فَاعِلَةً، وَسَمَاهُ النَّصَارَى أَبًا، وَعِيسَى ابْنًا، فَهَذَا الإِلْحَادُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ لَوْ سَمَى اللَّهُ بِأَيِّ اسْمٍ لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ فَهُوَ مُلْحَدٌ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ.

وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَوْفِيقِيَّةٌ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُثْبِتَ لَهُ إِلَّا مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ، فَإِذَا سَمَّيْتَ اللَّهُ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ فَقَدْ أَلْحَدْتَ وَمِلْتَ عَنِ الْوَاجِبِ.

وَتَسْمِيَةُ اللَّهِ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ سُوءُ آدَبٍ مَعَ اللَّهِ، وَظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ فِي حَقِّهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَنَّ أَحَدًا دَعَاكَ بِغَيْرِ اسْمِكَ أَوْ سَمَّاكَ بِغَيْرِ اسْمِكَ لَاعْتَبَرْتَهُ قَدْ اعْتَدَى عَلَيْكَ وَظَلَمَكَ، هَذَا فِي الْمَخْلُوقِ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ؟!

إِذَنْ: لَيْسَ لَكَ حَقٌّ أَنْ تُسَمِّيَ اللَّهَ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَانْتَ مُلْحَدٌ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ أَسْمَائِهِ، عَكْسُ الْأَوَّلِ، فَالْأَوَّلُ سَمَّى اللَّهُ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ، وَهَذَا جَرَدَ اللَّهُ مِمَّا سَمَى بِهِ نَفْسُهُ، فَيُنْكِرُ الْاسْمَ، سِوَاءَ أَنْكَرَ كُلَّ الْأَسْمَاءِ أَوْ بَعْضَهَا الَّتِي تَثْبُتُ لِلَّهِ، فَإِذَا أَنْكَرَهَا فَقَدْ أَلْحَدَ فِيهَا.

ووجهُ الإلحادِ فيها: أَنَّهُ لَمَّا أَثْبَتَهَا اللهُ لِنَفْسِهِ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نُثْبِتَهَا لَهُ، فَإِذَا نَعَيْنَاهَا كَانَ
الإلحادَ وميلًا بِهَا عَمَّا يَحِبُّ فِيهَا.

وهُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ أَنْكَرَ الْأَسْمَاءَ، كَعُلَاةِ الْجَهَنَّمِيَّةِ، فَقَالُوا: لَيْسَ اللهُ اسْمًا أَبَدًا! قَالُوا:
لَأَنْتَ لَوْ أَثْبَتَ لَهُ اسْمًا شَبَّهْتَهُ بِالْمَوْجُودَاتِ. وَهَذَا مَعْرُوفٌ أَنَّهُ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ.

النُّوعُ الثَّالِثُ: أَنْ يُنْكِرَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، فَهُوَ يُثْبِتُ الْاسْمَ، لَكِنْ يُنْكِرُ
الصِّفَةَ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا هَذَا الْاسْمُ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَلَا سَمْعٍ، وَعَلِيمٌ بَلَا عِلْمٍ،
وَخَالِقٌ بَلَا خَلْقٍ، وَقَادِرٌ بَلَا قُدْرَةٍ... وَهَذَا مَعْرُوفٌ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مَعْقُولٍ!

ثُمَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَسْمَاءَ أَعْلَامًا مَخْصُصَةً مُتَغَايِرَةً، فَيَقُولُونَ: السَّمِيعُ غَيْرُ الْعَلِيمِ، لَكِنْ
كُلُّهَا لَيْسَ لَهَا مَعْنَى! السَّمِيعُ لَا يَدُلُّ عَلَى السَّمْعِ! وَالْعَلِيمُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ! لَكِنْ مُجَرَّدُ
أَعْلَامٍ!!

وَمِنْهُمْ آخَرُونَ يَقُولُونَ: هَذِهِ الْأَسْمَاءُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فِيهِ عِلْمٌ وَسَمِيعٌ وَبَصِيرٌ: كُلُّهَا
وَاحِدٌ، لَا تَخْتَلِفُ إِلَّا بِتَرْكِيبِ الْحُرُوفِ فَقَطْ، فَيَجْعَلُ الْأَسْمَاءَ شَيْئًا وَاحِدًا!!

وَكُلُّ هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ؛ وَلِذَلِكَ نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْإِيمَانَ بِالْأَسْمَاءِ حَتَّى تُثْبِتَ
مَا تَصَمَّنَتْهُ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَلَعَلَّنَا مِنْ هُنَا نَتَكَلَّمُ عَلَى دَلَالَةِ الْاسْمِ، فَالْاسْمُ لَهُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ فِي الدَّلَالَةِ: دَلَالَةٌ مُطَابَقَةٍ،
وَدَلَالَةٌ تَضَمُّنٍ، وَدَلَالَةٌ اِتِّزَامٍ.

١- فِدَلَالَةُ الْمُطَابَقَةِ: دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى جَمِيعِ مَذْلُولِهِ، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ اسْمٍ دَالٌّ عَلَى
الْمُسَمَّى بِهِ، وَهُوَ اللَّهُ، وَعَلَى الصِّفَةِ الْمُسْتَقَّةِ مِنْهَا هَذَا الْاسْمُ.

٢- وَدَلَالَةُ التَّضَمُّنِ: دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى بَعْضِ مَذْلُولِهِ، وَعَلَى هَذَا فَدَلَالَةُ الْاسْمِ عَلَى
الذَاتِ وَخَدِّهَا أَوْ عَلَى الصِّفَةِ وَخَدِّهَا مِنْ دَلَالَةِ التَّضَمُّنِ.

٣- وَدَلَالَةُ الْإِتِّزَامِ: دَلَالَتُهُ عَلَى شَيْءٍ يُفْهَمُ لَا مِنْ لَفْظِ الْاسْمِ لَكِنْ مِنْ لَازِمِهِ؛ وَلِهَذَا
سَمَّيْنَاهُ: دَلَالَةُ الْإِتِّزَامِ.

مِثْلَ كَلِمَةِ الْخَالِقِ: اسْمٌ يَدُلُّ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ، وَيَدُلُّ عَلَى صِفَةِ الْخَلْقِ.

إِذَنْ: بِإِعْتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْأُمُورِ يُسَمَّى دَلَالَةً مُطَابِقَةً؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ دَلَّ عَلَى جَمِيعِ مَذْلُولِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: الْخَالِقُ. فَإِنَّكَ تَفْهَمُ خَالِقًا وَخَلْقًا.

وَبِإِعْتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْخَالِقِ وَخَدِّهِ، أَوْ عَلَى الْخَلْقِ وَخَدِّهِ يُسَمَّى دَلَالَةً تَضَمُّنٍ؛ لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى بَعْضِ مَعْنَاهُ.

وَبِإِعْتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يُسَمَّى دَلَالَةً التِّزَامِ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ خَلْقٌ إِلَّا بِعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، فَدَلَالَتُهُ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ دَلَالَةُ التِّزَامِ.

وَحِينَئِذٍ تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَنْكَرَ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ فَهُوَ مُلْحَدٌ فِي الْأَسْمَاءِ. وَلَوْ قَالَ: أَنَا أَوْ مِنْ بَدَلَالَةِ الْخَالِقِ عَلَى الذَّاتِ، وَلَا أَوْ مِنْ بَدَلَالَتِهِ عَلَى الصِّفَةِ، فَهُوَ مُلْحَدٌ فِي الْأَسْمِ.

لَوْ قَالَ: أَنَا أَوْ مِنْ بَأَنَّ (الْخَالِقَ) تَدُلُّ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ وَعَلَى صِفَةِ الْخَلْقِ، لَكِنْ لَا تَدُلُّ عَلَى صِفَةِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ. قُلْنَا: هَذَا الْخَادُّ أَيْضًا.

فَلَا زِمَ عَلَيْنَا أَنْ نُثَبِّتَ كُلَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْأَسْمُ، فَإِنْكَارُ شَيْءٍ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْأَسْمُ مِنْ الصِّفَةِ الْخَادِّ فِي الْأَسْمِ، سَوَاءٌ كَانَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ دَلَالَةً مُطَابِقَةً أَوْ تَضَمُّنٍ أَوْ التِّزَامِ. وَلَنُضْرِبَ مِثْلًا حَسِيًّا تَبَيَّنَ فِيهِ أَنْوَاعُ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ:

لَوْ قُلْتَ: لِي بَيْتٌ. فَكَلِمَةُ (بَيْتٌ) فِيهَا الدَّلَالَاتُ الثَّلَاثُ، فَتَفْهَمُ مِنْ (بَيْتٌ) أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى كُلِّ الْبَيْتِ دَلَالَةً مُطَابِقَةً. وَتَدُلُّ عَلَى مَجْلِسِ الرِّجَالِ وَخَدِّهِ، وَعَلَى الْحَمَامَاتِ وَخَدِّهَا، وَالصَّالَةِ وَخَدِّهَا، دَلَالَةً تَضَمُّنٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ جُزْءٌ مِنَ الْبَيْتِ، وَدَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى جُزْءٍ مَعْنَاهُ دَلَالَةُ تَضَمُّنٍ. وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ بَانِيًا بَنَاهُ دَلَالَةَ التِّزَامِ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ بَيْتٍ إِلَّا وَلَهُ بَانٍ.

النَّوعُ الرَّابِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ فِي الْأَسْمَاءِ: أَنْ يُثَبِّتَ الْأَسْمَاءُ لِلَّهِ وَالصِّفَاتِ، لَكِنْ يُجْعَلُهَا دَالَّةً عَلَى التَّشْبِيلِ، أَيْ: دَالَّةً عَلَى بَصَرٍ كَبَصَرِنَا، وَعِلْمٍ كَعِلْمِنَا، وَمَغْفِرَةٍ كَمَغْفِرَتِنَا... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا الْإِلْحَادُ؛ لِأَنَّهُ مِثْلُ بَهَا عَمَّا يُجِبُ فِيهَا؛ إِذِ الْوَاجِبُ إِثْبَاتُهَا بِلَا تَمَثِيلٍ.

النُّوعُ الْخَامِسُ: أَنْ يَنْقُلَهَا إِلَى الْمَعْبُودَاتِ، أَوْ يَشْتَقَّ أَسْمَاءَ مِنْهَا لِلْمَعْبُودَاتِ، مِثْلُ أَنْ يُسَمِّيَ شَيْئًا مَعْبُودًا بِالْإِلَهِ، فَهَذَا الْخَادِ، أَوْ يَشْتَقَّ مِنْهَا أَسْمَاءَ لِلْمَعْبُودَاتِ، مِثْلُ: اللَّاتِ مِنَ الْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ، وَمَنَاةٌ مِنَ الْمَنَّانِ. فنقول: هَذَا أَيْضًا الْخَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَ أَسْمَاءَ اللَّهِ خَاصَّةً بِهِ، وَلَا تَتَعَدَّى وَتَتَجَاوَزَ فَتَشْتَقَّ لِلْمَعْبُودَاتِ مِنْهَا أَسْمَاءً.

هَذِهِ أَنْوَاعُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُلْحَدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ أَبَدًا، بَلْ يُجْرِيوْنَهَا عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُثْبِتُونَ لَهَا جَمِيعَ أَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ الْإِلْحَادُ.

- وَأَمَّا الْإِلْحَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى: فَالآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ الْمُمَيَّزَةُ لِلشَّيْءِ عَنْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ بَعَثَ الرُّسُلَ بِالْآيَاتِ لَا بِالْمُعْجَزَاتِ؛ وَلِهَذَا كَانَ التَّعْبِيرُ بِالْآيَاتِ أَحْسَنَ مِنَ التَّعْبِيرِ بِالْمُعْجَزَاتِ:

أَوَّلًا: لِأَنَّ الْآيَاتِ هِيَ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

ثَانِيًا: أَنَّ الْمُعْجَزَاتِ قَدْ تَقَعُ مِنْ سَاحِرٍ وَمُشْعُودٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، تُعْجِزُ غَيْرُهُ.

ثَالِثًا: أَنَّ كَلِمَةَ (آيَاتِ) أَدُلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ كَلِمَةِ (مُعْجَزَاتِ)، فَإَيَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ هِيَ الْعَلَامَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ خَاصَّةً بِهِ، وَلَوْ لَا أَنَّهَا خَاصَّةٌ مَا صَارَتْ آيَةً لَهُ.

وَآيَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: آيَاتِ كَوْنِيَّةٍ، وَآيَاتِ شَرْعِيَّةٍ:

فَالْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَقْلِ وَالتَّكْوِينِ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْبَلَدُ وَالنَّهَارُ وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (١٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاجْتَنَبَ السَّيِّئَاتِ وَأَلْوَدَّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (١٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاجْتِاعُكُمْ مِنَ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (١٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا

وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ عَائِنِيهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿الرُّوم: ٢٠-٢٥﴾.

فهذه الآيات كونيَّة، وإن شئت فقل: كونيَّة قدرِيَّة، وكانت آية الله؛ لَّأنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلْقُ أَنْ يَفْعَلُوهَا، فمثلاً: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِاللَّيْلِ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ، وَلَا بِالنَّهَارِ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ، فهذه الآيات كونيَّة.

والإلْحَادُ فِيهَا أَنْ يَنْسُبَهَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ اسْتِقْلَالًا أَوْ مُشَارَكَةً أَوْ إِعَانَةً، فيقول: هَذَا مِنَ الْوَلِيِّ الْفُلَانِي، أَوْ: مِنَ النَّبِيِّ الْفُلَانِي، أَوْ: شَارَكَ فِيهِ النَّبِيُّ الْفُلَانِي أَوْ الْوَلِيُّ الْفُلَانِي، أَوْ: أَعَانَ اللَّهُ فِيهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكَ مِنْقَالَ ذَرُّوهُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فَنَفَى كُلَّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ بِكَوْنِ مَعْبُودَاتِهِمْ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ اسْتِقْلَالًا أَوْ مُشَارَكَةً، وَلَا مُعِينَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ جَاءَ بِالرَّابِعِ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، لَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ يَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ وَلَا تُشَارِكُ، وَلَمْ تُعَاوَنُ، لَكِنِّهَا شُفَعَاءُ، قَالَ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فَقَطَعَ كُلَّ سَبَبٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْآيَاتِ: الْآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْوَحْيِ، كَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ آيَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَعِزُّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠-٥١]، فَجَعَلَهُ آيَاتٍ.

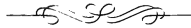
وَيَكُونُ الْإِلْحَادُ فِيهَا إِمَّا بِتَكْذِيبِهَا أَوْ تَحْرِيفِهَا أَوْ تَحْلِفَتِهَا.

فَتَكْذِيبُهَا: أَنْ يَقُولَ: لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُكَذِّبُ بِهَا أَصْلًا، أَوْ يُكَذِّبُ بِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ

الْحَبْرَ مَعَ تَصْدِيقِهِ بِالْأَصْلِ، فَيَقُولُ مَثَلًا: قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ لَيْسَتْ صَحِيحَةً، وَقِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ لَيْسَتْ صَحِيحَةً، وَاللَّهُ لَمْ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ.

وَأَمَّا التَّحْرِيفُ: فَهُوَ تَغْيِيرُ لَفْظِهَا، أَوْ صَرَفُ مَعْنَاهَا عَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا وَرَسُولُهُ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، أَيِ: اسْتَوَى، أَوْ: يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، أَيِ: يَنْزِلُ أَمْرُهُ. وَأَمَّا مُحَالَفَتُهَا: فَبِتَرْكِ الْأَوَامِرِ، أَوْ فِعْلِ النَّوَاهِي.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: ﴿وَمَنْ بَرِدَ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فَكُلُّ الْمَعَاصِيِ الْخَادِي فِي الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ خُرُوجٌ بِهَا عَمَّا يَحِبُّ لَهَا؛ إِذِ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَمْتَثِلَ الْأَوَامِرَ، وَأَنْ نَجْتَنِبَ النَّوَاهِي، فَإِنْ لَمْ نَقُمْ بِذَلِكَ فَهَذَا الْخَادِ.



* قَوْلُهُ: «وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفَّ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَلَا يُكَيِّفُونَ» أَيِ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَسَبَقَ أَنْ التَّكْيِيفَ ذَكَرُ كَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ، سَوَاءً ذَكَرْتَهَا بِلِسَانِكَ أَوْ بَقَلْبِكَ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُكَيِّفُونَ أَبَدًا، يَعْنِي: لَا يَقُولُونَ: كَيْفِيَّةُ يَدِهِ كَذَا وَكَذَا، وَلَا: كَيْفِيَّةُ وَجْهِهِ كَذَا وَكَذَا. فَلَا يُكَيِّفُونَ هَذَا بِاللِّسَانِ وَلَا بِالْقَلْبِ أَيْضًا، يَعْنِي: نَفْسُ الْإِنْسَانِ لَا يَتَصَوَّرُ كَيْفَ اسْتَوَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ، أَوْ كَيْفَ يَنْزِلُ، أَوْ كَيْفَ وَجْهُهُ، أَوْ كَيْفَ يَدُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحَاوَلَ ذَلِكَ أَيْضًا؛ لِأَنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إمَّا التَّمْثِيلُ وَإِمَّا التَّعْطِيلُ.

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش، أو يقوله بلسانه، بل ولا يسأل عن الكيفية؛ لأن الإمام مالكاً رحمه الله قال: «السؤال عنه بدعة»^(١) لا تقل: كيف

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٦٦٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٦٧)،

وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/٤٠٧): إسناده جيد. وأخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١٠٤)،

اسْتَوَى؟ كَيْفَ يَنْزُلُ؟ كَيْفَ يَأْتِي؟ كَيْفَ وَجْهُهُ؟ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّكَ مُبْتَدِعٌ... وقد سَبَقَ ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى تَحْرِيمِ التَّكْيِيفِ، وَذَكَّرْنَا الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ.

* قَوْلُهُ: «وَلَا يُمَثَّلُونَ» أَيُّ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ «صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ» وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ فِيمَا سَبَقَ: «مِنْ غَيْرِ تَمَثُّلٍ»، وَسَبَقَ لَنَا امْتِنَاعُ التَّمَثُّلِ سَمْعًا وَعَقْلًا، وَأَنَّ السَّمْعَ وَرَدَ خَبْرًا وَطَلَبًا فِي نَفْيِ التَّمَثُّلِ، فَهُمْ لَا يَكْفُفُونَ وَلَا يُمَثَّلُونَ.

* قَوْلُهُ: «لَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ»: (سُبْحَانَ): اسْمُ مَصْدَرٍ سَبَّحَ، وَالْمَصْدَرُ تَسْبِيحٌ، ف(سُبْحَانَ) بِمَعْنَى تَسْبِيحٍ، لَكِنَّهَا بَغَيْرِ اللَّفْظِ، وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَى الْمَصْدَرِ وَلَيْسَ بِلَفْظِهِ فَهُوَ اسْمُ مَصْدَرٍ، ك: سُبْحَانَ مِنْ سَبَّحَ، وَكَلَامٍ مِنْ كَلَّمَ، وَسَلَامٍ مِنْ سَلَّمَ، وَإِعْرَاجُهَا: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَعَامِلُهَا مَحذُوفٌ دَائِمًا.

وَمَعْنَى (سَبَّحَ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهَا: نَزَّهَ، وَأَصْلُهَا مِنَ السَّبَّحِ، وَهُوَ الْبُعْدُ، كَأَنَّكَ تُبْعَدُ صِفَاتِ النَقْصِ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْزَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

* قَوْلُهُ: «لَا سَمِيَّ لَهُ»: دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ. هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿هَلْ﴾: اسْتِفْهَامٌ، لَكِنَّهُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَيَأْتِي النَّفْيُ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ لِفَائِدَةِ عَظِيمَةٍ، وَهِيَ التَّحْدِي؛ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ أَنْ أَقُولَ: لَا سَمِيَّ لَهُ، أَوْ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ لِأَنَّ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مُتَضَمِّنٌ لِلنَّفْيِ وَلِلتَّحْدِي أَيْضًا، فَهُوَ مُشْرَبٌ مَعْنَى التَّحْدِي، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ: كُلَّمَا كَانَ الاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ فَهُوَ مُشْرَبٌ مَعْنَى التَّحْدِي، كَأَنِّي أَقُولُ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَتِنِي بِسَمِيٍّ لَهُ، وَعَلَى هَذَا ف﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَبْلَغُ مِنْ: «لَا سَمِيَّ لَهُ».

وَالسَّمِيُّ: هُوَ الْمُسَامِي، أَيِ: الْمُهَائِلُ.

* قَوْلُهُ: «وَلَا كُفَّاءَ لَهُ» وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

[الإخلاص: ٤].

* قوله: «وَلَا يَدَّ لَهُ» والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أَي: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَدَّ لَهُ، وَالنَّدُّ بِمَعْنَى النَظِيرِ.

وهذه الثلاثة - السَّيِّئُ والكُفَّاءُ والنَّدُ - معناها مُتَقَارِبٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ مَعْنَى الكُفَّاءِ: الَّذِي يُكَافِئُهُ، وَلَا يُكَافِئُ الشَّيْءَ الشَّيْءَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِثْلَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ مُكَافِئًا لَهُ. إِذَنْ: لَا كُفَّاءَ لَهُ، أَي: لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهَذَا النَّفْيُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ كِهَالِ صِفَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ لِكِهَالِ صِفَاتِهِ لَا أَحَدٌ يُمِثِّلُهُ.

* قوله: «وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»: الْقِيَاسُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قِيَاسِ شُمُولٍ، وَقِيَاسِ تَمَثُّلٍ، وَقِيَاسِ أَوَّلَوِيَّةٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ قِيَاسَ تَمَثُّلٍ وَلَا قِيَاسَ شُمُولٍ.

١ - قِيَاسُ الشُّمُولِ: هُوَ مَا يُعَرَّفُ بِالْعَامِّ الشَّامِلِ لَجَمِيعِ أَفْرَادِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُ دَاخِلًا فِي مُسَمًى ذَلِكَ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ، فَمِثْلًا: إِذَا قُلْنَا: الْحَيَاةُ، فَإِنَّهُ لَا تَقَاسُ حَيَاةُ اللَّهِ تَعَالَى بِحَيَاةِ الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْكُلَّ يَشْمَلُهُ اسْمُ (حَيٍّ).

٢ - وَقِيَاسُ التَّمَثُّلِ: هُوَ أَنْ يُلْحَقَ الشَّيْءُ بِمِثْلِهِ، فَيَجْعَلَ مَا ثَبَتَ لِلْخَالِقِ مِثْلَ مَا ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ.

٣ - وَقِيَاسُ الْأَوَّلَوِيَّةِ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَرْعُ أَوَّلَى بِالْحَكْمِ مِنَ الْأَصْلِ. وَهَذَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] بِمَعْنَى: كُلُّ صِفَةٍ كِهَالٍ فَلِلَّهِ تَعَالَى أَعْلَاهَا، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْحِكْمَةُ وَمَا أَشَبَّهَهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، لَكِنْ لِلَّهِ أَعْلَاهَا وَأَكْمَلُهَا.

ولهذا أحيانا نَسْتَدِلُّ بِالدَّلَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ مِنْ زَاوِيَةِ الْقِيَاسِ بِالْأَوَّلَى، فَمِثْلًا نَقُولُ: الْعُلُوُّ صِفَةٌ كِهَالٍ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِذَا كَانَ صِفَةً كِهَالٍ فِي الْمَخْلُوقِ فَهُوَ فِي الْخَالِقِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَهَذَا دَائِمًا نَجِدُهُ فِي كَلَامِ الْعُلَمَاءِ.

فَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ» بَعْدَ قَوْلِهِ: «لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفَّاءَ لَهُ، وَلَا يَدَّ لَهُ» يَعْنِي: الْقِيَاسَ الْمُقْتَضِيَّ لِلْمُسَاوَةِ، وَهُوَ قِيَاسُ الشُّمُولِ وَقِيَاسُ التَّمَثُّلِ.

إِذَنْ: يَمْتَنِعُ الْقِيَاسُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْخَلْقِ لِلتَّبَاطُئِ بَيْنَهُمَا، وَإِذَا كُنَّا فِي الْأَحْكَامِ لَا نَقِيسُ الْوَاجِبَ عَلَى الْجَائِزِ، أَوْ الْجَائِزَ عَلَى الْوَاجِبِ، فِيهِ بَابُ الصِّفَاتِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

لَوْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: اللَّهُ مُوجُودٌ، وَالْإِنْسَانُ مُوجُودٌ، وَوُجُودُ اللَّهِ كَوُجُودِ الْإِنْسَانِ بِالْقِيَاسِ.

فَنَقُولُ: لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ وَاجِبٌ، وَوُجُودَ الْإِنْسَانِ مُمَكِّنٌ.

فَلَوْ قَالَ: أُقِيسَ سَمْعَ الْخَالِقِ عَلَى سَمْعِ الْمَخْلُوقِ.

نَقُولُ: لَا يُمَكِّنُ؛ سَمْعُ الْخَالِقِ وَاجِبٌ لَهُ، لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَسَمْعُ الْإِنْسَانِ مُمَكِّنٌ؛ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُوَلَّدَ الْإِنْسَانُ أَصَمًّا، وَالْمَوْلُودُ سَمِيعًا يَلْحَقُهُ نَقْصُ السَّمْعِ، وَسَمْعُهُ مَحْدُودٌ.

إِذَنْ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَاسَ اللَّهُ بِخَلْقِهِ، فَكُلُّ صِفَاتِ اللَّهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقَاسَ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لظُهُورِ التَّبَاطُئِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقِ.



* قَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ أَعْلَمُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيْلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ».

الشرح:

قَالَ الْمُؤَلَّفُ هَذَا تَمْهِيدًا وَتَوْطِئَةً لَوْجُوبِ قَبُولِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِهِ وَغَيْرِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ قَبُولُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَبْرُ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَوْصَافُ أَرْبَعَةٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ صَادِرًا عَنْ عِلْمٍ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ».

الْوَصْفُ الثَّانِي: الصِّدْقُ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَصْدَقُ قِيْلًا».

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْبَيَانُ وَالْفَصَاحَةُ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَحْسَنُ حَدِيثًا».

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: سَلَامَةُ الْقَضْدِ وَالْإِرَادَةِ، بِأَنْ يُرِيدَ الْمُخْبِرُ هِدَايَةَ مَنْ أَخْبَرَهُمْ.

فدليل الأول - وهو العلم - : قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَتَنَّا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، فهو أَعْلَمُ بنفسه وبغيره من غيره، فهو أَعْلَمُ بك من نفسك؛ لأنه يَعْلَمُ ما سيكون لك في المستقبل، وأنت لا تعلم ما ذا تَكْسِبُ غداً.

وكَلِمَةُ ﴿أَعْلَمُ﴾ هُنَا اسم تَفْضِيلٍ، ولقد تحاشاها بعض العلماء، وفسَّرَ ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عَالِمٍ) فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: هُوَ عَالِمٌ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وهو عَالِمٌ بِالْمُهْتَدِينَ. قَالَ: لَأَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تَفْضِيلٍ، وهو يَقْتَضِي اشتراك المَفْضَلِ والمَفْضَلِ عَلَيْهِ، وهذا لَا يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ، لكن (عَالِمٍ) اسم فاعِلٍ، وليس فِيهِ مُقَارَنَةٌ وَلَا تَفْضِيلٌ.

فنقول له: هَذَا غَلَطٌ؛ فَاللهُ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَقُولُ: ﴿أَعْلَمُ﴾ وَأنتَ تقول: عَالِمٌ! وَإِذَا فَسَّرْنَا ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عَالِمٍ) فَقَدْ حَطَطْنَا مِنْ قَدْرِ عِلْمِ اللَّهِ؛ لَأَنَّ (عَالِمٍ) يَشْرِكُ فِيهَا غَيْرُ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْمُسَاوَاةِ، لكن ﴿أَعْلَمُ﴾ مقتضاهُ أَنْ لَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ، وَهَذَا أَكْمَلُ فِي الصِّفَةِ بِلا شَكٍّ.

ونقول له: إِنَّ اللَّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِالنِّسْبَةِ لِاسْمِ الْفَاعِلِ لَا تَمْنَعُ الْمُسَاوَاةَ فِي الْوَصْفِ، لكن بِالنِّسْبَةِ لِاسْمِ التَّفْضِيلِ لَا تَمْنَعُ الْمَشَارَكَةَ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ.

ونقول أيضاً في بابِ الْمُقَارَنَةِ: لَا بَأْسَ أَنْ نَقُولَ: أَعْلَمُ بِمَعْنَى: أَنْ تَأْتِيَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ، وَلَوْ فُرِضَ خُلُوُّ الْمَفْضَلِ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، فجاءَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ، مَعَ أَنَّ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ إِطْلَاقاً.

وفي بابِ مُجَادَلَةِ الْحُضَمِ وَمُحَاجَّتِهِ يَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ومعلومٌ أَنَّ مَا يُشْرِكُونَ لَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إِنَّ أَرْبَابَ مُتَعَفِّفُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وَالْأَرْبَابُ لَيْسَ فِيهَا خَيْرٌ.

فالحاصلُ أن نقولَ: إن ﴿أَعْلَمُ﴾ الواردةُ في كتابِ الله يُرادُ بها معناها الحقيقيُّ، ومن فسرها بـ(عالمٍ) فقد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العَرَبِيَّةُ.

ودليل الوصف الثاني -الصدق-: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] أي: لا أحد أصدق منه، والصدقُ مطابقةُ الكلام للواقع، ولا شيء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى، فكلُّ ما أخبر الله به فهو صدق، بل أصدق من كل قول.

ودليل الوصف الثالث -البيان والفصاحة-: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] وحسنُ حديثه يتضمنُ الحسنَ اللَّفْظِيَّ والمعنويَّ.

ودليل الوصف الرابع -سلامة القصد والإرادة-: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْفَرَائِضَ﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُخْلِصَ إِلَيْكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

فاجتمع في كلام الله الأوصاف الأربعَةُ التي توجبُ قبولَ الخير.

وإذا كان كذلك فإنه يجبُ أن نقبلَ كلامه على ما هو عليه، وأن لا يلحقنا شكٌ في مدلوله؛ لأن الله لم يتكلم بهذا الكلام لأجلِ إضلالِ الخلق، بل ليبيِّنَ لهم ويهديهم، وصدرَ كلام الله عن نفسه أو عن غيره عن أعلمِ القائلين، ولا يمكنُ أن يعتريه خلافُ الصدق، ولا يمكنُ أن يكونَ كلاماً عيباً غيرَ فصيحٍ.

وكلام الله لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا به بغيرِ علمٍ، فإذا اجتمعتِ هذه الأمور الأربعَةُ في الكلام وجبَ على المخاطبِ القبولُ بها دلَّ عليه.

مثال ذلك: قوله تعالى مخاطباً إبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، قال قائلٌ: في هذه الآية إثباتُ يَدَيْنِ لله عزَّ وجلَّ يَخْلُقُ بهما مَنْ شاء، فَشَيْئُهُما؛ لأنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ صادرٌ عن علمٍ وصدقٍ، وكلامه أحسنُ الكلام وأفصحُه وأبينُّه، ولا يمكنُ أن لا يكونَ له يدان، لكن أرادَ من الناسِ أن يعتقدوا ذلك فيه، ولو فرضَ هذا لكان مقتضاهُ أن القرآن ضلالٌ؛ حيث جاء بوصفِ الله بما ليس فيه، وهذا مُمتنعٌ، فإذا كان كذلك وجبَ عليك أن

تُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ خَلَقَ بِهِمَا آدَمَ.

وَإِذَا قُلْتَ: الْمَرَادُ بِهِمَا النِّعْمَةُ أَوِ الْقُدْرَةُ. قُلْنَا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ، إِلَّا إِذَا اجْتَرَأْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَوَصَفْتَ كَلَامَهُ بِضَدِّ الْأَوْصَافِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي قُلْنَا، فنَقُولُ: هَلِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ حِينَئِذَا قَالَ: ﴿يَدَيَّ﴾: عَالِمٌ بِأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ؟ فسيقولُ: هُوَ عَالِمٌ. فنَقُولُ: هَلِ هُوَ صَادِقٌ؟ فسيقولُ: هُوَ صَادِقٌ بِلَا شَكٍّ. وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: هُوَ غَيْرُ عَالِمٍ، أَوْ: غَيْرُ صَادِقٍ، وَلَا أَنْ يَقُولَ: عَبَّرَ بِهِمَا وَهُوَ يُرِيدُ غَيْرَهُمَا؛ عَيًّا وَعَجْزًا، وَلَا أَنْ يَقُولَ: أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمَا لَيْسَ فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ إِضْلَالًا لَهُمْ!

فنَقُولُ لَهُ: إِذَنْ: مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ أَنْ تُثَبِّتَ لِلَّهِ الْيَدَيْنِ؟! فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ، وَتُبْ إِلَيْهِ، وَقُلْ: آمَنْتُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيْلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ غَيْرِهِ، وَأَتَمُّ إِرَادَةً مِنْ غَيْرِهِ أَيْضًا.

وَلِهَذَا أَتَى الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهِذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ، وَنَحْنُ زِدْنَا الْوَصْفَ الرَّابِعَ، وَهُوَ: إِرَادَةُ الْبَيَانِ لِلْخَلْقِ، وَإِرَادَةُ الْهِدَايَةِ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

هَذَا حُكْمٌ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ جَامِعٌ لِلْكَمَالَاتِ الْأَرْبَعِ فِي الْكَلَامِ.

أَمَّا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ:

* فَقَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مَصْدُوقُونَ، بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مَصْدُوقُونَ»^(١): الصَّادِقُ: الْمُخْبِرُ بِمَا طَابَقَ الْوَاقِعَ، فَكُلُّ

الرُّسُلِ صَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ.

ولكن: لَا بُدَّ أَنْ يُثَبَّتَ السَّنَدُ إِلَى الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِذَا قَالَتِ الْيَهُودُ: قَالَ مُوسَى كَذًا وكَذًا. فَلَا تَقْبَلُ، حَتَّى نَعْلَمَ صِحَّةَ سَنَدِهِ إِلَى مُوسَى. وَإِذَا قَالَتِ النَّصَارَى: قَالَ عِيسَى كَذًا وكَذًا. فَلَا تَقْبَلُ، حَتَّى نَعْلَمَ صِحَّةَ السَّنَدِ إِلَى عِيسَى. وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: قَالَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ كَذًا وكَذًا. فَلَا تَقْبَلُ، حَتَّى نَعْلَمَ صِحَّةَ السَّنَدِ إِلَى مُحَمَّدٍ.

فُرْسُلُهُ صَادِقُونَ فِيمَا يَقُولُونَ، فَكُلُّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ غَيْرِهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَهُمْ صَادِقُونَ فِيهِ، لَا يَكْذِبُونَ أَبَدًا.

ولهذا أجمع العلماء على أن الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكُذْبِ.

* «مُصَدِّقُونَ» أَوْ «مُصَدِّقُونَ»: نُسَخَتَانِ:

أَمَّا عَلَى نُسخَةِ «مُصَدِّقُونَ» فَالْمَعْنَى أَنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ صِدْقٌ، وَالْمُصَدِّقُ: الَّذِي أَخْبَرَ بِالصِّدْقِ، وَالصَّادِقُ: الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ قَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: إِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَمْ يَزَلْ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. قَالَ لَهُ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١) يَعْنِي: أَخْبَرَكَ بِالصِّدْقِ.

فَالرُّسُلُ مُصَدِّقُونَ، كُلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ صِدْقٌ، مَا كَذَبَهُمُ الَّذِي أَرْسَلَهُمْ، وَلَا كَذَبَهُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٢) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿تَطَّلَعُ ثَمَّ أَيْنِ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وَأَمَّا عَلَى نُسخَةِ: «مُصَدِّقُونَ» فَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى أَعْمِهِمْ تَصْدِيقُهُمْ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى «مُصَدِّقُونَ» أَيُّ: شَرْعًا، يَعْنِي: يَجِبُ أَنْ يُصَدِّقُوا شَرْعًا، فَمَنْ كَذَّبَ بِالرُّسُلِ أَوْ كَذَبَهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «مُصَدِّقُونَ» لَهُ وَجْهٌ آخَرُ، أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَدَّقَهُمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَدَّقَ الرُّسُلَ، صَدَّقَهُمْ بِقَوْلِهِ وَبِفِعْلِهِ:

(١) علقه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما وكله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان. وقال الحافظ في «الفتح» (٤/٤٨٨): هكذا أورد البخاري هذا الحديث هنا ولم يصرح فيه بالتحديث... وقد وصله النسائي والإساعيلي وأبو نعيم من طرق.

أَمَّا بَقَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١]، فَهَذَا تَصْدِيقٌ بِالْقَوْلِ.

أَمَّا تَصْدِيقُهُ بِالْفِعْلِ: فَبِالْتَّمَكِينِ لَهُ، وإظهار الآيات، فهو يأتي للناس يدعُوهم إلى الإسلام، فإن لم يقبلوا، فالجزية، فإن لم يقبلوا استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم، والله تعالى يَمَكِّنُ لَهُ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ الْأَرْضَ، أَرْضًا بَعْدَ أَرْضٍ، حَتَّى بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَهَذَا تَصْدِيقٌ مِنَ اللَّهِ بِالْفِعْلِ.

كَذَلِكَ أَيْضًا مَا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ هُوَ تَصْدِيقٌ لَهُ، سواء كانت الآيات شَرْعِيَّةً أَمْ كَوْنِيَّةً. فَالشَّرْعِيَّةُ كَانَتْ دَائِمًا يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهُ، فَيُنْزِلُ اللَّهُ الْجَوَابَ: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]^(١). إِذَنْ: هَذَا تَصْدِيقٌ بِأَنَّهُ رَسُولٌ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ رَسُولٍ مَا أَجَابَ اللَّهُ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ- وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فَالْجَوَابُ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ...﴾ إلخ، فَهَذَا تَصْدِيقٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

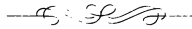
وَالْآيَاتُ الْكُوْنِيَّةُ ظَاهِرَةٌ جَدًّا، وَمَا أَكْثَرَ الْآيَاتِ الْكُوْنِيَّةَ الَّتِي أَيْدِ اللَّهِ بِهَا رَسُولَهُ، سَوَاءً جَاءَتْ لِسَبَبٍ أَوْ لَغَيْرِ سَبَبٍ! وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي السَّيَرَةِ.

فَفَهَمْنَا مِنْ كَلِمَةِ: «مُصَدِّقُونَ»: أَنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِالْآيَاتِ الْكُوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، مُصَدِّقُونَ مِنْ قِبَلِ الْخَلْقِ، أَيْ: يَحِبُّ أَنْ يُصَدِّقُوا، وَإِنَّمَا حَمَلْنَا ذَلِكَ عَلَى التَّصْدِيقِ شَرْعًا؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ صَدَّقَ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ، لَكِنْ الْوَاجِبُ التَّصْدِيقُ.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، رقم (٤٧٢١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بيننا أنا مع النبي ﷺ في حَرِّ - وهو متكئ على عسيب - إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رايكم إليه - وقال بعضهم: لا يستبلكم بشيء تكرهونه - فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].»

* قَوْلُهُ: «بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ»: فَهَؤُلَاءِ كَاذِبُونَ أَوْ ضَالُّونَ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا مَا لَا يَعْلَمُونَ.

وَكَانَ الْمُؤَلَّفُ يُشِيرُ إِلَى أَهْلِ التَّحْرِيفِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ التَّحْرِيفِ قَالُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ: قَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَرِدْ كَذَا وَأَرَادَ كَذَا! فَقَالُوا فِي السَّلْبِ وَالِإِيجَابِ بِنِهَايَةِ مَا لَا يَعْلَمُونَ. مَثَلًا: قَالُوا: لَمْ يَرِدْ بِالْوَجْهِ الْحَقِيقِيِّ! فَهُنَا قَالُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ بِالسَّلْبِ، ثُمَّ قَالُوا: وَالْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الثَّوَابِ! فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ فِي الْإِيجَابِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ لَا يَكُونُونَ صَادِقِينَ وَلَا مُصْذَوِّقِينَ وَلَا مُصَدِّقِينَ، بَلْ قَامَتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ مَكْذُوبُونَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ.



* قَوْلُهُ: «وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الصفات: ١٨٠-١٨٢]:

الشرح:

* وَقَوْلُهُ: «وَلِهَذَا» أَيُّ: لِأَجْلِ كِمَالِ كَلَامِهِ وَكَلَامِ رُسُلِهِ.

* «قَالَ: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾: وَسَبَقَ مَعْنَى التَّسْبِيحِ، وَهُوَ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّكَ﴾ أَضَافَ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهِيَ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ، مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْخَالِقِ إِلَى الْمَخْلُوقِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾: مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ كُلَّ مَرْبُوبٍ مَخْلُوقٌ، وَهُنَا قَالَ: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ وَعِزَّةُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ لِأَنَّهَا مِنْ صِفَاتِهِ، فنَقُولُ: هَذِهِ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، وَعَلَى هَذَا فـ ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ هُنَا مَعْنَاهَا: صَاحِبُ الْعِزَّةِ، كَمَا يُقَالُ: رَبُّ الدَّارِ، أَيُّ: صَاحِبُ الدَّارِ.

قَوْلُهُ: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يَعْنِي: كَمَا سَيَذْكُرُهُ الْمُؤَلَّفُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيُّ: عَلَى الرُّسُلِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَمْدُ اللَّهِ نَفْسَهُ عَزَّجَلَّ بَعْدَ أَنْ نَزَّهَهَا؛ لِأَنَّ فِي الْحَمْدِ كِمَالَ الصِّفَاتِ، وَفِي التَّنْسِيحِ تَنْزِيهَا عَنِ الْعُيُوبِ، فَجَمَعَ فِي الْآيَةِ بَيْنَ التَّنْزِيهِ عَنِ الْعُيُوبِ بِالتَّنْسِيحِ، وَإِثْبَاتِ الْكِمَالِ بِالْحَمْدِ.



* قَوْلُهُ: «فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النِّقْصِ وَالْعَيْبِ»:

الشرح:

مَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَاضِحٌ، وَبَقِيَ أَنْ يُقَالَ: وَحَمْدُ نَفْسِهِ لِكِمَالِ صِفَاتِهِ بِالنِّسْبَةِ لِنَفْسِهِ وَبِالنِّسْبَةِ لِرُسُلِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدٌ عَلَى كِمَالِ صِفَاتِهِ وَعَلَى إِزْسَالِ الرُّسُلِ؛ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ الْخَلْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.



* قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ».

الشرح:

بَيْنَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ تَمَامَ الْكِمَالِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِثُبُوتِ صِفَاتِ الْكِمَالِ وَانْتِفَاءِ مَا يُضَادُّهَا مِنْ صِفَاتِ النِّقْصِ، فَأَفَادَنَا رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّ الصِّفَاتِ قِسْمَانِ:

١ - صِفَاتٌ مُثَبَّتَةٌ: وَتُسَمَّى عَنْدهُمْ: الصِّفَاتِ الثَّبُوتِيَّةُ.

٢ - وَصِفَاتٌ مَنْفِيَّةٌ: وَتُسَمَّى بِهَا: الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةُ، مِنَ السَّلْبِ، وَهُوَ النَّفْيُ، وَلَا حَرَجَ مِنْ أَنْ تُسَمَّى سَلْبِيَّةً، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ تَوَقَّفَ وَقَالَ: لَا تُسَمَّى سَلْبِيَّةً، بَلْ نَقُولُ: مَنْفِيَّةٌ. فنقول: مَا دَامَ السَّلْبُ فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى النَّفْيِ فَالْاِخْتِلَافُ فِي اللَّفْظِ، وَلَا يَضُرُّ.

فَصِفَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ قِسْمَانِ: ثُبُوتِيَّةٌ وَسَلْبِيَّةٌ، أَوْ إِنْ شِئْتَ فَقُلْ: مُثَبِّتَةٌ وَمَنْعِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

فَالْمُثَبِّتَةُ: كُلُّ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بَوَاحٍ مِنْ الْوُجُوهِ، وَمِنْ كَمَالِهَا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَا أَثْبَتَهُ دَالًّا عَلَى التَّمَثِيلِ؛ لِأَنَّ الْمِثَالَةَ لِلْمَخْلُوقِ نَقْصٌ.

وَإِذَا فَهَمْنَا هَذِهِ الْقَاعِدَةَ عَرَفْنَا ضَلَالَ أَهْلِ التَّحْرِيفِ، الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ الصِّفَاتِ الْمُثَبَّتَةَ تَسْتَلْزِمُ التَّمَثِيلَ، ثُمَّ أَخَذُوا يَنْفَوْنَهَا؛ فِرَارًا مِنَ التَّمَثِيلِ.

وَمِثَالُهُ: قَالُوا: لَوْ أَثْبَتْنَا لِلَّهِ وَجْهًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مِثَالًا لِأَوْجِهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَحِينَئِذٍ يَحِبُّ تَأْوِيلُ مَعْنَاهُ إِلَى مَعْنَى آخَرَ لَا إِلَى الْوَجْهِ الْحَقِيقِيِّ.

فَنَقُولُ لَهُمْ: كُلُّ مَا أَثْبَتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ فَهُوَ صِفَةُ كَمَالٍ، وَلَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ نَقْصٌ.

وَلَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلِ الصِّفَاتُ تَوْقِيفِيَّةٌ كَالْأَسْمَاءِ، أَوْ هِيَ اجْتِهَادِيَّةٌ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَصِفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِشَيْءٍ لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟

فَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الصِّفَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَالْأَسْمَاءِ، فَلَا تَصِفُ اللَّهَ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: الصِّفَاتُ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: صِفَةُ كَمَالٍ مُطْلَقٍ، وَصِفَةُ كَمَالٍ مُقَيَّدٍ، وَصِفَةُ نَقْصٍ مُطْلَقٍ.

أَمَّا صِفَةُ الْكَمَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، كَالْمُتَكَلَّمِ، وَالْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ، وَالْقَادِرِ... وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا صِفَةُ الْكَمَالِ بِقَيِّدٍ: فَهَذِهِ لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا مُقَيَّدًا؛ مِثْلُ: الْمَكْرُ، وَالْخِدَاعِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ... وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَهَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ بِقَيِّدٍ، إِذَا كَانَتْ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، فِيهِ كَمَالٌ، وَإِنْ ذُكِرَتْ مُطْلَقَةً فَلَا تَصِحُّ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ وَلِهَذَا لَا يَصِحُّ

إِطْلَاقُ وَضْفِهِ بِالْمَاكِرِ أَوْ الْمُسْتَهْزِئِ أَوْ الْخَادِعِ، بَلْ تُقَيَّدُ، فنقول: مَآكِرٌ بِالْمَاكِرِينَ، مُسْتَهْزِئٌ
بِالْمُنَافِقِينَ، خَادِعٌ لِلْمُنَافِقِينَ، كَاثِدٌ لِلْكَافِرِينَ، فُتَيَّدُهَا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَأْتِ إِلَّا مُقَيَّدَةً.

وَأَمَّا صِفَةُ النِّقْصِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَهَذِهِ لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ،
كَالْعَاجِزِ، وَالْخَائِرِ، وَالْأَعْمَى، وَالْأَصَمِّ؛ لِأَنَّهَا نِقْصٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلَا يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا، وَانْظُرْ
إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ خَادِعٍ وَخَائِنٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾
[النساء: ١٤٢]، فَاتَّبَعَتْ خِدَاعَهُ لِمَنْ خَادَعَهُ، لَكِنْ قَالَ فِي الْخِيَانَةِ: ﴿وَلَا يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، وَلَمْ يَقُلْ: فَخَانَهُمْ؛ لِأَنَّ الْخِيَانَةَ خِدَاعٌ فِي مَقَامِ الْإِثْمَانِ،
وَالْخِدَاعُ فِي مَقَامِ الْإِثْمَانِ نِقْصٌ، وَلَيْسَ فِيهِ مَذْحٌ أَبَدًا.
فَإِذَنْ: صِفَاتُ النِّقْصِ مُنْفِيَّةٌ عَنِ اللَّهِ مُطْلَقًا.

وَالصِّفَاتُ الْمَأْخُودَةُ مِنَ الْأَسْمَاءِ هِيَ كِمَالٌ بِكُلِّ حَالٍ، وَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ قَدْ اتَّصَفَ
بِمَذْلُولِهَا، فَالَسَّمْعُ صِفَةٌ كِمَالٍ دَلَّ عَلَيْهَا اسْمُهُ السَّمِيعُ، فَكُلُّ صِفَةٍ دَلَّتْ عَلَيْهَا الْأَسْمَاءُ فِيهِ
صِفَةٌ كِمَالٍ مُثَبَّتَةٌ لِلَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ، وَهَذِهِ نَجَعَلُهَا قِسْمًا مُتَفَصِّلًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا تَفْصِيلٌ،
وغيرها تَنْقَسِمُ إِلَى الثَّلَاثَةِ الْأَقْسَامِ الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا؛ وَلِهَذَا لَمْ يُسَمَّ اللَّهُ نَفْسَهُ بِالْمُتَكَلِّمِ، مَعَ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا، وَقَدْ يَكُونُ شَرًّا، وَقَدْ لَا يَكُونُ خَيْرًا وَلَا شَرًّا، فَالشَّرُّ
لَا يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّغْوُ كَذَلِكَ لَا يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ سَفَهٌ، وَالْخَيْرُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ
يُسَمَّ نَفْسَهُ بِالْمُتَكَلِّمِ؛ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]،
فَلَيْسَ فِيهَا أَيُّ شَيْءٍ مِنَ النِّقْصِ؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ الْمُطْلَقِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: فَهَمْنَا الصِّفَاتِ وَأَقْسَامَهَا، فَمَا هُوَ الطَّرِيقُ لِإِبْثَابِ الصِّفَةِ مَا دُمْنَا نَقُولُ:
إِنَّ الصِّفَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ؟

فنقول: هُنَاكَ عِدَّةُ طُرُقٍ لِإِبْثَابِ الصِّفَةِ:

الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ: دَلَالَةُ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ اسْمٍ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةٍ؛ وَلِهَذَا قُلْنَا
فِيمَا سَبَقَ: إِنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ دَالٌّ عَلَى ذَاتِهِ وَعَلَى الصِّفَةِ الَّتِي اشْتَقَّ مِنْهَا.

الطريق الثاني: أَنْ يُنَصَّ عَلَى الصِّفَةِ، مثل: الْوَجْهِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالْعَيْنَيْنِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ بِنَصٍّ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، ومثل الانتقام، فَقَالَ عَنْهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْمُتَقِمِّ؛ خِلَافًا لِمَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الَّتِي فِيهَا عُدَّ أَسْمَاءُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْتِقَامَ مَا جَاءَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْوَصْفِ أَوْ اسْمِ الْفَاعِلِ مُقَيَّدًا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الطريق الثالث: أَنْ تُؤْخَذَ مِنَ الْفِعْلِ، مثل: الْمُتَكَلِّمِ، فَنَأْخُذُهَا مِنْ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي تَبَيَّنَتْ بِهَا الصِّفَةُ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نَقُولُ: الصِّفَاتُ أَعَمُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ اسْمٍ مُتَّصِنٌ لَصِفَةٍ، وَلَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ مُتَّصِنَةً لاسْمٍ. وَأَمَّا الصِّفَاتُ الْمُتَقِيَّةُ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَكَثِيرَةٌ، وَلَكِنْ الْإِنْبَاتُ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ الْإِنْبَاتِ كَلَّهَا صِفَاتُ كِهَالٍ، وَكَلَّمَا تَعَدَّدَتْ وَتَنَوَّعَتْ ظَهَرَ مِنْ كِهَالِ الْمُوصُوفِ مَا هُوَ أَكْثَرُ، وَصِفَاتِ النَّفْيِ قَلِيلَةٌ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ أَنَّ صِفَاتِ النَّفْيِ تَأْتِي كَثِيرًا عَامَّةً، غَيْرَ مُخَصَّصَةٍ بِصِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَالْمُخَصَّصُ بِصِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا يَكُونُ إِلَّا لِسَبَبٍ، مِثْلُ تَكْذِيبِ الْمُدَّعِينَ بِأَنَّ اللَّهَ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي نَفَاهَا عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ دَفْعِ تَوَهُمِ هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي نَفَاهَا.

فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الْعَامَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ... وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ، فَلَمْ يُفَصَّلْ، بَلْ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَهَذَا النَّفْيُ الْعَامُّ الْمُجْمَلُ يَدُلُّ عَلَى كِهَالِ مُطْلَقٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فِي كُلِّ كِهَالٍ.

أَمَّا إِذَا كَانَ مُفَصَّلًا فَلَا تَجِدُهُ إِلَّا لِسَبَبٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [المؤمنون: ٩١] رَدًّا لِقَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا. وَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] كَذَلِكَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَفْرُضُ الذَّهْنُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ اللَّهُ حَقَّ قُدْرِهِ أَنَّ هَذِهِ السَّمَوَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالْأَرْضِينَ

العظيمة إِذَا كَانَ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَسَيَلَحُّهُ التَّعَبُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا مَسَنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أَي: مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ.

فَتَبَيَّنَ هَذَا أَنَّ النَّفْيَ لَا يَرُدُّ فِي صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ لِسَبَبٍ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ السَّلْبِ لَا تَنْتَضِمُنُ الْكَمَالَ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُتَضَمِّنَةً لِإِثْبَاتٍ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: الصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ الَّتِي نَفَاهَا اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ مُتَضَمِّنَةٌ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهَا، فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مَسَنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ مُتَضَمِّنٌ كَمَالَ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالِ الْعَدْلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالِ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ... وَهَلَمْ جَرًّا، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الصِّفَةُ الْمُنْفِيَّةُ مُتَضَمِّنَةً لِثُبُوتِ، وَذَلِكَ الثُّبُوتُ هُوَ كَمَالُ ضِدِّ ذَلِكَ الْمُنْفِيِّ، وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ مَدْحًا.

لَا يُوجَدُ فِي الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَّةِ عَنِ اللَّهِ نَفْيٌ مُجَرَّدٌ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَجْرَدَ عَدَمٌ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بَشَيْءٍ، فَلَا يَتَضَمَّنُ مَدْحًا وَلَا ثَنَاءً، وَلِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْعَجَزِ عَنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، فَيَكُونُ ذَمًّا، وَقَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ الْقَابِلِيَّةِ، فَلَا يَكُونُ مَدْحًا وَلَا ذَمًّا.

مثال الأول الَّذِي لِلْعَجَزِ قَوْلُ الشَّاعِرِ^(١):

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

ومثال الثاني الَّذِي لِعَدَمِ الْقَابِلِيَّةِ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ جِدَارَنَا لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

وَالوَاجِبُ عَلَيْنَا نَحْوَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَالَّتِي نَفَاهَا أَنْ نَقُولَ: سَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا وَآمَنَّا.

هَذِهِ هِيَ الصِّفَاتُ، فِيهَا مُثَبَّتٌ وَفِيهَا مُنْفِيٌّ، أَمَّا الْأَسْمَاءُ فَكُلُّهَا مُثَبَّتَةٌ.

لَكِنْ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُثَبَّتَةُ مِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى إِيْجَابِيٍّ، وَمِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى سَلْبِيٍّ، وَهَذَا هُوَ مَوْرَدُ التَّقْسِيمِ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ.

(١) القائل هو النجاشي الحارثي واسمه قيس بن عمرو، انظر: الحاشية الصغرى لأبي تمام (ص: ٢١٥ - ٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٢).

فمثالُ الَّتِي مَذْلُومُهَا إِيْجَابِيٌّ كَثِيْرٌ.

ومثالُ الَّتِي مَذْلُومُهَا سَلْبِيٌّ: السَّلَامُ. وَمَعْنَى السَّلَامِ قَالِ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ: السَّلَامُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ. إِذَنْ: فَمَذْلُومُهُ سَلْبِيٌّ، بِمَعْنَى: لَيْسَ فِيْهِ نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ. وَكَذَلِكَ الْقُدُّوسُ قَرِيْبٌ مِنْ مَعْنَى السَّلَامِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْمُنَزَّهَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ.

فَصَارَتْ عِبَارَةُ الْمُؤَلِّفِ سَلِيْمَةً وَصَحِيْحَةً، وَهُوَ لَا يُرِيدُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَسْمَاءِ أَنَّ هُنَاكَ أَسْمَاءً مُنْفِيَّةً؛ لِأَنَّ الْأِسْمَ الْمُنْفِيَّ لَيْسَ بِاسْمٍ لِلَّهِ، لَكِنْ مُرَادُهُ أَنَّ مَذْلُومَاتِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تُبَوِّئُهُ وَسَلْبِيَّةً.



* قَوْلُهُ: «فَلَا عُدُوْلَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «فَلَا عُدُوْلَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ»: الْعُدُوْلُ: مَعْنَاهُ الْإِنْصِرَافُ وَالْإِنْحِرَافُ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْدِلُوا عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

وَأَمَّا جَاءَ الْمُؤَلِّفُ بِهَذَا النَّفْيِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمْ لِكَمَالِ اتِّبَاعِهِمْ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْدِلُوا عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ تَمَامًا، وَغَيْرُ مُنْحَرِفِينَ إِنْطِلَاقًا عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، بَلْ طَرِيقَتُهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فِي الْأَحْكَامِ، وَسَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا فِي الْأَخْبَارِ.

* قَوْلُهُ: «عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ»: مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاضْحٌ أَنَّنَا لَا نَعْدِلُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَوَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، لَكِنْ مَا جَاءَ عَنْ غَيْرِهِ هَلْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عُدُوْلٌ عَنْهُ؟ لَا عُدُوْلَ لَهُمْ عَنْهُ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ عَنِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَابِ الْأَخْبَارِ لَا يَخْتَلِفُ؛ لِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْسَخَ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ، فَكُلُّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ مَقْبُولٌ وَصِدْقٌ وَيَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ.

مثلاً: قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُرُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿[طه: ٥١-٥٢]، فَتَنَى عَنِ اللَّهِ الْجَهْلَ وَالنَّسيَانَ، فَنَحْنُ يُحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ تُصَدِّقَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ. ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ (٢) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿[طه: ٤٩-٥٠].

فَلَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: مِنْ أَيْنَ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ؟ فنقول: مِنْ كَلَامِ مُوسَى، فَنُؤْمِنُ بِذَلِكَ، وَنَقُولُ: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ اللَّاتِقُ بِهِ، فَإِلْمَانُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَالْبَعِيرُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَالْبَقَرَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَالضَّأْنُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، ثُمَّ هَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَعْرِفُ مَصَالِحَهُ وَمَنَافِعَهُ؛ فَالنَّمْلَةُ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ تَدْخِرُ قُوَّتَهَا فِي جُحُورِهَا، وَلَكِنْ لَا تَدْخِرُ الْحَبَّ كَمَا هُوَ، بَلْ تَقْطَعُ رُؤُوسَهُ؛ لِئَلَّا يَنْبُتَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَبَتَ لَفَسَدَ عَلَيْهَا، وَإِذَا جَاءَ الْمَطَرُ وَابْتَلَّ هَذَا الْحَبُّ الَّذِي وَضَعْتُهُ فِي الْجُحُورِ فَإِنَّهَا لَا تُثْقِيهِ بِأَكْلِهِ الْعَفْنُ وَالرَّائِحَةُ، بَلْ تَنْشُرُهُ خَارِجَ جُحْرِهَا؛ حَتَّى يَبْسَ مِنَ الشَّمْسِ وَالرَّيْحِ، ثُمَّ تُدْخِلُهُ!

لَكِنْ يُحِبُّ التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّ مَا نُسِبَ لِلْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى صَحَّةِ النِّقْلِ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا، كَالَّذِي نُسِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَوَّلَى.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ»: هَلْ يَشْمَلُ هَذَا الْأَحْكَامَ أَوْ أَنَّ الْكَلَامَ الْآنَ فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَيَخْتَصُّ بِالْأَخْبَارِ؟

إِنْ نَظَرْنَا إِلَى عُمُومِ اللَّفْظِ قُلْنَا: يَشْمَلُ الْأَخْبَارَ وَالْأَحْكَامَ. وَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى السِّيَاقِ قُلْنَا: الْقَرِينَةُ تَقْتَضِي أَنَّ الْكَلَامَ فِي بَابِ الْعَقَائِدِ، وَهِيَ مِنْ بَابِ الْأَخْبَارِ.

وَلَكِنْ نَقُولُ: إِنْ كَانَ كَلَامُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ خَاصًّا بِالْعَقَائِدِ فَهُوَ خَاصٌّ، وَلَيْسَ لَنَا فِيهِ كَلَامٌ. وَإِنْ كَانَ عَامًّا فَهُوَ يَشْمَلُ الْأَحْكَامَ.

وَالْأَحْكَامُ الَّتِي لِلرُّسُلِ السَّابِقِينَ اخْتَلَفَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ: هَلْ هِيَ أَحْكَامٌ لَنَا إِذَا لَمْ يَرِدْ شَرْعًا بِخِلَافِهَا، أَوْ لَيْسَتْ أَحْكَامًا لَنَا^(١)؟

(١) فِيهِ رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، الْأُولَى: أَنَّهُ شَرَعَ لَنَا، وَالثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ لَيْسَ بِشَرْعٍ لَنَا. ذَكَرَهُمَا ابْنُ قَدَامَةَ فِي «رَوْضَةِ النَّاظِرِ» (٤٥٩/١).

والصحيح أنها أحكام لنا، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام فهو لنا،
إلا إذا ورد شرعنا بخلافه، فإذا ورد شرعنا بخلافه فهو على خلافه، فمثلاً: السجود عند
التحية جائزة في شريعة يوسف ويعقوب وبنيه، لكن في شريعتنا محرم، كذلك الإبل حرام
على اليهود: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ولكن هي في
شريعتنا حلال.

فإذن: يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على أنه عام في الأخبار والأحكام،
وأن نقول: ما كان في شرع الأنبياء من الأحكام فهو لنا، إلا بدليل.

ولكن يبقى النظر: كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين؟

نقول: لنا في ذلك طريقان: الطريق الأول: الكتاب، والطريق الثاني: السنة. فما حكاها الله
في كتابه عن الأمم السابقين فهو ثابت، وما حكاها النبي ﷺ فيما صح عنه فهو أيضاً ثابت.
والباقى لا نصدّق ولا نكذب، إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب فإننا
نصدّقه، لا لنقلهم، ولكن لما جاء في شريعتنا. وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب فإننا
نكذّبه؛ لأن شرعنا كذّبه، فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله. فنقول: هذا كذب.
واليهود يقولون: عزير ابن الله. فنقول: هذا كذب.

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «فإنه الصراط المستقيم»: (فإنه): الصّير يعود على ما جاءت
به الرسل، ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة، وهو الاتباع وعدم العدول
عنه، فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة: هو الصراط المستقيم.

(صراط): على وزن فعال، بمعنى مضروب، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس
بمعنى مغروس، فهو بمعنى اسم المفعول. والصراط إنما يقال للطريق الواسع المستقيم،
مأخوذ من الرّط، وهو بلغ اللقمة بسرعة؛ لأن الطريق إذا كان واسعاً لا يكون فيه ضيق
يتعثر الناس فيه، فالصراط يقولون في تعريفه: كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول
ولا اعوجاج.

إِذَنْ: الطَّرِيقُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ عَوَجٌ وَلَا أَمْتٌ، طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ لَيْسَ فِيهِ انْحِرَافٌ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعليه: فيكونُ الْمُسْتَقِيمُ صِفَةً كَاشِفَةً عَلَى تَفْسِيرِنَا الصِّرَاطَ بِأَنَّهُ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَقِيمُ. أَوْ يُقَالُ: إِنَّمَا صِفَةٌ مُقَيَّدَةٌ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الصِّرَاطِ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُسْتَقِيمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٣) وَقَفَّوهُمْ لِيَتَّهِمُوا مُتَعَلِّمِينَ﴾ [الصافات: ٢٣-٢٤] وَهَذَا الصِّرَاطُ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ.

* قَوْلُهُ: «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ»: (صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أَيُّ: طَرِيقُهُمْ، وَأَضَافَهُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَالِكُوهُ، فَهُمْ الَّذِينَ يَمْشُونَ فِيهِ، كَمَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ أَحْيَانًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ وَوَضَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ مُوَصَّلٌ إِلَيْهِ، فَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ تَعَالَى بِاعْتِبَارَيْنِ، وَصِرَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِاعْتِبَارٍ وَاحِدٍ، صِرَاطُ اللَّهِ بِاعْتِبَارَيْنِ هُمَا: أَنَّهُ وَضَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ مُوَصَّلٌ إِلَيْهِ. وَصِرَاطُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَهُ وَخَدُّهُمْ.

* وَقَوْلُهُ: «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»: النِّعْمَةُ: كُلُّ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ، فَهُوَ نِعْمَةٌ، وَكُلُّ مَا بَنَّا مِنْ نِعْمَةٍ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ، وَنِعْمَ اللَّهُ قِسْمَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، وَالْخَاصَّةُ أَيْضًا قِسْمَانِ: خَاصَّةٌ أَخْصَصْتُ، وَخَاصَّةٌ أَعَمُّ.

فَالْعَامَّةُ: هِيَ الَّتِي تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلِهَذَا لَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: هَلْ لِلَّهِ عَلَى الْكَافِرِ نِعْمَةٌ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، لَكِنَّهَا نِعْمَةٌ عَامَّةٌ، وَهِيَ نِعْمَةٌ مَا تَقُومُ بِهِ الْأَبْدَانُ، لَا مَا تَصْلُحُ بِهِ الْأَذْيَانُ، مِثْلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكِسْوَةِ وَالْمَسْكَنِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَهَذِهِ يَدْخُلُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ.

وَالنَّعْمَةُ الْخَاصَّةُ: مَا تَصْلُحُ بِهِ الْأَدْيَانُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ عَامَّةٌ لِلنَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَلَكِنْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ نِعْمَةٌ هِيَ أَحْصَى النِّعَمَ، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فَهَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي هِيَ أَحْصَى لَا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا النَّبِيِّينَ، بَلْ هُمْ دُونَهُمْ.

* وَقَوْلُهُ: «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

هِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَهَؤُلَاءِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ: وَلَا الصَّالِحِينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧].

فَمَنْ هُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟

فَسَرَّهَا تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَهَؤُلَاءِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ:

أَوَّلًا: النَّبِيُّونَ، وَهُمْ كُلُّ مَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَنَبَّأَهُمْ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَيَشْمَلُ الرُّسُلَ؛ لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا. وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ النَّبِيُّونَ شَامِلًا لِلرُّسُلِ، أُولَى الْعِزِّ وَغَيْرِهِمْ، وَشَامِلًا أَيْضًا لِلنَّبِيِّينَ الَّذِينَ لَمْ يُرْسَلُوا، وَهَؤُلَاءِ أَعْلَى أَصْنَافِ الْخَلْقِ.

ثَانِيًا: الصَّادِقُونَ: جَمْعُ صَادِقٍ، عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ، صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ.

فَمَنْ هُوَ الصَّادِقُ؟

أَحْسَنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الصَّادِقُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، فَمَنْ حَقَّقَ الْإِيمَانَ -وَلَا يَتِمُّ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالصَّادِقِ وَالتَّصَدِيقِ- فَهُوَ صَادِقٌ.

الصَّدُق فِي الْعَقِيدَةِ: بِالْإِخْلَاصِ، وَهَذَا أَضْعَبُ مَا يَكُونُ عَلَى الْمَرْءِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا جَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى شَيْءٍ مَجَاهَدَتَهَا عَلَى الْإِخْلَاصِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الصَّدُقِ فِي الْمَقْصِدِ - وَهُوَ الْعَقِيدَةُ - وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

الصَّدُق فِي الْمَقَالِ: لَا يَقُولُ إِلَّا مَا طَابَقَ الْوَاقِعَ، سِوَاءً عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَأَخِيهِ وَأُخْتِهِ... وَغَيْرِهِمْ.

الصَّدُق فِي الْفِعَالِ: وَهُوَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ مُطَابِقَةً لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَمِنْ صِدْقِ الْفِعَالِ أَنْ تَكُونَ نَابِعَةً عَنِ الْإِخْلَاصِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَابِعَةً عَنِ الْإِخْلَاصِ لَمْ تَكُنْ صَادِقَةً؛ لِأَنَّ فِعْلَهُ يُخَالِفُ قَوْلَهُ.

فَالصَّدِيقُ إِذَنْ: مَنْ صَدَقَ فِي مُعْتَقَدِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَفِي مَقَالِهِ وَفِي فِعَالِهِ. وَأَفْضَلُ الصَّدِيقَيْنِ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ أَفْضَلَ الْأُمَمِ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَأَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالصَّدِيقِيَّةُ مَرْتَبَةٌ تَكُونُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ: ﴿وَأَمَّا صِدْقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وَيُقَالُ: الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أَمَّا الشُّهَدَاءُ: فَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وَقِيلَ: الْعُلَمَاءُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فَجَعَلَ أَهْلَ الْعِلْمِ شَاهِدِينَ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ؛ وَلِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ، وَعَلَى الْأُمَّةِ بِالتَّبْلِيغِ، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْآيَةُ عَامَّةٌ لِمَنْ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِلْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ صَالِحٌ لِلْوَجْهَيْنِ، وَلَا يَتَنَافِيَانِ، فَيَكُونُ شَامِلًا لِلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِلْعُلَمَاءِ الَّذِينَ شَهِدُوا لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَشَهِدُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْبَلَاغِ، وَشَهِدُوا عَلَى الْأُمَّةِ بِأَنَّهَا بُلِّغَتْ.

أَمَّا الصَّالِحُونَ: فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ وَمَنْ دُوْنَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ؛ فَالْأَنْبِيَاءُ

صَالِحُونَ، وَالصَّادِقُونَ صَالِحُونَ، وَالشُّهَدَاءُ صَالِحُونَ، فَعَطَفُهَا مِنْ بَابِ عَطَفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

وَالصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ، لَكِنْ لَا عَلَى الْمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ - النُّبُوَّةِ وَالصَّادِقِيَّةِ وَالشَّهَادَةِ - فَهُمْ دُونَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ.

هَذَا الصَّرَاطُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ صِرَاطُ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ، فَغَيْرُهُمْ لَا يَمُشُّونَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.



* قَوْلُهُ: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ، الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]».

الشرح:

قَوْلُهُ: «دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ»: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ يُرِيدُ بِهَا قَوْلَهُ: «وَهُوَ قَدْ جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ» وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَأَيًّا كَانَ فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ وَمَا بَعْدَهَا دَاخِلَةٌ فِي ضَمَنِ مَا سَبَقَ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: «فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ»: (السُّورَةُ): هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مُسَوَّرَةٌ، أَيْ: مُنْفَصِلَةٌ عَمَّا قَبْلَهَا وَعَمَّا بَعْدَهَا، كَالْبِنَاءِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِ الشُّورُ.

* قَوْلُهُ: «سُورَةُ الْإِحْلَاصِ»: إِخْلَاصُ الشَّيْءِ بِمَعْنَى: تَنْقِيئِهِ، يَعْنِي: الَّتِي نَقِيَتْ وَلَمْ يَشَبْهَا شَيْءٌ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ قِيلَ: لِأَنَّهَا تَنْصَرِّفُ الْإِحْلَاصَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ مَنْ آمَنَ بِهَا فَهُوَ مُخْلِصٌ، فَتَكُونُ بِمَعْنَى مُخْلِصَةٍ لِقَارِئِهَا، أَيْ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَرَأَهَا مُؤْمِنًا بِهَا فَقَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا مُخْلِصَةٌ -بِفَتْحِ اللَّامِ- لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْلَصَهَا لِنَفْسِهِ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا

شَيْئًا مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَا شَيْئًا مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ غَيْرِهِ، بَلْ هِيَ أَخْبَارٌ خَاصَّةٌ بِاللَّهِ، وَالْوَجْهَانِ صَحِيحَانِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا.

* وَقَوْلُهُ: «الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»: الدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(١).

فهذه السُّورَةُ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي الْجُزْءِ لَا فِي الْإِجْزَاءِ، وَذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. عَشْرَ مَرَّاتٍ، فَكَاتَمَا أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ»^(٢)، فَهَلْ يُجْزِئُ ذَلِكَ عَنْ إِعْتَاقِ أَرْبَعِ رِقَابٍ مِمَّنْ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ هَذَا الذِّكْرُ عَشْرَ مَرَّاتٍ؟ فنقول: لَا يُجْزِئُ. أَمَّا فِي الْجُزْءِ فَتَعْدِلُ هَذَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُعَادَلَةِ فِي الْجُزْءِ الْمُعَادَلَةُ فِي الْإِجْزَاءِ؛ وَلِهَذَا لَوْ قَرَأَ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُجْزِئْهُ عَنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَوَجْهٌ كَوْنُهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ: أَنَّ مَبَاحِثَ الْقُرْآنِ خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَخَبَرٌ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَحْكَامٌ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ:

١- خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ: قَالُوا: إِنَّ سُورَةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَتَضَمَّنُهُ.

٢- خَبَرٌ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ: كَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْحَوَادِثِ الْحَاضِرَةِ، وَعَنِ الْحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلَةِ.

٣- وَالثَّلَاثُ: أَحْكَامٌ، مِثْلُ: أَقِيمُوا، اتَّوَا، لَا تُشْرِكُوا... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَهَذَا هُوَ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٥٠١٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١١)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، رقم (٦٤٠٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٣)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قَوْلُهُ: «حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾:»

﴿قُلْ﴾: الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ خِطَابُهُ.

وسبب نزول هذه السورة: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ^(١). وَقِيلَ: بَلِ الْيَهُودُ هُمْ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مِنْ كَذَا وَمِنْ كَذَا نَمًا يَقُولُونَ مِنَ الْمَوَادِّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ^(٢). وسواءً صَحَّ السَّبَبُ أَمْ لَمْ يَصَحَّ فَعَلَيْنَا إِذَا سُئِلْنَا أَيُّ سَوَالٍ عَنِ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾.

﴿قَوْلُهُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾:» ﴿هُوَ﴾: ضَمِيرٌ، وَأَيْنَ مَرْجِعُهُ؟ قِيلَ: إِنَّ مَرْجِعَهُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: الَّذِي سَأَلْتُمْ عَنْهُ: اللَّهُ. وَقِيلَ: هُوَ ضَمِيرُ الشَّانِ. ﴿اللَّهُ﴾ مُبْتَدَأٌ ثَانٍ وَ﴿أَحَدٌ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الثَّانِي، وَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ تَكُونُ ﴿هُوَ﴾: مُبْتَدَأٌ ﴿اللَّهُ﴾: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿أَحَدٌ﴾: خَبَرًا ثَانِيًا.

﴿اللَّهُ﴾: هُوَ الْعَلَمُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ، الْمُخْتَصُّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَتَسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُ، إِلَّا نَادِرًا.

ومعنى ﴿اللَّهُ﴾: الْإِلَهَ، وَالْهَ بِمَعْنَى مَالُوهُ، أَيُّ: مَعْبُودٍ، لَكِنْ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا؛ لِكثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، كَمَا فِي (النَّاسِ) وَأَصْلُهَا: الْإِنْسَانُ، وَكَمَا فِي: هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا، وَأَصْلُهُ: أَخَيْرٌ مِنْ هَذَا، لَكِنْ لِكثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ، فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَحَدٌ﴾.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٣/٥ - ١٣٤)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الإخلاص، رقم (٣٣٦٤)، والدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٢٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» رقم (٤٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» أرقام (٥٠ و ٦٠٧ و ٦٠٨)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٣٧٩).

وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦٠٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسن إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/٣٥٦).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في كتاب «العظمة» رقم (٨٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناده يحيى بن عبد الله البابتلي ضعيف كما في «التقريب» رقم (٧٥٨٥)، وفيه أيضًا أبان بن أبي عياش متروك، كما في «التقريب» رقم (١٤٢)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٨/٦٧٠) عزوه لأبي بكر السمرقندي في «فضائل» ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

﴿أَحَدٌ﴾ لَا تَأْتِي إِلَّا فِي النَّفْيِ غَالِبًا، أَوْ فِي الْإِنْبَاتِ فِي أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ، يُقَالُ: الْأَحَدُ، الْاِثْنَيْنِ... لَكِنْ تَأْتِي فِي الْإِنْبَاتِ مَوْصُوفًا بِهَا الرَّبُّ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَدٌ، أَيُّ: مُتَوَحِّدٌ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿أَحَدٌ﴾ لَا ثَانِي لَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا يَنْدَلُهُ.

قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأَنَفَةٌ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَحَدِيَّةَ ذَكَرَ الصَّمَدِيَّةَ، وَآتَى بِهَا بِجُمْلَةٍ مُعَرِّفَةٍ فِي طَرَفِهَا؛ لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ، أَيُّ: اللَّهُ وَحْدَهُ الصَّمَدُ. فَمَا مَعْنَى الصَّمَدِ؟

قِيلَ: إِنَّ ﴿الصَّمَدَ﴾: هُوَ الْكَامِلُ فِي عَمَلِهِ، فِي قُدْرَتِهِ، فِي حِكْمَتِهِ، وَفِي عِزَّتِهِ، فِي سُؤْدُودِهِ، فِي كُلِّ صِفَاتِهِ. وَقِيلَ: ﴿الصَّمَدُ﴾: الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، يَعْنِي: لَا أَمْعَاءَ وَلَا بَطْنَ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: الْمَلَائِكَةُ صُمَدٌ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أَجَوافٌ؛ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ. هَذَا الْمَعْنَى رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١)، وَلَا يُبْنِي الْمَعْنَى الْأَوَّلَ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى غِنَاهُ بِنَفْسِهِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ.

وَقِيلَ: ﴿الصَّمَدُ﴾ بِمَعْنَى الْمُفْعُولِ: أَيُّ: الْمَصْمُودِ إِلَيْهِ، أَيُّ الَّذِي تَصُمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهَا، بِمَعْنَى: تَمِيلُ إِلَيْهِ وَتَنْتَهِي إِلَيْهِ وَتَرْفَعُ إِلَيْهِ حَوَائِجَهَا، فَهُوَ بِمَعْنَى الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ.

هَذِهِ الْأَقَاوِيلُ لَا يُبْنِي بِغَضُهَا بَعْضًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا ثَابِتَةٌ؛ لِعَدَمِ الْمُنَافَاةِ فِيمَا بَيْنَهَا.

وَنُفَسِّرُهُ بِتَفْسِيرٍ جَامِعٍ، فَنَقُولُ: ﴿الصَّمَدُ﴾: هُوَ الْكَامِلُ فِي صِفَاتِهِ، الَّذِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهِيَ صَامِدَةٌ إِلَيْهِ.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٦٦٥) بسند ضعيف من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد صح عن مجاهد: «الصمد: الذي لا جوف له»، كما في «السنة» لابن أبي عاصم رقم (٦٧٣)، وصَحَّحَ ابن كثير وقفه على عبد الله بن بريدة، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨).

وحينئذ يَبَيِّنُ لَكَ الْمَعْنَى الْعَظِيمُ فِي كَلِمَةِ ﴿الْصَّمَدُ﴾ أَنَّهُ مُسْتَعِينٌ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، كَامِلٌ فِي كُلِّ مَا يُوصَفُ بِهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ.

فَلَوْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، هَلِ اسْتَوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْعَرْشِ بَحِثُ لَوْ أُزِيلَ لَسَقَطَ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، كَلَّا؛ لِأَنَّ اللَّهَ صَمَدٌ كَامِلٌ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الْعَرْشِ، بَلِ الْعَرْشُ وَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ فِي غِنَى عَنْهَا، فَنَأْخُذُهُ مِنْ كَلِمَةِ ﴿الْصَّمَدُ﴾.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ اللَّهُ يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ؟ أَقُولُ: كَلَّا؛ لِأَنَّ اللَّهَ صَمَدٌ.

وهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ ﴿الْصَّمَدُ﴾ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لَجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ، وَجَامِعَةٌ لَجَمِيعِ صِفَاتِ النِّقْصِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ١٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ هَذَا تَأْكِيدٌ لِلصَّمَدِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ، وَقُلْنَا: تَوْكِيدٌ؛ لِأَنَّا نَفْهَمُ هَذَا مِمَّا سَبَقَ، فَيَكُونُ ذِكْرُهُ تَوْكِيدًا لِمَعْنَى مَا سَبَقَ، وَتَقْرِيرًا لَهُ؛ فَهُوَ لِأَحَدِيَّتِهِ وَصَمَدِيَّتِهِ لَمْ يَلِدْ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ عَلَى مِثْلِ الْوَالِدِ فِي الْخَلْقَةِ، فِي الصِّفَةِ، وَحَتَّى الشَّبَهِ.

لَمَّا جَاءَ مُجَزَّزُ الْمُدْلِجِيِّ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَابْنِهِ أَسَامَةَ، وَهَمَا مُلْتَحِفَانِ بِرِدَاءٍ، قَدْ بَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، نَظَرَ إِلَى الْقَدَمَيْنِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ^(١). فَعَرَفَ ذَلِكَ بِالشَّبَهِ.

فَلِكَمَالِ أَحَدِيَّتِهِ وَكَمَالِ صَمَدِيَّتِهِ ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ وَالْوَالِدُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْوَلَدِ بِالْخِدْمَةِ وَالنَّفَقَةِ، وَيُعِينُهُ عِنْدَ الْعَجْزِ، وَيُبْقِي نَسْلَهُ.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ وُلِدَ لَكَانَ مَسْئُوقًا بِوَالِدِهِ، مَعَ أَنَّهُ جَزَعًا هُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْخَالِقُ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، فَكَيْفَ يُولَدُ؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب القائف، رقم (٦٧٧٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، رقم (١٤٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وإنكارُ أَنَّهُ وُلِدَ أَبْلَغُ فِي الْعُقُولِ مِنْ إنْكَارِ أَنَّهُ وَالِدٌ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ أَنَّ اللَّهَ وَالِدًا،
وَادَّعَى الْمُفْتَرُونَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا.

وقَدْ نَفَى اللَّهُ هَذَا وَهَذَا، وَبَدَأَ بِنَفْيِ الْوَلَدِ؛ لِأَهَمِّيَّةِ الرَّدِّ عَلَى مُدَّعِيهِ، بَلْ قَالَ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] حَتَّى وَلَوْ بِالتَّسْمِي، فَهُوَ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا. بَنُو آدَمَ قَدْ يَتَّخِذُ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ وَلَدًا وَهُوَ لَمْ يَلِدْهُ، بِالتَّبْنِي أَوْ بِالْوِلَايَةِ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ التَّبْنِي غَيْرَ مَشْرُوعٍ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُؤَلَّدْ.

وَلَمَّا كَانَ يَرِدُ عَلَى الذَّهْنِ فَرَضُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ لَا وَالِدًا وَلَا مَوْلَدًا، لَكِنَّهُ مُتَوَلَّدٌ،
نَفَى هَذَا الْوَهْمَ الَّذِي قَدْ يَرِدُ، فَقَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وَإِذَا انْتَفَى أَنْ يَكُونَ
لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ لَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ مُتَوَلَّدًا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أَيُّ: لَا يُكَافِئُهُ أَحَدٌ فِي
جَمِيعِ صِفَاتِهِ.

فِي هَذِهِ السُّورَةِ: صِفَاتُ ثُبُوتِيَّةٌ، وَصِفَاتُ سَلْبِيَّةٌ:
الْصِّفَاتُ الثُّبُوتِيَّةُ: ﴿اللَّهُ﴾ الَّتِي تَتَّصِفُ بِالْأُلُوهِيَّةِ، ﴿أَحَدٌ﴾ تَتَّصِفُ بِالْأَحَدِيَّةِ،
﴿الْصَّمَدُ﴾ تَتَّصِفُ بِالصَّمَدِيَّةِ.

وَالْصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلَّدْ﴾ ❷ وَ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.
ثَلَاثُ إِبْتَاتٍ، وَثَلَاثُ نَفْيٍ، وَهَذَا النَّفْيُ يَتَّصِفُ مِنَ الْإِبْتَاتِ كَمَا لَ الْأَحَدِيَّةِ وَالصَّمَدِيَّةِ.



* قَوْلُهُ: «وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].»

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»: وَهَذِهِ الْآيَةُ تُسَمَّى آيَةَ الْكُرْسِيِّ؛

لأنَّ فِيهَا ذِكْرُ الْكَرْسِيِّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله.

والدليل على ذلك: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ قَالَ: «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟». فَقَالَ لَهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّ أَهْلُ الْقِيَوْمِ﴾. فَضَرَبَ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١)، يعني: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْرَهُ بِأَنَّ هَذِهِ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَتَفَاضَلُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا حَدِيثُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ.

وهَذَا مَوْضِعٌ يَجِبُ فِيهِ التَّفْصِيلُ؛ فَإِنَّا نَقُولُ: أَمَّا بِاعْتِبَارِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَتَفَاضَلُ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ مَدْلُولَاتِهِ وَمَوْضُوعَاتِهِ فَإِنَّهُ يَتَفَاضَلُ، فَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ الَّتِي فِيهَا الشَّاءُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لَيْسَتْ كَسُورَةِ الْمَسَدِ الَّتِي فِيهَا بَيَانُ حَالِ أَبِي هَبٍ مِنْ حَيْثُ الْمَوْضُوعُ.

كَذَلِكَ يَتَفَاضَلُ مِنْ حَيْثُ التَّأثيرُ وَالْقُوَّةُ فِي الْأَسْلُوبِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْآيَاتِ مَا تَحْدُثُ آيَةً قَصِيرَةً لَكِنْ فِيهَا رِذْعٌ قَوِيٌّ لِلْقَلْبِ وَمَوْعِظَةٌ، وَتَحْدُثُ آيَةً أُخْرَى أَطْوَلَ مِنْهَا بِكَثِيرٍ لَكِنْ لَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْأُولَى، فَمِثْلًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْأَذْيَاتُ ۖ أَمَوتُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَاصْثَبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]... إلخ، هَذِهِ آيَةٌ مَوْضُوعُهَا سَهْلٌ، وَالبَحْثُ فِيهَا فِي مُعَامَلَاتِ تَجَرِّي بَيْنَ النَّاسِ، وَلَيْسَ فِيهَا ذَاكَ التَّأثيرُ الَّذِي يُؤَثِّرُهُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۚ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فَهَذِهِ تَحْمِلُ مُعَارِي عَظِيمَةً، فِيهَا رَجْرٌ وَمَوْعِظَةٌ وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهيبٌ، لَيْسَتْ كَأَيَّةِ الدِّينِ مِثْلًا، مَعَ أَنَّ آيَةَ الدِّينِ أَطْوَلُ مِنْهَا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠)، من حديث أبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قول المؤلف: «حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُخْبِرُ اللَّهُ بِأَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِالْأُلُوهِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لِأَنَّ هَذِهِ جُمْلَةٌ تَفِيدُ الْحَضَرَ، وَطَرِيقَةُ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ هَذِهِ مِنْ أَقْوَى صِبْغِ الْحَضَرِ.

* وقوله: «﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»: ﴿الْحَيُّ﴾ أَيُّ: ذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ، الْمُتَّصِمَةِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، لَمْ تُسَبِّقْ بَعْدَمَ، وَلَا يَلْحَقُهَا زَوَالٌ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا نَقْصٌ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

و﴿الْحَيُّ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وَلَكِنْ لَيْسَ الْحَيُّ كَالْحَيِّ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْأِسْمِ التَّمَاثُلُ فِي الْمُسَمَّى.

* ﴿الْقَيُّومُ﴾: عَلَى وَزْنِ فَيْعُولٍ، وَهَذِهِ مِنْ صِبْغِ الْمُبَالِغَةِ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْقِيَامِ. وَمَعْنَى ﴿الْقَيُّومُ﴾ أَيُّ: أَنَّهُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، فَقِيَامُهُ بِنَفْسِهِ يَسْتَلْزِمُ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْلٍ وَلَا شُرْبٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَغَيْرُهُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي إِيجَادِهِ وَإِعْدَادِهِ وَإِمْدَادِهِ.

وَمِنْ مَعْنَى ﴿الْقَيُّومُ﴾ كَذَلِكَ أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى غَيْرِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وَالْمُقَابِلُ مُحَذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: الْقَيُّومُ هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِذَا كَانَ قَائِمًا عَلَى غَيْرِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ قَائِمًا بِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَائِنِيهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي﴾ [الروم: ٢٥]، فَهُوَ إِذَنْ كَامِلُ الصِّفَاتِ وَكَامِلُ الْمُلْكِ وَالْأَفْعَالِ.

وهذان الانسان هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعِيَ الله به أجاب؛ ولهذا ينبغي للإنسان في دُعائه أَنْ يَتَوَسَّلَ بِهِ، فيقول: يَا حَيُّ! يَا قَيُّومُ! ^(١).

(١) لما أخرجه الحاكم وصححه (٥٠٩/١)، من حديث ابن مسعود، وأخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٣٧)، من حديث أنس بن مالك قال: كان رسول الله إذا كره أمر قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»، وأخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء ما يقول عند الكرب، رقم (٣٤٣٦) بنحوه.

وقد ذُكِرَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: هَذَا أَحَدُهَا، وَالثَّانِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وَالثَّالِثُ فِي سُورَةِ طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

هَذَانِ الاسْمَانِ فِيهِمَا الْكَمَالُ الذَّائِي وَالْكَمَالُ السُّلْطَانِي، فَالذَّائِي فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَيُّ﴾ وَالسُّلْطَانِي فِي قَوْلِهِ: ﴿الْقَيُّومُ﴾؛ لِأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَيَقُومُ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

* وَقَوْلُهُ: «(لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ)»: وَالسَّنَةُ النَّعَاسُ، وَهِيَ مُقَدِّمَةُ النَّوْمِ، وَلَمْ يَقُلْ: لَا يَنَامُ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ يَكُونُ بِاخْتِيَارٍ، وَالْأَخْذُ يَكُونُ بِالْقَهْرِ.

وَالنَّوْمُ مِنْ صِفَاتِ النِّقْصِ؛ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»^(١).

وهذه صفة من صفات النفي، وقد سبق أن صفات النفي لا بد أن تتضمن ثبوتاً، وهو كمال الضد، والكمال في قوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ كمال الحياة والقيومية؛ لِأَنَّهُ مِنْ كَمَالِ حَيَاتِهِ أَنْ لَا يَحْتَاجَ إِلَى النَّوْمِ، وَمِنْ كَمَالِ قِيُومِيَّتِهِ أَنْ لَا يَنَامَ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ الْحَيَّةُ؛ لِنَقْصِهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى النَّوْمِ مِنْ أَجْلِ الْإِسْتِرَاحَةِ مِنْ تَعَبِ سَبَقٍ، وَاسْتِعَادَةِ الْقُوَّةِ لِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلٍ، وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ كَامِلِي الْحَيَاةِ كَانُوا لَا يَنَامُونَ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْأَثَارُ.

لكن لو قال قائل: النَّوْمُ فِي الْإِنْسَانِ كَمَالٌ؛ وَلِهَذَا إِذَا لَمْ يَنَمْ الْإِنْسَانُ عُدَّ مَرِيضًا.

فنقول: كَالْأَكْلِ فِي الْإِنْسَانِ كَمَالٌ، وَلَوْ لَمْ يَأْكُلْ عُدَّ مَرِيضًا، لكن هو كمال من وجه ونقص من وجه آخر، كمالٌ لِدَلَالَتِهِ عَلَى صِحَّةِ الْبَدَنِ وَاسْتِقَامَتِهِ، ونقصٌ؛ لِأَنَّ الْبَدَنَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ نَقْصٌ.

إذن: ليس كل كمال نسبي بالنسبة للمخلوق يكون كمالاً للخالق، كما أنه ليس كل كمال في الخالق يكون كمالاً في المخلوق، فالتكبر كمال في الخالق نقص في المخلوق، والأكل

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وَالشُّرْبُ وَالنَّوْمُ كَمَا لِي فِي الْمَخْلُوقِ نَقْصٌ فِي الْخَالِقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ: ﴿وَهُوَ يَطْعُمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

* وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿لَهُ﴾: خبرٌ مُقَدَّمٌ. و﴿مَا﴾: مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، فِيهِ الْجُمْلَةُ حَصْرٌ، طَرِيقُهُ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَهُوَ الْخَبَرُ: ﴿لَهُ﴾: اللامُ هَذِهِ لِلْمَلِكِ، مِلْكٌ تَامٌ بِدُونِ مُعَارِضٍ. ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، الْحَيَوَانَ مِنْهَا وَغَيْرِ الْحَيَوَانَ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿السَّمَوَاتِ﴾: يُفِيدُ أَنَّ السَّمَوَاتِ عَدِيدَةٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَقَدْ نَصَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّهَا سَبْعٌ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وَالْأَرْضُونَ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّهَا سَبْعٌ، بِدُونِ تَصْرِيحٍ، وَصَرَّحَتْ بِهَا السُّنَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، مِثْلَهُنَّ فِي الْعَدَدِ دُونَ الصِّفَةِ. وَفِي السُّنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّفَهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

* وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: ﴿مَنْ ذَا﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ. أَوْ نَقُولُ: ﴿مَنْ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وَ﴿ذَا﴾: مُلغَاةٌ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ ﴿ذَا﴾ اسْمًا مُوَصُولًا فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مَعْنَى الْجُمْلَةِ: مَنْ الَّذِي الَّذِي! وَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾: الشَّفَاعَةُ فِي اللَّغَةِ: جَعْلُ الْوَسِيلِ شَفَعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّاشِئُ وَالْوَسِيلُ﴾ [الفجر: ٣]. وَفِي الْأَصْطِلَاحِ: هِيَ التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَمِثْلًا: شَفَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ أَنْ يُقْضَى بَيْنَهُمْ. هَذِهِ شَفَاعَةٌ بِدَفْعِ مَضَرَّةٍ، وَشَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوهَا بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿عِنْدَهُ﴾: أَيُّ: عِنْدَ اللَّهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ﴿لَا يَأْذِنُهُ﴾ أي: إذنه له، وهذه تُفيد إثبات الشفاعة، لكن بشرط أن يأذن، ووجه ذلك أنه لو لا ثبوتها لكان الاستثناء في قوله: ﴿لَا يَأْذِنُهُ﴾: لغوا لا فائدة فيه.

وذكرها بعد قوله: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾: يفيد أن هذا الملك الذي هو خاص بالله عز وجل أنه ملك تام السلطان، بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف، ولا بالشفاعة التي هي خير إلا بإذن الله، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه عز وجل.

وتفيد هذه الجملة أن الله إذنا، والإذن في الأصل الإعلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذَّنَ رَبُّكَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٣] أي: إعلام من الله ورَسُولِهِ، فمعنى ﴿لَا يَأْذِنُهُ﴾ أي: إعلامه بأنه راضٍ بذلك.

وهناك شروط أخرى للشفاعة: منها: أن يكون راضياً عن الشافع وعن المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وهناك آية تنظم الشروط الثلاثة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] أي: يَرْضَى عن الشافع والمشفوع له؛ لأن حذف المفعول يدل على العموم.

إذا قال قائل: ما فائدة الشفاعة إذا كان الله تعالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو؟ فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى يأذن بالشفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمته، وينال المقام المحمود.

* وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، والله عز وجل ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي، وكلمة (ما) من صيغ العموم، تشمل كل ماضٍ وكل مستقبل، وتشمل أيضاً ما كان من فعله، وما كان من أفعال الخلق.

* وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: الضمير في ﴿يُحِيطُونَ﴾

يَعُودُ عَلَى الْخَلْقِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْني: لَا يُحِيطُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

* قَوْلُهُ: ﴿مَنْ عَلَيْهِ﴾: يُحْتَمَلُ مِنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، يَعْني: أَنَّنَا لَا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ اللَّهِ وَذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ مِمَّا عَلَّمَنَا إِيَّاهُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ (عِلْمٌ) هُنَا بِمَعْنَى مَعْلُومٍ، يَعْني: لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْلُومِهِ - أَيْ: مِمَّا يَعْلَمُهُ - إِلَّا بِمَا شَاءَهُ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ.

وَقَدْ نَقُولُ: إِنَّ الثَّانِي أَعَمُّ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَهُ يَدْخُلُ فِيهِ عِلْمُهُ بِذَاتِهِ وَبَصِفَاتِهِ وَبِمَا سِوَى ذَلِكَ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يَعْني: إِلَّا بِمَا شَاءَ مِمَّا عَلَّمَهُمْ إِيَّاهُ.

وَقَدْ عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَشْيَاءَ كَثِيرَةً عَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَنْ أَحْكَامِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَكِنْ هَذَا الْكَثِيرُ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِمَعْلُومِهِ قَلِيلٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: ﴿وَسِعَ﴾ بِمَعْنَى: شَمِلَ، يَعْني: أَنَّ كُرْسِيَّهٗ يُحِيطُ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَكْبَرُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَا أَنَّهُ أَكْبَرُ مَا وَسِعَهَا.

وَالْكُرْسِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّهُ مَوْضِعُ قَدَمَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ»^(١)، وَلَيْسَ هُوَ الْعَرْشُ، بَلِ الْعَرْشُ أَكْبَرُ مِنَ الْكُرْسِيِّ، وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ كَحَلَقَةِ أُلُقَيْتٍ فِي فَلَاحٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاحِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ»^(٢).

(١) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب «السنة» رقم (٥٨٦)، ومحمد ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» رقم (٦١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٤٨/١)، والدارقطني في كتاب «الصفات» رقم (٣٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨٢/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣٣/٦) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في «مختصر العلو» رقم (٤٥): إسناده صحيح؛ رجاله كلهم ثقات.

(٢) أخرجه محمد ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» رقم (٥٨)، وابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٦٢)، من

هَذَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَعِظَمُ الْمَخْلُوقِ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْخَالِقِ.
 * قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ يعني: لَا يُثْقَلُهُ وَيُكْرَهُهُ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.
 وَهَذِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَنَفِيِّ، وَالصِّفَةُ التَّبَوُّتِيَّةُ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا هَذَا النَّفْيُ هِيَ كِمَالُ الْقُدْرَةِ
 وَالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: ﴿الْعَلِيُّ﴾ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ، وَهِيَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؛ لِأَنَّ
 عُلوَّهُ عَزَّجَلَ لَازِمٌ لِدَاتِهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ وَاسْمِ الْفَاعِلِ أَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ طَارِئٌ
 حَادِثٌ، يُمَكِّنُ زَوَالَهُ، وَالصِّفَةُ الْمُشَبَّهَةُ لَازِمَةٌ لَا يَنْفَكُ عَنْهَا الْمَوْصُوفُ.
 وَعُلُوُّ اللَّهِ عَزَّجَلَ قِسْمَانِ: عُلوُّ ذَاتٍ، وَعُلُوُّ صِفَاتٍ:

فَأَمَّا عُلوُّ الذَّاتِ: فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِذَاتِهِ، لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَلَا حِذَاءَهُ
 شَيْءٌ.

وَأَمَّا عُلوُّ الصِّفَاتِ: فَهِيَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] يعني:
 أَنَّ صِفَاتِهِ كُلَّهَا عَلَيَا، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بوجهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.
 أَمَّا ﴿الْعَظِيمُ﴾ فَهِيَ أَيْضًا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَمَعْنَاهَا: ذُو الْعَظَمَةِ، وَهِيَ الْقُوَّةُ وَالْكِيرَاءُ
 وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ مَذَلُولِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ خَمْسَةً، وَهِيَ: اللَّهُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ.
 وَتَتَضَمَّنُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سِتًّا وَعَشْرِينَ صِفَةً، مِنْهَا خَمْسٌ صِفَاتٍ تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ:
 السَّادِسَةُ: انْفِرَادُهُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ.

السَّابِعَةُ: انتِفَاءُ السَّنَةِ وَالنُّومِ فِي حَقِّهِ؛ لِكِمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ.
 الثَّامِنَةُ: عُمُومُ مَلِكِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

= حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٩) وقال: لا يصح في
 صفة الكرسي غير هذا الحديث.

التاسعة: انفراد الله عزَّجَلَّ بِالْمَلِكِ، وَاُخْذُهُ مِنْ تَقْدِيمِ الْخَيْرِ.

العاشر: قُوَّةُ السُّلْطَانِ وَكَمَالُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

الحادية عشرة: إثبات العِندِيَّةِ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى الْحُلُولِيَّةِ.

الثانية عشرة: إثبات الإِذْنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

الثالثة عشرة: عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

الرابعة عشرة والخامسة عشرة: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنْسَى مَا مَضَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

وَلَا يَجْهَلُ مَا يُسْتَقْبَلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

السادسة عشرة: كَمَالُ عَظَمَةِ اللَّهِ؛ لَعَجْزِ الْخَلْقِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ.

السابعة عشرة: إثبات الْمَسِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

الثامنة عشرة: إثبات الْكُرْسِيِّ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ.

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون: إثبات الْعَظَمَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ؛ لِقَوْلِهِ:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لِأَنَّ عَظَمَةَ الْمَخْلُوقِ تُدَلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ.

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون: كَمَالُ عِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِفْظِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَدُودُهُ﴾

حَفَظَهُمَا﴾.

الخامسة والعشرون: إثبات عُلُوِّ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَى﴾.

ومذهب أهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالٍ بِذَاتِهِ، وَأَنَّ عُلُوَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ

الذَّاتِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ.

وخالف أهل السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ طَائِفَتَانِ: طَائِفَةٌ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ! وَطَائِفَةٌ

قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا تَحْتَ الْعَالَمِ وَلَا فِي الْعَالَمِ وَلَا يَمِينُ وَلَا شِمَالُ وَلَا مُتَفَصِّلٌ

عَنِ الْعَالَمِ وَلَا مُتَّصِلٌ!

والَّذِينَ قَالُوا بَآئِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ اسْتَدْلُوا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خُمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، واستدلوا بقوله تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وعلى هذا فليس عالياً بذاته، بل العلوُّ عندهم علوُّ صِفَةٍ.

أَمَّا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِجِهَةٍ، فقالوا: لَأَنَّا لَوْ وَصَفْنَاهُ بِذَلِكَ لَكَانَ جِسْمًا، والأجسامُ مُتَهَيِّئَةٌ، وهذا يَسْتَلْزِمُ التَّمَثِيلَ، وعلى هذا فَنُكْرُ أَنْ يَكُونَ فِي أَيِّ جِهَةٍ! ولكنَّا نَرُدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: إبطال احتجاجهم.

والثاني: إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة.

١ - أمَّا الأول:؛ فنقول لِمَنْ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ: دَعَاكُمْ هَذِهِ دَعْوَى بَاطِلَةٍ، يَرُدُّهَا السَّمْعُ وَالْعَقْلُ:

■ أمَّا السَّمْعُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ الْعَلِيُّ، وَالْآيَةُ الَّتِي اسْتَدَلَّلْتُمْ بِهَا لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَعِيَّةَ لَا تَسْتَلْزِمُ الْحُضُورَ فِي الْمَكَانِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الْعَرَبِ: الْقَمَرُ مَعَنَا. وَحِلَّةٌ فِي السَّمَاءِ؟! وَيَقُولُ الرَّجُلُ: رَوْجَتِي مَعِي. وَهُوَ فِي الْمَشْرِقِ وَهِيَ فِي الْمَغْرِبِ؟! وَيَقُولُ الضَّابِطُ لِلْجُنُودِ: اذْهَبُوا إِلَى الْمَرْكَزَةِ وَأَنَا مَعَكُمْ. وَهُوَ فِي غُرْفَةِ الْقِيَادَةِ وَهُمْ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ؟! فَلَا يَلْزِمُ مِنَ الْمَعِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الصَّاحِبُ فِي مَكَانِ الْمَصَاحِبِ أَبَدًا.

وَالْمَعِيَّةُ يَتَحَدَّدُ مَعْنَاهَا بِحَسَبِ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ، فنقول أحيانًا: هَذَا لَبَنٌ مَعَهُ مَاءٌ، وَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ اقْتَضَتْ الاختلاطَ. وَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَتَاعِي مَعِي. وَهُوَ فِي بَيْتِهِ غَيْرُ مُتَّصِلٍ بِهِ، وَيَقُولُ إِذَا حَمَلَ مَتَاعَهُ مَعَهُ: مَتَاعِي مَعِي. وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِهِ. فَهَذِهِ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ لَكِنْ يَخْتَلِفُ مَعْنَاهَا بِحَسَبِ الإِضَافَةِ.

فبهذا نقول: مَعِيَ اللهُ عَزَّجَلَّ لِخَلْقِهِ تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، كسائر صفاته، فهي مَعِيَّةٌ تَامَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، لكنْ هُوَ فِي السَّمَاءِ.

■ وأما الدليل العقلي؛ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِمْ: فنقول: إِذَا قُلْتَ: إِنَّ اللهَ مَعَكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَهَذَا يُلْزِمُ عَلَيْهِ لَوَازِمٌ بَاطِلَةٌ، فَيُلْزَمُ عَلَيْهِ:

أَوَّلًا: إِمَّا التَّعَدُّدُ أَوْ التَّجَزُّؤُ، وَهَذَا لَا زِمَ بَاطِلٌ بِلَا شَكٍّ، وَبُطْلَانِ اللَّازِمِ يُدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ الْمَلْزُومِ.

ثَانِيًا: نقول: إِذَا قُلْتَ: إِنَّهُ مَعَكَ فِي الْأُمَكِنَةِ لَزِمَ أَنْ يَزْدَادَ بَزِيَادَةِ النَّاسِ، وَيَنْقُصَ بِنَقْصِ النَّاسِ.

ثَالِثًا: يُلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ أَلَّا تُنَزَّهَهُ عَنِ الْمَوَاضِعِ الْقَدِرَةِ، فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ اللهَ مَعَكَ وَأَنْتَ فِي الْخَلَائِ، فَيَكُونُ هَذَا أَعْظَمَ قَدَحٍ فِي اللهِ عَزَّجَلَّ.

فَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَهُمْ مُنَافٍ لِلسَّمْعِ وَمُنَافٍ لِلْعَقْلِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُدُلُّ عَلَيْهِ بِأَيِّ وَجْهِ مِنْ الدَّلَالَاتِ، لَا دَلَالَةَ مُطَابَقَةٍ، وَلَا تَقْصِينٍ، وَلَا انْتِزَامٍ، أَبَدًا.

٢- أَمَّا الْآخَرُونَ فنقول لَهُمْ:

أَوَّلًا: إِنَّ نَفْيَكُمْ لِلْجِهَةِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ؛ إِذْ لَا نَعْلَمُ شَيْئًا لَا يَكُونُ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا يَمِينَ، وَلَا شِمَالٍ، وَلَا مُتَّصِلًا وَلَا مُنْفَصِلًا، إِلَّا الْعَدَمُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَوْ قِيلَ لَنَا: صِفُوا اللهَ بِالْعَدَمِ. مَا وَجَدْنَا أَصْدَقَ وَصْفًا لِلْعَدَمِ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ.

ثَانِيًا: قَوْلُكُمْ: إِبْثَاتُ الْجِهَةِ يَسْتَلْزِمُ التَّجْسِيمَ! نَحْنُ نُنَاقِشُكُمْ فِي كَلِمَةِ (الْجِسْمِ):

مَا هَذَا الْجِسْمُ الَّذِي تُنْفَرُونَ النَّاسَ عَنْ إِبْثَاتِ صِفَاتِ اللهِ مِنْ أَجْلِهِ؟!

أَتُرِيدُونَ بِالْجِسْمِ الشَّيْءَ الْمَكُونَّ مِنْ أَشْيَاءٍ مُفْتَقِرٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ؟! فَإِنْ أَرَدْتُمْ هَذَا فَنَحْنُ لَا نُقَرُّهُ، وَنَقُولُ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِجِسْمٍ بِهَذَا الْمَعْنَى. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ إِبْثَاتَ عُلُوِّهِ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْجِسْمَ فَقَوْلُهُ مُجْرَدُ دَعْوَى، وَيَكْفِينَا أَنْ نَقُولَ: لَا قَبُولَ!

أَمَّا إِنْ أَرَدْتُمْ بِالْجِسْمِ الذَّاتَ الْقَائِمَةَ بِنَفْسِهَا الْمُتَّصِفَةَ بِمَا يَلِيقُ بِهَا فَنَحْنُ نُنَبِّتُ ذَلِكَ، وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَاتًا، وَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ بَطْلَانُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَيْنَا أَنَّ اللَّهَ بَذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا تَحْتَهُ وَلَا مُتَّصِلٌ وَلَا مُنْفَصِلٌ، وَنَقُولُ: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى عَرْجَلٌ.

أَمَّا أَدِلَّةُ الْعُلُوِّ الَّتِي يُنْبِتُ بِهَا نَقِيضُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَالَّتِي تُنْبِتُ مَا قَالَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَهِيَ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَرُ أَفْرَادُهَا، وَأَمَّا أَنْوَاعُهَا فَهِيَ خَمْسَةٌ: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ.

■ أَمَّا الْكِتَابُ: فَتَنَوَّعَتْ أَدِلَّتُهُ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَرْجَلٌ، مِنْهَا التَّصْرِيحُ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ وَصُعودِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَنُزُولِهَا مِنْهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

■ أَمَّا السُّنَّةُ: فَكَذَلِكَ تَنَوَّعَتْ دَلَالَتُهَا، وَاتَّفَقَتِ السُّنَّةُ بِأَصْنَافِهَا الثَّلَاثَةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ بَذَاتِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ عُلُوُّ اللَّهِ بَذَاتِهِ فِي السُّنَّةِ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ وَفِعْلِهِ وَإِقْرَارِهِ.

■ وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ ظُهُورِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ الْمُبْتَدِعَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ خَلْقِهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «لَيْسَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا يَدُلُّ لَا نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَيْسَ فِي السَّمَاءِ، بَلْ كُلُّ كَلَامِهِمْ مُتَّفِقٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

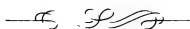
■ وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَإِنَّا نَقُولُ: كُلُّ يَعْلَمُ أَنَّ الْعُلُوَّ صِفَةُ كَمَالٍ، وَإِذَا كَانَ صِفَةً كَمَالٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا لِلَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ؛ وَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي أَعْلَى أَوْ فِي أَسْفَلٍ أَوْ فِي الْمَحَازِي، فَلَا أَسْفَلَ وَالْمَحَازِي مُتَمَنِّعٌ؛ لِأَنَّ الْأَسْفَلَ نَقْصٌ فِي مَعْنَاهُ،

والمحاذي نَقَصْ لُمُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِ وَمُثَالَّتِيهِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعُلُوُّ، وَهَذَا وَجْهٌ آخَرُ فِي الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ.

■ وَأَمَّا الْفِطْرَةُ: فَإِنَّا نَقُولُ: مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقُولُ: يَا رَبِّ! إِلَّا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ ضُرُورَةً بِطَلَبِ الْعُلُوِّ.

فَتَطَابَقَتِ الْأَدِلَّةُ الْخَمْسَةُ.

وَأَمَّا عُلُوُّ الصِّفَاتِ: فَهُوَ عَمَلُ إِجْمَاعٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدِينُ أَوْ يَتَسَمَّى بِالْإِسْلَامِ.
السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِبْثَابُ الْعِظَمَةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمِ﴾.



* قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ».

الشرح:

هَذَا طَرَفٌ مِنْ حَدِيثٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ اسْتِحْفَاطِ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهُ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَأَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْهَا، وَقَوْلُهُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تُخْتَمَ الْآيَةُ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَأَخْبَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١).



(١) عُلِّقَ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوَكَاةِ، بَابُ إِذَا وَكَلَّ رَجُلًا، فَتَرَكَ الْوَكِيلَ شَيْئًا، رَقْمُ (٢٣١١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا وَكَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ.
وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٤/٤٨٨): هَكَذَا أورد البخاري هذا الحديث هنا ولم يصرح فيه بالتحديث... وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق.

* قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]».

الشرح:

* «وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ»: هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى (سُورَةٍ) فِي قَوْلِ الْمُؤَلَّفِ: «مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ

فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ».

* «﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾»: هَذِهِ أَرْبَعَةُ أَسْمَاءٍ، كُلُّهَا مُتَقَابِلَةٌ، فِي الزَّمَانِ

وَالْمَكَانِ، تُفِيدُ إِحَاطَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَكَذَلِكَ فِي الْمَكَانِ، فَفِيهِ
الْإِحَاطَةُ الزَّمَانِيَّةُ وَالْإِحَاطَةُ الْمَكَانِيَّةُ.

* «﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾»: ﴿الْأَوَّلُ﴾: فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ»^(١).

وَهَذَا فَسَّرَ الْإِنْبَاءَ بِالنَّفْيِ، فَجَعَلَ هَذِهِ الصِّفَةَ الثَّبُوتِيَّةَ صِفَةً سَلْبِيَّةً، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا

سَبَقَ أَنَّ الصِّفَاتِ الثَّبُوتِيَّةَ أَكْمَلُ وَأَكْثَرُ، فَلِمَاذَا؟

فَنَقُولُ: فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ؛ لِتَوْكِيدِ الْأَوَّلِيَّةِ، يَعْنِي أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ، أَوَّلِيَّةٌ لَيْسَتْ أَوَّلِيَّةً

إِضَافِيَّةً، فَيُقَالُ: هَذَا أَوَّلُ بَاعْتِبَارِ مَا بَعْدَهُ، وَفِيهِ شَيْءٌ آخَرُ قَبْلَهُ، فَصَارَ تَفْسِيرُهَا بِأَمْرِ سَلْبِيٍّ
أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ عَلَى أَنَّهَا أَوَّلِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ» وَهَذَا بَاعْتِبَارِ التَّقَدُّمِ
الزَّمَنِيِّ.

* «﴿وَالْآخِرُ﴾»: فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ» وَلَا يُتَوَهَّمُ

أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ لَاحِزَتِهِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ أَبَدِيَّةً، وَهِيَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، كَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ،
وَعَلَيْهِ: فَيَكُونُ مَعْنَى «﴿وَالْآخِرُ﴾» أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا نِهَايَةَ لَاحِزَتِهِ.

* «﴿وَالظَّاهِرُ﴾»: مِنَ الظُّهُورِ، وَهُوَ الْعُلُوُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] أَيْ: لِيُعْلِيَهُ، وَمِنْهُ ظَهَرَ الدَّابَّةُ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣)، من حديث أبي

لأنَّهُ عَالٍ عَلَيْهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أَيْ: يَعْلَمُوا عَلَيْهِ، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تَفْسِيرِهَا: «الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ» فَهُوَ عَالٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

* ﴿وَالْبَاطِنُ﴾: فَسَّرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ» وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ إِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ الْمَعْنَى أَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ بَاطِنٌ، فَعُلُوُّهُ لَا يُنَافِي قُرْبَهُ عَزَّجَلَّ، فَالْبَاطِنُ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْقَرِيبِ.

تَأَمَّلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْأَرْبَعَةَ تَجِدُ أَنَّهَا مُتَقَابِلَةٌ، وَكُلُّهَا خَبَرٌ عَنْ مُبْتَدَأٍ وَاحِدٍ، لَكِنْ بِوَاسِطَةِ حَرْفِ الْعَطْفِ، وَالْأَخْبَارُ بِوَاسِطَةِ حَرْفِ الْعَطْفِ أَقْوَى مِنَ الْأَخْبَارِ بِدُونِ وَاسِطَةِ حَرْفِ الْعَطْفِ، فَمِثْلًا: ﴿وَهُوَ الْقَفُورُ الْوَدُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮﴾ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿البروج: ١٤-١٦﴾ هِيَ أَخْبَارٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِدُونِ حَرْفِ الْعَطْفِ، لَكِنْ أحيانًا تَأْتِي أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ مُقْتَرَنَةً بِوَإِ الْعَطْفِ، وَفَائِدَتُهَا:

أَوَّلًا: تَوْكِيدُ السَّابِقِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَطَفْتَ عَلَيْهِ جَعَلْتَهُ أَصْلًا، وَالْأَصْلُ ثَابِتٌ. ثَانِيًا: إِفَادَةُ الْجَمْعِ، وَلَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ تَعَدُّدُ الْمَوْصُوفِ، أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③﴾ [الأعلى: ١-٣] فَالْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى.

فَإِذَا قُلْتَ: الْمَعْرُوفُ أَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمَغَايِرَةَ.

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، لَكِنْ الْمَغَايِرَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْأَعْيَانِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالْأَوْصَافِ، وَهَذَا تَغَايُرٌ أَوْصَافٍ، عَلَى أَنَّ التَّغَايُرَ قَدْ يَكُونُ لَفْظِيًّا غَيْرَ مَعْنَوِيٍّ، مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيِّنَا^(١)

فَالْمَيِّنُ هُوَ الْكَذِبُ، وَمَعَ ذَلِكَ عَطَفَهُ عَلَيْهِ؛ لِتَغَايُرِ اللَّفْظِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، فَالتَّغَايُرُ إِمَّا عَيْنِيٌّ أَوْ مَعْنَوِيٌّ أَوْ لَفْظِيٌّ، فَلَوْ قُلْتَ: جَاءَ زَيْدٌ وَعَمَرُو وَبَكَّرُوا وَخَالِدٌ. فَالتَّغَايُرُ عَيْنِيٌّ، وَلَوْ

(١) هُوَ لَعْدِي بْنِ زَيْدِ الْعَبَادِي. يَنْظُرُ: «الْمَوْشَح» لِلْمَرْزُبَانِي (ص: ٢٢)، «مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ» لِلْعَبَّاسِي (١/ ٣١٠-

قُلْتُ: جَاءَ زَيْدٌ الْكَرِيمُ وَالشَّجَاعُ وَالْعَالِمُ. فَالتَّغَايُرُ مَعْنَوِيٌّ، وَلَوْ قُلْتُ: هَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ وَمِثْنٌ. فَالتَّغَايُرُ لَفِظِيٌّ.

وَأَسْتَفَدْنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِثْبَاتَ أَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ لِلَّهِ، وَهِيَ: الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ، وَالْبَاطِنُ.

وَأَسْتَفَدْنَا مِنْهَا خَمْسَ صِفَاتٍ: الْأَوَّلِيَّةَ، وَالْآخِرِيَّةَ، وَالظَّاهِرِيَّةَ، وَالْبَاطِنِيَّةَ، وَعُمُومَ الْعِلْمِ. وَأَسْتَفَدْنَا مِنْ مَجْمُوعِ الْأَسْمَاءِ إِحَاطَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ زَمَنًا وَمَكَانًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَحْصُلُ مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَوْصَافِ زِيَادَةُ صِفَةٍ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مُتَلَازِمَةٌ، بِمَعْنَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: الْأَوَّلُ. فَلَا بُدَّ أَنْ تَقُولَ: الْآخِرُ؟ أَوْ يَجُوزُ فَضْلُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ؟!

فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُتَقَابِلَ مِنْهَا مُتَلَازِمٌ، فَإِذَا قُلْتَ: الْأَوَّلُ. فَقُلْ: الْآخِرُ. وَإِذَا قُلْتَ: الظَّاهِرُ. فَقُلْ: الْبَاطِنُ؛ لِثَلَاثَتِ صِفَةٍ الْمُقَابِلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِحَاطَةِ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: هَذَا إِكْمَالٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ، يَعْنِي: وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وَهَذِهِ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ الَّتِي لَمْ يَدْخُلْهَا تَخْصِصٌ أَبَدًا، وَهَذَا الْعُمُومُ يَشْمَلُ أَفْعَالَهُ وَأَفْعَالَ الْعِبَادِ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ، يَعْلَمُ مَا يَقَعُ وَمَا سَيَقَعُ، وَيَشْمَلُ الْوَاجِبَ وَالْمُمْكِنَ وَالْمُسْتَحِيلَ، فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعٌ شَامِلٌ مُحِيطٌ، لَا يُسْتَنَنَى مِنْهُ شَيْءٌ.

فَأَمَّا عِلْمُهُ بِالْوَاجِبِ فَكَعِلْمِهِ بِنَفْسِهِ وَبِمَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ.

وَأَمَّا عِلْمُهُ بِالْمُسْتَحِيلِ، فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وَأَمَّا عِلْمُهُ بِالْمُمْكِنِ فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ فَهُوَ مِنَ الْمُمْكِنِ: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُغْلِبُونَ﴾ [النحل: ١٩].

إِذَنْ: فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَالثَّمَرَةُ الَّتِي يُنتِجُهَا الْإِيَانُ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ: كَمَا لَمْ تُرَاقِبَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَخَشِيَّتِهِ،
بَحِيثٌ لَا يَفْقِدُهُ حَيْثُ أَمَرُهُ، وَلَا يَرَاهُ حَيْثُ نَهَا.



﴿قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: «وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

الشرح:

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ التَّوَكَّلُ: مَاخُذُ مِنْ وَكَلِ الشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ، أَيْ: فَوَضَعُهُ إِلَيْهِ، فَالتَّوَكَّلُ عَلَى
الْغَيْرِ بِمَعْنَى: التَّفْوِيزِ إِلَيْهِ.

وَعَرَفَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ: صِدْقُ الْاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ، مَعَ الثَّقَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِعْلُ الْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ.

وَصِدْقُ الْاعْتِمَادِ: أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ اعْتِمَادًا صَادِقًا، بَحِيثٌ لَا تَسْأَلُ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَسْتَعِينُ
إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَرْجُو إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، تَعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ، وَلَا يَكْفِي هَذَا الْاعْتِمَادُ دُونَ الثَّقَةِ بِهِ، وَفِعْلِ السَّبَبِ الَّذِي أَذِنَ بِهِ، بَحِيثٌ إِنَّكَ وَائِقٌ
بِدُونِ تَرَدُّدٍ مَعَ فِعْلِ السَّبَبِ الَّذِي أَذِنَ فِيهِ.

فَمَنْ لَمْ يَتَعَمَّدَ عَلَى اللَّهِ وَاعْتَمَدَ عَلَى قُوَّتِهِ فَإِنَّهُ يُجْذَلُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ
مَعَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، حِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ حَيْثُ قَالُوا: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ^(١).
﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ
عَنكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢) ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ

(١) لما أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٢٣/٥) عن الربيع: «أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فكانت الهزيمة» وعزاه الحافظ ليونس بن بكير في «زيادات المغازي» «الفتح» (٢٧/٨)، وإسناده مُعْضَل.

سَكِنَتْهُ عَلَى رَسُولِهِ. وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿[التوبة: ٢٥-٢٦].

وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلِ السَّبَبَ الَّذِي أَدِنَ اللَّهُ فِيهِ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِقٍ، بَلْ إِنَّ عَدَمَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ سَفَهٌ فِي الْعَقْلِ، وَنَقْصٌ فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ طَعَنَ وَاضِحٌ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ. وَالتَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ هُوَ شَطْرُ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَكْتَعِبُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى هِيَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ولهذا فإن مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ لَا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَوَّلًا: أَنْ يَتَوَكَّلَ تَوَكُّلَ اعْتِمَادٍ وَتَعَبُّدٍ، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ، كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْمُتَوَكِّلَ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ لَهُ كُلُّ خَيْرٍ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ كُلُّ شَرٍّ، فَيَقْضِي أَمْرَهُ إِلَيْهِ تَقْضِيًا كَامِلًا فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ افْتِرَانِ ذَلِكَ بِالْحَشْيَةِ وَالرَّجَاءِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَيْهِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا؛ لِأَنَّ هَذَا التَّقْضِيَّ لَا يَصِحُّ إِلَّا لِلَّهِ.

ثَانِيًا: أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْاعْتِمَادِ، لَكِنْ فِيهِ إِيْمَانٌ بِأَنَّهُ سَبَبٌ، وَأَنَّ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ، كَتَوَكُّلِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ فِي تَحْصِيلِ مَعَاشِهِمْ؛ فَهَذَا تَوَكُّعٌ مِنَ الشَّرْكِ الْأَصْغَرِ.

ثَالِثًا: أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى شَخْصٍ عَلَى أَنَّهُ نَائِبٌ عَنْهُ، وَأَنَّ هَذَا الْمُتَوَكِّلَ فَوْقَهُ، كَتَوَكُّلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْوَكِيلِ فِي بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا تَدْخُلُهُ النَّيَابَةُ، فَهَذَا جَائِزٌ، وَلَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ وَكَّلَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَنَحْوِهِمَا.

* وَقَوْلُهُ: «﴿عَلَىٰ آلِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾»: يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُكْمَ إِذَا عَلَّقَ بِوَصْفٍ دَلَّ عَلَىٰ عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ تَكُنِ الْآيَةُ: وَتَوَكَّلَ عَلَى الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ الْقُوَّةَ وَالْعِزَّةَ أَنْسَبُ فِيهَا يَبْدُو؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْأَصْنَافُ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا هُؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْوَاتِ كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢١] فَقَالَ: تَوَكَّلْ عَلَى مَنْ لَيْسَ صِفَتُهُ كَصِفَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، عَلَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]؛ لِأَنَّ الْعِزَّةَ أَنْسَبُ فِي هَذَا السِّيَاقِ.

وَوَجْهُ آخَرُ: أَنَّ الْحَيَّ اسْمٌ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ فِي الْحَيَاةِ، وَمِنْ كِمَالِ حَيَاتِهِ عَزَّجَلَّ أَنَّهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ يَعْنِي: لِكِمَالِ حَيَاتِهِ لَا يَمُوتُ، فَيَكُونُ تَعَلُّقُهَا بِمَا قَبْلَهَا الْمَقْصُودُ بِهِ: إِفَادَةُ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ كَامِلَةٌ لَا يَلْحَقُهَا فَنَاءٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: الْحَيُّ، وَفِيهَا مِنْ صِفَاتِهِ: الْحَيَاةُ، وَانْتِفَاءُ الْمَوْتِ الْمُتَضَمَّنُ لِكِمَالِ الْحَيَاةِ، فَفِيهَا صِفَتَانِ وَاسْمٌ.

﴿قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: «وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].»

الشرح:

قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾: سَبَقَ تَعْرِيفُ الْعِلْمِ، وَسَبَقَ أَنَّ الْعِلْمَ صِفَةُ كِمَالٍ، وَسَبَقَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا ﴿الْحَكِيمُ﴾: هَذِهِ الْمَادَّةُ (ح.ك.م): تَدُلُّ عَلَى حُكْمٍ وَإِحْكَامٍ، فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ الْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْمُحْكِمِ.

إِذَنْ: يَدُلُّ هَذَا الْأِسْمُ الْكَرِيمُ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ الْإِحْكَامَ هُوَ الْإِنْتِقَانُ، وَالْإِنْتِقَانُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ. فَفِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ حُكْمٍ وَإِثْبَاتُ حِكْمَةٍ:

فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ وَخَدَهُ هُوَ الْحَاكِمُ، وَحُكْمُ اللَّهِ إِمَّا كَوْنِيٌّ وَإِمَّا شَرْعِيٌّ:

فَحُكِّمُ اللَّهِ الشَّرْعِيَّ: مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَنَزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ.
وَحُكِّمُ اللَّهِ الْكَوْنِيَّ: مَا قَضَاهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَنَحْوِ
ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا.
دَلِيلُ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾
[الممتحنة: ١٠].

ودليل الحكم الكوني: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ أَحَدِ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أُنَبِّحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ
لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [النين: ٨] فَشَامِلٌ لِلْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، فَاللَّهُ
عَزَّوَجَلَّ حَكِيمٌ بِالْحُكْمِ الْكَوْنِيِّ وَبِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَهُوَ أَيْضًا مُحْكِمٌ لَهُمَا، فَكُلٌّ مِنَ الْحَاكِمِينَ
مُوَافِقٌ لِلْحِكْمَةِ.

لَكِنْ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا نَعْلَمُهُ، وَمِنْ الْحِكْمَةِ مَا لَا نَعْلَمُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
ثُمَّ الْحِكْمَةُ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: حِكْمَةٌ فِي كَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ وَحَالِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، كَحَالِ الصَّلَاةِ، فَهِيَ
عِبَادَةٌ كَبِيرَةٌ، تُسَبِّقُ بَطَهَارَةً مِنَ الْحَدَثِ وَالْحَبَثِ، وَتُؤَدِّي عَلَى هَيْئَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ
وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ. وَكَالزَّكَاةِ: فَهِيَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَدَاءِ جُزْءٍ مِنَ الْمَالِ النَّامِي غَالِبًا لِمَنْ هُوَ فِي
حَاجَةٍ إِلَيْهَا، أَوْ فِي الْمُسْلِمِينَ حَاجَةٌ إِلَيْهِمْ كَبَعْضِ الْمَوْلَفَةِ قُلُوبِهِمْ.

وَالثَّوْنُ الثَّانِي: حِكْمَةٌ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْحُكْمِ؛ حَيْثُ إِنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا غَايَاتٌ
حَمِيدَةٌ وَثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ.

فَانْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ الْكَوْنِيِّ؛ حَيْثُ يُصِيبُ النَّاسَ بِالْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ لَغَايَاتٍ
حَمِيدَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١]، فِيهَا رَدُّ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَتْ لِحِكْمَةٍ، بَلْ هِيَ لِمَجَرَّدِ مَشِيتِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: الْعَلِيمُ وَالْحَكِيمُ. وَمِنْ صِفَاتِهِ: الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ. وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَسْلُكِيَّةِ: أَنَّ الْإِيمَانَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ يَسْتَلْزِمُ الطَّمَأْنِينَةَ التَّامَّةَ لِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ كَوْنِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ؛ لَصُدُورِ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، فَيَزُولُ عَنْهُ الْقَلْقُ النَّفْسِيُّ، وَيَنْشَرُ صَدْرُهُ.



«وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التَّحْرِيم: ٣].»

الشرح:

* «﴿الْعَلِيمُ﴾»: سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهِ.

* «﴿الْخَبِيرُ﴾»: هُوَ الْعَلِيمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، فَيَكُونُ هَذَا وَصْفًا أَخَصَّ بَعْدَ وَصْفِ أَعَمٍّ، فَنَقُولُ: الْعَلِيمُ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، وَالْخَبِيرُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، فَيَكُونُ الْعِلْمُ بِالْبَوَاطِنِ مَذْكُورًا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِطَرِيقِ الْعُمُومِ، وَمَرَّةً بِطَرِيقِ الْخُصُوصِ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ عِلْمَهُ مُحْتَصِّصٌ بِالظَوَاهِرِ.

وَكَمَا يَكُونُ هَذَا فِي الْمَعَانِي يَكُونُ فِي الْأَعْيَانِ، فَمَثَلًا: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]: الرُّوحُ جَبْرِيلُ، وَهُوَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَنَقُولُ: الْمَلَائِكَةُ وَمِنْهُمْ جَبْرِيلُ، وَخُصَّ جَبْرِيلُ بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا لَهُ، وَيَكُونُ النَّصُّ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِالْعُمُومِ، وَمَرَّةً بِالْخُصُوصِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: الْعَلِيمُ وَالْخَبِيرُ. وَمِنْ صِفَاتِهِ: الْعِلْمُ وَالْخَبَرَةُ. وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَسْلُكِيَّةِ: أَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ يَزِيدُ الْمَرْءَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَخَشْيَةً؛ سِرًّا وَعَلَنًا.



* «وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢]، «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [الأنعام: ٥٩]، «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» [فاطر: ١١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

الشرح:

هذه الآيات في تفصيل صفة العلم.

الآية الأولى قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢]:

هذا تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى:

﴿مَا﴾: اسم موصول يُفيد العموم، كُلُّ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ مِثْلُ الْمَطَرِ وَالْحَبِّ يُنْزِلُ فِي الْأَرْضِ وَالْمَوْتَى وَالْدُّودَ وَالنَّمْلَ وَغَيْرَهَا ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَالْمَاءِ وَالزُّرُوعِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مِثْلُ الْمَطَرِ وَالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَأَمْرُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ وَالِدُّعَاءِ.

وهنا قَالَ: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فَعَدَّى الْفِعْلَ بـ(في)، وَفِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ قَالَ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] فَعَدَّاهُ بـ(إلى)، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ، فَمَا وَجْهُ كَوْنِهِ عَدَّى بـ(في) فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾؟

فَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَ نَحْوَةُ الْبَصَرَةِ وَالْكُوفَةِ فِي مِثْلِ هَذَا، فَقَالَ نَحْوَةُ الْبَصَرَةِ: إِنَّ الْفِعْلَ يُضَمَّنُ مَعْنَى يَتَلَاءَمُ مَعَ الْحَرْفِ. وَقَالَ نَحْوَةُ الْكُوفَةِ: بَلِ الْحَرْفُ يُضَمَّنُ مَعْنَى يَتَلَاءَمُ مَعَ الْفِعْلِ.

فَعَلَى الرَّأْيِ الْأَوَّلِ: يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾: مُضَمَّنًا مَعْنَى (يَدْخُلُ) فَيَصِيرُ الْمَعْنَى:

وَمَا يَعْرِجُ فَيَدْخُلُ فِيهَا، وَعَلَيْهِ يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ: عَلَى عُرُوجٍ وَدُخُولٍ.
أَمَّا عَلَى الرَّأْيِ الثَّانِي فنقول: (فِي) بِمَعْنَى (إِلَى) وَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاوُبِ بَيْنَ
الْحُرُوفِ.

لَكِنْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَا تَجِدُ أَنَّ فِي الْآيَةِ مَعْنَى جَدِيدًا، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا اخْتِلَافٌ لَفْظٍ
(إِلَى) إِلَى لَفْظِ (فِي)؛ وَلِهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحَّ، وَهُوَ أَنْ تُضْمَنَ الْفِعْلُ مَعْنَى يَتَنَاسَبُ
مَعَ الْحَرْفِ.

ولهذا نظيرٌ فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]،
وَالْعَيْنُ يُشْرَبُ مِنْهَا، وَالَّذِي يُشْرَبُ بِهِ الْإِنَاءُ، فَعَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْكُوفَةِ نَقُولُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾:
الْبَاءُ بِمَعْنَى (مِنْ) أَيْ: مِنْهَا. وَعَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يُضْمَنُ الْفِعْلُ ﴿يَشْرَبُ﴾ مَعْنَى يَتَلَاءَمُ
مَعَ حَرْفِ الْبَاءِ، وَالَّذِي يَتَلَاءَمُ مَعَهَا يُرْوَى، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا رِيَّ إِلَّا بَعْدَ شُرْبٍ، فَيَكُونُ هَذَا
الْفِعْلُ ضَمَّنَ مَعْنَى غَايَتِهِ، وَهُوَ الرَّيُّ.

وكذلك نقولُ فِي ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾: لَا دُخُولَ فِي السَّاءِ إِلَّا بَعْدَ الْعُرُوجِ إِلَيْهَا، فَيَكُونُ
الْفِعْلُ ضَمَّنَ مَعْنَى الْغَايَةِ.

فَفي الْآيَةِ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عُمُومَ عِلْمِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَنُوْعٍ مِنَ التَّفْصِيلِ، ثُمَّ فَصَّلَ فِي آيَةٍ
أُخْرَى تَفْصِيلًا آخَرَ، فَقَالَ:

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

* ﴿وَعِنْدَهُ﴾ أَيْ: عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ خَبْرٌ مُقَدَّمٌ. ﴿مَفَاتِحُ﴾: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ.

وَيُقِيدُ هَذَا التَّرْكِيْبُ الْحَصْرَ وَالْاِخْتِصَاصَ، عِنْدَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ، وَأَكَّدَ هَذَا
الْحَصْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فِفي الْجُمْلَةِ حَصْرٌ بِأَنْ عِلْمَ هَذِهِ الْمَفَاتِحِ عِنْدَ اللَّهِ بِطَرِيقَتَيْنِ:
إِحْدَاهُمَا: بِطَرِيقَةِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَالثَّانِيَةِ: بِطَرِيقَةِ النَّفْيِ وَالْإثْبَاتِ.

كَلِمَةً ﴿مَفَاتِيحُ﴾ قِيلَ: إِنَّهَا جَمْعُ مَفْتَحٍ، بِكسْرِ الميمِ وفتحِ التاءِ: المِفْتَاحُ، أَوْ أَتَمَّا جَمْعُ مِفْتَاحٍ، لَكِنْ حُذِفَتْ مِنْهَا الياءُ، وَهُوَ قَلِيلٌ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ المِفْتَاحَ مَا يُفْتَحُ بِهِ البابُ. وَقِيلَ: جَمْعُ مَفْتِيحٍ -بِفَتْحِ الميمِ وكسْرِ التاءِ- وَهِيَ الخَزَائِنُ، فَ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾: خَزَائِنُهُ، وَقِيلَ: ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ أَيُّ: مَبَادِئُهُ؛ لِأَنَّ مَفْتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي أَوَّلِهِ، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا: ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ أَيُّ: مَبَادِئُ الْغَيْبِ، فَإِنَّ هَذِهِ المَذْكُورَاتِ مَبَادِئُ لِمَا بَعْدَهَا.

* ﴿الْغَيْبِ﴾: مَصْدَرُ غَابَ يَغِيبُ غَيْبًا، والمرادُ بِالْغَيْبِ: مَا كَانَ غَائِبًا، وَالْغَيْبُ أَمْرٌ نَسِيٌّ، لَكِنَّ الْغَيْبَ المَطْلُوقَ عِلْمُهُ خَاصٌّ بِاللَّهِ.

هَذِهِ المَفَاتِيحُ -سِوَاءِ قُلْنَا: إِنَّ المَفَاتِيحَ هِيَ المَبَادِئُ، أَوْ: هِيَ الخَزَائِنُ، أَوْ: المَفَاتِيحُ- لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ فَلَا يَعْلَمُهَا مَلَكٌ، وَلَا يَعْلَمُهَا رَسُولٌ، حَتَّى إِنَّ أَشْرَفَ الرُّسُلِ المَلَكِيِّ -وَهُوَ جِبْرِيلُ- سَأَلَ أَشْرَفَ الرُّسُلِ البَشَرِيِّ -وَهُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١). وَالْمَعْنَى: كَمَا أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَكَ بِهَا فَلَا عِلْمَ لِي بِهَا أَيْضًا. فَمَنْ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعَةِ فَهُوَ كَاذِبٌ كَاذِبٌ، وَمَنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ أَيْضًا كَاذِبٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلْقُرْآنِ.

وَهَذِهِ المَفَاتِيحُ فَسَّرَهَا أَعْلَمُ الخَلْقِ بِكَلَامِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]^(٢)، فِيهِ خَمْسَةُ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: عِلْمُ السَّاعَةِ: فَعِلْمُ السَّاعَةِ مَبْدَأُ مِفْتَاحِ حَيَاةِ الآخِرَةِ، وَسُمِّيَتْ السَّاعَةُ بِهَذَا؛ لِأَنَّهَا سَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، يُهْدَدُّ بِهَا جَمِيعُ النَّاسِ -وَهِيَ الحَاقَّةُ وَالوَاقِعَةُ- وَالسَّاعَةُ عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى تَقُومُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، رقم (٤٧٧٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثَّانِي: تنزِيلُ الْغَيْثِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾: ﴿الْغَيْثُ﴾: مَصْدَرٌ، ومعناه: إِزَالَةُ الشَّدَّةِ، والمرادُ به المطرُ؛ لِأَنَّهُ بِالْمَطَرِ تَزُولُ شِدَّةُ الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ، وَإِذَا كَانَ هُوَ الَّذِي يُنْزَلُ الْغَيْثَ كَانَ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتُ نُزُولِهِ.

والمَطَرُ نُزُولُهُ مِفْتَاحُ حَيَاةِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتِ، وَبِحَيَاةِ النَّبَاتِ يَكُونُ الْخَيْرُ فِي الْمَرْعَى وَجَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ.

وَهُنَا نُقْطَةُ: قَالَ: ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَيُنْزِلُ الْمَطَرَ؛ لِأَنَّ الْمَطَرَ أحيانًا يُنْزَلُ وَلَا يَكُونُ فِيهِ نَبَاتٌ، فَلَا يَكُونُ غَيْثًا، وَلَا تَحْيَا بِهِ الْأَرْضُ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): «لَيْسَتْ السَّنَةُ إِلَّا تُمَطَّرُوا، إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمَطَّرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»^(١) وَالسَّنَةُ: الْقَحْطُ.

الثَّالِثُ: عِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أَيُّ: أَرْحَامِ الْإِنَاثِ، فَهُوَ عَزَّجَلَّ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، أَيُّ: مَا فِي بُطُونِ الْأُمَهَاتِ مِنْ بَنِي آدَمَ وَغَيْرِهِمْ، وَمُتَعَلِّقُ الْعِلْمِ عَامٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا عَزَّجَلَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: يَقَالُ الْآنَ: إِنَّهُمْ صَارُوا يَعْلَمُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى فِي الرَّحِمِ. فَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟

نَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرُ وَقَعَ، وَلَا يُمَكِّنُ إِنْكَارُهُ، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَكْوِينِ الْجَنِينِ وَظُهُورِ ذُكُورَتِهِ أَوْ أُنُوثَتِهِ، وَلِلْجَنِينِ أَحْوَالٌ أُخْرَى لَا يَعْلَمُونَهَا، فَلَا يَعْلَمُونَ مَتَى يُنْزَلُ؟ وَلَا يَعْلَمُونَ إِذَا نَزَلَ إِلَى مَتَى يَبْقَى حَيًّا؟ وَلَا يَعْلَمُونَ هَلْ يَكُونُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا؟ وَلَا يَعْلَمُونَ هَلْ يَكُونُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا؟.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ الْمَجْهُولَةِ.

إِذَنْ: أَكْثَرُ مُتَعَلِّقَاتِ الْعِلْمِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَجَنَةِ مَجْهُولٌ لِلخَلْقِ، فَصَدَقَ الْعُمُومُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

الرَّابِعُ: عِلْمُ مَا فِي الْغَدِّ: وَهُوَ مَا بَعْدَ يَوْمِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأשרات الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها، رقم (٢٩٠٤)، من حديث أبي

عَدَا ﴿ وَهَذَا مِفْتَاحُ الْكَسْبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَعْلَمُ مَا يَكْسِبُ لِنَفْسِهِ فَعَدَمُ عِلْمِهِ بِمَا يَكْسِبُهُ غَيْرُهُ أَوَّلَى.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أَعْلَمُ مَا فِي الْغَدِ، سَأَذْهَبُ إِلَى الْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ، أَوْ أَقْرَأُ، أَوْ أَزُورُ أَقَارِبِي. فنقول: قَدْ يَجْزُمُ بَأَنَّهُ سَيَعْمَلُ، وَلَكِنْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَمَلِ مَانِعٌ.

الخَامِسُ: عِلْمُ مَكَانِ الْمَوْتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مَا يَدْرِي أَيُّ أَحَدٍ هَلْ يَمُوتُ فِي أَرْضِهِ أَوْ فِي أَرْضٍ أُخْرَى؟ فِي أَرْضٍ إِسْلَامِيَّةٍ أَوْ أَرْضٍ كَافِرٍ أَهْلِهَا؟ وَلَا يَدْرِي هَلْ يَمُوتُ فِي الْبَرِّ أَوْ فِي الْبَحْرِ أَوْ فِي الْجَوِّ؟ وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ.

وَلَا يَدْرِي بِأَيِّ سَاعَةٍ يَمُوتُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَدْرِي بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ، وَهُوَ قَدْ يَتَحَكَّمُ فِي الْمَكَانِ، فَكَذَلِكَ لَا يَدْرِي بِأَيِّ زَمَنٍ وَسَاعَةٍ يَمُوتُ.

فهذه الخمسة هي مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وسميت مفاتيح الغيب؛ لأنَّ عِلْمَ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِفْتَاحٌ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ عَدَا﴾ مِفْتَاحٌ لِلْعَمَلِ الْمُسْتَقْبَلِ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مِفْتَاحٌ لِحَيَاةِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ دَخَلَ عَالَمَ الْآخِرَةِ، وَسَبَقَ بَيَانُ عِلْمِ السَّاعَةِ وَتَنْزِيلِ الْغَيْثِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْمَفَاتِيحَ كُلَّهَا مَبَادِي كُلِّ مَا وَرَاءَهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩] هَذَا إِجْمَالٌ، فَمَنْ يُجْهِدُ أَجْنَاسَ مَا فِي الْبَرِّ؟ كَمْ فِيهَا مِنْ عَالَمِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْجِبَالِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ؟ أُمُورٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ. وَالْبَحْرُ كَذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْعَوَالِمِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا خَالِقُهُ عَزَّجَلَّ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْبَحْرَ يَزِيدُ عَلَى الْبَرِّ ثَلَاثَةَ أَضْعَافٍ مِنَ الْأَجْنَاسِ؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ أَكْثَرُ مِنَ الْبَابِسِ.

* قَالَ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]: هَذَا تَفْصِيلٌ، فَأَيُّ وَرَقَةٍ فِي أَيِّ شَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، قَرِيبَةٍ أَوْ بَعِيدَةٍ تَسْقُطُ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُهَا؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ (مَا) النَّافِيَةُ (وَمِنْ) الرَّائِدَةِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ نَصًّا فِي الْعُمُومِ. وَالْوَرَقَةُ الَّتِي تُخْلَقُ يَعْلَمُهَا مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ عَالِمَ مَا يَسْقُطُ عَالِمٌ بِمَا يُخْلَقُ عَزَّجَلَّ.

انْظُرْ إِلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ فَهُوَ عَالِمٌ بِهِ، حَتَّى الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ
وَسَيَحْصُلُ فَهُوَ تَعَالَى عَالِمٌ بِهِ.

* قَالَ: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]: حَبَّةٌ صَغِيرَةٌ لَا يَذَرُكُهَا الطَّرْفُ
فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ يَعْلَمُهَا عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ظِلْمَتٍ﴾: جَمْعُ ظَلَمَةٍ، وَلْتَفَرِّضْ أَنَّ حَبَّةً صَغِيرَةً غَائِصَةً فِي قَاعِ الْبَحْرِ، فِي لَيْلَةٍ
مُظْلِمَةٍ مَطِيرَةٍ، فَالظلماتُ: أَوَّلًا: طِينُ الْبَحْرِ، ثَانِيًا: مَاءُ الْبَحْرِ، ثَالِثًا: الْمَطَرُ، رَابِعًا: السحابُ،
خَامِسًا: اللَّيْلُ. فَهَذِهِ خَمْسُ ظِلْمَاتٍ مِنْ ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ، وَمَعَ ذَلِكَ هَذِهِ الْحَبَّةُ يَعْلَمُهَا اللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيُنِيرُهَا عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ [الأنعام: ٥٩]: هَذَا عَامٌّ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ إِمَّا رَطْبٌ
وَإِمَّا يَابِسٌ.

* ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]: ﴿كِتَابٍ﴾ بِمَعْنَى مَكْتُوبٍ. ﴿مُبِينٍ﴾: أَيْ: مُظْهِرٍ
وَبَيِّنٍ؛ لِأَنَّ (أَبَانَ) تُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًّا وَلَا زِمًا، فَيُقَالُ: أَبَانَ الْقَجْرُ بِمَعْنَى: ظَهَرَ الْقَجْرُ. وَيُقَالُ:
أَبَانَ الْحَقُّ بِمَعْنَى: أَظْهَرَهُ. وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ هُنَا: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛
لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: «لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ الْقَلَمُ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ
كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، فَكَتَبَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ جَعَلَ
سُبْحَانَهُ فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ كُتُبًا تَكْتُبُ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَدْ
كُتِبَ فِيهِ مَا كَانَ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْعَلَ، وَالْكِتَابَةُ الَّتِي تَكْتُبُهَا الْمَلَائِكَةُ هِيَ الَّتِي يُجْزَى عَلَيْهَا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣١٧ / ٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب
القدر، رقم (٢١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (١٠٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٠٨)، والأجري في «الشرية» رقم (١٧٨)، والحاكم (٤٩٨ / ٢)
وصححه، والبيهقي في «الأساء والصفات» رقم (٨٠٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٣) وفي «السنة» لابن أبي عاصم (٤٨ / ١ - ٤٩).

الإنسان؛ ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [حمد: ٣١]، أَمَّا عِلْمُهُ بِأَنَّ عَبْدَهُ فَلَانَا سَيَصْبِرُ أَوْ لَا يَصْبِرُ فِهَذَا سَابِقٌ مِنْ قَبْلُ، لَكِنْ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

* ﴿وَمَا﴾: نَافِيَةٌ.

* ﴿أُنْثَى﴾: «فَاعِلٌ ﴿تَحْمِلُ﴾ لَكِنَّهُ مُعَرَّبٌ بِضَمَّةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى آخِرِهِ مَنَعَ مِنْ ظَهْوَرِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِحَرْكِ حَرْفِ الْجُرِّ الرَّائِدِ.

وَهُنَا إِشْكَالٌ: كَيْفَ تَقُولُ زَائِدٌ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ زَائِدٌ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ زَائِدٌ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى فَهُوَ مُفِيدٌ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: هُوَ زَائِدٌ، زَائِدٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُحِلُّ بِالْإِعْرَابِ إِذَا حُذِفَ، زَائِدٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى يَزِيدُ فِيهِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أُنْثَى﴾: يَشْمَلُ أَيُّ أُنْثَى، سِوَاءِ آدَمِيَّةٍ أَوْ حَيَوَانِيَّةٍ أُخْرَى، الَّذِي يَحْمِلُ حَيَوَانًا وَاضِحٌ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، كَبَقَرَةٍ، وَبَعِيرٍ، وَشَاةٍ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي يَحْمِلُ الْبَيْضَ، كَالطُّيُورِ؛ لِأَنَّ الْبَيْضَ فِي جَوْفِ الطَّائِرِ حَمْلٌ.

* ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾: «فَابْتِدَاءُ الْحَمْلِ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَانْتِهَاؤُهُ وَخُرُوجُ الْجَنِينِ بِعِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

[الطلاق: ١٢].

* ﴿لِيَعْلَمُوا﴾: «الْلَامُ لِلتَّعْلِيلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، فَقَدْ خَلَقَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَأَعْلَمَنَا بِذَلِكَ؛ لِنَعْلَمَ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الْقُدْرَةُ وَصِفَ يَتِمَكَّنُ بِهِ الْفَاعِلُ مِنَ الْفِعْلِ بِدُونِ عَجْزٍ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ الْمَعْدُومِ وَعَلَى إِعْدَامِ الْمَوْجُودِ، فَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ كَانَتْ مَعْدُومَةً، فَخَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَوْجَدَهَا عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ.

* ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: كُلُّ شَيْءٍ، الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالْمَتَعَلِّقَ بِفِعْلِهِ أَوْ بِفِعْلِ عِبَادِهِ، وَالْمَاضِي وَاللَّاحِقَ وَالْحَاضِرَ، كُلُّ ذَلِكَ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ عِلْمًا. وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ بَعْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، وَدَلَالَةُ الْخَلْقِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ مِنْ بَابِ دَلَالَةِ التَّلَازُمِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ دَلَالَاتِ الْأَسْمَاءِ عَلَى الصِّفَاتِ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ.

تَنْبِيْهُ: ذَكَرَ فِي (تَفْسِيرِ الْجَلَالَيْنِ) - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ - فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ مَا نَصَّهُ: «وَحَصَّ الْعَقْلُ ذَاتَهُ، فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ!»

وَنَحْنُ نُنَاقِشُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا حُكْمَ لِلْعَقْلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، بَلْ لَا حُكْمَ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ، وَوُظِيفَةُ الْعَقْلِ فِيهَا التَّسْلِيمُ التَّامُّ، وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ لَيْسَ مُحَالًا؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: إِنَّ التَّصَوُّصَ لَا تَأْتِي بِمُحَالٍ، وَإِنَّمَا تَأْتِي بِمُحَارٍ، أَيْ: بِمَا يُحَيِّرُ الْعُقُولَ؛ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ مَا لَا تُدْرِكُهُ وَلَا تَتَصَوَّرُهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: قَوْلُهُ: «فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ»: هَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ؛ كَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى غَيْرِهِ، فَكَلَامُهُ هَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ، وَلَا أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَلَا أَنْ يَنْزِلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَلَا يَفْعَلَ شَيْئًا أَبَدًا، وَهَذَا خَطِيرٌ جَدًّا!!

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَعَلَّهُ يُرِيدُ: «حَصَّ الْعَقْلُ ذَاتَهُ، فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ» يَعْنِي: لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُلْحِقَ نَفْسَهُ نَفْصًا. قُلْنَا: إِنْ هَذَا لَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ حَتَّى يَخْتِاجَ إِلَى إِخْرَاجٍ وَتَخْصِصٍ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَشْيَاءِ الْمُمَكَّنَةِ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الْمُمَكَّنِ لَيْسَ بِشَيْءٍ، لَا فِي الْخَارِجِ وَلَا فِي الدَّهْنِ، فَالْقُدْرَةُ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَحِيلِ، بِخِلَافِ الْعِلْمِ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَذَبَّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجَانِبِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامٌ عَظِيمٌ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ نَحْوَهُ أَنْ يَسْتَسْلِمَ وَيُسَلِّمَ.

إِذَنْ: نَحْنُ نُنْطَلِقُ مَا أَطْلَقَهُ اللَّهُ، وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، بِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ.

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى: إِثْبَاتُ عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَإِثْبَاتُ عُمُومِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْفَائِدَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ: قُوَّةُ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ وَالْخَوْفُ مِنْهُ.



﴿ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ﴾.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقُوَّةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿ [الذاريات: ٥٦-٥٧]، فَالنَّاسُ يَحْتَاجُونَ إِلَى رِزْقِ اللَّهِ، أَمَّا اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَرِيدُ مِنْهُمْ رِزْقًا، وَلَا أَنْ يُطْعَمُوا.

﴿ (الرَّزَّاقُ) ﴾: صِغَةُ مُبَالَعَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، وَهُوَ الْعَطَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]: أَيُّ: أَعْطُوهُمْ، وَالْإِنْسَانُ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِي صَلَاتِهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي.

وَيَنْقَسِمُ الرِّزْقُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامٌّ وَخَاصٌّ.

فَالْعَامُّ: كُلُّ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْبَدَنُ، سَوَاءٌ كَانَ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا، وَسَوَاءٌ كَانَ الْمَرْزُوقُ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ السَّفَارِينِيُّ^(١):

وَالرِّزْقُ مَا يَنْفَعُ مِنْ حَلَالٍ أَوْ ضِدُّهُ فَحُلٌّ عَنِ الْمَحَالِ
لِأَنَّهُ زَارِقٌ كُلَّ الْخَلْقِ وَلَيْسَ تَخْلُوقٌ بِغَيْرِ رِزْقٍ

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية لففضيلة الشيخ الشارح رحمه الله تعالى (ص: ٣٥٣).

لَأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: إِنَّ الرِّزْقَ هُوَ العطاءُ الحلالُ. لَكَانَ كُلُّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الحَرَامَ لَمْ يُرْزَقُوا،
مَعَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ مَا تَصْلُحُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ، لَكِنِ الرِّزْقُ نَوْعَانِ: طَيِّبٌ وَخَبِيثٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ. وَاطَّيَّبَتْ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وَلَمْ يَقُلْ:
وَالرِّزْقُ. أَمَّا الْخَبَائِثُ مِنَ الرِّزْقِ فَهِيَ حَرَامٌ.

أَمَّا الرِّزْقُ الْخَاصُّ: فَهُوَ مَا يَقُومُ بِهِ الدِّينُ مِنَ الْعِلْمِ النَافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالرِّزْقِ
الْحَلَالِ الْمُعِينِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿الرَّازِقُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: الرَّازِقُ؛
لِكثَرَةِ رِزْقِهِ وَكَثْرَةِ مَنْ يَرْزُقُهُ، فَالَّذِي يَرْزُقُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَا يُحْصَى بِاعْتِبَارِ أَجْنَاسِهِ، فَضلاً عَنْ
أَنْوَاعِهِ، فَضلاً عَنْ أَحَادِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، وَيُعْطِي اللَّهُ الرِّزْقَ بِحَسَبِ الْحَالِ.

وَلَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الرِّزَّاقُ فَهَلْ أَسْعَى لَطَلَبِ الرِّزْقِ، أَوْ أَبْقَى فِي
بَنِي وَيَأْتِينِي الرِّزْقُ؟

فَالْجَوَابُ: نَقُولُ: أَسْعَ لَطَلَبِ الرِّزْقِ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ، فَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنْ لَا تَعْمَلَ
وَتَتَسَبَّبَ لِلْمَغْفِرَةِ.

أَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ^(١):

جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِـرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

فَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا اسْتِشْهَادُهُ بِالْجَنِينِ، فَالْجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ: الْجَنِينُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ طَلَبُ
الرِّزْقِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ، بِخِلَافِ الْقَادِرِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾
[الملك: ١٥]، فَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيٍ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا السَّعْيُ عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ.

(١) نسبه الثعالبي في يتيمة الدهر (١٦٣/٥)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٢٦/١٨) لأبي الفرج علي
ابن الحسين بن هندو، ونسبه ابن خلكان في وفيات الأعيان (١٧٢/٦) لأبي الخير الكاتب الواسطي.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾: الْقُوَّةُ: صِفَةٌ يَتِمَّكَّنُ الْفَاعِلُ بِهَا مِنَ الْفِعْلِ بِدُونِ ضَعْفٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، وَلَيْسَتْ الْقُوَّةُ هِيَ الْقُدْرَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فَالْقُدْرَةُ يُقَابَلُهَا الْعَجْزُ، وَالْقُوَّةُ يُقَابَلُهَا الضَّعْفُ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْقُدْرَةَ يُوصَفُ بِهَا ذُو الشُّعُورِ، وَالْقُوَّةُ يُوصَفُ بِهَا ذُو الشُّعُورِ وَغَيْرُهُ.

ثَانِيًا: أَنَّ الْقُوَّةَ أَحْصَى، فَكُلُّ قَوِيٍّ مِنْ ذِي الشُّعُورِ قَادِرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ قَادِرٍ قَوِيًّا. مِثَالُ ذَلِكَ: تَقُولُ: الرِّيحُ قَوِيَّةٌ. وَلَا تَقُولُ: قَادِرَةٌ. وَتَقُولُ: الْحَدِيدُ قَوِيٌّ. وَلَا تَقُولُ: قَادِرٌ. لَكِنْ ذُو الشُّعُورِ تَقُولُ: إِنَّهُ قَوِيٌّ، وَإِنَّهُ قَادِرٌ. وَلَمَّا قَالَتْ عَادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمُتَيْنِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١): الشَّدِيدُ، أَيِ: الشَّدِيدُ فِي قُوَّتِهِ، الشَّدِيدُ فِي عِزَّتِهِ، الشَّدِيدُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِ الْجَبَرُوتِ، وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى تَوْكِيدٌ لِلْقَوِيِّ. وَيجوزُ أَنْ تُخْبِرَ عَنِ اللَّهِ بِأَنَّهُ شَدِيدٌ، وَلَا تُسَمِّيَ اللَّهَ بِالشَّدِيدِ، بَلْ تُسَمِّيهِ بِالْمُتَيْنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ اثْبَاتُ اسْمَيْنِ مِنَ أَسْمَاءِ اللَّهِ، هُمَا: الرَّزَاقُ وَالْمُتَيْنُ، وَاثْبَاتُ ثَلَاثِ صِفَاتٍ، وَهِيَ: الرَّزْقُ، وَالْقُوَّةُ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ اسْمُ الْمُتَيْنِ.

وَالْفَائِدَةُ الْمَسْكُوتَةُ فِي الْإِبْيَانِ بِصِفَةِ الْقُوَّةِ وَالرَّزْقِ: أَنَّ لَا تَطْلُبُ الْقُوَّةَ وَالرَّزْقَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ قُوَّةٍ مَهْمَا عَظُمَتْ فَلَنْ تُقَابِلَ قُوَّةَ اللَّهِ تَعَالَى.



(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» رَقْم (٦٨)، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٦٢٥/٧)، وَزَادَ عَزْوَهَ لَابِنْ أَبِي حَاتِمٍ.

«قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا يَعْبُرُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» [النساء: ٥٨].

الشرح:

* وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]: هَذِهِ الْآيَةُ سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ لِإثْبَاتِ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَمَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ، وَهُمَا السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ، فَبِهَا رَدُّ عَلَى الْمُعْطَلَةِ.

* قَوْلُهُ: «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾»: هَذَا نَفْيٌ، فَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ إِثْبَاتُ كِبَالِهِ، بِغَيْرِ: لِكِبَالِهِ لَا يُبَايِلُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ رَدُّ عَلَى أَهْلِ التَّمْثِيلِ.

* قَوْلُهُ: «﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾»: «السَّمِيعُ» لَهُ مَعْنَانِ: أَحَدُهُمَا: بِمَعْنَى الْمَجِيبِ. وَالثَّانِي: بِمَعْنَى السَّامِعِ لِلصَّوْتِ.

أَمَّا السَّمِيعُ بِمَعْنَى الْمَجِيبِ، فَمَثَّلُوا لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أَيْ: لِمَجِيبِ الدُّعَاءِ.

وَأَمَّا السَّمِيعُ بِمَعْنَى إِدْرَاكِ الصَّوْتِ، فَإِنَّهُمْ قَسَمُوهُ إِلَى عِدَّةِ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: سَمْعٌ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ عُمُومِ إِدْرَاكِ سَمْعِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ صَوْتٍ إِلَّا وَيَسْمَعُهُ اللَّهُ.

الثَّانِي: سَمْعٌ يُرَادُ بِهِ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ.

وَالثَّالِثُ: سَمْعٌ يُرَادُ بِهِ الْوَعِيدُ وَالتَّهْدِيدُ.

مَثَالُ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، فَهَذَا فِيهِ بَيَانُ إِحَاطَةِ سَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَسْمُوعٍ؛ وَلِهَذَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ، وَإِنَّ حَدِيثَهَا

لِيَخْفَىٰ عَلَيَّ بَعْضُهُ»^(١).

ومثال الثاني: كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومثال الثالث الذي يُرادُ به التهديد والوعيد: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فإنَّ هذا يُرادُ به تهديدهم ووعيدهم؛ حيث كانوا يُسِرُّونَ ما لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ.

والسَّمْعُ بِمَعْنَى إِذْكَ الْمَسْمُوعِ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الْمَسْمُوعُ قَدْ يَكُونُ حَادِثًا.

والسَّمْعُ بِمَعْنَى النِّصْرِ والتأييد مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَقْرُونٌ بِسَبَبٍ.

والسَّمْعُ بِمَعْنَى الْإِجَابَةِ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ أَيْضًا.

* وَقَوْلُهُ: ﴿الْبَصِيرُ﴾ يعني: الْمَذْكُورَ لِمَجْمَعِ الْمُبْصِرَاتِ، وَيُطْلَقُ الْبَصِيرُ بِمَعْنَى الْعَلِيمِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَصِيرٌ، يَرَى كُلَّ شَيْءٍ وَإِنْ خَفِيَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ بَصِيرٌ بِمَعْنَى: عَلِيمٌ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، وَالَّذِي نَعْمَلُ بَعْضُهُ مَرْتَبِي وَبَعْضُهُ غَيْرُ مَرْتَبِي، فَبَصَرَ اللَّهُ إِذَنْ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ، وَكُلُّهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ اثْبَاتُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، هُمَا: السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ. وَثَلَاثُ صِفَاتٍ، هِيَ: كَمَالُ صِفَاتِهِ مِنْ نَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ.

وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْمُسْلِكِيَّةِ: الْكَفُّ عَنْ مُحَاوَلَةِ تَمْثِيلِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ، وَاسْتِشْعَارُ عَظَمَتِهِ وَكِبَالِهِ، وَالْحَذَرُ مِنْ أَنْ يَرَاكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ أَوْ يَسْمَعَ مِنْكَ مَا لَا يَرْضَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّحَاةَ خَاصًّا خَوْضًا كَثِيرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَيْمَلِهِ﴾ حيثُ قَالُوا: الْكَافُ دَاخِلٌ عَلَى (الْمَثَلِ)، وَظَاهِرُهُ أَنَّ اللَّهَ مِثْلًا لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لَيْسَ كَهُوَ، بَلْ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾.

(١) أخرجه البخاري معلقاً: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، «الفتح» (٣٧٢/١٣)، وقد وصله أحد في «المسند» (٤٦/٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨) بهذا اللفظ، وأخرجه ابن ماجه أيضاً: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣) بلفظ: «تبارك».

فهَذَا ظَاهِرُ الْآيَةِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ لَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّا لَوْ قُلْنَا: هَذَا ظَاهِرُهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لَكَانَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ كُفْرًا، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ؛ وَلِهَذَا اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ النُّحَوِّينَ فِي تَخْرِيجِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَقْوَالٍ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: الكاف زائدة، وأنَّ تقديرَ الكلام: لَيْسَ مِثْلُهُ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ مُرْبِحٌ، وَزِيَادَةُ الْحُرُوفِ فِي النَّفْيِ كَثِيرَةٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ [فاطر: ١١]، فَيَقُولُونَ: إِنَّ زِيَادَةَ الْحُرُوفِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلتَّوَكِيدِ أَمْرٌ مُطَرِّدٌ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: قَالُوا الْعَكْسَ، قَالُوا: إِنَّ الزَّائِدَ (مِثْلَ) وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: لَيْسَ كُهُوَ شَيْءٍ، لَكِنْ هَذَا ضَعِيفٌ، يُضَعِّفُهُ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْأَسْمَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَلِيلَةٌ جِدًّا أَوْ نَادِرَةٌ، بِخِلَافِ الْحُرُوفِ، فَإِذَا كُنَّا لَا بُدَّ أَنْ نَقُولَ بِالزِّيَادَةِ فليَكُنِ الزَّائِدُ الْحَرْفَ، وَهِيَ الْكَافُ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ (مِثْلَ) بِمَعْنَى: صِفَةٍ، وَالْمَعْنَى: (لَيْسَ كَصِفَتِهِ شَيْءٌ) وَقَالُوا: إِنَّ الْمِثْلَ وَالْمَثَلَ وَالشَّبَهَ وَالشَّبَهَةَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥] أَي: صِفَةُ الْجَنَّةِ، وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ مِنَ الصَّوَابِ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ زِيَادَةٌ، لَكِنْ إِذَا قُلْتُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ نَفْيُ الْمِثْلِ، وَإِذَا كَانَ لَيْسَ لِلْمِثْلِ مِثْلٌ صَارَ الْمَوْجُودُ وَاحِدًا، وَعَلَى هَذَا فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نُقَدِّرَ شَيْئًا. قَالُوا: وَهَذَا قَدْ وُجِدَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الْبُحُوثَ لَوْ لَمْ تُعْرَضْ لَكُمْ لَكَانَ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحًا، وَمَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، لَكِنْ هَذَا وَجَدَ فِي الْكُتُبِ، وَالرَّاجِحُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْكَافَ زَائِدَةٌ، لَكِنْ الْمَعْنَى الْأَخِيرُ لَنْ تَمَكَّنَ مِنْ تَصَوُّرِهِ أَجُودٌ.

* وَقَوْلُهُ: «(إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)» [النساء: ٥٨].

هَذِهِ الْآيَةُ تَكْمِلَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، فَأَمَرَ عَزَّوَجَلَّ بِأَنْ تُؤَدَّيَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَمِنْهَا الشَّهَادَةُ لِلْإِنْسَانِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَحْكُمَ إِذَا حَكَمْنَا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

أَنَّهُ يَأْمُرُنَا بِالْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ فِي طَرِيقِ الْحُكْمِ وَفِي الْحُكْمِ نَفْسِهِ، وَطَرِيقُ الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ الشَّهَادَةُ تَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وَالْحُكْمُ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْظُمُكُمْ بِهِ﴾ أَصْلُهَا: نَعَمْ مَا، وَلَكِنْ أَدْعَمَتِ الْمِيمُ بِالْمِيمِ مِنْ بَابِ الإِدْغَامِ الْكَبِيرِ؛ لِأَنَّ الإِدْغَامَ لَا يَكُونُ بَيْنَ جِنْسَيْنِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْأَوَّلُ سَاكِنًا، وَهُنَا صَارَ الإِدْغَامُ مَعَ أَنَّ الْأَوَّلَ مَفْتُوحٌ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْبَأُ بِكُمْ بِهِ﴾: جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَ هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ - آدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ - مَوْعِظَةً؛ لِأَنَّهُ تَصْلُحُ بِهِ الْقُلُوبُ، وَكُلُّ مَا يُصْلِحُ الْقُلُوبَ فَهُوَ مَوْعِظَةٌ، وَالْقِيَامُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ لَا شَكَّ أَنَّهُ يُصْلِحُ الْقَلْبَ.

* ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿كَانَ﴾: هَذِهِ فِعْلٌ، لَكِنَّهَا مَسْلُوبَةٌ الزَّمَنِ، فَالْمَرَادُ بِهَا الدَّلَالَةُ عَلَى الْوَصْفِ فَقَطْ، أَيْ: أَنَّ اللَّهَ مُتَّصِفٌ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّمَا مَسْلُوبَةُ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّنَا لَوْ أَبْقَيْنَاهَا عَلَى دَلَالَتِهَا الزَّمَانِيَّةِ لَكَانَ هَذَا الْوَصْفُ قَدْ انْتَهَى، كَانَ فِي الْأَوَّلِ سَمِيعًا بَصِيرًا، أَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ كَذَلِكَ! وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى فَاسِدٌ بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا الْمَرَادُ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ عَلَى الدَّوَامِ، وَ(كَانَ) فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ يُرَادُ بِهَا التَّحْقِيقُ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾: نَقُولُ فِيهَا كَمَا قُلْنَا فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: فِيهَا إِثْبَاتُ السَّمْعِ لِلَّهِ بِقِسْمِيهِ، وَإِثْبَاتُ الْبَصَرِ بِقِسْمِيهِ.

قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَضَعَ إِبْهَامَهُ وَسَبَّابَتَهُ عَلَى عَيْنِهِ وَأُذُنِهِ^(١). وَالْمَرَادُ بِهَذَا الْوَضْعِ تَحْقِيقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، لَا إِثْبَاتُ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ؛ فَإِنَّ ثُبُوتَ الْعَيْنِ جَاءَتْ فِي أُدْلَةٍ أُخْرَى، وَالْأُذُنُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا تَثْبُتُ لِلَّهِ، وَلَا تُنْفَى عَنْهُ؛ لَعَدَمِ وُجُودِ السَّمْعِ بِذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السُّنَنِ، بَابُ فِي الْجَهْمِيَّةِ، رَقْمُ (٤٧٢٨)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٣٧٣/١٣): أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ».

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِي أَنْ أَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ؟

فَالْجَوَابُ: مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: نَعَمْ، أَفْعَلْ كَمَا فَعَلَ الرَّسُولُ، لَسْتَ أَهْدَى لِلخَلْقِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَسْتَ أَشَدَّ تَحَرُّرًا مِنْ أَنْ يُضَافَ إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تَفْعَلَ مَا دُمْنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ التَّحْقِيقُ، فَهَذِهِ الْإِشَارَةُ إِذَنْ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ بِنَفْسِهَا، إِنَّمَا هِيَ مَقْصُودَةٌ لغيرِهَا، وَحِينَئِذٍ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تُشِيرَ، لَا سِيَّامًا إِذَا كَانَ يُخَشَى مِنْ هَذِهِ الْإِشَارَةِ تَوَهُُّمُ الْإِنْسَانِ التَّمَثِيلَ، كَمَا لَوْ كَانَ أَمَامَكَ عَامَّةٌ مِنَ الْخَلْقِ لَا يَفْهَمُونَ الشَّيْءَ عَلَى مَا يَنْبَغِي، فَهَذَا يَنْبَغِي التَّحَرُّرُ مِنْهُ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّجَلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ» وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَسْطُهَا^(١). فَيَقَالُ فِيهِ مَا قِيلَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَالْفَائِذَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنَ الْإِبَانِ بِصِفَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ: أَنْ نَحْذَرَ مُحَالَفَةَ اللَّهِ فِي أَقْوَالِنَا وَأَفْعَالِنَا.

وَفِي الْآيَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اثْبَاتُ اسْمَيْنِ، هُمَا: السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ. وَمِنْ الصِّفَاتِ: اثْبَاتُ السَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْأَمْرِ، وَالْمَوْعِظَةِ.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَافِيًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الشرح:

هذه آيات في إثبات صفاتي المشيئة والإرادة:

فالآية الأولى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[الكهف: ٣٩].

* ﴿وَلَوْلَا﴾ بِمَعْنَى: هَلَا، فَهِيَ لِلتَّحْضِيضِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا التَّوْبِيخُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يُؤَبِّخُهُ

عَلَى تَرْكِ هَذَا الْقَوْلِ.

* ﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾: حِينَ دَخَلْتَ.

* ﴿جَنَّتَكَ﴾: الْجَنَّةُ بَفَتْحِ الْجِيمِ: هِيَ الْبُسْتَانُ الْكَثِيرُ الْأَشْجَارِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ

مَنْ فِيهَا مُسْتَتِرٌ بِأَشْجَارِهَا وَغُصُونِهَا، فَهُوَ مُسْتَجِنٌ فِيهَا، وَهَذِهِ الْمَادَّةُ (الْجِيمُ وَالنُّونُ) تَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِتَارِ، وَمِنْهُ: الْجَنَّةُ - بَضَمِّ الْجِيمِ - الَّتِي يَتَرَسُّ بِهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَمِنْهَا: الْجَنَّةُ - بِكَسْرِ الْجِيمِ - يَعْنِي: الْجَنَّةُ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَتِرُونَ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّتَكَ﴾: هَذِهِ مُفْرَدٌ، وَالْمَعْلُومُ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ لَهُ جَنَّتَيْنِ، فَمَا هُوَ الْجَوَابُ

حَيْثُ كَانَتْ هُنَا مُفْرَدَةً مَعَ أَهْمَا جَنَّتَانِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمُفْرَدَ إِذَا أُضِيفَ يَعْصِمُ فَيَشْمَلُ الْجَنَّتَيْنِ. أَوْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ أَرَادَ

أَنْ يُقَلَّلَ مِنْ قِيَمَةِ الْجَنَّتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامٌ وَعَظٌ وَعَدَمٌ إِعْجَابٍ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ تَقْلِيلًا لَشَأْنِهَا، وَالْوَجْهَ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ إِلَى قَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ﴿قُلْتَ﴾: جَوَابُ ﴿وَلَوْلَا﴾.

* وَقَوْلُهُ: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: ﴿مَا﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً، وَيُحْتَمَلُ

أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً. فَإِنْ جَعَلْتُهَا مَوْصُولَةً فَهِيَ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: هَذَا مَا شَاءَ اللَّهُ، أَيْ: لَيْسَ هَذَا بِإِرَادَتِي وَحَوْلِي وَقُوَّتِي، وَلَكِنَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، أَيْ: هَذَا الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ.

وإِنْ جَعَلْتُهَا شَرْطِيَّةً ففِعْلُ الشَّرْطِ ﴿شَاءَ﴾ وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ،

كَمَا نَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

والمراد: كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقُولَ حِينَ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لِتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَلَا تُعْجَبَ بِجَنَّتِكَ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾»: ﴿لَا﴾: نَافِيَةٌ لِلْجُنْسِ. و﴿قُوَّةٌ﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَتَعْمُ، وَالْقُوَّةُ صِفَةٌ يَتِمَكَّنُ بِهَا الْفَاعِلُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُرِيدُ بِدُونِ ضَعْفٍ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْجَمْعُ بَيْنَ عُمُومِ نَفْيِ الْقُوَّةِ إِلَّا بِاللَّهِ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، وَقَالَ عَنْ عَادٍ: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وَلَمْ يَقُلْ: لَا قُوَّةَ فِيهِمْ. فَأُثْبِتَ لِلْإِنْسَانِ قُوَّةٌ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْجَمْعَ بِأَحَدِ الرَّجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي فِي الْمَخْلُوقِ كَانَتْ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الْقُوَّةَ لَمْ يَكُنْ قُوًّا، فَالْقُوَّةُ الَّتِي عِنْدَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، فَلَا قُوَّةَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِاللَّهِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا قُوَّةَ﴾ أَيُّ: لَا قُوَّةَ كَامِلَةً إِلَّا بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَرْشَدَ صَاحِبُهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَيَقُولَ: هَذَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُوَّةِ اللَّهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِثْبَاتُ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُوَ: اللَّهُ. وَإِثْبَاتُ ثَلَاثِ صِفَاتٍ: الْأَلُوْهِيَّةُ، وَالْقُوَّةُ، وَالْمَشِيئَةُ.

وَمَشِيئَةُ اللَّهِ: هِيَ إِرَادَتُهُ الْكَوْنِيَّةُ، وَهِيَ نَافِذَةٌ فِيمَا يُحِبُّهُ وَمَا لَا يُحِبُّهُ، وَنَافِذَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ بِدُونِ تَفْصِيلٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مَا شَاءَهُ بِكُلِّ حَالٍ، فَكُلُّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَقَعَ وَلَا بُدَّ، سِوَاكَ كَانَ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَمْ لَا.

الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: «﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾» [البقرة: ٢٥٣].

(لَوْ): حَرْفُ امْتِنَاعٍ لَا مِتْنَاعٍ، وَإِذَا كَانَ جَوَابُهَا مَنْفِيًّا بِ(مَا) فَإِنَّ الْأَفْصَحَ حَذْفُ اللَّامِ، وَإِذَا كَانَ مُثْبِتًا فَلَا كَثْرَ ثُبُوتِ اللَّامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ [الواقعة: ٦٥].

فنقول: الأكثر. وَلَا نَقُولُ: الْأَفْصَحُ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ اثْبَاتُ اللَّامِ وَحَذْفُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

وقولنا: إِنَّ الْأَفْصَحَ حَذْفُ اللَّامِ فِي الْمَنفِي؛ لِأَنَّ اللَّامَ تُفِيدُ التَّوَكِيدَ، وَالنَّفْيَ يُنَافِي التَّوَكِيدَ؛ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ الشَّاعِرِ^(١):

وَلَوْ نُعْطَى الْخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي

خلاف الأفصح، والأفصح: لَوْ نُعْطَى الْخِيَارَ مَا افْتَرَقْنَا.

* قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَفِي هَذَا رَدٌّ وَاضِحٌ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ تَعَلُّقَ فِعْلِ الْعَبْدِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ يَعْنِي: وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَفْتَتِلُوا فَافْتَتَلُوا. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أَي: يَفْعَلُ الَّذِي يُرِيدُهُ، وَالْإِرَادَةُ هُنَا إِرَادَةُ كَوْنِيَّةٌ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: الْفِعْلُ بِاعْتِبَارِ مَا يَفْعَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ فِعْلٌ مُبَاشِرٌ. وَبِاعْتِبَارِ مَا يَقْدَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ فِعْلٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَامَ وَصَلَّى وَزَكَى وَحَجَّ وَجَاهَدَ، فَالْفَاعِلُ الْإِنْسَانُ بِلَا شَكٍّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِعْلَهُ هَذَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ فِعْلُ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاشَرَةِ؛ لِأَنَّ الْمُبَاشِرَ لِلْفِعْلِ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنْ يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْدِيرِ وَالْحَلْقِ.

أَمَّا مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ، كَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَكَلَامِهِ، وَتُرُودِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَضَحِكِهِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ -فَهَذَا يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِعْلًا مُبَاشَرَةً.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ: اللَّهُ. وَمِنَ الصِّفَاتِ: الْمَشِئَةُ، وَالْفِعْلُ، وَالْإِرَادَةُ.

(١) ذكره ابن هشام في مغني اللبيب (ص: ٣٥٨)، وخالد الأزهرى في شرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، والسيوطي في جمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، والبغدادى في خزانة الأدب (١٠/ ٨٢)، غير منسوب.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾: الْمُحِلُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلْ، وَكَذَلِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحِلٌّ وَمُحَرِّمٌ، لَكِنْ بِإِذْنِ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ»^(١)، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُ عَلَيْكُمْ كَذَا يُحَرِّمُ أَنْهُ حَرَّمَ، وَرَبَّمَا يُحَرِّمُ تَحْرِيمًا يُضِيفُهُ إِلَى نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ. ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾: هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، وَالْأَنْعَامُ جَمْعُ نَعَمٍ، كَأَسْبَابِ جَمْعِ سَبَبٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَهِيمَةٌ﴾: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ.

* «﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾»: إِلَّا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣]، فَالْأَسْتِثْنَاءُ هُنَا فِيهِ مُنْقَطِعٌ وَفِيهِ مُتَّصِلٌ، فَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَيْتَةِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ مُتَّصِلٌ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْحَمِ الْخِنْزِيرِ مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾»: ﴿غَيْرَ﴾: حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي ﴿لَكُمْ﴾ يَعْني: حَالُ كَوْنِكُمْ لَا تُحِلُّونَ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، وَهَذَا الْأَسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الصَّيْدَ لَيْسَ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾»: يَعْني: قَاتِلِهِ فِي الْإِحْرَامِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّيْءَ يَصِيرُ كَالْمُحِلِّ لَهُ. وَ﴿الصَّيْدُ﴾: هُوَ الْحَيَوَانُ الْبَرِّيُّ الْمُتَوَحَّشُ الْمَأْكُولُ، هَذَا هُوَ الصَّيْدُ الَّذِي حَرَّمَ فِي الْإِحْرَامِ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾»: هَذِهِ الْإِرَادَةُ شَرْعِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَشْرِيعٍ، وَيجوزُ أَنْ تَكُونَ إِرَادَةُ شَرْعِيَّةً كَوْنِيَّةً، وَنَحْوِلُ الْحُكْمَ عَلَى الْحُكْمِ الْكُونِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، فَمَا أَرَادَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٩٧/٢)، وَابْنُ مَاجَه: كِتَابُ الْأَطْعِمَةِ، بَابُ الْكَبِدِ وَالطَّحَالِ، رَقْمُ (٣٣١٤)، وَالدَّارِقُطْنِي (٢٧٢/٤) وَقَالَ: إِنَّ الْمَوْقُوفَ أَصَحَّ، وَالبَيْهَقِيُّ (٢٥٤/١) وَرَجَحَ أَيْضًا الْمَوْقُوفَ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لَهُ حَكْمَ الرِّفْعِ، وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ فِي «الْمُنْتَخَبِ» رَقْمُ (٨١٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَانْظُرْ تَمَامَ تَحْرِيمِهِ فِي «نَصَبِ الرَّايَةِ» لِلزَّيْلَعِيِّ (٢٠٢/٤)، وَ«السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» لِلْأَلْبَانِيِّ (١١١٨).

كُونًا حَكَمَ بِهِ وَأَوْقَعَهُ، وَمَا أَرَادَهُ شَرْعًا حَكَمَ بِهِ وَشَرَعَهُ لِعِبَادِهِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ: اللَّهُ. وَمِنَ الصِّفَاتِ: التَّحْلِيلُ، وَالْحُكْمُ، وَالْإِرَادَةُ.

الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ» ﴿الأنعام: ١٢٥﴾.

* قَوْلُهُ: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»: الْمُرَادُ بِالْإِرَادَةِ هُنَا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ، وَالْمُرَادُ بِالْهِدَايَةِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، فَتَجِدُهُ مُنْشَرَحَ الصَّدْرِ فِي شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَشَعَائِرِهِ، يَفْعَلُهَا بَقَرَحٍ وَسُرُورٍ وَأَنْطَاقٍ.

فَإِذَا عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِكَ خَيْرًا، وَأَرَادَ لَكَ هِدَايَةً، أَمَّا مَنْ ضَاقَ بِهِ ذَرْعًا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَإِنَّ هَذَا عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ لَهُ هِدَايَةً، وَإِلَّا لَانْشَرَاحَ صَدْرَهُ.

وَلِهَذَا تَحِدُّونَ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ أَثْقَلُ مَا يَكُونُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ قُرَّةَ عُيُونِ الْمُخْلِصِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَكْمَلَ النَّاسَ إِيْمَانًا، فَانْشَرَاحَ صَدْرَهُ بِالصَّلَاةِ وَصَارَتْ قُرَّةَ عَيْنِهِ.

فَإِذَا قِيلَ لِلشَّخْصِ: إِنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ. فَانْشَرَاحَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ لِي ذَلِكَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ شَرَعَهُ لَكَانَ بِدْعَةً. وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، وَرَضِيَ بِهِ، فَهَذَا عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَهُ وَأَرَادَ بِهِ خَيْرًا.

* قَالَ: «يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»: ﴿يَشْرَحْ﴾ بِمَعْنَى: يُوسِّعُ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، يَعْنِي: وَسِّعْ لِي صَدْرِي فِي مُنَاجَاةِ هَذَا الرَّجُلِ وَدَعْوَتِهِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا.

* وَقَوْلُهُ: «لِلْإِسْلَامِ»: هَذَا عَامٌّ لِأَصْلِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوعِهِ وَوَاجِبَاتِهِ، وَكُلَّمَا كَانَ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٣/ ١٢٨)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ عَشْرَةِ النِّسَاءِ، بَابُ حُبِّ النِّسَاءِ، رَقْمُ (٣٩٣٩)، وَالْحَاكِمُ (٢/ ١٦٠) وَصَحَّحَهُ، وَأَبُو يَعْلَى رَقْمُ (٣٤٨٢)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَسَنَ الْحَافِظُ فِي «التَّلْخِصِ» (٣/ ٢٤٩) رَوَايَةَ النَّسَائِيِّ.

الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدرًا كان أدلّ على إرادة الله به الهداية.

* وقوله: «(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥])»: مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا، أي: شديداً ضيقاً، ثُمَّ مَثَل ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ» يعني: كَأَنَّهُ حِينَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْآيَةُ «يَصْعَدُ» بِالتَّشْدِيدِ، وَلَمْ يَقُلْ: يَصْعَدُ، كَأَنَّهُ يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَهَذَا الَّذِي يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْعَبُ وَيَسْأَمُ.

وَلْنَفَرَضَ أَنَّ هَذَا رَجُلٌ طَلِبَ مِنْهُ أَنْ يَصْعَدَ جَبَلًا رَفِيْعًا صَعْبًا، فَإِذَا قَامَ يَصْعَدُ هَذَا الْجَبَلَ، سَوْفَ يَتَكَلَّفُ، وَسَوْفَ يَضِيقُ نَفْسُهُ وَيَرْتَفِعُ وَيَتَّهَبُ؛ لِأَنَّهُ يَجِدُ مِنْ هَذَا ضَيْقًا. وَعَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخَّرُونَ الْآنَ، يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِي يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كُلَّمَا ارْتَفَعَ وَازْدَادَ ارْتِفَاعُهُ، كَثُرَ عَلَيْهِ الضَّغْطُ، وَصَارَ أَشَدَّ حَرَجًا وَضَيْقًا، وَسَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَوْ الْمَعْنَى الثَّانِي فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجِدُ الْحَرَجَ وَالضَّيْقَ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ.

وَنَأْخُذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِبْثَاتَ إِرَادَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَالْإِرَادَةُ الْمَذْكُورَةُ هُنَا إِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ لَا غَيْرَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ»، «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ»، وَهَذَا التَّقْسِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأُمُورِ الْكُونِيَّاتِ. أَمَّا الشَّرْعِيَّةُ فَاللَّهُ يُرِيدُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لَشَرَعِ اللَّهِ.

وَفِيهَا مِنَ السُّلُوكِ وَالْعِبَادَةِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقْبَلَ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ، أَصْلَهُ وَفَرْعَهُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ اللَّهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشِرَحَ صَدْرُهُ لَذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ إِضْلَالَهُمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١)، وَالْفَقْهُ فِي الدِّينِ يَقْتَضِي قَبُولَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الدِّينِ؛ لَأَنَّ كُلَّ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَعَرَفَهُ، قَبِلَهُ وَأَحَبَّهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فهذا إقسامٌ مُؤَكَّدٌ بـ(لا) وإقسامٌ بأخصِّ رُبُوبِيَّةِ مَنْ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِعِبَادِهِ -وهو رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لِلرَّسُولِ- عَلَى نَفْيِ الْإِيْمَانِ عَمَّا لَمْ يَقُمْ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةُ:

الأوَّل: تَحْكِيمُ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ يعني: الرَّسُولَ، فَمَنْ طَلَبَ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَإِمَّا كَافِرٌ كُفْرًا مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ، وَإِمَّا كَافِرٌ كُفْرًا دُونَ ذَلِكَ.

الثَّانِي: انْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِحُكْمِهِ، بَحِثٌ لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَى، بَلْ يَجِدُونَ الْقَبُولَ وَالْانْشِرَاحَ لِمَا قَضَاهُ النَّبِيُّ ﷺ.

الثَّالِث: أَنْ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، وَأَكَّدَ التَّسْلِيمَ بِمَصْدَرٍ، يعني: تَسْلِيمًا كَامِلًا.
فَاخْذَرُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنْكَ الْإِيْمَانُ.

وَلْتَضَرْبْ لِهَذَا مَثَلًا: تَجَادَلَ رَجُلَانِ فِي حُكْمِ مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَاسْتَدَلَّ أَحَدُهُمَا بِالسُّنَّةِ، فَوَجَدَ الثَّانِي فِي ذَلِكَ حَرَجًا وَضِيقًا، كَيْفَ يُرِيدُ أَنْ يُخْرَجَ عَنْ مَتَّبِعِهِ إِلَى اتِّبَاعِ هَذِهِ السُّنَّةِ؟! فَهَذَا الرَّجُلُ نَاقِصٌ بِلَا شَكٍّ فِي إِيْمَانِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَقًّا هُوَ الَّذِي إِذَا ظَفَرَ بِالنَّصِّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَكَانَ ظَفَرٌ بِأَكْبَرِ غَيْمَةٍ يُفْرَحُ بِهَا، وَيَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِهَذَا. وَفُلَانٌ الَّذِي يَتَعَصَّبُ لِرَأْيِهِ وَيُحَاوِلُ أَنْ يُلَوِّيَ أَعْنَاقَ النُّصُوصِ؛ حَتَّى تَنْتَجِعَ إِلَى مَا يُرِيدُهُ هُوَ لَا مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ هَذَا عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ.

أقسامُ الإرادة:

الإرادةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأوَّل: إرادةٌ كَوْنِيَّةٌ: وهذه الإرادةُ مُرادِفَةٌ تَمَامًا لِلْمَشِيئَةِ، ف(أَرَادَ) فِيهَا بِمَعْنَى

(شَاءَ) وهذه الإرادةُ:

أَوَّلًا: تَعَلَّقَ فِيهَا مُحِبُّهُ اللَّهُ وَفِيهَا لَا مُحِبُّهُ.

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ أَرَادَ اللَّهُ الْكُفْرَ؟ فَقُلْ: بِالْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ نَعَمْ أَرَادَهُ، وَلَوْ لَمْ يُرِدْهُ اللَّهُ عَزَّجَلْ مَا وَقَعَ.

ثَانِيًا: يَلْزَمُ فِيهَا وَقُوعُ الْمَرَادِ، يَعْنِي: أَنَّ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: إِرَادَةُ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ مُرَادِفَةٌ لِلْمَحَبَّةِ، فَد(أَرَادَ) فِيهَا بِمَعْنَى (أَحَبَّ) فِيهَا:

أَوَّلًا: تَخْتَصُّ بِهَا مُحِبُّهُ اللَّهُ، فَلَا يُرِيدُ اللَّهُ الْكُفْرَ بِالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا الْفِسْقَ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ فِيهَا وَقُوعُ الْمَرَادِ، بِمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ شَيْئًا وَلَا يَقَعَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يَلْزَمُ وَقُوعُ هَذَا الْمَرَادِ، قَدْ يَعْبُدُونَهُ وَقَدْ لَا يَعْبُدُونَهُ، بِخِلَافِ الْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ.

فَصَارَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِرَادَتَيْنِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

١- الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ يَلْزَمُ فِيهَا وَقُوعُ الْمَرَادِ، وَالشَّرْعِيَّةُ لَا يَلْزَمُ.

٢- الْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَخْتَصُّ فِيهَا مُحِبُّهُ اللَّهُ، وَالْكَوْنِيَّةُ عَامَةٌ فِيهَا مُحِبُّهُ وَمَا لَا مُحِبُّهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى كَوْنًا مَا لَا مُحِبُّهُ؟! بِمَعْنَى: كَيْفَ يُرِيدُ الْكُفْرَ أَوْ الْفِسْقَ أَوْ الْعِصْيَانَ وَهُوَ لَا مُحِبُّهُ؟! أَلَا

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مُحْبُوبٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ وَجْهِ مَكْرُوهٍ إِلَيْهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَهُوَ مُحْبُوبٌ إِلَيْهِ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ، مَكْرُوهٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مُعَصِيَةٌ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُحْبُوبًا مَكْرُوهًا بِاعْتِبَارَيْنِ، فَهَاهُوَ الرَّجُلُ يُقَدِّمُ طِفْلَهُ، الَّذِي هُوَ فَلَذَةُ كَبِدِهِ وَثَمَرَةُ فُؤَادِهِ، يُقَدِّمُهُ إِلَى الطَّيِّبِ لِيَشْقَ جِلْدُهُ وَيُخْرِجَ الْمَادَّةَ الْمُؤَذِيَّةَ فِيهِ، وَلَوْ أَتَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِرِيْدٍ أَنْ يَشْقَهُ بِظُفْرِهِ وَلَيْسَ بِالْمَشْرِطِ لَقَاتَلَهُ، لَكِنْ هُوَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى الطَّيِّبِ لِيَشْقَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فَرِحَ مَسْرُورًا، يَذْهَبُ بِهِ إِلَى الطَّيِّبِ لِيَحْمِيَ الْحَدِيدَ عَلَى

النَّارِ حَتَّى تَلْتَهَبَ حَمَرَاءَ، ثُمَّ يَأْخُذَهَا وَيَكْوِي بِهَا ابْنَهُ، وَهُوَ رَاضٍ بِذَلِكَ، لِمَاذَا يَرْضَى بِذَلِكَ وَهُوَ أَلَمٌ لِلابْنِ؟! لَأَنَّهُ مُرَادٌ لِّغَيْرِهِ، لِلْمَصْلَحَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ.

وَنَسْتَفِيدُ بِمَعْرِفَتِنَا لِلإِرَادَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنْ نُعَلِّقَ رَجَاءَنَا وَخَوْفَنَا وَجَمِيعَ أَحْوَالِنَا وَأَعْمَالِنَا بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِإِرَادَتِهِ، وَهَذَا يُحَقِّقُ لَنَا التَّوَكُّلَ.

الأمر الثاني: أَنْ نَفْعَلَ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ شَرْعًا؛ فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ مُرَادُّ اللَّهِ شَرْعًا وَمَحْبُوبٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُقَوِّي عَزْمَنَا عَلَى فِعْلِهِ.

هَذَا مِنْ فَوَائِدِ مَعْرِفَتِنَا بِالِإِرَادَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ، فَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ الإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

* صِفَةُ الْمَحَبَّةِ .

هَذِهِ آيَاتٌ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ:

الآيَةُ الْأُولَى:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

* «وَاحْسِنُوا» فِعْلٌ أَمْرٌ.

وَالِإِحْسَانُ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحَبًّا مُنْدُوبًا إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ إِدَاءُ الْوَاجِبِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَمَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نَقُولُ: ﴿وَاحْسِنُوا﴾: فِعْلٌ أَمْرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ.

وَالِإِحْسَانُ يَكُونُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَكُونُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ، فَالِإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ ^(١) فَقَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهَذَا أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ يُعْبِدُهُ عِبَادَةً طَلَبَ وَرَغِبَهُ «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أَيُّ: فَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرَاكَ، وَالَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ يُعْبِدُهُ عِبَادَةً خَوْفٍ وَرَهَبٍ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ مَمَّنْ يَرَاهُ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ بِالنِّسْبَةِ لِمُعَامَلَةِ الْخَلْقِ، فَقِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ: بِذُلِّ النَّدَى، وَكَفِّ الْأَذَى، وَطَلْقُ الْوَجْهِ.

بِذُلِّ النَّدَى: أَيُّ: الْمَعْرُوفِ، سَوَاءٌ كَانَ مَالِيًّا أَمْ بَدَنِيًّا أَمْ جَاهِيًّا.

كَفِّ الْأَذَى: أَنْ لَا تُؤْذِيَ النَّاسَ بِقَوْلِكَ وَلَا بِفِعْلِكَ.

وَطَلَاقُ الْوَجْهِ: أَنْ لَا تَكُونَ عَبُوسًا عِنْدَ النَّاسِ، لَكِنْ أَحْيَانًا الْإِنْسَانُ يَغْضَبُ وَيَغِيَسُ، فَنَقُولُ: هَذَا لِسَبَبٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِذَا كَانَ سَبَبًا لَصَلَاحِ الْحَالِ.

وَلِهَذَا إِذَا رَجَعْنَا الزَّانِي أَوْ جَلَدْنَاهُ فَهُوَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ إِحْسَانُ الْمُعَامَلَةِ فِي الْبَيْعِ، وَالشِّرَاءِ، وَالْإِجَارَةِ، وَالنِّكَاحِ... وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَامَلْتَهُمْ بِالطَّيِّبِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ صَبَرْتَ عَلَى الْعُسْرِ، وَأَوْفَيْتَ الْحَقَّ سُرْعَةً، هَذَا يُعَدُّ بِذُلِّ النَّدَى، فَإِنْ اعْتَدَيْتَ بِالْغَشِّ وَالْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ فَأَنْتَ لَمْ تَكْفُ الْأَذَى؛ لِأَنَّ هَذَا أَذْيَةٌ.

أَحْسِنِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

* وَقَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»*: هَذَا تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ، فَهَذَا ثَوَابُ الْمُحْسِنِ، أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، وَحُبُّهُ اللَّهَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَوَاللَّهِ إِنْ حُبَّهُ اللَّهَ لَشَتَرَى بِالدُّنْيَا كُلِّهَا، وَهِيَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحِبَّ اللَّهُ، فَكُونَ اللَّهُ يُحِبُّكَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحِبَّهُ أَنْتَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَلَمْ يَقُلْ: فَاتَّبِعُونِي تَصَدَّقُوا فِي مُحِبَّتِكُمْ لِلَّهِ. مَعَ أَنَّ الْحَالَ تَقْتَضِي هَكَذَا، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الشَّانُ كُلُّ الشَّانِ فِي أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّكَ لَا أَنَّكَ تُحِبُّ اللَّهَ.

كُلُّ يَدْعِي أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، لَكِنِ الشَّأْنُ فِي الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَزَّجَلْ، هَلْ يُحِبُّكَ أَمْ لَا؟ إِذَا أَحَبَّكَ اللَّهُ عَزَّجَلْ أَحَبَّتْكَ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَكَ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، فَيُحِبُّكَ أَهْلُ الْأَرْضِ^(١)، وَيَقْبَلُونَكَ، وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ مِنْكَ، وَهَذِهِ مِنْ عَاجِلِ بَشَرَى الْمُؤْمِنِ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ: اللَّهُ. وَمِنْ الصِّفَاتِ: الْأَلُوْهِيَّةُ، وَالْمَحَبَّةُ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

* ﴿وَأَقِطُوا﴾: فِعْلٌ أَمْرٌ، وَالْإِقْطَاطُ لَيْسَ هُوَ الْقِسْطُ، بَلْ هُوَ مِنْ فِعْلِ رَبَاعِيٍّ، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ هَمْزَةُ النَّفْيِ، هَذِهِ الْهَمْزَةُ هِيَ هَمْزَةُ النَّفْيِ، إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْفِعْلِ نَفَتْ مَعْنَاهُ، فَالْفِعْلُ (قَسَطَ) بِمَعْنَى: جَارَ، فَإِذَا أَدْخَلْتَ عَلَيْهِ هَمْزَةً (أَقِطَ) صَارَ بِمَعْنَى: عَدَلَ، أَيْ: أَزَالَ الْقِسْطَ، وَهُوَ الْجَوْرُ، فَيُسَمُّونَ مِثْلَ هَذِهِ الْهَمْزَةِ هَمْزَةَ السَّلْبِ، مِثْلَ خَطِئَ وَأَخْطَأَ، خَطِئَ بِمَعْنَى اذْتَكَبَ الْخَطَأَ عَنْ عَمْدٍ، وَأَخْطَأَ: اذْتَكَبَهُ عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ.

* فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقِطُوا﴾: أَيْ: اْعْدِلُوا، وَهَذَا وَاجِبٌ، فَالْعَدْلُ وَاجِبٌ فِي كُلِّ مَا يُحِبُّ فِيهِ التَّسْوِيَةُ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ فِي مُعَامَلَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ، يُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْكَ بِالنِّعَمِ، فَمِنْ الْعَدْلِ أَنْ تَقُومَ بِشُكْرِهِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْحَقَّ، فَمِنْ الْعَدْلِ أَنْ تَتَّبِعَ هَذَا الْحَقَّ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ فِي مُعَامَلَاتِ الْخَلْقِ: أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخَرَخَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١).

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عَامِلِ النَّاسِ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، مَثَلًا: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعَامِلَ شَخْصًا مُعَامَلَةً، فَاغْرِضْهَا أَوَّلًا عَلَى نَفْسِكَ: هَلْ إِذَا عَامَلَكَ إِنْسَانٌ بِهَا هَلْ تَرْضَى أَمْ لَا؟ إِنْ كُنْتَ تَرْضَى فَعَامِلُهُ، وَإِلَّا فَلَا تُعَامِلُهُ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فِي الْعَطِيَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»^(١).

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْمِيرَاثِ، فَيُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ، وَلَا يُوصَى لِأَحَدٍ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ، بَأَنْ تُقَسِّمَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِثْلَ مَا تُقَسِّمُ لِلْآخَرَى.
وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْعَدْلُ فِي نَفْسِكَ، فَلَا تُكَلِّفْهَا مَا لَا تُطِيقُ مِنَ الْأَعْمَالِ، إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا.
وَعَلَى هَذَا فَاقْسِ.

وَهُنَا يَحِبُّ أَنْ نُنبِّهَ عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَعْمِلُ بَدَلَ الْعَدْلِ: الْمُسَاوَاةَ! وَهَذَا خَطَأٌ، لَا يُقَالُ: مُسَاوَاةٌ؛ لِأَنَّ الْمُسَاوَاةَ قَدْ تَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا.
وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْجَائِزَةِ إِلَى التَّسْوِيَةِ صَارُوا يَقُولُونَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؟! سَوُوا بَيْنَ الذَّكَورِ وَالْإِنَاثِ! حَتَّى إِنَّ الشُّيُوعِيَّةَ قَالَتْ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ؟! لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ سُلْطَةٌ عَلَى أَحَدٍ، حَتَّى يَبْنَى الْوَالِدُ وَالْوَلَدُ، لَيْسَ لِلْوَالِدِ سُلْطَةٌ عَلَى الْوَلَدِ... وَهَلُمَّ جَرًّا.

لَكِنْ إِذَا قُلْنَا بِالْعَدْلِ، وَهُوَ إِعْطَاءُ كُلِّ أَحَدٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ زَالَ هَذَا الْمَحْذُورُ، وَصَارَتْ الْعِبَارَةُ سَلِيمَةً.

وَلِهَذَا لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ أَبَدًا: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالتَّسْوِيَةِ! لَكِنْ جَاءَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب الإهداء في الهبة، رقم (٢٥٨٧)، ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم (١٦٢٣)، من حديث الثعلباني بن بشير رضي الله عنه.

وَالْإِحْسَانِ ﴿ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأخطأ على الإسلام مَنْ قَالَ: إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ الْمُسَاوَاةِ! بَلْ دِينُ الْإِسْلَامِ دِينُ الْعَدْلِ، وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِينَ، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمُفْتَرِقِينَ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالْمُسَاوَاةِ: الْعَدْلُ، فَيَكُونُ أَصَابَ فِي الْمَعْنَى وَأَخْطَأَ فِي اللَّفْظِ.

ولهذا كَانَ أَكْثَرُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ نَفْيَ الْمُسَاوَاةِ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

ولَمْ يَأْتِ حَرْفٌ وَاحِدٌ فِي الْقُرْآنِ يَأْمُرُ بِالْمُسَاوَاةِ أَبَدًا، إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ. وَكَلِمَةُ (الْعَدْلُ) أَيْضًا تَجِدُوهَا مَقْبُولَةً لَدَى النَّفُوسِ.

وَأَحْبَبْتُ أَنْ أُبَيِّنَ عَلَى هَذَا؛ لِئَلَّا نَكُونَ فِي كَلَامِنَا إِمَاعَةً؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَأْخُذُ الْكَلَامَ عَلَى عَوَانِهِ، فَلَا يُعَكِّرُ فِي مَذَلُولِهِ وَفِيْمَنْ وَضَعَهُ وَفِي مَغْزَاهُ عِنْدَ مَنْ وَضَعَهُ. وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا سَبَقَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

قَوْلُهُ: ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧].

(مَا): شَرْطِيَّةٌ، وَفِعْلُ الشَّرْطِ: ﴿اسْتَقِيمُوا﴾ وَجَوَابُهُ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ أَيُّ: مَهْمَا اسْتَقَامَ لَكُمْ الْمَعَاهِدُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ تَقْتَضِي بِمَنْطُوقِهَا أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَقَامُوا لَنَا وَجِبَ أَنْ نَسْتَقِيمَ لَهُمْ، وَأَنْ نُؤْفِيَ بِعَهْدِهِمْ. وَتَذَلُّ بِمَفْهُومِهَا عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَسْتَقِيمُوا فَلَا نَسْتَقِيمُ لَهُمْ. وَالْمَعَاهِدُونَ يَقْسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ اسْتَقَامُوا عَلَى عَهْدِهِمْ وَأَمْنَاهُمْ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَقِيمَ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيْمُوا لَهُمْ اِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ﴾.

وقسم خائوا ونقضوا العهد، فهؤلاء لا عهد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ مِيثَاقَهُمْ فَعَبَا وَبَاطِلٌ لَّكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢].
وقسم ثالث يظهر أن الاستقامة لنا، لكننا نخاف من خيانتهم؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: انذروهم عهدهم، فقل: لا عهد بيننا وبينكم.

فإذا قال قائل: كيف ينبذ العهد إليهم وهم معاهدون؟!

قلنا: لخوف الخيانة، فهؤلاء لا تأمنهم؛ لأنه يمكن في يوم من الأيام أن يصبحونا، فهؤلاء ينبذ إليهم على سواء، ولا نخوئهم ما دام العهد قائما؛ لأنه لو قال المسلمون: نحن نخاف منهم الخيانة، سبادرهم بالقتال. قلنا: هذا حرام، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد.
* وقوله: ﴿الْمُتَّقِيْنَ﴾: المتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا من أحسن وأجمع ما يقال في تعريف التقوى.

وفي الآية من الأسماء والصفات كالتي قبلها.

الآية الرابعة:

﴿قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

التواب: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلى الله، والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالى، بأن يكون الحامل له على التوبة مخافة الله ورجاء ثوابه.

الثاني: الندم على ما فعل من الذنب، وعلامة ذلك أن يتمنى أنه لم يقع منه.

الثالث: الإِفْلَاحُ عَنِ الذَّنْبِ، بَرَكِهِ إِنْ كَانَ مُحَرَّمًا، أَوْ تَدَارُكِهِ إِنْ كَانَ وَاجِبًا يُمَكِّنُ تَدَارُكُهُ.

الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ.

الخامس: أَنْ تَكُونَ فِي وَقْتٍ تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ، وَهُوَ مَا كَانَ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ بَعْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ أَوْ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لَمْ تُقْبَلْ.

فالتَّوَابُ: كَثِيرُ التَّوْبَةِ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ كَثْرَةَ التَّوْبَةِ تَسْتَلْزِمُ كَثْرَةَ الذَّنْبِ، وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَثُرَ ذَنْبُهُ، إِذَا أَحْدَثَ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةً فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ، وَالتَّائِبُ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ ذَنْبٍ وَاحِدٍ مَحْبُوبٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ مَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ تَوْبَتُهُ يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَمَنْ قَلَّتْ ذُنُوبُهُ كَانَتْ حَبَّةُ اللَّهِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

* وَقَوْلُهُ: «﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾»: الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَمِنَ الْأَنْجَاسِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَمَا يَحِبُّ تَطَهُّرَهُ.

وَهُنَا جَمَعَ بَيْنَ طَهَارَةِ الظَّاهِرِ وَطَهَارَةِ الْبَاطِنِ: طَهَارَةُ الْبَاطِنِ بِقَوْلِهِ: «﴿التَّوَّابِينَ﴾ وَالظَّاهِرِ بِقَوْلِهِ: «﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾».

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا سَبَقَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ:

قَوْلُهُ: «﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» [آل عمران: ٣١].

يُسَمَّى عُلَمَاءُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ: آيَةَ الْمِخْنَةِ، يَعْنِي: الْامْتِحَانَ؛ لِأَنَّ قَوْمًا ادَّعَوْا أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: «﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾» وَهَذَا لِحَدِّ الْكُلِّ مِنْ ادَّعَى حُبَّهَ اللَّهَ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي حُبِّهِ اللَّهَ فَاتَّبِعِ الرَّسُولَ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِمَا أَحْدَثْتُهُ. قُلْنَا لَهُ: هَذَا كَذِبٌ! لَوْ كَانَتْ مَحَبَّتُكَ

صَادِقَةً لَاتَبَعَتَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ تَتَقَدَّمْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْخَالِ شَيْءٍ فِي شَرِيْعَتِهِ لَيْسَ مِنْ دِينِهِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَتْبَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ اللَّهُ أَحَبَّ.

وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ وَقَامَ بِعِبَادَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ، بَلْ إِنْ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا عَمِلَ، يَقُولُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي» وَنَفْسُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ نَفْسِنَا. «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شَبْرًا تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَى إِلَى اللَّهِ يَمْشِي أَتَاهُ اللَّهُ هَرْوَلَةً^(١).

إِذَنْ: فِعْطَاءُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَثَوَابُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَمَلِكَ.

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا سَبَقَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

الْآيَةُ السَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].»

الْفَاءُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَدَيْهِ عَنْ دِينِهِ. فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أَيْ: إِذَا ارْتَدَدْتُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا يَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

فَكُلُّ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْأُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بَدَلٍ مِنْهُمْ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وَإِذَا كَانُوا يُحِبُّونَ اللَّهَ وَيُحِبُّهُمْ اللَّهُ فَسَوْفَ يَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ.

* وَتَامَ الْآيَةِ: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]: أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ أَذِلَّةٌ،

(١) انظر الحديث في: البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَخْفَضُونَ أَجْنَاحَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْبِسُونَ لَهُمْ، وَيَتَطَامُنُونَ، وَمَعَ الْكُفَّارِ أَعِزَّةٌ أَفْوِيَاءُ، لَا يُظْهِرُونَ الذَّلَّ أَمَامَ الْكَافِرِ أَبَدًا.

وقَدْ عَلَّمَنَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاصْطَرُّوهُمْ إِلَى أَصْبَحِهِ»^(١)، فَإِذَا لَاقَاكُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَلَوْ كَانُوا أَلْفًا وَأَنْتُمْ عَشْرَةٌ، شَقَّ هَذَا الْجَمْعُ، وَلَا تُفْسِحْ لَهُمُ الطَّرِيقَ، بَلْ تُلْجِئْهُمْ إِلَى أَصْبَحِهِ، فَزُرْهُمْ الْعِزَّ بِدِينِنَا لَا بِنَفْسِنَا؛ لِأَنَّا نَحْنُ بَشَرٌ وَهُمْ بَشَرٌ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الظَّاهِرُ، وَأَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ هُوَ الْعَزِيزُ.

* «﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُلُّ مَنْ قَامَ ضِدَّ دِينِ اللَّهِ مِنْ كَافِرٍ وَفَاسِقٍ وَمُلْحِدٍ وَمَارِقٍ يُجَاهِدُونَهُ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُقَابِلُونَهُ مِنَ السَّلَاحِ بِمَا يَلِيقُ بِهِ، فَمَنْ قَاتَلَهُمْ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ قَاتَلُوهُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، وَمَنْ قَاتَلَهُمْ بِالْجِدَالِ وَالْخِصَامِ الْكَلَامِيِّ جَادَلُوهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ.

* «﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾»: لَا يَخَافُونَ نَقْدَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ؛ يَقُولُونَ الْحَقَّ وَلَوْ كَانَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

لَكِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الْجِهَادِ وَيَرُومُونَ الْوُصُولَ إِلَى الْغَايَةِ، فَإِذَا رَأَوْا أَنَّ الدَّعْوَةَ تَسْتَوْجِبُ التَّأَخُّرَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ تَأَخَّرُوا، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّ الدَّعْوَةَ تَقْتَضِي اللَّيْنَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ اسْتَعْمَلُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَى غَايَةِ مُعَيَّنَةٍ، وَالْوَسِيلَةَ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [المائدة: ٥٤].

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا سَبَقَ فِي النَّبِيِّ قَبْلَهَا، وَزِيَادَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكُونُ مَحْبُوبًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآية السابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾

[الصف: ٤:].

هذه الآية في سورة الصف، وسورة الصف في الحقيقة هي سورة الجهاد؛ لأن الله تعالى بدأها بالثناء على المقاتلين في سبيله، ثم دعا إلى الجهاد في آخرها، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون.

* «﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾»: لَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَتَأَخَّرُ، حَتَّى فِي الْجِهَادِ.

والصلاة جهادٌ مُصَغَّرٌ، فيها فائِدٌ يُحِبُّ اتِّبَاعُهُ، فَإِنْ لَمْ تَتَّبِعْهُ بَطَلَتْ صَلَاتُكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا نَحْنُ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوَّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ»^(١).

والصف في الصلاة نظير الصف في الجهاد، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم في الجهاد كما يصفهم في الصلاة «كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ»، والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(١) يَتِمَّاسِكُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ» فَلَيْسَ كَالْمَفْرَقِ، فَالْمَرْصُوصُ أَشَدُّ تِمَّاسِكًا.

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ عَلَّقَ اللَّهُ الْمَحَبَّةَ لَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَهُمْ عِدَّةٌ صِفَاتٍ:
أَوَّلًا: يُقَاتِلُونَ، فَلَا يَرْكَنُونَ إِلَى الْخُلُودِ وَالْحُمُولِ وَالْكَسَلِ وَالْجُمُودِ الَّذِي يُضْعِفُ
الدِّينَ وَالْدُّنْيَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، رقم (٦٩١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن سبق الإمام، رقم (٤٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم (٦٠٢٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، رقم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبك بين أصابعه.

ثانيًا: الإخلاص؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾.
 ثالثًا: يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ لقوله: ﴿صَفًا﴾.
 رابعًا: أَنَّهُمْ كَالْبُنْيَانِ، وَالْبُنْيَانُ حِصْنٌ مَنِيعٌ.
 خامسًا: لَا يَتَخَلَّلُهُمْ مَا يُمَزُّ فُهُمْ؛ لقوله: ﴿مَرْتَضَوْسٌ﴾.
 هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها.
 وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.
 الآية الثامنة:

﴿قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]:

* «﴿الْغَفُورُ﴾»: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عنها.

* «﴿الْوَدُودُ﴾»: مأخوذ من الود، وهو خالص المحبة، وهي بمعنى: واد، وبمعنى: مودود؛ لأنه عزَّجَلَّ حُبٌّ ومحبوب، كما قال تعالى: ﴿مَسَّوَقَ يَأْتِي اللَّهُ يَقْوِيهِمْ وَيُحْيِيهِمْ وَيُحْيِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالله عزَّجَلَّ وادٌّ ومودود، وادٌّ لأوليائه، وأوليأؤه يودونه، يُحْبُونَهُ، يُحْبُونَ الوُصُولَ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ.

وفي الآية اسمان من أسماء الله: الغفور والودود. وصفتان: المغفرة والود.

وأتمى لو أن المؤلف أضاف آية تاسعة في المحبة، وهي الخلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، والخليل هو من كان في أعلى المحبة، فالخلة أعلى أنواع المحبة؛ لأنَّ الخليل هو الذي وصل حُبُّه إلى سويداء القلب، وتخلَّلَ مجاري عروقه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا.

يقول الشاعر لِعَشُوقَتِهِ^(١):

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبَدَا شَمِّي الْخَلِيلَ خَلِيلًا

(١) البيت لبشار بن برد في ديوانه (٢/ ٤٧٥)، ونسبه له الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٦١).

فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ أَصْحَابَهُ كُلَّهُمْ، لَكِنْ مَا اتَّخَذَ وَاحِدًا مِنْهُمْ خَلِيلًا أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»^(١).

إِذَنْ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، لَكِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَتَّخِذْ أَحَدًا خَلِيلًا، لَكِنْ أُخُوَّةَ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّةً، وَأَمَّا الْخَلَةُ فَهِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(٢).

وَالْخَلَةُ لَا نَعْلَمُ أَنَّهَا بُنِيَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا لِاثْنَيْنِ هُمَا: إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».

وَهَذِهِ الْخَلَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهَا أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ، وَهِيَ تَوْقِيفِيَّةٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُنْسَبَ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُ خَلِيلٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ، حَتَّى الْإِنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِلَّا هَذَيْنِ الرَّسُولَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، فَهُمَا خَلِيلَانِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هِيَ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا مَنْ قَتَلَ الْجَعْدُ بْنَ ذِرْهَمٍ رَأْسَ الْمُعْطَلَةِ الْجَهْمِيَّةِ، أَوَّلَ مَا أَتَكَرَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا! وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا!! فَتَكَلَّمَهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١) حَيْثُ خَرَجَ بِهِ مُوثَقًا فِي يَوْمِ عِيدِ الْأَضْحَى، وَخَطَبَ النَّاسَ، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! ضَحُّوا! تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ؛ فَإِنِّي مُضَحِّ بِالْجَعْدِ بْنِ ذِرْهَمٍ؛ لِأَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) خالد بن عبد الله القسري، قال الذهبي: «الأمير أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرَّزَ الْبَجَلِي الْقَسْرِي الدَّمَشْقِي أمير العراقين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان. وكان جوادًا ممدحًا عالي الرتبة من نبلاء الرجال. لكن فيه نصب معروف، قال عبد الله بن أحمد: سمعت ابن معين يقول: خالد بن عبد الله القسري رجل سوء يقع في علي». انظر: «السير» (٥/ ٤٢٥-٤٣٢).

(٢) ذكرها البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص: ٢٩-٣٠)، والدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١٣)، وقوى

ويقول ابن القيم في ذلك^(١):

وَلَا جُلْ ذَا صَحَّى بِجَعْدِ خَالِدُ الْـ قَسْرِي يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلُهُ كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِي
شَكَرَ الصَّحِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لِّلَّهِ دُرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ
فَلَدَيْنَا الْآنَ مَحَبَّةٌ وَوُدٌّ وَخُلَّةٌ، فَالْمَحَبَّةُ وَالْوُدُّ مُطْلَقَةٌ، وَالْخُلَّةُ خَاصَّةٌ بِإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ.

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ اعْتِمَادُنَا فِي الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ عَلَى الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ، لَكِنْ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ نَسْتَدِلَّ بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ لِإِلْزَامِ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ تَكُونَ الْمَحَبَّةُ ثَابِتَةً بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، مِثْلَ الْأَشَاعِرَةِ، يَقُولُونَ: لَا يُمْكِنُ أَنْ تُثَبَّتَ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَكُلُّ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ نُنْزِعَهُ عَنْهُ.

فَنَحْنُ نَقُولُ: تُثَبَّتُ الْمَحَبَّةُ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، كَمَا هِيَ ثَابِتَةٌ عِنْدَنَا بِالْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ؛ اخْتِجَاجًا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ثُبُوتَهَا بِالْعَقْلِ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:

إِثَابَةُ الطَّائِعِينَ بِالْجَنَاتِ وَالنَّصْرِ وَالتَّائِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا يَدُلُّ بِلَا شَكٍّ عَلَى الْمَحَبَّةِ، وَنَحْنُ نَشَاهِدُ بِأَعْيُنِنَا وَنَسْمَعُ بِأَذَانِنَا عَمَّنْ سَبَقَ وَعَمَّنْ لَحَقَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَيْدٍ مِنْ أَيْدٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَرَهُمْ وَأَثَابَهُمْ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا دَلِيلٌ عَلَى الْمَحَبَّةِ لِمَنْ أَيْدَهُمْ وَنَصَرَهُمْ وَأَثَابَهُمْ عَزَّجَلَّ؟! وَهُنَا سَوَالَانِ:

الْأَوَّلُ: بِإِذَا يَنَالُ الْإِنْسَانُ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؟ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَطْلُبُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، وَالْمَحَبَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ أَمْرِ فِطْرِيٍّ يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ وَلَا يَمْلِكُهُ؛ وَلِهَذَا يَرُوى أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ فِي الْعَدَلِ بَيْنَ رُوحَاتِهِ: «هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِني فِيمَا لَا أَمْلِكُ»^(١)؟

= إسنادهما الألباني في «مختصر العلو» (ص: ١٣٣)، وانظر: «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ١٠٧١).

(١) نونية ابن القيم (ص: ٧-٨)، وانظر: «شرح الكافية الشافية» لفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الشَّارِحِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٨٨-٨٩).
(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (٢١٣٤)، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم (١١٤٠)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نساؤه دون بعض، رقم (٣٩٤٣)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء،

فالجواب: أن المحبة لها أسباب كثيرة:

منها: أن ينظر الإنسان: من الذي خلقه؟ ومن الذي أمدّه بالنعم منذ كان في بطن أمه؟ ومن الذي أجرى إليك الدّم في عروقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا الله عزّ وجلّ؟ من الذي دفع عنك النقم التي انعقدت أسبابها، وكثيراً ما تُشاهد بعينك آفاتٍ ونقماً تُهلكك، فيرفعها الله عنك؟

وهذا لا شك أنه يجلب المحبة؛ ولهذا ورد في الأثر: «أحبوا الله لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ»^(١).

واعتقد لو أن أحداً أهدى إليك قلماً لأحبيته، فإذا كان كذلك فانت انظر نعمة الله عليك، النعم العظيمة الكثيرة التي لا تحصىها، تحب الله.

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت في حاجة شديدة إليها تجد قلبك ينشرح، وتحب الذي أسداها إليك، بخلاف النعم الدائمة، فانت تذكر هذه النعم التي أعطاك الله، وتذكر أيضاً أن الله فضلك على كثير من عباده المؤمنين، إن كان الله منّ عليك بالعلم فقد فضلك بالعلم، أو بالعبادة فقد فضلك بالعبادة، أو بالمال فقد فضلك بالمال، أو بالأهل فقد فضلك بالأهل، أو بالقوت فقد فضلك بالقوت، وما من نعمة إلا وتحبها ما هو دوتها، فانت إذا رأيت هذه النعمة العظيمة شكرت الله وأحبيته.

ومنها: محبة ما يُحبّه الله من الأعمال القويّة والفعلية والقلبية، تحب الذي يُحبّه الله، فهذا يجعلك تحب الله؛ لأن الله يُجازيك على هذا أن يضع محبته في قلبك، فتحب الله إذا قُمتَ بِمَا يُحِبُّ، وكذلك تحب من يُحب، والفرق بينهما ظاهر، الأخيرة من الأشخاص، والأولى من

= رقم (١٩٧١)، وابن حبان رقم (٤٢٠٥)، والحاكم (١٨٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي. واختلف في وصله وإرساله، وانظر: «إرواء الغليل» (٢٠١٨).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٣٧٨٩)، والحاكم (١٥٠ - ١٤٩/٣) والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٠٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٦/٣)، رقم (٢٦٣٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢١١)، من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، والحديث ضعفه الألباني في تعليقه على «فقه السيرة» (ص: ٢٣).

الأعمال؛ لأننا أتينا بـ(ما) التي لعن العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان، وهذه (من) للعاقل من الأشخاص، تحب النبي عليه الصلاة والسلام، تحب إبراهيم، تحب موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، تحب الصديقين، كأي بكر، والشهداء، وغير ذلك ممن يحبهم الله؛ فهذا يجلب لك محبة الله، وهو أيضا من آثار محبة الله، فهو سبب وأثر.

ومنها: كثرة ذكر الله، بحيث يكون دائما على بالك، حتى تكون كلما شاهدت شيئا استدلت به عليه عز وجل؛ حتى يكون قلبك دائما مشغولا بالله، مغرضا عما سواه، فهذا يجلب لك محبة الله عز وجل.

وهذه الأسباب الثلاثة هي عندي من أقوى أسباب محبة الله عز وجل.

السؤال الثاني: ما هي الآثار المسلكية التي يستلزمها ما ذكر؟

والجواب:

أولا: قوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] يقتضي أن نحسن، وأن نحرص على الإحسان؛ لأن الله محبه، وكل شيء محبه الله فإننا نحرض عليه.

ثانيا: قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] يقتضي أن نعدل ونحصر على العدل.

ثالثا: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] يقتضي أن نتقي الله عز وجل، لا نتقي المخلوقين، بحيث إذا كان عندنا من نستحي منه من الناس تركنا المعاصي، وإذا لم يكن عصينا، فالتقوى أن نتقي الله عز وجل، ولا يهلك الناس. أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس.

انظر يا أخي إلى الشيء الذي بينك وبين ربك، ولا يهلك غير ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، افعل ما يقتضيه الشرع، وستكون لك العاقبة.

رابعا: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهذه تستوجب أن أكثر التوبة إلى الله عز وجل، أكثر أن أرجع إلى الله بقلبي وقالي، ومجرد قول الإنسان: أتوب إلى الله.

هَذَا قَدْ لَا يَنْفَعُ، لَكِنْ تَسْتَخْضِرُ وَأَنْتَ تَقُولُ: أَتَوُبُ إِلَى اللَّهِ: أَنْ بَيْنَ يَدَيْكَ مَعَاصِي، تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا وَتَتُوبُ؛ حَتَّى تَنَالَ بِذَلِكَ مَحَبَّةَ اللَّهِ.

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِذَا غَسَلْتَ ثَوْبَكَ مِنَ النَّجَاسَةِ تُحْسِبُ أَنَّ اللَّهَ أَحَبَّكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، إِذَا تَوَضَّأْتَ تُحْسِبُ أَنَّ اللَّهَ أَحَبَّكَ؛ لِأَنَّكَ تَطَهَّرْتَ، إِذَا اغْتَسَلْتَ تُحْسِبُ أَنَّ اللَّهَ أَحَبَّكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

وَاللَّهُ؛ إِنَّا لَعَافِلُونَ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي، أَكْثَرُ مَا نَسْتَعْمِلُ الطَّهَّارَةَ مِنَ النَّجَاسَةِ أَوْ مِنَ الْأَحْدَاثِ؛ لِأَنَّهَا شَرْطٌ لَصِحَّةِ الصَّلَاةِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَفْسَدَ صَلَاتُنَا، لَكِنْ يَغِيبُ عَنَّا كَثِيرًا أَنْ نَشْعُرَ أَنَّ هَذَا قُرْبَةٌ وَسَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ لَنَا، لَوْ كُنَّا نَسْتَخْضِرُ عِنْدَمَا يَغْسِلُ الْإِنْسَانُ نُقْطَةَ بَوْلٍ أَصَابَتْ ثَوْبَهُ أَنْ ذَلِكَ يَجْلِبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ لَهُ لِحَصَلَتِنَا خَيْرًا كَثِيرًا، لَكِنَّا فِي غَفْلَةٍ.

خَامِسًا: قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] هَذَا أَيْضًا يَسْتَوْجِبُ أَنْ نَحْرِصَ غَايَةَ الْحَرِصِ عَلَى اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، بِحَيْثُ نَرَسِمُ طَرِيقَهُ، لَا نَخْرُجُ مِنْهُ، وَلَا نَقْصُرُ عَنْهُ، وَلَا نَزِيدُ وَلَا نَنْقُصُ.

وَشُعُورُنَا هَذَا يَحْمِيْنَا مِنَ الْبِدْعِ، وَيَحْمِيْنَا مِنَ التَّقْصِيرِ، وَيَحْمِيْنَا مِنَ الزِّيَادَةِ وَالْعُلُوِّ، وَلَوْ أَنَّنَا نَشْعُرُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ فَانْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ سُلُوكُنَا وَآدَابُنَا وَأَخْلَاقُنَا وَعِبَادَاتُنَا.

سَادِسًا: قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] نُحَذِّرُ بِهِ مِنَ الرَّدَّةِ عَنِ الْإِسْلَامِ، الَّتِي مِنْهَا تَرُكُ الصَّلَاةِ مَثَلًا، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ يَهْدِدُنَا بَأَنَّا إِنْ ارْتَدَدْنَا عَنْ دِينِنَا أَهْلَكَنَا اللَّهُ، وَآتَى بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَيَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ رَبِّهِمْ فَإِنَّا نُلَازِمُ طَاعَةَ اللَّهِ، وَالِابْتِعَادَ عَنْ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ لِلرَّدَّةِ.

سَابِعًا: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بَيْنَيْنِ مَرْصُوصٌ﴾

[الصف: ٤].

إِذَا آمَنَّا بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ فَعَلْنَا هَذِهِ الْأَسْبَابَ الْخَمْسَةَ الَّتِي تَسْتَلِزُّهَا وَتُوجِبُهَا: الْقِتَالَ، وَعَدَمَ التَّوَانِي، وَالْإِخْلَاصَ، بَأَنْ يَكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْ يَشُدَّ بَعْضُنَا بَعْضًا كَأَنَّنَا بُنْيَانٌ، أَنْ نُحْكِمَ

الرَّابِطَةَ بَيْنَنَا إِحْكَامًا قَوِيًّا كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ، أَنْ نَصِفَ، وَهَذَا يَفْتَضِي التَّسَاوِيَّ حِسًّا، حَتَّى لَا تَخْتَلِفَ الْقُلُوبُ، وَهُوَ مِمَّا يُؤَكِّدُ الْأَلْفَةَ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا رَأَى وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَوَاحِدًا عَنْ يَسَارِهِ يَقْوَى عَلَى الْإِقْدَامِ، لَكِنْ لَوْ مُحِيطُونَ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ فَسَتَشْتَدُّ هِمَّتُهُ.

فَصَارَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ثَلَاثَةُ مَبَاحِثَ:

١ - إِبْثَابُ الْمَحَبَّةِ بِالْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ.

٢ - أَسْبَابُهَا.

٣ - الْآثَارُ الْمُسْلِكِيَّةُ فِي الْإِيمَانِ بِهَا.

أَمَّا أَهْلُ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَنْكَرُوهَا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا حُجَّةٌ وَاهِيَةٌ، يَقُولُونَ:
أَوَّلًا: إِنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا.

ثَانِيًا: إِنَّ الْمَحَبَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ مُتَجَانِسَيْنِ، لَا تَكُونُ بَيْنَ رَبٍّ وَمَخْلُوقٍ أَبَدًا، وَلَا بَأْسَ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَنَحْنُ نَرُدُّ عَلَيْهِمْ، فنقول:

نُجِيبُكُمْ عَنِ الْأَوَّلِ - وَهُوَ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا - بِجَوَابَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بِالتَّسْلِيمِ،
وَالثَّانِي: بِالْمَنْعِ.

التَّسْلِيمُ: نقول: سَلَّمْنَا أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَحَبَّةِ، فَالسَّمْعُ دَلٌّ عَلَيْهَا، وَهُوَ دَلِيلٌ قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَتِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]،
فَإِذَا كَانَ تَبَيَّنًا، فَهُوَ دَلِيلٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَانْتِفَاءُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ انْتِفَاءُ الْمَدْلُولِ؛ لِأَنَّ
الْمَدْلُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ أَدِلَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، سِوَاءِ الْحِسِّيَّاتِ أَوِ الْمَعْنَوِيَّاتِ:

فَالْحِسِّيَّاتُ: مِثْلُ بَلَدٍ لَهُ عِدَّةُ طُرُقٍ تُوصِلُ إِلَيْهِ، فَإِذَا انْسَدَّدَ طَرِيقٌ ذَهَبْنَا مَعَ الطَّرِيقِ

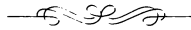
الثَّانِي.

أَمَّا الْمَعْنَوِيَّاتُ: فَكَمْ مِنْ حُكْمٍ وَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ عِدَّةُ أَدِلَّةٍ! وَجُوبُ الطَّهَارَةِ لِلصَّلَاةِ
مَثَلًا فِيهِ أَدِلَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

فإذن: إِذَا قُلْتُمْ: إِنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَى إِبْثَاتِ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فَإِنَّ السَّمْعَ دَلَّ عَلَيْهِ بِأَجْلَى دَلِيلٍ وَأَوْضَحَ بَيَانٍ.

الجواب الثاني: المنع: أَنْ نَمْنَعَ دَعْوَى أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، ونقول: بَلِ الْعَقْلُ دَلَّ عَلَى إِبْثَاتِ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، كَمَا سَبَقَ.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْمَحَبَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ مُتَجَانِسِينَ، فَيَكْفِي أَنْ نَقُولَ: لَا قَبُولَ لَدَعْوَاكُمْ! لِأَنَّ الْمَنَعَ كَافٍ فِي رَدِّ الْحُجَّةِ؛ إِذْ إِنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الثَّبُوتِ، فنقول: دَعْوَاكُمْ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ مُتَجَانِسِينَ مَمْنُوعٌ، بَلْ هِيَ تَكُونُ بَيْنَ غَيْرِ الْمُتَجَانِسِينَ، فالإنسانُ عندهُ ساعةٌ قديمةٌ مَا أَتَعَبْتَهُ بِالصِّيَانَةِ، وَمَا فَسَدَتْ عَلَيْهِ قَطُّ، فَتَجِدُهُ يُحِبُّهَا، وعندهُ ساعةٌ تأخُذُ مِنْهُ نِصْفَ وَقْتِهِ فِي التَّصْلِيحِ، فَتَجِدُهُ يَبْغِضُهَا. وَأَيْضًا نَجِدُ أَنَّ الْبَهَائِمَ تُحِبُّ وَتُحَبُّ. فنحن - والله الحمد - نُنِيبُ لِلَّهِ الْمَحَبَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.



* صِفَةُ الرَّحْمَةِ:

الشرح:

هذه آياتٌ فِي إِبْثَاتِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ:

الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].»

هذه آيَةٌ آتَى بِهَا الْمُؤَلِّفُ؛ لِيُثَبِّتَ حُكْمًا، وَلَيْسَ مُقَدِّمَةً لَهَا بَعْدَهَا، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا شَرْحُ الْبَسْمَلَةِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِعَادَتِهِ.

وَفِيهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: اللَّهُ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ. وَمِنْ صِفَاتِهِ: الْأُلُوْهِيَّةُ، وَالرَّحْمَةُ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].»

هَذَا يَقُولُهُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]. مَا أَعْظَمَ الْإِيْمَانَ! وَأَعْظَمَ فَإِنَّدَهُ! الْمَلَائِكَةُ حَوْلَ الْعَرْشِ يَحْمِلُونَهُ، يَدْعُونَ اللَّهَ لِلْمُؤْمِنِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ وَصَلَهُ عِلْمُ اللَّهِ، وَهُوَ وَاصِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ رَحْمَتَهُ وَصَلَتْ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار؛ لأنَّ الله قَرَنَ الرحمة هذه مع العلم، فكلُّ مَا بَلَغَهُ عِلْمُ اللَّهِ -وعِلْمُ اللَّهِ بِالْغَى لِكُلِّ شَيْءٍ- فَقَدْ بَلَغَتْهُ رَحْمَتُهُ، فكما يَعْلَمُ الْكَافِرَ، يَرْحَمُ الْكَافِرَ أَيْضًا.

لكن رَحْمَتُهُ لِلْكَافِرِ رَحْمَةٌ جَسَدِيَّةٌ بَدَنِيَّةٌ دُنْيَوِيَّةٌ فَاصِرَةٌ غَايَةُ الْقُصُورِ بِالنِّسْبَةِ لِرَحْمَةِ الْمُؤْمِنِ، فَالَّذِي يَرْزُقُ الْكَافِرَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي يَرْزُقُهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَسْكَنِ وَالْمُنْكَحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ: فَرَحْمَتُهُمْ رَحْمَةٌ أَحْصَى مِنْ هَذِهِ وَأَعْظَمُ؛ لِأَنَّهَا رَحْمَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ دِينِيَّةٌ دُنْيَوِيَّةٌ. وَلِهَذَا تَجِدُ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْكَافِرِ، حَتَّى فِي أُمُورِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]: الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هَذِهِ مَقْقُودَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَافِرِ، حَيَاتُهُمْ كَحَيَاةِ الْبَهَائِمِ، إِذَا شَبِعَ رَوْتٌ، وَإِذَا لَمْ يَسْبَغْ جَلَسَ يَضْرُخُ! هَكَذَا هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ، إِنْ شَبِعُوا بَطَرُوا، وَإِلَّا جَلَسُوا يَضْرُخُونَ! وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ.

لكن الْمُؤْمِنُ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ الْأَجَرَ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلْ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَهُوَ فِي خَيْرٍ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، وَقَلْبُهُ مُنْشَرِّحٌ مُّطْمَئِنٌّ مَا شِئَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، لَا جَزَعَ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَلَا بَطَرَ عِنْدَ النِّعْمَاءِ، بَلْ هُوَ مُتَوَازِنٌ مُّسْتَقِيمٌ مُّعْتَدِلٌ.

فهَذَا فَرْقٌ مَا بَيْنَ الرَّحْمَةِ هَذِهِ وَهَذِهِ.

لكنَّ مَعَ الأسفِ الشَّدِيدِ أَيْهَا الإِخْوَةُ: إِنَّ مِنَّا أَنَاسًا آلَافًا يُرِيدُونَ أَنْ يَلْحَقُوا بِرُكْبِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى جَعَلُوا الدُّنْيَا هِيَ هَمَّهُمْ، إِنْ أُعْطُوا رِضْوًا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ، هَؤُلَاءِ مَهْمَا بَلَغُوا فِي الرَّفَاهِيَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَهُمْ فِي جَحِيمٍ، لَمْ يَذُوقُوا لَذَّةَ الدُّنْيَا أَبَدًا، إِنَّمَا ذَاقَهَا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: وَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ؛ لِأَنَّهُ حَالٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَذَا النِّعَمِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالرُّكُودِ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّمَا أَكْبَرُ هَمِّهِمْ، وَمَبْلَغُ عِلْمِهِمْ.

* قَوْلُهُ: «رَحْمَةً وَعِلْمًا»: ﴿رَحْمَةً﴾: تَمَيِّزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِلِ، وَكَذَلِكَ ﴿وَعِلْمًا﴾ لِأَنَّ الْأَصْلَ: رَبَّنَا وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ.

وَفِي الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الرُّبُوبِيَّةُ، وَعُمُومُ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].»

* «﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾»: مُتَعَلِّقٌ بِ(رَحِيمٍ)، وَتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ: وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ لَا غَيْرِهِمْ رَحِيمًا.

وَلَكِنْ كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا: ﴿رَبَّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]؟!

نَقُولُ: الرَّحْمَةُ الَّتِي هُنَا غَيْرُ الرَّحْمَةِ الَّتِي هُنَاكَ. هَذِهِ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ مُتَّصِلَةٌ بِرَحْمَةِ الْآخِرَةِ لَا يَنَالُهَا الْكُفَّارُ، بِخِلَافِ الْأُولَى. هَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَإِلَّا فَكُلُّ مَرْحُومٍ، لَكِنْ فَرْقٌ بَيْنَ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ وَالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ.

وَفِي الْآيَةِ مِنْ الصِّفَاتِ: الرَّحْمَةُ.

وَمِنْ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ: التَّرْغِيبُ فِي الْإِيمَانِ.

الآية الرابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]:

يقول جلّ جلاله مُتَمَدِّحًا مُثْنِيًا عَلَى نَفْسِهِ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فَأُنْتَى عَلَى نَفْسِهِ عَزَّجَلَّ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَمِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ. ونقول فيها مَا قُلْنَا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.

الآية الخامسة:

«قَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].»

* «﴿كَتَبَ﴾» بِمَعْنَى: أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، فَاللهُ عَزَّجَلَّ لكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ سَابِقَةً لِعَظَمِهِ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابِئَةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لَكِنْ حِلْمُهُ وَرَحْمَتُهُ أَوْجَبَتْ أَنْ يَبْقَى الْخَلْقُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]: هَذِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ.

* «﴿سُوءًا﴾»: تَكْرَرٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، فَتَعَمُّ كُلُّ سُوءٍ، حَتَّى الشُّرْكَ.

* «﴿بِجَهْلَةٍ﴾» يَعْنِي: بِسَفَهٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَدَمُ الْعِلْمِ، وَالسَّفَهُ عَدَمُ الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ عَصَاهُ بِجَهَالَةٍ وَسَفَهٍ وَعَدَمِ حِكْمَةٍ.

* «﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»: فَيَغْفِرُ ذَنْبَهُ وَيَرْحَمُهُ.

وَلَمْ يَخْتِمْ الْآيَةَ بِهَذَا إِلَّا سِيئَالُ الثَّائِبِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، هَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ أَنْ يُؤَاخِذَهُ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى عَمَلِهِ الصَّالِحِ.

فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ خَمْسِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ خَمْسِينَ يَوْمًا، فَالْعَدْلُ أَنْ تُعَذِّبَهُ عَنْ خَمْسِينَ يَوْمًا، وَتُجَازِيَهُ بِالثَّوَابِ عَنْ خَمْسِينَ يَوْمًا، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ،

فَكُلُّ الْحَمْسِينَ يَوْمًا الَّتِي ذَهَبَتْ مِنَ الشُّؤْمِ تُنْحَى وَتَزُولُ بِسَاعَةٍ، وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، السَّيِّئَاتُ الْمَاضِيَةُ تَكُونُ حَسَنَاتٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ عَنْهَا تَوْبَةٌ، وَكُلُّ تَوْبَةٍ فِيهَا أَجْرٌ.

فَظَهَرَ بِهَذَا أَثَرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وَفِي الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الرَّبُّوبِيَّةُ، وَالْإِيجَابُ، وَالرَّحْمَةُ.

الْآيَةُ السَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].»

* اللَّهُ عَزَّجَلْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، جَمَعَ عَزَّجَلَّ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ؛ لِأَنَّ بِالْمَغْفِرَةِ سُقُوطُ عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ، وَبِالرَّحْمَةِ حُصُولُ الْمَطْلُوبِ، وَالْإِنْسَانُ مُفْتَقِرٌ إِلَى هَذَا وَهَذَا، مُفْتَقِرٌ إِلَى مَغْفِرَةِ يَنْجُو بِهَا مِنْ آثَامِهِ، وَمُفْتَقِرٌ إِلَى رَحْمَةٍ يَسْعُدُ بِهَا بِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ.

* «ف» (الْغَفُورُ): صِغَةُ مُبَالَغَةٍ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْغَفْرِ، وَهُوَ السِّرُّ مَعَ الْوَقَايَةِ؛ لِأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنَ الْمَغْفَرِ، وَالْمَغْفَرُ شَيْءٌ يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ فِي الْقِتَالِ يَبْقَى مِنَ السَّهَامِ، وَهَذَا الْمَغْفَرُ تَحْصُلُ بِهِ فَائِدَتَانِ هُمَا: سِرُّ الرَّأْسِ وَالْوَقَايَةُ. ف» (الْغَفُورُ): الَّذِي يَسْتُرُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ، وَيَقِيهِمْ آثَامَهَا، بِالْعَفْوِ عَنْهَا.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَخْلُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْبِدِهِ، وَيُقَرَّرُهُ بِذُنُوبِهِ، يَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا، وَعَمِلْتَ كَذَا... حَتَّى يُقَرَّرَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَهُ: قَدْ سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١).

* أَمَّا «الرَّحِيمُ» فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ. وَسَبَقَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره فيقول: أتعرف ذنبك؟ أتعرف ذنبك؟ أتعرف ذنبك؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا أقره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

وفي الآية من الأسماء: الغفور والرحيم. ومن الصفات: المغفرة والرحمة.
الآية السابعة:

«قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].»

قَالَهَا يَعْقُوبُ حِينَ أُرْسِلَ مَعَ أَبْنَائِهِ أَحَا يُوسُفَ الشَّقِيقَ؛ لِأَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: لَا كَيْلَ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ، إِلَّا إِذَا أَتَيْتُمْ بِأَخِيكُمْ. فَبَلَّغُوا وَالِدَهُمْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَمِنْ أَجْلِ الْحَاجَةِ أَرْسَلَهُ مَعَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ عِنْدَ وَدَاعِهِ: ﴿هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، يَعْنِي: لَنْ تَحْفَظُوهُ، وَلَكِنْ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهُ.

* «﴿خَيْرٌ حَفِظًا﴾»: ﴿حَفِظًا﴾: قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهَا تَمَيِّزٌ، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: اللَّهُ ذَرُهُ فَارِسًا. وَقِيلَ: إِنَّهَا حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «خَيْرٌ» فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أَي: حَالُ كَوْنِهِ حَافِظًا.

الشَّاهِدُ مِنَ الْآيَةِ هُنَا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حَيْثُ أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَةَ، بَلَّ بَيْنَ أَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، لَوْ جُمِعَتْ رَحْمَةُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، بَلَّ رَحْمَاتُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، لَكَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ.

أَرْحَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْخَلْقِ بِالْخَلْقِ رَحْمَةُ الْأُمِّ وَلَدَهَا؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ الْأُمِّ وَلَدَهَا لَا يُسَاوِيهَا سَيِّءٌ مِنْ رَحْمَةِ النَّاسِ أَبَدًا، حَتَّى الْأَبُ لَا يَرْحَمُ أَوْلَادَهُ مِثْلَ أُمِّهِمْ فِي الْغَالِبِ. جَاءَتْ امْرَأَةٌ فِي السَّبْيِ تَطْلُبُ وَلَدَهَا وَتَبْحَثُ عَنْهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ، أَخَذَتْهُ بِشَفَقَةٍ وَضَمَّتَهُ إِلَى صَدْرِهَا أَمَامَ النَّاسِ، وَأَمَامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةٌ وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قَالُوا: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(١).

جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَزَّ مُلْكُهُ وَسُلْطَانُهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٤)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كُلِّ الرَّاحِمِينَ إِذَا جُمِعَتْ رَحْمَتُهُمْ كُلِّهِمْ، فَلَيْسَتْ بَشْيءٍ عِنْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ.
وَيَذُلُّكَ عَلَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ خَلَقَ مِنْهُ رَحْمَةً، وَضَعَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً يَتَرَاخَمُ بِهَا
الْخَلَائِقُ فِي الدُّنْيَا^(١).

كُلُّ الْخَلَائِقِ تَتَرَاخَمُ، الْبَهَائِمُ وَالْعُقْلَاءُ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ النَّاقَةَ الْجُمُوحَ الرَّمُوحَ تَرْفَعُ رِجْلَهَا
عَنْ وَلَدِهَا خَافَةً أَنْ تُصِيبَهُ عِنْدَمَا يَرْضَعُ، حَتَّى يَرْضَعَ بِسُهُولَةٍ وَيُسِرَّ، وَكَذَلِكَ السَّبَاعُ الشَّرِيسَةُ
تَجِدُهَا تَحْنُ عَلَى وَلَدِهَا، وَإِذَا جَاءَهَا أَحَدٌ فِي جُحْرِهَا مَعَ أَوْلَادِهَا تَرْمِي نَفْسَهَا عَلَيْهِ، فَتَدْفِعُ
عَنْهُمْ؛ حَتَّى تَرُدَّهُ عَنْ أَوْلَادِهَا.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى ثُبُوتِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْعَقْلُ:
فَأَمَّا الْكِتَابُ: فِجَاءُ بِهِ إِثْبَاتُ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ مُتَوَّعَةٍ، تَارَةً بِالْأَسْمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَتَارَةً بِالْصِّفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]،
وَتَارَةً بِالْفِعْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وَتَارَةً بِاسْمِ التَّفْضِيلِ،
كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].
وَبِمِثْلِ هَذِهِ الْوُجُوهِ جَاءَتْ السُّنَّةُ.

وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَى ثُبُوتِ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى: فَمِنْهَا مَا نَرَى مِنَ الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ
الَّتِي تَحْصُلُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلْ، وَمِنْهَا مَا نَرَى مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَنْدَفِعُ بِأَمْرِ اللَّهِ، كُلُّهُ دَالٌّ
عَلَى إِثْبَاتِ الرَّحْمَةِ عَقْلًا.

فَالنَّاسُ فِي جَذْبٍ وَفِي فَخْطٍ، الْأَرْضُ مُجْدِبَةٌ، وَالسَّمَاءُ قَاحِطَةٌ، لَا مَطَرَ وَلَا نَبَاتَ، فَيَنْزِلُ اللَّهُ
الْمَطَرَ، وَتُنْبِتُ الْأَرْضُ، وَتَنْشَعُ الْأَنْعَامُ، وَيُسْقَى النَّاسُ.. حَتَّى الْعَامِيُّ الَّذِي لَمْ يَدْرُسْ لَوْ سَأَلْتَهُ
وَقُلْتَ: هَذَا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ فَيَسْقُوتُ: هَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. وَلَا يَشْكُ أَحَدٌ فِي هَذَا أَبَدًا.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: كتاب التوبة،
باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ
ذَلِكَ الْجُزْءِ تَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ».

فَرَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ثَابِتَةٌ بِالذَّلِيلِ السَّمْعِيِّ وَالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ.

وَأَنْكَرَ الْأَشَاعِرَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّعْطِيلِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَّصِفًا بِالرَّحْمَةِ، قَالُوا: لَأَنَّ الْعَقْلَ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا. وَثَانِيًا: لِأَنَّ الرَّحْمَةَ رَقَّةٌ وَضَعْفٌ وَتَطَامُنٌ لِلْمَرْحُومِ، وَهَذَا لَا يَلِيْقُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَرْحَمَ بِالْمَعْنَى الَّتِي هُوَ الرَّحْمَةُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَحْمَةً!! وَقَالُوا: الْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ: إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، أَوْ: الْإِحْسَانُ نَفْسُهُ، أَيْ: إِمَّا النِّعَمَ، أَوْ إِرَادَةُ النِّعَمِ.

فَتَأَمَّلِ الْآنَ كَيْفَ سَلَبُوا هَذِهِ الصِّفَةَ الْعَظِيمَةَ، الَّتِي كُلُّ مُؤْمِنٍ يَرْجُوهَا وَيُؤَمِّلُهَا، كُلُّ إِنْسَانٍ لَوْ سَأَلْتَهُ: مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أَنْكَرُوا هَذَا، قَالُوا: لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالرَّحْمَةِ!!

وَنَحْنُ نَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ: بِالتَّسْلِيمِ وَالْمَنْعِ:

التَّسْلِيمُ: أَنْ نَقُولَ: هَبْ أَنْ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ السَّمْعُ دَلَّ عَلَيْهَا، فَبُتِّبَ بِدَلِيلٍ آخَرَ، وَالْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ: أَنَّ انْتِفَاءَ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَسْتَتِرُزُ انْتِفَاءَ الْمَدْلُولِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثُبُتَ بِدَلِيلٍ آخَرَ. فَهَبْ أَنَّ الرَّحْمَةَ لَمْ تُثْبِتْ بِالْعَقْلِ، لَكِنْ ثُبُتَ بِالسَّمْعِ، وَكَمْ مِنْ أَشْيَاءَ ثُبُتَ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ!

أَمَّا الْمَنْعُ: فنَقُولُ: إِنَّ قَوْلَكُمْ: إِنَّ الْعَقْلَ لَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ. قَوْلٌ بَاطِلٌ، بَلِ الْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، فَهَذِهِ النِّعَمُ الْمَشْهُودَةُ وَالْمَسْمُوعَةُ، وَهَذِهِ النِّقْمُ الْمَذْفُوعَةُ، مَا سَبَّحَهَا؟! إِنَّ سَبَبَهَا الرَّحْمَةُ بِلَا شَكٍّ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ لَا يَرْحَمُ الْعِبَادَ مَا أَعْطَاهُمُ النِّعَمَ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ النِّقْمَ! وَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُودٌ، يَشْهَدُ بِهِ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَالْعَامِّيُّ فِي دُكَّانِهِ أَوْ سُوقِهِ يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِنْ أَثَارِ الرَّحْمَةِ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَثْبَتُوا صِفَةَ الْإِرَادَةِ عَنْ طَرِيقِ التَّخْصِصِ، قَالُوا: الْإِرَادَةُ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ، بِالسَّمْعِ: وَاضِحٌ. وَبِالْعَقْلِ: لِأَنَّ التَّخْصِصَ يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ.

ومعنى التخصيص، يعني: تخصيص المخلوقات بما هي عليه يدل على الإرادة، كون هذه السماء سماء، وهذه الأرض أرضاً، وهذه النجوم وهذه الشمس... هذه مختلفة بسبب الإرادة، أراد الله أن تكون السماء سماء، فكانت، وأن تكون الأرض أرضاً، فكانت، والنجم نجماً، فكان... وهكذا.

قَالُوا: فَالتَّخْصِصُ يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا الْإِرَادَةُ لَكَانَ الْكُلُّ شَيْئًا وَاحِدًا!

نقول لهم: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ! هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى الْإِرَادَةِ بِالنِّسْبَةِ لِدَلَالَةِ النِّعَمِ عَلَى الرَّحْمَةِ أَضْعَفُ وَأَخْفَى مِنْ دَلَالَةِ النِّعَمِ عَلَى الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ النِّعَمِ عَلَى الرَّحْمَةِ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهَا الْعَامُّ وَالْخَاصُّ، ودلالة التخصيص على الإرادة لا يعرفها إلا الخاص من طلبة العلم، فكيف تُنكرون ما هو أجل وتثبتون ما هو أخفى؟! وهل هذا إلا تناقض منكم؟!!

مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ:

الأمرُ المسلكي: هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ يَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَحِيمٌ فَسَوْفَ يَتَعَلَّقُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، ويكون مُسْتَظَرًّا لَهَا، فيَحْمِلُهُ هَذَا الاعتقادُ عَلَى فِعْلِ كُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إِلَى الرَّحْمَةِ، مثل: الإحسان، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، والتقوى، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَاكُنْتُمُهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والإيمان؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وكلما كَانَ الْإِيمَانُ أَقْوَى كَانَتِ الرَّحْمَةُ إِلَى صَاحِبِهِ أَقْرَبَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.



* صِفَةُ الرَّضَا:

وَقَوْلُهُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

الشرح:

هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الرَّضَا، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُوصُوفٌ بِالرَّضَا، وَهُوَ يَرْضَى عَنِ الْعَمَلِ، وَيَرْضَى عَنِ الْعَامِلِ.

يعني: أَنَّ رِضَا اللَّهِ مُتَعَلِّقٌ بِالْعَمَلِ وبالعاملِ:

أَمَّا بِالْعَمَلِ: فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، أي: يَرْضَى الشُّكْرَ لَكُمْ.

وكما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكما في الحديث الصَّحِيح: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا...»^(١).
فهذا الرِّضَا مُتَعَلِّقٌ بِالْعَمَلِ.

وَيَتَعَلَّقُ الرِّضَا أَيْضًا بِالْعَامِلِ، مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فَرِضَا اللَّهِ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهِيَ فِي نَفْسِهِ، وَلَيْسَتْ شَيْئًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ، كَمَا يَدَّعِيهِ أَهْلُ التَّعْطِيلِ.

وَلَوْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: فَسَرِّ لِي الرِّضَا. لَمْ تَتِمَّكِنْ مِنْ تَفْسِيرِهِ؛ لِأَنَّ الرِّضَا صِفَةٌ فِي الْإِنْسَانِ غَرِيزِيَّةٌ، وَالْغَرَائِزُ لَا يُمَكِّنُ لِنَاسٍ أَنْ يُفَسِّرَهَا بِأَجَلٍ وَأَوْضَحَ مِنْ لَفْظِهَا.

فَنَقُولُ: الرِّضَا صِفَةٌ فِي اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، مُتَعَلِّقَةٌ بِمَشِيتِهِ، فَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ، يَرْضَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنِ الْمُتَّقِينَ، وَعَنِ الْمُقْسِطِينَ، وَعَنِ الشَّاكِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْضَى عَنْ أَنَاسٍ وَلَا يَرْضَى عَنْ أَنَاسٍ، وَيَرْضَى أَعْمَالًا وَيَكْرَهُ أَعْمَالًا.

وَوَضَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالرِّضَا ثَابِتٌ بِالذَّلِيلِ السَّمْعِيِّ، كَمَا سَبَقَ، وَبِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، فَإِنَّ كَوْنَهُ عَزَّجَلَّ يُثِيبُ الطَّائِعِينَ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَطَاعَاتِهِمْ يَدُلُّ عَلَى الرِّضَا.

فَإِنْ قُلْتَ: اسْتِزَالُكَ بِالْمُثُوبَةِ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَزَّجَلَّ قَدْ يُنَازَعُ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ يُعْطِي الْفَاسِقَ مِنَ النِّعَمِ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِي الشَّاكِرَ. وَهَذَا إِيرَادُ قَوِيٍّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (١٧١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن الجواب عنه أن يُقَالَ: إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج، وليس عن رضا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأُمِّلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُكْمِلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرِيقَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].^(١)

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٢١) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٤٤-٤٥].

أَمَّا إِذَا جَاءَتِ الْمُتُوبَةُ وَالْإِنْسَانُ مُقِيمٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنَّا نَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ رِضَا اللَّهِ عَنْهُ.

* آيَاتُ صِفَاتِ الْغَضَبِ وَالسَّخَطِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَالْبُغْضِ:
الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ خَمْسَ آيَاتٍ:
الآيَةُ الْأُولَى:

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

* ﴿وَمَنْ﴾: شَرْطِيَّةٌ. وَ(مَنْ) الشَّرْطِيَّةُ تُفِيدُ الْعُمُومَ.

* ﴿مُؤْمِنًا﴾: هُوَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَخَرَجَ بِهِ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرِيقَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن مَنْ قَتَلَ كَافِرًا لَهُ عَهْدٌ أَوْ ذِمَّةٌ أَوْ أَمَانٌ فَهُوَ آثِمٌ، لكنَّ لَا يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَهُوَ مَعْصُومٌ الدَّمِ ظَاهِرًا، مَا لَمْ يُغْلَبْ بِنِفَاقِهِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾: يَدُلُّ عَلَى إخراجِ الصَّغِيرِ وَغَيْرِ الْعَاقِلِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ قَصْدٌ مُعْتَبَرٌ وَلَا عَمْدٌ، وَعَلَى إخراجِ الْمُخْطِئِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا. فَالَّذِي يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا جَزَاؤُهُ هَذَا الْجَزَاءُ الْعَظِيمُ.

* ﴿جَهَنَّمُ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ.

* ﴿خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيُّ: مَا كَثُرَ فِيهَا.

* ﴿وَعَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: الْغَضَبُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِهِ الْفَعْلِيَّةِ.

* ﴿وَلَعَنَهُ﴾: اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَالْخَامِسُ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

خَمْسُ عُقُوبَاتٍ، وَاحِدَةٌ مِنْهَا كَافِيَةٌ فِي الرَّدْعِ وَالزَّجْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ.

وَلَكِنْ يُشْكِلُ عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ ذِكْرُ الْخُلُودِ فِي النَّارِ؛ حَيْثُ رُتِبَ عَلَى الْقَتْلِ، وَالْقَتْلُ لَيْسَ بِكُفْرٍ، وَلَا خُلُودٌ فِي النَّارِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا بِالْكُفْرِ. وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِعِدَّةٍ أَوْجُهُ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ فِي الْكَافِرِ إِذَا قَتَلَ الْمُؤْمِنَ!

لَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَإِنْ لَمْ يَقْتُلِ الْمُؤْمِنَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ١٤ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿

[الأحزاب: ٦٤ - ٦٥].

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا فِي مَنْ اسْتَحْلَّ الْقَتْلُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَسْتَحِلُّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ كَافِرٌ!

وَعَجِبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ، قَالَ: كَيْفَ هَذَا؟! إِذَا اسْتَحَلَّ قَتْلَهُ فَهُوَ كَافِرٌ وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ، وَهُوَ مُحَلَّدٌ فِي النَّارِ وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ.

وَلَا يَسْتَقِيمُ هَذَا الْجَوَابُ أَيْضًا.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ عَلَى تَقْدِيرِ شَرْطٍ، أَيْ: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا إِنْ جَازَاهُ.

وَفِي هَذَا نَظَرٌ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ: «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ» مَا دَامَ الْمَعْنَى: إِنْ جَازَاهُ؟! فَنَحْنُ الْآنَ نَسْأَلُ: إِذَا جَازَاهُ فَهَلْ هَذَا جَزَاؤُهُ؟ فَإِذَا قِيلَ: نَعَمْ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ صَارَ خَالِدًا فِي النَّارِ، فَتَعَوَّدُ الْمُشْكِلَةُ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا تَتَخَلَّصُ!!
فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَجَوِبَةٍ لَا تَسْلَمُ مِنَ الْاِعْتِرَاضِ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا سَبَبٌ، وَلَكِنْ إِذَا وَجَدَ مَانِعٌ لَمْ يَنْفِذِ السَّبَبُ، كَمَا نَقُولُ: الْقِرَابَةُ سَبَبٌ لِلْإِزْثِ، فَإِذَا كَانَ الْقَرِيبُ رَقِيقًا لَمْ يَرِثْ؛ لَوْجُودِ الْمَانِعِ وَهُوَ الرِّقُّ.
فَنَقُولُ: هَذَا الْفِعْلُ سَبَبٌ لِلْخُلُودِ، وَإِذَا كَانَ الْفَاعِلُ مُؤْمِنًا فَلَا يُحَلَّدُ فِي النَّارِ.

وَلَكِنْ يَرِدُ عَلَيْنَا الْإِشْكَالُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ مَا الْفَائِدَةُ مِنْ هَذَا الْوَعِيدِ؟

فَنَقُولُ: الْفَائِدَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا قَدْ فَعَلَ السَّبَبَ الَّذِي يُحَلَّدُ بِهِ فِي النَّارِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ وُجُودُ الْمَانِعِ مُحْتَمَلًا، قَدْ يُوجَدُ وَقَدْ لَا يُوجَدُ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ جَدًّا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبِّ دَمًا حَرَامًا»^(١). فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَإِنَّهُ قَدْ يَضِيقُ بَدِينِهِ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْهُ.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْوَعِيدُ هُنَا بَاغِتَارِ الْمَالِ؛ لِأَنَّهُ يُخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَتْلُ سَبَبًا لَكُفْرِهِ، وَحِينَئِذٍ يَمُوتُ عَلَى الْكُفْرِ، فَيُحَلَّدُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ»، رقم (٦٨٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فيكون في هذه الآية على هذا التفسير ذكر سبب السبب، فالقتل عمداً سبب لأن يموت الإنسان على الكفر، والكفر سبب للتخليد في النار.

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان يجد أنه ليس فيه إشكال.

الوجه الخامس: أن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال: فلان خالد في الحبس. والحبس ليس بدائم، ويقولون: فلان خالد خلود الجبال. ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفاً، فيدورها قاعاً صَفْصَفاً.

وهذا أيضاً جواب سهل لا يحتاج إلى تعب، فنقول: إن الله عز وجل لم يذكر التأييد، لم يقل: خالد فيها أبداً. بل قال: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ والمعنى: أنه ما كت مكثاً طويلاً.

الوجه السادس: أن يقال: إن هذا من باب الوعيد، والوعيد يجوز إخلافه؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء، وأنشدوا عليه قول الشاعر:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخِلْفُ إِيْعَادِي وَمُنْجِرُ مَوْعِدِي^(١)

أوعدته بالعقوبة، وأوعدته بالثواب، لمخلف إيعادي ومُنْجِرُ مَوْعِدِي.

وأنت إذا قلت لا ينك: والله إن ذهبت إلى السوق لأضربنك بهذه العصا. ثم ذهب إلى السوق، فلما رجع، ضربته بيدك، فهذا العقاب أهون على ابنك، فإذا توعد الله عز وجل القاتل بهذا الوعيد، ثم عفا عنه، فهذا كرم.

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر؛ لأننا نقول: إن نفذ الوعيد، فلا إشكال باق، وإن لم ينفذ فلا فائدة منه.

هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية، وأقربها الخامس، ثم الرابع.

(١) البيت ينسب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب (١/ ٦٣).

مسألة: إِذَا تَابَ الْقَاتِلُ هَلْ يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعِيدَ؟

الجواب: لَا يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَكَمًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] وَهَذَا وَاضِحٌ، أَنَّ مَنْ تَابَ - حَتَّى مِنْ الْقَتْلِ - فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ.

والحديثُ الصَّحِيحُ فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِي قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَأَلْقَى اللَّهُ فِي نَفْسِهِ التَّوْبَةَ، فَجَاءَ إِلَى عَابِدٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟! فَالْعَابِدُ اسْتَعْظَمَ الْأَمْرَ، وَقَالَ: لَيْسَ لَكَ تَوْبَةٌ! فَقَتَلَهُ، فَأَتَمَّ بِهِ الْمِثْمَةَ. فذُلَّ عَلَى عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِثْمَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ! وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟! وَلَكِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةُ ظَالِمٌ أَهْلُهَا، فَادْهَبْ إِلَى الْقَرْيَةِ الْفُلَانِيَّةِ، فِيهَا أَهْلٌ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ.

فَسَافَرَ الرَّجُلُ، وَهَاجَرَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدِ الْحَيْرِ وَالصَّلَاحِ، فَوَافَقَهُ الْمُنِيَّةُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ حَكْمًا، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْقَرْيَتَيْنِ، فإِلَى أَتْيَهُمَا كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانَ أَقْرَبَ إِلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ^(١).

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَبِلَتْ تَوْبَتَهُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَلَيْهِمْ آصَارًا وَأَغْلَالًا، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ رُفِعَ عَنْهَا الْأَصَارُ وَالْأَغْلَالُ، فَالتَّوْبَةُ فِي حَقِّهَا أَسْهَلُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَكَيْفَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ؟!

فإِنْ قُلْتَ: مَاذَا تَقُولُ فِيمَا صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْقَاتِلَ لَيْسَ لَهُ تَوْبَةٌ ^(٢)؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾، رقم (٤٧٦٤).

فالجواب: مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ:

١- إِمَّا أَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اسْتَبْعَدَ أَنْ يَكُونَ لِلْقَاتِلِ عَمْدًا تَوْبَةً، وَرَأَى أَنَّهُ لَا يُوقَفُ لِلتَّوْبَةِ، وَإِذَا لَمْ يُوقَفْ لِلتَّوْبَةِ فَإِنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْإِثْمُ، بَلْ يُؤَاخَذُ بِهِ.

٢- وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مُرَادَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ الْمَقْتُولِ؛ لِأَنَّ الْقَاتِلَ عَمْدًا يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: حَقُّ اللَّهِ، وَحَقُّ الْمَقْتُولِ، وَالثَّالِثُ لِأَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ.

أ- أَمَّا حَقُّ اللَّهِ، فَلَا شَكَّ أَنَّ التَّوْبَةَ تَرْفَعُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وَهَذِهِ فِي التَّائِبِينَ.

ب- وَأَمَّا حَقُّ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَيَسْقُطُ إِذَا سَلَّمَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ لَهُمْ، أَتَى إِلَيْهِمْ وَقَالَ: أَنَا قَتَلْتُ صَاحِبَكُمْ، وَاصْنَعُوا مَا شِئْتُمْ. فَهُمْ إِمَّا أَنْ يَقْتَصُوا، أَوْ يَأْخُذُوا الدِّيَةَ، أَوْ يَغْفُوا، وَالْحَقُّ لَهُمْ.

ج- وَأَمَّا حَقُّ الْمَقْتُولِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا.

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ، أَيُّ: بِالنِّسْبَةِ لِحَقِّ الْمَقْتُولِ.

عَلَى أَنَّ الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ إِذَا تَابَ تَوْبَةً نَصُوحًا فَإِنَّهُ حَتَّى حَقَّ الْمَقْتُولِ يَسْقُطُ، لَا إِهْدَارًا لِحَقِّهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِفَضْلِهِ يَتَحَمَّلُ عَنِ الْقَاتِلِ وَيُعْطِي الْمَقْتُولَ رِفْعَةً دَرَجَاتٍ فِي الْجَنَّةِ، أَوْ عَفْوًا عَنِ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ الْخَالِصَةَ لَا تُبْقِي شَيْئًا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا عُمُومُ آيَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الْغَضَبُ، وَاللَّعْنُ، وَإِعْدَادُ الْعَذَابِ.

وَفِيهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ: التَّحْذِيرُ مِنْ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨].»

* ﴿ذَلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق، والذي سبق هو قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]، يعني: فكيف تكون حالهم في تلك اللحظات إذا توفتتهم الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ عند الموت؟!

* ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ضَرْبُ الوجوه والأدبار.

* ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب، فالباء للسببية.

* ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ أي: الذي أَسْخَطَ الله، فَصَارُوا يَفْعَلُونَ كُلَّ مَا بِهِ سَخَطَ اللهُ عَزَّجَل مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

أَمَّا مَا فِيهِ رِضَا اللهُ فَحَالُهُمْ فِيهِ قَوْلُهُ: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: كَرِهُوا مَا فِيهِ رِضَاهُ، فَصَارَتْ عَاقِبَتُهُمْ تِلْكَ الْعَاقِبَةُ الْوَحِيمَةُ، أَتَتْهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ نَضْرِبُ الْمَلَائِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ: إِثْبَاتُ السَّخَطِ وَالرِّضَا.

وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى صِفَةِ الرِّضَا، وَأَمَّا السَّخَطُ فَمَعْنَاهُ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْعُصَبِ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

﴿قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]﴾.

* ﴿ءَاسَفُونَا﴾ يعني: أَغْضَبُونَا وَأَسْخَطُونَا.

* ﴿و(لَمَّا)﴾: هُنَا شَرْطِيَّةٌ، فِعْلُ الشَّرْطِ فِيهَا: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ وَجَوَابُهُ: ﴿أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

فِيهَا رَدٌّ عَلَى مَنْ فَسَّرُوا السَّخَطَ وَالْعُصَبَ بِالْإِنْتِقَامِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ التَّعْطِيلِ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّخَطِ وَالْعُصَبِ الْإِنْتِقَامُ، أَوْ إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ، وَلَا يُفَسَّرُونَ السَّخَطَ وَالْعُصَبَ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ يَتَّصِفُ بِهَا هُوَ نَفْسُهُ، فَيَقُولُونَ: غَضَبُهُ أَيُّ: إِنْتِقَامُهُ، أَوْ إِرَادَةُ إِنْتِقَامِهِ، فَهُمْ إِمَّا أَنْ يُفَسَّرُوا الْعُصَبُ بِالْمَفْعُولِ الْمُفَصَّلِ عَنِ اللهِ وَهُوَ الْإِنْتِقَامُ، أَوْ بِالْإِرَادَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِهَا، وَلَا يُفَسَّرُونَ أَنَّهُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِهِ.

ونحنُ نقولُ لَهُمْ: بَلِ السَّخَطُ والغَضَبُ غَيْرُ الانتقامِ، والانتقامُ نَتِيجَةُ الغَضَبِ والسَّخَطِ، كما نقولُ: إِنَّ الثَّوَابَ نَتِيجَةُ الرِّضَا. فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسَخِطُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ.

وَإِذَا قَالُوا: إِنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ ثُبُوتَ السَّخَطِ والغَضَبِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فإِنَّا نُجِيبُهُمْ بِمَا سَبَقَ فِي صِفَةِ الرِّضَا؛ لِأَنَّ الْبَابَ وَاحِدٌ.

ونقولُ: بَلِ الْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى السَّخَطِ والغَضَبِ؛ فَإِنَّ الْإِنْتِقَامَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبَ الْكَافِرِينَ دَلِيلٌ عَلَى السَّخَطِ والغَضَبِ، وَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الرِّضَا، وَلَا عَلَى انْتِفَاءِ الغَضَبِ والسَّخَطِ.

ونقولُ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] تَرَدُّ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْإِنْتِقَامَ غَيْرَ الغَضَبِ؛ لِأَنَّ الشَّرْطَ غَيْرُ الْمَشْرُوطِ.

مَسْأَلَةٌ: بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ﴾ نحنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْأَسْفَ هُوَ الْحُزْنُ وَالنَّدَمُ عَلَى شَيْءٍ مَضَى عَلَى النَّادِمِ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعُهُ، فَهَلْ يُوصَفُ اللهُ بِالْحُزْنِ وَالنَّدَمِ؟

الْجَوَابُ: لَا، وَنُجِيبُ عَنِ الْآيَةِ بِأَنَّ الْأَسْفَ فِي اللَّغَةِ لَهُ مَعْنَانِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْأَسْفُ بِمَعْنَى الْحُزْنِ، مِثْلُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ: ﴿ يَتَأَسَّفُ عَلَى

يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ [يوسف: ٨٤].

وَيُطْلَقُ الْأَسْفُ عَلَى الغَضَبِ، فَيُقَالُ: أَسِفَ عَلَيْهِ يَأْسِفُ، بِمَعْنَى: غَضِبَ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ: مُتَمَتِّعٌ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالثَّانِي: مُثَبَّتٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَالَ: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا

مِنْهُمْ ﴾.

وَفِي الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الغَضَبُ، الْإِنْتِقَامُ.

وَمِنْ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ: التَّحْذِيرُ بِمَا يُغْضِبُ اللَّهَ تَعَالَى.

الآية الرابعة:

﴿قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أُبْعَاثَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٦].﴾

يعني بذلك المنافقين الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَزَاوَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِهَ أُبْعَاثَهُمْ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ خَالِصٍ لَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشَّرِكِ، وَلَا تَهْمُ إِذَا خَرَجُوا كَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٧]، وَإِذَا كَانُوا غَيْرَ مُخْلِصِينَ، وَكَانُوا مُفْسِدِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْرَهُ الْفَسَادَ وَيَكْرَهُ الشَّرْكَ، فَ﴿كَرِهَ اللَّهُ أُبْعَاثَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ﴾ يعني: جَعَلَ هِمَّهُمْ فَاتِرَةً عَنِ الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ.

﴿وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٦]: قِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ ذَلِكَ كَوْنًا. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: أَفْعُدْ مَعَ الْقَاعِدِينَ، فَفُلَانٌ لَمْ يَخْرُجْ، وَفُلَانٌ لَمْ يَخْرُجْ، مِمَّنْ عَذَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، كَالْمَرِيضِ وَالْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ. وَيَقُولُونَ: إِذَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ اعْتَذَرْنَا إِلَيْهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَنَا وَكَفَانَا.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَجْمَعَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَقَعَدُوا، فَهُمْ مَا قَعَدُوا إِلَّا بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَفِي الْآيَةِ هُنَا إِبْثَاتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَكْرَهُ، وَهَذَا أَيْضًا ثَابِتٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٣-٣٨].

وَكَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أُبْعَاثَهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»^(١). فَالْكَرَاهَةُ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْرَهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تَسْتَكْبِرُوا تَكَاسُفًا﴾، رقم (١٤٧٧)، ومسلم: كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (١٤/٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكرهه الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل، كما في الآية: ﴿وَلَيْكِن كَرِهَ اللَّهُ
أَنِيعَاتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وكما في قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].
وتكون أيضا للعامل، كما جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ:
إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا، فَأَبْغِضْهُ»^(١).

الآية الخامسة:

«قَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].»

* «﴿كَبُرَ﴾» بِمَعْنَى: عَظُمَ.

* «﴿مَقْتًا﴾» تَمَيِّزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِلِ، وَالْمَقْتُ أَشَدُّ الْبُغْضِ، وَفَاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾ بَعْدَ أَنْ
حُوِّلَ الْفَاعِلُ إِلَى تَمَيِّزٍ: (أَنْ) وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.
وهذه الآية تعليلٌ للآية التي قبلها وبيانٌ لعاقبتها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا
لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف: ٢-٣] فَإِنَّ هَذَا مِنْ
أَكْبَرِ الْأُمُورِ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَفْعَلُ.

ووجه ذلك أن يقال: إِذَا كُنْتَ تَقُولُ الشَّيْءَ وَلَا تَفْعَلُهُ فَأَنْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا كَاذِبٌ فِيمَا
تَقُولُ، وَلَكِنَّكَ تُخَوِّفُ النَّاسَ، فَتَقُولُ لَهُمُ الشَّيْءَ وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ. وَإِمَّا أَنَّكَ مُسْتَكْبِرٌ عَمَّا تَقُولُ،
تَأْمُرُ النَّاسَ بِهِ وَلَا تَفْعَلُهُ، وَتَنْهَى النَّاسَ عَنْهُ وَتَفْعَلُهُ.
وفي الآية مِنَ الصِّفَاتِ: الْمَقْتُ، وَأَنَّهُ يَتَفَاوَتْ.
وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ: التَّحْذِيرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَفْعَلُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧)، من حديث
أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* آيَاتُ صِفَةِ الْمَجِيِّ وَالْإِنِّيَانِ:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإثْبَاتِ صِفَةِ الْمَجِيِّ وَالْإِنِّيَانِ آيَاتٍ أَرْبَعًا.

الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾

[البقرة: ٢١٠].»

* قَوْلُهُ: «﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾»: ﴿هَلْ﴾: اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، يَعْنِي: مَا يَنْظُرُونَ، وَكَلِمًا وَجِدَتْ (إِلَّا) بَعْدَ الاسْتِفْهَامِ فَالْاسْتِفْهَامُ يَكُونُ لِلنَّفْيِ، هَذِهِ قَاعِدَةٌ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبَعٌ دَمِيَّتٌ»^(١)؟ أَيْ: مَا أَنْتَ.

وَمَعْنَى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ هُنَا: يَنْتَظِرُونَ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ تَتَعَدَّ بِ(إِلَى) فَلَوْ تَعَدَّتْ بِ(إِلَى) لَكَانَ مَعْنَاهَا النَّظَرُ بِالْعَيْنِ غَالِبًا، أَمَّا إِذَا تَعَدَّتْ بِنَفْسِهَا، فَهِيَ بِمَعْنَى: يَنْتَظِرُونَ، أَيْ: مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

* «﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾»: وَ﴿فِي﴾: هُنَا بِمَعْنَى (مَعَ) فَهِيَ لِلْمُصَاحَبَةِ، وَلَيْسَتْ لِلظَّرْفِيَّةِ قَطْعًا؛ لِأَنَّهُمَا لَوْ كَانَتْ لِلظَّرْفِيَّةِ لَكَانَتِ الظُّلُلُ مُحِيطَةً بِاللَّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

ف﴿فِي ظُلَلٍ﴾ أَيْ: مَعَ الظُّلَلِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَ نُزُولِهِ جَدَّعَلَا لِلْفَضْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ ﴿تَشَقَّقُ الْأَسْمَاءُ بِالْعَلَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]؛ غَمَامٌ أبيضٌ، ظُلُلٌ عَظِيمَةٌ؛ لِمَجِيِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

* وَقَوْلُهُ: «﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾»: الْغَمَامُ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ السَّحَابُ الْاَبْيَضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُتَمَتِّيًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وَالسَّحَابُ الْاَبْيَضُ يُقْبَلُ

(١) تمثل به النبي ﷺ في بعض المشاهد وقد دميت إصبعه، فقال: «هل أنت إلا أصبع دميت؟ وفي سبيل الله ما لقيت». أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٨٠٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه.

الْجَوِّ مُسْتَنِيرًا، بِخِلَافِ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، فَإِنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الظُّلْمَةُ، وَهُوَ أَجْمَلُ مَنْظَرًا.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْمَلِكُ كَ﴾: الْمَلَأَتْهُ بِالرَّفْعِ مَعْطُوفٌ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ (الله) يَعْنِي: أَوْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَأَتْهُ، وَسَبَقَ بَيَانُ اشْتِقَاقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَمَنْ هُمْ الْمَلَأَتْهُ.

وَالْمَلَأَتْهُ تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهَا تَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ، يَنْزِلُ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ الثَّالِثَةِ، ثُمَّ الرَّابِعَةِ، وَهَكَذَا... إِلَى السَّابِعَةِ؛ يُحِيطُونَ بِالنَّاسِ.

وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يَأْتِي عَلَى هَذَا الْوَجْهِ؛ فَهُوَ مَشْهَدٌ عَظِيمٌ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يُحَذِّرُ اللَّهُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾

[الأنعام: ١٥٨].

نَقُولُ فِي ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ مَا قُلْنَاهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أَيُّ: مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ:

أَوَّلًا: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَيُّ: لِقَبْضِ أَزْوَاجِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَأَوْا إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ثَانِيًا: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ.

ثَالِثًا: ﴿يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: وَهَذِهِ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَسَرَّهَا بِذَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وَأَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الثَّلَاثَ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا نَزَلَتْ لِقَبْضِ أَزْوَاجِهِمْ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا يَنْفَعُ تَقَاتُلُهَا﴾، رقم (٤٦٣٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَتْلَ ﴿[النساء: ١٨].

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها فإن التوبة لا تقبل، وحينئذ لا يستطيعون خلاصًا مما هم عليه.

وذكر الحال الثالثة بين الحالين؛ لأنه وقت الجزاء وثمره العمل؛ فلا يستطيعون التخلص في تلك الحال مما عملوه.

والغرض من هذه الآية والتي قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أن يفوتهم الأوان، ثم لا يستطيعون الخلاص من أعمالهم.

الآية الثالثة:

قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿[الفجر: ٢١-٢٢].

* ﴿كَلَّا﴾ «كَلَّا» هُنَا لِلتَّنْبِيهِ، مِثْلُ (أَلَا).

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾: هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وأكَّدَ هَذَا الدَّكَّ لِعَظَمَتِهِ؛ لِأَنَّهَا تُدَكُّ الْجِبَالُ وَالشُّعَابُ وَكُلُّ شَيْءٍ يَدَكُّ، حَتَّى تَكُونَ الْأَرْضُ كَالْأَدِيمِ، وَالْأَدِيمُ هُوَ الْجِلْدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿٢١﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿[طه: ١٠٦-١٠٧]. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَكَرُّرُ الدَّكِّ تَأْسِيسًا لَا تَأْكِيدًا، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: دَكًّا بَعْدَ دَكٍّ.

* قَالَ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَعْدَ أَنْ تُدَكَّ الْأَرْضُ وَتُسَوَّى وَيُخَشَّرَ النَّاسُ يَأْتِي اللَّهُ لِلْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَكُ﴾: (أَل) هُنَا لِلْعُمُومِ، يَعْنِي: وَكُلُّ مَلَكٍ، يَعْنِي: الْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ فِي الْأَرْضِ.

* ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: أَي: صَفًّا مِنْ وَرَاءِ صَفٍّ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «نَزَلَ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُصَفُّونَ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ

الثالثة^(١) وهكذا.

الآية الرابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْعَمَمِ وَنُزِلُ الْمَلَكِكَةُ نَزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥].

يعني: اذْكَرُ يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ.

و﴿تَشَقُّ﴾: «أَبْلَغُ مِنْ تَنْشُقُ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهَا تَشَقُّ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَخْرُجُ هَذَا الْغَمَامُ، يَتَوَرَّ ثُورَانِ الدُّخَانِ، يَنْبُعُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ، مِثْلًا يُقَالُ: تَشَقُّ الْأَرْضُ بِالنَّبَاتِ، يَعْنِي: يَخْرُجُ الْغَمَامُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَتَوَرَّ مُتَابِعًا، وَذَلِكَ لِمَجِيءِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِلْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَهُوَ يَوْمٌ رَهيبٌ عَظِيمٌ.

* قَوْلُهُ: «﴿وَنُزِلُ الْمَلَكِكَةُ نَزِيلاً﴾»: يَنْزِلُونَ مِنَ السَّمَوَاتِ شَيْئًا فَشَيْئًا، تَنْزِيلُ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ الثَّالِثَةِ... وَهَكَذَا.

وهذه الآية في سياقها ليس فيها ذكرٌ مجيء الله، لكن فيها الإشارة إلى ذلك؛ لأنَّ تَشَقُّ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَجِيءِ اللَّهِ تَعَالَى، بِدَلِيلِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

هذه أربع آياتٍ ساقها المؤلف لإثباتِ صفةٍ من صفاتِ الله، وهي: الْمَجِيءُ وَالْإِثْنَانُ. وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُشْتَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِنَفْسِهِ هُوَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبَعْيَرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً مِنْ غَيْرِهِ، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا، فَكَلَامُهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَكْمَلِ الْعِلْمِ وَالصِّدْقِ وَالْبَيَانِ وَالْإِرَادَةِ، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا الْحَقَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَصْدَقُ وَأَحْسَنُ حَدِيثًا.

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٦٩ - ٥٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، وقال الحاكم: «رواه هذا الحديث عن آخرهم محتج بهم غير علي بن جدعان، وهو وإن كان موقوفاً على ابن عباس فإنه عجيب بمره». وقال الذهبي: إسناده قوي.

وأخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١٤٢ و ١٤٣) عن ابن عباس والضحاك. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩) لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لكن يَبْقَى السُّؤَالُ: هَلْ نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذَا الْمَجِيءِ؟

الجواب: لَا نَعْلَمُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَنَا أَنَّهُ يَجِيءُ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ يَجِيءُ، وَلِأَنَّ الْكَيْفِيَّةَ لَا نَعْلَمُ إِلَّا بِالْمُشَاهَدَةِ أَوْ مُشَاهَدَةِ النَّظِيرِ أَوِ الْحَبَرِ الصَّادِقِ عَنْهَا، وَكُلُّ هَذَا لَا يُوْجَدُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّهُ إِذَا جُهِلَتِ الذَّاتُ جُهِلَتِ الصِّفَاتُ، أَيْ: كَيْفِيَّتُهَا؛ فَالذَّاتُ مَوْجُودَةٌ وَحَقِيقَةٌ وَنَعْرِفُهَا، وَنَعْرِفُ مَا مَعْنَى الذَّاتِ وَمَا مَعْنَى النَّفْسِ، وَكَذَلِكَ نَعْرِفُ مَا مَعْنَى الْمَجِيءِ، لَكِنْ كَيْفِيَّةُ الذَّاتِ أَوْ النَّفْسِ وَكَيْفِيَّةُ الْمَجِيءِ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا.

فَوُزِنَ بِأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي حَقِيقَةً وَعَلَى كَيْفِيَّةٍ تَلِيْقُ بِهِ بِمُجْهُولَةٍ لَنَا.

مُحَالِفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ:

وَخَالَفَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْتِي؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَثَبْتَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي ثَبَتَ أَنَّهُ جِسْمٌ، وَالْأَجْسَامُ مُمَثِّلَةٌ!

فنقول: هَذِهِ دَعْوَى وَقِيَّاسٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ النَّصِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَعُودُ إِلَى النَّصِّ بِالْإِبْطَالِ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْ يَبَاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا: ٢٤].

فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي عَادَ إِلَى النَّصِّ بِالْإِبْطَالِ هُوَ الْحَقُّ صَارَ النَّصُّ بَاطِلًا وَلَا بُدَّ، وَبُطْلَانُ النَّصِّ مُسْتَحِيلٌ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ النَّصَّ هُوَ الْحَقُّ صَارَ هَذَا بَاطِلًا وَلَا بُدَّ!

ثُمَّ نَقُولُ: مَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُهَا؟ يَقُولُونَ: الْمَانِعُ أَنَّكَ إِذَا أَثَبْتَ ذَلِكَ فَانْتَ مُمَثِّلٌ.

نقول: هَذَا خَطَأٌ؛ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَجِيءَ وَالْإِتْيَانَ يَخْتَلِفُ حَتَّى بِالسَّبَبَةِ لِلْمَخْلُوقِ، فَإِنَّنَا الشَّيْطَانُ الَّذِي يَأْتِي كَأَنَّمَا يَنْحَدِرُ مِنْ مُرْتَفَعٍ مِنْ نَشَاطِهِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ يَمْشِي مَرَحًا، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهُ يَمْشِي مَرَحًا. هَلْ هَذَا كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَمْشِي عَلَى عَصَا وَلَا يَنْقُلُ رِجْلًا مِنْ مَكَانٍ إِلَى بَعْدٍ تَعَبٍ.

وَالْإِتْيَانُ يَخْتَلِفُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَإِتْيَانُ إِنْسَانٍ مَثَلًا مِنْ كِبَرٍ أَوْ مِنَ الْبَلَدِ أَوْ مِنْ وُلاَةِ الْأُمُورِ لَيْسَ كِإِتْيَانِ شَخْصٍ لَا يَخْتَفَى بِهِ.

ماذا يَقُولُ الْمُعْطَلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وَنَحْوَهَا؟

الجواب: يَقُولُ: الْمَعْنَى: جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَآتَى أَمْرُ رَبِّكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْعَاجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فَيَجِبُ أَنْ تُفَسِّرَ كُلَّ إِنْتَانٍ أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ بِهِذِهِ الْآيَةِ، وَنَقُولُ: الْمُرَادُ: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ.

فَيُقَالُ: إِنَّ هَذَا الدَّلِيلَ الَّذِي اسْتَدَلَّلْتَ بِهِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ لَكَ! لَوْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ إِنْتَانِ أَمْرِهِ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى؛ فَمَا الَّذِي يَمْنَعُهُ أَنْ يَقُولَ: أَمْرُهُ! فَلَمَّا أَرَادَ الْأَمْرَ عَبْرَ بِالْأَمْرِ، وَلَمَّا لَمْ يُرِدْهُ لَمْ يُعَبِّرْ بِهِ.

وهَذَا فِي الْوَاقِعِ دَلِيلٌ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ الْأُخْرَى لَيْسَ فِيهَا إِنْجَالٌ حَتَّى نَقُولَ: إِنَّمَا بُيِّنْتَ بِهِذِهِ الْآيَةِ. فَالْآيَاتِ الْأُخْرَى وَاضِحَةٌ، وَفِي بَعْضِهَا تَقْسِيمٌ يَمْنَعُ إِرَادَةَ مَجِيءِ الْأَمْرِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] هَلْ يَسْتَقِيمُ لِمَنْ يَخْصِي أَنْ يَقُولَ: ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: أَمْرُهُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّقْسِيمِ؟!

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾

[المائدة: ٥٢].

فالجواب: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ إِنْتَانُ الْفَتْحِ أَوْ الْأَمْرِ، لَكِنْ أَضَافَ اللَّهُ الْإِنْتَانِ بِهِ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَهَذَا أَسْلُوبٌ مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَالْإِنْتَانُ إِذَا قِيدَ بِحَرْفٍ جَرَّ مِثْلًا، فَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ الْمَجْرُورُ، وَإِذَا أُطْلِقَ وَأُضِيفَ إِلَى اللَّهِ بِدُونِ قَيْدٍ فَالْمُرَادُ بِهِ إِنْتَانُ اللَّهِ حَقِيقَةً.

الآدَابُ الْمُسْلِكِيَّةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِصِفَةِ الْمَجِيءِ وَالْإِنْتَانِ لِلَّهِ تَعَالَى:

الْتِمَرَةُ هِيَ الْخَوْفُ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَأْتِي فِيهِ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ لِلْفَضْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَتَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا يَنْقُى أَمَامَكَ إِلَّا الرَّبُّ عَزَّجَلَّ، وَالْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا، فَإِنْ عَمِلْتَ خَيْرًا جُوزِيَتْ بِهِ، وَإِنْ عَمِلْتَ سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّكَ سَتُجْزَى بِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلُو بِهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ

وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ^(١).

فَالْإِيمَانُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُ يُؤَلِّدُ لِلْإِنْسَانِ رَهْبَةً وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاسْتِقَامَةً عَلَى دِينِهِ.



* صِفَةُ الْوَجْهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ:

الشَّرْحُ:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِإثْبَاتِ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى آيَتَيْنِ:

* الْآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].»

وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(١) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ﴿[الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يَنْبَغِي إِذَا قَرَأْتَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أَنْ تَصْلَحَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ حَتَّى يَتَبَيَّنَ نَقْصُ الْمَخْلُوقِ وَكَمَالُ الْخَالِقِ، وَذَلِكَ لِلتَّقَابُلِ، هَذَا فَنَاءٌ وَهَذَا بَقَاءٌ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٢) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦-٢٧].

* قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ «أَيُّ: لَا يَفْنَى.

وَالْوَجْهُ: مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ، لَكِنْ كَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ، لَا نَعْلَمُ كَيْفَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ، لَكِنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّهُ وَجْهًا مَوْصُوفًا بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَمَوْصُوفًا بِالْبَهَاءِ وَالْعَظَمَةِ وَالنُّورِ الْعَظِيمِ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عَزَّجَلَّ يوم القيامة، رقم (٧٥١٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«سُبْحَاتُ وَجْهِهِ» يعني: بهاءُهُ وَعَظَمَتُهُ وَجَلَالُهُ وَنُورُهُ.

«مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»: وَبَصَرُهُ يَنْتَهِي إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْهِ: فَلَوْ كَشَفَ هَذَا الْحِجَابَ - حِجَابَ النُّورِ عَنْ وَجْهِهِ - لَأَخْتَرَقَ كُلُّ شَيْءٍ.

لهَذَا نقول: هَذَا الْوَجْهُ وَجْهُ عَظِيمٌ، لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يُبَالِغَ أَوْجُهُ الْمَخْلُوقَاتِ.

وبناءً عَلَى هَذَا نقول: مِنْ عَقِيدَتِنَا أَنَّنَا نُنْبِتُ أَنَّ اللَّهَ وَجْهًا حَقِيقَةً، وَنَأْخُذُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَتَنَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وَنَقُولُ بَأَنَّ هَذَا الْوَجْهَ لَا يُبَالِغُ أَوْجُهُ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَنَجْهَلُ كَيْفِيَّةَ هَذَا الْوَجْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فإِنْ حَاوَلَ أَحَدٌ أَنْ يَتَصَوَّرَ هَذِهِ الْكَيْفِيَّةَ بِقَلْبِهِ، أَوْ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْهَا بِلِسَانِهِ قُلْنَا: إِنَّكَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ، قَائِلٌ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَا نَعْلَمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهُنَا قَالَ: ﴿وَبَتَنَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ أَضَافَ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذِهِ الرُّبُوبِيَّةُ أَخْصَصَ مَا يَكُونُ مِنْ أَنْوَاعِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، وَالْخَاصَّةُ: خَاصَّةٌ أَخْصَصَ، وَخَاصَّةٌ فَوْقَ ذَلِكَ؛ كَرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِرُسُلِهِ، فَالرُّبُوبِيَّةُ الْأَخْصَصُ أَفْضَلُ بِلَا شَكٍّ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو﴾: صِفَةٌ لـ (وَجْهِهِ) وَالدَّلِيلُ الرَّفْعُ، وَلَوْ كَانَتْ صِفَةً لِلرَّبِّ لَقَالَ: ذِي الْجَلَالِ، كَمَا قَالَ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: ﴿نَبَرَكَ أَتَمَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ذُو الْجَلَلِ﴾ عَلِمْنَا أَنَّهُ وَصَفَ لِلْوَجْهِ.

* ﴿الْجَلَلِ﴾ معناها: الْعَظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ.

* ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ هِيَ مَصْدَرٌ مِنْ أَكْرَمَ، صَالِحَةٌ لِلْمُكْرَمِ وَالْمُكْرَمِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُكْرَمٌ، وَإِكْرَامُهُ تَعَالَى الْقِيَامُ بِطَاعَتِهِ، وَمُكْرَمٌ لَنْ يَسْتَحِقَّ الْإِكْرَامَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ.

فَهُوَ جَلَالُهُ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ أَهْلٌ لَأَنْ يُكْرَمَ وَيُثْنَى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِكْرَامُ كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ، فَإِكْرَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ تَقْدَرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَأَنْ تُعْظَمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، لَا لاختِيَاغِهِ إِلَى إِكْرَامِكَ، وَلَكِنْ لِيَمُنَّ عَلَيْكَ بِالْجِزَاءِ.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨].

* قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أَي: فَإِنْ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

* «قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تَوَازِي قَوْلُهُ: ﴿وَبَنَعَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

فَالْمَعْنَى: كُلُّ شَيْءٍ فَانٍ وَزَائِلٌ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَإِنَّهُ بَاقٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَهُ الْخَكْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٨٨]، فَهُوَ الْحَكْمُ الْبَاقِي الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ.

وَقِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَي: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ. قَالُوا: لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨] كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُشْرِكْ بِهِ؛ لِأَنَّ عَمَلَكَ وَإِشْرَاكَكَ هَالِكٌ، أَي: ضَائِعٌ سُدًى، إِلَّا مَا أَخْلَصْتَهُ لَوَجْهِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَبْقَى؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَهُ ثَوَابٌ بَاقٍ لَا يَفْنَى فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ.

وَلَكِنْ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَسَدُّ وَأَقْوَى.

وَعَلَى طَرِيقَةٍ مَنْ يَقُولُ بِجَوَازِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنِيهِ نَقُولُ: يُمَكِّنُ أَنْ نَحْمِلَ الْآيَةَ عَلَى الْمَعْنَيْنِ؛ إِذْ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَتُحْمَلُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، فَيَقَالُ: كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ يَذْهَبُ هَبَاءً إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ.

وَعَلَى أَيِّ التَّقْدِيرَيْنِ فَبِالْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّائِيَةِ الْخَبَرِيَّةِ الَّتِي مُسَمَّاهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا أِبْعَاضٌ وَأَجْزَاءٌ، وَلَا نَقُولُ: مِنَ الصِّفَاتِ الدَّائِيَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ. وَلَوْ قُلْنَا بِذَلِكَ لَكُنَّا نُوَافِقُ مَنْ تَأَوَّلَهُ تَحْرِيفًا، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهَا بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ، أَوْ: جُزْءٌ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوهِمُ نَقْصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هَذَا وَقَدْ فَسَّرَ أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَجْهَ اللَّهِ بِثَوَابِهِ، فَقَالُوا: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ فِي الْآيَةِ الثَّوَابُ، كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى إِلَّا ثَوَابَ اللَّهِ!

فَفَسَّرُوا الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ صِفَةُ كِبَالٍ فَسَّرُوهُ بِشَيْءٍ مَخْلُوقٍ بَائِنٍ عَنِ اللَّهِ، قَابِلٍ لِلْعَدَمِ وَالْوُجُودِ، فَالثَّوَابُ حَدِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَجَائِزٌ أَنْ يَرْتَفِعَ، لَوْلَا وَعْدُ اللَّهِ بِقَائِهِ لَكَانَ مِنْ حَيْثُ الْعَقْلُ جَائِزًا أَنْ يَرْتَفِعَ، أَعْنِي: الثَّوَابُ!

فَهَلْ تَقُولُونَ الْآنَ: إِنَّ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ بَابِ الْمُمَكِّنِ أَوْ مِنْ بَابِ الْوَاجِبِ؟

إِذَا فَسَّرُوهُ بِالثَّوَابِ صَارَ مِنْ بَابِ الْمُمَكِّنِ الَّذِي يَجُوزُ وَجُودُهُ وَعَدَمُهُ، وَقَوْلُهُمْ مَرْدُودٌ بِمَا يَلِي:

أَوَّلًا: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ؛ فَإِنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ أَنَّ هَذَا وَجْهٌ خَاصٌّ، وَلَيْسَ هُوَ الثَّوَابُ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، فَمَا مِنْ السَّلَفِ أَحَدٌ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الثَّوَابُ! وَهَذِهِ كُتُبُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا مَرْبُورَةٌ مَحْفُوظَةٌ، أَخْرَجُوا لَنَا نَصًّا عَنِ الصَّحَابَةِ أَوْ عَنْ أُنَمَّةِ التَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَتَاهُمْ فَسَّرُوا هَذَا التَّفْسِيرَ! لَنْ تَجِدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا أَبَدًا.

ثَالِثًا: هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ الثَّوَابُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]؟! لَا يُمَكِّنُ. لَوْ قُلْنَا مَثَلًا: جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ ذُو جَلَالٍ وَإِكْرَامٍ! فَهَذَا لَا يَجُوزُ أَبَدًا، وَاللَّهُ تَعَالَى وَصَفَ هَذَا الْوَجْهَ بِأَنَّهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رَابِعًا: نَقُولُ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١)؟ فَهَلِ الثَّوَابُ لَهُ هَذَا النُّورُ الَّذِي يَخْرِقُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُ اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ؟! أَبَدًا، وَلَا يُمَكِّنُ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ»، رَقْمُ (١٧٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبهذا عرفنا بطلان قولهم، وأن الواجب علينا أن نُفسّر هذا الوجه بما أَرَادَهُ اللهُ بِهِ، وهو وجه قائم به تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مَوْصُوفٌ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فإن قلت: هل كُلُّ مَا جَاءَ مِنْ كَلِمَةِ (الوجه) مُضَافًا إِلَى اللهِ يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ؟

فالجواب: هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتِنَاءً مِنْ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢١-٢٢]... وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

فَالْأَصْلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الْمُضَافِ إِلَى اللهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّجَلَّ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، لَكِنْ هُنَاكَ كَلِمَةٌ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ بِعَيْنِي: إِلَى أَيِّ مَكَانٍ تُولُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ ﴿فَتَمَّ﴾ أَيُّ: فَهُنَاكَ وَجْهُ اللهِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْوَجْهَ بِمَعْنَى الْجِهَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةً هُوَ مُوَلِّهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، فَاَلْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الْجِهَةُ، أَيُّ: فَتَمَّ جِهَةُ اللهِ، أَيُّ: فَتَمَّ الْجِهَةُ الَّتِي يَقْبَلُ اللهُ صَلَاتَكُمْ إِلَيْهَا.

قَالُوا: لَا تَمَّا تَزَلْتُمْ فِي حَالِ السَّفَرِ، إِذَا صَلَّى الْإِنْسَانُ النَّافِلَةَ فَإِنَّهُ يُصَلِّي حَيْثُ كَانَ وَجْهَهُ، أَوْ إِذَا اسْتَبْهَتِ الْقِبْلَةُ فَإِنَّهُ يَتَحَرَّى وَيُصَلِّي حَيْثُ كَانَ وَجْهَهُ.

وَلَكِنْ الصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ هُنَا وَجْهُ اللهِ الْحَقِيقِيُّ، أَيُّ: إِلَى أَيِّ جِهَةٍ تَتَوَجَّهُونَ فَتَمَّ وَجْهُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلِأَنَّهُ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ^(١)؛ وَلِهَذَا تَمَّى أَنْ يَبْصُقَ أَمَامَ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب حك البزاق من المسجد، رقم (٤٠٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، رقم (٥٤٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فَإِذَا صَلَّيْتَ فِي مَكَانٍ لَا تَذَرِي أَيْنَ الْقِبْلَةَ، وَاجْتَهَدْتَ وَتَحَرَّيْتَ، وَصَلَّيْتَ، وَصَارَتْ الْقِبْلَةُ فِي الْوَاقِعِ خَلْفَكَ، فَاللَّهُ يَكُونُ قِبَلَ وَجْهِكَ، حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالِ.
وَهَذَا مَعْنَى صَحِيحٍ مُوَافِقٍ لظَاهِرِ الْآيَةِ.
وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ لَا يُجَالِفُهُ فِي الْوَاقِعِ.

إِذَا قُلْنَا: فَتَمَّ جِهَةُ اللَّهِ، وَكَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ، سِوَاءِ كَانَ هَذَا الدَّلِيلُ تَفْسِيرَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، أَوْ كَانَ الدَّلِيلُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ -فَإِنَّكَ إِذَا تَوَجَّهْتَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاتِكَ فِيهِ جِهَةُ اللَّهِ الَّتِي يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاتَكَ إِلَيْهَا، فَتَمَّ أَيْضًا وَجْهُ اللَّهِ حَقًّا، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَعْنِيَانِ لَا يَتَنَافَيَانِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ الْعَظِيمَ الْمَوْصُوفَ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَجْهٌ لَا يُمَكِّنُ الْإِحَاطَةَ بِهِ وَضْفًا، وَلَا يُمَكِّنُ الْإِحَاطَةَ بِهِ تَصَوُّرًا، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ تُقَدِّرُهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ وَأَعْظَمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ- عَلَمًا﴾ [طه: ١١٠].

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]؟ إِنْ قُلْتَ: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ فَيُخْشَى أَنْ تَكُونَ حَرَفَتْ. وَإِنْ أَرَدْتَ بِالْوَجْهِ نَفْسَ الصِّفَةِ أَيْضًا وَقَعْتَ فِي مَخْطُورٍ -وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ لَا يَقْدُرُونَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ؛ حَيْثُ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ يَفْنَى إِلَّا وَجْهَهُ- فَمَاذَا تَصْنَعُ؟!

فَالْجَوَابُ: إِنْ أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ: إِلَّا ذَاتَهُ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْقَى هُوَ نَفْسُهُ مَعَ إِبْنَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ، فَهَذَا صَحِيحٌ، وَيَكُونُ هُنَا عَبْرٌ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ لِمَنْ لَهُ وَجْهٌ.
وَإِنْ أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ: الذَّاتُ: أَنَّ الْوَجْهَ عِبَارَةٌ عَنِ الذَّاتِ بِدُونِ إِبْنَاتِ الْوَجْهِ، فَهَذَا تَحْرِيفٌ وَغَيْرُ مَقْبُولٍ.

وَعَلَيْهِ فَنَقُولُ: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَيُّ: إِلَّا ذَاتُهُ الْمُتَّصِفَةُ بِالْوَجْهِ، وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ أَهْلِ التَّحْرِيفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ، وَلَا وَجْهَ لَهُ، وَنَحْنُ نَقُولُ: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ لِأَنَّ لَهُ وَجْهًا، فَعَبَّرَ بِهِ عَنِ الذَّاتِ.

* إثبات اليدين لله تعالى:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لإثبات اليدين لله تعالى آيتين:

الآية الأولى:

«قَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥].»

* «﴿مَا مَنَعَكَ﴾»: الخِطَابُ لِإِبْلِيسَ.

* و«مَا»: اسْتِفْهَامٌ لِلتَّوْبِيخِ، يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾» وَلَمْ يَقُلْ: لِمَنْ خَلَقْتُ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا آدَمَ، بِاعْتِبَارِ وَصْفِهِ الَّذِي لَمْ يَسْرُكْهُ أَحَدٌ فِيهِ، وَهُوَ خَلَقَ اللَّهُ إِيَّاهُ بِيَدِهِ، لَا بِاعْتِبَارِ شَخْصِهِ.

وَلِهَذَا لَمَّا أَرَادَ إِبْلِيسُ النَّيْلَ مِنْ آدَمَ وَحَطَّ قَدْرَهُ قَالَ: «﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

[الإسراء: ٦١].»

وَنَحْنُ قَدْ قَرَّرْنَا أَنَّهُ إِذَا عَبَّرَ بـ(ما) عَمَّا يَعْقِلُ فَإِنَّهُ يُلَاحَظُ فِيهِ مَعْنَى الصِّفَةِ لَا مَعْنَى الْعَيْنِ وَالشَّخْصِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «﴿فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾» [النساء: ٣] وَلَمْ يَقُلْ: (مَنْ)؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ عَيْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ الصِّفَةُ.

فَهُنَا قَالَ: «﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾» أَيُّ: هَذَا الْمَوْصُوفُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَكْرَمْتُهُ بِأَنْبِي خَلَقْتَهُ بِإِيدِي، وَلَمْ يَقْصِدْ: لِمَنْ خَلَقْتُ، أَيُّ: لِهَذَا الْآدَمِيِّ بَعَيْنِهِ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾»: هِيَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: بَرَيْتُ بِالْقَلَمِ. وَالْقَلَمُ آلَةُ الْبَرِّي، وَتَقُولُ: صَنَعْتُ هَذَا بِإِيدِي. فَالْيَدُ هُنَا آلَةُ الصَّنْعِ.

«﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾» يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَهُنَا قَالَ: «﴿بِإِيدِي﴾» وَهِيَ صِبْغَةُ تَثْنِيَّةٍ، وَحُذِفَتِ النُّونُ مِنَ التَّثْنِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الْإِضَافَةِ، كَمَا يُحْذَفُ التَّنْوِينُ، نَحْنُ عِنْدَمَا نُعْرِبُ الْمُثْنَى وَجَمْعَ الْمَذْكَرِ السَّالِمِ نَقُولُ: النُّونُ عَوَضٌ عَنِ التَّنْوِينِ فِي الْأَسْمِ الْمَفْرَدِ. وَالْعَوَاضُ لَهُ حُكْمُ الْمُعَوَّضِ، فَكَمَا أَنَّ التَّنْوِينَ يُحْذَفُ عِنْدَ الْإِضَافَةِ، فَنُونُ التَّثْنِيَّةِ وَالْجَمْعِ يُحْذَفُ عِنْدَ الْإِضَافَةِ.

في هذه الآية توبيخ إبليس في تركه السجود لها خلقه الله بيده، وهو آدم عليه الصلاة والسلام.

وفيها: إثبات صفة الخلق: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ﴾.

وفيها: إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى؛ اليدين اللتين بهما يفعل، كالخلق هنا. اليدين اللتين بهما يقبض: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وبهما يأخذ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربي الإنسان فلوله^(١).

وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾: فيها أيضاً تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام؛ حيث خلقه الله تعالى بيده.

قال أهل العلم: وكتب الله التوراة بيده، وعرس جنة عدن بيده^(٢).

فهذه ثلاثة أشياء، كلها كانت بيد الله تعالى.

ولعلنا بالمتأنسة لا ننسى ما مر من قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(٣)، وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين في تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة

(١) لما أخرجه كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَحَدُكُمْ لِيَتَصَدَّقَ بِالتَّمْرَةِ مِنْ طَيْبٍ، وَلَا يَقْبَلِ اللَّهُ إِلَّا طَيْبًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَرْبِيهَا كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلْوَهُ أَوْ فُصِيلَهُ حَتَّى تَصِيرَ مِثْلَ أُحَدٍ».

(٢) أما كتابة التوراة فأخرجه البخاري: كتاب القدر، باب نحاح آدم وموسى عند الله، رقم (٦٦١٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليها السلام، رقم (٢٦٥٢ / ١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «وخط لك بيده».

وأما خلق جنة عدن، فأخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (ص: ٣٥)، والأجري في الشريعة رقم (٧٥٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢ / ٥٧٨ - ٥٧٩)، وابن بطة في الإبانة رقم (٢٢٩)، والحاكم (٢ / ٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٦٩٣)، عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً. وصححه الحاكم، ولم يتعقبه الذهبي، وهو كما قال، والحديث له حكم الرفع. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ١٤٧) رقم (١٢٧٢٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

وانظر «مختصر العلو» رقم (١٠٤)، و«حادي الأرواح» لابن القيم (ص: ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الَّتِي اخْتَارَهَا وَاعْتَنَى بِهَا؛ وَلِهَذَا أَضَافَهَا اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ إِضَافَةً تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ، كِإِضَافَةِ النَّاقَةِ وَالْبَيْتِ إِلَى اللَّهِ وَالْمَسَاجِدِ إِلَى اللَّهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّهُ عَلَى صُورَتِهِ حَقِيقَةٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ التَّمَثُّلُ.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ

يَشَاءُ ﴿[المائدة: ٦٤]».

﴿[الْيَهُودُ]﴾: هُمْ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

سُمُّوا يَهُودًا؛ قِيلَ: لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٥٦]، وَبَنَاءٌ عَلَى هَذَا يَكُونُ الْأِسْمُ عَرَبِيًّا؛ لِأَنَّ هَادِ يَهُودٌ - إِذَا رَجَعَ - عَرَبِيٌّ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَصْلَهُ يَهُودًا، اسْمُ أَحَدِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ، وَالْيَهُودُ مَنْ نُسِبُوا إِلَيْهِ، لَكِنْ عِنْدَ التَّعْرِيبِ صَارَتِ الذَّلَالُ دَالًّا، فَقِيلَ: يَهُودٌ.

وَأَيُّمَا كَانَ لَا يَهْمُنَا أَنْ أَصْلَهُ هَذَا أَوْ هَذَا.

وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْيَهُودَ هُمْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، اتَّبَعُوا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَهَؤُلَاءِ الْيَهُودُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عُتُوًّا وَنُفُورًا؛ لِأَنَّ عُتُوَّ فِرْعَوْنَ وَتَسَلُّطَهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ ذَلِكَ يَنْطَبِعُ فِي نَفُوسِهِمْ، وَصَارَ فِيهِمْ الْعُتُوُّ عَلَى النَّاسِ، بَلْ وَعَلَى الْخَالِقِ عَزَّجَلْ، فَهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِأَوْصَافِ الْعُيُوبِ - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - وَهُمْ أَهْلُهَا.

يَقُولُونَ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أَيُّ: مَحْبُوسَةٌ عَنِ الْإِنْفَاقِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جَعَلَ بَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] أَيُّ: مَحْبُوسَةٌ عَنِ الْإِنْفَاقِ.

وَقَالُوا: ﴿لَئِنْ اللَّهُ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١].

أَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ فَقَالُوا: لَوْلَا أَنَّهُمْ مَغْلُولَةٌ لَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَغْنِيَاءَ،

فَكُونُهُ يَجُودُ عَلَى زَنْدٍ وَلَا يَجُودُ عَلَى عَمْرٍو هَذَا هُوَ الْغُلُّ وَعَدَمُ الْإِنْفَاقِ!!

وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ؛ لَأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟﴾ [البقرة: ٢٤٥] فَقَالُوا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَبَّكَ افْتَقَرَ، صَارَ يَسْتَقْرِضُ مِنَّا. قَاتَلَهُمُ اللَّهُ!!

وَقَالَتِ الْيَهُودُ أَيْضًا: إِنَّ اللَّهَ عَاجِزٌ؛ لِأَنَّهُ حِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ اسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَجَعَلَ الْعُطْلَةَ مَحَلَّ عِيدٍ، فَصَارَ عِيدُهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ. قَاتَلَهُمُ اللَّهُ!!

هُنَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: ﴿يَدُ﴾: أَفْرَدُوهَا؛ لِأَنَّ الْيَدَ الْوَاحِدَةَ أَقْلُ عَطَاءٍ مِنَ الْيَدَيْنِ الثَّانِيَيْنِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ الْجَوَابُ بِالثَّنِيَّةِ وَالْبَسْطِ، فَقَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

وَلَمَّا وَصَفُوا اللَّهَ هَذَا الْعَيْبِ عَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا، فَقَالَ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أَيُّ: مُنِعَتْ عَنِ الْإِنْفَاقِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْيَهُودُ أَشَدَّ النَّاسِ جَمْعًا لِلْمَالِ وَمَنْعًا لِلْعَطَاءِ، فَهُمْ أَبْخَلُ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ شَحًّا فِي طَلَبِ الْمَالِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْفِقُوا فَلَسًا إِلَّا وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ سَيَكْسِبُونَ بِدَلَّةٍ دَرَاهِمًا، وَنَرَى نَحْنُ الْآنَ لَهُمْ جَمْعِيَّاتٌ كَبِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ، لَكِنْ هُمْ يُرِيدُونَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ وَالتَّبَرَعَاتِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، يُرِيدُونَ أَنْ يُسَيِّطِرُوا عَلَى الْعَالَمِ.

فإِذَنْ: لَا تَقُلْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ: كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ بِالنَّسْبَةِ لِلْيَهُودِ؟ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَنْدُلُونَ لِيَرْبَحُوا أَكْثَرَ.

* «وَلَعْنُوا يَمَا قَالُوا﴾: أَيُّ: طَرِدُوا وَأَبْعَدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمُنْطِقِ، فَهُمْ لَمَّا وَصَفُوا اللَّهَ بِالْإِمْسَاكِ طَرِدُوا وَأَبْعَدُوا عَنْ رَحْمَتِهِ، قِيلَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ كَمَا قُلْتُمْ لَا يُنْفِقُ؛ فَلَيْمَنْعَكُمْ رَحْمَتُهُ حَتَّى لَا يُعْطِيَكُمْ مِنْ جُودِهِ، فَعُوْقِبُوا بِأَمْرَيْنِ:

١- بِتَحْوِيلِ الْوَصْفِ الَّذِي عَابُوا بِهِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢- وَبِالزَّامِ لَهُمْ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِمْ، بِإِبْعَادِهِمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ حَتَّى لَا يَجِدُوا جُودَ اللَّهِ وَكَرَمَهُ وَفَضْلَهُ.

* «يَمَا قَالُوا﴾: الْبَاءُ هُنَا لِلْسَّبِيَّةِ، وَعَلَامَةُ الْبَاءِ الَّتِي لِلْسَّبِيَّةِ: أَنْ يَصِحَّ أَنْ يَلِيَهَا كَلِمَةٌ (سَبَبٌ).

و(مَا) هُنَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً، فَإِنْ كَانَتْ مَوْصُولَةً فَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: بِالَّذِي قَالُوهُ. وَإِنْ كَانَتْ مَصْدَرِيَّةً فَالْفِعْلُ يُحَوَّلُ إِلَى مَصْدَرٍ، أَيْ: بِقَوْلِهِمْ.

ثُمَّ أَبْطَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَعْوَاهُمْ، فَقَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

* ﴿بَلْ﴾: هُنَا لِلْإِضْرَابِ الْإِبْطَالِيِّ.

وَأَنْظُرْ كَيْفَ اخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَمْكِّحٍ بِالكَرَمِ، وَالْعَطَاءُ بِالْيَدَيْنِ أَكْمَلُ مِنَ الْعَطَاءِ بِالْيَدِ الْوَاحِدَةِ.

* و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: ضِدُّ قَوْلِهِمْ: ﴿مَعْلُولَةٌ﴾ فَيَدَا اللَّهِ تَعَالَى مَبْسُوطَتَانِ وَإِسْعَاتِ الْعَطَاءِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، سَحَاءٌ (كَثِيرَةُ الْعَطَاءِ) اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ»^(١).

مَنْ يُحْصِي مَا أَنْفَقَ اللَّهُ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟! لَا يُحْصِيهِ أَحَدٌ! وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْ سَكُمُ وَجِنُّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا غُمِسَ فِي الْبَحْرِ»^(٢).

وَلِنَنْظُرَ إِلَى الْخَيْطِ غُمِسَ فِي الْبَحْرِ، فَإِذَا نَزَعْتَهُ لَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ شَيْئًا أَبَدًا، وَمِثْلُ هَذِهِ الصَّيْغَةِ يُؤْتَى بِهَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي عَدَمِ النِّقْصِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ نَقْصِ الْبَحْرِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ، مُسْتَحِيلٌ أَنَّ الْبَحْرَ يَنْقُصَ بِهَذَا، فَمُسْتَحِيلٌ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقُصَ مُلْكُهُ إِذَا قَامَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، رقم (٧٤١١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عنه الإمام أحمد: «هو أشرف حديث لأهل الشام» «جامع العلوم والحكم» (٣٤/٢)، وقد توسع الإمام ابن رجب في شرحه في كتابه «جامع العلوم والحكم».

كُلُّ إِنْسَانٍ مِّنَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ، فَقَامُوا فَسَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَأُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِّنْ مُلْكِهِ شَيْئًا.

لَا تَقُلْ: «نَعَمْ؛ لَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ مُلْكِهِ إِلَى مُلْكِهِ» لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا الْمَرَادَ لَكَانَ الْكَلَامُ عَبَثًا وَلَغَوًا.

لَكِنِ الْمَعْنَى: لَوْ فُرِضَ أَنَّ هَذِهِ الْعَطَايَا الْعَظِيمَةَ أُعْطِيَتْ عَلَى أَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ مُلْكِ اللَّهِ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا.

وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى هُوَ الْأَوَّلَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ، فَمَعْرُوفٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَكَ عَشْرَةُ رِيَالٍ، أَخْرَجْتَهَا مِنَ الدَّرَجِ الْأَيْمَنِ إِلَى الدَّرَجِ الْأَيْسَرِ، وَقَالَ إِنْسَانٌ: إِنَّ مَالَكَ لَمْ يَنْقُصْ، لَقِيلَ: هَذَا لَغْوٌ مِنَ الْقَوْلِ!

الْمُهْمُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَوْ أَنَّ هَذَا الَّذِي أُعْطَاهُ السَّائِلِينَ خَارِجٌ عَنْ مُلْكِهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَيْسَ إِنْفَاقُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا نَحْصُلُ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالْمَتَاعِ، بَلْ كُلُّ مَا بَنَّا مِنْ نِعْمَةٍ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، سِوَاءَ كَانَتْ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ أَمْ الدُّنْيَا، فَذَرَأَتِ الْمَطَرِ مِنَ إِنْفَاقِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَحَبَّاتِ النَّبَاتِ مِنْ إِنْفَاقِ اللَّهِ.

أَفْبَعَدَ هَذَا يُقَالُ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؟!

لَا وَاللَّهِ! بَلْ يُقَالُ: إِنَّ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مَبْسُوطَتَانِ بِالْعَطَاءِ وَالنَّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى.

لَكِنْ إِذَا قَالُوا: لِمَا أُعْطِيَ زَيْدًا وَلَمْ يُعْطِ عَمْرًا؟

قُلْنَا: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ السُّلْطَانُ الْمَطْلُوقُ وَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَدًّا عَلَى شُبُهَتِهِمْ:

﴿يَتُوقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْطِيهِ كَثِيرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ قَلِيلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ وَسْطًا؛ تَبَعًا لِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ.

عَلَى أَنَّ هَذَا الَّذِي أُعْطِيَ قَلِيلًا لَيْسَ مَحْرُومًا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ فَاللَّهُ أُعْطَاهُ صِحَّةً وَسَمْعًا وَبَصَرًا وَعَقْلًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ النَّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَلَكِنْ لَطُغْيَانِ الْيَهُودِ

وَعُدَّوَانِهِمْ وَأَتَتْهُمْ لَمْ يُزَيِّرْهُوا اللَّهُ عَنْ صِفَاتِ الْعَيْبِ، قَالُوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

فَالْآيَتَانِ السَّابِقَتَانِ فِيهِمَا إِثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدَيْنِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ أَكْثَرَ مِنْ يَدَيْنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، فَأَيَّدِينَا هُنَا جَمْعٌ، فَلْنَأْخُذْ هَذَا الْجَمْعَ؛ لَأَنَّا إِذَا أَخَذْنَا بِالْجَمْعِ أَخَذْنَا بِالْمُثْنِيِّ وَزِيَادَةٍ، فَمَا هُوَ الْجَوَابُ؟

فَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: جَاءَتْ الْيَدُ مُفْرَدَةً وَمُثْنَةً وَجَمْعًا:

أَمَّا الْيَدُ الَّتِي جَاءَتْ بِالْإِفْرَادِ: فَإِنَّ الْمَفْرَدَ الْمُضَافَ يُفِيدُ الْعُمُومَ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا ثَبَتَ لِلَّهِ مِنْ يَدٍ، وَدَلِيلُ عُمُومِ الْمَفْرَدِ الْمُضَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ف﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾: مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فَهِيَ تَشْمَلُ كَثِيرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ إِذَنْ: فَمَا هِيَ وَاحِدَةٌ وَلَا أَلْفٌ وَلَا مِليونٌ وَلَا مِلايينٌ.

﴿يَدُ اللَّهِ﴾ نَقُولُ هَذَا الْمَفْرَدَ لَا يَمْنَعُ التَّعَدُّدُ إِذَا ثَبَتَ؛ لِأَنَّ الْمَفْرَدَ الْمُضَافَ يُفِيدُ الْعُمُومَ.

أَمَّا الْمُثْنِيُّ وَالْجَمْعُ فنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ إِلَّا يَدَانِ اثْنَتَانِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

فَفِي الْكِتَابِ:

فِي سُورَةِ (ص) قَالَ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وَالْمَقَامُ مَقَامُ تَشْرِيفٍ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ يَدَيْنِ لَذَكَرَهُ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَرْدَادَتِ الصِّفَةُ الَّتِي بِهَا خَلَقَ اللَّهُ هَذَا الشَّيْءَ أَزْدَادَ تَعْظِيمٍ هَذَا الشَّيْءَ.

وَأَيْضًا: فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ قَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالُوا:

﴿يَدُ اللَّهِ﴾ بِالْإِفْرَادِ، وَالْمَقَامُ مَقَامٌ يَقْتَضِي كَثْرَةَ النِّعَمِ، وَكَلَّمَا كَثُرَتْ وَسِيلَةُ الْعَطَاءِ كَثُرَ الْعَطَاءُ، فَلَوْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى أَكْثَرُ مِنْ اثْنَتَيْنِ لَذَكَرَهُمَا اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْعَطَاءَ بِالْيَدِ الْوَاحِدَةِ عَطَاءٌ، فَبِالْيَدَيْنِ أَكْثَرُ وَأَكْمَلُ مِنَ الْوَاحِدَةِ، وَبِالثَّلَاثِ -لَوْ قُدِّرَ- كَانَ أَكْثَرُ؛ فَلَوْ كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى أَكْثَرُ مِنْ اثْنَتَيْنِ لَذَكَرَهُمَا.

أَمَّا السُّنَّةُ: فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «يَطْوِي اللَّهُ تَعَالَى السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ وَالْأَرْضَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى»^(١).

قَالَ ﷺ: «كَلِمَاتُ يَدَيْهِ يَمِينٌ»^(٢).

وَلَمْ يَذْكُرْ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْنِ.

وَأَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَقَطْ بَدُونِ زِيَادَةٍ.

فَعِنْدَنَا النَّصُّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ، فَكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الْجَمْعِ ﴿وَمِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ [يس: ٧١]؟!

فَنَقُولُ: الْجَمْعُ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ:

فَإِمَّا أَنْ نَقُولَ بِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ اثْنَانِ، وَعَلَيْهِ ﴿وَمِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ لَا تَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ اثْنَتَيْنِ؛ بَعْضُهُ: لَا يَلْزَمُ أَنْ تَدُلَّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ اثْنَيْنِ، وَحِينَئِذٍ تُطَابِقُ الشَّيْئَةَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ.

فَإِذَا قُلْتَ: مَا حُجَّةُ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ الْجَمْعَ أَقَلُّهُ اثْنَانِ؟!

فَالْجَوَابُ: اخْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] وَهُمَا اثْنَتَانِ، وَالْقُلُوبُ جَمْعٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ قَلْبَانِ فَقَطْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] وَلَا لَامْرَأَةٍ كَذَلِكَ.

وَاخْتَجُّوا أَيْضًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] فـ﴿إِخْوَةٌ﴾ جَمْعٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ اثْنَانِ.

وَاخْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ جَمَاعَةَ الصَّلَاةِ تَحْضُلُ بِاثْنَيْنِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا خَلَقْتَ بَدَنِي﴾، رَقْمُ (٧٤١٣، ٧٤١٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رَقْمُ (٢٧٨٧، ٢٧٨٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَعَقُوبَةِ الْجَائِرِ .. رَقْمُ (١٨٢٧)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن جمهور أهل اللغة يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وإن خروج الجمع إلى الاثنين في هذه النصوص لسبب، وإلا فإن أقل الجمع في الأصل ثلاثة.

وإنما أن نقول: إن المراد بهذا الجمع التعظيم، تعظيم هذه اليد، وليس المراد أن الله تعالى أكثر من اثنتين.

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي: بما كسبوا، سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن، لكن يُعبرُ بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

ولهذا نقول: إن الأنعام التي هي الإبل لم يخلقها الله تعالى بيده، وفرق بين قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وبين قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ﴿فَمِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ كأنه قال: مما عملنا؛ لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد بـ ﴿بِيَدَيَّ﴾: اليدين دون الذات.

وبهذا يزول الإشكال في صفة اليد التي وردت بالإفراد والتثنية والجمع. فعلم الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل؛ وذلك لأن هذا مفرد مضاف فيعم كل ما ثبت لله من يد.

وأما بين التثنية والجمع فمن وجهين:

أحدهما: أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه - وهو الثلاثة فأكثر - بل المراد به التعظيم؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ و﴿تَحَنَّنَ﴾ و﴿فَلَنَّا﴾ وما أشبه ذلك، وهو واحد، لكن يقول هذا للتعظيم. أو يقال: إن أقل الجمع اثنان، فلا يحصل هنا تعارض.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فالأيد هنا بمعنى القوة، فهي مصدر أد يئيد، بمعنى: قوي، وليس المراد بالأيد صفة الله؛ ولهذا ما أضافها الله إلى نفسه، ما قال: بأيدينا بل قال: ﴿بِأَيْدِي﴾ أي: بقوة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [الفلم: ٤٢]، فإن لعلماء السلف في قوله: ﴿عَنْ سَاقٍ﴾ قولين:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّدَّةُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ سَاقُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَى سِيَاقِ الْآيَةِ مَعَ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ^(١) قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّاقِ هُنَا سَاقُ اللَّهِ. وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْآيَةِ بِمُفْرَدِهَا قَالَ: الْمُرَادُ بِالسَّاقِ الشَّدَّةُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنْتُمْ تُثْبِتُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدًا حَقِيقَةً، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ مِنَ الْأَيْدِي إِلَّا أَيَادِيَ الْمَخْلُوقِينَ، فَيَلْزِمُ مِنْ كَلَامِكُمْ تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ.

فَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: لَا يَلْزِمُ مِنْ إِبْثَابِ الْيَدِ لِلَّهِ أَنْ نُثَمِّلَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ إِبْثَابَ الْيَدِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَنَفْيُ مُثَالَّةِ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِينَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ وَالْحِسُّ:

■ أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

■ وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُثَابِلَ الْخَالِقَ الْمَخْلُوقُ فِي صِفَاتِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا يُعَدُّ عَيْبًا فِي الْخَالِقِ.

■ وَأَمَّا الْحِسُّ: فَكُلُّ إِنْسَانٍ يُشَاهِدُ أَيْدِيَ الْمَخْلُوقَاتِ مُتَفَاوِتَةً وَمُبَايِنَةً مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَضَخْمٍ وَدَقِيقٍ... إلخ، فَيَلْزِمُ مِنْ تَبَايُنِ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ وَتَفَاوُثِهِمْ مُبَايَنَةُ يَدِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ وَعَدَمُ مُثَالَّتِهِ لَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ بَابٍ أَوَّلَى.

هَذَا، وَقَدْ خَالَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي إِبْثَابِ الْيَدِ لِلَّهِ تَعَالَى أَهْلَ التَّعْطِيلِ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ، وَقَالُوا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُثَبَّتَ لِلَّهِ يَدًا حَقِيقَةً، بَلِ الْمُرَادُ بِالْيَدِ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَهُوَ الْقُوَّةُ!! أَوِ الْمُرَادُ بِالْيَدِ النِّعْمَةُ؛ لِأَنَّ الْيَدَ تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْقُوَّةِ وَعَلَى النِّعْمَةِ.

(١) حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَوْمِئِذٍ نَاصِرٌ ۚ﴾ [إِنْ رِئَا نَاطِرَةً]، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

ففي الحديث الصحيح - حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الطَّوِيلِ -: «أَنَّ اللَّهَ يُوجِي إِلَى عِيسَى أَبِي أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ»^(١)، والمعنى: لَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ، وَهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

وَأَمَّا الْيَدُ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ فَكَثِيرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ رَسُولِ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: «لَوْلَا يَدُكَ عِنْدِي لَمْ أُجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَتُكَ»^(٢)، يَعْنِي: نِعْمَةً. وَقَوْلُ الْمُتَنَبِّي:

وَكَمْ لظِلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُحَدِّثُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ^(٣)

وَالْمَانَوِيَّةُ: فِرْقَةٌ مِنَ الْمَجُوسِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الظُّلْمَةَ تَخْلُقُ الشَّرَّ، وَالنُّورَ يَخْلُقُ الْخَيْرَ. فَالْمُتَنَبِّي يَقُولُ: إِنَّكَ تُعْطِي فِي اللَّيْلِ الْعَطَايَا الْكَثِيرَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ؛ لِأَنَّ لَيْلَكَ يَأْتِي بِخَيْرٍ.

فَالْمَرَادُ بِيَدِ اللَّهِ: النِّعْمَةُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْيَدِ: الْيَدُ الْحَقِيقَةُ؛ لِأَنَّكَ لَوْ أَثْبَتَ اللَّهُ يَدًا حَقِيقَةً لَرِمَ مِنْ ذَلِكَ التَّجْسِيمِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى جِسْمًا، وَالْأَجْسَامُ مُتَبَايِلَةٌ، وَحِينَئِذٍ تَقَعُ فِيهَا نَهْيُ اللَّهِ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَضَرُّوْا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

وَنَحْنُ أَسْعَدُ بِالدَّلِيلِ مِنْكَ أَيُّهَا الْمُثْبِتُ لِلْحَقِيقَةِ!! نَحْنُ نَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عَنِ الْأَعْرَاضِ وَالْأَبْعَاضِ وَالْأَغْرَاضِ!! لَا تَحِدُ مِثْلَ هَذِهِ السَّجْعَةِ لَا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ. وَجَوَابُنَا عَلَى هَذَا مِنْ عِدَّةٍ وَجُوهٍ:

أَوَّلًا: أَنَّ تَفْسِيرَ الْيَدِ بِالْقُوَّةِ أَوْ النِّعْمَةِ مُحَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَمَا كَانَ مُحَالِفًا لظَاهِرِ اللَّفْظِ، فَهُوَ مَرْدُودٌ، إِلَّا بِدَلِيلٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب ذكر الدجال وصفة ما معه، رقم (٢٩٣٧)، عن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، ورسول قريش هو عروة بن مسعود.

(٣) ديوان المتنبي (ص: ٤٦٦).

ثانِيًا: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ: الْيَدَ الْحَقِيقِيَّةَ.

فَإِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: أَيْنَ إِجْمَاعُ السَّلَفِ؟ هَاتِ لِي كَلِمَةً وَاحِدَةً عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَوْ عُمَرَ أَوْ عُثْمَانَ أَوْ عَلِيٍّ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِيَدِ اللَّهِ الْيَدَ الْحَقِيقِيَّةَ!

أَقُولُ لَهُ: أَتَيْتَ لِي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُوَّةُ أَوِ النِّعْمَةُ. فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِذَلِكَ.

إِذَنْ: فَلَوْ كَانَ عَنْدهُمْ مَعْنَى مُخَالِفٍ لظَاهِرِ اللَّفْظِ لَكَانُوا يَقُولُونَ بِهِ، وَلَيُنْقَلِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا بِهِ عَلِمَ أَنَّهم أَخَذُوا بظاهرِ اللَّفْظِ، وَأَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وهذه فائدة عظيمة، وهي أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُنْقَلِ عَنِ الصَّحَابَةِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّهم لَا يَقُولُونَ بِسِوَاهِ؛ لِأَنَّهم الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بَلَّغَتْهم، وَخَاطَبَتْهم النَّبِيُّ ﷺ بَلَّغَتْهم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْهَمُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى ظَاهِرِهِمَا، فَإِذَا لَمْ يُنْقَلِ عَنْهُمْ مَا يُخَالِفُهُ كَانَ ذَلِكَ قَوْلَهُمْ.

ثالثًا: أَنَّهُ يَمْتَنِعُ غَايَةُ الْامْتِنَاعِ أَنْ يُرَادَ بِالْيَدِ النِّعْمَةُ أَوِ الْقُوَّةُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِي﴾ [ص: ١٧٥]؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ النِّعْمَةُ نِعْمَتَيْنِ فَقَطْ، وَنِعْمُ اللَّهِ لَا تُحْصَى!! وَيَسْتَلْزِمُ أَنَّ الْقُوَّةَ قُوَّتَانِ، وَالْقُوَّةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَتَعَدَّدُ! فَهَذَا التَّرْكِيبُ يَمْنَعُ غَايَةَ الْمَنْعِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْيَدِ الْقُوَّةُ أَوِ النِّعْمَةُ.

هَبْ أَنَّهُ قَدْ يُمَكِّنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أَنْ يُرَادَ بِهِمَا النِّعْمَةُ عَلَى تَأْوِيلٍ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِي﴾ النِّعْمَةُ أَبَدًا.

أَمَّا الْقُوَّةُ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْيَدَيْنِ الْقُوَّةُ فِي الْاِئْتِنِ جَمِيعًا، فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِي﴾؛ لِأَنَّ الْقُوَّةَ لَا تَتَعَدَّدُ.

رابعًا: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْيَدِ الْقُوَّةَ مَا كَانَ لَادَمَ فَضْلٌ عَلَى إِبْلِيسَ، بَلْ وَلَا عَلَى الْحَمِيرِ وَالْكَلابِ؛ لِأَنَّهم كُلَّهُمْ خُلِقُوا بِقُوَّةِ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْيَدِ الْقُوَّةَ مَا صَحَّ الْاِحْتِجَاجُ عَلَى

إِبْلِيسَ؛ إِذْ إِنَّ إِبْلِيسَ سَيَقُولُ: وَأَنَا يَا رَبِّ خَلَقْتَنِي بِقُوَّتِكَ، فَمَا فَضْلُهُ عَلَيَّ؟!

خَامِسًا: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْيَدَ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ جَاءَتْ عَلَى وَجْهِ مُتَنَوِّعَةٍ، يَمْتَنِعُ أَنْ يُرَادَ بِهَا النِّعْمَةُ أَوْ الْقُوَّةُ، فَجَاءَ فِيهَا ذِكْرُ الْأَصَابِعِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالْكَفِّ وَالْيَمِينِ، وَكُلُّ هَذَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْقُوَّةُ؛ لِأَنَّ الْقُوَّةَ لَا تُوصَفُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ.

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُحَرِّفِينَ الَّذِينَ قَالُوا: الْمُرَادُ بِالْيَدِ الْقُوَّةُ. بَاطِلٌ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْأُمُورِ الْخَرِيَّةِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهَا مَجَالٌ، وَمَا كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَتَعَرَّضَ لَهُ.



* إِنْثَابُ الْعَيْنَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى :

الشَّرْحُ:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِنْثَابِ الْعَيْنَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةَ آيَاتٍ.

الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]».

الْحِطَابُ هُنَا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَالصَّبْرُ: بِمَعْنَى الْحَبْسِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قُتِلَ صَبْرًا، أَيْ: قُتِلَ وَقَدْ حُبِسَ لِلْقَتْلِ.

فَالصَّبْرُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْحَبْسِ.

وَفِي الشَّرْعِ: قَالُوا: هُوَ الصَّبْرُ لِأَحْكَامِ اللَّهِ، يَعْنِي: حَبْسُ النَّفْسِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ.

وَأَحْكَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شَرْعِيَّةٌ وَكُونِيَّةٌ، وَالشَّرْعِيَّةُ: أَوَامِرُ وَنَوَاهٍ، فَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ

صَبْرٌ عَلَى الْأَوَامِرِ، وَالصَّبْرُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ صَبْرٌ عَنِ النَّوَاهِي.

وَالْكُونِيَّةُ: أَقْدَارُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيُصْبَرُ عَلَى أَقْدَارِهِ وَقَضَائِهِ.

وهذا معنى قول بعضهم: الصَّبْرُ ثلاثة أقسام: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: يَتَنَاوَلُ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ:

١- الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

٢- وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

٣- وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ.

أَي: اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ التَّقْسِيمَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ، وَقَالُوا: إِنَّ الصَّبْرَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ - دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

وَوَجْهُ الدُّخُولِ: أَنَّ الْحُكْمَ إِمَّا كَوْنِيٌّ وَإِمَّا شَرْعِيٌّ، وَالشَّرْعِيُّ أَوْامِرٌ وَنَوَاهٍ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرُهُ اللَّهُ عَزَّجَلْ بِأَوْامِرَ، وَنَهَاةً عَنْ نَوَاهٍ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ مَقْدُورَاتٍ:

فَالْأَوْامِرُ مِثْلُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وَهَذِهِ أَوْامِرٌ عَظِيمَةٌ، يَعْنِي: لَوْ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ: اعْبُدْ رَبَّكَ. فَإِنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْعِبَادَةِ، لَكِنِ الدَّعْوَةُ وَالتَّبْلِيغُ أَمْرٌ صَعْبٌ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَبُ فِي مُعَانَاةِ الْآخِرِينَ وَجِهَادِهِمْ، فَيَكُونُ صَعْبًا.

وَأَمَّا النَّوَاهِي: فَقَدْ نَهَاهُ عَنِ الشَّرِكِ، قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَجْطَرَّ عَنكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْأَحْكَامُ الْقَدَرِيَّةُ: فَقَدْ حَصَلَ عَلَيْهِ أَذَى مِنْ قَوْمِهِ، أَذَى قَوْلِيٍّ وَأَذَى فِعْلِيٍّ، لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا أَمْثَالُ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أَذَوْهُ بِالْقَوْلِ: بِالسُّخْرِيَّةِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَالتَّهْجِينِ، وَتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْهُ.

وَأَذَوْهُ بِالْفِعْلِ: كَانَ سَاجِدًا تَحْتَ الْكَعْبَةِ فِي آمِنٍ بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، سَاجِدًا لِرَبِّهِ، فَذَهَبُوا،

وَأَتُوا بَسَلَى النَّاقَةِ، وَوَضَعُوهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ^(١)!!

لَيْسَ هُنَاكَ أَبْلَغُ مِنْ هَذِهِ الْأَذْيَةِ، مَعَ الْعِلْمِ بَأَنَّهُ لَوْ يَدْخُلُ كَافِرٌ مُشْرِكٌ إِلَى الْحَرَمِ لَكَانَ عِنْدَهُمْ آمِنًا، لَا يُؤْذُونَهُ فِيهِ، بَلْ يُكْرَمُونُهُ وَيُطْعَمُونُهُ النَّبِيذَ وَيَسْقُونَهُ مَاءَ زَمْزَمَ!! وَمَحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَاجِدًا لِلَّهِ يُؤْذُونُهُ هَذَا الْأَذَى!!

كَانُوا يَأْتُونَ بِالْعِدْرَةِ وَالْأَتَانِ وَالْأَقْدَارِ يَضَعُونَهُ عِنْدَ عَتَبَةِ بَابِهِ!!

وَخَرَجَ إِلَى أَهْلِ الطَّائِفِ، وَمَاذَا صَارَ؟ صَارَ الْإِيذَاءُ الْعَظِيمُ، صَفَّ سَفَهَاؤُهُمْ وَغَلِمَاتُهُمْ عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقِ، وَجَعَلُوا يَزْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَهُ، فَلَمْ يُفَقْ إِلَّا فِي قَرْنِ الثَّعَالِبِ^(٢).

فَصَبَرَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ مُؤْمِنٌ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ هَذَا الْإِعْتِنَاءُ وَالْحِفَاوَةُ... أَكْرَمُ شَيْءٍ يُكْرَمُ بِهِ الْإِنْسَانُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: أَنْتَ بَعِيْنِي، أَنْتَ بَقْلَبِي... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

أَنْتَ بَعِيْنِي: مَعْنَاهُ أَنَا أَلْحِظُكَ بَعِيْنِي، وَهَذَا تَعْبِيرٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ، يَكُونُ تَمَامُ الْحِرَاسَةِ وَالْعِنَايَةِ وَالْحِفْظِ بِمِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ: أَنْتَ بَعِيْنِي.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، جَاءَ عَقِبَهُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بَسَلَى جَزُورٍ فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ».

(٢) لما أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أَحَدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقِيبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِيبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتَ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَى فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلِكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَى مَلِكُ الْجِبَالِ فَسَلِمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

إِذَنْ: قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يَعْنِي: فَإِنَّكَ مَحْرُوسٌ غَايَةَ الْحِرَاسَةِ، مَحْفُوظٌ غَايَةَ الْحِفْظِ.
﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أَعْيُنُنَا مَعَكَ، نَحْفَظُكَ، وَنَرَعَاكَ، وَنَعْتَنِي بِكَ.

فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِبْنَاتُ الْعَيْنِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّهَا جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ سَنَدُكُرِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الْعَيْنُ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ الْخَبَرِيَّةِ، الدَّائِيَّةُ: لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا. الْخَبَرِيَّةُ: لِأَنَّ مُسَاهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا أَجْزَاءً وَأَبْعَاضٌ.

فَالْعَيْنُ مَنَّا بَعْضٌ مِنَ الْوَجْهِ، وَالْوَجْهُ بَعْضٌ مِنَ الْجِسْمِ، لَكِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَمْ يَرِدْ، وَأَنَّهُ يُفْتَضِي التَّجْزِئَةَ فِي الْخَالِقِ، وَأَنَّ الْبَعْضَ أَوْ الْجُزْءَ هُوَ الَّذِي يَجُوزُ بَقَاءُ الْكُلِّ بِفَقْدِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُفْقَدَ، وَصِفَاتُ اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ تُفْقَدَ أَبَدًا، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ.

وَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَيْنَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَقَطْ، حِينَ وَصَفَ الدَّجَالَ وَقَالَ: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»^(١) وَفِي لَفْظٍ: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى»^(٢).

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ مَعْنَى (أَعْوَرُ) أَيُّ: مَعِيبٌ، وَلَيْسَ مِنْ عَوَرِ الْعَيْنِ!!
وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ تَحْرِيفٌ وَتَجَاهُلٌ لِلْفَظِّ الصَّحِيحِ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»^(٣) وَهَذَا وَاضِحٌ.

وَلَا يُقَالُ أَيْضًا: (أَعْوَرُ) بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا لَعَوَرِ الْعَيْنِ، أَمَّا إِذَا قِيلَ: (عَوْرٌ) أَوْ (عَوَارٌ) فَرَبَّمَا يُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ الْعَيْبِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَالِ، رَقْمُ (٧١٣١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَالِ وَصَفَتُهُ وَمَا مَعَهُ، رَقْمُ (٢٩٣٣)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، رَقْمُ (٣٤٣٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَالِ وَصَفَتُهُ وَمَا مَعَهُ، رَقْمُ (١٦٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، رَقْمُ (٣٤٣٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَالِ وَصَفَتُهُ وَمَا مَعَهُ، رَقْمُ (١٦٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الله تعالى عَيَّنَّ اثْنَتَيْنِ فقط.

ووجه الدلالة أنَّه لو كانَ لله أكثر من اثْنَتَيْنِ لكانَ البيانُ به أوضحَ مِنَ البيانِ بالعَوَرِ؛ لأنَّه لو كانَ لله أكثر من عَيْنَيْنِ لقالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَهُ أَغْنَى؛ لأنَّه إذا كانَ لَهُ أَغْنَى أكثر من اثْنَتَيْنِ صارَ وُضوحُ أَنَّ الدَّجَالَ لَيْسَ بِرَبِّ أَبَيَّنَّ.

وأيضاً: لو كانَ لله عَزَّجَلَّ أكثر من عَيْنَيْنِ لكانَ ذَلِكَ مِنْ كماله، وكانَ تَرْكُ ذِكْرِهِ تَفْوِيتاً لِلشَّاءِ عَلَى الله؛ لأنَّ الكثرةَ تَدُلُّ عَلَى القُوَّةِ والكَمالِ والنَّهَمِ، فلو كانَ لله أكثر من عَيْنَيْنِ لَبَيَّنَّا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لثَلَا يَفُوتُنَا اعتقادُ هَذَا الكمالِ، وهو الزائدُ عَلَى العَيْنَيْنِ الثَّانَتَيْنِ.

وذكرَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابِهِ (الصَّوَاعِقُ الْمُرْسَلَةُ) حَدِيثاً، لكنَّهُ ضَعِيفٌ؛ لاقْطَاعِهِ، وهو: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ قَامَ بَيْنَ عَيْنَيْ الرَّحْمَنِ...»^(١): «عَيْنِي»: هَذِهِ ثَنِيَّةٌ، لكنِ الحديثُ ضَعِيفٌ، واعْتِمَادُنَا فِي عَقِيدَتِنَا هَذِهِ عَلَى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ حَدِيثِ الدَّجَالِ؛ لأنَّه وَاضِحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

ولقد ذكرَ ذَلِكَ عُمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي (رَدِّهِ عَلَى بَشْرِ الْمَرْيَسِيِّ)، وكذلكَ أيضاً ذَكَرَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي (كِتَابِ التَّوْحِيدِ)، وذكرَ أيضاً إِجْمَاعَ السَّلَفِ عَلَى ذَلِكَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَأَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ، وَالْأَمْرُ فِي هَذَا وَاضِحٌ.

فَعَقِيدَتُنَا الَّتِي نَدِينُ اللهُ بِهَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَيَّنَّ اثْنَتَيْنِ، لَا زِيَادَةَ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ مِنَ السَّلَفِ مَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿بَاعَيْنَا﴾ بِقَوْلِهِ: بِمَرَأَى مَنَا. فَسَّرَهُ بِذَلِكَ أَيْمَةُ سَلَفِيَّوْنَ مَعْرُوفُونَ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ التَّخْرِيفَ مُحَرَّمٌ وَمُتَنَبِّعٌ، فَمَا الْجَوَابُ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُمْ فَسَّرُوهَا بِاللَّازِمِ، مَعَ إِبْتَاتِ الْأَصْلِ، وَهِيَ الْعَيْنُ، وَأَهْلُ التَّخْرِيفِ يَقُولُونَ: بِمَرَأَى مَنَا بَدُونِ إِبْتَاتِ الْعَيْنِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقُولُونَ: ﴿بَاعَيْنَا﴾: بِمَرَأَى مَنَا، مَعَ إِبْتَاتِ الْعَيْنِ.

(١) ذكره ابن القيم في كتاب «الصواعق» (١/٢٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقال الألباني في «الضعيفة» (١٠٢٤): «ضعيف جداً، أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (ص: ٢٤) والبخاري في «مسنده» (٥٥٣- كشف الأستار).

لكن ذكّر العين هنا أشدّ تأكيداً وعنايةً من ذكر مجرّد الرؤية؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

قالت المعطّلة: أجلبتكم علينا بالخيّل والرّجل في إنكاركم علينا التّأويل، وأنتم أولّتم، فأخرّجتم الآية عن ظاهرها، فالله يقول: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فخذوا بالظاهر، وإذا أخذتم بالظاهر كفرتم، وإذا لم تأخذوا بالظاهر تناقضتم، فمرة تقولون: يجوز التّأويل، ومرة تقولون: لا يجوز التّأويل، وتسمونه تحريفاً، وهل هذا إلّا تحكّم بدين الله؟!

قلنا: نأخذ بالظاهر، وعلى العين والرّأس، وهو طريقتنا، ولا نخالفه.

قالوا: الظاهر من الآية أن محمّداً ﷺ بعين الله، وسط العين، كما تقول: زيدٌ بالبيت، زيدٌ بالمسجد، فالباء للظرفيّة، فيكون زيدٌ داخل البيت وداخل المسجد، فيكون قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: داخل أعيننا! وإذا قلتم بهذا كفرتم؛ لأنكم جعلتم الله محلاً للخلايق، فأنتم حلوليّة، وإن لم تقولوا به؛ تناقضتم!

قلنا لهم: معاذ الله! ثمّ معاذ الله! ثمّ معاذ الله! أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن كفرتم؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفرٌ وضلالٌ فهو كافراً ضالّاً.

فأنتم ثوبوا إلى الله من قولكم: إن هذا هو ظاهر اللفظ! واسألوا جميع أهل اللّغة من الشعراء والخطباء: هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حالٌ في جفن العين؟! اسألوا من شئتم من أهل اللّغة أحياء وأمواتاً!!

فأنت إذا رأيت أساليب اللّغة العربيّة عرفت أن هذا المعنى الذي ذكره وأنزمونا به لا يرد في اللّغة العربيّة، فضلاً عن أن يكون مضافاً إلى الرّب عزّ وجلّ، فإضافته إلى الرّب كفرٌ منكّر، وهو منكّر لّغة وشرعاً وعقلاً.

فإن قيل: بماذا تُفسّرون الباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؟

قلنا: نفّسرها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعيني، يعني: أن عيني تصحبك وتنظر إليك،

لَا تَنْفَكْ عَنْكَ، فَاَلَمْعَنِي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: اصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ؛ فَإِنَّكَ حَوَاطٌ بِعِنَانَيْنَا وَبِرُؤُوسِنَا لَكَ بِالْعَيْنِ؛ حَتَّى لَا يَنَالَكَ أَحَدٌ بِسُوءٍ.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هُنَا لِلظَّرْفِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنِ اللَّهِ، وَهَذَا مُحَالٌ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خُوطِبَ بِذَلِكَ وَهُوَ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا قُلْتُمْ: إِنَّهُ كَانَ فِي عَيْنِ اللَّهِ! كَانَتْ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ كَذِبًا.

وَهَذَا وَجْهٌ آخَرُ فِي بُطْلَانِ دَعْوَى أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِي عَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى.
الآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [القم: ١٣-١٤].

* ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ أَيُّ: عَلَى سَفِينَةٍ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ كَانَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصْنَعُهَا، وَكَانَ يَمُرُّ بِهِ قَوْمُهُ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، فَيَقُولُ: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

صَنَعَهَا بِأَمْرِ اللَّهِ وَرِعَايَةِ اللَّهِ وَعِنَانِيهِ، وَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَأَصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فَاللَّهُ تَعَالَى يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَيُلْهِمُهُ كَيْفَ يَصْنَعُهَا.

وَوَصَفَهَا اللَّهُ هُنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾: ﴿ذَاتِ﴾: بِمَعْنَى: صَاحِبَةٍ، وَالْأَلْوَاحُ: الْحَشَبُ، وَالْدُّسْرُ: مَا يُرْبَطُ بِهِ الْحَشَبُ كَالْمَسَامِيرِ وَالْجِبَالِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْمَسَامِيرَ الَّتِي تُرْبَطُ بِهَا الْأَخْشَابُ^(١).

* ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: هَذَا الشَّاهِدُ: ﴿تَجْرِي﴾ أَيُّ: ذَاتُ الْأَلْوَاحِ وَالْدُّسْرِ بِأَعْيُنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ. وَالْمُرَادُ بِالْأَعْيُنِ هُنَا عَيْنَانِ فَقَطْ، كَمَا مَرَّ. وَمَعْنَى تَجْرِي بِهَا أَيُّ: مُصْحُوبَةٌ بِنَظَرِنَا بِأَعْيُنِنَا، فَالْبَاءُ هُنَا

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد واختاره ابن جرير. انظر: تفسير الطبري (١٢٣/٢٢)، وابن كثير (٤٧٧/٧).

لِلْمُصَاحِبَةِ، تَجْرِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَتَبَعَ مِنَ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا رَبَّهُ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القم: ١٠]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَفَنَحْنَا نُوحًا وَالسَّمَاءَ بِمَاءٍ مُّهِيمٍ ۖ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القم: ١١-١٢]، فَكَانَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ تَجْرِي بِعَيْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: وَحَمَلْنَاهُ عَلَى السَّفِينَةِ، أَوْ حَمَلْنَاهُ عَلَى فُلْكَ، بَلْ قَالَ: ﴿عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ؟﴾

وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا أَنْ نَقُولَ: عَدَلَ عَنِ التَّعْيِيرِ بِالْفُلْكِ وَالسَّفِينَةِ إِلَى التَّعْيِيرِ بِذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ؛ لَوْجُوهِ ثَلَاثَةٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: مُرَاعَاةٌ لِلآيَاتِ وَقَوَاصِلِهَا، فَلَوْ قَالَ: حَمَلْنَاهُ عَلَى فُلْكَ لَمْ تَتَنَاسَبْ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ مَا بَعْدَهَا وَلَا مَا قَبْلَهَا، وَلَوْ قَالَ: عَلَى سَفِينَةٍ كَذَلِكَ، لَكُنْ مِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ الْآيَاتِ فِي قَوَاصِلِهَا وَفِي كَلِمَاتِهَا قَالَ: ﴿عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ﴾.

الْوَجْهُ الثَّانِي: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ كَيْفَ يَصْنَعُونَ السُّفْنَ، وَبَيَانِ أَنَّهَا مِنَ الْأَنْوَاعِ وَالْمَسَامِيرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القم: ١٥]، فَأَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى عِلْمَهَا آيَةً لِلخَلْقِ يَصْنَعُونَ كَمَا أَلْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى نُوحًا.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: الْإِشَارَةُ إِلَى قُوَّتِهَا؛ حَيْثُ كَانَتْ مِنَ الْأَنْوَاعِ وَدُسْرِ، وَالتَّنْكِيرُ هُنَا لِلتَّعْظِيمِ. وَرُوعِي التَّرْكِيزُ عَلَى مَادَّتِهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ فِي ذِكْرِ الْوَصْفِ دُونَ الْمَوْصُوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَمْتَلِ سَعِيدَتٍ﴾ [سبأ: ١١] وَلَمْ يَقُلْ: دُرُوعًا؛ مِنْ أَجْلِ الْعِنَايَةِ بِفَائِدَةِ هَذِهِ الدَّرُوعِ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ سَابِغَةً تَامَّةً، فَهَذِهِ مِثْلُهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ نَقُولُ فِيهَا مَا قُلْنَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّاكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].»

الْخِطَابُ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَنِيَّ﴾: اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَنِيَّ﴾ يَعْنِي: أَنِّي أَحْبَبْتُكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنَ النَّاسِ، وَالْإِقْدَاءِ مِنَ اللَّهِ، أَيْ: أَنَّ مَنْ رَأَى أَنَّكَ أَحْبَبْتَ، وَشَاهِدُ هَذَا أَنَّ امْرَأَةً فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَتْهُ أَحَبَّتْهُ وَقَالَتْ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَيْمَنَ كُنْتُ أَنْ تَحْمِلُوا الْآيَةَ عَلَى الْمَعْنَيْنِ؟ لَقُلْنَا: نَعَمْ! بِنَاءٍ عَلَى الْقَاعِدَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْآيَةَ إِذَا كَانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا؛ فَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَحْبُوبٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمَحْبُوبٌ مِنَ النَّاسِ، إِذَا رَأَى النَّاسُ أَحْبُوهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمَعْنَيْنِ مُتَلَازِمَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَلْقَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ مَحَبَّتَهُ. وَيُرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَحَبَّهُ اللَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ.

* ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِصْنَعٍ عَلَى عَيْنِي﴾: الصُّنْعُ: جَعَلَ الشَّيْءَ عَلَى صِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، كَصُنْعِ صَفَائِحِ الْحَدِيدِ قُدُورًا، وَصُنْعِ الْحَشَبِ أُبُوتًا، وَصُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَصِنَاعَةُ الْبَيْتِ: بِنَاءُ الْبَيْتِ، وَصِنَاعَةُ الْحَدِيدِ: جَعْلُهَا أَوَانِيًّا مَثَلًا أَوْ مُحَرَّكَاتٍ، وَصُنْعُ الْآدَمِيِّ: مَعْنَاهُ التَّرْبِيَةُ الْبَدَنِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ: تَرْبِيَتُهُ الْبَدَنِيَّةُ بِالْغِذَاءِ، وَتَرْبِيَتُهُ الْعَقْلِيَّةُ بِالْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ رَبِّي عَلَى عَيْنِ اللَّهِ، لَمَّا انْقَطَعَتْ آلُ فِرْعَوْنَ حَمَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ قَتْلِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَضَى اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الَّذِي تُقَتِّلُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ سَيَرَبِّي فِي أَحْضَانِ آلِ فِرْعَوْنَ، فَالنَّاسُ يَقْتُلُونَ مِنْ أَجْلِهِ، وَهُوَ يَرَبِّي أَمِنًا فِي أَحْضَانِهِمْ. وَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ!!

وَمِنْ تَرْبِيَةِ اللَّهِ لَهُ: عُرِضَ عَلَى الْمَرَاضِعِ -النِّسَاءِ اللَّاتِي يُرْضِعُنَّهُ- وَلَكِنَّهُ مَا رَضَعَ مِنْ أَيٍّْ وَاحِدَةٍ: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، فَمَا رَضَعَ مِنْ امْرَأَةٍ قَطُّ، وَكَانَتْ أُخْتُهُ قَدْ انْتَدَبَتْ مِنْ قَبْلِ أُمِّهِ، فَارَأَتْهُمْ، وَقَالَتْ: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؟ قَالُوا: نَعَمْ، نَحْنُ نُوَدُّ هَذَا. فَقَالَتْ: انْتَبِعُونِي،

فَبِعُوهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آثَمِهِ كَيْ نَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]!

ولم يَرْضَعْ مِنْ امْرَأَةٍ قَطُّ، مَعَ أَنَّهُ رَضِيعٌ! لَكِنْ هَذَا مِنْ كِمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَصِدْقِ وَعْدِهِ؛
لَأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَالَ لَهَا: ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي الْبَرِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ١٧].

الْأُمُّ شَفَقَتْهَا عَلَى ابْنِهَا لَا أَحَدَ يَتَصَوَّرُهَا، قِيلَ لَهَا: اجْعَلِي ابْنَكَ فِي صُنْدُوقٍ، وَالْقِيهِ فِي
الْبَحْرِ، وَسَيَأْتِي إِلَيْكَ.

لَوْلَا الْإِيمَانُ الَّذِي مَعَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ مَا فَعَلَتْ هَذَا الشَّيْءَ! تُلْقِي ابْنَهَا فِي الْبَحْرِ! لَوْ أَنَّ ابْنَهَا
سَقَطَ فِي تَابُوتِهِ فِي الْبَحْرِ لَجَرَّتْهُ، فَكَيْفَ وَهِيَ الَّتِي تُلْقِيهِ؟! لَكِنْ لِثِقَتِهَا بِالرَّبِّ عَزَّجَلَّ وَوَعْدِهِ
الْقَتَّةِ فِي الْيَمِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِنُضَعَّ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بِالْأَفْرَادِ، هَلْ يُنَافِي مَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِهَا بِالْجَمْعِ؟!

الْجَوَابُ: لَا تَنَافِي؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَفْرَدَ الْمُضَافَ يَعْثُمُ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا ثَبَتَ لِلَّهِ مِنْ عَيْنٍ،
وَحِينَئِذٍ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْمَفْرَدِ وَبَيْنَ الْجَمْعِ أَوِ الثَّنِيَّةِ.

إِذَنْ: يَبْقَى النَّظَرُ بَيْنَ الثَّنِيَّةِ وَالْجَمْعِ، كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَهُمَا؟!

الْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: إِنْ كَانَ أَقَلُّ الْجَمْعِ اثْنَيْنِ، فَلَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: هَذَا الْجَمْعُ دَالٌّ
عَلَى اثْنَيْنِ، فَلَا يُنَافِيهِ. وَإِنْ كَانَ أَقَلُّ الْجَمْعِ ثَلَاثَةً فَإِنَّ هَذَا الْجَمْعَ لَا يُرَادُّ بِهِ الثَّلَاثَةُ، وَإِنَّمَا يُرَادُّ
بِهِ التَّعْظِيمُ وَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ صَمِيرِ الْجَمْعِ وَبَيْنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

وَقَدْ فَسَّرَ أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ الْعَيْنَ بِالرُّؤْيَةِ بِدُونِ عَيْنٍ، وَقَالُوا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بِرُؤْيَةِ
مَنَا، وَلَكِنْ لَا عَيْنَ، وَالْعَيْنُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُثَبَّتَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ جُزْءٌ مِنَ الْجِسْمِ، فَإِذَا
أَثْبَتْنَا الْعَيْنَ لِلَّهِ، أَثْبَتْنَا تَجَزُّؤَهُ وَجِسْمًا، وَهَذَا شَيْءٌ مُتَمَتِّعٌ، فَلَا يَجُوزُ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ الْعَيْنَ مِنْ بَابِ تَأْكِيدِ
الرُّؤْيَةِ، يَعْنِي: كَأَنَّمَا نَرَاكَ وَلَنَا عَيْنٌ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ!!

فَنَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجُهُ:

الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، أَيْ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَيْنِ مُجَرَّدُ الرُّؤْيَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّنَا إِذَا قُلْنَا بِأَنَّهَا الرُّؤْيَةُ، وَاثْبَتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ عَيْنًا فَلَا زِمَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَى بَيْنَكَ الْعَيْنِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا عَيْنٌ حَقِيقَةٌ.

— — — — —

* صِفَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِلَّهِ تَعَالَى :

الشَّرْحُ:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي إثْبَاتِ صِفَتَيْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ آيَاتٍ سَبْعًا:

الْآيَةُ الْأُولَى:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

* ﴿قَدْ﴾: لِلتَّحْقِيقِ.

وَالْمُجَادِلَةُ: هِيَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشْتَكِي زَوْجَهَا حِينَ ظَاهَرَ مِنْهَا.

وَالظَّهَارُ: أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لَزَوْجَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا.

وَكَانَ الظَّهَارُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا بَائِنًا، فَجَاءَتْ تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثُبِّنَ لَهُ كَيْفَ يُطَلَّقُهَا هَذَا الرَّجُلُ ذَلِكَ الطَّلَاقَ الْبَائِنَ وَهِيَ أُمُّ أَوْلَادِهِ، وَكَانَتْ تُحَاوِرُ النَّبِيَّ ﷺ، أَيْ: تُرَاجِعُهُ الْكَلَامَ، فَأَفْتَاهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِمَا أَفْتَاهَا بِهِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ فِي هَذَا إثْبَاتُ السَّمْعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ مَهْمَا بَعُدَتْ وَمَهْمَا خَفِيَتْ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسَّعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ؛

إِنِّي لَفِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، وَإِنِّي لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»^(١) هَذَا مَعْنَى حَدِيثِهَا.

وَالسَّمْعُ الْمُضَافُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

١ - سَمْعٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْمُوعَاتِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ إِذْرَاكَ الصَّوْتِ.

٢ - وَسَمْعٌ بِمَعْنَى الْاسْتِجَابَةِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ يُجِيبُ مَنْ دَعَاهُ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ صَوْتُ

يَنْطَلِقُ مِنَ الدَّاعِي، وَسَمِعَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، يَعْنِي: اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ سَمِعَهُ مُجَرَّدَ سَمَاعٍ فَقَطْ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا فَايِدَةَ مِنْهُ، بَلِ الْفَايِدَةُ أَنَّ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ الدُّعَاءَ.

فَالسَّمْعُ الَّذِي بِمَعْنَى إِذْرَاكَ الصَّوْتِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّهْدِيدُ.

وَالثَّانِي: مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّائِيدُ.

وَالثَّالِثُ: مَا يُقْصَدُ بِهِ بَيَانُ إِحَاطَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١ - أَمَّا مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّهْدِيدُ، فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ﴾

[آل عمران: ١٨١].

٢ - وَأَمَّا مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّائِيدُ، فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ

وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يُؤَيِّدَ مُوسَى وَهَارُونَ بِذِكْرِ كَوْنِهِ مَعَهُمَا يَسْمَعُ وَيَرَى، أَيْ:

يَسْمَعُ مَا يَقُولَانِ وَمَا يُقَالُ لَهُمَا، وَيَرَاهُمَا وَمَنْ أَرْسَلَا إِلَيْهِ، وَمَا يَفْعَلَانِ، وَمَا يُفْعَلُ بِهِمَا.

٣ - وَأَمَّا مَا يُقْصَدُ بِهِ بَيَانُ الْإِحَاطَةِ فَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي

تَجَادَلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

(١) أخرجه البخاري معلقاً: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، «الفتح» (١٣/ ٣٧٢)،

وقد وصله أحمد في «المسند» (٤٦/ ٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه:

في المقدمة، باب فيها أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨) بلفظ: «الحمد لله»، وأخرجه ابن ماجه أيضاً: كتاب الطلاق،

باب الظهار، رقم (٢٠٦٣) بلفظ: «تبارك».

الآية الثانية:

«قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].»

* «﴿لَقَدْ﴾»: جملة مؤكدة باللام، و(قَدْ)، والقسم المقدّر، تقديره: والله، فهي مؤكدة بثلاثة مؤكّدات.

وَالَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هُمُ الْيَهُودُ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ - فَهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ بِالْعَيْبِ، قَالُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وَسَبَبُ قَوْلِهِمْ هَذَا: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قَالُوا لِلرَّسُولِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَبَّكَ افْتَقَرَ، يَسْأَلُ الْقَرْضَ مِنَّا.

الآية الثالثة:

«قَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].»

* «﴿أَمْ﴾»: فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا مُتَّصِفَةٌ مَعْنَى (بَلْ) وَالْهَمْزَةُ، يَعْنِي: بَلْ أَيْحَسِبُونَ، فِيهَا إِضْرَابٌ وَفِيهَا اسْتِفْهَامٌ، أَي: بَلْ أَيْحَسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.

وَالسِّرُّ: مَا يُسِرُّهُ الْإِنْسَانُ إِلَى صَاحِبِهِ.

وَالنَّجْوَى: مَا يُنَاجِي بِهِ صَاحِبَهُ وَمُخَاطَبُهُ، فَهُوَ أَعْلَى مِنَ السِّرِّ.

وَالنَّدَاءُ: مَا يَرْفَعُ بِهِ صَوْتُهُ لِصَاحِبِهِ.

فَهَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: سِرٌّ وَمُنَاجَاةٌ وَنَدَاءٌ.

فَمَثَلًا: إِذَا كَانَ شَخْصٌ إِلَى جَانِبِكَ، وَسَارَرَتْهُ، أَي: كَلَّمَتْهُ بِكَلَامٍ لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ، تُسَمِّي هَذَا مُسَارَةً.

وَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ بَيْنَ الْقَوْمِ يَسْمَعُونَهُ كُلُّهُمْ وَيَتَجَادَبُونَهُ، سُمِّي مُنَاجَاةً.

وَأَمَّا الْمُنَادَاةُ: فَتَكُونُ مِنْ بَعِيدٍ لِبَعِيدٍ.

فَهُؤُلَاءِ يُسِرُّونَ مَا يَقُولُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، وَيَتَنَاجَوْنَ بِهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُهَدِّدًا
إِيَّاهُمْ: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ﴾.

﴿بَلَىٰ﴾: حَرْفُ إِيجَابٍ، يَعْنِي: بَلَى نَسْمَعُ، وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾
أَيُّ: عِنْدَهُمْ يَكْتُبُونَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا بِهِ يَتَنَاجَوْنَ، وَالْمُرَادُ بِالرُّسُلِ هُنَا الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِكِتَابَةِ
أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ، فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ إِبْتِثَاتٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.
الآيَةُ الرَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].»

الْخَطَابُ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِهَمَا: ﴿إِنِّي
مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أَيُّ: أَسْمَعُ مَا تَقُولَانِ، وَأَسْمَعُ مَا يُقَالُ لَكُمَا، وَأَرَأَيْتُمْ
أُرْسِلْتُمَا إِلَيْهِ، وَأَرَى مَا تَفْعَلَانِ، وَأَرَى مَا يُفْعَلُ بِكُمَا.
لَأنَّهُ إِمَّا أَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِمَا بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ، فَإِنْ كَانَ بِالْقَوْلِ فَهُوَ مَسْمُوعٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ
كَانَ بِالْفِعْلِ فَهُوَ مَرِيئٌ عِنْدَ اللَّهِ.
الآيَةُ الْخَامِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ بَرَى﴾ [العلق: ١٤].»

الضَّمِيرُ فِي ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يَعُودُ إِلَى مَنْ يُسَيَّرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى
عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿٢﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ
بَرَى ﴿٥﴾ [العلق: ٩-١٤]، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَبُو جَهْلٍ ^(١).

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِبْتِثَاتُ صِفَةِ الرُّؤْيَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالرُّؤْيَةُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ لَهَا مَعْنَيَانِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْعِلْمُ.

وَالثَّانِي: رُؤْيَاهُ الْمُبْصَرَاتِ، يَعْنِي: إِذْرَاكَهَا بِالْبَصَرِ.

فَمِنْ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]، فَالرُّؤْيَاهُ هُنَا رُؤْيَاهُ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ لَيْسَ جِسْمًا يُرَى، وَأَيْضًا هُوَ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ، فَمَعْنَى: ﴿وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾ أَي: نَعْلَمُهُ قَرِيبًا.

* وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَرَى﴾ فَهِيَ صَالِحَةٌ لِأَنَّ تَكُونَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَبِمَعْنَى الرُّؤْيَاهُ الْبَصَرِيَّةِ، وَإِذَا كَانَتْ صَالِحَةً لِكِلَاهُمَا، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا وَجَبَ أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا، فَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ يَرَى، أَي: يَعْلَمُ مَا يَقَعُ هَذَا الرَّجُلُ وَمَا يَقُولُهُ، وَيَرَاهُ أَيْضًا.

الآيَةُ السَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[الشعراء: ٢١٨-٢٢٠]».

قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

وَالرُّؤْيَاهُ هُنَا رُؤْيَاهُ الْبَصَرِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لَا تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِهِ حِينَ يَقُومُ، وَقَبْلَ أَنْ يَقُومَ، وَأَيْضًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ وَهُوَ يُؤَيِّدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّؤْيَاهُ هُنَا رُؤْيَاهُ الْبَصَرِ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ حِينَ يَقُومُ لِلصَّلَاةِ وَحَدُّهُ، وَحِينَ يَتَقَلَّبُ فِي الصَّلَاةِ مَعَ السَّاجِدِينَ فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ.

* ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: اللَّهُ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَفِي الْآيَةِ هُنَا ضَمِيرُ الْفَصْلِ (هُوَ) مِنْ فَوَائِدِهِ الْحَضَرُ، فَهَلِ الْحَضَرُ هُنَا حَقِيقِيٌّ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ حَضَرٌ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ مِنَ الْمَحْضُورِ فِي غَيْرِ الْمَحْضُورِ فِيهِ، أَوْ هُوَ إِضَافِيٌّ؟

الْجَوَابُ: هُوَ إِضَافِيٌّ مِنْ وَجْهِ، حَقِيقِيٌّ مِنْ وَجْهِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِ«السَّمِيعِ» هُنَا: ذُو السَّمْعِ

الكامِل المُنْدرِكُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، وَهَذَا هُوَ الْخَاصُّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْحَضَرُ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ حَقِيقِيٌّ، أَمَّا مُطْلَقُ السَّمْعِ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.

وَكَذَلِكَ ﴿عَلِيمٌ﴾ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلِيمٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] لَكِنِ الْعِلْمُ الْمُطْلَقُ -أَيِ: الْكَامِلُ- خَاصٌّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالْحَضَرُ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ حَقِيقِيٌّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْجَمْعُ بَيْنَ السَّمْعِ وَالرُّؤْيَى.

الآيَةُ السَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٥].»

وَالَّذِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٣-١٠٤].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ: قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيدٌ -يَعْنِي: مِنَ اللَّهِ تَعَالَى- لِلْمُخَالِفِينَ أَوْامِرَهُ، بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ سَتُعَرَّضُ عَلَيْهِ وَعَلَى الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا كَائِنٌ لَا حَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ يُظْهِرُ اللَّهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا.

وَالرُّؤْيَى هُنَا شَامِلَةٌ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالْبَصَرِيَّةِ.

فَفِي الْآيَةِ: إِبْتِاثُ الرُّؤْيَى بِمَعْنِيَّهَا: الرُّؤْيَى الْعِلْمِيَّةِ، وَالرُّؤْيَى الْبَصَرِيَّةِ.

وِخْلَاصُهُ مَا سَبَقَ مِنْ صِفَتِي السَّمْعِ وَالرُّؤْيَى:

أَنَّ السَّمْعَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

١- سَمْعٌ بِمَعْنَى الْاِسْتِجَابَةِ.

٢- وَسَمِعُ بِمَعْنَى إِذْرَاكِ الصَّوْتِ.

وَأَنَّ إِذْرَاكَ الصَّوْتِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ.

وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

١- رُؤْيَةٌ بِمَعْنَى الْعِلْمِ.

٢- وَرُؤْيَةٌ بِمَعْنَى إِذْرَاكِ الْمُبْصَرَاتِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ ثَابِتٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَالرُّؤْيَةُ الَّتِي بِمَعْنَى إِذْرَاكِ الْمُبْصَرَاتِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

■ قِسْمٌ يُقْصَدُ بِهِ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

■ وَقِسْمٌ يُقْصَدُ بِهِ الْإِحَاطَةُ وَالْعِلْمُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمَا يَعْظَمُكَ يَهْدِي إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا

بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

■ وَقِسْمٌ يُقْصَدُ بِهِ التَّهْدِيدُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ

مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤].

مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ بِصِفَتِي السَّمْعِ وَالرُّؤْيَةِ:

■ أَمَّا الرُّؤْيَةُ: فَنَسْتَفِيدُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ: الْخَوْفَ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ

يَرَانَا. وَالرَّجَاءَ عِنْدَ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَرَانَا. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ سَيُثَبِّتُنَا عَلَى هَذَا، فَتَقَوَّى عَزَائِمُنَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَتَضَعُفُ إِرَادَتُنَا لِمَعْصِيَتِهِ.

■ وَأَمَّا السَّمْعُ: فَالْأَمْرُ فِيهِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا آمَنَ بِسَمْعِ اللَّهِ اسْتَلْزَمَ إِيْمَانُهُ كِمَالَ

مُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَقُولُ؛ خَوْفًا وَرَجَاءً، خَوْفًا فَلَا يَقُولُ مَا يَسْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ مِنَ السُّوءِ، وَرَجَاءً فَيَقُولُ الْكَلَامَ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ عَزَّجَلَّ.



﴿ صِفَةُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْحَالِ لِلَّهِ تَعَالَى:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ثَلَاثَ صِفَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ: الْحَالِ، وَالْمَكْرِ، وَالْكَيْدِ.

الآيَةُ الْأُولَى: فِي الْحَالِ، وَهِيَ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].»

أَيُّ: شَدِيدُ الْأَخْذِ بِالْعُقُوبَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْحَالَ بِمَعْنَى الْمَكْرِ، أَيْ: شَدِيدُ الْمَكْرِ، وَكَأَنَّهُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ مَأْخُودٌ مِنَ الْحِيلَةِ، وَهِيَ أَنْ يَتَحَيَّلَ بِخُصْمِهِ؛ حَتَّى يُوقَعَ بِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى ظَاهِرٌ صَنِيعِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ.

وَالْمَكْرِ: قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِهِ: إِنَّهُ التَّوَصُّلُ بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْإِيقَاعِ بِالْخُصْمِ، يَغْنِي: أَنْ تَفْعَلَ أَسْبَابًا خَفِيَّةً تُتَوَقَّعُ بِخُصْمِكَ، وَهُوَ لَا يُحِسُّ وَلَا يَذَرِي، وَلَكِنَّهَا بِالنَّسْبَةِ لَكَ مَعْلُومَةٌ مُدَبَّرَةٌ.

وَالْمَكْرُ: يَكُونُ فِي مَوْضِعٍ مَذْحًا وَيَكُونُ فِي مَوْضِعٍ ذَمًّا، فَإِنْ كَانَ فِي مُقَابَلَةٍ مَنْ يَمْكُرُ فَهُوَ مَذْحٌ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّكَ أَنْتَ أَقْوَى مِنْهُ. وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ ذَمٌّ، وَيُسَمَّى حِيَانَةً.

وَلِهَذَا لَمْ يَصِفِ اللَّهُ نَفْسَهُ بِهِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ وَالتَّقْيِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وَلَا يُوصَفُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ مَاكِرٌ! لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَرِّ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ التَّسْمِيَةِ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّهُ كَائِدٌ. لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَرِّ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ التَّسْمِيَةِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ مَذْحًا فِي حَالٍ وَيَكُونُ ذَمًّا فِي حَالٍ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَصِفَ اللَّهَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ.

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فَهَذَا كَمَا؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: أَمْكُرُ الْمَاكِرِينَ. بَلْ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ فَلَا يَكُونُ مَكْرُهُ إِلَّا خَيْرًا؛ وَلِهَذَا يَصِحُّ أَنْ نَصِفَهُ بِذَلِكَ؛ فنقول: هُوَ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. أَوْ نَصِفُهُ بِصِفَةِ الْمَكْرِ فِي سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ، أَيْ: مُقَابَلَةِ

مَنْ يَمْكُرْ بِهِ، فنقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَاكِرٌ بِالْمَاكِرِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾.
الآية الثانية: فِي الْمَكْرِ، وهي:

قَوْلُهُ: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

هَذِهِ نَزَلَتْ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَكَرَ بِهِ الْيَهُودُ لِيَقْتُلُوهُ، وَلَكِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْظَمَ مِنْهُمْ مَكْرًا، رَفَعَهُ اللَّهُ، وَأَلْقَى شَبَّهُهُ عَلَى أَحَدِهِمْ، عَلَى الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ هَذَا الَّذِي يُرِيدُ الْقَتْلَ، وَإِذَا عِيسَى قَدْ رُفِعَ، فَدَخَلَ النَّاسُ، فَقَالُوا: أَنْتَ عِيسَى! قَالَ: لَسْتُ عِيسَى! فَقَالُوا: أَنْتَ هُوَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِ شَبَّهُهُ، فَقَتَلَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَكَانَ مَكْرُهُ عَائِدًا عَلَيْهِ ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

الآية الثالثة: فِي الْمَكْرِ أَيْضًا، وهي:

«قَوْلُهُ: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].»

هَذَا فِي قَوْمٍ صَالِحٍ، كَانَ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو النَّاسَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ تِسْعَةَ رَهْطٍ - أَيْ: أَنْفَارٍ - «تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ» [النمل: ٤٩]، يَعْنِي: لَنَقْتُلَنَّهُ بِاللَّيْلِ ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْ لَوِيتُمْ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ بِاللَّيْلِ فَمَا يُشَاهِدُونَهُ. لَكِنْ مَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ! قِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا لِيَقْتُلُوهُ، فَلَجَوْا إِلَى غَارٍ يَنْتَظِرُونَ اللَّيْلَ، انْطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْغَارُ، فَهَلَكُوا، وَصَالِحٌ وَأَهْلُهُ لَمْ يَمْسَهُمْ سُوءٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾.

و﴿مَكْرًا﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ مُنْكَرَةٌ لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ: مَكْرُوا مَكْرًا عَظِيمًا، وَمَكْرَنَا مَكْرًا أَعْظَمَ.

الآية الرابعة: فِي الْكِدِّ، وهي:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (٥٠) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].»

* ﴿يَنْهَى﴾ أي: كَفَّارَ مَكَّةَ. ﴿يَكِيدُونَ﴾ لِلرَّسُولِ ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ لَا تَظِيرَ لَهُ فِي التَّنْفِيرِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكِيدُ كَيْدًا أَعْظَمَ وَأَشَدَّ.
 * ﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا﴾ يعني: كَيْدًا أَعْظَمَ مِنْ كَيْدِهِمْ.
 وَمِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]: ثَلَاثَةٌ أَرَاءِ^(١):

١- ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني: يَحْسُبُوكَ.

٢- ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ يعني: يُعْدِمُوكَ.

٣- ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ يعني: يَطْرُدُوكَ.

وَكَانَ رَأْيُ الْقَتْلِ أَفْضَلَ الْأَرَاءِ عِنْدَهُمْ بِمَشُورَةِ إِبْلِيسَ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ جَاءَهُمْ بِصُورَةِ شَيْخٍ نَجْدِيٍّ، وَقَالَ لَهُمْ: انْتَجِبُوا عَشْرَةَ شُبَّانٍ مِنْ عَشْرِ قَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَعْطُوا كُلَّ وَاحِدٍ سَيْفًا، ثُمَّ يَعْمِدُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَقْتُلُونَهُ قِتْلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَضِيعُ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ بَنُو هَاشِمٍ أَنْ يَقْتُلُوا وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ، وَحِينَئِذٍ يَلْجَأُونَ إِلَى الدِّيَةِ، فَتَسْلُمُونَ مِنْهُ. فَقَالُوا: هَذَا الرَّأْيُ!! وَاجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ^(٢).

وَلَكِنَّهُمْ مَكَرُوا مَكْرًا وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْكُرُ خَيْرًا مِنْهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فَمَا حَصَلَ لَهُمْ الَّذِي يُرِيدُونَ! بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، يَذُرُّ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِ الْعَشْرَةِ هَؤُلَاءِ، وَيَقْرَأُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْرُجُ، فَاخْرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهِ^(٣).

(١) انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٥١).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٠)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥١)، وقد عناه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس.

(٣) مرسل بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي، انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٧)، وانظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٢٨).

إِذَنْ: صَارَ مَكْرُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَعْظَمَ مِنْ مَكْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُ أَنْجَى رَسُولُهُ مِنْهُمْ وَهَاجَرَ.

قَالَ هُنَا: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ١٠٥-١٠٦ [الطارق] وَالتَّنْكِيرُ فِيهَا لِلتَّعْظِيمِ، وَكَانَ كَيْدُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَعْظَمَ مِنْ كَيْدِهِمْ.

وَهَكَذَا يَكِيدُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِكُلِّ مَنْ انْتَصَرَ لِدِينِهِ، فَإِنَّهُ يَكِيدُ لَهُ وَيُوَيِّدُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] يَعْنِي: عَمِلْنَا عَمَلًا حَصَلَ بِهِ مَقْصُودُهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ.

وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَقِيَهُ شَرَّ خَصْمِهِ عَلَى وَجْهِ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ عَلَى هَذَا الْخَصْمِ الَّذِي أَرَادَ الْإِيْقَاعَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هُوَ تَعْرِيفُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمَحَالِ؟

فَالْجَوَابُ: تَعْرِيفُهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ: التَّوَسُّلُ بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْإِيْقَاعِ بِالْخَصْمِ. يَعْنِي: أَنْ تُوقِعَ بِخَصْمِكَ بِأَسْبَابٍ حَقِيقَةٍ لَا يَدْرِي عَنْهَا.

وَهِيَ فِي مَحَلِّهَا صِفَةٌ كَمَا لِيُحْمَدُ عَلَيْهَا، وَفِي غَيْرِ مَحَلِّهَا صِفَةٌ تَقْصِ يَدُّمُ عَلَيْهَا.

وَيُذَكِّرُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَارَزَ عَمْرُو بْنَ وَدٍّ -وَالْفَائِذَةُ مِنَ الْمُبَارَاةِ أَنَّهُ إِذَا غَلَبَ أَحَدُهُمَا انْكَسَرَتْ قُلُوبُ خُصُومِهِ- فَلَمَّا خَرَجَ عَمْرُو صَرَخَ عَلِيٌّ: مَا خَرَجْتُ لِأَبَارِزَ رَجُلَيْنِ، فَالْتَمَتَ عَمْرُو، فَلَمَّا التَّمَتَ ضَرَبَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَقَبَتِهِ حَتَّى أَطَاحَ بِرَأْسِهِ^(١)!

هَذَا خِدَاعٌ، لَكِنَّهُ جَائِزٌ، وَيُحْمَدُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَا خَرَجَ لِيُكْرِمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَهُيئَتُهُ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ لِيَقْتُلَهُ، فَكَادَ لَهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَالْمَكْرُ وَالْكَيْدُ وَالْمَحَالُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْفِعْلِيَّةِ الَّتِي لَا يُوصَفُ بِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَذْحًا فِي حَالٍ، وَذِمًّا فِي حَالٍ، فَيُوصَفُ بِهَا حِينَ تَكُونُ مَذْحًا، وَلَا يُوصَفُ بِهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ مَذْحًا، فَيُقَالُ: اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، خَيْرُ الْكَائِدِينَ. أَوْ يُقَالُ: اللَّهُ مَاكِرٌ بِالْمَاكِرِينَ، خَادِعٌ لِمَنْ يُخَادِعُهُ.

(١) انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٥٧٧ - الطبعة الجديدة/ مكتبة المعارف) للشیخ الألبانی.

والاستِهْزَاءُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ نُخْبِرَ عَنِ اللَّهِ بِأَنَّهُ مُسْتَهْزِئٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛
لأنَّ الاستِهْزَاءَ نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ، وَهُوَ مُنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، لَكِنْ فِي مُقَابَلَةٍ مَنْ يَسْتَهْزِئُ بِهِ يَكُونُ كِبَالًا، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] قَالَ اللَّهُ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُثَبِّتُونَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ.

لَكِنْ أَهْلُ التَّخْرِيفِ يَقُولُونَ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِهَا أَبَدًا، لَكِنْ ذِكْرُ مَكْرِ اللَّهِ
وَمَكْرِهِمْ مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ، مِثْلُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾
[المائدة: ١١٩].

وَنَحْنُ نَقُولُ لَهُمْ: هَذَا خِلَافُ ظَاهِرِ النَّصِّ، وَخِلَافُ إِجْمَاعِ السَّلَفِ.

وَقَدْ قُلْنَا سَابِقًا: إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَتَيْتَ لَنَا بِقَوْلٍ لِأَبِي بَكْرٍ أَوْ عُمَرُ أَوْ عُثْمَانُ أَوْ عَلِيٌّ يَقُولُونَ
فِيهِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالْخِدَاعِ الْحَقِيقَةُ!

فَنَقُولُ لَهُمْ: نَعَمْ، هُمْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ وَآمَنُوا بِهِ، وَكَوْنُهُمْ لَمْ يَقُولُوا هَذَا الْمَعْنَى الْمُبَادِرَ
إِلَى مَعْنَى آخَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَقْرَأُوا بِهِ، وَأَنَّ هَذَا إِجْمَاعٌ؛ وَلِهَذَا يَكْفِينَا أَنْ نَقُولَ فِي الْإِجْمَاعِ: لَمْ
يُنْقَلْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خِلَافُ ظَاهِرِ الْكَلَامِ، وَأَنَّهُ فَسَّرَ الرِّضَا بِالثَّوَابِ، أَوِ الْكَيْدَ بِالْعُقُوبَةِ...
وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ رُبَّمَا يُوْرِدُهَا عَلَيْنَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، يَقُولُونَ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ: هَذَا إِجْمَاعُ
السَّلَفِ، أَيْنَ إِجْمَاعُهُمْ؟

نَقُولُ: عَدَمُ نَقْلِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا عَنْهُمْ دَلِيلُ الْإِجْمَاعِ.

مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمَحَالِ:

الْمَكْرُ يَسْتَفِيدُ بِهِ الْإِنْسَانُ بِالنَّسْبَةِ لِلْأَمْرِ الْمَسْلُكِيِّ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَدَمُ التَّحِيلِ
عَلَى حِمَارِهِ، وَمَا أَكْثَرَ الْمُتَحِيلِينَ عَلَى الْمَحَارِمِ! فَهَؤُلَاءِ الْمُتَحِيلُونَ عَلَى الْمَحَارِمِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ

الله تعالى خَيْرٌ مِنْهُمْ مَكْرًا، وَأَسْرَعُ مِنْهُمْ مَكْرًا فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَتَّهَمُوا عَنِ الْمَكْرِ.
رَبًّا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ أَنَّهُ جَائِزٌ لَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَ
بِجَائِزٍ، فَيَخَافُ وَيَحْذَرُ.

وهذا له أمثلة كثيرة جدًا في البيوع والاتكحة، وغيرهما.

مثال ذلك في البيوع: رَجُلٌ جَاءَ إِلَى آخَرَ، قَالَ: أَفْرِضْنِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ. قَالَ:
لَا أَفْرِضُكَ إِلَّا بِائِنِّي عَشْرَ أَلْفًا! وَهَذَا رَبًّا وَحَرَامٌ سَيَتَجَبَّه؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ رَبًّا صَرِيحًا! لَكِنْ
بَاعَ عَلَيْهِ سِلْعَةً بِائِنِّي عَشْرَ أَلْفًا مُؤَجَّلَةً إِلَى سَنَةٍ بَيْنَعَا تَامًا، وَكُتِبَتِ الْوَثِيقَةُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ إِنَّ الْبَائِعَ
أَتَى إِلَى الْمُشْتَرِي، وَقَالَ: بِعْنِيهِ عَشْرَةَ آلَافٍ نَقْدًا. فَقَالَ: بِعْتُكَ إِيَّاهُ. وَكُتِبُوا بَيْنَهُمَا وَثِيقَةٌ
بِالْبَيْعِ!

فَظَاهِرُ هَذَا الْبَيْعِ الصَّحَّةُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: هَذِهِ حِيلَةٌ، فَإِنَّ هَذَا لَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ
يُعْطِيَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ بِائِنِّي عَشْرَ أَلْفًا، قَالَ: أبيعُ السِّلْعَةَ عَلَيْهِ بِائِنِّي عَشْرَ، وَاشْتَرَيْتَهَا نَقْدًا بِعَشْرَةٍ.
رَبًّا يَسْتَمِيرُ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ؛ لِأَنَّهَا أَمَامَ النَّاسِ مُعَامَلَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، لَكِنَّهَا
عِنْدَ اللَّهِ تَحِيلٌ عَلَى مُحَارِمِهِ، وَقَدْ يُعْلِي اللَّهُ تَعَالَى لِهَذَا الظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، يَعْنِي:
يَزْرُقُهُ يَنْمُو مَالُهُ وَيَزْدَادُ وَيَنْمُو هَذَا الرَّبَّا، لَكِنْ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ
خَسَارَةً عَلَيْهِ فِيمَا بَعْدَ، وَمَالُهُ إِلَى الْإِفْلَاسِ، وَمِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ: مَنْ
عَاشَ فِي الْحِيلَةِ مَاتَ فَقِيرًا.

مثال في الاتكحة: امْرَأَةٌ طَلَّقَتْهَا زَوْجُهَا ثَلَاثًا، فَلَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ، فَجَاءَ صَدِيقٌ لَهُ،
فَتَزَوَّجَهَا بِشَرْطِ أَنَّهُ مَتَى حَلَّلَهَا -يعني: متى جامعها- طَلَّقَهَا، ففَعَلَ، فَتَزَوَّجَ بِعَقْدٍ وَشُهُودٍ
وَمَهْرٍ، وَدَخَلَ عَلَيْهَا، وَجَامَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا، وَلَمَّا طَلَّقَهَا أَتَتْ بِالْعِدَّةِ، وَتَزَوَّجَهَا الْأَوَّلُ؛ فَإِنَّهَا
ظَاهِرًا حِلٌّ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ، لَكِنَّهَا بَاطِنًا لَا تَحِلُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ حِيلَةٌ.

فَمَتَى عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ أَسْرَعُ مَكْرًا، وَأَنَّ اللَّهَ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ أَوْ جَبَ لَنَا ذَلِكَ أَنْ نَبْعِدَ غَايَةَ
الْبُعْدِ عَنِ التَّحِيلِ عَلَى مُحَارِمِ اللَّهِ.

* صِفَةُ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي صِفَةِ الْعَفْوِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ:
الآيَةُ الْأُولَى: فِي الْعَفْوِ وَالْقُدْرَةِ:

قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

يعني: إِنْ تَفْعَلُوا خَيْرًا فَتُبْدُوهُ، أَيْ: تُظْهِرُوهُ لِلنَّاسِ ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ يعني: عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤]، وَهَذَا أَعَمُّ، يَشْمَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ.

وَلِكُلِّ آيَةٍ مَكَانُهَا وَمُنَاسِبَتُهَا لِمَنْ تَأَمَّلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾: الْعَفْوُ: هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الْعُقُوبَةِ، فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ إِنْسَانٌ فَعَفَوْتَ عَنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ ذَلِكَ.

وَلَكِنْ الْعَفْوُ يُشْتَرَطُ لِلثَّنَاءِ عَلَى فَاعِلِهِ أَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِالْإِصْلَاحِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَفْوَ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِلزِّيَادَةِ فِي الطُّغْيَانِ وَالْعُدْوَانِ، وَقَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِلانْتِهَاءِ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ لَا يَزِيدُ الْمُعْتَدِي وَلَا يَنْقُصُهُ.

١- فَإِذَا كَانَ سَبَبًا لِلزِّيَادَةِ فِي الطُّغْيَانِ كَانَ الْعَفْوُ هُنَا مَذْمُومًا، وَرَبَّمَا يَكُونُ مَمْنُوعًا، مِثْلُ أَنْ نَعْفُو عَنْ هَذَا الْمُجْرِمِ، وَنَعْلَمُ -أَوْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّن- أَنَّهُ يَذْهَبُ فَيُجْرِمُ إِجْرَامًا أَكْبَرَ، فَهُنَا لَا يُمدَّحُ الْعَافِي عَنْهُ، بَلْ يُذَمُّ.

٢- وَقَدْ يَكُونُ الْعَفْوُ سَبَبًا لِلانْتِهَاءِ عَنِ الْعُدْوَانِ، بَحِثْ يُجَبَّلُ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي عَفَا عَنِّي لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَعْتَدِيَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا عَلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ. فَيَجَبَّلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ، وَهَذَا الرَّجُلُ مِنَ الْعَافِينَ، فَالْعَفْوُ هُنَا مَحْمُودٌ وَمَطْلُوبٌ، وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا.

٣- وقد يَكُونُ الْعَفْوُ لَا يُؤْتَرُّ لَا اِزْدِيَادًا وَلَا نَقْصًا، فَهُوَ أَفْضَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وهنا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ يعني: إِذَا عَفَوْتُمْ عَنِ السُّوءِ عَفَا اللَّهُ عَنْكُمْ، وَيُؤْخَذُ هَذَا الْحُكْمُ مِنَ الْجَوَابِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ يعني: فَيَعْفُو عَنْكُمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ. وَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْقَدِيرِ؛ لِأَنَّ كِهَالَ الْعَفْوِ أَنْ يَكُونَ عَنْ قُدْرَةٍ.

أَمَّا الْعَفْوُ الَّذِي يَكُونُ عَنْ عَجْزٍ فَهَذَا لَا يُمْدَحُ فَاعِلُهُ؛ لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الْإِخْذِ بِالنَّارِ. وَأَمَّا الْعَفْوُ الَّذِي لَا يَكُونُ مَعَ قُدْرَةٍ فَقَدْ يُمْدَحُ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَفْوًا كَامِلًا، بَلِ الْعَفْوُ الْكَامِلُ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ.

ولهذا جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ (الْعَفْوُ) وَ(الْقَدِيرُ):
فَالْعَفْوُ: هُوَ الْمُتَجَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِ عِبَادِهِ، وَالْغَالِبُ أَنَّ الْعَفْوَ يَكُونُ عَنْ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَالْمَغْفِرَةُ عَنْ فِعْلِ الْمَحْرَمَاتِ.

وَالْقَدِيرُ: ذُو الْقُدْرَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ يَتِمَكَّنُ بِهَا الْفَاعِلُ مِنَ الْفِعْلِ بِدُونِ عَجْزٍ.
وهذان الاسمانِ يَتَضَمَّنَانِ صِفَتَيْنِ، وَهُمَا: الْعَفْوُ وَالْقُدْرَةُ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْحَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].»

هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ مِسْطَحَ بْنَ أَنَاثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ ابْنَ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ يَمْنُ تَكَلَّمُوا فِي الْإِفْكِ.

وَقِصَّةُ الْإِفْكِ^(١): أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ تَكَلَّمُوا فِي عِرْضِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلَيْسَ وَاللَّهِ

(١) قصة الإفك أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا»، رقم (٤٧٥٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قَصْدُهُمْ عَائِشَةً، لَكِنْ قَصْدُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُدَسِّسُوا فِرَاشَهُ، وَأَنْ يُلْحِقُوهُ الْعَارَ وَالْعِيَادَ
 بالله! ولكن الله - والله الحمد - فَضَحَهُمْ، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
 [النور: ١١].

تَكَلَّمُوا فِيهَا، وَكَانَ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهَا الْمُنَافِقُونَ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالصَّلَاحِ، وَمِنْهُمْ مِسْطَحُ بْنُ أَنَاثَةَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ فِيهَا، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ
 الْقَطِيعَةِ - قَطِيعَةِ الرَّحِمِ - أَنْ يَتَكَلَّمَ إِنْسَانٌ فِي قَرِيبِهِ بِمَا يَخْدِشُ كِرَامَتَهُ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ ذَلِكَ فِي
 أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ زَوْجَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أَفْسَمَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يُنْفِقَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولَؤُلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
 - وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّ مِسْطَحٍ، فَهُوَ قَرِيبٌ وَمَسْكِينٌ وَمُهَاجِرٌ - ﴿وَلْيَعْفُوا
 وَلْيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى
 وَاللَّهِ، نُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَنَا! فَرَدَّ عَلَيْهِ النَّفَقَةَ.
 هَذَا هُوَ مَا تَرَلَّتْ فِيهِ الْآيَةُ.

أَمَّا تَفْسِيرُهَا: فَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: اللَّامُ الْأَمْرِ، وَسُكِّنَتْ؛ لِأَنَّهَا آتَتْ بَعْدَ
 الْوَاوِ، وَلَامُ الْأَمْرِ تُسَكَّنُ إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ الْوَاوِ - كَمَا هُنَا - أَوْ بَعْدَ الْفَاءِ، أَوْ بَعْدَ (ثُمَّ): قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَلْيُفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا
 تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، هَذَا إِذَا كَانَتْ لَامُ أَمْرٍ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ لَامُ تَعْلِيلٍ فَلِئَلَّا تَبْقَى مَكْسُورَةً،
 لَا تُسَكَّنُ، وَإِنْ وَلِيَتْ هَذِهِ الْحُرُوفَ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ يعني: يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْأَخْذِ بِالذَّنْبِ.

* ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ يعني: يَغْرِضُوا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا يَتَكَلَّمُوا فِيهِ، مَأْخُودٌ مِنْ صَفْحَةِ
 الْعُنُقِ، وَهِيَ جَانِبُهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَعْرَضَ فَالَّذِي يَبْدُو مِنْهُ صَفْحَةُ الْعُنُقِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَغْفُو وَلَا يَصْفَحُ، بَلْ يَذْكُرُ هَذَا الْعُدْوَانَ

وهذه الإساءة، لكنه لا يأخذ بالذنب، فالصَّحْحُ أَبْلَغُ مِنْ مُجَرِّدِ الْعَفْوِ.

وقوله: ﴿أَلَا تَحْسَبُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟﴾: ﴿أَلَا﴾: للعرض، والجواب: بلى نُحِبُّ ذلك، فإذا كنا نُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَنَا فَلْتَعَرِّضْ لَأَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ﴿غَفُورٌ﴾ هذه إما أَنْ تَكُونَ اسْمُ فَاعِلٍ لِلْمُبَالَغَةِ، وإما أَنْ تَكُونَ صِفَةً مُشَبَّهَةً، فإذا كانت صِفَةً مُشَبَّهَةً فِيهِ دَالَّةٌ عَلَى الْوَصْفِ اللَّازِمِ الثَّابِتِ، هَذَا هُوَ مُقْتَضَى الصِّفَةِ الْمُسَبَّهَةِ، وإن كانت اسْمُ فَاعِلٍ مُحْوَلًا إِلَى صِغَةِ التَّكْثِيرِ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى وَقُوعِ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ بِكَثْرَةٍ.

وبعد هذا نقول: إنها جامعة بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فِيهِ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؛ لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ صِفَةٌ دَائِمَةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلْ، وَهِيَ أَيْضًا فِعْلٌ يَقَعُ بِكَثْرَةٍ، فَمَا أَكْثَرَ مَغْفِرَةَ اللَّهِ عَزَّجَلْ! وَمَا أَعْظَمَهَا!

* قوله: ﴿رَحِيمٌ﴾: هذه أَيْضًا اسْمُ فَاعِلٍ مُحْوَلٌ إِلَى صِغَةِ الْمُبَالَغَةِ، وَأَصْلُ اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ: رَحِمَ رَاحِمٌ، لَكِنْ حُوِّلَ إِلَى رَحِيمٍ لِكَثْرَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ وَكَثْرَةِ مَنْ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلْ.

والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْرُنُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ؛ لِأَنَّهَا دَالَّانِ عَلَى مَعْنَى مُشَابِهَةٍ، فِيهِ الْمَغْفِرَةُ زَوَالُ الْمَكْرُوبِ وَأَثَارِ الذَّنْبِ، وَفِي الرَّحْمَةِ حُصُولُ الْمَطْلُوبِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسَاءٍ»^(١).

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: فِي الْعِزَّةِ، وَهِيَ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٨].»

هذه الآية نزلت في مقابلة قول المنافقين: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٨]، يُرِيدُونَ أَنَّهُمُ الْأَعْرَابُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الْأَذَلُّونَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا عِزَّةَ لَهُمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْأَعَزِّينَ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَقُلْ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَوَاهُ الْإِسْلَامُ.

وَمُقْتَضَى قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِزَّةِ، وَالْمُنَافِقِينَ أَهْلُ الدَّلَّةِ؛ وَلِهَذَا كَانُوا يَحْسَبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ لِدَلَّتِهِمْ وَهَلَعِهِمْ، وَكَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا؛ خَوْفًا وَجُبْنًا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِبَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ! وَهَذَا غَايَةُ الدَّلِّ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَانُوا أَعَزَّاءَ بِيَدِيهِمْ، قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي مُحَادَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] فَيُعْلِنُونَهَا صَرِيحَةً، لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا ئِمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِبْثَاتُ الْعِزَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْعِزَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ

الامتناع:

١- فِعِزَّةُ الْقَدْرِ: مَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو قَدَرٍ عَزِيزٍ، يَعْنِي: لَا نَظِيرَ لَهُ.

٢- وَعِزَّةُ الْقَهْرِ: هِيَ عِزَّةُ الْعَلْبَةِ، يَعْنِي: أَنَّهُ غَالِبُ كُلِّ شَيْءٍ، قَاهِرُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] يَعْنِي: غَلَبَنِي فِي الْخِطَابِ. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ عَزِيزٌ لَا غَالِبَ لَهُ، بَلْ هُوَ غَالِبُ كُلِّ شَيْءٍ.

٣- وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ: وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْتَنِعُ أَنْ يَنَالَهُ سُوءٌ أَوْ نَقْصٌ، فَهُوَ مَأْخُذٌ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَرْضُ عِزَارٍ، يَعْنِي: قُوَّةٌ سَدِيدَةٌ.

هَذِهِ مَعَانِي الْعِزَّةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى كِمَالِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَعَلَى كِمَالِ صِفَاتِهِ، وَعَلَى تَمَامِ تَزْهِهِ عَنِ النِّقْصِ.

تَدُلُّ عَلَى كِمَالِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي عِزَّةِ الْقَهْرِ.

وَعَلَى تَمَامِ صِفَاتِهِ وَكِمَالِهَا، وَأَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهَا فِي عِزَّةِ الْقَدْرِ.

وَعَلَى تَمَامِ تَزْهِهِ عَنِ الْعَيْبِ وَالنِّقْصِ فِي عِزَّةِ الْاِمْتِنَاعِ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَهُ عِزَّةٌ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا عِزَّةٌ وَعَلَبَةٌ.

ولكن يَحِبُّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْعِزَّةَ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَتْ كِعِزَّةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ عِزَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ قَدْ يَشُوبُهَا ذِلَّةٌ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ إِذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وَقَدْ يُغْلَبُونَ أحيانًا لِحِكْمَةِ يُرِيدُهَا اللَّهُ عَزَّجَلْ؛ فِيهِ أَحَدٌ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ تَمَامُ الْعِزَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ غُلِبُوا فِي النِّهَايَةِ لِحُكْمٍ عَظِيمَةٍ، وَكَذَلِكَ فِي حُنَيْنٍ وَلَوْ مُذْبِرِينَ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا إِلَّا نَحْوُ مِئَةِ رَجُلٍ^(١). هَذَا أَيْضًا فَقَدْ لِلْعِزَّةِ، لَكِنَّهُ مُوَقَّتٌ، أَمَّا عِزَّةُ اللَّهِ عَزَّجَلْ فَلَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ تُفْقَدَ.

وَبِهَذَا عَرَفْنَا أَنَّ الْعِزَّةَ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَتْ كَالْعِزَّةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ.

وَهَذَا أَيْضًا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُ: لَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِ الْأَسْمَاءِ أَنْ يَتِمَّائِلَ الْمُسَمَّيَانِ، وَلَا مِنْ اتِّفَاقِ الصِّفَتَيْنِ أَنْ يَتِمَّائِلَ الْمَوْصُوفَانِ.
الآيَةُ الرَّابِعَةُ: فِي الْعِزَّةِ أَيْضًا، وَهِيَ:

«قَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَعِزَّتِكَ لِأَغْوَيْتَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].»

الْبَاءُ هُنَا لِلْقَسَمِ، لَكِنَّهُ اخْتَارَ الْقَسَمَ بِالْعِزَّةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ مُغَالَبَةٍ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: بِعِزَّتِكَ الَّتِي تَغْلِبُ بِهَا مَنْ سِوَاكَ لِأَغْوَيْتَنَّهُ هَؤُلَاءِ وَأَسْطِطِرَّ عَلَيْهِمْ -يعني: بِنِي آدَمَ- حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الرُّشْدِ إِلَى الْغَيِّ.

وَيُسْتَنَى مِنْ هَذَا عِبَادَةُ اللَّهِ الْمُخْلِصُونَ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغْوِيَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

(١) كما أخرجه الترمذي: كتاب الجهاد، باب ما جاء في الثبات عند القتال، رقم (١٦٨٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «لقد رأيتنا يوم حنين وإن الفتيين لموليتين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وحسن إسناده الحافظ في «فتح الباري» (٢٩/٨).

ففي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ إِبْثَاتُ الْعِزَّةِ لِلَّهِ.

وفي الآيةِ الثَّانِيَةِ إِبْثَاتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُقَرُّ بِصِفَاتِ اللَّهِ!

فكَيْفَ نَجِدُ مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْ يَنْكُرُ صِفَاتِ اللَّهِ أَوْ بَعْضَهَا؟ أَيْكُونُ الشَّيْطَانُ أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَأَعْقَلَ مَسْلُكًا مِنْ هَؤُلَاءِ النِّفَاقَةِ؟!

مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ:

■ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ: هُوَ أَنَّا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ، وَأَنَّهُ قَدِيرٌ، أَوْجَبَ لَنَا ذَلِكَ أَنْ نَسْأَلَ الْعَفْوَ دَائِمًا، وَأَنْ نَرْجُو مِنْهُ الْعَفْوَ عَمَّا حَصَلَ مِنَّا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبِ.

■ أَمَّا الْعِزَّةُ أَيْضًا: نَقُولُ: إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ فَإِنَّا لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَفْعَلَ فِعْلًا نَحَارِبُ اللَّهَ فِيهِ.

مثلاً: الْإِنْسَانُ الْمُرَابِي، مُعَامَلَتُهُ مَعَ اللَّهِ الْمُحَارَبَةُ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ ذُو عِزَّةٍ لَا يُغْلَبُ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نُقَدِّمَ عَلَى مُحَارَبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَطْعُ الطَّرِيقِ مُحَارَبَةٌ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ قَطْعَ الطَّرِيقِ مُحَارَبَةٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ، امْتَنَعْنَا عَنْ هَذَا الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَالِبُ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: فِيهَا فَائِدَةٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ أَيْضًا، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا فِي دِينِهِ، بَحِثْ لَا يَذُلُّ أَمَامَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَاتِنًا مَنْ كَانَ، إِلَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُ عَزِيزًا عَلَى الْكَافِرِينَ، ذَلِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

* إثبات الاسم لله:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ آيَةً فِي إِثْبَاتِ الْأَسْمِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَآيَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةً فِي تَنْزِيهِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفْيِ الْمِثْلِ عَنْهُ.
آيَةُ إِثْبَاتِ الْأَسْمِ:

﴿بِزَكَّ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

* ﴿بِزَكَّ﴾: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهَا: تَعَالَى وَتَعَاظَمَ إِنَّ وَصِفَ بِهَا اللَّهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وَإِنْ وَصِفَ بِهَا اسْمُ اللَّهِ كَانَ مَعْنَاهَا: أَنَّ الْبَرَكَةَ تَكُونُ بِاسْمِ اللَّهِ، أَيْ أَنَّ اسْمَ اللَّهِ إِذَا صَاحَبَ شَيْئًا صَارَتْ فِيهِ الْبَرَكَةُ.
ولهذا جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِ«بِاسْمِ اللَّهِ» فَهُوَ أَتَمُّ»^(١) أَيْ: نَاقِصُ الْبَرَكَةِ.

بَلْ إِنْ التَّسْمِيَةُ تُفِيدُ حِلَّ الشَّيْءِ الَّذِي يَحْرُمُ بِدُونِهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِيَ اللَّهُ عَلَى الذَّبِيحَةِ صَارَتْ حَلَالًا، وَإِذَا لَمْ يُسَمَّ صَارَتْ حَرَامًا وَمَيْتَةً، وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ الطَّاهِرِ، وَالْمَيْتَةِ النَّجِسَةِ الْحَيْثِيَّةِ.

وَإِذَا سَمِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى طَهَارَةِ الْحَدَثِ صَحَّتْ، وَإِذَا لَمْ يُسَمَّ لَمْ تَصَحَّ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ.

وَإِذَا سَمِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى طَعَامِهِ لَمْ يَأْكُلْ مَعَهُ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ لَمْ يُسَمَّ أَكَلَ مَعَهُ.
وَإِذَا سَمِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى جِجَاعِهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

وقد روي هذا الحديث بألفاظ متعددة ومجموع رواياته يقضي بأنه حسن أو صحيح لغيره، وقد صححه غير واحد من الأئمة، وأعله آخرون. وانظر: «مسند الإمام أحمد» تحقيق أحمد شاكر رقم (٨٦٩٧)، و«صحيح ابن حبان» تحقيق شعيب الأرنؤوط (١/ ١٧٣)، و«إرواء الغليل» رقم (٢، ١).

مَا رَزَقْتَنَا»^(١) ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالْوَلَدُ غُرْصَةٌ لَضَرِّ الشَّيْطَانِ.

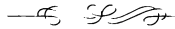
وعليه فنقول: إِنَّ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى: تَعَالَى وَتَعَاطَمَ، بَلْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا: حَلَّتِ الْبَرَكَةُ بِاسْمِ اللَّهِ، أَيْ أَنَّ اسْمَهُ سَبَبٌ لِلْبَرَكَةِ إِذَا صَحِبَ شَيْئًا.

* وَقَوْلُهُ: «﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾» [الرحمن: ٧٨]: ﴿ذِي﴾: بِمَعْنَى صَاحِبٍ، وَهِيَ صِفَةٌ لـ (رَبِّ) لَا لـ (اسْمٍ) لَوْ كَانَتْ صِفَةً لـ (اسْمٍ) لَكَانَتْ: ذُو.

* و«﴿الْجَلَلِ﴾» بِمَعْنَى: الْعَظَمَةِ.

* «﴿وَالْإِكْرَامِ﴾» بِمَعْنَى: التَّكْرِيمِ، وَهُوَ صَالِحٌ لِأَنْ يَكُونَ الْإِكْرَامُ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمَنْ أَطَاعَهُ لَهُ.

فـ«﴿الْجَلَلِ﴾»: عَظَمَتُهُ فِي نَفْسِهِ «﴿وَالْإِكْرَامِ﴾»: عَظَمَتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُكْرِمُونَهُ وَيُكْرِمُهُمْ.



* آيَاتُ الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَةِ فِي تَنْزِيهِهِ اللَّهُ وَنَفْيِ الْمِثْلِ عَنْهُ:

الشرح:

الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَذَابِهِ﴾. هَلْ تَعْلَمُ لَهُ، سَمِيًّا ﴿[مريم: ٦٥]﴾».

شَرَعَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةً لِلَّهِ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ، أَيْ: صِفَاتِ النَّفْيِ.

وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلُ ثُبُوتِيَّةٌ وَسَلْبِيَّةٌ - أَيْ: مُنْفِيَّةٌ - لِأَنَّ الْكَمَالَ

لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْإِبْتَابِ وَالنَّفْيِ، إِبْتَابُ الْكَمَالَاتِ، وَنَفْيُ النَّقَائِصِ.

(١) كما أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

* قَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الفاء مُفْرَعَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مریم: ٦٥]، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرَّبُّوبِيَّةَ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَفَرَعَ عَلَى ذَلِكَ وَجُوبَ عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ أَقَرَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَزِمَهُ الْإِقْرَارُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ، وَإِلَّا صَارَ مُتَنَاقِضًا.

* فَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أَي: تَذَلَّلْ لَهُ حَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَالْعِبَادَةُ يُرَادُ بِهَا الْمُتَعَبُّدُ بِهِ، وَيُرَادُ بِهَا التَّعَبُّدُ الَّذِي هُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ، كَمَا سَبَقَ فِي الْمَقْدَمَةِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾: اصْطَبِرْ، أَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ: اصْتَبَرِ، فَأُبْدِلَتْ التَّاءُ طَاءً لِعِلَّةِ تَضَرُّفِيَّتِهِ. وَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ. وَكَلِمَةُ (اصْطَبِرْ) أُبْلَغَ مِنْ (اصْبِرْ)؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مُعَانَاةٍ، فَالْمَعْنَى: اصْبِرْ، وَإِنْ شَقَّ عَلَيْكَ ذَلِكَ، وَاثْبُتَ ثَبَاتَ الْقَرِينِ لِقَرِينِهِ فِي الْقِتَالِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾ قِيلَ: إِنَّ اللَّامَ بِمَعْنَى (عَلَى) أَي: اصْطَبِرْ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وَقِيلَ: بَلِ اللَّامُ عَلَى أَصْلِهَا، أَي: اصْطَبِرْ لَهَا، أَي: كُنْ مُقَابِلًا لَهَا بِالصَّبْرِ، كَمَا يُقَابِلُ الْقَرِينُ قَرِينَهُ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: الْاسْتِفْهَامُ لِلنَّفْيِ، وَإِذَا كَانَ الْاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ كَانَ مُشْرَبًا بِمَعْنَى التَّحْدِي، يَعْنِي: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَخْبِرْنَا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟﴾ (السَّمِيُّ): الشَّيْءُ وَالنَّظِيرُ، يَعْنِي: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ مُسَامِيًّا أَوْ نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ؟

وَالجَوَابُ: لَا.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْوَاجِبُ أَنْ تَعْبُدَهُ وَخُدَهُ.

وَفِيهَا مِنَ الصِّفَاتِ: قَوْلُهُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ وَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ.

فَمَا الَّذِي تَتَّصِفُهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ (لَأَنَّا ذَكَرْنَا فِيهَا سَبَقَ أَنَّ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَّصِفَ ثُبُوتًا) فَمَا هُوَ الثُّبُوتُ الَّذِي تَتَّصِفُهُ النَّفْيُ هُنَا؟

الجَوَابُ: الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ثُبُوتِ كَمَالِهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي

لَا يُسَامِيهِ أَحَدٌ فِيهِ؟

الآية الثانية:

«قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا، أَي: لَيْسَ يُكَافِيهِ أَحَدٌ، وَهُوَ نَكِيرَةٌ فِي سِيَاقِ التَّنْفِي فَتَعَمُّ.
* و﴿كُفُوًا﴾ فِيهَا ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ: كُفُوًا، وَكُفُوًا، وَكُفُوًا، فِيهِ بِالْهَمْزَةِ سَاكِنَةٌ الْفَاءُ
وَمُضْمُومَتَاهَا، وَبِالْوَاوِ مُضْمُومَةٌ الْفَاءُ لَا غَيْرَ، وَهَذَا نَعْرِفُ خَطَأَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ بِتَسْكِينِ
الْفَاءِ مَعَ الْوَاوِ (كُفُوًا).

هَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا فِيهَا نَفْيُ الْكُفْءِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ، فَلَا أَحَدٌ يُكَافِيهِ،
لَا فِي عِلْمِهِ، وَلَا سَمْعِهِ، وَلَا بَصَرِهِ، وَلَا قُدْرَتِهِ، وَلَا عِزَّتِهِ، وَلَا حِكْمَتِهِ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
صِفَاتِهِ.

الآية الثالثة:

«قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

هَذَا مَفْرَعٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ
الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿وَكُلُّ هَذَا مِنْ تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾
[البقرة: ٢١-٢٢]، يَعْنِي: فِي الْأَلُوْهِيَّةِ؛ لِأَنَّ أُولَئِكَ الْقَوْمَ الْمُخَاطَبِينَ لَمْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا فِي الرَّبُّوبِيَّةِ،
إِذَنْ: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا فِي الْأَلُوْهِيَّةِ كَمَا أَنْتُمْ تَقْرَأُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْدَادٌ فِي الرَّبُّوبِيَّةِ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿أَنْدَادًا﴾»: جَمْعُ نَدٍّ، وَنَدُّ الشَّيْءِ مَا كَانَ مُنَادًا (أَي: مُكَافِئًا) لَهُ وَمُشَابِهًا،
وَمَا زَالَ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا نِدٌّ لِهَذَا، أَيْ: مُقَابِلٌ لَهُ وَمُكَافِئٌ لَهُ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾»: الْجُمْلَةُ هُنَا حَالِيَّةٌ، وَصَاحِبُ الْحَالِ هِيَ الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ:
(لَا تَجْعَلُوا) وَالْمَفْعُولُ مُخَذَوْفٌ، يَعْنِي: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا نِدٌّ لَهُ.

الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ هُنَا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ، وَالصِّفَةُ الْكَاشِفَةُ كَالْتَعْلِيلِ لِلْحُكْمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ:

لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا؛ لَأَتَّكُم تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَدُّ لَهُ، فَإِذَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَهُ
فُتَخَالِفُونَ عِلْمَكُمْ؟!

وهذه أيضًا سَلِيَّةٌ، وذلك مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لِأَنَّهُ لَا يَدُّ لَهُ؛ لِكَمَالِ
صِفَاتِهِ.

الآية الرابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].»

* «﴿وَمِنَ﴾»: تَبْعِيضِيَّةٌ، والميزانُ (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّةِ أَنْ يَحِلَّ مَحَلَّهَا: بَعْضُ، يَعْنِي:
وبَعْضُ النَّاسِ.

* «﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾»: يَتَّخِذُهُمْ أَندَادًا، يَعْنِي: فِي الْمَحَبَّةِ، كَمَا فَسَّرَهُ
بِقَوْلِهِ: ﴿يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَنْدَادِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمَحَبَّةِ،
يَعْنِي: أَندَادًا يُعْبَدُونَ كَمَا يُعْبَدُونَ اللَّهَ، وَيَنْذِرُونَ لَهُمْ كَمَا يَنْذِرُونَ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ
اللَّهِ، يُحِبُّونَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ كَحُبِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهذا إِشْرَاكٌ فِي الْمَحَبَّةِ، بِحَيْثُ تَجْعَلُ غَيْرَ اللَّهِ مِثْلَ اللَّهِ فِي مَحَبَّتِهِ.
وَيَنْطَبِقُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَحَبَّ رَسُولَ اللَّهِ كَحُبِّ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
مَحَبَّةً لَيْسَتْ كَمَحَبَّةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّكَ إِنَّمَا تُحِبُّ الرَّسُولَ ﷺ تَبَعًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا عَلَى أَنَّهُ مُنَادٍ لِلَّهِ،
فَكَيْفَ يَمُنُّ مُحِبُّونَ الرَّسُولِ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّونَ اللَّهَ؟!

وهنا يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ مَعَ اللَّهِ وَالْمَحَبَّةِ لِلَّهِ:
الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ: أَنْ تَجْعَلَ غَيْرَ اللَّهِ مِثْلَهُ فِي مَحَبَّتِهِ أَوْ أَكْثَرَ، وَهَذَا شِرْكٌ.
وَالْمَحَبَّةُ فِي اللَّهِ أَوْ لِلَّهِ: هِيَ أَنْ تُحِبَّ الشَّيْءَ تَبَعًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.
وَالَّذِي نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ:

أَوَّلًا: فِي قَوْلِهِ: ﴿بَرِّكَ أَسْمَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]: إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

مَوْصُوفٌ بِالْجَلَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ أَنْ نُعَظِّمَهُ، وَأَنْ نُحِجَّهُ، وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِكْرَامِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ أَنْ تَرْجُو كَرَمَهُ وَفَضْلَهُ، وبذلك نُعَظِّمُهُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ.

ثانيًا: قَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥] فالفوائدُ الْمُسْلِكِيَّةُ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَعْبُدَ الْعَبْدُ رَبَّهُ، وَيَصْطَبِرَ لِلْعِبَادَةِ، لَا يَمَلُّ، وَلَا يَتَعَبُّ، وَلَا يَضْجُرُّ، بَلْ يَصْبِرُ عَلَيْهَا صَبْرَ الْقَرِينِ لِقَرِينِهِ فِي الْمُبَارَاةِ فِي الْجِهَادِ.

ثالثًا: قَوْلُهُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ففِيهَا تَنْزِيهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ فِي قَلْبِهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَأَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَهَذَا يُعَظِّمُهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِ.

رابعًا: قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] فَمِنْ فَوَائِدِهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّخِذَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ مَحْبُوبًا كَمَحَبَّةِ اللَّهِ، وَهَذِهِ تُسَمَّى الْمَحَبَّةَ مَعَ اللَّهِ.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].»

* «﴿وَقُلِ﴾»: الْخِطَابُ فِي مِثْلِ هَذَا إِمَّا خَاصٌّ بِالرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إِلَيْهِ.

فَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالرُّسُولِ ﷺ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، وَأَمْتُهُ تَبَعٌ لَهُ.

وَإِنْ كَانَ عَامًّا فَهُوَ يَشْمَلُ الرُّسُولَ ﷺ وَغَيْرَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ.

* «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»: سَبَقَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَأَنَّ الْحَمْدَ هُوَ وَصْفُ الْمَحْمُودِ بِالْكَامِلِ

مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ.

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّهِ﴾﴾: اللامُ هُنَا لِلِاسْتِحْقَاقِ وَالِاخْتِصَاصِ:

لِلِاسْتِحْقَاقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَمَّدُ وَهُوَ أَهْلٌ لِلْحَمْدِ. وَالِاخْتِصَاصِ؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ الَّذِي يُحَمَّدُ اللَّهُ بِهِ لَيْسَ كَالْحَمْدِ الَّذِي يُحَمَّدُ بِهِ غَيْرُهُ، بَلْ هُوَ أَكْمَلُ وَأَعْظَمُ وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ.

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي لَمْ يَنْخُذْ وَلَدًا﴾﴾: هَذَا مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ: ﴿لَمْ يَنْخُذْ وَلَدًا﴾ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ وَكَمَالِ غِنَاهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلِأَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ، فَلَوْ اخْتَذَ وَلَدًا لَكَانَ الْوَلَدُ مِثْلَهُ. لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ لَكَانَ مُتَّحِجًا إِلَى الْوَلَدِ يُسَاعِدُهُ وَيُعِينُهُ. لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ لَكَانَ نَاقِصًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا شَابَهُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ فَهُوَ نَقْصٌ.

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَدًا﴾﴾: يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ:

الْيَهُودُ قَالُوا: اللَّهُ وَلَدٌ، وَهُوَ عَزِيزٌ!

وَالنَّصَارَى قَالُوا: اللَّهُ وَلَدٌ، وَهُوَ الْمَسِيحُ!

وَالْمُشْرِكُونَ قَالُوا: اللَّهُ وَلَدٌ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ!

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾﴾: هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَنْخُذْ وَلَدًا﴾

يَعْنِي: وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، لَا فِي الْخَلْقِ، وَلَا فِي الْمُلْكِ، وَلَا فِي التَّدْبِيرِ.

كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، مَمْلُوكٌ لَهُ، يُدَبِّرُهُ كَمَا يَشَاءُ، وَلَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْوْا فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] عَلَى سَبِيلِ التَّعْيِينِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ [سبأ: ٢٢] عَلَى سَبِيلِ الشُّبُوحِ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] لَمْ يُعَاوَنْهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْزَلَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وَهَذَا تَقَطَّعَتْ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِمْ.

فَالْإِلَهَةُ هَذِهِ لَا تَمْلِكُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا مُعِينًا، وَلَيْسَتْ شَرِيكَةً لِلَّهِ، وَلَا مُعِينَةً، وَلَا شَافِعَةً إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَقُولُ: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١١١].

﴿وَقَوْلُهُ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾: لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ، لَكِنَّهُ قَيَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ الذَّلُّ﴾.

و﴿مَنْ﴾ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ أَوْلِيَاءُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢-٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...» (١) وَلَكِنْ الْوَلِيُّ الْمَنْفِيُّ هُوَ الْوَلِيُّ مِنَ الذَّلِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا؛ فَلَا يَلْحَقُهُ الذَّلُّ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِكَمَالِ عِزَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ يَعْنِي: كَبَّرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ تَكْبِيرًا بِلِسَانِكَ وَجَنَانِكَ، اعْتَقِدْ فِي قَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ لَهُ الْكِبْرِيَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ بِلِسَانِكَ تُكَبِّرُهُ، تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ!

وَكَانَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ يُكَبِّرُونَ كُلَّمَا عَلَوْا نَشْرًا (٢) أَيُّ: مُرْفَعًا، وَهَذَا فِي السَّفَرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلَا فِي مَكَانِهِ قَدْ يَشْعُرُ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ مُسْتَعْلٍ عَلَى غَيْرِهِ، فَيَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخَفَّفَ تِلْكَ الْعُلْيَاءَ الَّتِي شَعَرَ بِهَا حِينَ عَلَا وَارْتَفَعَ. وَكَانُوا إِذَا هَبَطُوا قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ التَّزَوَّلَ سُفُولٌ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ. أَيُّ: أَنْزَلَهُ عَنِ السُّفُولِ الَّذِي أَنَا الْآنَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَكْبِيرًا﴾: هَذَا مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، يُرَادُّ بِهِ التَّعْظِيمُ، أَيُّ: كَبَّرَهُ تَكْبِيرًا عَظِيمًا.

وَالَّذِي نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

أَنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ بِكَمَالِ غِنَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَانْفِرَادِهِ بِالْمُلْكِ، وَتَمَامِ عِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَحِينَئِذٍ يُعْظَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْظَمَ بِهِ بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِهِ. وَنَسْتَفِيدُ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنِ الْعُيُوبِ؛ كَمَا يُحْمَدُ عَلَى صِفَاتِ الْكَمَالِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التسيح إذا هبط واديا، رقم (٢٩٩٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعَدْنَا كَبَرْنَا وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَحْنَا».

الآية السادسة: قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[التغابن: ١].

* «﴿يُسَبِّحُ﴾» بِمَعْنَى: يُنْزِعُهُ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ نَقَصٍ وَعَيْبٍ، وَ(سَبَّحَ) تَتَعَدَّى بِنَفْسِهَا وَتَتَعَدَّى بِاللَّامِ:

■ أَمَّا تَعَدِّيَا بِنَفْسِهَا فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

■ وَأَمَّا تَعَدِّيَا بِاللَّامِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ، فَكُلُّ السُّورِ الْمَبْدُوءَةِ بِهَذَا مُتَعَدِّيَةٌ بِاللَّامِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِذَا أُريدَ مُجَرَّدُ الْفِعْلِ تَعَدَّتْ بِنَفْسِهَا: «﴿وُسَبِّحُوهُ﴾» فَمَعْنَى «﴿وُسَبِّحُوهُ﴾» أَيُّ: تَقُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ!

وَإِذَا أُريدَ بَيَانُ الْقَصْدِ وَالْإِخْلَاصِ تَعَدَّتْ بِاللَّامِ «﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾» أَيُّ: سَبَّحُوا إِخْلَاصًا لِلَّهِ وَاسْتِحْقَاقًا.

فَاللَّامُ هُنَا تُبَيِّنُ كِمَالَ الْإِرَادَةِ مِنَ الْفَاعِلِ، وَكِمَالَ الْاسْتِحْقَاقِ مِنَ الْمُسَبِّحِ، وَهُوَ اللَّهُ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾»: عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ.

لَكِنِ التَّسْبِيحُ نَوْعَانِ: تَسْبِيحٌ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، وَتَسْبِيحٌ بِلِسَانِ الْحَالِ.

■ أَمَّا التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ فَهُوَ عَامٌّ: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

■ وَأَمَّا التَّسْبِيحُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ فَهُوَ عَامٌّ كَذَلِكَ، لَكِنْ يُخْرَجُ مِنْهُ الْكَافِرُ؛ فَإِنَّ الْكَافِرَ

لَمْ يُسَبِّحِ اللَّهَ بِلِسَانِهِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]،

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصفافات: ١٥٩]، فَهُمْ لَمْ يُسَبِّحُوا اللَّهَ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِهِ

وَوَصَفُوهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ.

فَالْتَسْبِيحُ بِلِسَانِ الْحَالِ يَعْنِي: أَنَّ حَالَ كُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَدُلُّ عَلَى

تَنْزِيهِهِ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْعَبَثِ وَعَنِ النَّقْصِ، حَتَّى الْكَافِرُ إِذَا تَأَمَّلَتْ حَالَهُ وَجَدَتْهَا تَذُلُّ عَلَى تَنْزِهِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

وَأَمَّا التَّنْسِيخُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ فَيَعْنِي أَنْ يَقُولَ: سُبحَانَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هَذِهِ الصِّفَاتُ الْآخِرَةُ صِفَاتُ ثُبُوتِيَّةٌ، وَسَبَقَ ذِكْرُ مَعْنَاهَا، لَكِنْ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ صِفَةٌ سَلْبِيَّةٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا تَنْزِيهِهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ.
الآيَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿﴾ [الفرقان: ١-٢].

* ﴿تَبَارَكَ﴾ بِمَعْنَى: تَعَالَى وَتَعَاطَمَ.

* و﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾: هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿الْفُرْقَانَ﴾ يَعْنِي بِهِ: الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، وَبَيْنَ الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ، وَبَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْفُرْقَانُ، فَكُلُّهُ فُرْقَانٌ.

﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَوَصَفَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ التَّحَدُّثِ عَنْ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْمَقَامُ مِنْ أَشْرَفِ مَقَامَاتِ النَّبِيِّ ﷺ.

ولهذا وصفه الله تعالى بالعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، كَمَا هُنَا، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وَوصَفَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الدِّفَاعِ عَنْهُ وَالتَّحَدُّثِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وَوصَفَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ تَكْرِيمِهِ بِالْمِعْجَازِ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠]، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ وَصْفَ الْإِنْسَانِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ يَعْدُ كَمَا لَا؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْحُرِّيَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَتَّعَبِدْ لَهُ كَانَ عَابِدًا لغيرِهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١):

هَرَبُوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خَلَقُوا لَهُ وَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

وَالرَّقِّ الَّذِي خَلَقُوا لَهُ: عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

و«بُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ»: حَيْثُ صَارُوا أَرْقَاءَ لِنُفُوسِهِمْ، وَأَرْقَاءَ لِلشَّيْطَانِ، فَمَا مِنْ إِنْسَانٍ يَفِرُّ مِنْ عُبودِيَّةِ اللَّهِ إِلَّا وَقَعَ فِي عُبودِيَّةِ هَوَاهُ وَشَيْطَانِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجن: ٢٣].

* وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾: اللَّامُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لِنُنذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فَاَلْمُنْذِرُ: الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: يَشْمَلُ الْإِنْسَانَ وَالْإِنْسَ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: تَقَدَّمَ مَعْنَاهَا.

* وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَخْذَ لَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: سَبَقَ مَعْنَاهُمَا، وَهُمَا صِفَتَانِ سَلْبِيَّتَانِ.

* ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾: الْخَلْقُ: الْإِبْجَادُ عَلَى وَجْهِ مُعَيَّنٍ. وَالتَّقْدِيرُ بِمَعْنَى التَّسْوِيَةِ، أَوْ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ فِي الْأَزَلِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَيَدُلُّ لَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، وَبِهِ تَكُونُ الْآيَةُ عَلَى التَّرْتِيبِ الذِّكْرِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، وَعَلَى الثَّانِي تَكُونُ الْآيَةُ عَلَى التَّرْتِيبِ الذِّكْرِيِّ.

وَسَتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ:

أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ عَظَمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُتَرِّهَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَإِذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ أَزْدَدْنَا حُبَّهُ لَهُ وَتَعْظِيمًا.

(١) نونية ابن القيم (ص: ٣٠٨).

وَمِنْ آيَاتِي الْفُرْقَانِ نَسْتَفِيدُ بَيَانَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ مَرْجِعُ الْعِبَادِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَتَبَعَ لَهُ الْأُمُورَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَمَاهُ فَرْقَانًا: ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وَنَسْتَفِيدُ أَيْضًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ التَّربُوتِيَّةِ: أَنْ تَتَأَكَّدَ وَتَزِدَادَ مَحَبَّتَنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ كَانَ عَبْدًا لِلَّهِ، قَائِمًا بِإِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ وَإِنْذَارِ الْخَلْقِ.

وَنَسْتَفِيدُ أَيْضًا مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِرُ الرُّسُلِ، فَلَا نُصَدِّقُ بِأَيِّ دَعْوَى لِلنَّبُوءَةِ مِنْ بَعْدِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وَلَوْ كَانَ بَعْدَهُ رَسُولٌ لَكَانَ تَنْتَهِي رِسَالَتُهُ بِهَذَا الرَّسُولِ، وَلَا كَانَتْ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ.

الآيَةُ النَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].»

يَنْفِي اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ اتَّخَذَ وَلَدًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ.

وَيَتَأَكَّدُ هَذَا النَّفْيُ بِدُخُولِ ﴿مِنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ حَرْفِ الْجَرِّ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وَنَحْوِهِ يُفِيدُ التَّوَكِيدَ.

* فَقَوْلُهُ: ﴿﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾﴾ يَعْنِي: مَا اصْطَفَى أَحَدًا يَكُونُ وَلَدًا لَهُ؛ لَا عَزِيرًا، وَلَا الْمَسِيحَ، وَلَا الْمَلَائِكَةَ، وَلَا غَيْرَهُمْ؛ لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ.

وَإِذَا انْتَفَى اتِّخَاذُهُ الْوَلَدَ فَانْتَفَاءُ أَنْ يَكُونَ وَالِدًا مِنْ بَابِ أُولَى.

* وَقَوْلُهُ: ﴿﴿مِنْ إِلَهٍ﴾﴾: ﴿إِلَهٍ﴾ بِمَعْنَى مَالُوه، مِثْلُ بِنَاءِ بِمَعْنَى مَبْنِيٍّ، وَفِرَاشٍ بِمَعْنَى مَفْرُوشٍ، فَالْإِلَهُ بِمَعْنَى الْمَالُوه، أَيِ: الْمَعْبُودِ الْمُتَدَلَّلِ لَهُ.

يَعْنِي: مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ حَقٌّ، أَمَّا الْآلَهُةُ الْبَاطِلَةُ فَهِيَ مُوجُودَةٌ، لَكِنْ لَكُونُهَا بَاطِلَةٌ كَانَتْ كَالْعَدَمِ، فَصَحَّ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ مَعَ اللَّهِ مِنْ إِلَهٍ.

* ﴿إِذَا﴾ يعني: لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ.

* ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: لَوْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ آخَرُ يُسَاوِي اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَكَانَ لَهُ مُلْكٌ خَاصٌّ وَاللَّهُ مُلْكٌ خَاصٌّ، يَعْنِي: لَا نَفَرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ، قَالَ: هَذَا خَلْقِي لِي. وَكَذَلِكَ الْآخَرُ.

وَحِينَئِذٍ يَرِيدُ كُلُّ مِنْهُمَا أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَى الْآخَرِ كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، فَمُلُوكُ الدُّنْيَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَى الْآخَرِ، وَتَكُونُ الْمَمْلَكَةُ كُلُّهَا لَهُ، وَحِينَئِذٍ: إِمَّا أَنْ يَتَمَنَّاعَا، فَيَعْجِزُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَإِذَا عَجَزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ مَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَهًا؛ لِأَنَّ الْإِلَهَ لَا يَكُونُ عَاجِزًا. وَإِمَّا أَنْ يَغْلُو أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، فَالْعَالِي هُوَ الْإِلَهُ.

فَتَرْجِعُ الْمَسْأَلَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْقَضِيَّةَ لَا تَخْرُجُ مِنْ هَذَيْنِ الْإِحْتِمَالَيْنِ.

كَمَا أَنَّنَا إِذَا شَاهَدْنَا الْكَوْنَ غُلُوبَهُ وَسُفْلِيَّةَ وَجْدِنَا أَنَّهُ كَوْنٌ يَصْدُرُ عَنْ مُدَبِّرٍ وَاحِدٍ، وَإِلَّا لَكَانَ فِيهِ تَنَاقُضٌ، فَأَحَدُ الْإِلَهَيْنِ يَقُولُ مِثْلًا: أَنَا أُرِيدُ الشَّمْسَ تَخْرُجُ مِنَ الْمَغْرِبِ! وَالثَّانِي يَقُولُ: أُرِيدُهَا تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ! وَاتِّفَاقُ الْإِرَادَتَيْنِ بَعِيدٌ جَدًّا، وَلَا سَبِيلَ أَنْ الْمَقَامَ مَقَامَ سُلْطَةِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَفْرِضَ رَأْيَهُ!

وَمَعْلُومٌ أَنَّنَا لَا نُشَاهِدُ الْآنَ الشَّمْسَ تَطْلُعُ يَوْمًا مَعَ هَذَا وَيَوْمًا مَعَ هَذَا، أَوْ يَوْمًا تَتَأَخَّرُ؛ لِأَنَّ الثَّانِي مَعَهَا وَيَوْمًا تَتَقَدَّمُ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ أَمَرَ الثَّانِي بِإِخْرَاجِهَا؛ فَلَا نَجِدُ هَذَا، نَجِدُ الْكَوْنَ كُلَّهُ وَاحِدًا مُتَنَاسِبًا مُتَنَاسِقًا، مِمَّا يَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ لَهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ التَّعَدُّدَ؛ إِذْ لَوْ أُمَكِّنَ التَّعَدُّدَ لَحْصَلَ هَذَا، لِانْفِصَالِ كُلِّ وَاحِدٍ عَنِ الثَّانِي، وَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَعْجِزَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَغْلُو أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ لَمْ يَصْلُحْ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْأُلُوهِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَالْعَالِي هُوَ الْإِلَهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْإِلَهُ وَاحِدًا.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْطَلِحَا وَيَنْفَرِدَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا خَلَقَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَوْ أُمَكِّنَ وَوَقَعَ لَزِمَ أَنْ يُحْتَلَّ نِظَامُ الْعَالَمِ.

ثُمَّ إِنَّ اصْطِلَاحَهُمَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِحُفُوفِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخِرِ، وَحِينَئِذٍ لَا تَصْلُحُ الرُّبُوبِيَّةُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا؛ لِعَجْزِهِ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْآخَرِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أَيُّ: تَنْزِيهَاً لِلَّهِ عَزَّجَلَّ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُلْحِدُونَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ.

* ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنِ النَّاسِ، وَالشَّهَادَةُ: مَا شَهِدَهُ النَّاسُ.

* ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿فَتَعَالَى﴾ يَعْنِي: تَرَفَّعَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ.

* ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عَنِ الْأَصْنَامِ الَّتِي جَعَلُوهَا آلهَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ النَّفِيِّ: تَنَزُّهُ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ الَّذِي وَصَفَهُ بِهِ الْكَافِرُونَ، وَعَنِ الشَّرِيكِ لَهُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

وَهَذَا النَّفِيُّ لِكَمَالِ غِنَاهُ وَكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

وَنَسْتَفِيدُ مِنْهُمَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ: أَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْإِخْلَاصِ

لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

الآيَةُ الْحَادِيثَةُ عَشْرَةٌ:

«قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضَرُّوا اللَّهَ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].»

يعْنِي: لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَثَلًا، فَتَقُولُونَ: مِثْلُ اللَّهِ كَمِثْلِ كَذَا وَكَذَا! أَوْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًَا فِي

الْعِبَادَةِ.

* ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، وَقَدْ

أَخْبَرَكُمْ بِأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ، كُفُّوا أَحَدُكُمْ ﴿[الإخلاص: ٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مریم: ٦٥]... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

وقد يُقال: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ تَتَضَمَّنُ الدَّلِيلَ الواضِحَ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، وَأَنَّهَا كَضَرْبِ الْمَثَلِ فِي امْتِنَاعِ الْمِثْلِ؛ لِأَنَّا نَحْنُ لَا نَعْلَمُ وَاللهُ يَعْلَمُ، فَإِذَا انْتَهَى الْعِلْمُ عَنَّا، وَثَبَتَ اللهُ فَائِينَ الْمَائَةِ؟! هَلْ يُمَاطِلُ الْجَاهِلُ مَنْ كَانَ عَالِمًا؟!

وَيَدُلُّكَ عَلَى نَقْصِ عِلْمِنَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُ رُوحَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنَّتَيْهِ: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وَمَا زَالَ الْفَلَاسِفَةُ وَالْمُتَفَلْسِفَةُ وَغَيْرُهُمْ يَنْحَثُونَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذِهِ الرُّوحِ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى حَقِيقَتِهَا، مَعَ أَنَّهَا هِيَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى نَقْصَانِ الْعِلْمِ فِي الْمَخْلُوقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؟!.

الْجَوَابُ: أَنَّهُ هُنَاكَ يُخَاطَبُ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ فيقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

أما هُنَا ففِي بَابِ الصِّفَاتِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فَتَقُولُوا مِثْلًا: إِنَّ يَدَ اللهِ مِثْلُ يَدِ كَذَا! وَجْهَ اللهِ مِثْلُ وَجْهِ كَذَا! وَذَاتَ اللهِ مِثْلُ الذَّاتِ الْفُلَانِيَّةِ... وَمَا أَشْبَهَ هَذَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ بِأَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ.

أَوْ يُقَالُ: إِنَّ إِبْتَاتِ الْعِلْمِ لَهُمْ خَاصٌّ فِي بَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَنَفْيُهُ عَنْهُمْ خَاصٌّ فِي بَابِ

الْأُلُوهِيَّةَ؛ حَيْثُ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ فِيهَا، فَتَزَلُّوا مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ.

وهذه الآية تَتَضَمَّنُ مِنَ الْكَمَالِ كَمَالَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ.

أَمَّا الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَهِيَ كَمَالُ تَعْظِيمِنَا لِلرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ تَعَلَّقْنَا بِهِ؛ رَجَاءً وَخَوْفًا، وَعَظْمَنَاهُ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُبَاثِلَهُ سُلْطَانٌ وَلَا مَلِكٌ وَلَا وَزِيرٌ وَلَا رَئِيسٌ، مَهْمَا كَانَتْ عَظَمَةُ مُلْكِيَّتِهِمْ وَرِثَاسَتِهِمْ وَوَزَارَتِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ:

«قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].»

* ﴿قُلْ﴾: الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: قُلْ مُغْلِنًا لِلنَّاسِ.

* ﴿إِنَّمَا﴾: أَدَاةُ حَصْرِ، وَذَلِكَ لِمُقَابَلَةِ تَحْرِيمِ مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ.

* ﴿حَرَّمَ﴾ بِمَعْنَى: مَنَعَ، وَأَصْلُ هَذِهِ الْمَادَّةِ (ح ر م) تَذَلُّ عَلَى الْمَنَعِ، وَمِنْهُ: حَرِيمٌ الْبَيْتُ: لِلْأَرْضِ الَّتِي تَحْمِيهِ حَوْلُهُ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنَ التَّعَدِّي عَلَيْهِ.

* ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جَمْعُ فَاحِشَةٍ، وَهِيَ الذَّنْبُ الَّذِي يُسْتَفْحَشُ، مِثْلُ: الزَّنا وَاللُّوَاطِ.

الرَّزَا قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وَفِي اللُّوَاطِ قَالَ لُوطٌ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وَمِنَ الزَّنا أَنْ يَتَزَوَّجَ الْإِنْسَانُ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ؛ لِقَرَانِيَةِ أَوْ رِضَاعِ أَوْ مُصَاهَرَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، بَلْ إِنَّ هَذَا أَشَدُّ مِنَ الزَّنا؛ لِأَنَّهُ وَصَفَهُ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ: فَاحِشَةً، وَمَقْتًا، وَسَاءَ سَبِيلًا، وَفِي الزَّنا وَصَفَهُ اللَّهُ بِوَصْفَيْنِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿وَقَوْلُهُ: «مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾﴾: قِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى مَا ظَهَرَ فُحْشُهُ وَمَا خَفِيَ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى مَا ظَهَرَ لِلنَّاسِ وَمَا بَطَنَ عَنْهُمْ، بِاعْتِبَارِ فِعْلِ الْفَاعِلِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْعَمَلِ، أَيْ: مَا أَظْهَرَهُ الْإِنْسَانُ لِلنَّاسِ وَمَا أَبْطَنَهُ.

﴿قَوْلُهُ: «وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾﴾: يَعْنِي: حَرَّمَ الْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

وَالْإِثْمُ: الْمُرَادُ بِهِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لَهُ مِنَ الْمَعَاصِي.

وَالْبَغْيُ: الْعُدَاوَانُ عَلَى النَّاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

﴿وَفِي قَوْلِهِ: «وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾﴾: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ بَغْيٍ فَهُوَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ

أَنَّ الْبَغْيَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: بَغْيٍ بِحَقٍّ، وَبَغْيٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لِأَنَّ الْبَغْيَ كُلَّهُ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْوَصْفُ هُنَا مِنْ بَابِ الْوَصْفِ الْكَاشِفِ، وَيُسَمِّيهِا الْعُلَمَاءُ صِفَةً

كَاشِفَةً، أَيْ: مُبَيِّنَةً، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ كَالْتَعْلِيلِ لِمَوْصُوفِهَا.

﴿قَوْلُهُ: «وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾﴾: هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ، يَعْنِي:

وَحَرَّمَ رَبِّي أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا، يَعْنِي: أَنْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكَاً لَمْ يُنْزَلْ بِهِ

سُلْطَانًا، أَيْ: حُجَّةً، وَسُمِّيَتْ الْحُجَّةُ سُلْطَانًا؛ لِأَنَّهَا سُلْطَةٌ لِلْمُحْتَجِّ بِهَا.

وَهَذَا الْقَيْدُ: ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: نَقُولُ فِيهِ كَمَا قُلْنَا فِي ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ: أَنَّهُ

قَيْدٌ كَاشِفٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ بِشَرِكِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: وَحَرَّمَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ،

فَحَرَامٌ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُ، سِوَاءِ كَانِ فِي ذَاتِهِ أَوْ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ أَوْ

أَحْكَامِهِ.

فَهَذِهِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا.

وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمَهُ اللَّهُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيْنَ الصِّفَةُ السَّلْبِيَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

قُلْنَا: هِيَ: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرْسَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالثَّانِيانِ جَمِيعًا مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا﴾ يَعْنِي: لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكًَا؛ لِكَمَالِهِ. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كَذَلِكَ؛ لِكَمَالِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مَا لَا يَعْلَمُ. الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ أَنَّهُ تَجَنَّبَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْحَمْسَةَ الَّتِي صَرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَحْرِيمِهَا.

وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الْحَمْسَةَ مِمَّا أَجْمَعَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهَا. وَيَدْخُلُ فِي الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ تَحْرِيفُ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الصِّفَاتِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَرَّفَ نُصُوصَ الصِّفَاتِ؛ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: الْمُرَادُ بِالْيَدَيْنِ النُّعْمَةُ، فَقَدْ قَالَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ نَفَى الظَّاهِرَ بِلَا عِلْمٍ.
وَالثَّانِي: أَثْبَتَ لِلَّهِ خِلَافَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ.

فَهُوَ يَقُولُ: لَمْ يَرِدِ اللَّهُ كَذَا، وَأَرَادَ كَذَا. فَنَقُولُ: هَاتِ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ كَذَا، وَعَلَى أَنَّهُ أَرَادَ كَذَا! فَإِنْ لَمْ تَأْتِ بِالِدَلِيلِ فَإِنَّكَ قَدْ قُلْتَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُ.



* اسْتِوَاءُ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ثُبُوتَ اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَأَنَّهُ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ: الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ:

«فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

* «اللَّهُ» : خَبَرُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا﴾.

* ﴿«خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: أَوْجَدَهُمَا مِنَ الْعَدَمِ عَلَى وَجْهِ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ.

* ﴿«فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: وَمُدَّةُ هَذِهِ الْأَيَّامِ كَأَيَّامِنَا الَّتِي نَعْرِفُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَهَا مُنْكَرَةً، فَتُحْمَلُ عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا.

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْأَحَدِ، وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ.

مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ لِلْأَرْضِ، وَيَوْمَانِ لِلسَّمَاءِ، كَمَا فَصَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ فَصَّلَتْ: ﴿قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَأْكُلُوا ۖ فَفَصَّرْتُ أَرْبَعَةً ۖ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١-١٢].

* ﴿«وَقَوْلُهُ: ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: لِلتَّرْتِيبِ.

* ﴿«أَسْتَوَى﴾: بِمَعْنَى: عَلَا.

* و﴿«الْعَرْشِ﴾: هُوَ ذَلِكَ السَّقْفُ الْمَحِيطُ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا نَعْلَمُ مَادَّةَ هَذَا الْعَرْشِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثٌ صَحِيحٌ يُبَيِّنُ مِنْ أَيْنَ خُلِقَ هَذَا الْعَرْشُ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ أَكْبَرُ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نَعْرِفُهَا.

وَأَصْلُ الْعَرْشِ فِي اللُّغَةِ: السَّرِيرُ الَّذِي يُخْتَصُّ بِهِ الْمَلِكُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّرِيرَ الَّذِي يُخْتَصُّ بِهِ الْمَلِكُ سَيَكُونُ سَرِيرًا عَظِيمًا فَخْهًا، لَا تُظِيرُ لَهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عِدَّةُ صِفَاتٍ، لَكِنِ الْمُؤَلَّفُ سَاقَهَا لِإثْبَاتِ صِفَةِ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ الْاِسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَلَا يُمَاهِلُ اسْتِوَاءَ الْمَخْلُوقِينَ.

فَإِنْ سَأَلْتَ: مَا مَعْنَى الْاِسْتِوَاءِ عِنْدَهُمْ؟ فَمَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالْاِسْتِقْرَارُ.

وقَدْ وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهِ أَرْبَعَةُ مَعَانٍ: الْأَوَّلُ: عَلَا. وَالثَّانِي: اِرْتَفَعَ. وَالثَّالِثُ: صَعِدَ. وَالرَّابِعُ: اسْتَقَرَّ.

لَكِنْ (عَلَا) وَ(اِرْتَفَعَ) وَ(صَعِدَ) مَعْنَاهَا وَاحِدٌ، وَأَمَّا (اسْتَقَرَّ) فَهُوَ يَخْتَلِفُ عَنْهَا. وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَلِكَ: أَنَّهَا فِي جَمِيعِ مَوَارِدِهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تَأْتِ إِلَّا لِهَذَا الْمَعْنَى إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّيَةً بِ(عَلَى):

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لِّسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

وَفَسَّرَهُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ بَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْاسْتِيلَاءُ، وَقَالُوا: مَعْنَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] يَغْنِي: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهِ.

وَاسْتَدَلُّوا تَحْرِيفُهُمْ هَذَا بِدَلِيلٍ مُّوجِبٍ وَبَدِيلٍ سَالِبٍ:

■ أَمَّا الدَّلِيلُ الْمُوجِبُ: فَقَالُوا: إِنَّا نَسْتَدِلُّ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُّهِرَاقِ

«بِشَرِّ»: ابْنُ مَرْوَانَ «اسْتَوَى» يَغْنِي: اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ.

قَالُوا: وَهَذَا بَيِّنٌ مِنْ رَجَلٍ عَرَبِيٍّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ، يَغْنِي:

عَلَا عَلَى الْعِرَاقِ! لَا سِيَّمَا أَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا طَائِرَاتٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَعْلُوَ عَلَى الْعِرَاقِ بِهَا.

■ أَمَّا الدَّلِيلُ السَّلْبِيُّ: فَقَالُوا: لَوْ أَثْبِتْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بِالْمَعْنَى الَّتِي

نَقُولُونَ، وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالْإِسْقِرَارُ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُتَنَاجِاً إِلَى الْعَرْشِ، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ، وَاسْتِحَالَةُ اللَّازِمِ تَدُلُّ عَلَى اسْتِحَالَةِ الْمَلْزُومِ.

وَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا؛ لِأَنَّ اسْتَوَاءَ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ بِمَعْنَى عُلُوِّهِ عَلَيْهِ، يَغْنِي

أَنَّهُ جِسْمٌ.

وَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَحْدُودًا؛ لِأَنَّ الْمُسْتَوِيَ عَلَى الشَّيْءِ يَكُونُ مَحْدُودًا، إِذَا اسْتَوَيْتَ عَلَى الْبَعِيرِ فَأَنْتَ مَحْدُودٌ فِي مَنْطِقَةِ مُعَيَّنَةٍ مَحْصُورٍ بِهَا، وَعَلَى مَحْدُودٍ أَيْضًا.
هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا تَلْزِمُ مِنْ إِبْثَابِ أَنَّ الاسْتِواءَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِازْتِفَاعِ.

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُوهِ:

أَوَّلًا: تَفْسِيرُكُمْ هَذَا مُحَالِفٌ لِتَفْسِيرِ السَّلَفِ الَّذِي أَجْمَعُوا عَلَيْهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى إِجْمَاعِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهِ وَخَالَفُوا الظَّاهِرَ، وَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ خِلَافَ ظَاهِرِهِ لَنُقِلَ إِلَيْنَا، فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ قَالَ: إِنَّ (اسْتَوَى) بِمَعْنَى (اسْتَوَى) أَبَدًا.

ثَانِيًا: أَنَّهُ مُحَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ مَادَّةَ الاسْتِواءِ إِذَا تَعَدَّتْ بـ (عَلَى) فَهِيَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِاسْتِفْرَارِ، هَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَهَذِهِ مَوَارِدُهَا فِي الْقُرْآنِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ.
ثَالِثًا: أَنَّهُ يَلْزِمُ عَلَيْهِ لَوَازِمٌ بَاطِلَةٌ:

١- يَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ حِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيْسَ مُسْتَوِيًّا عَلَى عَرْشِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَ﴿ثُمَّ﴾ تَفِيدُ التَّرْتِيبَ، فَيَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ قَبْلَ تَمَامِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لغيرِ اللَّهِ.

٢- أَنَّ الْغَالِبَ مِنْ كَلِمَةِ (اسْتَوَى) أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مُغَالِبَةٍ! وَلَا أَحَدٌ يُغَالِبُ اللَّهَ.
أَيُّنَ الْمَقْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمَ الْمَغْلُوبَ لَيْسَ الْغَالِبُ^(١)

٣- مِنَ اللَّوَاظِمِ الْبَاطِلَةِ أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْأَرْضِ وَالشَّجَرِ وَالْجِبَالِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَيْهَا.

وَهَذِهِ لَوَاظِمٌ بَاطِلَةٌ، وَبُطْلَانُ اللَّازِمِ يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ الْمَلْزُومِ.

(١) ينسب هذا البيت إلى نفيل بن حبيب، قاله عندما أنزل الله على أصحاب الفيل النعمة، انظر: سيرة ابن هشام (١/٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٨/٤٨٥-٤٨٦).

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فنقول:

- ١- أَثْبُتُوا لَنَا سَنَدَ هَذَا الْبَيِّنَةِ وَثِقَةَ رِجَالِهِ، وَلَنْ يَجِدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا^(١).
 - ٢- مَنْ هَذَا الْقَائِلُ؟ أَفَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ بَعْدَ تَغْيِيرِ اللِّسَانِ؟! لَأَنَّ كُلَّ قَوْلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ تَغْيِيرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ؛ لَأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ بَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ حِينَ اتَّسَعَتِ الْفُتُوحُ وَدَخَلَ الْعَجَمُ مَعَ الْعَرَبِ فَاخْتَلَفَ اللِّسَانُ، وَهَذَا فِيهِ احْتِمَالٌ أَنَّهُ بَعْدَ تَغْيِيرِ اللِّسَانِ.
 - ٣- أَنْ تَفْسِيرُكُمْ «اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ» بـ(اسْتَوَى) تَفْسِيرٌ تُعْضِدُهُ الْقَرِينَةُ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُتَعَدَّرِ أَنَّ بِشْرًا يَضَعْدُ فَوْقَ الْعِرَاقِ فَيَسْتَوِي عَلَيْهِ كَمَا يَسْتَوِي عَلَى السَّرِيرِ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ؛ فَلِهَذَا نَلْجَأُ إِلَى تَفْسِيرِهِ بـ(اسْتَوَى).
- هَذَا نَقُولُهُ مِنْ بَابِ التَّنَزُّلِ، وَإِلَّا فَعِنْدَنَا فِي هَذَا جَوَابٌ آخَرُ: أَنْ نَقُولَ: الْاسْتِوَاءُ فِي الْبَيْتِ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ؛ لِأَنَّ الْعُلُوَّ نَوْعَانِ:
- ١- عُلُوٌّ حِسِّيٌّ، كَاسْتِوَاءِنَا عَلَى السَّرِيرِ.
 - ٢- وَعُلُوٌّ مَعْنَوِيٌّ، بِمَعْنَى السَّيْطَرَةِ وَالْعَلَبَةِ.
- فِيَكُونُ مَعْنَى «اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ» يَغْنِي: عَلَا عُلُوًّا عَلَبَةً وَقَهْرًا.
- وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ تَفْسِيرِ الْاسْتِوَاءِ بِالْعُلُوِّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جِسْمًا.
- فَجَوَابُهُ: كُلُّ شَيْءٍ يَلْزَمُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَلْتَزِمَ بِهِ، وَلَكِنْ الشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ لَزِمِ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُمْنَعُ أَنْ يَكُونَ لَزِمًا، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَزِمُ فَلْيَكُنْ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْنَا إِذَا قُلْنَا بِهِ.
- ثُمَّ نَقُولُ: مَاذَا تَعْنُونَ بِالْجِسْمِ الْمُمْتَنِعِ؟

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف يبيت من الشعر لا يعرف إسناده، وقد طعن فيه أئمة اللغة؟!» «مجموع الفتاوى» (١٤٦/٥).

إِنْ أَرَدْتُمْ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ ذَاتٌ تَنْصِفُ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا اللَّائِقَةُ بِهَا، فَقُولُكُمْ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ لِلَّهِ ذَاتًا حَقِيقَةً مُتَّصِفَةً بِالصِّفَاتِ، وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا وَيَدًا وَعَيْنًا وَقَدَمًا، وَقُولُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ اللَّوَاظِمِ الَّتِي هِيَ لِازِمٌ حَقٌّ.

وإِنْ أَرَدْتُمْ بِالْجِسْمِ الَّذِي قُلْتُمْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جِسْمًا - الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْعِظَامِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - فَهَذَا مُتَمَنِّعٌ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ بِلَازِمٍ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنْ اسْتَوَاءَ اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ عُلُوُّهُ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَحْدُودًا.

فجوابه أَنْ نَقُولَ بالتفصيل: مَاذَا تَعْنُونَ بِالْحَدِّ؟

إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَكُونَ مَحْدُودًا، أَيْ: يَكُونَ مُبَايِنًا لِلْخَلْقِ مُنْفَصِلًا عَنْهُمْ، كَمَا تَكُونُ أَرْضُ لَزِيدٍ وَأَرْضُ لَعْمَرٍ، فَهَذِهِ مَحْدُودَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْ هَذِهِ، وَهَذِهِ مُنْفَصِلَةٌ عَنْ هَذِهِ - فَهَذَا حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ النِّقْصِ.

وإِنْ أَرَدْتُمْ بِكَوْنِهِ مَحْدُودًا: أَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِهِ، فَهَذَا بَاطِلٌ، وَلَيْسَ بِلَازِمٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ، وَإِنْ كَانَ عَرْجَلٌ أَكْبَرَ مِنَ الْعَرْشِ وَمِنْ غَيْرِ الْعَرْشِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ مُحِيطًا بِهِ، بَلْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُحِيطًا بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى الْعَرْشِ.

فَنَقُولُ: لَا يَلْزَمُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى كَوْنِهِ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَكِنَّهُ عُلُوٌّ خَاصٌّ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْعَرْشَ يَقْلُهُ أَبَدًا، فَالْعَرْشُ لَا يَقْلُهُ، وَالسَّمَاءُ لَا يَقْلُهُ، وَهَذَا اللَّازِمُ الَّذِي ادَّعَيْتُمُوهُ مُتَمَنِّعٌ؛ لِأَنَّهُ نَقْصٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَرْجَلٌ، وَلَيْسَ بِلَازِمٍ مِنَ الِاسْتِوَاءِ الْحَقِيقِيِّ؛ لِأَنَّا لَسْنَا نَقُولُ: إِنَّ مَعْنَى ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ * يَعْنِي: أَنَّ الْعَرْشَ يَقْلُهُ وَيَحْمِلُهُ، فَالْعَرْشُ مُحْمُولٌ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنِينٌ﴾ * [الْحَاقَّةُ: ١٧] وَتَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ الْآلَنَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ حَامِلًا لِلَّهِ عَرْجَلٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، وَلَا مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ، وَهَذَا تَبْطُلُ حُجَجُهُمُ السَّلْبِيَّةُ.

وُخْلَصَ رَدُّنَا لِكَلَامِهِمْ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجُهُ:

الأول: أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا مُحَالِفٌ لظَاهِرِ النَّصِّ.

ثانياً: مُحَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ قَاطِبَةً.

ثالثاً: أَنَّهُ لَمْ يَرِزْ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ (اسْتَوَى) بِمَعْنَى (اسْتَوَى) وَالْبَيْتُ الَّذِي اخْتَجُّوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ لَا يَتِمُّ بِهِ الِاسْتِدْلَالُ.

رابعاً: أَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَيْهِ لَوَازِمُ بَاطِلَةٌ:

■ مِنْهَا: أَنَّ يَكُونَ الْعَرْشُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكًا لغيرِ اللَّهِ.

■ أَنَّ كَلِمَةَ (اسْتَوَى) تُعْطِي فِي الْغَالِبِ أَنَّ هُنَاكَ مُغَالَبَةً بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، فَاسْتَوَى عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ.

■ أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ -عَلَى رَعْمِكُمْ-: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْأَرْضِ وَالشَّجَرِ وَالْجِبَالِ وَالْإِنْسَانِ وَالْبَعِيرِ؛ لِأَنَّهُ (اسْتَوَى) عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَإِذَا صَحَّ أَنْ نُطْلِقَ كَلِمَةَ (اسْتَوَى) عَلَى شَيْءٍ صَحَّ أَنْ نُطْلِقَ (اسْتَوَى) عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُمَا مُتَرَادِفَانِ عَلَى رَعْمِكُمْ.

فبهذه الأوجه يتبين أن تفسيرهم باطل.

ولما كان أبو المعالي الجويني -عفا الله عنه- يقرّر مذهب الأشاعرة، ويُنكر استواء الله على العرش، بل ويُنكر علو الله بذاته، قال: «كَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ».

وهو يريد أن يُنكر استواء الله على العرش، يعني: كَانَ وَلَا عَرْشٌ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، إِذْن: لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ. فقال له أبو العلاء الهمداني: «يَا أستاذ! دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ الْعَرْشِ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ -يعني: لِأَنَّ دَلِيلَهُ سَمْعِيٍّ، وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنَا بِهِ مَا عَلِمْنَاهُ- أَخْبَرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَحْجِدُ فِي نَفُوسِنَا: مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللَّهُ! إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بِطَلَبِ الْعُلُوِّ» فبُهِتَ أَبُو الْمَعَالِي، وَجَعَلَ يَضْرِبُ عَلَى رَأْسِهِ: حَيَّرَنِي الهمداني، حَيَّرَنِي الهمداني؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ فَطْرِيٌّ، مَا أَحَدٌ يُنْكِرُهُ.

المَوْضِعُ الثَّانِي:

«فِي سُورَةِ يُوسُفَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].»

نَقُولُ فِيهَا مَا قُلْنَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى.

المَوْضِعُ الثَّالِثُ:

«فِي سُورَةِ الرَّعْدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].»

* «﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾»: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: هَلْ يَعْني: لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مُطْلَقًا؟ أَوْ لَهَا عَمَدٌ لَكِنَّهَا غَيْرُ مَرْتَبَةِ لَنَا؟

فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ جُمْلَةَ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿عَمَدٍ﴾ أَي: بَغَيْرِ عَمَدٍ مَرْتَبَةٍ لَكُمْ، وَلَهَا عَمَدٌ غَيْرُ مَرْتَبَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ جُمْلَةَ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، مَعْنَاهَا: تَرَوْنَهَا كَذَلِكَ بِغَيْرِ عَمَدٍ.

وَهَذَا الْأَخِيرُ أَقْرَبُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرْتَبَةٌ وَلَا غَيْرُ مَرْتَبَةٍ، وَلَوْ كَانَ لَهَا عَمَدٌ لَكَانَتْ مَرْتَبَةً فِي الْغَالِبِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ يَحْجُبُ عَنَّا بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ الْجَسْمِيَّةِ لِحِكْمَةٍ يُرِيدُهَا.

* وَقَوْلُهُ: «﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾» هَذَا الشَّاهِدُ، وَيُقَالُ فِي مَعْنَاهَا مَا سَبَقَ.

المَوْضِعُ الرَّابِعُ:

«فِي سُورَةِ طه قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].»

قَدَّمَ عَلَى الْعَرْشِ وَهُوَ مَعْمُولٌ لـ ﴿اسْتَوَى﴾ لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ وَالتَّخْصِيصِ، وَبَيَانِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَسْتَوِ عَلَى شَيْءٍ سِوَى الْعَرْشِ.

وَفِي ذِكْرِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ وَعَظَمَتِهِ مَوْصُوفٌ بِالرَّحْمَةِ.

المَوْضِعُ الْخَامِسُ:

«فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

* ﴿الرَّحْمَنُ﴾: فاعِلٌ: ﴿أَسْتَوَىٰ﴾.

المَوْضِعُ السَّادِسُ:

«فِي سُورَةِ آلَةِ السَّجْدَةِ قَالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

نقولُ فِيهَا مِثْلَ مَا قُلْنَا فِي آيَتِي الْأَعْرَافِ وَيُوسُفَ، لَكِنْ هُنَا فِيهِ زِيَادَةٌ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي بَيْنَهُمَا مَخْلُوقَاتٌ عَظِيمَةٌ، اسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ مُعَادِلَةً لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الْعَظِيمَةُ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَنَا كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالسَّحَابِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَجْهُولٌ إِلَى الْآنَ.

المَوْضِعُ السَّابِعُ:

«فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

فَهَذِهِ سَبْعَةُ مَوَاضِعَ، كُلُّهَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا الْاِسْتِوَاءَ مُعَدَّى بِـ ﴿عَلَى﴾. وبعْدُ، فَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ أَصْلَ هَذِهِ الْمَادَّةِ (س.و.ي) تَذَلُّ عَلَى الْكِمَالِ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢٠] أَيْ: أَكْمَلَ مَا خَلَقَهُ، فَأَصْلُ السَّيْنِ وَالْوَاوِ وَالْيَاءِ تَذَلُّ عَلَى الْكِمَالِ. ثُمَّ هِيَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: مُعَدَّاءُ بِـ (إِلَى) وَمُعَدَّاءُ بِـ (عَلَى) وَمَقْرُونَةٌ بِالْوَاوِ، وَمَجْرَدَةٌ:

- فَاَلْمُعَدَّاءُ بِـ (عَلَى) مِثْلُ: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] وَمَعْنَاهَا: عَلَا وَاسْتَقَرَّ.
- وَالْمُعَدَّاءُ بِـ (إِلَى): مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾

فهل معناها كالأولى المعداة بـ (على)؟

فيها خلاف بين المفسرين:

منهم من قال: إن معناهما واحد، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه الله؛ فمعنى ﴿أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: ارتفع إليها.

ومنهم من قال: بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل، فمعنى: استوى إليها، أي: قصد إليها قصدًا كاملاً، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عُدَّتْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ (إِلَى)، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَفَسَّرَ قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا مضمَّن معنى القصد والإقبال؛ لَأَنَّهُ عُدِّيَ بِـ (إِلَى). اهـ. كلامه.

■ والمقرؤة بالواو، كقولهم: استوى الماء والخشبة، بمعنى: تساوى الماء والخشبة.

■ والمجردة كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤] ومعناها: كمل.

تنبيه: إذا قلنا: استوى على العرش بمعنى: علا، فهاهنا سؤال، وهو: إن الله خلق السموات، ثم استوى على العرش، فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عالياً؟

فالجواب: لا يستلزم ذلك؛ لأن الاستواء على العرش أخص من مُطْلَقِ الْعُلُو؛ لأن الاستواء على العرش علو خاص به، والعلو شامل على جميع المخلوقات، فعلوه عز وجل ثابت له أزلاً وأبداً، لم يزل عالياً على كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْعَرْشَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ عَدَمُ عُلُوِّهِ، بَلْ هُوَ عَالٍ، ثُمَّ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلاَ عُلُوًّا خَاصًّا عَلَى الْعَرْشِ.

فإن قلت: تفهم من الآية الكريمة أنه حين خلق السموات والأرض ليس مُسْتَوِيَا عَلَى الْعَرْشِ، لكن قبل خلق السموات والأرض هل هو مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ أَوْ لَا؟

فالجواب: الله أعلم بذلك.

فإن قلت: هل استواء الله تعالى على عرشه من الصفات الفعلية أو الذاتية؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ
فَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ.



❖ **إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقَاتِهِ :**

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي إِثْبَاتِ عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ سِتَّ آيَاتٍ.
الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتُوفٍ﴾ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴿آلِ عِمْرَانَ: ٥٥﴾».

الْخِطَابُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ أُمَّ بَلَا أَبٍ؛ وَلِهَذَا يُنسَبُ إِلَى أُمِّهِ،
فَيُقَالُ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

يَقُولُ اللَّهُ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بِمَعْنَى: قَابِضُكَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَوَفَّى حَقَّهُ، أَيُّ: قَبَضَهُ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مُنِيتُكَ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ وَفَاةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي
يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ وَفَاةٌ مَوْتٍ: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مُنِيتُكَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى
الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وَالْقَوْلُ بَأَنَّ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بِمَعْنَى (مُنِيتُكَ) بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَمُتْ، وَسَيَنْتَرِلُ
فِي آخِرِ الزَّمَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]
أَيُّ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، وَذَلِكَ إِذَا نَزَلَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

وَقِيلَ: قَبْلَ مَوْتِ الْوَاحِدِ، يَعْنِي: مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا إِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ
أَمِنْ بَعِيسَى، حَتَّى وَإِنْ كَانَ يَهُودِيًّا. وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ.

بَقِيَ النَّظَرُ بَيْنَ وَفَاةِ الْقَبْصِ وَوفاةِ النَّوْمِ، فنقول: إِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فيكون قابضاً لَهُ حَالُ نَوْمِهِ، أَيُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِ النَّوْمَ، ثُمَّ رَفَعَهُ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِنَّكَ﴾ «الشَّاهِدُ هُنَا؛ فَإِنَّ ﴿إِنَّكَ﴾ تُفِيدُ الْغَايَةَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَيْتُكَ﴾ إِنَّكَ: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْفُوعَ إِلَيْهِ كَانَ عَالِيًّا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْمَرَادُ: رَافِعُكَ مَنَزِلَةً، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجِئْنَا فِي الْأَخِرَةِ وَمِنَ الْأَمْرِينِ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قُلْنَا: هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ لِأَنَّ الرَّفْعَ هُنَا عُدِّي بِحَرْفٍ يَخْتَصُّ بِالرَّفْعِ الَّذِي هُوَ الْفَوْقِيَّةُ، رَفْعَ الْجَسَدِ، وَلَيْسَ رَفْعَ الْمَنَزِلَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ عُلُوَّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عُلُوٌّ مَعْنَوِيٌّ، وَعُلُوٌّ ذَاتِيٌّ:

١- أَمَّا الْعُلُوُّ الْمَعْنَوِيُّ: فَهُوَ ثَابِتٌ لِلَّهِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، أَيُّ: بِالْإِجْمَاعِ مِنْ أَهْلِ الْبَدَعِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، كُلُّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالٍ عُلُوًّا مَعْنَوِيًّا.

٢- وَأَمَّا الْعُلُوُّ الذَّاتِيُّ: فَيُثْبِتُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَلَا يُثْبِتُهُ أَهْلُ الْبِدْعَةِ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ عَالِيًّا عُلُوًّا ذَاتِيًّا.

فَبَدَأَ أَوَّلًا بِأَدِلَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذَّاتِيَّ، فنقول:

إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ اسْتَدَلُّوا عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى عُلُوًّا ذَاتِيًّا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ:

أَوَّلًا: فَالْكِتَابُ تَنَوَّعَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ، فَتَارَةً بِذِكْرِ الْعُلُوِّ، وَتَارَةً بِذِكْرِ الْفَوْقِيَّةِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ نُزُولِ الْأَشْيَاءِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ صُعُودِهَا إِلَيْهِ، وَتَارَةً بِكُونِهِ فِي السَّمَاءِ:

١- فَالْعُلُوُّ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

٢- وَالْفَوْقِيَّةُ: ﴿وَهُوَ أَلْفَاظُهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

٣- وَنُزُولُ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يُذِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

٤- وَصُعودُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

٥- كَوْنُهُ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].
وثَانِيًا: وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ تَوَاتَرَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَإِقْرَارِهِ:

١- فَأَمَّا قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَجَاءَ بِذِكْرِ الْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»^(١)، وَقَوْلُهُ لَمَّا ذَكَرَ السَّمَوَاتِ، قَالَ: «وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»^(٢).

وَجَاءَ بِذِكْرِ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٣).

٢- وَأَمَّا الْفِعْلُ: فَمِثْلُ رَفْعِ أُصْبُعِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ فِي أَكْثَرِ جَمْعٍ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَرَفَةَ، عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَجْتَمِعُوا اجْتِمَاعًا أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْعِ؛ إِذْ إِنَّ الَّذِي حَجَّ مَعَهُ بَلَغَ نَحْوُ مِئَةِ أَلْفٍ، وَالَّذِينَ مَاتَ عَنْهُمْ نَحْوُ مِئَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ أَلْفًا. يَعْنِي: عَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ حَضَرُوا ذَلِكَ الْجَمْعَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. وَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ يُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ بِأُصْبُعِهِ، وَيُنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ»^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، رَقْمُ (٧٧٢)، مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ رَقْمُ (٨١)، وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي التَّوْحِيدِ (١/ ٢٤٤)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٩/ ٢٢٨، رَقْمُ ٨٩٨٧)، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (١/ ٨٦): وَرَجَّاهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. وَأَبُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ (٢/ ٥٦٥)، وَابْنُ بَطَّةٍ فِي الْإِبَانَةِ رَقْمُ (١٢٨)، وَاللَّائِكَاثِيُّ فِي «شَرْحِ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ» رَقْمُ (٦٥٩)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» رَقْمُ (٨٥١)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْقُوفًا. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «الْعُلُوِّ»: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. انْظُرْ: «مَخْتَصَرُ الْعُلُوِّ» رَقْمُ (٤٨).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ بَعَثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٤٣٥١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ، رَقْمُ (١٠٦٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٢١٨)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَمِنْ ذَلِكَ رَفَعُ يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

وهذا إِبْتِثَاتٌ لِلْعُلُوِّ بِالْفِعْلِ.

٣- وأما التقرير: فَإِنَّهُ فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى بِجَارِيَةٍ يُرِيدُ أَنْ يُعْتِقَهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١).

فهذه جاريةٌ لَمْ تَتَعَلَّمْ، والغالبُ عَلَى الجَوَارِي الجَهْلُ، لَا سِيَّما وَهِيَ أَمَةٌ غَيْرُ حُرَّةٍ، لَا تَمْلِكُ نَفْسَهَا، تَعْلَمُ أَنَّ رَبَّهَا فِي السَّمَاءِ، وَضَلَّالُ بَنِي آدَمَ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، وَيَقُولُونَ: إِمَّا أَنَّهُ لَا فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا يَمِينَ وَلَا شِمَال! أَوْ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ!!
فهذه مِنْ أدِلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

ثالثاً: وأما دَلَالَةُ الْإِجْمَاعِ: فَقَدْ أَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِذَاتِهِ فِي السَّمَاءِ، مِنْ عَهْدِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

إِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَجْمَعُوا؟ نَقُولُ: إِمْرَاؤُهُمْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ مَعَ تَكَرُّرِ الْعُلُوِّ فِيهَا وَالْفَوْقِيَّةِ وَنُزُولِ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ وَضُعُودِهَا إِلَيْهِ دُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يُخَالِفُهَا إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ عَلَى مَذْلُولِهَا.
ولهذا لَمَّا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «إِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى ذَلِكَ» قَالَ: «وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ. أَوْ: إِنَّ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ. أَوْ: إِنَّ اللَّهَ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُتَّصِلٌ وَلَا مُنْفَصِلٌ. أَوْ: إِنَّهُ لَا تَجُوزُ الْإِشَارَةُ الْحِسِّيَّةُ إِلَيْهِ»^(٢).

رابعاً: وأما دَلَالَةُ الْعَقْلِ: فنقول: لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْعُلُوِّ أَوْ فِي السُّفْلِ، وَكَوْنُهُ فِي السُّفْلِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّهُ نَقْصٌ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ الْعُلُوُّ النَّامُ وَالسَّيْطَرَةُ النَّامَةُ وَالسُّلْطَانُ النَّامُ، فَإِذَا كَانَ السُّفْلُ مُسْتَحِيلًا كَانَ الْعُلُوُّ وَاجِبًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٥).

وهناك تقريرٌ عقليٌّ آخرٌ، وهو أن نقول: إنَّ العُلُوَّ صِفَةٌ كَمَالٍ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَإِذَا كَانَ صِفَةً كَمَالٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا لِلَّهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ صِفَةٍ كَمَالٍ مُطْلَقَةٍ فِيهِ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ.

وقولنا: «مُطْلَقَةٍ»: اخْتِرَازًا مِنَ الْكَمَالِ النَّسْبِيِّ، الَّذِي يَكُونُ كَمَالًا فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، فَالنُّوْمُ مَثَلًا نَقْصٌ، وَلَكِنْ لِمَنْ يَخْتِاجُ إِلَيْهِ وَيَسْتَعِيدُ قُوَّتَهُ بِهِ كَمَالٌ.

خامسًا: وَأَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ: فَأَمْرٌ لَا يُمَكِّنُ الْمُنَازَعَةَ فِيهَا وَلَا الْمُكَابَرَةَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَفْطُورٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ؛ وَلِهَذَا عِنْدَمَا يَنْجُوكَ الشَّيْءُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ، وَإِنَّمَا تَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَفْعِهِ، فَإِنَّ قَلْبَكَ يَنْصَرِفُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى الَّذِينَ يُنْكِرُونَ عُلُوَّ الذَّاتِ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُزِيلُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ.

وهذه الفطرة لا يُمَكِّنُ إنكارها.

حَتَّى إِيَّاهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَجَائِ تَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يُرَوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَلَى أَبِيهِ خَرَجَ يَسْتَسْقِي ذَاتَ يَوْمٍ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا خَرَجَ رَأَى نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا، رَافِعَةً قَوَائِمَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، تَقُولُ: «اللَّهُمَّ! إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غِنَى عَنْ سُقْيَاكَ. فَقَالَ: ارْجِعُوا! فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ»^(١)، وَهَذَا إِلَهُامٌ فِطْرِيٌّ.

فَالْحَاصِلُ أَنَّ كَوْنَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ.

وَاللَّهُ! لَوْلَا فَسَادُ فِطْرَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لَدَلَّكَ لَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ بِدُونِ أَنْ يُطَالِعُوا أَيَّ كِتَابٍ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْفِطْرَةُ لَا يَخْتِاجُ إِلَى مُرَاجَعَةِ الْكُتُبِ.

وَالَّذِينَ أَنْكَرُوا عُلُوَّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِذَاتِهِ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ فِي الْعُلُوِّ بِذَاتِهِ كَانَ فِي جِهَةٍ، وَإِذَا كَانَ فِي جِهَةٍ كَانَ مُحَدِّودًا وَجِسْمًا، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ!

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٤٤٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٦٢)، عن أبي الصديق الناجي من قوله. وأخرجه الدارقطني في السنن (٢/ ٦٦)، والحاكم في المستدرک (١/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً دون ذكر اسم النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. وانظر: «اجتماع الجيوش» لابن القيم (ص: ٣٢٨ - ٣٢٩).

والجواب عن قولهم: «إنه يلزم أن يكون محدودًا وجسمًا» نقول:

أولًا: لا يجوز إبطال دلالة النصوص بمثل هذه التعليقات، ولو جاز هذا لأمكن كل شخص لا يريد ما يقتضيه النص أن يعلله بمثل هذه العلية.

فإذا كان الله أثبت لنفسه العلو، ورسوله ﷺ أثبت له العلو، والسلف الصالح أثبتوا له العلو - فلا يقبل أن يأتي شخص ويقول: لا يمكن أن يكون علو ذات؛ لأنه لو كان علو ذات لكان كذا وكذا.

ثانيًا: نقول: إن كان ما ذكرتم لازمًا لإثبات العلو لزومًا صحيحًا، فلنقل به؛ لأن لازم كلام الله ورسوله حق؛ إذ إن الله تعالى يعلم ما يلزم من كلامه. فلو كانت نصوص العلو تستلزم معنى فاسدًا كبيتته، ولكنها لا تستلزم معنى فاسدًا.

ثالثًا: ثم نقول: ما هو الحد والجسم الذي أجلبتم علينا بخيلكم ورجلكم فيها؟ أتريدون بالحد أن شيئًا من المخلوقات يحيط بالله؟! فهذا باطل ومتف عن الله، وليس بلازم من إثبات العلو لله.

أو أتريدون بالحد أن الله بائن من خلقه غير حال فيهم؟ فهذا حق من حيث المعنى، ولكن لا نطلق لفظة نفيًا ولا إثباتًا؛ لعدم ورود ذلك.

وأما الجسم: فنقول: ماذا أتريدون بالجسم؟ أتريدون أنه جسم مركب من عظم ولحم وجلد ونحو ذلك؟ فهذا باطل ومتف عن الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

أم أتريدون بالجسم ما هو قائم بنفسه متصف ببا يليق به؟ فهذا حق من حيث المعنى، لكن لا نطلق لفظة نفيًا ولا إثباتًا؛ لما سبق.

وكذلك نقول في الجهة: هل أتريدون أن الله تعالى له جهة تحيط به؟ فهذا باطل، وليس بلازم من إثبات علوه.

أم أتريدون جهة علو لا تحيط بالله؟ فهذا حق لا يصح نفيه عن الله تعالى.

الآية الثانية:

«قَوْلُهُ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

* «بَلْ» : للإضراب الإبطالي؛ لإبطال قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨]، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

والشاهد قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فإنه صريح بأن الله تعالى عالٍ بذاته؛ إذ الرفعُ إلى الشيء يستلزم علوه.

الآية الثالثة:

«قَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

* «﴿إِلَيْهِ﴾»: إلى الله عزَّ وجلَّ.

* «﴿يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾»: و﴿الْكَلِمُ﴾ هنا اسم جمع، مفردة كَلِمَةً، وجمع كَلِمَاتٍ، والكَلِمُ الطَّيِّبُ يشمل كلَّ كَلِمَةٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ، كقراءة القرآن والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلُّ كَلِمَةٍ تُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِيهِ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، تَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَصِلُ إِلَيْهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أَيْضًا. فَالْكَلِمَاتُ تَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَالٍ بِذَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَصْعَدُ إِلَيْهِ وَتُرْفَعُ.

الآية الرابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿تَهَيَّئْنَ آيُنِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ٣٦: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى

إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

هامان وزير فرعون، والأمير بالبنا فرعون.

* ﴿صَرَخَا﴾ أي: بناءً عاليًا.

* ﴿لَعَلِّي أَتْلُعَ الْأَسْبَبَ﴾ [١٦: ١٦] أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ ﴿﴾ يعني: لَعَلِّي أَتْلُعُ الطُّرُقَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى السَّمَاءِ.

* ﴿فَاطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني: أَنْظَرُ إِلَيْهِ، وَأَصِلُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ. فَمَوَّهَ فِرْعَوْنُ عَلَى قَوْمِهِ بِطَلَبِ بِنَاءِ هَذَا الصَّرْحِ الْعَالِي لِيَرْفَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ: لَمْ أَجِدْ أَحَدًا. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَالَ: إِنَّ إِلَهَهُ فِي السَّمَاءِ. اجْعَلُونَا نَرْفَى لِنَرَاهُ!! تَهَكُّمًا.

وَأَيًّا كَانَ فَقَدْ قَالَ: ﴿وَلِي لَاطُنُهُ كَذِبًا﴾ لِلتَّمْوِيهِ عَلَى قَوْمِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَقَدْ قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فَلَمْ يَقُلْ: مَا عَلِمْتُ! بَلْ أَقَرَّهُ عَلَى هَذَا الْخَبَرِ الْمُؤَكَّدِ بِاللَّامِ (قَدْ) وَالْقَسَمِ. وَاللَّهُ عَزَّجَلْ يَقُولُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِنَاءِ صَرْحٍ يَطَّلِعُ بِهِ عَلَى إِلَهِ مُوسَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى ﷺ قَالَ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ: إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ. فَيَكُونُ عُلُوُّ اللَّهِ تَعَالَى ذَاتِيًّا قَدْ جَاءَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ السَّابِقَةُ.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١٦: ١٧] أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلْ، لَكِنَّهُ كَتَبَ عَنْ نَفْسِهِ بِهِذَا؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ إِظْهَارِ عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ فَوْقَكُمْ، قَادِرٌ عَلَيْكُمْ، مُسَيِّطِرٌ عَلَيْكُمْ، مُهَيِّمٌ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّ الْعَالِيَّ لَهُ سُلْطَةٌ عَلَى مَنْ تَحْتَهُ.

* ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تَضْطَرِبُ.

وَالْجَوَابُ: لَا نَأْمَنُ وَاللَّهُ! بَلْ نَخَافُ عَلَى أَنْفُسِنَا إِذَا كَثُرَتْ مَعَاصِينَا أَنْ تُخَسَفَ بِنَا الْأَرْضُ.

والانهارات التي يُسَمُّونها الآن: انهاراً أرضياً، وانهاراً جبلياً... وما أشبه ذلك هي نفس التي هدّد الله بها هنا، لكن يأتون بمثل هذه العبارات؛ ليهوّنوا الأمر على البسطاء من الناس.

* «أَمْ أَمِنتُمْ؟» يعني: بل أأمنتم، و(أَمْ) هنا بمعنى (بل) والهمزة.

* «أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا»: الحاصِبُ عذابٌ من فوق يُخَصِّبُونَ بِهِ، كَمَا فَعَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَقَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَالْحَسْفُ مِنْ تَحْتُ.

فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ هَدَدَنَا مِنْ فَوْقٍ وَمِنْ تَحْتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ.

وهنا ذَكَرَ اللَّهُ تَوَعَيْنٍ مِنْهَا: الْحَاصِبُ وَالْحَسْفُ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾.

وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ بِذَاتِهِ.

لكن هاهنا إشكال، وهو أن (في) للظرفية، فإذا كان الله في السماء، (في) للظرفية فإنَّ الظرفَ مُحِيطٌ بِالْمَظْرُوفِ! أَرَأَيْتَ لَوْ قُلْتَ: الْمَاءُ فِي الْكَأْسِ. فَالْكَأْسُ مُحِيطٌ بِالْمَاءِ وَأَوْسَعُ مِنَ الْمَاءِ! فإذا كان الله يقول: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾، فهذا ظاهره أنَّ السَّمَاءَ مُحِيطَةٌ بِاللَّهِ، وَهَذَا الظاهرُ باطلٌ، وإذا كان الظاهرُ باطلاً فإنَّنا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ باطلاً.

فَمَا الْجَوَابُ عَلَى هَذَا الْإِشْكَالِ؟

قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْجَوَابُ أَنَّ نَسْلُكَ أَحَدَ طَرِيقَيْنِ:

١- فَإِذَا أَنْ نَجْعَلَ السَّمَاءَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ، وَالسَّمَاءَ بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَارِدٌ فِي اللُّغَةِ، بَلْ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] والمراد بالسَّمَاءِ الْعُلُوُّ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ لَا مِنَ السَّمَاءِ الَّتِي هِيَ السَّقْفُ الْمَحْفُوظُ، وَالسَّحَابُ فِي

الْعُلُوَّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فيكون مَعْنَى ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: مَنْ فِي الْعُلُوِّ.

ولا يُوجَدُ إشْكَالٌ بَعْدَ هَذَا، فَهُوَ فِي الْعُلُوِّ، لَيْسَ يُحَازِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يَكُونُ فَوْقَهُ شَيْءٌ.

٢- أَوْ نَجْعَلْ (فِي) بِمَعْنَى (عَلَى) وَنَجْعَلِ السَّمَاءَ هِيَ السَّقْفَ الْمَحْفُوظَ الْمَرْفُوعَ،
يعني: الْأَجْرَامَ السَّائِيَّةَ، وَتَأْتِي (فِي) بِمَعْنَى (عَلَى) فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، بَلْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ السَّحَرَةَ الَّذِينَ آمَنُوا: ﴿وَلَأَصْلَحَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَيْ: عَلَى
جُدُوعِ النَّخْلِ.

فيكون مَعْنَى ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: مَنْ عَلَى السَّمَاءِ.

ولا إشْكَالٌ بَعْدَ هَذَا.

فإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي
الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾
[الأنعام: ٣: ١٩]!

فالجواب: أَنْ نَقُولَ:

أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]
فَالظَرْفُ هُنَا لِأَلُوهِيَّتِهِ، يَعْنِي: أَنَّ أَلُوهِيَّتَهُ ثَابِتَةٌ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ، كَمَا تَقُولُ: فَلَانْ أَمِيرٌ
فِي الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ. فَهُوَ نَفْسُهُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، وَفِيهِمَا جَمِيعًا بِإِمَارَتِهِ وَسُلْطَتِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى
أَلُوهِيَّتُهُ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ، وَأَمَّا هُوَ عَزَّجَلَّ ففِي السَّمَاءِ.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] فنقولُ فِيهَا كَمَا قُلْنَا فِي
الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أي: وَهُوَ الْإِلَهُ الَّذِي أَلُوهِيَّتُهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، أَمَّا هُوَ
نَفْسُهُ فِي السَّمَاءِ. فيكونُ الْمَعْنَى: هُوَ الْمَالُوهُ فِي السَّمَوَاتِ الْمَالُوهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَلُوهِيَّتُهُ فِي
السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ.

فَخَرَجُ هَذِهِ الْآيَةِ كَتَخْرِيجِ النَّبِيِّ قَبْلَهَا.

وقيل: المعنى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ثُمَّ تَقَفُ، ثُمَّ تَقْرَأُ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] أي: أَنَّهُ نَفْسُهُ فِي السَّمَوَاتِ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي الْأَرْضِ، فَلَيْسَ كَوْنُهُ فِي السَّمَاءِ مَعَ عُلُوِّهِ بِمَانِعٍ مِنْ عِلْمِهِ بِسِرِّكُمْ وَجَهْرِكُمْ فِي الْأَرْضِ.

وهذا المعنى فيه شيءٌ مِنَ الضَّعْفِ؛ لِأَنَّهُ يَفْتَضِي تَفْكِيكَ الْآيَةِ وَعَدَمَ ارْتِبَاطِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ: أَنْ نَقُولَ: ﴿اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ بِعُنْيٍ: أَنْ أَلُوْهِيَّتَهُ ثَابِتَةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، فَتُطَابِقُ الْآيَةُ الْأُخْرَى.

مِنَ الْفَوَائِدِ الْمُسْلِكَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ:

أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ مِقْدَارَ سُلْطَانِهِ وَسَيِّطَرَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَحِينَئِذٍ يَخَافُهُ وَيُعْظِمُهُ، وَإِذَا خَافَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَعَظَّمَهُ فَإِنَّهُ يَتَّقِيهِ، وَيَقُومُ بِالْوَاجِبِ، وَيَدَعُ الْحَرَّمَ.



* إِبْنَاتُ مَعِيَّةِ اللَّهِ لَخْلُقِهِ:

الشَّرْحُ:

سَرَعَ الْمُؤَلِّفُ بِسَوْقِ أدِلَّةِ الْمَعِيَّةِ، أَيْ: أدِلَّةِ مَعِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَخْلُقِهِ، وَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَهَا بَعْدَ الْعُلُوِّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَدُو لِلْإِنْسَانِ أَنَّ هُنَاكَ تَنَافُضًا بَيْنَ كَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَوْنِهِ مَعَ الْعِبَادِ، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ جِدًّا أَنْ يَذْكُرَ الْآيَاتِ الَّتِي تُثَبِّتُ مَعِيَّةَ اللَّهِ لِلْخَلْقِ بَعْدَ ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ.

وَفِي مَعِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَخْلُقِهِ مَبَاحِثُ:

* الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: فِي أَقْسَامِهَا:

مَعِيَّةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ.

وَالْخَاصَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: مُقَيَّدَةٍ بِشَخْصٍ، وَمُقَيَّدَةٍ بِوَضْفٍ.

- أمّا العامة: فِيهَا الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أ- أمّا الخاصّة المُقَيَّدَةُ بِوَصْفٍ، فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ب- وأمّا الخاصّة المُقَيَّدَةُ بِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ، فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ لَكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَالَ مُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَآرَى﴾ [طه: ٤٦].

وهذه أخصّ من المُقَيَّدَةِ بِوَصْفٍ.

فالمعيّة درجات: عامّة مُطلقة، وخاصّة مُقَيَّدَةُ بِوَصْفٍ، وخاصّة مُقَيَّدَةُ بِشَخْصٍ.

فأخصّ أنواع المعية ما قيّد بشخص، ثُمَّ ما قيّد بوصفٍ، ثُمَّ ما كان عامّاً.

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقُدرةً وَسَمْعاً وَبَصْراً وَسُلْطَاناً وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَالْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ بِنَوْعِيَّتِهَا تَسْتَلْزِمُ مَعَ ذَلِكَ النَّصْرَ وَالتَّائِيْدَ.

* الْمَبْحَثُ الثَّانِي: هَلِ الْمَعِيَّةُ حَقِيقِيَّةٌ أَوْ هِيَ كِنَايَةٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ؟

أَكْثَرُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ: إِنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْعِلْمِ وَعَنِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ والقُدرةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فَيَجْعَلُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَيْ: وَهُوَ عَالِمٌ بِكُمْ، سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ، بَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ، قَادِرٌ عَلَيْكُمْ، حَاكِمٌ بَيْنَكُمْ... وَهَكَذَا، فَيَقْسِرُوهَا بِلازِمِهَا.

وَاخْتَارَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ أَنَّهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّ كَوْنَهُ مَعَنَا حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَكِنْ لَيْسَتْ مَعِيَّتُهُ كَمَعِيَّةِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي مَكَانِهِ؛ لِأَنَّ مَعِيَّةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ثَابِتَةٌ لَهُ وَهُوَ فِي عِلْوِهِ، فَهُوَ مَعَنَا وَهُوَ عَالٍ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُمَكِّنُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا فِي الْأَمْكِنَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا.

وعلى هذا: فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو.

والمؤلف عقد لها فصلاً خاصاً سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وأنه لا منافاة بين العلو والمعية؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو علي في دئونه، قريب في علوه.

وضرب شيخ الإسلام رحمه الله لذلك مثلاً بالقمر، قال: إنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا. وهو موصوع في السماء، وهو من أصغر المخلوقات^(١)، فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق، الذي خلق بالنسبة إليه ليسوا بشيء، وهو فوق سمواته؟!

وما قاله رحمه الله فيه دفع حجة بعض أهل التعطيل؛ حيث احتجوا على أهل السنة، فقالوا: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم تؤولون في المعية، تقولون: المعية بمعنى العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وما أشبه ذلك.

فنقول: إن المعية حق على حقيقتها، لكنها ليست على المفهوم الذي فهمه الجهمية ونحوهم، بأنه مع الناس في كل مكان، وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسير باللازم.

* المبحث الثالث: هل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟

فيه تفصيل:

■ أما المعية العامة فهي ذاتية؛ لأن الله كم يزل ولا يزال محيطاً بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

■ وأما المعية الخاصة، فهي صفة فعلية؛ لأنها تابعة لمشيئة الله، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية؛ فقد سبق لنا أن الرضا من الصفات الفعلية؛ لأنه مقرون بسبب، إذا وجد السبب الذي به يرضى الله وجد الرضا، وكذلك المعية الخاصة إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها في شخص كان الله معه.

* المَبْحَثُ الرَّابِعُ فِي الْمَعِيَّةِ: هَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ أَوْ لَا؟

ذَكَرْنَا ذَلِكَ، وَأَنَّ مِنَ السَّلَفِ مَنْ فَسَّرَهَا بِاللَّازِمِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَرَى الْإِنْسَانَ سِوَاهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ عَلَى حَقِيقَتِهَا، لَكِنَّهَا مَعِيَّةٌ تَلِيْقُ بِاللَّهِ، خَاصَّةً بِهِ.

وَهَذَا صَرِيحُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ هُنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ، لَكِنْ تُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، مِثْلُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا فِي الْأَرْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا بَاطِلٌ مُسْتَجِيلٌ!

* المَبْحَثُ الْخَامِسُ فِي الْمَعِيَّةِ: هَلْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعُلُوِّ تَنَاقُضٌ؟

الْجَوَابُ: لَا تَنَاقُضٌ بَيْنَهُمَا؛ لَوْجُوهٌ ثَلَاثَةٌ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِيمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَوْ كَانَا يَتَنَاقَضَانِ مَا صَحَّ أَنْ يَصِفَ اللَّهُ بِهِمَا نَفْسَهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ نَقُولَ: لَيْسَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ تَعَارُضٌ أَصْلًا؛ إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ عَالِيًا وَهُوَ مَعَكَ، وَمِنْهُ مَا يَقُولُهُ الْعَرَبُ: الْقَمَرُ مَعَنَا وَنَحْنُ نَسِيرُ، وَالشَّمْسُ مَعَنَا وَنَحْنُ نَسِيرُ، وَالْقُطْبُ مَعَنَا وَنَحْنُ نَسِيرُ. مَعَ أَنَّ الْقَمَرَ وَالشَّمْسَ وَالْقُطْبَ كُلَّهُمَا فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا امْتَكَنَ اجْتِمَاعُ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ فِي الْمَخْلُوقِ فَاجْتِمَاعُهُمَا فِي الْخَالِقِ مِنْ بَابٍ أَوَّلَى.

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا عَلَى جَبَلٍ عَالٍ، وَقَالَ لِلْجُنُودِ: اذْهَبُوا إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَأَنَا مَعَكُمْ، وَهُوَ وَاضِعُ الْمِنْظَارِ عَلَى عَيْنَيْهِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَعِيدٍ فَصَارَ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّهُ الْآنَ يُبْصِرُهُمْ كَأَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهُمْ، فَلَا مَرُومَ مُمْكِنٍ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، فَكَيْفَ لَا يُمَكِّنُ فِي حَقِّ الْخَالِقِ؟!

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّهُ لَوْ تَعَدَّرَ اجْتِمَاعُهُمَا فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ لَمْ يَكُنْ مُتَعَدِّرًا فِي حَقِّ الْخَالِقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقَاسَ صِفَاتُ الْخَالِقِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لظُهُورِ التَّبَايُنِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ.

وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سَفَرِهِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ

فِي الْأَهْلِ^(١)، فَجَمَعَ بَيْنَ كَوْنِهِ صَاحِبًا لَهُ وَخَلِيفَةً لَهُ فِي أَهْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ غَيْرُ مُمَكِّنٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَخْصٌ مَا صَاحِبًا لَكَ فِي السَّفَرِ وَخَلِيفَةً لَكَ فِي أَهْلِكَ.

وَبُثِّتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ^(٢): أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ إِذَا قَالَ الْمُصَلِّي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿حَمْدِي عَبْدِي﴾. كَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟ لَا يُحْصَوْنَ. وَكَمْ مِنْ مُصَلِّينَ أَحَدُهُمَا يَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَالثَّانِي يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَهُ رَدٌّ، الَّذِي يَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: ﴿حَمْدِي عَبْدِي﴾. وَالَّذِي يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: ﴿هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْمَيْنِ﴾.

إِذَنْ: يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَعَنَا حَقًّا وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فِي السَّمَاءِ حَقًّا، وَلَا يَفْهَمُ أَحَدٌ أَتَاهَا يَتَعَارَضَانِ، إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُثَمِّلَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ، وَيَجْعَلَ مَعِيَّةَ الْخَالِقِ كَمَعِيَّةِ الْمَخْلُوقِ.

وَنَحْنُ بَيْنًا إِمَّاكَانَ الْجَمْعَ بَيْنَ نُصُوصِ الْعُلُوِّ وَنُصُوصِ الْمَعِيَّةِ، فَإِنْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَصَدَّقْتُ بِمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَقُولُ: كَيْفَ يُمَكِّنُ؟! مُنْكَرًا ذَلِكَ!

إِذَا قَالَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ؟! قُلْنَا: سُؤَالَكَ هَذَا بِدْعَةٌ، لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، وَهُمْ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَسْئُولُهُمْ أَعْلَمُ مِنْ مَسْئُولِكَ وَأَصْدَقُ وَأَفْصَحُ وَأَنْصَحُ، عَلَيْكَ أَنْ تُصَدِّقَ، لَا تَقُلْ: كَيْفَ؟ وَلَا: لِمَ؟ وَلَكِنْ سَلِّمْ تَسْلِيمًا.

تَنْبِيْهُ: تَأَمَّلْ فِي الْآيَةِ نَحْدُ كُلِّ الضَّمَائِرِ تَعَوُّدٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ﴾ فَكَذَلِكَ ضَمِيرٌ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَوْمِنَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَنَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذِهِ الْمَعِيَّةَ لَا تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اللهُ مَعَنَا فِي الْأَرْضِ، بَلْ هُوَ مَعَنَا مَعَ اسْتَوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ.

هَذِهِ الْمَعِيَّةُ إِذَا آمَنَّا بِهَا تُوجِبُ لَنَا خَشْيَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَتَقْوَاهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»^(١).

أَمَّا أَهْلُ الْحُلُولِ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا بِذَاتِهِ فِي أُمُكِنَتِنَا، إِنْ كُنْتَ فِي الْمَسْجِدِ فَاللَّهُ مَعَكَ فِي الْمَسْجِدِ! وَالَّذِينَ فِي السُّوقِ اللَّهُ مَعَهُمْ فِي السُّوقِ!! وَالَّذِينَ فِي الْحَمَامَاتِ اللَّهُ مَعَهُمْ فِي الْحَمَامَاتِ!!

مَا نَزَّهَهُ عَنِ الْأَقْدَارِ وَالْإِتْنَانِ وَأَمَّا كَيْنَ اللَّهْوِ وَالرَّفَثِ!!

* الْمَبْحَثُ السَّادِسُ: فِي شُبْهَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَنَا فِي أُمُكِنَتِنَا وَالرَّدَّ عَلَيْهِمْ:

شُبْهَتُهُمْ: يَقُولُونَ: هَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ لِأَنَّ كُلَّ الضَّمَايِرِ تَعَوَّدُ عَلَى اللَّهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾، ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وَإِذَا كَانَ مَعَنَا فَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ مِنَ الْمَعِيَّةِ إِلَّا الْمُخَالَطَةَ أَوْ الْمُصَاحَبَةَ فِي الْمَكَانِ!!

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُوهِ:

أَوَّلًا: أَنَّ ظَاهِرَهَا لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتُمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ الظَّاهِرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ لَكَانَ فِي الْآيَةِ تَنَاقُضٌ، أَنْ يَكُونَ مُسْتَوِيًّا عَلَى الْعَرْشِ وَهُوَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ! وَالتَّنَاقُضُ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَحِيلٌ.

ثَانِيًا: قَوْلُكُمْ: «إِنَّ الْمَعِيَّةَ لَا تُعْقَلُ إِلَّا مَعَ الْمُخَالَطَةِ أَوْ الْمُصَاحَبَةِ فِي الْمَكَانِ»! هَذَا مَمْنُوعٌ، فَالْمَعِيَّةُ فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ اسْمٌ لِمُطْلَقِ الْمُصَاحَبَةِ، وَهِيَ أَوْسَعُ مَدْلُولًا مِمَّا رَعَمْتُمْ، فَقَدْ تَقْتَضِي

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ - كَمَا فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١/ ٦٠) - وَفِي الْأَوْسَطِ رَقْمَ (٨٧٩٦)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِیَةِ (٦/ ١٢٤)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ رَقْمَ (٩٠٧)، مِنْ حَدِيثِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالحَدِيثُ ضَعْفُهُ الْأَبْلَانِيُّ فِي ضَعِيفِ الْجَامِعِ رَقْمَ (١٠٠٢).

وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِلَفْظٍ: «تَرْكِيَةِ النَّفْسِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ» أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ» (٤/ ٩٥-٩٦)، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «الْأَحَادِ وَالْمَثَانِي» رَقْمَ (١٠٦٢)، وَالفَسْرِيُّ فِي «المَعْرِفَةِ وَالتَّارِيخِ» (١/ ٢٦٩-٢٧٠)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ؛ كَمَا فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣/ ٣٨).

الاختلاط، وَقَدْ تَقْتَضِي الْمَصَاحِبَةَ فِي الْمَكَانِ، وَقَدْ تَقْتَضِي مُطْلَقَ الْمَصَاحِبَةِ وَإِنْ اخْتَلَفَ الْمَكَانُ، هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

- ١ - مِثَالُ الْمَعِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي الْمَخَالَطَةَ: أَنْ يُقَالَ: اسْقُونِي لَبَنًا مَعَ مَاءٍ. أَيْ: مَخْلُوطًا بِمَاءٍ.
- ٢ - وَمِثَالُ الْمَعِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي الْمَصَاحِبَةَ فِي الْمَكَانِ: قَوْلُكَ: وَجَدْتُ فُلَانًا مَعَ فُلَانٍ يَمْشِيَانِ جَمِيعًا وَيَنْزِلَانِ جَمِيعًا.

٣ - وَمِثَالُ الْمَعِيَّةِ الَّتِي لَا تَقْتَضِي الْاِخْتِلَاطَ وَلَا الْمُشَارَكَةَ فِي الْمَكَانِ: أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ مَعَ جُنُودِهِ. وَإِنْ كَانَ هُوَ فِي غُرْفَةِ الْقِيَادَةِ، لَكِنْ يُوجِّهُهُمْ. فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَاطٌ وَلَا مُشَارَكَةٌ فِي مَكَانٍ.

وَيُقَالُ: زَوْجَةُ فُلَانٍ مَعَهُ. وَإِنْ كَانَتْ هِيَ فِي الْمَشْرِقِ وَهُوَ فِي الْمَغْرِبِ.

فَالْمَعِيَّةُ إِذَنْ كَمَا قَالَ سُبْحُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ سَوَاهِدِ اللَّغَةِ: مَذْلُوقُهَا مُطْلَقُ الْمَصَاحِبَةِ، ثُمَّ هِيَ بِحَسَبِ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ.

فَإِذَا قِيلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨] فَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ لَا اخْتِلَاطًا وَلَا مُشَارَكَةً فِي الْمَكَانِ، بَلْ هِيَ مَعِيَّةٌ لَا ثِقَّةٌ بِاللَّهِ، وَمُقْتَضَاهَا النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ.

ثَالِثًا: نَقُولُ: وَضَعْنَا اللَّهَ هَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَأَشَدَّ التَّنْقِصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ ذَكَرَ هَاهُنَا عَنْ نَفْسِهِ مَتَمِّدًا أَنَّهُ مَعَ عَلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ فَهُوَ مَعَ الْخَلْقِ، وَإِنْ كَانُوا أَسْفَلَ مِنْهُ، فَإِذَا جَعَلْتُمُ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ فَهَذَا نَقْصٌ.

إِذَا جَعَلْتُمُ اللَّهَ نَفْسَهُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَنْتُمْ تَدْخُلُونَ الْكُنْفَ فَهَذَا أَعْظَمُ النِّقْصِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَهُ وَلَا لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا: إِنَّكَ أَنْتَ فِي الْكَيْفِ! لَكِنْ كَيْفَ تَقُولُهُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؟! وَهَلْ هَذَا إِلَّا أَعْظَمُ النِّقْصِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ!؟

رَابِعًا: يَلْزَمُ عَلَى قَوْلِكُمْ هَذَا أَحَدُ أَمْرَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا، وَكِلَاهُمَا مُتَمَنِّعٌ: إمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُتَجَرِّئًا، كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ فِي مَكَانٍ.

وإمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّدًا، يَعْنِي: كُلُّ إِلَهٍ فِي جِهَةٍ ضَرُورَةٌ تَعَدِّدُ الْأَمَكِنَةَ.

خامساً: أَنْ تَقُولَ: قَوْلُكُمْ هَذَا أَيْضًا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ حَالًا فِي الْخَلْقِ؛ فَكُلُّ مَكَانٍ فِيهِ الْخَلْقُ فَاللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، وَصَارَ هَذَا سَلْمًا لِقَوْلِ أَهْلِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ بَاطِلٌ، وَمُقْتَضَى هَذَا الْقَوْلِ الْكُفْرُ.

وَلِهَذَا نَرَى أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فِي الْأَرْضِ. فَهُوَ كَافِرٌ؛ يُسْتَتَابُ، وَيُبَيَّنُ لَهُ الْحَقُّ، فَإِنْ رَجَعَ وَإِلَّا وَجَبَ قَتْلُهُ.

* وَهَذِهِ آيَاتُ الْمَعِيَةِ:

الآيَةُ الْأُولَى:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَالشَّاهِدُ فِيهَا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، وَهَذِهِ مِنَ الْمَعِيَةِ الْعَامَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِحَاطَةَ بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا وَسَمْعًا وَبَصَرًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿مَا يَكْشُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].»

* قَوْلُهُ: «﴿مَا يَكْشُوثُ﴾»: «يَكْشُوثُ» تَامَّةٌ، يَعْنِي: مَا يُوجَدُ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾»: قِيلَ: إِنَّهَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَأَصْلُهَا: مِنْ ثَلَاثَةِ نَجْوَى، وَمَعْنَى «﴿نَجْوَى﴾» أَيُّ: مُتَنَاجِينَ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾» وَلَمْ يَقُلْ: إِلَّا هُوَ تَالِثُهُمْ؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ، وَإِذَا كَانَ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ فَإِنَّهُ يُؤْتَى بِالْعَدَدِ التَّالِي، أَمَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْجِنْسِ فَإِنَّهُ يُؤْتَى بِنَفْسِ الْعَدَدِ، أَنْظِرْ إِلَى

قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ النَّصَارَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وَلَمْ يَقُولُوا: ثَالِثُ اثْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْجِنْسِ عَلَى زَعْمِهِمْ! فَعِنْدَهُمْ كُلُّ الثَّلَاثَةِ إِلَهَةٌ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْجِنْسِ عَلَى زَعْمِهِمْ قَالُوا فِيهِ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

* قَوْلُهُ: ﴿وَلَا حَسَّةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ ذَكَرَ الْعَدَدَ الْفَرْدِيَّ ثَلَاثَةً وَحَسَّةً، وَسَكَتَ عَنِ الْعَدَدِ الرَّوَاجِيِّ، لَكِنَّهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَذَى مِنْ ذَلِكَ﴾ الْأَذَى مِنَ ثَلَاثَةِ اثْنَانِ ﴿وَلَا أَكْثَرُ﴾ مِنْ حَسَّةٍ، سِتَّةٌ فَمَا فَوْقَ.

مَا مِنْ اثْنَيْنِ فَأَكْثَرُ يَتَنَاجِيَانِ بِأَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ مَعَهُمْ. وَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ عَامَّةٌ؛ لِأَنَّهَا تَشْمَلُ كُلَّ أَحَدٍ: الْمُؤْمِنَ، وَالْكَافِرَ، وَالْبَرَّ، وَالْفَاجِرَ، وَمُقْتَضَاهَا الْإِحَاطَةُ بِهِمْ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسَمْعًا وَبَصَرًا وَسُلْطَانًا وَتَدْبِيرًا وَغَيْرَ ذَلِكَ.

* وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يَعْني: أَنَّ هَذِهِ الْمَعِيَّةَ تَقْتَضِي إِخْصَاءَ مَا عَمِلُوهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَبَّأَهُمْ بِمَا عَمِلُوا، يَعْني: أَخْبَرَهُمْ بِهِ وَحَاسَبَهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْبَاءِ لَارِزْمَهُ، وَهُوَ الْحَاسِبَةُ، لَكِنْ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْصِي أَعْمَالَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: «سَرَرْتُمَا عَلَيَّكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١).

* وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: كُلُّ شَيْءٍ مَوْجُودٍ أَوْ مَعْدُومٍ، جَائِزٍ أَوْ وَاجِبٍ أَوْ مُتَمَنِّعٍ، كُلُّ شَيْءٍ، فَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا الْكَلَامُ عَلَى صِفَةِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى بِالْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحِيلِ، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

﴿قَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنْ كُنَّ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٠]﴾.

الْخِطَابُ لِأَيِّ بَكْرٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رَقْمُ (٢٤٤١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، رَقْمُ (٢٧٦٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿التَّوْبَةُ: ٤٠﴾.

أولاً: نصره حين الإخراج ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ثانياً: وعند المكث في الغار ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

ثالثاً: عند الشدة حينها وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى فَمِ الْغَارِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾.
فهذه ثلاثة مواقع بَيَّنَّ اللهُ تعالى فيها نصره لِنَبِيِّهِ ﷺ.

وهذا الثالث حين وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عليهم، يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»^(١) يعني: إِنَّا عَلَى خَطَرٍ، كَقَوْلِ أَصْحَابِ مُوسَى لَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فطمأنه، وأدخل الأمان في نفسه، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وقوله هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: نَهْيٌ يَشْمَلُ الْهَمَّ مِمَّا وَقَعَ وَمَا سَيَقَعُ، فَهُوَ صَالِحٌ لِلْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ.

والحزن: تَأَلُّمُ النَّفْسِ وَشِدَّةُ هَمِّهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: وهذه المعية خاصة، مُقَيَّدَةٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَتَقْتَضِي مَعَ الْإِحَاطَةَ الَّتِي هِيَ الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ.

ولهذا وَقَفَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْغَارِ، وَلَمْ يُبْصِرُوا هُمَا! أَعْمَى اللهُ أَبْصَارَهُمْ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: فَجَاءَتِ الْعَنْكَبُوتُ فَتَسَجَّتْ عَلَى بَابِ الْغَارِ، وَالْحَمَامَةُ وَقَعَتْ عَلَى بَابِ الْغَارِ، فَلَمَّا جَاءَ الْمُشْرِكُونَ، وَإِذَا عَلَى الْغَارِ حَمَامَةٌ وَعُشٌّ عَنكَبُوتٍ، فَقَالُوا: لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَانْصَرَفُوا^(١)، فَهَذَا بَاطِلٌ!!

الْحِمَايَةُ الإِلَهِيَّةُ وَالْآيَةُ الْبَالِغَةُ أَنْ يَكُونَ الْغَارُ مَفْتُوحًا صَافِيًا، لَيْسَ فِيهِ مَانِعٌ حَسِّيٌّ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَرَوْنَ مَنْ فِيهِ، هَذِهِ هِيَ الْآيَةُ!! أَمَّا أَنْ تَأْتِيَ حَمَامَةٌ وَعَنْكَبُوتٌ تُعَشِّشُ، فَهَذَا بَعِيدٌ، وَخِلَافُ قَوْلِهِ: «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنَا».

الْمِثْلُ أَنْ بَعْضَ الْمُؤَرِّخِينَ -عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ- يَأْتُونَ بِأَشْيَاءَ غَرِيبَةٍ شاذَّةٍ مُنْكَرَةٍ لَا يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ، وَلَا يَصِحُّ بِهَا النُّقْلُ.
الْآيَةُ الرَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]».

هَذَا الْخِطَابُ لِمُوسَى وَهَارُونَ، لَمَّا أَمَرَهُمَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ، قَالَ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى^(٢)﴾ فَقُولَا لَهُ: قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١١﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى^(٣) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٣-٤٦].

فَقَوْلُهُ: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾: جُمْلَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ لِبَيَانِ مُقْتَضَى هَذِهِ الْمَعِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ السَّمْعُ وَالرُّؤْيُ، وَهَذَا سَمْعٌ وَرُؤْيُ خَاصَّانِ تَقْتَضِيَانِ النَّصْرَ وَالتَّائِيدَ وَالْحِمَايَةَ مِنْ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾.

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]».

هَذِهِ جَاءَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى (١/ ٢٢٨-٢٢٩)، وَابْنُ الْبَرِّ فِي الْمُسْنَدِ (١٠/ ٢٤٥) رَقْمَ (٤٣٤٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (٢٠/ ٤٤٣) رَقْمَ (١٠٨٢) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، وَالْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنْسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (٦/ ٥٣): وَفِيهِ جَمَاعَةٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ (٤/ ٤٥٤): وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ» رَقْمَ (١١٢٨). وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ (١/ ٣٤٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، خَبَرَ الْعَنْكَبُوتَ فَقَطْ.

خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٦-١٢٧﴾.

عُقُوبَةُ الْجَانِي بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ مِنْ بَابِ التَّقْوَى، وَبَاكَثَرُ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، وَالْعَفْوُ إِحْسَانٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

وَالْمَعِيَّةُ هُنَا خَاصَّةٌ مُقَيَّدَةٌ بِصِفَةٍ: كُلُّ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُحْسِنِينَ فَاللَّهُ مَعَهُ.

وَهَذَا يُثَبِّرُ لَنَا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَالَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ: الْحِرْصَ عَلَى الْإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى؛ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَعَهُ.

الآيَةُ السَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].»

سَبَقَ لَنَا أَنْ الصَّبْرَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنِ التَّسَخُّطِ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ، سِوَاءٍ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْجَوَارِحِ.

وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ: الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ فِيهِمَا اخْتِيَارًا: إِنْ شَاءَ الْإِنْسَانُ فَعَلَ الْمَأْمُورَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ الْمَحْرَمَ وَإِنْ شَاءَ مَا تَرَكَهُ، ثُمَّ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ أَقْدَارَ اللَّهِ وَإِقْعَةً شِئْتَ أَمْ أَبَيْتَ، فإِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ وَإِمَّا أَنْ تَسْلُوَ سَلْوَ الْبَهَائِمِ.

وَالصَّبْرُ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ لَا تُنَالُ إِلَّا بِشَيْءٍ يُصْبِرُ عَلَيْهِ، أَمَّا مَنْ فُرِشَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَرُودًا، وَصَارَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا يُرِيدُ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّعَبِ النَّفْسِيِّ أَوْ الْبَدَنِيِّ الدَّاخِلِيِّ أَوْ الْخَارِجِيِّ.

وَلِهَذَا جَمَعَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ.

فَالشُّكْرُ كَانَ يَقُومُ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، رقم (٤٨٣٧)، ومسلم:

وَالصَّبْرُ: صَبْرٌ عَلَى مَا أُودِيَ؛ فَقَدْ أُودِيَ مِنْ قَوْمِهِ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ صَابِرٌ.

الآيَةُ السَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾»

[البقرة: ٢٤٩].

* «﴿كَم﴾»: خَبَرِيَّةٌ، تُعِيدُ التَّكْثِيرَ، يَعْنِي: فِتْنَةٌ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ عِدَّةً مَّرَاتٍ، أَوْ فِتْنَاتٌ قَلِيلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لَكِنْ لَا بِحَوْلِهِمْ وَلَا بِقُوَّتِهِمْ، بَلْ بِإِذْنِ اللَّهِ، أَيْ بِإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَصْحَابُ طَالُوتَ غَلَبُوا عَدُوَّهُمْ وَكَانُوا كَثِيرِينَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَصْحَابُ بَدْرٍ غَلَبُوا قُرَيْشًا وَهُمْ كَثِيرُونَ.

أَصْحَابُ بَدْرٍ خَرَجُوا لَعْنِ قِتَالٍ، بَلْ لِأَخْذِ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبُو سُفْيَانَ لَمَّا عَلِمَ بِهِمْ أَرْسَلَ صَارِخًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُ: أَنْقِذُوا عِيرَكُمْ، مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ خَرَجُوا إِلَيْنَا يُرِيدُونَ أَخْذَ الْعِيرِ.

وَالْعِيرُ فِيهَا أَرْزَاقُ كَثِيرَةٍ لِّقُرَيْشٍ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِأَسْرَافِهَا وَأَعْيَانِهَا وَخِيَلَانِهَا وَبَطْرِهَا، يُظْهِرُونَ الْقُوَّةَ وَالْفَخْرَ وَالْعِزَّةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ! لَا تَرْجِعْ حَتَّى نَقْدَمَ بَدْرًا، فَنُقِيمَ فِيهَا ثَلَاثًا، نَنْحَرَ الْجُرُورَ، وَنَسْقِيَ الْخُمُورَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بَنَاءَ الْعَرَبِ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا^(١).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، غَنَوْنَا عَلَى قَتْلِهِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ!

كَانَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مَا بَيْنَ تِسْعِمَائَةٍ وَأَلْفٍ، كُلُّ يَوْمٍ يَنْحَرُونَ مِنَ الْإِبِلِ تِسْعًا إِلَى عَشْرِ،

= كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨٢٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٢١٧/١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦١٨-٦١٩).

وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثِيَّةٌ وَأَرْبَعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا^(١) مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا وَفَرَسَانِ فَقَطٍ يَتَعَاقَبُونَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ قَتَلُوا الصَّنَادِيدَ الْعُظْمَاءَ لِقُرَيْشٍ حَتَّى جِئُوا وَانْتَفَحُوا مِنَ الشَّمْسِ، وَسُجِبُوا إِلَى قَلْبٍ مِنْ قَلْبٍ بِدَرٍ خَبِيثَةٍ.

﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ الْقَلِيلَةَ صَبَرَتْ ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ صَبَرَتْ كُلُّ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ، عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَعَلَى مَا أَصَابَهَا مِنَ الْجُهْدِ وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ فِي تَحْمِيلِ أَغْيَاءِ الْجِهَادِ ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

انْتَهَتْ آيَاتُ الْمَعِيَةِ، وَسَيَأْتِي لِلْمُؤَلَّفِ رَحْمَةُ اللَّهِ فَضْلٌ كَامِلٌ فِي تَقْرِيرِهَا.

فَمَا هِيَ الثَّمَرَاتُ الَّتِي نَسْتَفِيدُهَا بِأَنَّ اللَّهَ مَعَنَا؟

أَوَّلًا: الْإِيمَانُ بِحَاطَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ فَهُوَ مَعَ خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ أَبَدًا.

ثَانِيًا: أَنَّنَا إِذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ وَآمَنَّا بِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَنَا كَمَالَ مُرَاقَبَتِهِ بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ، بِحَيْثُ لَا يَفْقِدُنَا حَيْثُ أَمَرْنَا، وَلَا يَجِدُنَا حَيْثُ نَهَانَا، وَهَذِهِ ثَمَرَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِذِهِ الْمَعِيَةِ.



* إِبْنَاتُ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى :

الْشَّرْحُ:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى. الْآيَةُ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].»

(١) أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ مِنْ مَرْسَلِ أَبِي الْبَيَّانِ عَامِرِ الْهُوزَنِيِّ، وَوَصَلَهُ الطَّرِيفِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ؛ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٧/ ٢٩١)، وَانْظُرْ: سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ (١/ ٧٠٦).

* «وَمَنْ»: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَإِتْيَانُ النَّفْيِ بِصِغَةِ الاسْتِفْهَامِ أَبْلَغُ مِنْ
إِتْيَانِ النَّفْيِ جُرْدًا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالِاسْتِفْهَامِ مُشْرَبًا مَعْنَى التَّحْدِيدِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا أَحَدَ أَصْدَقُ
مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا، وَإِذَا كُنْتَ تَزْعُمُ خِلَافَ ذَلِكَ، فَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ؟
* وَقَوْلُهُ: «(حَدِيثًا)» وَ«(قِيلًا)»: تَمَيِّزٌ لـ «أَصْدَقُ».

وإثباتُ الكلامِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَصْدَقُ»؛ لِأَنَّ الصَّدْقَ يُوصَفُ
بِهِ الْكَلَامُ، وَقَوْلُهُ: «(حَدِيثًا)»؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ هُوَ الْكَلَامُ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: «(قِيلًا)»
يَعْنِي: قَوْلًا، وَالْقَوْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّفْظِ.

فَفِيهِمَا إِبْتِاثُ الْكَلَامِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ كَلَامَهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ بَوَاحٍ مِنْ
الْوُجُوهِ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

«قَوْلُهُ: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» [المائدة: ١١٦].

* قَوْلُهُ: «(يٰعِيسَى)»: مَقُولُ الْقَوْلِ، وَهِيَ جُمْلَةٌ مِنْ حُرُوفٍ: «يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ».
فَفِي هَذَا إِبْتِاثُ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ، وَأَنَّ قَوْلَهُ مَسْمُوعٌ، فَيَكُونُ بَصَوْتٍ، وَأَنَّ قَوْلَهُ كَلِمَاتٌ
وَجُمْلٌ، فَيَكُونُ بِحَرْفٍ.

ولهَذَا كَانَتْ عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ مَتَى شَاءَ، كَيْفَ
شَاءَ، بِمَا شَاءَ، بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، لَا يُبَايِلُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ.
«مَتَى شَاءَ»: بِاعْتِبَارِ الزَّمَنِ.

«بِمَا شَاءَ»: بِاعْتِبَارِ الْكَلَامِ، يَعْنِي: مَوْضُوعَ الْكَلَامِ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

«كَيْفَ شَاءَ»: يَعْنِي عَلَى الْكَيْفِيَّةِ وَالصِّفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قُلْنَا: إِنَّهُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لَا يُشَبِّهُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ.

الدَّلِيلُ عَلَى هَذَا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ»: هَذَا حُرُوفٌ.

وَبَصُوتٍ؛ لِأَنَّ عِيسَى يَسْمَعُ مَا قَالَ.

لَا يُثَابِلُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: ١١].

الآية الرابعة:

«قَوْلُهُ: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].»

* «﴿كَلِمَتُ﴾» بالإفراد، وفي قِرَاءَةِ (كَلِمَاتٍ) بالجمع، ومعناها واحد؛ لِأَنَّ «﴿كَلِمَتُ﴾» مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فَيَعُمُّ.

تَمَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ، وَالَّذِي يُوصَفُ بِالصِّدْقِ الْحَبْرُ، وَالَّذِي يُوصَفُ بِالْعَدْلِ الْحُكْمُ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ^(١): صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ.

فكَلِمَاتُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي الْأَخْبَارِ صِدْقٌ، لَا يَغْتَرِبُهَا الْكَذِبُ بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَفِي الْأَحْكَامِ عَدْلٌ، لَا جَوْرَ فِيهَا بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

هُنَا وَصِفَتِ الْكَلِمَاتُ بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ. إِذَنْ: فِيهِ أَقْوَالٌ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ هُوَ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: كَاذِبٌ أَوْ صَادِقٌ.

الآية الخامسة:

«قَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].»

* «﴿اللَّهُ﴾»: فَاعِلٌ، فَالْكَلَامُ وَاقِعٌ مِنْهُ.

* «﴿تَكْلِيمًا﴾»: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، وَالْمَصْدَرُ الْمُؤَكَّدُ -بِكسْرِ الكافِ- قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ يَنْفِي اخْتِمَالَ الْمَجَازِ. فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ الْمُؤَكَّدَ يَنْفِي اخْتِمَالَ الْمَجَازِ.

أَرَأَيْتَ لَوْ قُلْتَ: جَاءَ زَيْدٌ. فَيُفْهَمُ أَنَّهُ جَاءَ هُوَ نَفْسُهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: جَاءَ خَبْرٌ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٩).

زَيْدٍ، وَإِنْ كَانَ خِلَافَ الظَّاهِرِ، لَكِنْ إِذَا أَكْذَتَ فَقُلْتَ: جَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ. أَوْ: جَاءَ زَيْدٌ زَيْدٌ. انْتَفَى اِحْتِمَالُ الْمَجَازِ.

فَكَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلْ لِمُوسَى كَلَامٌ حَقِيقِيٌّ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ سَمِعَهُ؛ وَلِهَذَا جَرَتْ بَيْنَهُمَا مُحَاوَرَةٌ، كَمَا فِي سُورَةِ طه وَغَيْرِهَا.

الآيَةُ السَّادِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

* «﴿مِنْهُمْ﴾» أَي: مِنْ الرُّسُلِ.

* «﴿مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾»: الْاسْمُ الْكَرِيمُ ﴿اللَّهُ﴾ فَاعِلٌ كَلَّمَ، وَمَفْعُولُهَا مَحْذُوفٌ يَعُودُ عَلَى ﴿مَنْ﴾ وَالتَّقْدِيرُ: كَلَّمَهُ اللَّهُ.

الآيَةُ السَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أَفَادَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ الْكَلَامَ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلَامَ صَارَ حِينَ الْمَجِيءِ، لَا سَابِقًا عَلَيْهِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ كَلَامَهُ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ.

فَيَبْطُلُ بِهِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ، وَإِنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ.

كَمَا تَقُولُهُ الْأَشَاعِرَةُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يُبْطَلُ زَعْمُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُوسَى فَقَطْ هُوَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ، وَحَرَفَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] إِلَى نَصْبِ الْاسْمِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَا يُمَكِّنُهُ زَعْمُ ذَلِكَ وَلَا تَحْرِيفُهَا.

الآيَةُ الثَّامِنَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَا﴾ [مريم: ٥٢].

* «﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾»: ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ، وَضَمِيرُ الْمَفْعُولِ يَعُودُ إِلَى مُوسَى،

أَيُّ: نَادَى اللَّهُ مُوسَى.

* و﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ حَنْبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ نَحْيًا﴾: حَالٌ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ،

أَيُّ: مُنَاجَى.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ أَنَّ الْمُنَادَاةَ تَكُونُ لِلْبَعِيدِ وَالْمُنَاجَاةَ تَكُونُ لِلْقَرِيبِ،
وِكِلَاهُمَا كَلَامٌ.

وَكُونُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَتَكَلَّمُ مُنَادَاةً وَمُنَاجَاةً دَاخِلٌ فِي قَوْلِ السَّلَفِ: «كَيْفَ شَاءَ».

فَهَذِهِ الْآيَةُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ كَيْفَ شَاءَ، مُنَادَاةً كَانَ الْكَلَامُ أَوْ مُنَاجَاةً.

الآيَةُ النَّاسِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]».

* ﴿وَإِذْ نَادَى﴾: يَغْنِي: وَادُّكُرْ إِذْ نَادَى.

وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ: ﴿رَبُّكَ مُوسَى﴾. فَسَّرَ النَّدَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فَالنَّدَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِصَوْتٍ، و﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِحَرْفٍ.

الآيَةُ الْعَاشِرَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]».

* ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا﴾: ضَمِيرُ الْمَفْعُولِ بِهِ يَعُودُ عَلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ.

* ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾: يُقَرَّرُ أَنَّهُ تَهَايَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَهَذَا يَدُلُّ

عَلَى أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُمَا مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ؛
لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ بَعْدَ النَّهْيِ، فَيَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالْمَشِيئَةِ.

الآيَةُ الْحَادِيثَةُ عَشْرَةَ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]».

يَغْنِي: وَادُّكُرْ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُنَادِي هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ ﴿فَيَقُولُ﴾.

وفي هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.
وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، بما شاء، كيف شاء، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين.
وهذه هي العقيدة السلفية، عقيدة أهل السنة والجماعة.



* إثبات أن القرآن كلام الله :

الشرح:

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله.

وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة، وحصل بها شر كثير على أهل السنة، ومن أودى في الله في ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة، الذي قال فيه بعض العلماء: «إن الله سبحانه وتعالى حفظ الإسلام (أو قال: نصره) بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة»^(١).

والمحنة: هي أن المأمون - عفا الله عنا وعنّه - أجبر الناس على أن يقولوا بخلق القرآن، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا، وأكثر العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر، وصاروا يتأولون:

■ إماماً بأن الحال حال إكراه، والمكره إذا قال الكفر قلبه مطمئن بالإيمان فإنه مغفور عنه.
■ وإماماً بتزليل اللفظ على غير ظاهره، يتأولون، فيقولون مثلاً: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور هذه مخلوقة. وهو يتأول أصابعه.

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح رحمهما الله فأبيا ذلك، وقالوا: القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق. ورأينا أن الإكراه في هذا المقام لا يسوغ لهما أن يقولوا خلاف الحق؛ لأن المقام

(١) قاله علي بن المديني، فيما أخرجه عنه الحافظ عبد الغني المقدسي في كتابه «محنة الإمام أحمد بن حنبل» (ص: ٣١)، وانظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ١٤٩، ١٥٠)، «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٩٦).

مقام جهادٍ، والإكراه يُقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصيةً، بمعنى: أن تكون على الشخص نفسه. أمّا إذا كانت المسألة لحفظ شريعة الله فالواجب أن يتبرع الإنسان برفقته لحفظ شريعة الله عزَّ وجلَّ.

لَوْ قَالَ الْإِمَامُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَلَوْ بَتَأْوِيلٍ أَوْ لَدَفْعِ الْإِكْرَاهِ لَقَالَ النَّاسُ كُلُّهُمْ: الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ! وَحِينَئِذٍ يَتَغَيَّرُ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْ أَجْلِ دَفْعِ الْإِكْرَاهِ، لَكِنَّهُ صَمَمَ، فَصَارَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

المهم أن القول في القرآن جزء من القول في كلام الله على العموم، لكن لما وقعت فيه المحنة، وصار يحك النزاع بين المعتزلة وأهل السنة صار الناس يُفردون القول في القرآن بكلام خاص.

والمؤلف رحمه الله من الآن ساق الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله في آيات متعدّدة.

الآية الأولى:

«قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].»

* «(أحدٌ)»: هذه اسم، و(إن): أداة الشرط، والاسم إذا ولي أداة الشرط فقد ولي أداة لا يليها إلا الفعل، فاختلَفَ النحويون في هذا:

فقال بعضهم: إنه فاعل لفعل مخدوف يُفسرُه ما بعده، وعليه يكون «أحدٌ» فاعل لفعل مخدوف، والتقدير: وإن استجارَكَ أحدٌ من المشركين فأجره، ومثلها: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» [الانشقاق: ١] ف«السَّمَاءُ»: فاعل لفعل مخدوف، والتقدير: إذا انشقت السماء.

القول الثاني: وهو قول الكوفيّين وهم في الغالب أسهل من البصريّين: أن «أحدٌ» فاعل مُقدّم، والفعل (استجارَكَ) مؤخّر، ولا حاجة للتقدير.

والقول الثالث: أن ورود الأسماء بعد أدوات الشرط في القرآن كثيرًا يدل على عدم امتناعه، وعلى هذا القول يكون الاسم الواقع بعد أداة الشرط مُبتدأ إذا كان مرفوعًا، فيكون «أحدٌ»: مُبتدأ، و«استجارَكَ»: خبر المُبتدأ.

وَالْقَاعِدَةُ عِنْدِي أَنْ مَا كَانَ أَسهَلَ مِنْ أَقْوَالِ النَّحْوِيِّينَ فَهُوَ الْمُتَّبَعُ؛ حَيْثُ لَا مَانِعَ شَرْعًا مِنْ ذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: ﴿اَسْتَجَارَكَ﴾ أي: طَلَبَ جِوَارَكَ، وَالْجَوَارُ بِمَعْنَى الْعِصْمَةِ وَالْحِمَايَةِ.

* ﴿حَتَّى يَسْمَعَ﴾: ﴿حَتَّى﴾ لِلْغَايَةِ، وَالْمَعْنَى: إِنْ أَحَدٌ اسْتَجَارَكَ لِيَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، أَيِ: الْقُرْآنَ، وَهَذَا بِالِاتِّفَاقِ.

وَأَمَّا قَالَ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾؛ لِأَن سَاعَ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مُؤَثَّرٌ وَلَا بُدَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ فَأَمَنَ، لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ يَفْهَمُهُ تَمَامًا.

* وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾: أَضَافَ الْكَلَامَ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ.

وَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقُرْآنِ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

■ قَوْلُهُمْ: «كَلَامُ اللَّهِ» دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةِ: ٦] وَبِمَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ.

■ وَقَوْلُهُمْ: «مُنَزَّلٌ» دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [الْقَدَرِ: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الْإِسْرَاءِ: ١٠٦].

■ وَقَوْلُهُمْ: «غَيْرُ مَخْلُوقٍ» دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤]، فَجَعَلَ الْخَلْقَ شَيْئًا، وَالْأَمْرَ شَيْئًا آخَرَ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايِرَةَ، وَالْقُرْآنُ مِنَ الْأَمْرِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّرَى: ٥٢]، فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ أَمْرًا، وَهُوَ قَسِيمٌ لِلْخَلْقِ صَارَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَخْلُوقًا مَا صَحَّ التَّقْسِيمُ. وَهَذَا دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ.

أَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ فنقول: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَالْكَلَامُ لَيْسَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا حَتَّى يَكُونَ بَائِنًا مِنَ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا بَائِنَةً مِنَ اللَّهِ لَقُلْنَا: إِنَّهُ تَخْلُقُ، لَكِنْ الْكَلَامُ صِفَةٌ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ، فَإِذَا كَانَ صِفَةً لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ، وَكَانَ مِنَ اللَّهِ، كَانَ غَيْرَ تَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ كُلُّهَا غَيْرُ تَخْلُوقَةٍ.

وأيضاً: لَوْ كَانَ تَخْلُوقًا لَبَطَلَ مَذْلُوعُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَيْرِ وَالِاسْتِخْبَارِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّغَةَ لَوْ كَانَتْ تَخْلُوقَةً لَكَانَتْ مُجَرَّدَ أَشْكَالٍ خُلِقَتْ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، لَا دَلَالَهَ لَهَا عَلَى مَعْنَاهَا، كَمَا يَكُونُ شَكْلُ النُّجُومِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَنَحْوِهَا.

■ وَقَوْلُهُمْ: «مِنْهُ بَدَأَ» أَيُّ: هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ بِهِ، وَتَكَلَّمَ بِهِ أَوَّلًا.

وَالْقُرْآنُ أُضِيفَ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى جِبْرِيلَ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ:

مِثَالُ الْأَوَّلِ: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿فَاجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فَيَكُونُ «مِنْهُ بَدَأَ» أَيُّ: مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَّالُهُ، وَ«مِنْهُ»: حَرْفُ جَرٍّ وَضَمِيرٌ قَدَّمَ عَلَى عَامِلِهِ لِفَائِدَةِ الْحَضَرِ وَالِاخْتِصَاصِ.

ومِثَالُ الثَّانِي -إِضَافَتِهِ إِلَى جِبْرِيلَ- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^١ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ

ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢٠].

ومِثَالُ الثَّالِثِ -إِضَافَتِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^٢

وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ ﴿[الحاقة: ٤٠-٤١]، لَكِنْ أُضِيفَ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا يُبَلِّغَانِيهِ، لَا لِأَنَّهَا ابْتَدَأَتْ.

■ وَقَوْلُهُمْ: «وَالَّذِي يَعُودُ»: فِي مَعْنَاهُ وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ: يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ، فَيُضْبِحُ النَّاسُ لَيْسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

قُرْآنٌ؛ لَا فِي صُدُورِهِمْ، وَلَا فِي مَصَاحِفِهِمْ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ^(١).

(١) أخرج الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيُزْنَ عَنِ الْقُرْآنِ مَنْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيَذْهَبُ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ»، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرُ شَدَادِ بْنِ مَعْقِلٍ وَهُوَ ثَقَّةٌ، كَمَا فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٧/ ٣٢٩-٣٣٠)، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: سَنَدُهُ صَحِيحٌ لَكِنْهُ مَوْقُوفٌ.

وهذا -والله أعلم- حينما يُعرض عنه الناس إغراضاً كلياً، لا يتلونه لفظاً ولا عقيدةً ولا عملاً، فإنه يُرفع؛ لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدي أناسٍ هَجَرُوهُ وأَعْرَضُوا عنه، فلا يقدرونه قدره، وهذا -والله أعلم- نظير هدم الكعبة في آخر الزمان^(١)؛ حيث يأتي رَجُلٌ مِنَ الْحَبَشَةِ قَصِيرٌ أَفْحَجٌ أَسْوَدٌ، يأتي بجُنُودِهِ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَيَنْقُضُ الْكَعْبَةَ حَجَرًا حَجَرًا، كُلَّمَا نَقَضَ حَجَرًا مَدَّهُ لِلَّذِي يَلِيهِ... وهكذا يَتِمُّ هَدْمُ الْأَحْجَارِ إِلَى أَنْ يَرْمُوهَا فِي الْبَحْرِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلُ يُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ أَبْرَهَةَ جَاءَ بِخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ وَفِيهِهِ فَقَصَمَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ هَذَا النَّبِيَّ، وَتُعَادُ إِلَى الْمَسْجِدِ هَيْئَتُهُ وَعَظَمَتُهُ، وَلَكِنْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَنْ يُبْعَثَ نَبِيٌّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِذَا أَعْرَضَ النَّاسُ عَنِ تَعْظِيمِ هَذَا الْبَيْتِ نَهَائِيًا فَإِنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الْحَبَشَةِ، فَهَذَا نَظِيرُ رَفْعِ الْقُرْآنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الوجه الثاني: فِي مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «وَالَيْهِ يَعُودُ»: أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ وَضَفَاءً؛ أَيَّ أَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِهِ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ، فَيَكُونُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْقُرْآنِ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلُ، وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِهِ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمَعْنَيْنِ كِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

هَذَا كَلَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

«فتح الباري» (١٦/١٣)، وقد صح مرفوعاً نحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه، أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، رقم (٤٠٤٩)، وقوى إسناده الحافظ في «الفتح» (١٦/١٣) وانظر: «الصححة» للألباني (٨٧).

(١) لما أخرجه الإمام أحمد (٢/٢٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّوَيْتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيُسَلِّبُهَا حَلِيتُهَا وَيَجْردها من كسوتها، ولكأنَّيْ أَنْظَرَ إِلَيْهِ أَصْلِيلُ أَفِيدِعٍ يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمَسْحَاتِهِ وَمَعُولُهُ».

وعند البخاري: كتاب الحج، باب قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ»، رقم (١٥٩١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عليه وسلم: «يُخْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّوَيْتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ»، وانظر كتاب «أشراط الساعة» للشيخ يوسف الوابل (ص: ٢٣١).

وَيَرَى الْمُعْتَزِّلَةَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ!

وَيَسْتَدِلُّونَ لِذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وَالْقُرْآنَ شَيْءٌ، فَيَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ وَلَئِنَّهُ مَا تَمَّ إِلَّا خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ خَالِقٌ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ.

والجواب من وجهين:

الأول: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَصِفَاتُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ. الثَّانِي: أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ عَامٌّ قَدْ يُرَادُ بِهِ الْخَاصُّ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَلَكَةٍ سَبَأٍ: ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وَقَدْ خَرَجَ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي مِلْكِهَا مِنْهُ شَيْءٌ، مِثْلُ مُلْكِ سُلَيْمَانَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ قَوْلِنَا: إِنَّهُ مُتَزَّلٌ. وَقَوْلِنَا: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، بَيْنَهُمَا فَرْقٌ كَبِيرٌ، جَرَتْ بِسَبَبِهِ الْمُخَنَّةُ الْكُبْرَى فِي عَصْرِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ. فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مُتَزَّلٌ. فَهَذَا مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: تَكْذِيبُ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُوحًى إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقًا مَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ مُوحًى، فَإِذَا كَانَ وَخِيًا لَزِمَ أَلَّا يَكُونَ مَخْلُوقًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ.

ثَانِيًا: إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ. فَإِنَّهُ يَلْزِمُ عَلَى ذَلِكَ إِبْطَالُ مَذْهَبِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَبَرِ وَالِاسْتِخْبَارِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّغَ لَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً لَكَانَتْ مُجَرَّدَ شَكْلِ خُلُقٍ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، كَمَا خُلِقَتِ الشَّمْسُ عَلَى صُورَتِهَا، وَالْقَمَرُ عَلَى صُورَتِهِ، وَالنَّجْمُ عَلَى صُورَتِهِ... وَهَكَذَا، وَلَمْ تَكُنْ أَمْرًا وَلَا نَهْيًا وَلَا خَبْرًا وَلَا اسْتِخْبَارًا، فَمِثْلًا: كَلِمَةُ (قُلْ) (لَا تَقُلْ) (قَالَ فُلَانٌ) (هَلْ قَالَ فُلَانٌ)

كُلُّهَا نُفُوسٌ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، فَتَبْطُلُ دَلَالَتُهَا عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَيْرِ وَالْإِسْتِخْبَارِ، وَتَبْقَى كَأَنَّهَا صُورٌ وَنُفُوسٌ لَا تُقَيَّدُ شَيْئًا.

ولهذا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (النُّوْبَةِ): «إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَبْطُلُ بِهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ»؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ خُلِقَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ دُونَ أَنْ يُعْتَبَرَ مَذْلُومُهُ، وَالنَّهْيُ خُلِقَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ دُونَ أَنْ يُقْصَدَ مَذْلُومُهُ، وَكَذَلِكَ الْحَبْرُ وَالْإِسْتِخْبَارُ».

ثالثًا: إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَقَدْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ إِضَافَةً خَلَقَ صَحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى كُلِّ كَلَامٍ مِنَ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ الْخَلْقِ مَخْلُوقٌ، وَبِهَذَا التَّرَمُّ أَهْلُ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ؛ حَيْثُ يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَشْرُهُ وَنَظَامُهُ^(١)

وهَذَا اللَّازِمُ بَاطِلٌ، وَإِذَا بَطُلَ اللَّازِمُ بَطَلَ الْمَلْزُومُ.

فهذه ثلاثة أوجهٌ تُبْطِلُ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ.

وَالْوَجْهَ الرَّابِعُ: أَنْ نَقُولَ: إِذَا جَوَزْتُمْ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ - وَهُوَ مَعْنَى لَا يَقُومُ إِلَّا بِمُتَكَلِّمٍ - مَخْلُوقًا، لَمْ يَكُنْ أَنْ تَجُوزُوا أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ صِفَاتِ اللَّهِ مَخْلُوقَةً؛ إِذْ لَا فَرْقَ، فَقُولُوا إِذَنْ: سَمِعَهُ مَخْلُوقٌ، وَبَصَرَهُ مَخْلُوقٌ... وَهَكَذَا.

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: إِنَّ السَّمْعَ مَعْنَى قَائِمٌ بِالسَّامِعِ لَا يُسْمَعُ مِنْهُ وَلَا يَرَى، بِخِلَافِ الْكَلَامِ، فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ أَصْوَاتًا فِي الْهَوَاءِ فَتُسْمَعُ!!

قُلْنَا لَكُمْ: لَوْ خَلَقَ أَصْوَاتًا فِي الْهَوَاءِ، فَسُمِعَتْ، لَكَانَ الْمَسْمُوعُ وَضْفًا لِلْهَوَاءِ، وَهَذَا أَنْتُمْ بَأَنْفُسِكُمْ لَا تَقُولُونَهُ، فَكَيْفَ تُعِيدُونَ الصِّفَةَ إِلَى غَيْرِ مَوْصُوفِهَا!؟

هَذِهِ وَجُوهٌ أَرْبَعَةٌ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ بَاطِلٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا إِبْطَالُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَيْرِ وَالْإِسْتِخْبَارِ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا.

(١) البيت لابن عربي، وقد ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٤/١٤١)، انظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام

الآية الثانية:

«قَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

هذا في سياق قوله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ يعني: لَا تَطْمَعُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، أي: الْيَهُودُ.

* «﴿قَرِيبٌ مِّنْهُمْ﴾»: طائفة منهم، وهم علماءهم.

* «﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾»: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَهُوَ ظَاهِرٌ صَنِيعِ الْمُؤَلِّفِ، فَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى حِينَ اخْتَارَ مُوسَى سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ وَهُمْ يَسْمَعُونَ، فَحَرَّفُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. وَلَمْ أَرِ الْإِحْتِمَالَ الْأَوَّلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَأَيًّا كَانَ فَفِيهِ إِبْتِاثُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَصَوْتٍ مَّسْمُوعٍ، وَالْكَلَامُ صِفَةُ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَيْسَ شَيْئًا بَائِثًا مِنْهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ كَلَامَ اللَّهِ لَا كَلَامَ غَيْرِهِ.

* «﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»: «يُحَرِّفُونَهُ»: أي: يُغَيِّرُونَهُ مَعْنَاهُ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»: هَذَا أَشَدُّ فِي فُبْحِ عَمَلِهِمْ وَجُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَنْ يُحَرِّفُوا الشَّيْءَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَصَلَ إِلَى عُقُولِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُحَرِّفُونَ لَهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحَرِّفُ الْمَعْنَى عَنْ جَهْلِ أَهْوَى مِنَ الَّذِي يُحَرِّفُهُ بَعْدَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ.

الآية الثالثة:

«قَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِبْتِاثُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

وَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿سَبِّحُوا لِلْمُحَلَّفُونَ﴾ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴿[الفتح: ١٥]، فَهُوَ لِأَنَّهُ أَرَادُوا أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ، فَيُخْرِجُوا مَعَ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا كَتَبَ الْمَغَانِمَ لِقَوْمٍ مُّعَيَّنِينَ، لِلَّذِينَ غَزَوْا فِي الْحُدُودِ، وَأَمَّا مَنْ تَبِعُوهُ لِأَخِذِ الْغَنَائِمِ فَقَطُّ فَلَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا.

وَفِي الْآيَةِ أَيْضًا إِبْتِاثُ الْقَوْلِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.
الآيَةُ الرَّابِعَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]».

* قَوْلُهُ: «﴿مَا أَوْحَى إِلَيْكَ﴾» بَعْضُهُ: الْقُرْآنُ، وَالْوَحْيُ لَا يَكُونُ إِلَّا قَوْلًا، فَهُوَ إِذَنْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

* وَقَوْلُهُ: «﴿مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ﴾»: أَضَافَهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ، أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ الْأَمِينِ.

* «﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾» يَعْنِي: لَا أَحَدٌ يُبَدِّلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيُبَدِّلُ آيَةً مَكَانَ آيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِذَا مَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

وَقَوْلُهُ: «﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾»: يَشْمَلُ الْكَلِمَاتِ الْكُونِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ:

■ أَمَّا الْكُونِيَّةُ: فَلَا يُسْتَنَى مِنْهَا شَيْءٌ، لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةَ.

إِذَا قَضَى اللَّهُ عَلَى شَخْصٍ بِالْمَوْتِ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ ذَلِكَ.

إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِالْفَقْرِ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ ذَلِكَ.

إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَذْبِ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ ذَلِكَ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ فَإِنَّهَا بِقَوْلِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

■ أَمَّا الْكَلِمَاتُ الشَّرْعِيَّةُ فَإِنَّهَا قَدْ تَبَدَّلَتْ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ، فَيُبَدِّلُونَ الْكَلِمَاتِ
إِمَّا بِالْمَعْنَى، وَإِمَّا بِاللَّفْظِ إِنْ اسْتَطَاعُوا، أَوْ بِهَيْئَتِهَا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لِكَلِمَتِهِ﴾ دليل على أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: ﴿يَقُصُّ﴾ وَالْقَصَصُ لَا يَكُونُ إِلَّا قَوْلًا، فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي يَقُصُّ فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قَصَّ هَذِهِ الْقَصَصَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



* إِبْتِاثُ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى:
الآيَةُ الْأُولَى:

«قَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

* ﴿وَهَذَا﴾: الْمَشَارُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ.

* ﴿كِتَابٌ﴾: أَيْ: مَكْتُوبٌ؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَمَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ
الَّتِي بِأَيْدِي السَّفَرَةِ، وَمَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ الَّتِي بِأَيْدِينَا.

* وَقَوْلُهُ: ﴿مُبَارَكٌ﴾: أَيْ: ذُو بَرَكَةٍ.

فَهُوَ مُبَارَكٌ؛ لِأَنَّهُ شِفَاءٌ لِّهَا فِي الصُّدُورِ، إِذَا قَرَأَهُ الْإِنْسَانُ بَدَدِيرٌ وَتَفَكَّرٌ فَإِنَّهُ يَشْفِي الْقَلْبَ مِنَ الْمَرَضِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

مُبَارَكٌ فِي أَتْبَاعِهِ؛ إِذْ بِهِ صَلَاحُ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

مُبَارَكٌ فِي آثَارِهِ الْعَظِيمَةِ؛ فَقَدْ جَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ بِلَادَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ وَجَنِّهِهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، وَالْمُسْلِمُونَ فَتَحُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا بِهَذَا الْقُرْآنِ حَتَّى مَلَكَوْهَا، وَلَوْ رَجَعْنَا إِلَيْهِ لَمَلَكْنَا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا كَمَا مَلَكَهَا أَسْلَافُنَا، وَنَسْأَلُ اللَّهَ ذَلِكَ.

مُبَارَكٌ فِي أَنَّ مَنْ قَرَأَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ^(١)، فَكَلِمَةً (قَالَ) مَثَلًا فِيهَا ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَهَذَا مِنْ بَرَكََةِ الْقُرْآنِ، فَحَنَنْ نَحْصُلُ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً لَا تُحْصَى بِقِرَاءَةِ آيَاتٍ وَجِيزَةٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ مُبَارَكٌ، فَكُلُّ أَنْوَاعِ الْبَرَكََةِ حَاصِلَةٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾.

وُثِّبَتْ نَزْوِيهِ مِنَ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُهُ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾

[الحشر: ٢١]».

الْجَبَلُ مِنْ أَقْسَى مَا يَكُونُ، وَالْحِجَارَةُ الَّتِي مِنْهَا تَتَكَوَّنُ الْجِبَالُ هِيَ مُضْرِبُ الْمَثَلِ فِي الْقَسَاوَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]،

(١) لما أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، رقم (٢٩١٠)، واللفظ له، والحاكم (٥٥٥/١) وصححه، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٣/٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «آل» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وَلَوْ نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَ هَذَا الْجَبَلَ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.
* ﴿خَاشِعًا﴾ أي: ذليلاً.

وَمِنْ شِدَّةِ خَشْيَتِهِ اللَّهُ يَكُونُ ﴿مُتَصَدِّعًا﴾ يَتَقَلَّقُ وَيَتَفَتَّقُ.
وَهُوَ يَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِنَا، وَقُلُوبُنَا -إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ- تَضْمُرُ وَتَقْسُو لَا تَتَفَتَّحُ وَلَا تَتَقَبَّلُ.
فَالَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ تَزِيدُهُمْ
رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ!
ومعنى ذلك: أن قُلُوبَهُمْ تَتَصَلَّبُ وَتَقْسُو أَكْثَرَ، وَتَزْدَادُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهَا، نَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ ذَلِكَ!

وهَذَا الْقُرْآنَ لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ الْجَبَلُ وَخَشَعَ؛ لِعَظَمَةِ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ.
وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْجَبَلَ إِحْسَاسًا؛ لِأَنَّهُ يُخْشَعُ وَيَتَصَدَّعُ، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ
ﷺ فِي أَحَدٍ: «هَذَا أَحَدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(١).

وبهذا الحديث نَعْرِفُ الرَّدَّ عَلَى الْمُشْتَبِهَيْنِ لِلْمَجَازِ فِي الْقُرْآنِ، وَالَّذِينَ يَرُفَعُونَ دَائِمًا
عَلَمَهُمْ مُسْتَدْلِينَ بِهِذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا حِذَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٧٧] يَقُولُ: كَيْفَ
يُرِيدُ الْجِدَارُ؟!

فنقول: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ وَأَنْتَ تَقُولُ: لَا يُرِيدُ!
أَهَذَا مَعْقُولٌ؟

فَلَيْسَ مِنْ حَقِّكَ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَقُولَ: كَيْفَ يُرِيدُ؟!
وهَذَا يَجْعَلُنَا نَسْأَلُ أَنْفُسَنَا: هَلْ نَحْنُ أَوْتَيْنَا عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ؟
فَنُجِيبُ بِالْقَوْلِ بَأَنَّ مَا أَوْتَيْنَا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢) من حديث أبي هيد الساعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

فَقُولْ مَنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ: ﴿رِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ لَا يُسَوِّغُ لَنَا أَنْ نَعْتَرِضَ عَلَيْهِ،
فَقُولْ: لَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ! وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ!

وهَذَا مِنْ مَفَاسِدِ الْمَجَازِ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ مَا أَثْبَتَهُ الْقُرْآنُ.

أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿سُبْحَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] هَلْ تُسَبِّحُ بِلَا إِرَادَةٍ؟!

يقولُ: ﴿سُبْحَ لَهُ﴾: اللامُ لِلتَّخْصِصِ؛ إِذَنْ: هِيَ مُخْلِصَةٌ، وَهَلْ يُتَصَوَّرُ إِخْلَاصُ
بِلَا إِرَادَةٍ؟! إِذَنْ: هِيَ تُرِيدُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُرِيدُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ وَأُظْهِرُ
لَا يَخْفَى عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنَّ هَذَا مِنْ صِبْغِ الْعُمُومِ، (فَإِنْ): نَافِيَةٌ بِمَعْنَى (مَا) وَ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾:
نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فَيَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ.

فَيَا أَخِي الْمُسْلِمَ! إِذَا رَأَيْتَ قَلْبَكَ لَا يَتَأَثَّرُ بِالْقُرْآنِ فَاتِهِمْ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا
الْقُرْآنَ لَوْ نَزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ، وَقَلْبُكَ يُتَلَّى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَلَا يَتَأَثَّرُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَنِي وَإِيَّاكُمْ!

الآيَةُ الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا تَلَّى الْإِذَى يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَفَعَجِبْتُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَكْرِثٍ مُبِيتٌ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

* قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً﴾: قَوْلُهُ: ﴿بَدَلْنَا﴾ أَيُّ:
جَعَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ.

وهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى النَّسْخِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا نَسَخَ آيَةً جَعَلَ بَدَلَهَا آيَةً، سَوَاءٌ نَسَخَهَا لَفْظًا، أَوْ نَسَخَهَا حُكْمًا.

* وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ»: هَذِهِ جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ تَبْدِيلَنَا لِلآيَةِ بِدَلِّ الْآيَةِ لَيْسَ سَفَهًا وَعَبَثًا، بَلْ هُوَ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ بِمَا يُصْلِحُ الْخَلْقَ، فَنُبَدِّلُ آيَةً مَكَانَ آيَةٍ؛ لِعِلْمِنَا أَنَّ ذَلِكَ أَصْلَحُ لِلْخَلْقِ وَأَنْفَعُ لَهُمْ.

وَفِيهَا أَيْضًا فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: أَنَّ هَذَا التَّبْدِيلَ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ هُوَ مِنَ اللَّهِ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَأَبْدَلَ آيَةً مَكَانَ آيَةٍ بِعِلْمِهِ، وَلَيْسَ مِنْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بَيْنَتْنِ قَالَ الَّذِيكَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فَمَاذَا كَانَ الْجَوَابُ؟ كَانَ الْجَوَابُ بِأَنْ أَجَابَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ كَلَامِهِمْ وَتَرَكَ شَيْئًا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، وَلَمْ يَقُلْ: وَلَا آتِي بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ. لِمَذَا؟ لِأَنَّهُ قَدْ بَاتِيَ بِتَبْدِيلٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَإِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُهُ تَبْدِيلُهُ فَالْإِثْبَانُ بِغَيْرِهِ أَوْلَى بِالْامْتِنَاعِ.

فَالْمُهِمُّ: أَنَّ الَّذِي يُبَدِّلُ آيَةً مَكَانَ آيَةٍ، سَوَاءٌ لَفْظَهَا أَوْ حُكْمَهَا، هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

* قَوْلُهُ: «﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾»: الْجُمْلَةُ جَوَابٌ ﴿وَإِذَا﴾.

* قَوْلُهُ: «﴿أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾»: الْخِطَابُ هُنَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

* قَوْلُهُ: «﴿مُفْتَرٍ﴾»: أَيْ: كَذَّابٌ، بِالْأَمْسِ تَقُولُ لَنَا كَذَّاءَ، وَالْيَوْمَ تَقُولُ لَنَا كَذَّاءَ، هَذَا

كَذِبٌ، إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ!!

لَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي يَقُولُونَهُ إِذَاءِ إِثْبَانِهِ بِآيَةٍ مَكَانَ آيَةٍ هُوَ قَوْلٌ سَفَهٌ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَعُوا النَّظَرَ لَعَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الَّذِي يَأْتِي بِآيَةٍ مَكَانَ آيَةٍ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ ﷺ، لِأَنَّ الْكَذَّابَ يَحْذَرُ غَايَةَ الْحَذَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلَامٍ غَيْرِ كَلَامِهِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يُطْلَعَ عَلَى كَذِبِهِ، فَلَوْ كَانَ كَاذِبًا كَمَا يَدَّعُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَةِ الْكَذِبِ مَا أَتَى بِشَيْءٍ يُخَالِفُ الْأَوَّلَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَتَى بِشَيْءٍ يُخَالِفُ الْأَوَّلَ عَلَى زَعْمِهِمْ تَبَيَّنَ كَذِبُهُ، بَلْ إِثْبَانُهُ بِمَا يُخَالِفُ الْأَوَّلَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِ بِلَا شَكٍّ.

ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا إضرابٌ إنطاليٌّ، معناه: بل لست مُفْتَرِيًّا، ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، ولو أنهم كانوا مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ لَعَلِمُوا أَنَّهُ إِذَا بُدِّلَتْ آيَةٌ مَكَانَ آيَةٍ فَإِنَّا ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هُوَ جِبْرِيلُ، ووصفه بذلك لطهارة من الخيانة عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

* قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: قال: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ إشارةً إلى الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ، رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهي رُبُوبِيَّةٌ أَخْصَصَ الْخَاصَّةَ.

* وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: إمَّا أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلنَّازِلِ أَوْ لِلْمَنْزُولِ بِهِ.

فإن كَانَ وَصْفًا لِلنَّازِلِ، فمعناه: أَنَّنْ نَزَّوْلُهُ حَقٌّ، وليس بكذب.

وإن كَانَ وَصْفًا لِلْمَنْزُولِ بِهِ، فمعناه: أَنَّنَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ.

وكلاهما مراد، فهو حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ونازلٌ بِالْحَقِّ.

قال الله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، فالقرآن حَقٌّ، وما نَزَلَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ.

* قوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هَذَا تَعْلِيلٌ وَثَمَرَةٌ عَظِيمَةٌ، يُثَبِّتُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ، وَيُمْكِّنُهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَيَقْوِيهِمْ عَلَيْهِ.

* قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾: أَيُّ: هُدًى يَهْتَدُونَ بِهِ، وَمَنَارًا يَسْتَنِيرُونَ بِهِ، وَبِشَارَةٌ لَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِهِ.

بِشَارَةٌ؛ لِأَنَّ مَنْ عَمِلَ بِهِ، وَاسْتَسَلَّمَ لَهُ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّا مَنَ أَطْعَمُوا وَاَلْفَى ﴿١﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ ﴿٢﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧].

ولهذا يُنَبِّغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْرَحَ إِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ الْخَيْرَ وَالنَّاتِ عَلَيْهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ.

يَفْرَحُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ بَشَارَةٌ لَهُ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا حَدَّثَ أَصْحَابَهُ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». قَالُوا: أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مُسِيرٍ لَهَا خُلِقَ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى^٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى^٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الزُّلُم: ٥-١٠] ^(١).

فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَدْ مَنَّ عَلَيْكَ بِالْهَدَايَةِ، وَالتَّوْفِيقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَحَبَّةِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ - فَابْشِرْ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْيُسْرَى، الَّذِينَ كُتِبَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ.

وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَهْدَى وَبَشَّرَ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

* قَوْلُهُ: «(وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ)» قَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ عَلِمْنَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا يَتَجَدَّدُ، فَكَانَ التَّغْيِيرُ بِالْمُضَارِعِ أَوَّلَى مِنَ التَّغْيِيرِ بِالْمَاضِي؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: لَقَدْ عَلِمْنَا؛ لَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّ الْمَعْنَى: عَلِمْنَا أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ سَابِقًا، لَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَيْهِ.

وَسَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ مُحَمَّدٌ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ شَخْصٍ يُعَلِّمُهُ، وَيَقْصُصُ عَلَيْهِ مِنْ قَصَصِ الْأَوَّلِينَ، وَيَأْتِي لِيَقُولَ لَنَا: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ!

أَعُوذُ بِاللَّهِ!! ادَّعَوْا أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ! وَالْعَجِيبُ أَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ائْتُوا بِمِثْلِهِ! وَلَا يَسْتَطِيعُونَ!!

وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ افْتِرَاءَهُمْ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ وَمَعْنَى ﴿يُلْحِدُونَ﴾: أَيُّ يَمِيلُونَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا مِثْلٌ عَنِ الصَّوَابِ، بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ. وَالْأَعْجَمِيُّ: هُوَ الَّذِي لَا يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ، وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا، وَالْعَجِيبِيُّ بَدُونِ هَمْزَةٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هُوَ: الْمَنْسُوبُ إِلَى الْعَجَمِ، وَإِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ.

فَلِسَانُ هَذَا الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، لَا يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ.

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ فِيهِ: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يَبَيِّنُ فِي نَفْسِهِ، مُبِينٌ لِعَايِرِهِ.

فَالْقُرْآنُ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ، وَهُوَ أَفْصَحُ الْكَلَامِ، كَيْفَ يَأْتِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْأَعْجَمِيِّ، الَّذِي

لِسَانُهُ لَا يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ؟!

وَالشَّاهِدُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ

مِنْ رَبِّكَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وَكُلُّ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِهِ.

وَالْمَوْلُفُ تَرَكَ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا شَاهِدٌ، وَلَكِنَّهَا مُفِيدَةٌ، فَذَكَرَهَا، قَالَ

تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤-١٠٥].

وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَا يَتَّبِعُونَ بِآيَاتِهِ،

وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ؛ فَالْهَدَايَةُ مَسْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ.

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِيهَا فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ، وَهِيَ: أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ.

وَمَفْهُومُ الْمُخَالَفَةِ فِيهَا: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِآيَاتِ اللَّهِ هَدَاهُ اللَّهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّنَا نَجِدُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْآيَاتِ لَمْ يَهْتَدِ لِبَيَانِ وَجْهِهَا؛ مِثْلُ قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

كَيْفَ يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَهُوَ فِي الْعُلُوِّ؟!

فَنَقُولُ: آمِنَ تَهْتَدِ! فَإِذَا آمَنْتَ بَأَنَّهُ يَنْزِلُ حَقِيقَةً عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُسْتَحِيلٍ؛ لِأَنَّهُ فِي

جَانِبِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُمِائِلُهُ شَيْءٌ.

وَنَجِدُ مَنْ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ١٧٧]: كَيْفَ

يُرِيدُ الْجِدَارُ؟

فنقول: آمِنَ بِأَنَّ الْجِدَارَ يُرِيدُ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِغَرِيبٍ.
وهذه قاعدةٌ يُنبِغِي أَنْ تَكُونَ أَسَاسِيَّةً عِنْدَكَ، وهي: آمِنَ تَهْتِدِ!
والذين لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ، وَيَبْقَى الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ عَمَى -والعياذُ بالله-
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْاهْتِدَاءَ بِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْهَدَايَةَ.
مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ:
نَسْتَفِيدُ أَنَّنَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ تَكَلَّمَ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَوْجَبَ لَنَا ذَلِكَ تَعْظِيمَ هَذَا
الْقُرْآنِ، وَاحْتِرَامَهُ، وَامْتِنَالِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ، وَتَرْكِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَنْهَيَّاتِ وَالْمَحْذُورَاتِ،
وَتَصَدِّقَ مَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنِ مَخْلُوقَاتِهِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ.



* إثباتُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

الشرح:

ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ آيَاتِ إِثْبَاتِ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى.

الآية الأولى:

«قَوْلُهُ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾^{٢٢} إِلَى رِبِّهَا نَاطِرَةٌ» [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣].

* قَوْلُهُ: «﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾» يَعْنِي بِذَلِكَ: الْيَوْمَ الْآخِرَ.

* قَوْلُهُ: «﴿نَّاصِرَةٌ﴾» أَيْ: حَسَنَةٌ، مِنَ النَّصَارَةِ بِالضَّادِّ، وَهِيَ: الْحُسْنُ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَّهَمُ اللَّهُ مَرَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَفَّهَمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ [الْإِنْسَانُ: ١١] أَيْ: حُسْنًا فِي وَجُوهِهِمْ،
وَسُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ.

* قَوْلُهُ: «﴿إِلَى رِبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾»: «نَاطِرَةٌ» بِالضَّاءِ، مِنَ النَّظَرِ، وَهِيَ عُدْيُ النَّظَرِ بِ(إِلَى) الدَّالَّةِ
عَلَى الْعَايَةِ، وَهُوَ نَظَرٌ صَادِرٌ مِنَ الْوُجُوهِ، وَالنَّظَرُ الصَّادِرُ مِنَ الْوُجُوهِ يَكُونُ بِالْعَيْنِ، بِخِلَافِ
النَّظَرِ الصَّادِرِ مِنَ الْقُلُوبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِالْبَصِيرَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ، فَهَذَا صَدَرَ النَّظَرُ مِنَ الْوُجُوهِ

إِلَى الرَّبِّ عَزَّجَلْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾.

فَتَمِيدُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ هَذِهِ الْوُجُوهَ النَّاصِرَةَ الْحَسَنَةَ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّجَلْ، فَتَزْدَادُ حُسْنًا إِلَى حُسْنِهَا.

وَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ هَذِهِ الْوُجُوهَ مُسْتَعِدَّةً مُتَهَيَّئَةً لِلنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ لَكُونَهَا نَصْرَةً حَسَنَةً مُتَهَيَّئَةً لِلنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ.

وَهَذَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِالْآيَاتِ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ، وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالَّتِي نَقَلَهَا عَنْهُ صَحَابَةٌ كَثِيرُونَ، وَنَقَلَهَا عَنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ تَابِعُونَ^(١) كَثِيرُونَ، وَنَقَلَهَا عَنِ التَّابِعِينَ مِنْ تَابِعِ التَّابِعِينَ كَثِيرُونَ... وَهَكَذَا.

وَالنُّصُوصُ فِيهَا قَطْعِيَّةُ الثُّبُوتِ وَالِدَّلَالَةُ؛ لِأَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ الْمُتَوَاتِرَةِ.

وَأَنْشَدُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْصُ وَمَسَحَ خُفَيْنِ وَهَذِي بَعْضُ^(١)

فَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَرُؤْيَا»: رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقُولُونَ: إِنَّ النَّظَرَ هُنَا بِالْبَصَرِ حَقِيقَةً.

(١) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٣/ ٥٢٠)، و«الشرعة» للأجري (٢/ ٩٧٨)، و«السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٢٢٩)، وكتاب «الرؤية» للإمام الدارقطني، و«حادي الأرواح» لابن القيم (ص: ٢٨٥).

(١) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلاً عن الشيخ أبي عبد الله محمد التاودي في حواشيه على الجامع الصحيح.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْإِدْرَاكُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]،
كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْقَلْبِ أَيْضًا لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْإِدْرَاكُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠].

وَنَحْنُ نَعْلَمُ رَبَّنَا بِقُلُوبِنَا، لَكِنْ لَا نُذَرِّكَ كَيْفِيَّتَهُ وَحَقِيقَتَهُ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَرَى رَبَّنَا بِأَبْصَارِنَا، وَلَكِنْ لَا نُذَرِّكُهُ أَبْصَارَنَا.

الآيةُ الثانيةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥].»

* ﴿الْأَرْأَيْكَ﴾: جَمْعُ أَرَيْكَ، وَهِيَ السَّرِيرُ الْجَمِيلُ الْمُغَطَّى بِمَا يُشَبِّهُ النَّامُوسِيَّةَ.

* ﴿يَنْظُرُونَ﴾: لَمْ يَذْكُرِ الْمَنْظُورَ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ عَامًّا لِكُلِّ مَا يَتَنَعَّمُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَأَعِظْهُمْ وَأَتَعَهُمُ النَّظْرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] فَمِثَالُ الْآيَةِ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۚ﴾ إِلَى رَحْمَتِهَا نَاطِرَةٌ ﴿الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣﴾، فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى كُلِّ مَا يَتَنَعَّمُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَمِنْهُ النَّظَرُ إِلَى قُرْآنِ السُّوءِ يُعَذِّبُونَ فِي الْجَحِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَإِنَّمُضِيَينَ ۚ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِأَنَّا لَمَدِينُونَ ۚ قَالَ أَيُّ

لأصحابه: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ﴾: ﴿هَلْ﴾: للتشويق... يَطْلَعُونَ عَلَى مَاذَا؟! عَلَى هَذَا الْقَرِينِ ﴿فَاطْلَعْ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾!! أَعُوذُ بِاللَّهِ! رَأَاهُ فِي سَوَائِهَا، أَيُّ فِي أَصْلِهَا وَقَعْرِهَا... سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَهَذَا فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ الْعَظِيمَةِ!

لَكِنْ نَظَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيْسَ كَنَظَرِ أَهْلِ الدُّنْيَا، هُنَاكَ يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ فِي مُلْكِهِ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةً
أَلْفِي عَامٍ، يَنْظُرُ أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ أَدْنَاهُ، مِنْ كَمَالِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ كَانَ نَظَرُهُ كَنَظَرِهِ فِي
الدُّنْيَا مَا اسْتَمْتَعَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى مَدَى قَرِيبٍ، فَيَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْهُ.

اطَّلَعَ مِنْ أَعْلَى عِلِّيِّينَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ.

قَالَ مُخَاطِبُهُ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتُزِينَ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا مُحَاوِلٌ أَنْ يُضِلَّهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كِدْتَ﴾ يَعْنِي: إِنَّكَ قَارِبْتَ، وَ﴿إِنْ﴾ هَذِهِ الْمُخَفَّفَةُ لَا الثَّقِيلَةُ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ﴾ ٥٧ أَمَّا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [الصفات: ٥١-٥٨].

أَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ سَابِقًا يُبَارُونَ فِي مِثْلِ هَذَا، كَيْفَ يَكُونُ فِي أَعْلَى مَكَانٍ وَيُخَاطَبُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيُكَلِّمُهُ فِي أَسْفَلِ مَكَانٍ؟!

وَلَكِنْ ظَهَرَتْ الْآنَ أَشْيَاءٌ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ كَالْأَقْمَارِ الصَّنَاعِيَّةِ، وَالتَّلِفُونَاتِ التَّلِفِزِيَّةِ... وَغَيْرِ ذَلِكَ، يَرَى الْإِنْسَانُ مِنْ خِلَالِهَا مَنْ يُكَلِّمُهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُوَ بَعِيدٌ. مَعَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقِيسَ مَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا.

إِذَنْ: ﴿يَنْظُرُونَ﴾: عَامَّةٌ؛ يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ، وَيَنْظُرُونَ مَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيَنْظُرُونَ مَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا فِيهِ إِشْكَالٌ!! كَيْفَ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يُنْكِتُونَ عَلَيْهِمْ وَيُؤَبِّخُونَهُمْ؟! فَنَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَكْثَرَ مَا أَذَاقَ أَهْلُ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ وَالْمُضَاقِقَةِ!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾: يَضْحَكُونَ، سَوَاءٌ فِي مَجَالِسِهِمْ أَوْ مَعَهُمْ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ ٢٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿أَيُّ: انْقَلَبُوا مُتَتَعِّمينَ بِأَقْوَالِهِمْ﴾ (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ)!! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ٢١ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿[المطففين: ٢٩-٣٥] يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ.

إِذَنْ: يَكُونُ هَذَا مِنْ تَمَامِ عَدْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بِأَنْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُضَاقِقُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا جَعَلَهُمْ الْآنَ يَفْرَحُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيُؤَبِّخُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ:

«قَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].»

* قَوْلُهُ: ﴿لَلَّذِينَ﴾: خَبَرٌ مُّقَدَّمٌ.

* و﴿الْحُسْنَى﴾: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وَهِيَ الْجَنَّةُ.

* ﴿وَزِيَادَةُ﴾: هِيَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

هَكَذَا فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ)^(١) وَغَيْرِهِ.

فَفي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَةِ اللَّهِ مِنْ تَفْسِيرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ بِلَا شَكٍّ، وَقَدْ فَسَّرَهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، وَهِيَ زِيَادَةٌ عَلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ.

إِذَنْ: فِيهِ نَعِيمٌ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ جِنْسَ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ نَعِيمٌ بَدَنِيٌّ: أَنْهَارٌ، وَشَارٌّ، وَفَوَاكِهُ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ... وَسُرُورُ الْقَلْبِ فِيهَا تَبَعٌ، لَكِنِ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ نَعِيمٌ قَلْبِيٌّ، لَا يَرَى أَهْلُ الْجَنَّةِ نَعِيمًا أَفْضَلَ مِنْهُ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا مِنْ يَرَاهُ.

وَهَذَا نَعِيمٌ مَا لَهُ مِنْ نَظِيرٍ أَبَدًا، لَا فَوَاكِهَ، وَلَا أَنْهَارٍ، وَلَا غَيْرَهَا أَبَدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَزِيَادَةُ﴾ أَيُّ: زِيَادَةٌ عَلَى الْحُسْنَى.

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ:

﴿قَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أَيُّ: فِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا يَشَاءُونَ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أِنِّي الْجَنَّةَ خَيْلٌ؟ فَإِنِّي أَحِبُّ الْخَيْلَ. فَقَالَ: «إِنْ يُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ فَلَا تَشَاءُ أَنْ تَرْكَبَ فَرَسًا، مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، تَطِيرُ بِكَ فِي أَيِّ الْجَنَّةِ شِئْتَ إِلَّا فَعَلْتَ». وَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أِنِّي الْجَنَّةَ إِبِلٌ؟ فَإِنِّي أَحِبُّ الْإِبِلَ. قَالَ: «يَا أَعْرَابِي! إِنْ يُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَصَبْتَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَدْتَ عَيْنُكَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربه، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٥٢/٥)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة خيل الجنة، رقم (٢٥٤٣)،

من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه.

فَإِذَا اسْتَهَى أَيُّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ وَيَتَحَقَّقُ، حَتَّى إِنْ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: لَوْ اسْتَهَى الْوَلَدُ لَكَانَ لَهُ وَلَدٌ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَسْتَهُونَهُ فَهُوَ لَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[الزخرف: ٧١].

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾﴾ أَي: مَزِيدٌ عَلَى مَا يَشَاؤُونَ.

يعني: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا شَاءَ شَيْئًا يُعْطَى إِيَّاهُ، وَيُعْطَى زِيَادَةً، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي آخِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، يُعْطِيهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ نَعِيمًا، وَنَعِيمًا... ويقول: رَضِيتُ؟ يَقُولُ لَهُ: «لَكَ مِثْلُهُ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ»^(١) فَهُوَ أَكْثَرُ بِمَا يَشَاءُ.

وَفَسَّرَ الْمَزِيدَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِمَا فَسَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ، وَهِيَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

فَتَكُونُ الْآيَاتُ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ لِإثْبَاتِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَرْبَعًا.

وَهُنَاكَ آيَةٌ حَامِسَةٌ اسْتَدَلَّ بِهَا الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْفُجَّارِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ مَا حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي الْغَضَبِ إِلَّا رَأَاهُ أَوْلَيْكَ فِي الرِّضَا، فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْغَضَبِ مَحْجُوبِينَ عَنِ اللَّهِ فَأَهْلُ الرِّضَا يَرَوْنَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ.

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ قَوِيٌّ جَدًّا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْكُلُّ مَحْجُوبِينَ لَمْ يَكُنْ مَرِيَّةٌ لِذِكْرِ هَؤُلَاءِ.

وَعَلَى هَذَا فَنَقُولُ: الْآيَاتُ خَمْسٌ، وَنُمكنُ أَنْ نُلْحِقَ بِهَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُذَرِّكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يَذَرُّكَ الْأَبْصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] عَلَى مَا سَنَقَرُّهُ فِي الرَّدِّ عَلَى النُّفَاةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٧/٢)، ومن طريقه الترمذي رقم (٢٥٤٣)، والبخاري في «شرح السنة» رقم (٤٣٨٥)، من حديث عبد الرحمن بن سابط، مرسلاً. والحديث ضعيف الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم (٤٥٩).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٨٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فهَذَا قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى وَأَدِلَّتْهُمْ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ، لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مَكَابِرٌ.

وخالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ طَوَائِفٌ مِنْ أَهْلِ التَّعْطِيلِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَاسْتَدَلُّوا بِأَدِلَّةٍ سَمْعِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ وَأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ مُتَدَاعِيَةٍ:

أَمَّا الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ:

فَالْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ ارْنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي فَمَا تَحِجِّ رَبُّهُ، لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّ (لَنْ) لِلنَّفْسِ الْمُؤَيَّدِ، وَالنَّفْسِ خَبَرٌ، وَخَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى صِدْقٌ، لَا يَدْخُلُهُ النَّسْخُ.

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهِ:

الْأَوَّلُ: مَنْعُ كَوْنِ (لَنْ) لِلنَّفْسِ الْمُؤَيَّدِ؛ لِأَنَّهُ مُجَرَّدُ دَعْوَى:

قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي (الكَافِيَةِ):

وَمَنْ رَأَى النَّفْسَ بِلَنْ مُؤَيَّدًا فَقَوْلُهُ ارْزُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا^(١)

الثَّانِي: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَطْلُبْ مِنَ اللَّهِ الرُّؤْيَا فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا طَلَبَ رُؤْيَا حَاضِرَةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ارْنِي إِلَيْكَ﴾ أَيِ: الْآنَ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ يَعْنِي: لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَرَانِي الْآنَ، ثُمَّ صَرَّبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مَثَلًا بِالْجَبَلِ حَيْثُ تَحِجُّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَجَعَلَهُ دَكًّا، فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي﴾، فَلَمَّا رَأَى مُوسَى مَا حَصَلَ لِلْجَبَلِ عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ لَا طَاقَةَ لَهُ بِرُؤْيَا اللَّهِ، وَخَرَّ صَعِقًا لِهَوْلِ مَا رَأَى.

وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا مُسْتَحِيلَةٌ؛ لِأَنَّ الْحَالَ الْبَسْرِيَّةَ لَا تَسْتَطِيعُ

(١) انظر: شرح الكافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

تَحْمَلُ رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَفَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

أَمَّا رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ فَمُمَكِّنَةٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُونَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، تَخْتَلِفُ فِيهِ أَحْوَالُهُمْ عَنْ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، كَمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِيمَا يَجْرِي لِلنَّاسِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي مَقَرِّهِمْ فِي دَارِ النِّعَمِ أَوْ الْجَحِيمِ.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنْ يُقَالَ: اسْتِحَالَةُ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ الْمُنْكَرِينَ لَهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَهَا يَتَضَمَّنُ نَقْصًا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى! كَمَا يُعْلَلُونَ نَفْيَهُمْ بِذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ سُؤَالُ مُوسَى لِرَبِّهِ الرُّؤْيَا دَائِرًا بَيْنَ الْجَهْلِ بِهَا يَحِبُّ لِلَّهِ وَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ، أَوْ الْإِعْدَاءِ فِي دُعَائِهِ حِينَ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ إِنْ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ - وَحِينَئِذٍ يَكُونُ هَؤُلَاءِ النَّافُونَ أَعْلَمَ مِنْ مُوسَى فِيمَا يَحِبُّ لِلَّهِ تَعَالَى وَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ!! وَهَذَا غَايَةُ الضَّلَالِ!

وَبِهَذَا الْوَجْهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ فِي الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَيْهِمْ لَا دَلِيلًا لَهُمْ.

وَهَكَذَا، كُلُّ دَلِيلٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى بَاطِلٍ أَوْ نَفْيٍ حَقٍّ فَسَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى مَنْ أوردَهُ، لَا دَلِيلًا لَهُ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي لِنُفَاءِ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الْآيَةَ فِيهَا نَفْيُ الْإِدْرَاكِ، وَالرُّؤْيَا لَا تَسْتَلْزِمُ الْإِدْرَاكَ، أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَرَى الشَّمْسَ وَلَا يُحِيطُ بِهَا إِدْرَاكَ؟!

فَإِذَا اثْبَتْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ يُدْرَكُ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا؛ لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ أَحْصُ مِنْ مُطْلَقِ الرُّؤْيَا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا نقول: إِنَّ نَفْيَ الإِذْرَاكِ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ أَصْلِ الرُّؤْيَى؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْأَخْصِّ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الْأَعْمِّ، وَلَوْ كَانَ الْأَعْمُّ مُتَنَفِّيًا لَوَجَبَ نَفْيُهُ، وَقِيلَ: لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ؛ لِأَنَّ نَفْيَهُ يَقْتَضِي نَفْيَ الْأَخْصِّ، وَلَا عَكْسَ، وَلَأنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَعْمُّ مُتَنَفِّيًا لَكَانَ نَفْيُ الْأَخْصِّ إِيهَامًا وَتَلْبِيسًا، يُنَزِّهُ عَنْهُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ لَا دَلِيلَ لَهُمْ.

وَأَمَّا أدلة نفاة الرُّؤْيَى الْعَقْلِيَّةِ: فَقَالُوا: لَوْ كَانَ اللَّهُ يُرَى لَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا، وَالْجِسْمُ مُتَمَنِّعٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَالتَّمَثِيلَ.

وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُ إِنْ كَانَ يَلْزَمُ مِنْ رُؤْيَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ جِسْمًا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ، لَكِنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَا يُبَايِلُ أَجْسَامَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ بِالْجِسْمِ نَفْيًا أَوْ إِنْبَاءً مِمَّا أَحَدَتَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنْبَاءُهُ وَلَا نَفْيُهُ.

وَقَدْ أَجَابَ النَّفَاةُ عَنْ أدلة أَهْلِ الْإِنْبَاتِ بِأَجْوِبَةٍ بَارِدَةٍ، فَحَرَفُوهَا تَحْرِيفًا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُطَوَّلَةِ.

مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ:

أَمَّا فِي مَسْأَلَةِ الرُّؤْيَى: فَمَا أَعْظَمَ أَثَرَهَا عَلَى الْأَتْبَاعِ الْمَسْلُكِيِّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَجَدَ أَنَّ غَايَةَ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ كَانَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا رَخِيسَةً عِنْدَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَرُخِّصُ عِنْدَهُ فِي جَانِبِ الْوُصُولِ إِلَى رُؤْيَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ كُلِّ طَالِبٍ، وَمُتَمَتِّهِ الْمَطَالِبِ.

فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّكَ سَوْفَ تَرَى رَبَّكَ عَيْنًا بِالْبَصَرِ فَوَاللَّهِ لَا تُسَاوِي الدُّنْيَا عِنْدَكَ شَيْئًا. فَكُلُّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ هُوَ الثَّمَرَةُ الَّتِي يَتَسَابَقُونَ فِيهَا الْمُتَسَابِقُونَ، وَيَسْعَى إِلَيْهَا السَّاعُونَ، وَهِيَ غَايَةُ الْمَرَامِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَهَلْ تَسْعَى إِلَى الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ أَمْ لَا؟
وَالْجَوَابُ: نَعَمْ، أَسْعَى إِلَى الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ بِدُونِ تَرَدُّدٍ.

وإنكارُ الرُّؤْيِيَةِ فِي الْحَقِيقَةِ حَرَمَانٌ عَظِيمٌ، لَكِنِ الْإِيْمَانُ بِهَا يَسُوْقُ الْإِنْسَانَ سَوَقًا عَظِيمًا إِلَى الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، فَهُوَ يَسِيرُ وَهُوَ الْحَمْدُ، فَالَّذِينَ كُلُّهُ يُسَرُّ، حَتَّى إِذَا وَجَدَ الْحَرْجَ تَيْسَّرَ الدِّينُ، فَأَصْلُهُ مُيَسَّرٌ، وَإِذَا وَجَدَ الْحَرْجَ تَيْسَّرَ ثَانِيَةً، وَإِذَا لَمْ يُمَكِّنِ الْقِيَامُ بِهِ أَبَدًا سَقَطَ، فَلَا وَاجِبَ مَعَ الْعَجْزِ، وَلَا حَرَامَ مَعَ الصَّرُورَةِ.

— — — — —

* قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلهُدَى تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَهَذَا الْبَابُ»: الْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

* قَوْلُهُ: «فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ»: وَلِذَلِكَ مَا مِنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَتَجَدَّ فِيهَا غَالِبًا اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، أَوْ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِهِ، أَوْ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهِ، بَلْ لَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ: كُلُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِيهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَكُلُّ آيَةٍ مِنْهُ، فِيهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

* وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ»: تَدَبَّرَ الشَّيْءُ مَعْنَاهُ: التَّفَكَّرُ فِيهِ، كَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَدْبِرُهُ مَرَّةً وَيَسْتَقْبِلُهُ أُخْرَى، فَهُوَ يُكَرِّرُ اللَّفْظَ لِيَفْهَمَ الْمَعْنَى.

فَالَّذِي يَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ بِهَذَا الْفِعْلِ، وَأَمَّا النِّيَّةُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ «طَالِبًا لِلهُدَى» مِنْهُ، فَلَيْسَ قَصْدُهُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِقَوْلِهِ، أَوْ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْهُ مُجَادَلَةً بِالْبَاطِلِ، وَلَكِنْ قَصْدُهُ طَلَبُ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ سَوْفَ تَكُونُ النَّتِيجَةُ قَوْلَ الْمُؤَلِّفِ: «تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ».

وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ نَتِيجَةٍ!!

لَكِنَّهَا مَسْبُوقَةٌ بِأَمْرَيْنِ: التَّدْبِيرُ، وَحُسْنُ النِّيَّةِ، بَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ طَالِبًا لِلهُدَى مِنَ الْقُرْآنِ، فَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةُ آيَاتٍ، مِنْهَا:

قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُوا عَيْنِيهِ وَلِيَسَدِّكَرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٢].

وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ - لَكِنْ بِهَذِهِ النِّيَّةِ، وَهِيَ طَلَبُ الْهُدَى مِنْهُ - لَا بُدَّ أَنْ يَصِلَ إِلَى التَّيَجُّجَةِ، وَهِيَ تَبَيَّنُ طَرِيقَ الْحَقِّ.

أَمَّا مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ لِيَضْرِبَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلِيُجَادِلَ بِالْبَاطِلِ، وَلِيَنْصُرَ قَوْلَهُ - كَمَا يُوجَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْبِدْعِ وَأَهْلِ الزَّيْغِ - فَإِنَّهُ يُعَمَّى عَنِ الْحَقِّ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَكِّمُ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] عَلَى تَقْدِيرِ (أَمَّا أَيُّ: وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) [آل عمران: ٧]، وَإِذَا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ فَسَيِّئْتُهُمْ إِلَى بَيَانِ هَذَا الْمُتَشَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

— — — — —

فَصْلٌ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ

الشرح:

السُّنَّةُ فِي اللُّغَةِ: الطَّرِيقَةُ، وَمِنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(١) يعني: طَرِيقَتَهُمْ.

وَفِي الاضْطِلَاحِ: هِيَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ وَفِعْلُهُ وَإِقْرَارُهُ.
فَتَشْمَلُ الْوَاجِبَ وَالْمُسْتَحَبَّ.

وَالسُّنَّةُ هِيَ الْمَصْدَرُ الثَّانِي فِي التَّشْرِيعِ.

وَمَعْنَى قَوْلِنَا: «الْمَصْدَرُ الثَّانِي»: يَعْني: فِي الْعَدَدِ، وَلَيْسَ فِي التَّرْتِيبِ؛ فَإِنَّ مَنَزِلَتَهَا إِذَا
صَحَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَنَزِلَةِ الْقُرْآنِ.

لَكِنِ النَّاطِرُ فِي الْقُرْآنِ يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ صِحَّةُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحُكْمِ، وَالنَّاطِرُ
فِي السُّنَّةِ يَحْتَاجُ إِلَى سَبْعَيْنِ: الْأَوَّلُ: صِحَّةُ نِسْبَتِهَا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَالثَّانِي: صِحَّةُ دَلَالَتِهَا
عَلَى الْحُكْمِ؛ فَكَانَ الْمُسْتَدِلُّ بِالسُّنَّةِ يُعَانِي مِنَ الْجُهْدِ أَكْثَرَ مِمَّا يُعَانِيهِ الْمُسْتَدِلُّ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ
الْقُرْآنَ قَدْ كُفِينَا سَنَدَهُ، فَسَنَدُهُ مُتَوَاتِرٌ، لَيْسَ فِيهِ مَا يُوجِبُ الشَّكَّ، بِخِلَافِ مَا يُنْسَبُ إِلَى
الرَّسُولِ ﷺ.

فَإِذَا صَحَّتِ السُّنَّةُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ بِمَنَزِلَةِ الْقُرْآنِ تَمَامًا فِي تَصْدِيقِ الْحَقِّ،
وَالْعَمَلِ بِالْحُكْمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، يَقُولُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم،
باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لَا تَدْرِي! مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(١).
ولهذا كَانَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ أَنَّ الْقُرْآنَ يُنْسَخُ بِالسُّنَّةِ إِذَا صَحَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ ذَلِكَ
جَائِزٌ عَقْلًا وَشَرْعًا، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ مِثَالٌ مُسْتَقِيمٌ^(٢).



* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«فَالسُّنَّةُ تَفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «تَفَسِّرُ الْقُرْآنَ» يَعْنِي: تَوْضِّحُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ مِنْهُ، كَمَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] حَيْثُ فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(٣).
وَكَمَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فَقَالَ:
«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»^(٤).
و«تُبَيِّنُهُ» يَعْنِي: تَبَيَّنُ الْمُجْمَلُ مِنْهُ؛ حَيْثُ إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُجْمَلَةً، لَكِنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَّتْهَا
وَوَضَّحَتْهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]: أَمَرَ اللَّهُ بِإِقَامَتِهَا، وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ
كَيْفِيَّتَهَا.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمَاسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٨/٦)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابُ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ، رَقْمُ (٤٦٠٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ مَا نَبِيٍّ عَنْهُ أَنْ يَقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (٢٦٦٣)، وَابْنُ مَاجَةَ: فِي الْمَقْدَمَةِ، بَابُ تَعْظِيمِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمُ (١٣)، وَالْحَاكِمُ (١٠٩/١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَطَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «الرَّسَالَةِ» لِلشَّافِعِيِّ (ص: ٩٠-٩١) فِي تَحْرِيجِ هَذَا الْحَدِيثِ وَتَصْحِيحِهِ.
وَانْظُرْ: «الْحَدِيثُ حُجَّةٌ بِنَفْسِهِ فِي الْعُقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ» لِلْأَلْبَانِيِّ (ص: ٢٩-٣٠)، فَقَدْ صَحَّحَهُ.
(٢) انْظُرْ: «إِرْشَادُ الْفُحُولِ» لِلشُّوْكَانِيِّ (٦٧/٢).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِثْبَاتِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رُبَّهُمْ، رَقْمُ (١٨١)، مِنْ حَدِيثِ صَهْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضْلِ الرَّمْيِ، رَقْمُ (١٩١٧)، مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ يعني مِنْ ذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ، أَي: غَايَةِ ظُلْمَتِهِ، وَهُوَ نِصْفُهُ؛ لِأَنَّ أَشَدَّ مَا يَكُونُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نِصْفُهُ.

فَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا وَقْتُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ السُّنَّةُ فَصَلَّتْ هَذَا الْمُجْمَلَ:

فَلِلظُّهْرِ: مِنْ ذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ.

وَلِلْعَصْرِ: مِنْ ذَلِكَ إِلَى اضْغِرَارِ الشَّمْسِ فِي الْاِخْتِيَارِ، ثُمَّ إِلَى غُرُوبِهَا فِي الضَّرُورَةِ.

وَلِلْمَغْرِبِ: مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ.

وَلِلْعِشَاءِ: مِنْ مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ وَقْتُ ضَرُورَةٍ لِلْعِشَاءِ؛

وَلِهَذَا لَوْ طَهَّرَتِ الْحَائِضُ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ لَمْ يَحِبَّ عَلَيْهَا صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَلَا صَلَاةُ

الْمَغْرِبِ؛ لِأَنَّ وَقْتَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ يَنْتَهِي بِانْتِصَافِ اللَّيْلِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي السُّنَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ

وَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ يَمْتَدُّ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَلِلْفَجْرِ: مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ.

وَلِهَذَا قَالَ فِي نَفْسِ الْآيَةِ: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ آيِلٍ﴾ ثُمَّ فَصَلَ وَقْتَ الْفَجْرِ،

فَقَالَ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ لِأَنَّ وَقْتَ الْفَجْرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوْقَاتِ الْأُخْرَى فَاصِلٌ

مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ، فَنِصْفُ اللَّيْلِ الثَّانِي قَبْلَهُ، وَنِصْفُ النَّهَارِ الْأَوَّلُ بَعْدَهُ.

هَذَا مِنْ بَيَانِ السُّنَّةِ حَيْثُ بَيَّنَّتِ الْأَوْقَاتَ.

كَذَلِكَ: ﴿وَعَاثُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ الْأَنْصِبَةَ وَالْأَمْوَالَ الزَّكَاةَ.

وَأَدُلُّ عَلَيْهِ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ تَعُمُّ التَّفْسِيرَ وَالتَّبْيِينَ وَالتَّعْبِيرَ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُ

الْقُرْآنَ.

و«تُعَبِّرُ عَنْهُ» يَعْنِي: تَأْتِي بِمَعَانٍ جَدِيدَةٍ أَوْ بِأَحْكَامٍ جَدِيدَةٍ لَيْسَتْ فِي الْقُرْآنِ.

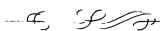
وَهَذَا كَثِيرٌ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ اسْتَقَلَّتْ بِهَا السُّنَّةُ، وَلَمْ يَأْتِ بِهَا

الْقُرْآنُ.

لكن دَلَّ عَلَى أَنَّ لَهَا حُكْمَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحراب: ٣٦].

أَمَّا الْحُكْمُ الْمَعْنَى فَالسُّنَّةُ اسْتَقَلَّتْ بِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ عَنِ الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا سَيَأْتِيْنَا فِي أَوَّلِ حَدِيثٍ ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ فِي هَذَا الْفَصْلِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ...»^(١)؛ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ.

إِذَنْ: السُّنَّةُ مَقَامُهَا مَعَ الْقُرْآنِ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ: تَفْسِيرٍ مُشْكِلٍ، وَتَبْيِينٍ مُجْمَلٍ، وَدَلَالَةٍ عَلَيْهِ، وَتَعْيِيرٍ عَنْهُ.



* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَاعِدَةً مُهِمَّةً:

«وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّجَلَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَمَا»: هَذِهِ شَرْطِيَّةٌ. وَفِعْلُ الشَّرْطِ: «وَصَفَ». «وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا»: هَذَا جَوَابُ الشَّرْطِ.

فَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ، وَكَذَلِكَ مَا سَمَّى بِهِ رَبَّهُ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَسْمَاءً مِمَّا سَمَّى بِهِ الرَّسُولُ رَبَّهُ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فِي الْقُرْآنِ، مِثْلُ (الشَّافِي) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُزِيدُكَ أَنْ يَسْأَلُوا كَلَّمَ اللَّهُ﴾، رقم (٧٤٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، رقم (٥٧٤٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

* «الرَّبَّ» لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ إِضَافَةٍ، لَكِنْ فِي السُّنَّةِ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»^(١).

وَقَالَ فِي السَّوَالِكِ: «مُطَهَّرَةٌ لِلْقَمِّ مَرْصَاةٌ لِلرَّبِّ»^(٢).

وظَاهِرُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ لِقَبُولِهَا شَرْطَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ الْأَحَادِيثُ صَحِيحَةً.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ - يَعْنِي بِالْأَحَادِيثِ - تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ، بَلْ مُرَادُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الصَّحَّاحَ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ، فَتَكُونُ الصِّفَةُ هَذِهِ صِفَةً كَاشِفَةً لَا صِفَةً مُقَيِّدَةً.

* فَقَوْلُهُ: «الَّتِي تَلَقَّاهَا» هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، أَيُّ أَنَّ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَكُونَ الْأَحَادِيثُ صَحِيحَةً، ثُمَّ يَرْفُضُهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ، بَلْ سَيَقْبُلُونَهَا.

صَحِيحٌ أَنَّ هُنَاكَ أَحَادِيثَ ظَاهِرُهَا الصَّحَّةُ، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ مَعْلُومَةً بِعِلَّةٍ، كَانْقِلَابِ عَلَى الرَّاوي وَنَحْوِهِ، وَهَذِهِ لَا تُعَدُّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

* قَالَ: «وَجَبَّ الْإِيمَانُ بِهَا»؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ [القصص: ٦٥-٦٦]... وَالنُّصُوصُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَوْقِفَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ نَتِجَةُ الْأَحَادِيثِ الْمُخَالَفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ يَدُورُ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، رَقْمُ (٤٧٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ السَّوَالِكِ الرُّطْبِ وَالْيَابِسِ لِلصَّائِمِ، (٣/ ٣١)، مَعْلَقًا بِجُزْءٍ، وَوَصَلَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٦/ ٤٧)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي السَّوَالِكِ، رَقْمُ (٥)، وَابْنُ حِبَّانَ رَقْمُ (١٠٦٧)، وَحَسَنَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَنِ» (١/ ٣٩٤).

أَمْرَيْنِ: إمَّا التَّكْذِيبَ، وإمَّا التَّحْرِيفَ.

فَإِنْ كَانَ يُمَكِّنُهُمْ تَكْذِيبُهُ كَذَّبُوهُ، كَقَوْلِهِمْ فِي الْقَاعِدَةِ الْبَاطِلَةِ: أَخْبَارُ الْآحَادِ لَا تُقْبَلُ فِي الْعَقِيدَةِ!! وَقَدْ رَدَّ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ، وَأَبْطَلَهَا بِأَدْلَةٍ كَثِيرَةٍ فِي آخِرِ «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ»^(١). وَإِنْ كَانَ لَا يُمَكِّنُهُمْ تَكْذِيبُهُ حَرَّفُوهُ، كَمَا حَرَّفُوا نُصُوصَ الْقُرْآنِ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَقَبِلُوا كُلَّ مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ؛ لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى وَجُوبِ قَبُولِ ذَلِكَ.

* وَقَوْلُهُ: «كَذَلِكَ» يَعْني: كَمَا يَحِبُّ الْإِيمَانُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْثِيفٍ، وَلَا تَمْتِيلٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ مِنْهَا أَحَادِيثَ عَدِيدَةً، مِنْهَا:



(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٨٥).

فصل

في أحاديث الصفات

* الحديث الأول في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا وهو:

قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَنْقُي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

هَذَا الْحَدِيثُ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ الْمُسْتَفِيزَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالسُّنَّةِ.

* قَوْلُهُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»: نَزْوُهُ تَعَالَى حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ كَمَا مَرَّ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ الضَّمِيرُ يَعُودُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ يُنسَبُ إِلَيْهِ حَقِيقَةً.

فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُصَدِّقَ وَنَقُولَ: يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهِيَ أَقْرَبُ السَّمَوَاتِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالسَّمَوَاتُ سَبْعٌ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ عَزَّجَلَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ لِلْقُرْبِ مِنْ عِبَادِهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا يَقْرُبُ مِنْهُمْ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ؛ حَيْثُ يَبَاهِي بِالْوَاقِفِينَ الْمَلَائِكَةَ ^(٢).

* وَقَوْلُهُ: «كُلَّ لَيْلَةٍ»: يَشْمَلُ جَمِيعَ لَيَالِي الْعَامِ.

* «حِينَ يَنْقُي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ» وَاللَّيْلُ يَبْتَدِئُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ اتِّفَاقًا، لَكِنْ حَصَلَ الْخِلَافُ فِي انْتِهَائِهِ هَلْ يَكُونُ بَطْلُوعِ الْفَجْرِ أَوْ بَطْلُوعِ الشَّمْسِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّيْلَ الشَّرْعِيَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ»، رقم (٧٤٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما جاء ذلك في «صحيح مسلم»: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٤٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفه، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

يَنْتَهِي بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَاللَّيْلِ الْفَلَكَجِيِّ يَنْتَهِي بِطُلُوعِ الشَّمْسِ.

* وَقَوْلُهُ: «فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي»: «مَنْ»: اسْتَفْهَامٌ لِلتَّشْوِيقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَى بِحْرٍ رَحْبٍ يُدْعَى إِلَيْهِ﴾ [الصف: ١٠].

* و«يَدْعُونِي» أَيُّ: يَقُولُ: يَا رَبِّ!

* وَقَوْلُهُ: «فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»: بِالنَّصْبِ؛ لِأَنَّهَا جَوَابُ الطَّلَبِ.

* «مَنْ يَسْأَلُنِي»: يَقُولُ: أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

* «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي» فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ: اسْتَغْفِرْكَ اللَّهُمَّ!

* «فَاغْفِرْ لَهُ» وَالْمَغْفِرَةُ سِتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ.

بهَذَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ قَرَأَ هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنُّزُولِ هُنَا نَزُولُ اللَّهِ نَفْسِهِ، وَلَا نَحْتَاجُ أَنْ نَقُولَ: بِذَاتِهِ. مَا دَامَ الْفِعْلُ أَصِيفَ إِلَيْهِ فَهُوَ لَهُ، لَكِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَالُوا: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَجَّوْا إِلَى ذَلِكَ، وَاضْطَرُّوا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ مَنْ حَرَّفُوا الْحَدِيثَ، وَقَالُوا: الَّذِي يَنْزِلُ أَمْرُ اللَّهِ! وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الَّذِي يَنْزِلُ رَحْمَةُ اللَّهِ! وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الَّذِي يَنْزِلُ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ!

وهَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ نَزُولَ أَمْرِ اللَّهِ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَلَا يَخْتَصُّ نَزُولُهُ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿وَالِإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: تَنْزِلُ رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ! فَسُبْحَانَ اللَّهِ! الرَّحْمَةُ لَا تَنْزِلُ إِلَّا فِي هَذَا الْوَقْتِ! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، كُلُّ النِّعَمِ مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وَهِيَ تَتَرَى كُلَّ وَقْتٍ!!

ثُمَّ نَقُولُ: أَيُّ فَائِدَةٍ لَنَا بِنَزُولِ الرَّحْمَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟!

ثُمَّ نَقُولُ لِمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: هَلْ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنَّ الْمَلَكَ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ... إلخ؟!

فَيَبَيِّنَ هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ تَحْرِيفٌ بَاطِلٌ يُبْطِلُهُ الْحَدِيثُ.

ووالله ليسوا أعلم بالله من رسول الله، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله،
وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ!!

يَقُولُونَ: كَيْفَ تَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ؟! إِذَا نَزَلَ أَيْنَ الْعُلُوُّ؟! وَإِذَا نَزَلَ أَيْنَ الْاسْتِوَاءُ عَلَى
الْعَرْشِ؟! إِذَا نَزَلَ فَالتَّزْوُلُ حَرَكَةٌ وَانْتِقَالَ!! إِذَا نَزَلَ فَالتَّزْوُلُ حَادِثٌ، وَالْحَوَادِثُ لَا تَقُومُ
إِلَّا بِحَادِثٍ!!

فَنَقُولُ: هَذَا جِدَالٌ بِالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ بِمَانِعٍ مِنَ الْقَوْلِ بِحَقِيقَةِ النَّزُولِ!!

هَلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ؟!!

فَأَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ مَا قَالُوا هَذِهِ الاحتمالات أبداً، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَمَنَّا وَقِيلْنَا
وَصَدَقْنَا.

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْخَالِفُونَ الْمُخَالِفُونَ تَأْتُونَ الْآنَ وَتُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَتَقُولُونَ: كَيْفَ؟
وَكَيْفَ؟!

نَحْنُ نَقُولُ: يَنْزِلُ، وَلَا تَتَكَلَّمُ عَنِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ، هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ لَا يَخْلُو؟!!

أَمَّا الْعُلُوُّ فَنَقُولُ: يَنْزِلُ، لَكِنَّهُ عَالٍ عَزَّجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى النَّزُولِ أَنَّ السَّمَاءَ
تُقَلُّ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ الْأُخْرَى تُظَلُّ؛ إِذْ إِنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

فَنَقُولُ: هُوَ يَنْزِلُ حَقِيقَةً مَعَ عُلُوِّهِ حَقِيقَةً، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

أَمَّا الْاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَهُوَ فِعْلٌ، لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ، وَلَيْسَ لَنَا حَقٌّ -فِيمَا
أَرَى- أَنْ تَتَكَلَّمَ: هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ لَا يَخْلُو، بَلْ نَسْكُتُ كَمَا سَكَتَ عَنْ ذَلِكَ الصَّحَابَةُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَإِذَا كَانَ عِلْمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ لَهُمْ فِي هَذَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: قَوْلٌ بَأَنَّهُ يَخْلُو، وَقَوْلٌ بَأَنَّهُ لَا يَخْلُو،
وَقَوْلٌ بِالتَّوَقُّفِ.

وَسَيُخْرِجُ الْإِسْلَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (الرَّسَالَةِ الْعَرَشِيَّةِ) يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ^(١)؛ لَأَنَّ أَدْلَةَ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ مُحْكَمَةٌ، وَالْحَدِيثُ هَذَا مُحْكَمٌ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ لَا تَقَاسُ صِفَاتُهُ بِصِفَاتِ الْخَلْقِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُبْقِيَ نُصُوصَ الْاِسْتِوَاءِ عَلَى إِحْكَامِهَا، وَنُصَّ النَّزُولِ عَلَى إِحْكَامِهِ، وَنَقُولَ: هُوَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، نَازِلٌ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَيْفِيَّةِ ذَلِكَ، وَعَقُولُنَا أَفْصَرُ وَأَذَنِي وَأَخْفَرُ مِنْ أَنْ تُحِيطَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: التَّوَقُّفُ، يَقُولُونَ: لَا نَقُولُ: يَخْلُو، وَلَا: لَا يَخْلُو.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ.

وَأُورِدَ الْمُتَأَخَّرُونَ الَّذِينَ عَرَفُوا أَنَّ الْأَرْضَ كَرَوِيَّةٌ وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدُورُ عَلَى الْأَرْضِ إِشْكَالًا، قَالُوا: كَيْفَ يَنْزِلُ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِذَا انْتَقَلَ عَنِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ ذَهَبَ إِلَى أَوْرُوبَا وَمَا قَارَبَهَا؟! أَفَيَكُونُ نَازِلًا دَائِمًا؟!

فَنَقُولُ: آمِنٌ أَوَّلًا بِأَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ، وَإِذَا آمَنْتَ فَلَيْسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، لَا تَقُلْ: كَيْفَ؟! وَكَيْفَ؟! بَلْ قُلْ: إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فِي السُّعُودِيَّةِ فَاللَّهُ نَازِلٌ، وَإِذَا كَانَ فِي أَمْرِيكَ ثُلُثُ اللَّيْلِ يَكُونُ نُزُولُ اللَّهِ أَيْضًا، وَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ انْتَهَى وَقْتُ النَّزُولِ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِحَسَبِهِ.

إِذَنْ: مَوْفِقُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّا نُوْمِنُ بِمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ بِأَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!

* مِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ:

أَوَّلًا: إِبْنَابُ الْعُلُوِّ لِلَّهِ مِنْ قَوْلِهِ: «يَنْزِلُ».

ثَانِيًا: إِبْنَابُ الْأَفْعَالِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي هِيَ الصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ».

ثالثاً: إِبْنَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ مِنْ قَوْلِهِ: «يَقُولُ».

رابعاً: إِبْنَاتُ الْكَرَمِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَوْلِهِ: «مَنْ يَدْعُونِي... مَنْ يَسْأَلُنِي... مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي...».* وفيه مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ:

أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَغْتَنِمَ هَذَا الْجُزْءَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَيَدْعُوهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ مَا دَامَ الرَّبُّ سُحَّانَهُ يَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي... مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي...» (وَمَنْ): لِلتَّشْوِيقِ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَغْلِلَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْعُمُرِ إِلَّا مَا أَمْضَيْتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَسَتَمُرُّ بِكَ الْأَيَّامُ، فَإِذَا نَزَلَ بِكَ الْمَوْتُ فَكَأَنَّكَ وُلِدْتَ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَكُلُّ مَا مَضَى لَيْسَ بِشَيْءٍ.



* الْحَدِيثُ الثَّانِي فِي إِبْنَاتِ الْفَرَحِ، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ...» الْحَدِيثُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

* «لَلَّهِ»: اللَّامُ هَذِهِ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ. «اللَّهُ»: مُبْتَدَأٌ.

* «أَشَدُّ»: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ.

* «فَرَحًا»: تَمَيِّزٌ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «الْحَدِيثُ» أَيُّ: أَكْمَلِ الْحَدِيثِ.

وَالْحَدِيثُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَصَلَّتْ عَنْهُ، فَذَهَبَ يَطْلُبُهَا، فَلَمْ يَجِدْهَا، فَأَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، فَإِذَا بِخِطَامٍ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَةِ... وَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّرَ هَذَا الْفَرَحَ إِلَّا مَنْ وَقَعَ فِيهِ... فَأَمْسَكَ بِخِطَامِ النَّاقَةِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ! أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، لَمْ يَمْلِكْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ فِي الْكَلَامِ!!

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ التَّوْبَةِ، رَقْمُ (٦٣٠٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ فِي الْحُضِّ عَلَى التَّوْبَةِ، رَقْمُ (٢٧٤٧)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَاللَّهُ عَزَّجَلْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ، وَلَيْسَ اللَّهُ عَزَّجَلْ بِمُحْتَاجٍ إِلَى تَوْبَتِنَا، بَلْ نَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِنَا، لَكِنْ لِكَرَمِهِ جَلَّوَعًا وَمَحَبَّتِهِ لِلإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ يَفْرَحُ هَذَا الْفَرَحَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ بِتَوْبَةِ الْإِنْسَانِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِنْ بَاتَ الْفَرَحُ لِلَّهِ عَزَّجَلْ، فَقُولُ فِي هَذَا الْفَرَحِ: إِنَّهُ فَرَحٌ حَقِيقِيٌّ، وَأَشَدُّ فَرَحٍ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَفَرَحِ الْمَخْلُوقِينَ.

الْفَرَحُ بِالنَّسَبِ لِلْإِنْسَانِ هُوَ نَشْوَةٌ وَخَفَّةٌ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ حُصُولِ مَا يَسُرُّهُ؛ وَلِهَذَا تَشْعُرُ بِأَنَّكَ إِذَا فَرَحْتَ بِالشَّيْءِ كَأَنَّكَ تَمْنِي عَلَى الْهَوَاءِ، لَكِنْ بِالنَّسَبِ لِلَّهِ عَزَّجَلْ لَا نَفْسُ الْفَرَحِ بِشَيْءٍ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، نَقُولُ: هُوَ فَرَحٌ يَلِيْقُ بِهِ عَزَّجَلْ، مِثْلُ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ، كَمَا أَنَّنَا نَقُولُ: اللَّهُ ذَاتٌ، وَلَكِنْ لَا تَمَثِّلُ ذَوَاتَنَا، فَلَهُ صِفَاتٌ لَا تَمَثِّلُ صِفَاتِنَا؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَنِ الصِّفَاتِ فَرَعٌ عَنِ الْكَلَامِ فِي الذَّاتِ.

فَتُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ فَرَحٌ كَمَا أَثْبَتَ ذَلِكَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْصَحُ الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ، وَأَنْصَحُ الْخَلْقِ فِيمَا يَنْطِقُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَنَحْنُ عَلَى خَطَرٍ إِذَا قُلْنَا: الْمُرَادُ بِالْفَرَحِ الثَّوَابُ؛ لِأَنَّ أَهْلَ التَّخْرِيفِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْرَحُ، وَالْمُرَادُ بِفَرَحِهِ: إِثَابَتُهُ التَّائِبَ، أَوْ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ يُثَبِّتُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُخْلِقًا بَائِنًا مِنْهُ هُوَ الثَّوَابُ، وَيُثَبِّتُونَ الْإِرَادَةَ، فَيَقُولُونَ فِي الْفَرَحِ: إِنَّهُ الثَّوَابُ الْمَخْلُوقُ، أَوْ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: الْمُرَادُ بِالْفَرَحِ: الْفَرَحُ حَقِيقَةً، مِثْلًا أَنَّ الْمُرَادَ بِاللَّهِ عَزَّجَلْ: نَفْسُهُ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّا لَا نُمَثِّلُ صِفَاتِنَا بِصِفَاتِ اللَّهِ أَبَدًا.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ إِبْتِاطِ الْفَرَحِ لِلَّهِ عَزَّجَلْ: كَمَا لَمْ رَحْمَتِهِ جَلَّوَعًا وَرَأْفَتِهِ بَعْبَادِهِ؛ حَيْثُ يُحِبُّ رُجُوعَ الْعَاصِي إِلَيْهِ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ الْعَظِيمَةُ.. هَارِبٌ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ وَقَفَ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ.. يَفْرَحُ اللَّهُ بِهِ هَذَا الْفَرَحَ الْعَظِيمَ.

وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُكِيَّةِ: يُفِيدُنَا أَنَّ نَحْرَصَ عَلَى التَّوْبَةِ غَايَةَ الْحِرْصِ، كُلَّمَا فَعَلْنَا ذَنْبًا تُبْنَا إِلَى اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴿ أَيْ فَاحِشَةً، مِثْلُ: الزِّنَا، وَاللُّوَاطِ، وَنِكَاحِ ذَوَاتِ الْحَارِمِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [النساء: ٢٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [الإسراء: ٣٢]، وَقَالَ لُوطٌ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ ﴿ [الأعراف: ٨٠].

إِذَنْ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي نُفُوسِهِمْ، ذَكَرُوا عَظَمَتَهُ، وَذَكَرُوا عِقَابَهُ، وَذَكَرُوا ثَوَابَهُ لِلتَّائِبِينَ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴿، فَعَلُوا مَا فَعَلُوا لَكِنَّهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي نُفُوسِهِمْ، وَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ، وَالدَّلِيلُ: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴿ [آل عمران: ١٣٥].

فَأَنْتَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِتَوْبَتِكَ هَذَا الْفَرَحَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ لَا شَكَّ أَنَّكَ سَوْفَ تَحْرِصُ غَايَةَ الْجِرْصِ عَلَى التَّوْبَةِ.
* وَلِلتَّوْبَةِ شُرُوطٌ خَمْسَةٌ:

الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، بِأَنْ لَا يَحْمِلَكَ عَلَى التَّوْبَةِ مُرَاءَةُ النَّاسِ، أَوْ تَبَلُّ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الدُّنْيَا.

الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

الثَّالِثُ: الْإِقْلَاعُ عَنْهَا، وَمِنْ الْإِقْلَاعِ: إِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ فِي حَقِّ مَنْ حُقِّقَ الْأَدَمِيَّةُ أَنْ تَرُدَّ الْحَقُّ إِلَى صَاحِبِهِ.

الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا تَعُودَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

الخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي وَقْتِ الْقَبُولِ، وَيَنْقَطِعُ قَبُولُ التَّوْبَةِ بِالنِّسْبَةِ لِعُمُومِ النَّاسِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَبِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحُضُورِ أَجَلِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ عَلَىٰ أَلْتَنَ ﴿ [النساء: ١٨].

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ زَمَنَ التَّوْبَةَ يَنْقَطِعُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالنَّاسُ يُؤْمِنُونَ حِينَئِذٍ، وَلَكِنْ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ^(١).

هَذِهِ خَمْسَةُ شُرُوطٍ إِذَا تَمَّتْ صَحَّتِ التَّوْبَةُ.

وَلَكِنْ: هَلْ يُشْتَرَطُ لِصِحَّةِ التَّوْبَةِ أَنْ يُتُوبَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ؟!

فِيهِ خِلَافٌ، وَلَكِنْ الصَّحِيحُ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَرْطٍ، وَأَنَّهَا تَصَحُّ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِضْرَارِ عَلَى غَيْرِهِ ^(٢)، لَكِنْ هَذَا التَّائِبُ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَضْفُ التَّائِبِينَ الْمُطْلَقِ، فَيُقَالُ: تَابَ تَوْبَةً مُقَيَّدَةً، لَا مُطْلَقَةً.

فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَأْكُلُ الرِّبَا، فَتَابَ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ، صَحَّتْ تَوْبَتُهُ مِنْ الْخَمْرِ، وَبَقِيَ إِثْمُهُ فِي أَكْلِ الرِّبَا، وَلَا يَنَالُ مَنَزِلَةَ التَّائِبِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى بَعْضِ الْمَعَاصِي.

رَجُلٌ تَمَّتِ الشُّرُوطُ فِي حَقِّهِ، وَعَادَ إِلَى الذَّنْبِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَا تُنْتَفِضُ تَوْبَتُهُ الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، وَلَكِنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَعَادَ، إِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُتُوبَ مَرَّةً ثَانِيَةً.. وَهَكَذَا، كُلَّمَا أَذْنَبَ يُتُوبُ.. وَفَضَّلَ اللَّهُ وَاسِعٌ.



* الْحَدِيثُ الثَّالِثُ فِي إِثْبَاتِ الضَّحِكِ، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» ^(٣).

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾، رقم (٤٦٣٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا، ثُمَّ قُرِئَ الْآيَةُ».

(٢) وهما روايتان للإمام أحمد، انظر: كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، رقم (٢٨٢٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، رقم (١٨٩٠)، من حديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي بعض النسخ: «يُدْخَلَانِ» وهي صحيحة؛ لأنَّ (كِلا) يجوزُ في خبرها -سواءً كان فعلاً أو اسماً- مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، وقد اجتمعَا في قول الشاعر يصفُ فرسين^(١):

كِلاهُمَا حِينَ جَدَّ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا قَدْ أَقْلَعَا وَكِلا أَنْفِيهِمَا رَابِي

الحديث يُخْبِرُ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَضْحَكُ إِلَى رَجُلَيْنِ، عِنْدَ مُلَاقَاتِهِمَا يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ، وَأَحَدُهُمَا لَمْ يَقْتُلِ الْآخَرَ إِلَّا لَشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَزُولُ تِلْكَ الْعَدَاوَةُ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ مُسْلِمًا، وَالْآخَرَ كَانَ كَافِرًا، فَقَتَلَهُ الْكَافِرُ، فَيَكُونُ هَذَا الْمُسْلِمُ شَهِيدًا، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ مِنَ اللَّهِ عَلَى هَذَا الْكَافِرِ، فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قُتِلَ شَهِيدًا، أَوْ مَاتَ بِدُونِ قَتْلِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَيَكُونُ هَذَا الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمَا.

فَفِي هَذَا إِبْتِاثُ الضَّحِكِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ ضَحِكٌ حَقِيقِيٌّ، لَكِنَّهُ لَا يُمَازِلُ ضَحِكَ الْمَخْلُوقِينَ، ضَحِكٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُمَثِّلَهُ؛ لِأَنَّا لَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ قَمًا أَوْ أَسَنَانًا أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. لَكِنْ ثُبُتَ الضَّحِكُ لِلَّهِ عَلَى وَجْهِ يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: يَلْزَمُ مِنْ إِبْتِاثِ الضَّحِكِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُمَازِلًا لِلْمَخْلُوقِ!!

فَالْجَوَابُ: لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُمَازِلًا لِلْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَالَ: «يَضْحَكُ»: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى: فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَتَكَلَّمُ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَّا عَنْ وَحْيٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، لَيْسَ مِنَ الْأُمُورِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي قَدْ يَجْتَهِدُ فِيهَا الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ يُفَرِّقُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ لَا يُفَرِّقُهُ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي يَتَلَقَّاها الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْمُرَادُ بِالضَّحِكِ الرِّضَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَضِيَ عَنِ الشَّيْءِ سُرَّ بِهِ وَضَحِكَ، وَالْمُرَادُ بِالرِّضَا الثَّوَابِ أَوْ إِزَادَةُ الثَّوَابِ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ!

(١) نسبه البلاذري في أنساب الأشراف (١٣/ ٩٤)، وابن جني في الخصائص (٣/ ٣١٧) للفرزدق.

فالجواب أن نقول: هَذَا تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَمَا الَّذِي أَدْرَأَكُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّضَا الثَّوَابُ؟! ١

فَأَنْتُمْ الْآنَ قُلْتُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:
الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: صَرَفْتُمُ النَّصَّ عَنْ ظَاهِرِهِ بِلَا عِلْمٍ.
الثَّانِي: أَثْبَتْتُمْ لَهُ مَعْنَى خِلَافَ الظَّاهِرِ بِلَا عِلْمٍ.

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ: الْإِرَادَةُ، إِذَا قُلْتُمْ: إِنَّمَا ثَابِتُهُ اللَّهُ عَزَّجَلْ فَإِنَّهُ تُنْقَضُ قَاعِدَتُكُمْ؛ لِأَنَّ
لِلْإِنْسَانَ إِرَادَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾
[آل عمران: ١٥٢]، فَلِلْإِنْسَانِ إِرَادَةٌ، بَلْ لِلْجِدَارِ إِرَادَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٧٧]، فَأَنْتُمْ إِمَّا أَنْ تَنْفُوا الْإِرَادَةَ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلْ كَمَا نَفَيْتُمْ مَا نَفَيْتُمْ مِنَ الصِّفَاتِ،
وَأَمَّا أَنْ تَثْبُتُوا لِلَّهِ عَزَّجَلْ مَا أَثْبَتْتُمْ لِنَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ لِلْمَخْلُوقِ نَظِيرُهُ فِي الْأَسْمِ لَا فِي الْحَقِيقَةِ.
وَالفَائِذَةُ الْمَسْلُوكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: هُوَ أَنَّنَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ يَضْحَكُ فَإِنَّا نَرْجُو
مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ.

وَلِهَذَا قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْيَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: لَنْ نَعْدِمَ
مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا^(١).

إِذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ انْفَتَحَ لَنَا الْأُمْلُ فِي كُلِّ خَيْرٍ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ إِنْسَانٍ عَبُوسٍ لَا يَكَادُ
يَرَى ضَاحِكًا وَبَيْنَ إِنْسَانٍ يَضْحَكُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ دَائِمَ الْبُشْرِ، كَثِيرَ التَّبَسُّمِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) لما أخرجه وكيع بن عَدَسٍ عن عمه أَبِي رَزِينٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَحَكُ رَبِّنَا مِنْ قَنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْيَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّجَلْ؟! قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: لَنْ نَعْدِمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا»، أخرجه الإمام أحمد (١١/٤)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيها أنكرت الجهمية، رقم (١٨١)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥٥٤)، والأجري في «الشرعية» رقم (٦٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٩٨٧)، والحديث حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠). أخرجه الإمام أحمد (٤/١٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٦٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/٤٦٢)، والحاكم في المستدرک (٤/٥٦١)، من حديث لقيط بن عامر أبي رزین رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بنحوه.

* الْحَدِيثُ الرَّابِعُ فِي إثْبَاتِ الْعَجَبِ وَصِفَاتِ أُخْرَى وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَرْلَيْنَ قَبْطَيْنِ، فَيَظْلُ يَضْحَكُ، يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١).

الْعَجَبُ: هُوَ اسْتِعْرَابُ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: خَفَاءُ الْأَسْبَابِ عَلَى هَذَا الْمُسْتَعْرَبِ لِلشَّيْءِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ، بَحِثُ يَأْتِيهِ بَعْتَهُ بِدُونِ تَوَقُّعٍ، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ فِيهِ خُرُوجُ هَذَا الشَّيْءِ عَنْ نَظَائِرِهِ وَعَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ بِدُونِ قُصُورٍ مِنَ الْمُتَعَجَّبِ، بَحِثُ يَعْمَلُ عَمَلًا مُسْتَعْرَبًا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ.

وَهَذَا ثَابِتٌ لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ نَقْصٍ مِنَ الْمُتَعَجَّبِ، وَلَكِنَّهُ عَجَبٌ بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ.

* قَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ»: الْقُنُوطُ: أَشَدُّ الْيَأْسِ. يَعَجَبُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مِنْ دُخُولِ الْيَأْسِ الشَّدِيدِ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ.

* «وَقُرْبِ غَيْرِهِ»: الْوَاوُ بِمَعْنَى (مَعَ) يَعْنِي: مَعَ قُرْبِ غَيْرِهِ.

وَالْغَيْرُ: اسْمُ جَمْعٍ غَيْرَةٍ، كَطَيْرٍ: اسْمُ جَمْعٍ طَيْرَةٍ، وَهِيَ اسْمٌ بِمَعْنَى التَّغْيِيرِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَقُرْبِ تَغْيِيرِهِ.

فَيَعَجَبُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ كَيْفَ نَقُطُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَرِيبُ التَّغْيِيرِ، يُعَيِّرُ الْحَالَ إِلَى حَالٍ أُخْرَى بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ: كُنْ فَيَكُونُ.

* وَقَوْلُهُ: «يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ» أَيُّ: يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْنَا بَعَيْنِهِ.

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٧٢/١) لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ...﴾ [البقرة: ٢١٤]، من حديث أبي رزين رضي الله عنه، ولفظه: «عجب ربك...» الحديث. وبدل «غيره»: «غيته».

* «أَزِلِينَ قَنَطينَ»: الأَزَلُ: الواقعُ في الشَّدَّةِ. و«قَنَطينَ»: جَمْعُ قَانِطٍ، والقَانِطُ: اليائِسُ مِنَ الْفَرَجِ وَزَوَالِ الشَّدَّةِ.

فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَالَ الْإِنْسَانِ وَحَالَ قَلْبِهِ، حَالَهُ أَنَّهُ وَاقِعٌ فِي شِدَّةٍ، وَقَلْبُهُ قَانِطٌ يَائِسٌ مُسْتَبْعِدٌ لِلْفَرَجِ.

* «فَيَظُلُّ يَضْحَكُ»: يَظُلُّ يَضْحَكُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ، كَيْفَ تَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ؟!

* «يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ» أَي: زَوَالَ شِدَّتِكُمْ قَرِيبٌ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةُ صِفَاتٍ:

■ أَوَّلًا: الْعَجَبُ؛ لِقَوْلِهِ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ»، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] عَلَى قِرَاءَةِ ضَمِّ النَّاءِ.

■ وَفِيهِ أَيْضًا بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: «وَقُرْبِ غَيْرِهِ» وَأَنَّهُ عَزَّجَلَّ تَأَمُّ الْقُدْرَةِ، إِذَا ارَادَ غَيْرَ الْحَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى ضِدِّهَا فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ.

■ وَفِيهِ أَيْضًا إِبْتِاثُ النَّظَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «يَنْتَظِرُ إِلَيْكُمْ».

■ وَفِيهِ إِبْتِاثُ الضَّحِكِ؛ لِقَوْلِهِ: «فَيَظُلُّ يَضْحَكُ».

■ وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ «يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ».

■ وَالرَّحْمَةُ؛ لِأَنَّ الْفَرَجَ مِنَ اللَّهِ دَلِيلٌ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْحَدِيثُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُنْشِئَهَا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ حَقًّا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَلَا نَتَأَوَّلَ فِيهَا.

وَالفَائِدَةُ الْمَسْلُوكِيَّةُ فِي هَذَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَذَرَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَهُوَ الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنَ الْكِبَائِرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

[يوسف: ٨٧].

فَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَاسْتِعَادَ الرَّحْمَةَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ، إِنْ دَعَاهُ أَحْسَنَ الظَّنِّ بِهِ بِأَنَّهُ سَيُحْيِيهِ، وَإِنْ تَعَبَّدَ لَهُ بِمُقْتَضَى شَرْعِهِ فَلْيُحْسِنِ الظَّنَّ بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَقْبَلُ مِنْهُ، وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ شِدَّةٌ فَلْيُحْسِنِ الظَّنَّ بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُزِيلُهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

بَلْ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ، كَمَا يَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢).

* الْحَدِيثُ الْخَامِسُ فِي اثْبَاتِ الرَّجُلِ أَوْ الْقَدَمِ وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمُهُ) فَيَتَزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٣).

* قَوْلُهُ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا»: هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْنِي: يُلْقَى فِيهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وَقَدْ يُقَالُ: يُلْقَى فِيهَا النَّاسُ فَقَطُّ، وَأَنَّ الْحِجَارَةَ لَمْ تَزَلْ مَوْجُودَةً فِيهَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

* «يُلْقَى فِيهَا»: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَهَا -وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ- يُلْقَوْنَ فِيهَا إِلْقَاءً، لَا يَدْخُلُونَ مُكْرَمِينَ، بَلْ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿كَمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

(١) قطعة من الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (٣٠٧/١)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو يعلى في المسند رقم (٢٥٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الحافظ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٠ - ٤٦١): وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي.

(٢) له طرق متعددة ذكرها الحافظ في «الفتح» (٨/ ٧١٢)، ولعله يتقوى بمجموعها، وله طريق موقوفة بإسناد جيد كما قاله الحافظ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكمالاته، رقم (٦٦٦١)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟»: (هَلْ): لِلطَّلَبِ، يَعْنِي: زِيدُوا. وَأَبْعَدَ النَّجْعَةِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الاسْتِفْهَامَ هُنَا لِلنَّفْيِ، وَالْمَعْنَى عَلَى رَعْمِهِ: لَا مَزِيدَ عَلَى مَا فِيَّ، وَالدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ هَذَا التَّأْوِيلِ:

* قَوْلُهُ: «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمُهُ)»؛ لَأَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَطْلُبُ زِيَادَةً، وَإِلَّا لَمَا وَضَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رِجْلَهُ حَتَّى يَنْزُوِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَكَأَنَّهَا تَطْلُبُ بِشَوْقٍ إِلَى مَنْ يُلْقِي فِيهَا زِيَادَةً عَلَى مَا فِيهَا.

* قَوْلُهُ: «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ: عَبَّرَ بِرَبِّ الْعِزَّةِ؛ لَأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ عِزَّةٍ وَعِلْبَةٍ وَقَهْرٍ. وَهُنَا (رَبُّ) بِمَعْنَى: صَاحِبٍ، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى خَالِقٍ؛ لَأَنَّ الْعِزَّةَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَصِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

* وَقَوْلُهُ: «فِيهَا رِجْلُهُ» وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَيْهَا قَدَمُهُ»: (فِي) وَ(عَلَى) مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ هُنَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ (فِي) بِمَعْنَى (عَلَى) كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَيْ: عَلَيْهَا. أَمَّا الرَّجُلُ وَالْقَدَمُ فَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَسُمِّيَتْ رِجْلُ الْإِنْسَانِ قَدَمًا؛ لِأَنَّهَا تَتَقَدَّمُ فِي الْمَشْيِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ بِرِجْلِهِ إِلَّا إِذَا قَدَّمَهَا.

قَوْلُهُ: «فَيَنْزُوِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ» يَعْنِي: يَنْضُمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ مِنْ عَظَمَةِ قَدَمِ الْبَارِي عَزَّوَجَلَّ.

* قَوْلُهُ: «فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ» بِمَعْنَى: حَسْبِيَ حَسْبِيَ، يَعْنِي: لَا أُرِيدُ أَحَدًا.

* فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الصِّفَاتِ:

أولاً: إِبْنَاتُ الْقَوْلِ مِنَ الْجَاهِدِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَهِيَ تَقُولُ» وَكَذَلِكَ: «فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ» وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

ثانياً: التَّحْذِيرُ مِنَ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟».

ثالثاً: إِبْنَاتُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفَّلَ لِلنَّارِ بِأَنْ يَمْلَأَهَا كَمَا قَالَ: ﴿لَأَنلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَجْمَعِينَ ﴿[مرد: ١١٩]، فَإِذَا دَخَلَهَا أَهْلُهَا، وَبَقِيَ فِيهَا فَضْلٌ، وَقَالَتْ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ وَضَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رِجْلَهُ، فَانْزَوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَامْتَلَأَتْ هَذَا الْانْزِوَاءَ.

وهذا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ أَقْوَامًا وَيُكَمِّلَ مَلَأَهَا بِهِمْ، وَلَكِنَّهُ عَزَّجَلَّ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبٍ، بخلاف الجنة، فَيَبْقَى فِيهَا فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيَخْلُقُ اللَّهُ أَقْوَامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

رابعاً: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَجُلًا وَقَدَمًا حَقِيقَةً، لَا تَمَثِّلُ أَرْجُلِ الْمَخْلُوقِينَ، وَيُسَمَّى أَهْلُ السُّنَّةِ مِثْلَ هَذِهِ الصِّفَةِ: الصِّفَةُ الدَّائِيَّةُ الْحَرِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُعَلِّمْ إِلَّا بِالْحَرِّ، وَلَأنَّ مُسَامَهَا أَبْعَاضٌ لَنَا وَأَجْزَاءٌ، لَكِنْ لَا نَقُولُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ: إِنَّهَا أَبْعَاضٌ وَأَجْزَاءٌ؛ لِأَنَّ هَذَا مُتَمَنِّعٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك، فقالوا: «يَضَعُ عَلَيْهَا رِجْلَهُ» يعني: طائفةٌ مِنْ عِبَادِهِ مُسْتَحَقِّينَ لِلدُّخُولِ، وَالرَّجُلُ تَأْتِي بِمَعْنَى الطَّائِفَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١): أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ. يعني: طائفةٌ مِنْ جَرَادٍ.

وهذا تحريفٌ باطلٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «عَلَيْهَا»: يَمْنَعُ ذَلِكَ.

وأيضاً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُضِيفَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَهْلَ النَّارِ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ إِضَافَةَ الشَّيْءِ إِلَى اللَّهِ تَكْرِيمٌ وَتَشْرِيفٌ.

وقالوا في القَدَمِ: قَدَمٌ بِمَعْنَى: مُقَدِّمٌ، أَيْ: يَضَعُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مُقَدِّمَهُ، أَيْ: مَنْ يَقْدِّمُهُمْ إِلَى النَّارِ.

وهذا باطلٌ أيضاً؛ فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَقْدِّمُهُمُ الْبَارِي عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الطور: ١٣]، وَيُلْقَوْنَ فِيهَا إِنْقَاءً، فَهَؤُلَاءِ الْمَحْرُوقُونَ قَرُّوا مِنْ شَيْءٍ وَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِنْهُ، قَرُّوا مِنْ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ الْقَدَمِ وَالرَّجْلِ، لَكِنَّهُمْ وَقَعُوا فِي السَّفَهَةِ وَمُجَابَبَةِ الْحِكْمَةِ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، رقم (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والْحَاصِلُ أَنَّهُ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَمًا، وَإِنْ شِئْنَا قُلْنَا: رِجُلًا. عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ، مَعَ عَدَمِ الْمُمَالَّةِ، وَلَا نَكَيْفُ الرَّجُلُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رِجُلًا أَوْ قَدَمًا، وَلَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ هَذِهِ الرَّجُلُ أَوْ الْقَدَمُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وَالْفَائِدَةُ الْمَسْلُوكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: هُوَ الْحَذَرُ الشَّدِيدُ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ خَشْيَةُ أَنْ يُلْقَى الْإِنْسَانُ فِيهَا كَمَا يُلْقَى غَيْرُهُ.



* الْحَدِيثُ السَّادِسُ فِي إِبْطَاتِ الْكَلَامِ وَالصَّوْتِ وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْنًا إِلَى النَّارِ...». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

يُخْبِرُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ يَقُولُ: يَا آدَمُ! وَهَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَيُجِيبُ آدَمُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ».

* «لَبَّيْكَ» بِمَعْنَى: إِجَابَةٌ بَعْدَ إِجَابَةٍ، وَهُوَ مُثْنًى لَفْظًا، وَمَعْنَاهُ: الْجَمْعُ؛ وَلِهَذَا يُعْرَبُ عَلَى أَنَّهُ مُلْحَقٌ بِالْمُثْنَى.

* «وَسَعْدَيْكَ» يَعْنِي: إِسْعَادًا بَعْدَ إِسْعَادٍ، فَأَنَا أَلْبِي قَوْلَكَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُسْعِدَنِي وَتُعِينَنِي.

قَالَ: «فَيُنَادِي» أَيِ: اللَّهُ، فَالْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، رقم (٧٤٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لأدم: أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

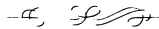
* وَقَوْلُهُ: «بَصَوْتُ»: هَذَا مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ النَّدَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا ظَلِمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فَالطَّائِرُ الَّذِي يَطِيرُ إِنَّمَا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ.

وَقَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ»: وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَمُرُكَ! وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكَثْرَةِ وَالْعِظَمَةِ؛ حَيْثُ كُنِيَ عَنْ نَفْسِهِ تَعَالَى بِكُنْيَةِ الْغَائِبِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ» كَمَا يَقُولُ الْمَلِكُ لِحُجُودِهِ: إِنَّ الْمَلِكَ يَأْمُرُكُمْ بِكَذَا وَكَذَا؛ تَفَاخُرًا وَتَعَاطُفًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَكَبِّرُ وَهُوَ الْعَظِيمُ.

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ هَذَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَمُرُكُمْ.

* وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ» أَيُّ: مَبْعُوثًا.

وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ: «قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعُونَ»^(١).



* الْحَدِيثُ السَّابِعُ فِي إِبْتَاتِ الْكَلَامِ أَيْضًا وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»^(٢).

الشرح:

* «مَا»: نَافِيَةٌ.

* «مِنْ أَحَدٍ»: مُبْتَدَأٌ، دَخَلَتْ عَلَيْهِ (مِنْ) الزَّائِدَةُ لِلتَّوَكِيدِ، يَعْنِي: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ زَلَّزِلَ السَّكَافَةَ شَقَّ عَظِيمٌ﴾، رقم (٦٥٣٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لأدم: أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة، رقم (٧٥١٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

* «إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ» يعني: هَذِهِ حَالُهُ، سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ» وذلك يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

والتَرْجُمانُ: هُوَ الَّذِي يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَ مُتَكَلِّمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي اللُّغَةِ، يُنْقَلُ إِلَى أَحَدِهِمَا كَلَامَ الْآخَرِ بِاللُّغَةِ الَّتِي يَفْهَمُهَا.

وَيُسْتَرْطَفُ فِي الْمُتَرْجِمِ أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ: الْأَمَانَةُ، وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِاللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ مِنْهَا، وَبِاللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ إِلَيْهَا، وَبِالْمَوْضُوعِ الَّذِي يُتَرْجِمُهُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: الْكَلَامُ، وَأَنَّهُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ مَفْهُومٍ. الْفَوَائِدُ الْمَسْكُوبَةُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ!»: فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَحْذَرُ وَيَخَافُ أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّسْعِ مِئَةٍ وَالتَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ.

وَفِي الْحَدِيثِ الثَّانِي: يَخَافُ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفْتَضِّحَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ إِذَا كَلَّمَهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِ، فَيُقْلِعَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَيَخَافُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

* الْحَدِيثُ الثَّامِنُ فِي إِنْبَاتِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ وَصِفَاتِ أُخْرَى وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ فِي رُفِيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتَكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ، فَيَبْرَأَ». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ^(١).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم (٦٤٨)، والحاكم (٣٤٣/١ - ٣٤٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٤٥ - ١٤٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٩٢)، وابن قدامة في «العلو» (ص: ٧٤)، والدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٧٠)، من حديث فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (٢٠/ ٦)، من حديث فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

* قوله: «في رُفِيَةِ المَرِيضِ»: مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، يَعْنِي: فِي الرُّفِيَةِ إِذَا قَرَأَ عَلَى الْمَرِيضِ.

* قوله: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»: تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: «فِي السَّمَاءِ» فِي الْآيَاتِ.
* وَقَوْلُهُ: «تَقَدَّسَ اسْمُكَ» أَيْ: طَهَّرَ، وَالاسْمُ هُنَا مُفْرَدٌ، لَكِنَّهُ مُضَافٌ، فَيَشْمَلُ كُلَّ الْأَسْمَاءِ، أَيْ: تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ.

* «أَمُرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»: أَمَرَ اللَّهُ نَافِذٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ أَلَسْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥٥]، وَقَالَ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

* وَقَوْلُهُ: «كَمَا رَحِمْتَكِ فِي السَّمَاءِ اجْعَلِي رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ»: الْكَافُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَالْمَرَادُ بِهَا التَّوَسُّلُ، تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِجَعْلِ رَحْمَتِهِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَجْعَلَهَا فِي الْأَرْضِ.
فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ رَحْمَةً اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَيْضًا؟

قُلْنَا: هُوَ يَقْرَأُ عَلَى الْمَرِيضِ، وَالْمَرِيضُ يَحْتَاجُ إِلَى رَحْمَةٍ خَاصَّةٍ يَزُولُ بِهَا مَرَضُهُ.
* وَقَوْلُهُ: «اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا»: الْعَفْرُ: سِتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ. وَالْحُوبُ: كِبَائِرُ الْإِثْمِ. وَالْخَطَايَا: صَغَائِرُهُ. هَذَا إِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا، أَمَّا إِذَا افْتَرَقَا فَهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، يَعْنِي: اغْفِرْ لَنَا كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَصَغَائِرَهُ؛ لِأَنَّ فِي الْمَغْفِرَةِ زَوَالَ الْمَكْرُوبِ وَحُصُولَ الْمَطْلُوبِ؛ وَلِأَنَّ الذُّنُوبَ قَدْ تَحَوَّلَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ تَوْفِيقِهِ، فَلَا يُوقَفُ وَلَا يُجَابُ دُعَاؤُهُ.

* قوله: «أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ»: هَذِهِ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَأَمَّا الرُّبُوبِيَّةُ الْعَامَّةُ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَالرُّبُوبِيَّةُ قَدْ تَكُونُ خَاصَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَامَّةً.

وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ السَّحَرَةِ الَّذِينَ آمَنُوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] حَيْثُ عَمَّوْا ثُمَّ خَصَّوْا.

وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، فَ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾: خَاصٌّ ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: عَامٌّ.

وَالطَّيِّبُونَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَهُوَ طَيِّبٌ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّلِ بِهَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ، إِلَى أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ الدُّعَاءَ وَيَشْفِيَ الْمَرِيضَ.

* قَوْلُهُ: «أَنْزَلَ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشَفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجْعِ»: هَذَا الدُّعَاءُ وَمَا سَبَقَهُ مِنْ بَابِ التَّوَسُّلِ.

* «أَنْزَلَ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ»: الرِّحْمَةُ نَوْعَانِ:

■ رَحْمَةٌ هِيَ صِفَةُ اللَّهِ، فَهَذِهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَغَيْرُ بَائِنَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] وَلَا يُطْلَبُ نَزْوُلُهَا.

■ وَرَحْمَةٌ مَخْلُوقَةٌ، لَكِنَّهَا أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا الرَّحْمَةَ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ عَنِ الْجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسَاءٍ»^(١).

كَذَلِكَ الشِّفَاءُ: فَاللَّهُ شَافٍ، وَمِنْهُ الشِّفَاءُ، فَوَضِعُ الشِّفَاءِ، وَهُوَ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِ، وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ تَعَدِّيهِ إِلَى الْمَرِيضِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ الشِّفَاءَ زَوَالُ الْمَرَضِ.

* قَوْلُهُ: «فَيَبْرَأُ»: بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ مَنْصُوبًا؛ لِأَنَّهُ جَوَابُ الدُّعَاءِ: أَنْزَلَ رَحْمَةً فَيَبْرَأُ. أَمَّا إِذَا قُرِئَ بِالضَّمِّ مَرْفُوعًا فَإِنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ، وَلَا يَتَّبَعُ الْحَدِيثَ، بَلْ يُوقَفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: «الْوَجْعُ» وَتَكُونُ «فَيَبْرَأُ»: جُمْلَةً خَبَرِيَّةً تُفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَرَأَ بِهَذِهِ الرُّقِيَّةِ فَإِنَّ الْمَرِيضَ يَبْرَأُ، وَلَكِنْ الْوَجْعُ الْأَوَّلُ أَحْسَنُ وَهُوَ بِالنَّصْبِ.



* الْحَدِيثُ التَّاسِعُ فِي إِبْنَاتِ الْعُلُوِّ أَيْضًا وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونَ وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «وَقَوْلُهُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَام (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

* «أَلَا تَأْمُنُونِي» فيها إشكالٌ لغويٌّ، وهو حذفُ نونِ الفعلِ بدونِ ناصِبٍ وَلَا جازِمٍ!!
والجوابُ عن هذا: أَنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ نُونُ الْوِقَايَةِ بِفِعْلِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْحَمْسَةِ جازَ حَذْفُ
نُونِ الرَّفْعِ.

* «أَلَا تَأْمُنُونِي» أي: أَلَا تَعْتَبِرُونِي أَمِينًا.

* «وَأَنَا أَمِينٌ مِّنَ السَّمَاءِ»: وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ أَمِينُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عَلَى وَحْيِهِ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْمَاءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالرَّسُولُ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ -جِبْرِيلُ- هُوَ أَيْضًا
أَمِينٌ: ﴿لَئِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١١ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝١٢ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وهذا الحديثُ لَهُ سَبَبٌ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَسَمَ ذُهَيْبَةً بَعَثَ بِهَا عَلِيٌّ مِّنَ الْيَمَنِ بَيْنَ
أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ
مِّنَ فِي السَّمَاءِ».

«أَلَا»: لِلْعَرَضِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ائْتَمُّنُونِي؛ فَإِنِّي أَمِينٌ مِّنَ فِي السَّمَاءِ!

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْهَمْزَةُ لَا سِتْفَهَامِ الْإِنْكَارِ، وَ(لَا): نَافِيَةٌ.

وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ: «مِّنَ فِي السَّمَاءِ». وَنَقُولُ فِيهَا مَا قُلْنَا فِي سَبَقِ الْآيَاتِ.



* الْحَدِيثُ الْعَاشِرُ فِي إِبْتِائِ الْعُلُوِّ أَيْضًا وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». حَدِيثٌ
حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ^(١).

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية رقم (٨١)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٤٤/١)، والطبراني في «المعجم
الكبير» (٢٢٨/٩)، رقم (٨٩٨٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨٦/١): ورجاله رجال الصحيح، وأبو الشيخ في
العظمة (٢/ ٥٥٥)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٢٨)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم
(٦٥٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٥١)، عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

الشرح:

لَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمَسَافَاتِ الَّتِي بَيْنَ السَّمَوَاتِ قَالَ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ». وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

* قَالَ: «وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»: هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِنَا وَأَعْمَالِنَا، بَلْ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] يَعْنِي: الشَّيْءُ الَّذِي فِي صَمِيرِكَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، مَعَ أَنَّهُ مَا بَانَ لِأَحَدٍ. وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»: يُفِيدُ إِخَاطَةَ عِلْمِ اللَّهِ بِكُلِّ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ.

* الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ:

وَلِذَا آمَنَّا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ فَائِدَةً مَسْلُكِيَّةً، وَهِيَ تَعْظِيمُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَتَقُومُ بِطَاعَتِهِ، بَحِيثٌ لَا يَفْقِدُنَا حَيْثُ أَمَرْنَا، وَلَا يَجِدُنَا حَيْثُ نَهَانَا.

* الْحَدِيثُ الْحَادِي عَشَرَ فِي إِبْتَاتِ الْعُلُوِّ أَيْضًا، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا؟ فَإِنَّمَا مُؤَمِّنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشرح:

* قَوْلُهُ: «أَيْنَ اللَّهُ»: (أَيْنَ): يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ الْمَكَانِ.

* «قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ» يَعْنِي: عَلَى السَّمَاءِ، أَوْ: فِي الْعُلُوِّ، عَلَى حَسَبِ الْاِخْتِلَافِ السَّابِقِينَ^(٢).

* قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا؟ فَإِنَّمَا مُؤَمِّنَةٌ».

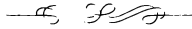
وقال الذهبي في «العلو»: إسناده صحيح. انظر: «مختصر العلو» رقم (٤٨).

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) انظر: (ص: ٢٩١-٢٩٢).

وعند أهل التعطيل هي بقولها: «في السماء»: إذا أرادت أنه في العلو هي كافرة!!
 لأنهم يرون أن من أثبت أن الله في جهة فهو كافر؛ إذ يقولون: إن الجهات خالية منه.
 واستيفهاهم النبي ﷺ بـ (أين) يدل على أن الله مكاناً.
 ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة؛ لأنه أكبر من كل شيء، وأن ما
 فوق الكون عدم، ما ثم إلا الله، فهو فوق كل شيء.

* وفي قوله: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة»: دليل على أن عتق الكافر ليس بمشروع؛ ولهذا
 لا يجزئ عتقه في الكفار؛ لأن بقاء الكافر عندك رقيقاً فيه نوع حماية له وسلطة وإمرة
 وتقريب من الإسلام، فإذا أعتقته تحرر، وإذا تحرر فخشى منه أن يرجع إلى بلاد الكفر؛
 لأن أصل الرق هو الكفر، ويبقى معيناً للكافرين على المؤمنين.



* الحديث الثاني عشر في إثبات المعية، وهو:

قوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حينما كنت». حديث حسن، أخرجه الطبراني
 من حديث عبادة بن الصامت^(١).

الشرح:

أفاد الحديث معية الله عز وجل، وقد سبق في الآيات أن معية الله لا تستلزم أن يكون في
 الأرض، بل يمتنع غاية الامتناع أن يكون في الأرض؛ لأن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفك
 عنها أبداً، بل هي لازمة له سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير - كما في مجمع الزوائد (١/ ٦٠) - وفي الأوسط رقم (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في الحلية
 (١٢٤/ ٦)، والبيهقي في الأساء والصفات رقم (٩٠٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، والحديث
 ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢).

وقد ورد الحديث بلفظ: «تزكية النفس أن يعلم أن الله عز وجل معك حيث كان» أخرجه البيهقي في «السنن»
 (٩٥-٩٦)، وابن أبي عاصم في «الأحاديث والمثاني» رقم (١٠٦٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٦٩-
 ٢٧٠)، من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، بسند صحيح؛ كما في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٨).

وَسَبَقَ ^(١) أَيْضًا أَهْلُهَا قِسْمَانِ.

وَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ»: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَتَفَاضَلُ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ خِفْتَ مِنْهُ عَزَّجَلَّ وَعَظَّمْتَهُ.

لَوْ كُنْتَ فِي حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ، لَا فِي الْحُجْرَةِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَكَ؛ لِإِحَاطَتِهِ بِكَ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.



* الْحَدِيثُ الثَّالِثُ عَشَرَ فِي إِبْتَاتِ كَوْنِ اللَّهِ قِبَلَ وَجْهِ الْمَصَلِّي وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

الشرح:

* «قِبَلَ وَجْهِهِ» يَعْنِي: أَمَامَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

* «يَمِينِهِ»: وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ: «فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا» ^(٣)؛ وَلِأَنَّ الْيَمِينَ أَفْضَلُ مِنَ الشَّالِ، فَيَكُونُ الْيَسَارُ أَوْلَى بِالْبُصَاقِ وَنَحْوِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ».

فَإِنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ الْعُلَمَاءُ: فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْبُصَاقَ فِي خِرْقَةٍ أَوْ مَنْدِيلٍ أَوْ ثَوْبِهِ، وَيُخَلِّقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؛ حَتَّى تَزُولَ صُورَةُ الْبُصَاقِ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْجِدَارِ، وَالْجِدَارُ قَصِيرٌ عَنْ يَسَارِهِ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْصُقَ عَنْ يَسَارِهِ إِذَا لَمْ يُوْذَ أَحَدًا مِنَ الْمَارَّةِ.

(١) انظر: (ص: ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم (٤٠٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، رقم (٥٤٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم (٤٠٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، رقم (٥٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب دفن النخامة في المسجد، رقم (٤١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَامَ وَجْهِ الْمُصَلِّي، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي قَالَ: إِنَّهُ أَمَامَ وَجْهِ الْمُصَلِّي. هُوَ الَّذِي قَالَ: إِنَّهُ فِي السَّمَاءِ. وَلَا تَنَاقُضُ فِي كَلَامِهِ هَذَا وَهَذَا؛ إِذْ يُمَكِّنُ الْجَمْعُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ الشَّرْعَ جَمَعَ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَجْمَعُ بَيْنَ مُتَنَاقِضَيْنِ.

الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ عَالِيًا، وَهُوَ قِبَلَ وَجْهِكَ، فَهَاهُوَ الرَّجُلُ يَسْتَقْبِلُ الشَّمْسَ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَتَكُونُ أَمَامَهُ، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ، وَيَسْتَقْبِلُهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ، تَكُونُ أَمَامَهُ، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا فِي الْمَخْلُوقِ فِيهِ الْخَالِقِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى بِلَا شَكٍّ.

الْوَجْهَ الثَّالِثُ: هَبْ أَنْ هَذَا مُتَمَتِّعٌ فِي الْمَخْلُوقِ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ فِي الْخَالِقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ.

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ وَجُوبُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَيُسْتَفَادُ أَنَّهُ مَتَى آمَنَ الْمُصَلِّي بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُحْدِثُ لَهُ خُشُوعًا وَهَيْبَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.



* الْحَدِيثُ الرَّابِعُ عَشَرَ فِي إِنْبَاتِ الْعُلُوِّ وَصِفَاتٍ أُخْرَى، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ! رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ! فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى! مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ! أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا. أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّرْحُ:

هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ، تَوَسَّلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِرُبُوبِيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السَّعْبِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ! رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ!« وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّعْمِيمِ بَعْدَ التَّخْصِصِ فِي قَوْلِهِ: «وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ» وَهَذَا التَّعْمِيمُ بَعْدَ التَّخْصِصِ؛ لِثَلَا يَتَوَهَّمُ وَاهِمٌ اخْتِصَاصَ الْحُكْمِ بِهَا خُصَّصَ بِهِ.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١] حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ حَتَّى لَا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّهُ لَيْسَ رَبًّا إِلَّا لَهُدِهِ الْبَلَدَةِ.

«فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى»: حَبُّ الزُّرُوعِ وَ«النَّوَى»: نَوَى الْغَرْسِ، فَالْأَشْجَارُ الَّتِي تَخْرُجُ: إِمَّا زُرُوعٌ أَصْلُهَا الْحَبُّ، وَإِمَّا أَشْجَارٌ أَصْلُهَا النَّوَى، فَمَا لِلْأَشْجَارِ يُسَمَّى نَوَى، وَمَا لِلزُّرُوعِ يُسَمَّى حَبًّا ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥].

هَذَا الْحَبُّ وَالنَّوَى الْيَابِسُ الَّذِي لَا يَنْمُو وَلَا يَزِيدُ، يَفْلِقُهُ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ، أَيْ: يَفْتَحُهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهُ الْأَشْجَارُ وَالزُّرُوعُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، مَهْمَا بَلَغَ النَّاسُ فِي الْقُدْرَةِ، مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَفْلِقُوا حَبَّةً وَاحِدَةً أَبَدًا! وَالنَّوَى كَذَلِكَ الَّذِي كَالْحَجَرِ، لَا يَنْمُو وَلَا يَزِيدُ، يَفْلِقُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَيَنْفِرُجُ، ثُمَّ تَكُونُ مِنْهُ الْغَرِيْسَةُ الَّتِي تَنْمُو، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، إِلَّا الَّذِي فَلَقَهَا شَبَحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَمَّا ذَكَرَ الْآيَةَ الْكُونِيَّةَ الْعَظِيمَةَ ذَكَرَ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةَ، وَهِيَ:

قَوْلُهُ: «مُنَزَّلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»: وَهَذِهِ أَعْظَمُ كُتُبٍ أُنْزِلَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَبَدَأَهَا عَلَى التَّرْتِيبِ الرَّمْنِيِّ: التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى، وَالْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَفِي هَذَا نَصٍّ صَرِيحٍ عَلَى أَنَّ التَّوْرَةَ مُنَزَّلَةٌ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢) مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ ﴿[آل عمران: ٣-٤].

قَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي»: اعْتَصَمُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِي.

إِذَنْ: فِي نَفْسِكَ شَرٌّ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

لكن النَّفْسُ نَفْسَانِ:

■ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ طَيِّبَةٌ تَأْمُرُ بِالْخَيْرِ.

■ وَنَفْسٌ شَرِيرَةٌ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ.

وَالنَّفْسُ اللَّوَامَةُ: هَلْ هِيَ ثَالِثَةٌ، أَوْ وَصَفٌ لِلثَّانِيَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ؟!

فِيهِ خِلَافٌ: بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهَا نَفْسٌ ثَالِثَةٌ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ وَصَفٌ لِلثَّانِيَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، فَالْمُطْمَئِنَّةُ تَلُومُكَ، وَالْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ تَلُومُكَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢] يَشْمَلُ النَّفْسَيْنِ جَمِيعًا.

فَالْمُطْمَئِنَّةُ تَلُومُكَ عَلَى التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبِ، إِذَا أَهْمَلْتَ وَاجِبًا؛ لَامَتَكَ، وَإِذَا فَعَلْتَ مُحَرَّمًا لَامَتَكَ.

وَالْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ بِالْعَكْسِ: إِذَا فَعَلْتَ الْخَيْرَ لَامَتَكَ، وَتَلُومُكَ إِذَا فَوَّتَ مَا تَأْمُرُكَ بِهِ مِنَ السُّوءِ.

إِذَنْ: صَارَتِ اللَّوَامَةُ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ وَصْفًا لِلنَّفْسَيْنِ مَعًا.

وَقَوْلُهُ هُنَا: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي»: الْمُرَادُ بِهَا النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ.

* قَوْلُهُ: «وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا»: الدَّابَّةُ: كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى الَّذِي يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ دَاخِلٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥]، وَقَوْلُهُ: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» [هود: ٦].

وَأِنْ كَانَتِ الدَّابَّةُ تُطْلَقُ فِي الْعُرْفِ عَلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، وَفِي عُرْفِ أَخَصَّ تُطْلَقُ عَلَى الْجَمَارِ فَقَطْ، لَكِنَّهَا فِي مِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ يُرَادُ بِهَا كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ فِيهِ شُرُورٌ. أَمَّا بَعْضُهُ فَمَرَّتْ مُحَضَّرًا بِالنِّسْبَةِ لِذَاتِهِ، وَأَمَّا بَعْضُهُ فَمِنْهُ خَيْرٌ وَفِيهِ شَرٌّ، وَحَتَّى الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ لَا يَسْلَمُ مِنَ الشَّرِّ.

* قَوْلُهُ: «أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا»: النَّاصِيَةُ: مُقَدَّمُ الرَّأْسِ، وَإِنَّمَا نَصَّ عَلَى النَّاصِيَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُقَدَّمُ، وَهُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ بِهِ لِقِيَادَةَ الْبَعِيرِ وَشِبْهِهِ. وَقِيلَ: خُصَّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمُخَّ الَّذِي

فِيهِ التَّصَوُّرُ وَالتَّلَقِّيُّ يَكُونُ فِي مُقَدِّمَةِ الرَّأْسِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

* قَوْلُهُ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»: هَذَا تَفْسِيرٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَوْلِهِ: «الْأَوَّلُ»
وَالْأَوَّلُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ أَهْلَ الْفَلَسَفَةِ يُسَمُّونَ اللَّهَ: الْقَدِيمَ، وَذَكَرْنَا أَنَّ الْقَدِيمَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، وَأَنَّهُ لَا يُجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ، لَكِنْ يُجُوزُ أَنْ يُخَبَّرَ بِهِ عَنْهُ، وَبَابُ الْخَبَرِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ التَّسْمِيَةِ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ لَيْسَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالْقَدِيمُ فِيهِ نَقْصٌ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ قَدْ يَكُونُ قَدَمًا نَسَبِيًّا، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩]، وَالْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ حَادِثٌ، لَكِنَّهُ قَدِيمٌ بِالنَّسَبَةِ لِأَبَعْدِهِ.

* قَوْلُهُ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ»: الظَّاهِرُ مِنَ الظُّهُورِ، وَهُوَ الْعُلُوُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] ﴿يَظْهَرُوهُ﴾ أَيُّ: يَغْلُوا عَلَيْهِ.
وَأَمَّا مَنْ قَالَ: الظَّاهِرُ بِآيَاتِهِ فَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ: «الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» بَلْ هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ.

* قَوْلُهُ: «وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»: الْمَعْنَى: لَيْسَ دُونَ اللَّهِ شَيْءٌ، لَا أَحَدٌ يُدَبِّرُ دُونَ اللَّهِ، وَلَا أَحَدٌ يَنْفَرِدُ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ، وَلَا أَحَدٌ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ، كُلُّ شَيْءٍ فَاللَّهُ مُحِيطٌ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» يَعْنِي: لَا يَحُولُ دُونَكَ شَيْءٌ، وَلَا يَمْنَعُ دُونَكَ شَيْءٌ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ... وَهَكَذَا.

* قَوْلُهُ: «أَقْضِ عَنِّي الدِّينَ»: الدِّينُ مَا يُسْتَحَقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ مَالٍ أَوْ حَقٍّ، اشْتَرَيْتُ مِنْكَ حَاجَةً، وَلَمْ أَتُفِدْكَ الثَّمَنَ، فَهَذَا يُسَمَّى دَيْنًا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُوجِبٍ.

* قَوْلُهُ: «وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»: الْفَقْرُ: خُلُوُّ ذَاتِ الْيَدِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفَقْرَ فِيهِ إِيْلَامٌ لِلنَّفْسِ، وَالَّذِينَ فِيهِ ذُلٌّ، الْمَدِينُ ذَلِيلٌ لِلدَّائِنِ، وَالْفَقِيرُ مُعْوَرٌ، رَبَّمَا يَجْرُهُ الْفَقْرُ إِلَى أَمْرِ مُحَرَّمٍ.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ انْطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْغَارُ، فَتَوَسَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِصَالِحِ عَمَلِهِ، وَكَانَ لِأَحَدِهِمْ ابْنَةٌ عَمٌّ أَعْجَبَتْهُ، وَكَانَ يَرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِي ذَلِكَ،

فَأَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ، وَاحْتَاجَتْ، وَجَاءَتْ إِلَيْهِ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهَا، فَأَبَى عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِهَا، وَمِنْ أَجْلِ صُرُورَتِهَا وَافَقَتْ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ قَالَتْ لَهُ: يَا هَذَا! اتَّقِ اللَّهَ! وَلَا تَقْصُ الْحَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ! وَأَثَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الرَّجُلِ عِنْدَمَا كَانَتْ نَابِعَةً مِنَ الْقَلْبِ، فَقَامَ عَنْهَا. قَالَ: فَقُمْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ. لَكِنْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ الْكَرِيمَةَ، فَأَقْلَعُ^(١).

فَانْظُرْ إِلَى الْفَقْرِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَرَأَةَ أَرَادَتْ أَنْ تَبِيعَ عِرْضَهَا بِسَبَبِ الْفَقْرِ.

إِذَنْ: قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «أَغْنِيَنِ مِنَ الْفَقْرِ»: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ أَنْ يُغْنِيَهُ مِنَ الْفَقْرِ؛ لِأَنَّ الْفَقْرَ لَهُ أَفَاتٌ عَظِيمَةٌ.

* وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ:

■ فَمِنْ الْأَسْمَاءِ: الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ، وَالظَاهِرُ، وَالْبَاطِنُ.

■ وَمِنْ الصِّفَاتِ: الْأَوَّلِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ، وَفِيهِمَا الْإِحَاطَةُ الزَّمَانِيَّةُ. وَالظَاهِرِيَّةُ وَالْبَاطِنِيَّةُ، وَفِيهِمَا الْإِحَاطَةُ الْمَكَانِيَّةُ. وَمِنْهَا: الْعُلُومُ، وَعُمُومُ رُبُوبِيَّتِهِ، وَتَمَامُ قُدْرَتِهِ. وَمِنْهَا: كِمَالُ رَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ بِإِنْزَالِ الْكُتُبِ؛ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ وَتَهْدِيَهُمْ صِرَاطَ اللَّهِ.

* وَمِنْ غَيْرِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِصِفَاتِ اللَّهِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ شَرِّ النُّفُوسِ، وَسُؤَالُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ دَيْنَهُ وَيُغْنِيَهُ مِنَ الْفَقْرِ، وَبَيَانُ ضَعْفِ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ سُؤَالُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُ رَبُّهُ مُسْكِنًا^(١).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الْغَارِ، رَقْمُ (٣٤٦٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ، بَابُ قِصَةِ أَصْحَابِ الْغَارِ الثَّلَاثَةِ، رَقْمُ (٢٧٤٣)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) لَمَّا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ مَا جَاءَ أَنْ يَفْقَرُوا الْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنَائِهِمْ، رَقْمُ (٢٣٥٢)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ: كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ مَجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ، رَقْمُ (٤١٢٦)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مُسْكِنًا وَأَمْتِنِي مُسْكِنًا وَاحْشُرْنِي فِي زِمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» رَقْمُ (٣٠٨)، وَ«الْإِرَوَاءُ» رَقْمُ (٨٦١). وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ: وَسَوَاءٌ صَحَّ لَفْظُهُ أَمْ لَمْ يَصْحَ، فَالْمُسْكِنُ الْمَحْمُودُ هُوَ الْمَتَوَاضِعُ. «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (١٨/٣٢٦)، وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «التَّلْخِصِ الْحَبِيرِ» (٣/٢٣٤): أَسْرَفَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي «الْمَوْضُوعَاتِ».

* وفيه مِنَ الْفَوَائِدِ الْمُسْلِكَةِ: التَّحْذِيرُ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ، وَتَعْظِيمُ شَأْنِ الدِّينِ، وَأَنْ يَخْرِصَ عَلَى تَلَا فِي الدِّينِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَيَقْتَصِدَ فِي مَالِهِ طَلَبًا وَتَصَرُّفًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا اقْتَصَدَ فِي ذَلِكَ سَلِمَ غَالِبًا مِنَ الْفَقْرِ وَالِدِّينِ.

— — —
* الْحَدِيثُ الْخَامِسَ عَشَرَ فِي إِبْثَاتِ قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِي رَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا عَلَوْا نَشْرًا كَبَرُوا، وَإِذَا نَزَلُوا وَاذِيًا سَبَّحُوا ^(١)؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ارْتَفَعَ قَدْ يَتَعَاطَمُ فِي نَفْسِهِ، وَيَرَى أَنَّهُ مُرْتَفِعٌ عَظِيمٌ، فَنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! تَذْكِيرًا لِنَفْسِهِ بِكِبَرِيَاءِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَأَمَّا إِذَا نَزَلَ فَهَذَا سُفُولٌ وَنُزُولٌ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَذْكِيرًا لِنَفْسِهِ بِتَنَزُّهِ اللَّهِ عَنِ السُّفُلِ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ جَدًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

* «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» يَعْنِي: هَوِّنُوا عَلَيْهَا.

* «فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا» لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ، وَلَا غَائِبًا لَا يَرَى.

* «إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا» يَسْمَعُ ذِكْرَكُمْ «بَصِيرًا» يَرَى أَفْعَالَكُمْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم (٦٦١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤) والإمام أحمد في «المستند» (٤/٤٠٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التسييح إذا هبط واديا، رقم (٢٩٩٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا».

* «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»: عَنْقُ الرَّاحِلَةِ لِلرَّاكِبِ قَرِيبٌ جَدًّا، فَاللَّهُ تَعَالَى أَقْرَبُ مِنْ هَذَا إِلَى الْإِنْسَانِ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ. وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقُرْبِ وَالْعُلُوِّ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ قَدْ يَكُونُ بَعِيدًا قَرِيبًا، هَذَا بِالنَّسَبِ لِلْمَخْلُوقِ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ؟! فَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ قَرِيبٌ مَعَ عُلُوِّهِ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ.

* هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ فَوَائِدُ:

■ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ: نَفْيُ كَوْنِهِ أَصَمًّا أَوْ غَائِبًا؛ لِكَمَالِ سَمْعِهِ، وَلِكَمَالِ بَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُرْبِهِ.

■ وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَشُقَّ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ تَعَبَتِ النَّفْسُ وَمَلَّتْ، وَرَبِّمَا يَتَأَثَّرُ الْبَدَنُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تَطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(١).

فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشُقَّ عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَسُوْسَ نَفْسَهُ، إِذَا وَجَدَ مِنْهَا نَشَاطًا فِي الْعِبَادَةِ عَمِلَ وَاسْتَعْلَلَ النَّشَاطَ، وَإِذَا رَأَى فُتُورًا فِي غَيْرِ الرَّاجِبَاتِ، أَوْ أَنَّهَا تَمِيلُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَجَهَّهَا إِلَيْهِ.

حَتَّى إِنْ الرَّسُولُ ﷺ أَمَرَ مَنْ نَعَسَ فِي صَلَاتِهِ أَنْ يَنَامَ وَيَدْعَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَذَرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»^(٢).

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يَصُومُ^(٣)، وَكَذَلِكَ فِي الْقِيَامِ وَالنَّوْمِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم (١١٥١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٧٨٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم، رقم (٢١٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته...، رقم (٧٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) كما أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره، رقم (١٩٧١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، رقم (١١٥٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

■ وفيه أيضًا: أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* ونستفيد من هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ:

■ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشُقَّ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْعِبَادَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ سَيْرُنَا إِلَى اللَّهِ وَسَطًا، لَا تَفْرِيطَ وَلَا إِفْرَاطَ.

■ وفيه أيضًا: الْحَذَرُ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعٌ وَقَرِيبٌ وَبَصِيرٌ، فَتَبَعُدُ عَنْ مُحَالَفَتِهِ.

■ وفيه أيضًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْحُكْمِيَّةِ: جَوَازُ تَشْبِيهِ الْغَائِبِ بِالْحَاضِرِ لِلإِبْصَاحِ؛ حَيْثُ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُتْقِ رَاحِلَتِهِ».

■ وفيه أيضًا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعِيَ الْإِنْسَانُ فِي الْمَعَانِي مَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَهْمِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مُسَافِرُونَ، وَكُلُّ مَنْهُمْ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَإِذَا ضَرَبَ الْمَثْلُ بِمَا هُوَ قَرِيبٌ فَلَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ الَّذِي ذَكَرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



* الْحَدِيثُ السَّادِسَ عَشَرَ: إِبْتِاثُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ، وَهُوَ:

قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَافُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشَّرْحُ:

* قَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ»: السُّيْنُ لِلتَّحْقِيقِ، وَتُخَلَّصُ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ إِلَى الْاسْتِقْبَالِ بَعْدَ أَنْ كَانَ صَالِحًا لِلْحَالِ وَالْاسْتِقْبَالِ، كَمَا أَنَّ (لَمْ) تُخَلَّصُ لِلْمَاضِي، وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

* وَقَوْلُهُ: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ»: هَذِهِ رُؤْيَا بَصَرِيَّةٌ؛ لِأَنَّ رُؤْيَانَا لِلْقَمَرِ بَصَرِيَّةٌ، وَهُنَا شَبَهَ الرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا، فَتَكُونُ رُؤْيَا بَصَرِيَّةً.

* وَقَوْلُهُ: «كَمَا تَرَوْنَ»: (مَا) هَذِهِ مَصْدَرِيَّةٌ، فَيُحَوَّلُ الْفِعْلُ بَعْدَهَا إِلَى مَصْدَرٍ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: كَرُؤْيَاكُمْ الْقَمَرَ، فَالتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ لِلرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا، وَلَيْسَ لِلْمَرْئِي بِالْمَرْئِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقَرِّبُ الْمَعَانِيَ أحيانًا بِذِكْرِ الْأَمْثِلَةِ الْحَسَنَةِ الْوَاقِعَةِ، كَمَا سَأَلَهُ أَبُو رَزِينِ الْعُقَيْلِيُّ لَقِيطُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَكُلْنَا يَرَى رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ مُخْلِيًا بِهِ»؟. قَالَ: بَلَى. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَاللَّهُ أَعْظَمُ»^(١).

* وَقَوْلُهُ: «مُخْلِيًا بِهِ» يَعْنِي: خَالِيًا بِهِ.

وَكَمَا ثَبَتَ بِهِ الْحَدِيثُ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ)^(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: حَمْدِي عَبْدِي».

وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مُصَلٍّ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ الْمُصَلُّونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعًا، فَيَقُولُ اللَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ: «حَمْدِي عَبْدِي» فِي آيٍ وَاحِدٍ.

* قَالَ: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةً الْبَدْرِ»: أَيُّ: لَيْلَةً إِبْدَارِهِ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ وَالْخَامِسَةُ عَشْرَةَ وَالثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ أحيانًا، وَالْوَسْطُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ^(٣):

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١١)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الرؤية، رقم (٤٧٣١)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيها أنكرت الجهمية، رقم (١٨٠)، والحاكم (٤/ ٥٦٠) وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١/ ٢٠٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٤٣٨)، والآجري في «الشرعية» رقم (٦٠٥)، من حديث أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الألباني في «ظلال الجنة»: حديث حسن، رجاله رجال مسلم غير وكيع بن عدس ويقال: حدس.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

(٣) نونية ابن القيم (ص: ٣١٣).

كَالْبَذْرِ لَيْسَ السَّتُّ بَعْدَ ثَمَانٍ

قَوْلُهُ: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» فِي لَفْظٍ: «لَا تُضَامُونَ» وَفِي لَفْظٍ: «لَا تُضَارُونَ»:

■ «لَا تُضَامُونَ»: بِضَمِّ التَّاءِ وَتَخْفِيفِ المِيمِ، أَيْ: لَا يَلْحَقُكُمْ ضَمٌّ، وَالضَّمُّ الظُّلْمُ، وَالْمَعْنَى: لَا يَحْجُبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَنِ الرُّؤْيَةِ فَيُظْلِمُهُ بِمَنْعِهِ إِيَّاهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَرَاهُ.

■ «لَا تُضَامُونَ»: بِتَشْدِيدِ المِيمِ وَفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّهَا: يَعْنِي: لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي رُؤْيَيْهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ خَفِيًّا يَنْضَمُّ الْوَاحِدُ إِلَى صَاحِبِهِ؛ لِرِيئِهِ إِيَّاهُ.

■ أَمَّا «لَا تُضَارُونَ» أَوْ «لَا تُضَارُونَ» فَالْمَعْنَى: لَا يَلْحَقُكُمْ ضَرَرٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ وَالرَّاحَةِ.

قَوْلُهُ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»: الصَّلَاةُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ الْفَجْرُ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا هِيَ الْعَصْرُ.

وَالْعَصْرُ أَفْضَلُ مِنَ الْفَجْرِ؛ لِأَنَّهَا الصَّلَاةُ الْوُسْطَى الَّتِي خَصَّهَا اللَّهُ بِالْأَمْرِ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بَعْدَ التَّعْمِيمِ، وَالْفَجْرُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَصْرِ مِنْ وَجْهِ؛ لِأَنَّهَا الصَّلَاةُ الْمَشْهُودَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) وَهُمَا: الْفَجْرُ وَالْعَصْرُ.

* فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: إِبْتِاثُ أَنَّ اللَّهَ يَرَى، وَقَدْ سَبَقَ^(٢) شَرْحُ هَذِهِ الصِّفَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَرْبَعُ آيَاتٍ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فُتُبُوهُمَا قَطْعِيًّا، وَدَلَّاهُمَا قَطْعِيَّةً.

وَلِهَذَا ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ^(٣)، وَأَنَّ الْوَاجِبَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: (ص: ٣٢٨).

(٣) انظر: «حادي الأرواح» لابن القيم (ص: ٣٣٧) فقد نقل كلام الإمام أحمد وغيره؛ في أن من أنكر رؤية الله تعالى فهو كافر.

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُقَرَّرَ بِذَلِكَ. قَالَ: وَإِنَّا كَفَرْنَا؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ قَطْعِيَّةُ الثُّبُوتِ وَقَطْعِيَّةُ الدَّلَالَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ» إِنَّهُ لَيْسَ قَطْعِيَّةُ الدَّلَالَةِ؛ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَشَدَّ قَطْعًا مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ.

لَوْ كَانَ الْحَدِيثُ: «إِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ»: لَرَبَّمَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، وَأَنَّهُ عَبَّرَ عَنِ الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ بِالرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ صَرَّحَ بَأَنَّا نَرَاهُ كَمَا تَرَى الْقَمَرَ، وَهُوَ حَسِّيٌّ.

وَسَبَقَ لَنَا أَنَّ أَهْلَ التَّعْطِيلِ يُؤَوَّلُونَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ، وَيُقَسِّرُونَ الرُّؤْيَا بِرُّؤْيَا الْعِلْمِ، وَسَبَقَ بُطْلَانُ قَوْلِهِمْ^(١).

❖ قَوْلُهُ: «إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ...» إلخ.

يعني: انْظُرْ إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، فَمَا كَانَ مِثْلَهَا ثُبُوتًا وَدَلَالَةً فَحُكْمُهُ حُكْمُهَا.

❖ قَوْلُهُ: «الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ»: «الْفِرْقَةُ» أَيِ: الطَّائِفَةُ؛ «النَّاجِيَةُ»: الَّتِي نَجَتْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبِدْعِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّارِ؛ «أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ» أَيِ: الَّذِينَ أَخَذُوا بِالسُّنَّةِ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا؛ «يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ» أَيِ: بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ «كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ»: لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ كَمَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْقُرْآنِ فِي الثُّبُوتِ؛ فَإِنَّ لَنَا نَظْرَيْنِ بِالنَّسْبَةِ لِمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ:

النَّظَرُ الْأَوَّلُ: فِي ثُبُوتِهِ. وَالنَّظَرُ الثَّانِي: فِي دَلَالَتِهِ.

أَمَّا مَا فِي الْقُرْآنِ فَلَنَا نَظَرٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي الدَّلَالَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ^(٢) لَنَا بَيَانُ الْأَدِلَّةِ الدَّلَالَةِ عَلَى وُجُوبِ قَبُولِ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

قَالَ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ»: سَبَقَ شَرْحُ هَذَا^(٣).

(١) انظر: (ص: ٣٣٤).

(٢) انظر: (ص: ٣٣٩، فما بعد).

(٣) انظر: (ص: ٦٥، فما بعدها).

فَصْلٌ

مَكَانَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ فِرْقِ الْأُمَّةِ وَاتِّصَافُهُمْ بِالْوَسْطِيَّةِ

* قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بَلْ هُمْ الْوَسْطُ فِي فِرْقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسْطُ فِي الْأُمَمِ».

الشرح:

قَوْلُهُ: «الْأُمَّةُ هِيَ الْوَسْطُ فِي الْأُمَمِ» يَعْنِي: الْأُمَمُ السَّابِقَةَ، وَذَلِكَ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

■ فِيهِ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى: كَانَتْ الْيَهُودُ تَصِفُ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّقَائِصِ، فَتُلْحِقُهُ بِالْمَخْلُوقِ، وَكَانَتِ النَّصَارَى تُلْحِقُ الْمَخْلُوقَ النَّاقِصَ بِالرَّبِّ الْكَامِلِ. أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَلَمْ تَصِفِ الرَّبَّ بِالنَّقَائِصِ، وَلَمْ تُلْحِقِ الْمَخْلُوقَ بِهِ.

■ وَفِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ: كَذَّبَتِ الْيَهُودُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَكَفَرَتْ بِهِ. وَعَلَتِ النَّصَارَى فِيهِ، حَتَّى جَعَلَتْهُ إِلَهًا، أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَأَمَنَتْ بِهِ بِدُونِ غُلُوٍّ، وَقَالَتْ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

■ وَفِي الْعِبَادَاتِ: النَّصَارَى يَدِينُونَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بَعْدَ الطَّهَارَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْحَبَثِ، يَبُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ، وَيُصِيبُ الْبَوْلُ ثِيَابَهُ، وَيَقُومُ، وَيُصَلِّي فِي الْكَنِيسَةِ!! وَالْيَهُودُ بِالْعَكْسِ، إِذَا أَصَابَتْهُمْ النَّجَاسَةُ فَإِنَّهُمْ يَقْرِضُونَهَا مِنَ الثَّوبِ، فَلَا يُطَهِّرُهَا الْمَاءُ عِنْدَهُمْ، حَتَّى إِذَا بَيَّعَدُوا عَنِ الْحَائِضِ لَا يُؤَاكِلُونَهَا وَلَا يَجْتَمِعُونَ بِهَا.

أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَهُمْ وَسْطٌ، فَيَقُولُونَ: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، لَا يُشَقُّ الثَّوبُ، وَلَا يُصَلَّى بِالنَّجَاسَةِ، بَلْ يُغْسَلُ غَسْلًا حَتَّى تَزُولَ النَّجَاسَةُ مِنْهُ، وَيُصَلَّى بِهِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ عَنِ الْحَائِضِ، بَلْ يُؤَاكِلُونَهَا وَيُبَاشِرُهَا زَوْجَهَا فِي غَيْرِ الْجَمَاعِ.

■ وَكَذَلِكَ أَيْضًا فِي بَابِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ: النَّصَارَى اسْتَحَلُّوا الْحَبَائِثَ وَجَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْيَهُودُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ كُلَّ ذِي ظُفْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾

حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا
أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ
فَهُمْ وَسَطٌ، أُحِلَّتْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ.

■ وفي القصاص: القصاصُ فَرَضٌ عَلَى الْيَهُودِ، وَالتَّسَامُحُ عَنِ الْقصاصِ فَرَضٌ عَلَى
النَّصَارَى، أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهِمْ مُحْيَرَةٌ بَيْنَ الْقصاصِ وَالِدِّيَّةِ وَالْعَفْوِ مَجَانًّا.
فكَانَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَسَطًا بَيْنَ الْأُمَمِ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ فِرْقِ الْأُمَّةِ كَالْأُمَّةِ بَيْنَ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى، يَغْنِي: أَنَّهُمْ وَسَطٌ.
ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَصُولًا خَمْسَةً كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِيهَا وَسَطًا بَيْنَ فِرْقِ الْأُمَّةِ.



* الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: بَابُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ
الْمُشَبَّهَةِ».

الشرح:

هَذَانِ طَرَفَانِ مُتَطَرِّفَانِ: أَهْلُ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلُ التَّمْثِيلِ الْمُشَبَّهَةِ.

■ فَالْجَهْمِيَّةُ: يُنْكِرُونَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلْ غَلَاثِمُهُمْ يُنْكِرُونَ الْأَسْمَاءَ، وَيَقُولُونَ:
لَا يَجُوزُ أَنْ تُنْبِتَ لِلَّهِ اسْمًا وَلَا صِفَةً؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَثْبَتَ لَهُ اسْمًا سَبَّهْتَهُ بِالْمُسَمَّيَاتِ، أَوْ صِفَةً سَبَّهْتَهُ
بِالْمَوْصُوفَاتِ!! إِذَنْ: لَا تُنْبِتُ اسْمًا وَلَا صِفَةً!! وَمَا أَصَافَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ مِنْ
بَابِ الْمَجَازِ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ التَّسْمِيِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ!!

■ وَالْمُعْتَرِ لَهُ يُنْكِرُونَ الصِّفَاتِ وَيُثْبِتُونَ الْأَسْمَاءَ.

■ وَالْأَشْعَرِيَّةُ يُثْبِتُونَ الْأَسْمَاءَ وَسَبْعًا مِنَ الصِّفَاتِ.

كُلُّ هَؤُلَاءِ يَشْمَلُهُمْ اسْمُ التَّعْطِيلِ، لَكِنْ بَعْضُهُمْ مُعْطَلٌ تَعْطِيلًا كَامِلًا كَالْجَهْمِيَّةِ، وَبَعْضُهُمْ تَعْطِيلًا نِسْبِيًّا، مِثْلُ الْمُعْتَزِّلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ التَّمْثِيلِ الْمُشَبَّهَةِ: فَيُنْتَبِهُنَّ لِلَّهِ الصِّفَاتِ، وَيَقُولُونَ: يَجِبُ أَنْ تُنْتَبِهُ لِلَّهِ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ، لَكِنْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا مِثْلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

فَهَؤُلَاءِ عَلَوُا فِي الْإِثْبَاتِ، وَأَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَوُا فِي التَّنْزِيهِ.

فَهَؤُلَاءِ قَالُوا: يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَ لِلَّهِ وَجْهًا، وَهَذَا الْوَجْهُ مِثْلُ وَجْهِ أَحْسَنِ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ. قَالُوا: لِأَنَّ اللَّهَ خَاطِبَنَا بِمَا نَعْمَلُ وَنَفْهَمُ، قَالَ: ﴿وَبَعَثَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَدِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَلَا نَعْمَلُ وَنَفْهَمُ مِنَ الْوَجْهِ إِلَّا مَا نُشَاهِدُ، وَأَحْسَنُ مَا نُشَاهِدُ الْإِنْسَانُ.

فَهُوَ عَلَى رَعِيهِمْ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - عَلَى مِثْلِ أَحْسَنِ وَاحِدٍ مِنَ الشَّبَابِ الْإِنْسَانِيِّ!! وَيَدْعُونَ أَنْ هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ!!

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَقَالُوا: نَحْنُ نَأْخُذُ بِالْحَقِّ الَّذِي مَعَ الْجَانِبَيْنِ، فَنَأْخُذُ بِالْحَقِّ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ، فَلَا نُمَثِّلُ، وَنَأْخُذُ بِالْحَقِّ فِي بَابِ الْإِثْبَاتِ، فَلَا نَعْطِلُ، بَلْ إِنْثَابٌ بِلَا تَمْثِيلٍ، وَتَنْزِيهٌ بِلَا تَعْطِيلٍ، نَحْنُ نُنْثِبُ وَلَكِنْ بَدُونِ تَمْثِيلٍ، فَنَأْخُذُ بِالْأَدِلَّةِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا.

وَالْخُلَاصَةُ: هُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ الصِّفَاتِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مُتَطَرِّقَتَيْنِ: طَائِفَةٌ عَلَتْ فِي التَّنْزِيهِ وَالنَّفْيِ، وَهُمْ أَهْلُ التَّعْطِيلِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَطَائِفَةٌ عَلَتْ فِي الْإِثْبَاتِ، وَهُمْ الْمُثَلَّةُ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقُولُونَ: لَا نَعْلُو فِي الْإِثْبَاتِ وَلَا فِي النَّفْيِ، وَنُنْثِبُ بَدُونِ تَمْثِيلٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].



* الْأَصْلُ الثَّانِي: أَفْعَالُ اللَّهِ:

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ بَيْنَ الْجَزِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ».

الشرح:

في بابِ القَدَرِ انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

* قَسَمَ آمَنُوا بِقَدَرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَعَلَوْا فِي إِبْتَائِهِ، حَتَّى سَلَبُوا الْإِنْسَانَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ فَاعِلُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارٌ وَلَا قُدْرَةٌ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ الْفِعْلُ مُجْبَرًا عَلَيْهِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ ادَّعَى أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ هُوَ فِعْلُ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا دَخَلَ مِنْ بَابِهِمْ أَهْلُ الْأَتْحَادِ وَالْحُلُولِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْجَزِيئَةُ.

* وَالْقِسْمُ الثَّانِي قَالُوا: إِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِفِعْلِهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ مَشِيئَةٌ وَلَا تَقْدِيرٌ، حَتَّى غَلَا بَعْضُهُمْ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ فِعْلَ الْعَبْدِ إِلَّا إِذَا فَعَلَهُ، أَمَّا قَبْلُ فَلَا يَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَدْرِيَّةُ، مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

فَالْأَوَّلُونَ غَلَوْا فِي إِبْتَائِ أَفْعَالِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُجْبِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى فِعْلِهِ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ اخْتِيَارٌ.

وَالْآخَرُونَ غَلَوْا فِي إِبْتَائِ قُدْرَةِ الْعَبْدِ، وَقَالُوا: إِنَّ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْمَشِيئَةَ الْإِلَهِيَّةَ لَا عِلَاقَةَ لَهَا فِي فِعْلِ الْعَبْدِ، فَهُوَ الْفَاعِلُ الْمَطْلُوقُ الْاِخْتِيَارِ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، قَالُوا: نَحْنُ نَأْخُذُ بِالْحَقِّ الَّذِي مَعَ الْجَانِبَيْنِ، فنَقُولُ: إِنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ وَقَعَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَخَلَقَ اللَّهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِ اللَّهِ مَا لَا يَشَاءُهُ أَبَدًا، وَالْإِنْسَانُ لَهُ اخْتِيَارٌ وَإِرَادَةٌ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْفِعْلِ الَّذِي يُضْطَرُّ إِلَيْهِ وَالْفِعْلِ الَّذِي يَخْتَارُهُ، فَأَفْعَالُ الْعِبَادِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ وَاقِعَةٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ.

لَكِنْ سَيَبْقَى عِنْدَنَا إِشْكَالٌ: كَيْفَ تَكُونُ خَلْقًا لِلَّهِ وَهِيَ فِعْلُ الْإِنْسَانِ؟!

وَالْجَوَابُ أَنَّ أَفْعَالِ الْعَبْدِ صَدَرَتْ بِإِرَادَةِ وَقُدْرَةِ، وَالَّذِي خَلَقَ فِيهِ الْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

لَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَسَلَبَكَ الْقُدْرَةَ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ.

وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَادِرًا لَمْ يَرُدْ فِعْلًا لَمْ يَقَعْ الْفِعْلُ مِنْهُ.

كُلُّ إِنْسَانٍ قَادِرٌ يَفْعَلُ الْفِعْلَ فَإِنَّهُ بِإِرَادَتِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ.
فَتَحْنُ نَفْعُلْ بِاخْتِيَارِنَا وَقُدَرَتِنَا، وَالَّذِي خَلَقَ فِيْنَا الْاِخْتِيَارَ وَالْقُدْرَةَ هُوَ اللَّهُ.



* الْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْوَعِيدُ:

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمَرْجَةِ وَبَيْنَ الْوَعِيدَةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ».

الشَّرْحُ:

الْمَرْجَةُ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَرْجَأَ، بِمَعْنَى: أَخَّرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، وَفِي قِرَاءَةٍ: (أَرْجِئْهُ) أَيُّ: أَخَّرَهُ وَأَخَّرَ أَمْرَهُ، وَسُمُّوا مَرْجَةً: إِذَا مِنْ الرَّجَاءِ؛ لِتَغْلِيْبِهِمْ أَدْلَةُ الرَّجَاءِ عَلَى أَدْلَةِ الْوَعِيدِ، وَإِذَا مِنْ الْإِزْجَاءِ بِمَعْنَى: التَّأْخِيرِ؛ لِتَأْخِيرِهِمُ الْأَعْمَالَ عَنْ مُسَمَّى الْإِيْمَانِ.

فَهُمْ يَقُولُونَ: الْأَعْمَالُ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيْمَانِ، وَالْإِيْمَانُ هُوَ الْاِعْتِرَافُ بِالْقَلْبِ فَقَطْ.

وَلِهَذَا يَقُولُونَ: إِنَّ فَاعِلَ الْكِبِيرَةِ كَالزَّانِي وَالسَّارِقِ وَشَارِبِ الْحَمْرِ وَقَاطِعِ الطَّرِيقِ لَا يَسْتَحِقُّ دُخُولَ النَّارِ، لَا دُخُولًا مُؤَبَّدًا وَلَا مُوقَّتًا، فَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيْمَانِ مَعْصِيَةٌ، مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً أَمْ كَبِيرَةً، إِذَا لَمْ تَصِلْ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ.

وَأَمَّا الْوَعِيدِيَّةُ فَقَابَلُوهُمْ، وَغَلَّبُوا جَانِبَ الْوَعِيدِ، وَقَالُوا: أَيُّ كَبِيرَةٍ يَفْعَلُهَا الْإِنْسَانُ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَإِنَّهُ مُحَلَّدٌ فِي النَّارِ بِهَا. إِنَّ سَرَقَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ خَالِدًا مُحَلَّدًا، وَإِنْ شَرِبَ الْحَمْرَ فَهُوَ فِي النَّارِ خَالِدًا مُحَلَّدًا... وَهَكَذَا.

وَالْوَعِيدِيَّةُ يَشْمَلُ طَائِفَتَيْنِ: الْمُعْتَزَلَةَ وَالْحَوَارِجَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ» فَيَشْمَلُ الْمُعْتَزَلَةَ -وَالْمُعْتَزَلَةُ قَدَرِيَّةٌ، يَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، وَهُمْ وَعِيدِيَّةٌ- وَيَشْمَلُ الْحَوَارِجَ.

فَاتَّفَقَتِ الطَّائِفَتَانِ عَلَى أَنَّ فَاعِلَ الْكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا، وَأَنَّ مَنْ شَرِبَ الْحَمْرَ مَرَّةً كَمَنْ عَبَدَ الصَّنَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، كُلُّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، لَكِنْ يَخْتَلِفُونَ فِي الْأَسْمِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْبَابِ التَّالِي.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَيَقُولُونَ: لَا نُغَلِّبُ جَانِبَ الْوَعِيدِ كَمَا فَعَلَ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْحَوَارِجُ، وَلَا جَانِبَ الْوَعْدِ كَمَا فَعَلَ الْمُزْجِئَةُ، وَنَقُولُ: فَاعِلُ الْكَبِيرَةِ مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ، وَإِنْ عُدَّ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ.

وَسَبَبُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ وَبَيْنَ الْمُزْجِئَةِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نَظَرَ إِلَى النُّصُوصِ بَعَيْنٍ عَوْرَاءَ، يَنْظُرُ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ.

■ هَؤُلَاءِ نَظَرُوا نُصُوصَ الْوَعْدِ، فَأَذْخَلُوا الْإِنْسَانَ فِي الرَّجَاءِ وَقَالُوا: نَأْخُذُ بِهَا، وَنَدْعُ مَا سِوَاهَا. وَحَمَلُوا نُصُوصَ الْوَعِيدِ عَلَى الْكُفَّارِ.

■ وَالْوَعِيدِيَّةُ بِالْعَكْسِ: نَظَرُوا إِلَى نُصُوصِ الْوَعِيدِ، فَأَذْخَلُوا بِهَا، وَغَفَلُوا عَنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ.

فلهَذَا اخْتَلَّ تَوَازُؤُهُمْ لَمَّا نَظَرُوا مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَخَذُوا بِهَذَا وَهَذَا، وَقَالُوا: نُصُوصُ الْوَعِيدِ مُحْكَمَةٌ، فَأَخَذُوا بِهَا، وَنُصُوصُ الْوَعْدِ مُحْكَمَةٌ، فَأَخَذُوا بِهَا، فَأَخَذُوا مِنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ مَا رَدُّوا بِهِ عَلَى الْوَعِيدِيَّةِ، وَمِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ مَا رَدُّوا بِهِ عَلَى الْمُزْجِئَةِ، وَقَالُوا: فَاعِلُ الْكَبِيرَةِ مُسْتَحَقٌّ لِدُخُولِ النَّارِ - لِئَلَّا تُهْدَرَ نُصُوصُ الْوَعِيدِ - غَيْرَ مُخَلَّدٍ فِيهَا؛ لِئَلَّا تُهْدَرَ نُصُوصُ الْوَعْدِ. فَأَخَذُوا بِالذَّلِيلَيْنِ وَنَظَرُوا بِالْعَيْنَيْنِ.

* الْأَصْلُ الرَّابِعُ: أَسْمَاءُ الْإِيمَانِ وَالذِّينِ:

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالذِّينِ بَيْنَ الْحُرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُزْجِئَةِ الْجَهْمِيَّةِ».

الشرح:

هذا في باب الأسماء والدين، وهو غير باب الأحكام الذي هو الوعد والوعيد، ففاعل الكبيرة ماذا نسميه؟! أمؤمن أم كافر؟!!

وأهل السنة وسط فيه بين طائفتين: الحرورية والمعتزلة من وجه، والمرجئة الجهمية من وجه.

■ فالحرورية والمعتزلة أخرجه من الإيمان، لكن الحرورية قالوا: إنه كافر يحل دمه وماله؛ ولهذا خرجوا على الأئمة، وكفروا الناس.

■ وأما المرجئة الجهمية: فحالفوا هؤلاء، وقالوا: هو مؤمن كامل الإيمان!! يسرق ويزني ويشرب الخمر ويقتل النفس ويقطع الطريق، ونقول له: أنت مؤمن كامل الإيمان!! كرجل فعل الواجبات والمستحبات وتجنب المحرمات!! أنت وهو في الإيمان سواء!! فهو لاء وأولئك على الضد في الاسم وفي الحكم.

وأما المعتزلة فقالوا: فاعل الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين منزلتين؛ لا تنجس أن نقول: إنه كافر! وليس لنا أن نقول: إنه مؤمن، وهو يفعل الكبيرة، يزني ويسرق ويشرب الخمر! وقالوا: نحن أسعد الناس بالحق!

حقيقة أنهم إذا قالوا: إن هذا لا يتساوى مع مؤمن عابد، فقد صدقوا.

لكن كونهم يخرجونه من الإيمان، ثم يجدون منزلة بين منزلتين، بدعة ما جاءت لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله!!

كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين:

كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

وقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وفي الحديث: «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(١).

فَأَيْنَ الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ؟!

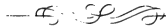
وفي بابِ الوَعِيدِ يُنْقَذُونَ عَلَيْهِ الوَعِيدَ، فَيُؤَافِقُونَ الْحَوَارِجَ فِي أَنَّ فَاعَلَ الْكَبِيرَةِ مُحَلَّدٌ فِي النَّارِ. أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَقَالُوا: تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ، فَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ الْفَاسِقِ الْعَاصِي.

فَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْهِ، وَنَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَهُوَ مُحَلَّدٌ فِي النَّارِ؟!

فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا: إِنَّهُ يَتَوَقَّفُ فِيهِ! لَا نَقُولُ: مُسْلِمٌ، وَلَا: كَافِرٌ. وَلَا نُعْطِيهِ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَحْكَامَ الْكُفْرِ!! إِذَا مَاتَ لَا نُصَلِّي عَلَيْهِ، وَلَا نُكْفِّنُهُ، وَلَا نُغْسِلُهُ، وَلَا يُدْفَنُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَدْفِنُهُ مَعَ الْكُفَّارِ. إِذَنْ: تَبَحُّثُ لَهُ عَنْ مَقْبَرَةٍ بَيْنَ مَقْبَرَتَيْنِ!!

■ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَكَانُوا وَسَطًا بَيْنَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ، فَقَالُوا: نُسَمِّي الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الْكَبِيرَةَ مُؤْمِنًا نَاقِصَ الْإِيمَانِ، أَوْ نَقُولُ: مُؤْمِنٌ بِيَابَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ، فَلَا يُعْطَى الْأِسْمُ الْمُطْلَقُ، وَلَا يُسَلَّبُ الْمُطْلَقُ الْأِسْمُ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا: أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَكْرَهُهُ كُرْهًا مُطْلَقًا، وَلَا أَنْ نُحِبَّهُ حُبًّا مُطْلَقًا، بَلْ نُحِبُّهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَكْرَهُهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ.



* الْأَصْلُ الْخَامِسُ: فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قَالَ الْمَوْلَفُ:

«وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْحَوَارِجِ».

الْشَّرْحُ:

* «أَصْحَابُ»: جَمْعُ صَاحِبٍ، وَالصَّحْبُ اسْمُ جَمْعِ صَاحِبٍ، وَالصَّاحِبُ: الْمَلْزِمُ لِلشَّيْءِ.

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في «صحيحه»: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالصَّحَابِيُّ: هُوَ الَّذِي اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

وهذا خاص في الصحابة، وهو من خصائص النبي ﷺ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ إِلَّا لَحْظَةً وَاحِدَةً، لَكِنْ بَشَرٌ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا بِهِ^(١).

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ فِيهِمْ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْحَوَارِجِ.

■ فَالرَّافِضَةُ: هُمُ الَّذِينَ يُسَمُّونَ الْيَوْمَ: شِيعَةً، وَسُمُّوا رَافِضَةً؛ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي يَنْسَبُ إِلَيْهِ الْآنَ الزَّيْدِيَّةُ، رَفَضُوهُ لِأَنَّهُمْ سَأَلُوهُ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يَسْبُحَهُمَا وَيَطْعَنَ فِيهِمَا! وَلَكِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُمْ: نَعَمْ الْوَزِيرَانِ، وَزَيْرًا جَدِي. يُرِيدُ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمَا، فَرَفَضُوهُ، وَغَضِبُوا عَلَيْهِ، وَتَرَكُوهُ! فَسُمُّوا رَافِضَةً^(٢)!!

هَؤُلَاءِ الرَّوَافِضُ -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- لَهُمْ أَصُولٌ مَعْرُوفَةٌ عَنْهُمْ، وَمِنْ أَفْبَحِ أَصُولِهِمْ: الْإِمَامَةُ الَّتِي تَنْصَحُ عِصْمَةَ الْإِمَامِ، وَأَنَّهُ لَا يَقُولُ خَطَأً، وَأَنَّ مَقَامَ الْإِمَامَةِ أَرْفَعُ مِنْ مَقَامِ النَّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ يَتَلَقَّى عَنِ اللَّهِ مُبَاشَرَةً، وَالنَّبِيَّ بَوَاسِطَةِ الرُّسُولِ، وَهُوَ جَزِيلٌ، وَلَا يُخْطِئُ الْإِمَامُ عَنْدهُمْ أَبَدًا، بَلْ غُلَاظِهِمْ يَدْعُونَ أَنَّ الْإِمَامَ يَخْلُقُ، يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ!!

وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الصَّحَابَةَ كُفَّارًا، وَكُلَّهُمْ ازْدَدُوا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ كَانَا كَافِرَيْنِ، وَمَاتَا عَلَى النِّفَاقِ -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- وَلَا يَسْتَنُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَّا آلَ الْبَيْتِ، وَنَفَرًا قَلِيلًا مِمَّنْ قَالُوا: إِنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ آلِ الْبَيْتِ.

وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ (الْفَضْلِ): «إِنَّ غُلَاظَهُمْ كَفَرُوا بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالُوا: لِأَنَّ عَلِيًّا أَفَرَّ الظُّلْمِ وَالْبَاطِلِ حِينَ بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْكِرَ بَيْعَهُمَا، فَلَمَّا لَمْ يَأْخُذْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَوَافَقَ عَلَى الظُّلْمِ صَارَ ظَالِمًا كَافِرًا».

■ أَمَّا الْحَوَارِجُ: فَهُمْ عَلَى الْعَكْسِ مِنَ الرَّافِضَةِ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،

(١) انظر: «فتح الباري» (٤/٧) لابن حجر.

(٢) انظر: سبب تسميتهم بالرافضة كتاب: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام (١/٣٤).

وَكَفَرُوا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَفَرُوا كُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ، وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانُوا كَمَا وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

فالشَّيْعَةُ غَلَوُا فِي آلِ الْبَيْتِ وَأَشْيَاعِهِمْ، وَبَالِغُوا فِي ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى أُلُوهِيَّةَ عَلِيٍّ، وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِالنَّبُوءَةِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالخَوَارِجُ بِالْعَكْسِ.

■ أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَكَانُوا وَسَطًا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ نُنْزِلُ آلَ الْبَيْتِ مَنْزِلَتَهُمْ، وَنَرَى أَنَّ لَهُمْ حَقَّيْنِ عَلَيْنَا: حَقَّ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَحَقَّ الْقَرَابَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالُوا: قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهَا الْحَقُّ عَلَيْنَا، لَكِنْ مِنْ حَقِّهَا عَلَيْنَا أَنْ نُنْزِلَهَا مَنْزِلَتَهَا، وَأَنْ لَا نَغْلُو فِيهَا. وَيَقُولُونَ فِي بَقِيَّةِ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ: لَهُمُ الْحَقُّ عَلَيْنَا بِالتَّوْقِيرِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّرَضِّي، وَأَنْ نَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وَلَا نُعَادِي أَحَدًا مِنْهُمْ أَبَدًا، لَا آلَ الْبَيْتِ، وَلَا غَيْرَهُمْ، فَكُلُّ مِنْهُمْ نُعْطِيهِ حَقَّهُ؛ فَصَارُوا وَسَطًا بَيْنَ جُفَاءٍ وَغُلَاةٍ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدین بعد إقامة الحجة عليهم، رقم (٦٩٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦)، من حديث علي رضي الله عنه.

فَصْلٌ

فِي الْمَعِيَّةِ وَبَيَانِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عُلُوِّ اللَّهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ

الشَّرْحُ:

سَبَقَ ^(١) أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِعُلُوِّ اللَّهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَالْإِيمَانُ بِمَعِيَّتِهِ، وَفِي هَذَا الْفَصْلِ بَيَّنَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ، فَقَالَ:

«وَقَدْ دَخَلَ فِيهَا ذِكْرُنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ».

هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ.

وَمَرَّ عَلَيْنَا دَلِيلٌ رَابِعٌ وَخَامِسٌ، وَهُمَا: الْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ.

«مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ» تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُلُوَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَوْعَانِ: عُلُوٌّ صِفَةٍ، وَعُلُوٌّ ذَاتٍ، وَأَنَّ عُلُوَّ الذَّاتِ دَلٌّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَكَذَلِكَ عُلُوُّ الصِّفَةِ.

فَالْكِتَابُ مَمْلُوءٌ مِنْ ذَلِكَ: تَارَةً بِالتَّضَرُّيحِ بِالْفَوْقِيَّةِ، وَتَارَةً بِالتَّضَرُّيحِ بِالْعُلُوِّ، وَتَارَةً بِالتَّضَرُّيحِ بِأَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَتَارَةً بِزُورِ الْأَشْيَاءِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَارَةً بِصُعُودِهَا إِلَيْهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَالسُّنَّةُ جَاءَتْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْإِفْرَارِ، وَسَبَقَ ذِكْرُ ذَلِكَ.

أَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَقَدْ أَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى ذَلِكَ، وَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِإِجْمَاعِهِمْ عَدَمُ نَقْلِ صَدِّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَقُولُونَ الْأَخْبَارَ، وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيهَا، وَلَمَّا

لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا عُلْمُ أَتَمِّمْ لَا يَعْتَقِدُونَ سِوَاهُ، وَأَتَمُّمْ مُجْمِعُونَ عَلَى ذَلِكَ.
وَهَذَا طَرِيقٌ حَسَنٌ لِإثْبَاتِ إِجْمَاعِهِمْ، فَاسْتَمْسِكْ بِهِ يَنْفَعَكَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ.
وَأَمَّا الْعُقْلُ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْعُلُوَّ صِفَةُ كَمَالٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ثَبَّتَ لَهُ كُلَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَوَجَبَ
إثْبَاتُ الْعُلُوِّ لَهُ سُبْحَانَهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِيًّا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَحْتَ أَوْ مُسَاوِيًّا، وَهَذَا صِفَةُ نَقْصٍ؛ لِأَنَّهُ
يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ فَوْقَهُ أَوْ مِثْلَهُ، فَلَزِمَ ثُبُوتُ الْعُلُوِّ لَهُ.
أَمَّا الْفِطْرَةُ: فَلَا أَحَدَ يُنْكِرُهَا، إِلَّا مَنْ انْحَرَفَتْ فِطْرَتُهُ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَقُولُ: يَا اللَّهُ! يَتَجَهَّ
قَلْبُهُ إِلَى السَّمَاءِ، لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ.



* قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ».

وَهَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِمَعِيَّتِهِ لِخَلْقِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ ^(١) أَنَّ مَعِيَّةَ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ، وَخَاصَّةِ الْخَاصَّةِ.

* فَالْعَامَّةُ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَمِثَالُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

* وَالْخَاصَّةُ: مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

[النحل: ١٢٨].

* وَالَّتِي أَخْصَصُ: مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ مَسْمُوعٌ

وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وَقَوْلِهِ عَنْ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وَسَبَقَ أَنَّ هَذِهِ الْمَعِيَّةَ حَقِيقَةٌ، وَأَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْمَعِيَّةِ الْعَامَّةِ الْعِلْمَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ

وَالْقُدْرَةَ وَالسُّلْطَانَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَمِنْ مُقْتَضَى الْخَاصَّةِ النَّصْرَ وَالتَّيْدَ.



* قَوْلُهُ: «كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

* قَوْلُهُ: «بَيْنَ ذَلِكَ» أَي: بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ.

* فِيهِ قَوْلُهُ: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»: إِبْتِاثُ الْعُلُوِّ.

* وَفِي قَوْلِهِ: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ»: إِبْتِاثُ الْمَعِيَّةِ، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا كَمَا سَبَقَ وَيَأْتِي.

وَوَجْهُ الْجَمْعِ مِنْ وَجْهِ ثَلَاثَةٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ ذَكَرَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، وَإِذَا جَمَعَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ بَيْنَ وَضْعَيْنِ فَإِنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهَا لَا يَتَنَاقِضَانِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ تَنَاقَضَا لاسْتَحَالَ اجْتِمَاعُهُمَا؛ إِذِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ أَحَدِهِمَا وَانْتِفَاءِ الثَّانِي، وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ تَنَاقُضٌ لَرِمَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ الْآيَةِ مُكَدِّبًا لِأَحْرِهَا أَوْ بِالْعَكْسِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ يَجْتَمِعُ الْعُلُوُّ وَالْمَعِيَّةُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا سَيَذْكُرُهُ الْمُؤَلِّفُ فِي قَوْلِ النَّاسِ: مَا زِلْنَا نَسِيرُ وَالْقَمَرُ مَعَنَا.

الثَّالِثُ: لَوْ فُرِضَ تَعَارُضُهُمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ لَمْ يَلْزَمْ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْخَالِقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.



* قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾»: أَنَّهُ مُحْتَطٌّ بِالْحَقْلِ:

لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى نَقْصٌ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى لَرِمَ أَحَدُ امْرَيْنِ: إِمَّا تَعَدُّ

الخالق، أو تَجَزُّؤُهُ؛ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ مُحِيطٌ بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِالْأَشْيَاءِ.

* قَوْلُهُ: «فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللَّغَةُ»:

يعني: وَإِذَا كَانَتِ اللَّغَةُ لَا تُوجِبُهُ لَمْ يَتَّعَيْنْ، وَهَذَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الدَّالَّةِ عَلَى بُطْلَانِ مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَ خَلْقِهِ مُحْتَاطًا بِهِمْ.

وَلَمْ يَقُلْ: لَا تَقْتَضِيهِ اللَّغَةُ؛ لِأَنَّ اللَّغَةَ قَدْ تَقْتَضِيهِ، وَفَرْقٌ بَيْنَ كَوْنِ اللَّغَةِ تَقْتَضِي ذَلِكَ وَبَيْنَ كَوْنِهَا تُوجِبُ ذَلِكَ.

فَالْمَعِيَّةُ فِي اللَّغَةِ قَدْ تَقْتَضِي الاختلاطَ، مِثْلُ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ، تَقُولُ: مَاءٌ مَعَ لَبَنٍ مَخْلُوطًا.

* قَوْلُهُ: «وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ»:

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَفْطُورٌ عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ بَائِنٌ مِنَ الْمَخْلُوقِ، لَيْسَ أَحَدٌ إِذَا قَالَ: يَا اللَّهُ! إِلَّا وَيَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَالٌ فِي خَلْقِهِ، فَدَعَا أَنَّهُ مُحْتَاطٌ بِالْخَلْقِ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ وَمُخَالَفٌ لِلْعَقْلِ وَمُخَالَفٌ لِلْفِطْرَةِ.

* قَوْلُهُ: «بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمَسَافِرِ وَغَيْرِ الْمَسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ».

* «بَلِ»: لِلإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِيِّ.

وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبَةِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَقْرِيبًا لِلْمَعْنَى وَتَحْقِيقًا لِصِحَّةِ كَوْنِ الشَّيْءِ مَعَ الْإِنْسَانِ حَقِيقَةً مَعَ تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَمَرَ مِنْ أَصْغَرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ، وَمَعَ الْمَسَافِرِ وَغَيْرِهِ أَيْنَمَا كَانَ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَخْلُوقُ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِ الْمَخْلُوقَاتِ، نَقُولُ: إِنَّهُ مَعَنَا، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ. وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ تَنَاقُضًا، وَلَا يَقْتَضِي اخْتِلَاطًا، فَلَمَّاذَا لَا يَصِحُّ أَنْ نُجْرِيَ آيَاتِ الْمَعِيَّةِ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَنَقُولُ: هُوَ مَعَنَا حَقِيقَةً وَإِنْ كَانَ هُوَ فِي السَّمَاءِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؟!

وَكَمَا قُلْنَا سَابِقًا: لَوْ فُرِضَ أَنَّ هَذَا مُتَمَتِّعٌ فِي الْخَلْقِ لَكَانَ فِي الْخَالِقِ غَيْرُ مُتَمَتِّعٍ، فَالرَّبُّ

عَرْجَلٌ هُوَ فِي السَّمَاءِ حَقِيقَةً، وَهُوَ مَعَنَا حَقِيقَةً، وَلَا تَنَاقُضُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَرْجَلٌ فِي عُلُوِّهِ، فَإِنَّهُ قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

وهذا الَّذِي حَقَّقَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي كُتُبِهِ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نُؤَوَّلَ الْآيَةَ، بَلِ الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا، لَكِنْ مَعَ اعْتِقَادِنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ عَلَى عَرْشِهِ، فَهُوَ مَعَنَا حَقًّا، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ حَقًّا، كَمَا نَقُولُ: إِنَّهُ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَقًّا، وَهُوَ فِي الْعُلُوِّ، وَلَا أَحَدَ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ يُنْكِرُ هَذَا أَبَدًا، كُلُّ أَهْلِ السَّنَةِ يَقُولُونَ: هُوَ يَنْزِلُ حَقًّا، مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ، لِأَنَّ صِفَاتِ الْخَالِقِ لَيْسَتْ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ.

وقد عَثَرْتُ عَلَى تَقْرِيرٍ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَبَيِّنُ هَذَا الْمَعْنَى تَمَامًا، أَيْ أَنَّ الْمَعْيَةَ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَلَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مُخْتَلِطًا بِالْخَلْقِ، أَوْ أَنَّهُ فِي الْأَرْضِ، قَالَ جَوَابًا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: «مَعَهُمْ بَعْلُمِهِ»:

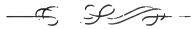
«إِذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِيهِ تَفْسِيرٌ لِلْمَعْيَةِ بِالْمُقْتَضَى، لَيْسَ تَفْسِيرًا لِحَقِيقَةِ الْكَلِمَةِ، وَالَّذِي يَحْمِلُ وَيَحْدُو عَلَى التَّفْسِيرِ هَذَا أَنَّ الْمُنَازَعَ فِي هَذَا الْمُبْتَدَعَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِهِمْ. فَيَأْتِي الْبَعْضُ مِنَ السَّلَفِ بِالْمُرَادِ بِالسِّيَاقِ، وَهُوَ أَنَّهُ بِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَلَكِنْ لَا يُرِيدُونَ أَنَّ كَلِمَةَ (مَعَ) مَذْلُولُهَا: بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ، بَلِ اجْتَمَعَتْ مَعَهَا فِي الْعِلْمِ، وَزَادَتْ الْمَعْيَةُ فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ كَوْنُهُ مَعَهُمْ، فَتَفْسِيرُهَا بِالْمُقْتَضَى لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهَا بَاطِلٌ، فَالْكُلُّ حَقٌّ...».

إِلَى أَنْ قَالَ: «ولهذا شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي عَقِيدَتِهِ الْأُخْرَى الْمُبَارَكَةِ الْمُخْتَصَرَةِ بَيَّنَّ أَنَّ قَوْلَهُ: (مَعَهُمْ) حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَمَنْ فَسَّرَهَا مِنَ السَّلَفِ بِالْمُقْتَضَى فَلِحَاجَةٍ دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْحُلُولِ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْعُلُوَّ كَمَا تَقَدَّمَ، وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بِالْمُطَابَقَةِ وَبِالْمَفْهُومِ وَبِالاسْتِزْلَامِ وَالْمُقْتَضَى وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَالَاتِ، وَهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ رُويَ عَنْهُمْ التَّفْسِيرُ بِالْمُقْتَضَى لَا يُنْكِرُونَ الْمَعْيَةَ، بَلِ هِيَ عِنْدَهُمْ كَالشَّمْسِ». اهـ مِنْ «الْفَتَاوَى» تَقْرِيرًا عَلَى الْحَمَوِيَّةِ^(١).

سُؤَالٌ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: هُوَ مَعَنَا بِذَاتِهِ؟

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١/ ٢١٢ - ٢١٣).

الْجَوَابُ: هَذَا اللَّفْظُ يَجِبُ أَنْ يُبْعَدَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْهِمُ مَعْنَى فَاِسِدًا يَحْتَاجُ بِهِ مَنْ يَقُولُ بِالْخُلُولِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ لَهُ نَفْسِهِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] هَلْ يَحْتَاجُ أَنْ نَقُولَ: جَاءَ بَدَائِهِ؟ وَإِلَى قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»^(١) هَلْ يَحْتَاجُ أَنْ نَقُولَ: يَنْزِلُ بَدَائِهِ؟! إِنَّا لَا نَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا فِي مُجَادَلَةٍ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ جَاءَ أَمْرُهُ أَوْ يَنْزِلُ أَمْرُهُ؛ لِرَدِّ تَحْرِيفِهِ.



* قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيِّمٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ».

* يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ»: مَعَ أَنَّهُ مَعَ الْخَلْقِ، لَكِنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ.

* «رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ» يَعْني: مُرَاقِبًا حَافِظًا لِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَتَاتِهِمْ.

* «مُهَيِّمٌ عَلَيْهِمْ» أَيُّ: حَاكِمٌ مُسَيِّطِرٌ عَلَى عِبَادِهِ، فَلَهُ الْحُكْمُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَأَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ.

* قَوْلُهُ: «إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ» يَعْني بِذَلِكَ مَا تَصَمَّنُهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ مِنْ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ وَتَدْبِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ مَعَانِيَ الرُّبُوبِيَّةِ كَثِيرَةٌ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، وَهَذِهِ تَحْمِلُ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَدًّا.

* قَوْلُهُ: «وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ».

هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، وَإِنَّمَا كَرَّرَ مَعْنَى مَا سَبَقَ لِأَهَمِّيَّةِ الْمَوْضُوعِ، فَبَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ كَوْنِهِ فَوْقَ الْعَرْشِ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِهِ مَعَنَا حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ»، رقم (٧٤٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب التَّوْبِغِيبِ فِي الدَّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: لَا يَحْتَاجُ أَنْ نَصْرِفَ مَعْنَى الْفَوْقِيَّةِ إِلَى فَوْقِيَّةِ الْقَدْرِ كَمَا ادَّعَاهُ أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ، بَلْ هِيَ فَوْقِيَّةٌ ذَاتٌ وَقَدْرٌ، كَمَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ نَصْرِفَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ عَنْ ظَاهِرِهَا، بَلْ نَقُولُ: هِيَ حَقٌّ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَمَنْ فَسَّرَهَا بِغَيْرِ حَقِيقَتِهَا فَهُوَ مُحَرِّفٌ، لَكِنْ مَا وَرَدَ مِنْ تَفْسِيرِهَا بِإِلْزَامِهَا وَمُقْتَضَاهَا وَارِدٌ عَنِ السَّلَفِ لِحَاجَةٍ دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يُنَافِي الْحَقِيقَةَ؛ لِأَنَّ لَزِمَ الْحَقُّ حَقٌّ.

ثُمَّ اسْتَدْرَكَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ:

«وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظَّنُونِ الْكَاذِبَةِ، مِثْلُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٧] أَنَّ السَّمَاءَ ثِقَلُهُ أَوْ تُظَلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ».

الظَّنُونُ الْكَاذِبَةُ هِيَ الْأَوْهَامُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَساسٌ مِنَ الصَّحَّةِ، فَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ عَنْهَا كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَرُسُولِهِ ﷺ.

مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ ثِقَلُهُ، أَيْ: تَحْمِلُهُ كَمَا يَحْمِلُ سَقْفُ الْبَيْتِ مَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهِ. «أَوْ تُظَلُّهُ» يَعْنِي: تَكُونُ فَوْقَهُ، كَالسَّقْفِ عَلَى الْإِنْسَانِ. إِذَا ظَنَّ الْإِنْسَانُ هَذَا فَهُوَ ظَنَّ كَاذِبٌ، يَجِبُ صَوْنُ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ عَنْ ذَلِكَ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ».

تَنْبِيهُ: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَانَ عَلَى الْمُؤَلِّفِ أَنْ يَقُولَ: وَمِثْلُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْحَقِّ؛ لِأَنَّ هَذَا الظَّنَّ كَاذِبٌ أَيْضًا.

وَجَوَابُهُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمُؤَلِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ سَابِقًا فِي قَوْلِهِ: «وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْحَقِّ».



* قَوْلُهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسَّعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [البقرة: ٢٥٥].

* «الْكُرْسِيُّ»: كَمَا يُرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ^(١).

* «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» يعني: أَحَاطَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ.

فَكَيْفَ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّ اللَّهَ أَوْ تُقَلُّهُ؟!

فَإِذَا كَانَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَبَدًا هَذَا الظَّنَّ الْكَاذِبَ، وَهُوَ أَنَّ السَّمَاءَ تُقَلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ.

* قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا» [فاطر: ٤١].

يُمَسِّكُهَا أَنْ تَزُولَا عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَلَوْلَا إِمْسَاكُ اللَّهِ لَهَا لَاضْطَرَبْنَا وَمَادَتَا وَزَالَتَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] مَا أَمْسَكَهُمَا أَحَدٌ بَعْدَ اللَّهِ أَبَدًا.

لَوْ تَزُولُ نَجْمَةٌ مِنَ النُّجُومِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُمَسِّكَهَا، فَكَيْفَ لَوْ زَالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟! مَا يُمَسِّكُهُمَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمَا، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ. فَيَكُونُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

السَّمَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ، وَوَاللَّهُ لَوْلَا إِمْسَاكُ اللَّهِ لَهَا لَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا أَجْرَامٌ عَظِيمَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَ يَدَيْهَا يُبَاسِّتُ وَرِثًا لِمُوسَى﴾ [الذاريات: ٤٧]، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُهَا لَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ أَتْلَفَتْهَا.

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «السنة» رقم (٥٨٦)، ومحمد بن أبي شيبه في كتاب «العرش» رقم (٦١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٤٨/١)، والدارقطني في كتاب «الصفات» رقم (٣٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨٢/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٣/٦) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في «مختصر العلو» رقم (٤٥): إسناده صحيح؛ رجاله كلهم ثقات.

فَالَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، هَلْ يَتَصَوَّرُ مُتَصَوِّرٌ أَنَّ السَّمَاءَ ثِقَلَةٌ أَوْ نُظْلَةٌ؟ لَا أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

* ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: مِنَ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ عَزَّجَلَّ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

* ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ الْكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ مُبْنِيٌّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وَالْأَهْوَاءُ فُسَادٌ لِلْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهِيَ مُحَالِفَةٌ لِلْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ.

إِذَنْ: فَالْسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ تَقُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ اتَّبَعَ أَهْوَاءَ الْخَلْقِ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] أَي: «لَا تُفْسِدُوا فِيهَا بِالْمَعَاصِي».



فَصْلٌ

فِي قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِجَابَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَنَافِي عُلُوَّهُ وَفَوْقِيَّتُهُ

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ».

يعني: فيما وصف به نفسه.

«الْإِيمَانُ بَأَنَّهُ قَرِيبٌ مِّنْ خَلْقِهِ مُجِيبٌ».

الْإِيمَانُ بَأَنَّهُ قَرِيبٌ فِي نَفْسِهِ، وَمُجِيبٌ، يَعْنِي: لِعِبَادِهِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ سِتَّةُ ضَمَائِرَ تَعُودُ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْقُرْبُ قُرْبُهُ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنْ نَقُولُ فِي «قَرِيبٌ» ﴿كَمَا قُلْنَا فِي الْمَعِيَّةِ، أَنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الْإِنْسَانُ. وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١)، وَلَا يَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ نَفْسُهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ.

وَإِذَا كَانَ قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي»^(٢) لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِدَارِ، إِنْ كَانَ يُصَلِّي إِلَى الْجِدَارِ، وَلَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ إِنْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ - فَكَذَلِكَ لَا يَلْزِمُ مِنْ قُرْبِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم (٦٦١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤) والإمام أحمد في «المسند» (٤/٤٠٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب حك البزاق من المسجد، رقم (٤٠٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد، رقم (٥٤٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

صِفَاتِهِ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَسَمَ قُرْبَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى قِسْمَيْنِ كَالْمَعِيَّةِ، وَقَالَ: الْقُرْبُ الَّذِي مُقْتَضَاهُ الْإِحَاطَةُ قُرْبٌ عَامٌّ، وَالْقُرْبُ الَّذِي مُقْتَضَاهُ الْإِجَابَةُ وَالْإِثَابَةُ قُرْبٌ خَاصٌّ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْقُرْبَ خَاصٌّ فَقَطْ، مُقْتَضٍ لِإِجَابَةِ الدَّاعِي وَإِثَابَةِ الْعَابِدِ، وَلَا يَنْقَسِمُ.

وَيَسْتَدِلُّ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١)، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَرِيبًا مِنَ الْفَجْرَةِ الْكَفَرَةِ.

وَهَذَا اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَتَلْمِيزُهُ ابْنَ الْقَيْمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

وَلَكِنْ أوردَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ فَنَسُوهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فالمراد بـ«الْإِنْسَانَ»: كُلُّ إِنْسَانٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٣)... إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَنَازٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٢-٢٤] فَهُوَ شَامِلٌ.

وَأوردَ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾^(٤) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ^(٥) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ^(٦) [الواقعة: ٨٣-٨٥]، ثُمَّ قَسَمَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْ أَرْوَاحُهُمُ الْحُلُقُومَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ.

وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] يَعْنِي: بِمَلَائِكَتِنَا، وَاسْتَدِلَّ لَذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فَإِنَّ ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ مُّتَعَلِّقٌ بِ«أَقْرَبُ» يَعْنِي: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ حِينَ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقُرْبِهِ تَعَالَى قُرْبٌ مَلَائِكَتِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، رَقْمُ (٤٨٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧/١٥)، مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٥٥).

وكذلك قوله في المحَضَّر: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: المراد: قُرْبُ الْمَلَائِكَةِ؛ ولهذا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وهذا يدلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَرِيبَ موجودٌ عِنْدَنَا، لَكِنْ لَا تُبْصِرُهُ، وَهَذَا يَمْتَنِعُ غَايَةَ الْامْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ. وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ سُبْحُ الْإِسْلَامِ فَهُوَ عِنْدِي أَقْرَبُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْبِ بِذَلِكَ.



* قَوْلُهُ: «كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنْتِي رَاحِلَتِهِ»^(١).

قَوْلُهُ: «كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ»: الْمَشَارُ إِلَيْهِ: الْقُرْبُ وَالْإِجَابَةُ.



* قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يَنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نَعُوَّتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ». «نَعُوَّتِهِ» يَعْنِي: صِفَاتِهِ. هُوَ عَلِيٌّ مَعَ أَنَّهُ دَانٍ، قَرِيبٌ مَعَ أَنَّهُ عَالٍ، وَلَا تَنَاقُضُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ قَرِيبًا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَعِيَّةِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم (٦٦١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤)، والإمام أحمد في «المستند» (٤٠٢/٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

فِي الْإِيمَانِ بَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةٌ

الشَّرْحُ:

* قَوْلُهُ: «فَصْلٌ: وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ».

* قَوْلُهُ: «الْإِيمَانُ بَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ»: وَجْهٌ كَوْنُ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَكَلَامُ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ. وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ كَلَامُهُ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ، فَتَصْدِيقُ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

* قَوْلُهُ: «كَلَامُ اللَّهِ»: وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٦].

* قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «مُنَزَّلٌ» أَيُّ: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

* قَوْلُهُ: «غَيْرُ مَخْلُوقٍ» أَيُّ: لَيْسَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَهَا.

وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَالْقُرْآنُ مِنَ الْأَمْرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ وَلَأَنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ الْمُتَكَلِّمِ، وَالْمَخْلُوقُ مَفْعُولٌ لِلْخَالِقِ، بَائِنٌ مِنْهُ، كَالْمَصْنُوعِ، بَائِنٌ مِنَ الصَّانِعِ.

* قَوْلُهُ: «مِنْهُ بَدَأَ» يَعْنِي: أَنَّ ابْتِدَاءَ تَنْزِيلِهِ مِنَ اللَّهِ، لَا مِنْ جِبْرِيلَ وَلَا غَيْرِهِ، فَجِبْرِيلُ نَازِلٌ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَنْزَلْنَا لِنُزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿[الشعراء: ١٩٢ - ١٩٣]، وَقَالَ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وَقَوْلُهُ: «وَالَيْهِ يَعُودُ»: سَبَقَ الْكَلَامُ^(١) عَنْ مَعْنَاهَا، وَالِدَلِيلُ عَلَيْهَا فِي شَرْحِ الْآيَاتِ عِنْدَ الْبَحْثِ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ.

❖ قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً».

بِنَاءً عَلَى الْأَصْلِ أَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ حَقِيقِيَّةٌ، وَإِذَا كَانَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا؛ لِأَنَّهُ صِفَتُهُ، وَصِفَةُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، كَمَا أَنَّ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ مَخْلُوقَةٌ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ. فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَمَنْ قَالَ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ. فَهُوَ مُبْتَدِعٌ»^(٢).

فَنَقُولُ: اللَّفْظُ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ: عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ فِعْلٌ الْفَاعِلِ، وَعَلَى الْمَلْفُوظِ بِهِ: ■ أَمَّا عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ: فَلَا شَكَّ أَنَّ أَلْفَاظَنَا بِالْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ.

لَأَنَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ اللَّفْظَ هُوَ التَّلَفُّظُ. فَهَذَا الصَّوْتُ الْخَارِجُ مِنْ حَرَكََةِ الْفَمِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ مَخْلُوقٌ.

فَإِذَا أُريدَ بِاللَّفْظِ التَّلَفُّظُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، سَوَاءً كَانَ الْمَلْفُوظُ بِهِ قُرْآنًا أَوْ حَدِيثًا أَوْ كَلَامًا أَحَدْتَهُ مِنْ عِنْدِكَ.

■ أَمَّا إِذَا قُصِدَ بِاللَّفْظِ الْمَلْفُوظُ بِهِ، فَهَذَا مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَمِنْهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

وَعَلَيْهِ: إِذَا كَانَ الْمَلْفُوظُ بِهِ هُوَ الْقُرْآنُ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ.

هَذَا تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

لَكِنِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ. فَهُوَ جَهْمِيٌّ!» قَالَ ذَلِكَ لِأَحَدِ اخْتِمَالَيْنِ:

(١) انظر: (ص: ٣١٤-٣١٥).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «السنة» (١/ ١٦٥)، وأخرجه ابن جرير الطبري في كتابه صريح السنة (ص: ٢٦)، وانظر «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٦١).

■ إِمَّا أَنْ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ شِعَارِ الْجَهْمِيَّةِ، كَأَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ. فاعْلَمْ أَنَّهُ جَهْمِيٌّ.

■ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حِينَ يُرِيدُ الْقَائِلُ بِاللَّفْظِ: الْمَلْفُوظَ بِهِ، وَهَذَا أَقْرَبُ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ نَفْسَهُ فَسَّرَهُ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ. - يُرِيدُ الْقُرْآنَ - فَهُوَ جَهْمِيٌّ».

وحينئذٍ يَتَّضِحُ مَعْنَى قَوْلِهِ: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ. فَهُوَ جَهْمِيٌّ»؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الْمَلْفُوظَ بِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يُرِيدُ بِاللَّفْظِ هُنَا الْمَلْفُوظَ بِهِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ، أَمَّا مَنْ قَالَ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ. فَإِلَامَامُ أَحْمَدُ يَقُولُ: مُبْتَدِعٌ؛ لِأَنَّ هَذَا مَا عَهِدَ عَنِ السَّلَفِ، وَمَا كَانُوا يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ، يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، فَقَطْ.



* قَوْلُهُ: «وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ».

كَرَّرَ الْمُؤَلِّفُ هَذَا؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامٌ عَظِيمٌ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ حَصَلَ فِيهَا عَلَى عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَحَنِّ مَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَهَلَكَ فِيهَا أُمَّمٌ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنْ حَمَى اللَّهُ الْحَقَّ بِالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَأَشْبَاهِهِ، الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَقُولُوا إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

* وَقَوْلُهُ: «لَا كَلَامُ غَيْرِهِ»: خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ جِبْرِيلَ، أَلْهَمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، أَوْ مِنْ كَلَامِ مُحَمَّدٍ... أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ هُنَا: «لَا كَلَامُ غَيْرِهِ» مُعَارِضٌ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]، وَالْأَوَّلُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالثَّانِي جِبْرِيلُ!

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَحْمِلَ الْإِيتِيَّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَيْنِ تَكَلَّمَا بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُمَا؛ لِأَنَّ كَلَامًا وَاحِدًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْدُرَ مِنْ مُتَكَلِّمَيْنِ!!

﴿ قَوْلُهُ: «وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ». ﴾

﴿ قَالَ: «لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ»: وَلَمْ يَقُلْ: لَا يَجُوزُ الْقَوْلُ! يَعْنِي: لَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: هَذَا الْقُرْآنُ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، إِطْلَاقًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ. ﴾

وَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ حِكَايَةٌ هُمُ الْكُلَّابِيَُّّةُ، وَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ عِبَارَةٌ هُمُ الْأَشْعَرِيَّةُ. وَالْكُلُّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، بَلْ هُوَ إِمَّا حِكَايَةٌ أَوْ عِبَارَةٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا:

أَنَّ الْحِكَايَةَ الْمُثَالَّةُ، يَعْنِي: كَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ حُكْيَ بِمِرَاةٍ، كَمَا يَحْكِي الصَّدَى كَلَامَ الْمُتَكَلِّمِ.

أَمَّا الْعِبَارَةُ: فَيَعْنِي بِهَا أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ عَبَّرَ عَنْ كَلَامِهِ النَّفْسِيِّ بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ خُلِقَتْ. فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلَقَ أَنَّهُ حِكَايَةٌ أَوْ عِبَارَةٌ، لَكِنْ عِنْدَ التَّفْصِيلِ قَدْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْقَارِئَ الْآنَ يُعَبِّرُ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ يَحْكِي كَلَامَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ لَفْظَهُ بِالْقُرْآنِ لَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللَّهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ لَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنْ إِطْلَاقُ أَنَّ الْقُرْآنَ عِبَارَةٌ أَوْ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ لَا يَجُوزُ.

وَكَانَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَقِيقًا فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ قَالَ: «لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ» بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّقْيِيدِ وَالتَّعْيِينِ.



﴿ قَوْلُهُ: «بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأًا لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا». ﴾

يَعْنِي: مَهْمَا كَتَبَهُ النَّاسُ فِي الْمَصَاحِفِ أَوْ حَفِظُوهُ فِي صُدُورِهِمْ أَوْ قَرَأُوهُ بِالنِّسْتِهِمْ فَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ كَلَامَ اللَّهِ.

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأًا». وهذا تعليلٌ واضحٌ، فالكلامُ يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأًا، أَمَّا إِضَافَتُهُ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًّا فَعَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ، فَلَوْ قَرَأْنَا الْآنَ مَثَلًا:

حُكْمُ الْمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ

فَإِنَّ هَذَا الْبَيْتَ يُنْسَبُ حَقِيقَةً إِلَى ابْنِ الْقِيَمِ^(١). وَلَوْ قُلْتُ:

كَلَامًا أَلْفَظٌ مُفِيدٌ كَأَسْتَقِيمَ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفُ الْكَلِمِ

فَهَذَا يُنْسَبُ حَقِيقَةً إِلَى ابْنِ مَالِكٍ^(٢).

إِذْ: الْكَلَامُ يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى الْقَائِلِ الْأَوَّلِ. فَالْقُرْآنُ كَلَامٌ مِنْ تَكَلَّمَ بِهِ أَوَّلًا، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، لَا كَلَامٌ مِنْ بَلَّغَهُ إِلَى غَيْرِهِ.



* قَوْلُهُ: «وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ».

هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ.

* قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفُ دُونَ الْمَعَانِي»:

وَهَذَا مَذْهَبُ الْمُعْتَرِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ مَعْنَى يَقُومُ بِذَاتِ اللَّهِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالنَّاقَةِ وَالْبَيْتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ! فَلَيْسَ مَعْنَى قَائِلًا فِي نَفْسِهِ، فَكَلَامُ اللَّهِ حُرُوفٌ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَسَمَّاها كَلَامًا لَهُ، كَمَا خَلَقَ النَّاقَةَ وَسَمَّاها نَاقَةً لِلَّهِ، وَكَمَا خَلَقَ الْبَيْتَ وَسَمَّاها بَيْتَ اللَّهِ.

(١) النونية لابن القيم (ص: ٥)، وانظر: «شرح قصيدة الإمام ابن القيم» لابن عيسى (١/ ٣٧).

(٢) الألفية لابن مالك (ص: ٩)، وانظر: «شرح ابن عقيل على الألفية» (١/ ١٣).

ولهذا كَانَ الْكَلَامُ عِنْدَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ هُوَ الْحُرُوفُ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا.



﴿قَوْلُهُ: «وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ».

وهذا مذهبُ الكَلَابِيَّةِ والأشْعَرِيَّةِ، فَكَلَامُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ مَعْنَى فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ خَلَقَ أَصْوَاتًا وَحُرُوفًا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، إِمَّا عِبَارَةً أَوْ حِكَايَةً.

وَعَلِمَ أَنَّ ابْنَ الْقَيْمِ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ أَنَّنَا إِذَا أَنْكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ فَقَدْ أَبْطَلْنَا الشَّرْعَ وَالْقَدَرَ:

■ أَمَّا الشَّرْعُ: فَلَأَنَّ الرِّسَالَاتِ إِنَّمَا جَاءَتْ بِالْوَحْيِ، وَالْوَحْيُ كَلَامٌ مُبَلَّغٌ إِلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ، فَإِذَا نَفَيْتُمَا الْكَلَامَ انْتَفَى الْوَحْيُ، وَإِذَا انْتَفَى الْوَحْيُ انْتَفَى الشَّرْعُ.

■ أَمَّا الْقَدَرُ: فَلَأَنَّ الْخَلْقَ يَقَعُ بِأَمْرِهِ، بِقَوْلِهِ: كُنْ. فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].



(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٤٩٤).

فصل

فِي الْإِيمَانِ بِرُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمَوَاضِعِ الرُّؤْيَا

* قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ:

«فَصْلٌ: وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتْبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الشَّرْحُ:

* قَوْلُهُ: «الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»:

وَجْهٌ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِذَا آمَنَّا بِهِ فَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

وَوَجْهٌ كَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ أَخْبَرَتْ أَنَّ اللَّهَ يُرَى، فَالتَّصَدِيقُ بِذَلِكَ تَصَدِيقٌ بِالْكِتَابِ.

وَوَجْهٌ كَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ نَقْلَ الْوَحْيِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَأَنَّ الْإِيمَانَ أَنَّ اللَّهَ يُرَى مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ.

وَكَذَلِكَ نَقُولُ: مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ هُمُ الَّذِينَ بَلَّغُوا ذَلِكَ لِلخَلْقِ، فَكَأَنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ.

* قَوْلُهُ: «عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ».

(عَيَانًا) بِمَعْنَى: مُعَايَنَةً، وَالْمُعَايَنَةُ هِيَ الرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ.

* قَوْلُهُ: «كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ».

ودليل ذلك قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١).

والمراد بالرؤية: بالعين، كما يدل عليه تشبيه الرؤية برؤية الشمس صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ.

* قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةً الْبَدْرِ، لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ».

سَبَقَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.



* قَوْلُهُ: «يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتٍ الْقِيَامَةِ».

* «عَرَصَاتٍ»: جَمْعُ عَرَصَةٍ، وَهِيَ الْمَكَانُ الْوَاسِعُ الْفَاسِخُ، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ بِنَاءٌ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ تُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٢) يَعْني: مَدَّ الْجِلْدِ.

فَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي عَرَصَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ: ﴿كَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوءُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَعْني: يَوْمَ الدِّينِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] وَيَرَوْنَهُ كَذَلِكَ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ.

أَمَّا فِي عَرَصَاتٍ الْقِيَامَةِ فَالنَّاسُ فِي الْعَرَصَاتِ ثَلَاثَةٌ أَجْناسٍ:

١- مُؤْمِنُونَ خُلُصَّ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها، رقم (٤٠٨١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّتْ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ وَخُشِرَ الْخَلِائِقُ»، ومن حديث جابر (٤/ ٥٧٠) رفعه: «تُمدُّ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدًّا لِعَظْمَةِ الرَّحْمَنِ» وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٧٦): رجاله ثقات. وصَحَّحَ الْأَلْبَانِي فِي «الصَّحِيحَةِ» (٤/ ٦٠٧) سَنَدَ الْمَوْقُوفِ.

٢- وكافِرُونَ خُلِّصَ، ظاهرًا وباطنًا.

٣- ومؤْمِنُونَ ظاهرًا كافرُونَ باطنًا، وهم المنافقُونَ.

فأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ: فيَرَوْنَ اللهَ تَعَالَى فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُونَ: فَلَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ مُطْلَقًا، وَقِيلَ: يَرَوْنَهُ، لَكِنْ رُؤْيَا غَضَبٍ وَعُقُوبَةٍ.

وَلَكِنْ ظَاهِرُ الْأَدِلَّةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ اللهَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنظُرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّا يَحْجُبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

- وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ: فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ اللهَ عَزَّجَلَّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ، وَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

﴿قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى».

﴿قَوْلُهُ: «كَمَا يَشَاءُ» يَعْنِي: يَرَوْنَ اللهَ كَمَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كَيْفِيَّةِ رُؤْيَاهُمْ إِيَّاهُ، وَكَمَا يَشَاءُ اللهُ فِي زَمَنِ رُؤْيَاهُمْ إِيَّاهُ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، يَعْنِي: عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَسَاوُهُ اللهُ عَزَّجَلَّ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا.

وَحِينَئِذٍ فَإِنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا، بِمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَرَى رَبَّهُ، وَلَكِنْ مَعْنَى الرُّؤْيَا مَعْلُومٌ، أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللهَ كَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ، لَكِنْ عَلَى أَيِّ كَيْفِيَّةٍ؟ هَذِهِ لَا نَعْلَمُهَا، بَلْ كَمَا يَشَاءُ اللهُ.

وَقَدْ سَبَقَ التَّفْصِيلُ فِي الرُّؤْيَا.



فَصْلٌ

فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

شَرَعَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكَلَامِ عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِيهِ، فَقَالَ:

«فَصْلٌ: وَمَنِ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ».

الشرح:

حُكْمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَرِيضَةٌ وَاجِبٌ، وَمُرْتَبَةٌ فِي الدِّينِ أَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَّةِ.

وَكثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، الْإِيمَانُ بِالْمَبْدَأِ وَالْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ؛ إِذْ إِنَّ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَنْ يَعْمَلَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْمَلُ إِلَّا لِمَا يَرْجُوهُ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا يَخَافُهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ، فَإِذَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ صَارَ كَمَنْ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجمانية: ٢٤].

وَسَمِّيَ الْيَوْمُ الْآخِرُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، فَهُوَ آخِرُ الْمَرَاجِلِ. وَالْإِنْسَانُ لَهُ خَمْسُ مَرَاجِلَ: مَرْحَلَةُ الْعَدَمِ، ثُمَّ الْحَمْلِ، ثُمَّ الدُّنْيَا، ثُمَّ الْبَرَزَخِ، ثُمَّ الْآخِرَةِ. فَمَا مَرْحَلَةُ الْعَدَمِ: فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُنْقِزُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُنْفَوْفَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بَهيجٍ ﴿[الحج: ٥].﴾

■ وَأَمَّا مَرَحَلَةُ الْحَمْلِ: فَقَالَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

■ وَأَمَّا مَرَحَلَةُ الدُّنْيَا: فَقَالَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهذه المراحل هي التي عليها مدار السعادة والشقاء، وهي دار الامتحان والابتلاء، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [تبارك: ٢].

■ وَأَمَّا مَرَحَلَةُ الْبَرَزِخ: فَقَالَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ بَرَزَخُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

■ وَأَمَّا مَرَحَلَةُ الْآخِرَةِ: فَهِيَ غَايَةُ الْمَرَاكِجِ، وَنَهَايَةُ الرَّاحِلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الْمَرَاكِجِ: ﴿ثُمَّ لَكُمْ بِعَدَ ذَلِكَ لَمِثْنُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُبُعَتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

✽ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ»:

كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وذلك لأن الإنسان إذا مات دَخَلَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ ولهذا يُقَالُ: مَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، فَكُلُّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ مِنَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

إذن: مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ الْآخِرَ لَنَا! لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ، ثُمَّ يَدْخُلَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْجَزَاءُ عَلَى الْعَمَلِ.

ولهذا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَبِهَ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ.

فَكَّرْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَحِدْ أَنْكَ عَلَى خَطَرٍ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ لَهُ أَجَلٌ مَعْلُومٌ عِنْدَنَا، قَدْ يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَلَى كُرْسِيِّ مَكْتَبِهِ وَلَا يَقُومُ مِنْهُ، وَقَدْ يَنَامُ الْإِنْسَانُ عَلَى فِرَاشِهِ وَلَكِنَّهُ يُحْمَلُ مِنْ فِرَاشِهِ إِلَى سَرِيرِ غُسْلِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَسْتَوْجِبُ مِمَّا أَنْ تَنْتَهَزَ

فُرْصَةَ الْعُمَرِ بِالْتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ دَائِمًا يَسْتَشْعِرُ بَأَنَّهُ تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ، وَرَاجِعٌ وَمُئِيبٌ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْأَجَلُ وَهُوَ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ.

❖ قَوْلُهُ: «فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ».

الْفِتْنَةُ هُنَا الْاِخْتِبَارُ، وَالْمَرَادُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ: سُؤَالُ الْمَيِّتِ - إِذَا دُفِنَ - عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ. وَالضَّمِيرُ فِي «يُؤْمِنُونَ»: يَعُودُ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، أَيَّ أَنْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ؛ وَذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَيْهَا.

❑ أَمَّا الْكِتَابُ: فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فَإِنَّ هَذَا فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ، كَمَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) ^(١) وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❑ وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَقَدْ تَطَاوَرَتْ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ، وَهِيَ فِتْنَةٌ قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ - أَوْ: قَرِيبًا مِنْ - فِتْنَةِ الدَّجَالِ» ^(٢).

وَفِتْنَةُ الدَّجَالِ أَعْظَمُ فِتْنَةٍ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَالِ» ^(٣).

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ، بَلْ قَالَ لِأُمَّتِهِ: «إِنْ يُخْرِجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يُخْرِجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فامْرُؤٌ حَاجِبٌ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ❖، رَقْمُ (٤٦٩٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا، بَابُ عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلَيْهِ، رَقْمُ (٢٨٧١).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوُضُوءِ، بَابُ مَنْ لَمْ يَتَوَضَّأْ إِلَّا مِنَ الْغُثِيِّ الْمُثْقَلِ، رَقْمُ (١٨٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ مَا عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُفُوفِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رَقْمُ (٩٠٥)، مِنْ حَدِيثِ أُسَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ فِي بَقِيَّةٍ مِنْ أَحَادِيثِ الدَّجَالِ، رَقْمُ (٢٩٤٦)، مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كُلِّ مُسْلِمٍ^(١).

ومع ذلك فإنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ أَعْلَمَنَا كَيْفَ نَحَاجُّهُ، وَأَعْلَمَنَا بِأَوْصَافِهِ وَمِيزَاتِهِ، حَتَّى كَأَنَّا نَشَاهِدُهُ رَأْيَ عَيْنٍ، وَبِهَذِهِ الْأَوْصَافِ وَالْمِيزَاتِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحَاجَّهُ.

ولهذا نقول: إِنَّ فِتْنَةَ الدَّجَالِ أَعْظَمُ فِتْنَةٍ، وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ - أَوْ قَرِيبًا مِنْ - فِتْنَةِ الدَّجَالِ».

وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ فِتْنَةٍ! لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَلَقَّى فِيهَا السُّؤَالَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ الْجَوَابُ عَلَيْهِ إِلَّا عَلَى أَسَاسِ مَتِينٍ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

❖ قَوْلُهُ: «فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ».

هَذَا شُرُوعٌ فِي بَيَانِ كَيْفِيَّةِ فِتْنَةِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ.

وَكَلِمَةُ «النَّاسِ» عَامَّةٌ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ، حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالْمُرَابِطُونَ وَغَيْرَ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الصَّغَارِ وَالْمَجَانِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، وَفِي هَذَا تَفْصِيلٌ، فَنَقُولُ:

أَوَّلًا: أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَلَا تَشْمَلُهُمُ الْفِتْنَةُ، وَلَا يُسْأَلُونَ؛ وَذَلِكَ لَوْجَهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الشُّهَدَاءِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الشَّهِيدَ يُوقَى فِتْنَةَ الْقَبْرِ، وَقَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ^(٢).

الثَّانِي: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُسْأَلُ عَنْهُمْ، فَيُقَالُ لِلْمَيِّتِ: مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَهُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُمْ، وَلَيْسُوا مَسْئُولِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ»^(٣)، وَالْخِطَابُ لِلْأُمَّةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشرار الساعة، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم (٢٠٥٣) - وعنه القاسم السرقسطي في «غريب الحديث» (٢/ ١٦٥ / ١) كما في «أحكام الجنائز» للألباني (ص: ٣٦) - من حديث راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - وقال الألباني: سنده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل، رقم (١٨٤)، ومسلم: كتاب،

الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، فَلَا يَكُونُ الرَّسُولُ دَاخِلًا فِيهِمْ.

ثانيًا: وَأَمَّا الصَّدِيقُونَ فَلَا يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الصَّدِيقِينَ أَعْلَى مِنْ مَرْتَبَةِ الشُّهَدَاءِ، فَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ لَا يُسْأَلُونَ فَالصَّدِيقُونَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَلِأَنَّ الصَّدِيقَ عَلَى وَصْفِهِ مُصَدِّقٌ وَصَادِقٌ، فَهُوَ قَدْ عَلِمَ صِدْقَهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى اخْتِيَارِهِ؛ لِأَنَّ الْاِخْتِبَارَ لِمَنْ يُشْكُ فِيهِ، هَلْ هُوَ صَادِقٌ أَوْ كَاذِبٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ صَادِقًا فَلَا حَاجَةَ تَدْعُو لِسُؤَالِهِ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ؛ لِعُمُومِ الْأَدْلَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثالثًا: وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَا يُسْأَلُونَ؛ لظُهُورِ صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ بِجِهَادِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التَّوْبَةِ: ١١١].

وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «كَفَى بِيَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»^(١).

وإِذَا كَانَ الْمُرَابِطُ إِذَا مَاتَ أَمِنَ الْفِتَانَ؛ لظُهُورِ صِدْقِهِ، فَهَذَا الَّذِي قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ مِثْلُهُ أَوْ أَوْلَى مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ بَذَلَ وَعَرَّضَ رَقَبَتَهُ لَعَدُوِّ اللَّهِ؛ إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَانْتِصَارًا لِدِينِهِ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدْلَةِ عَلَى صِدْقِ إِيْمَانِهِ.

رابعًا: وَأَمَّا الْمُرَابِطُونَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، فَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ»^(٢).

= باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر اللجنة والنار، رقم (٩٠٥)، من حديث أساء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم (٢٠٥٣) - وعنه القاسم السرقسطي في «غريب الحديث» (٢/ ١٦٥ / ١) كما في «أحكام الجنائز» للألباني (ص: ٣٦) - من حديث راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - وقال الألباني: سنده صحيح.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، رقم (١٩١٣)، من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامساً: الصَّغَارُ وَالْمَجَانِينُ: هَلْ يُفْتَنُونَ أَوْ لَا يُفْتَنُونَ؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُمْ يُفْتَنُونَ؛ لَدُخُولِهِمْ فِي الْعُمُومِ، وَلَا تَنْهَمُ إِذَا سَقَطَ التَّكْلِيفُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ حَالَ الْمَمَاتِ تُخَالِفُ حَالَ الْحَيَاةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْمَجَانِينَ وَالصَّغَارَ لَا يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ، وَإِذَا كَانُوا غَيْرَ مُكَلَّفِينَ فَإِنَّهُ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ لَا حِسَابَ إِلَّا عَلَى مَنْ كَانَ مُكَلَّفًا يُعَاقَبُ عَلَى الْمَعَاصِي، وَهَؤُلَاءِ لَا يُعَاقَبُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الثَّوَابُ، إِنْ عَمِلُوا عَمَلًا صَالِحًا يَثْبُتُ عَلَيْهِ.

إِذَنْ: خَرَجَ مِنْ قَوْلِ الْمُؤَلَّفِ: «فَإِنَّ النَّاسَ» خَمْسَةُ أَصْنَافٍ: الْأَنْبِيَاءُ، وَالصَّادِقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالْمُرَابِطُونَ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ كَالْمَجَانِينَ وَالصَّبِيَّانِ.

تَنْبِيْهُ: النَّاسُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مُؤْمِنُونَ خُلَّصُوا، وَمُنَافِقُونَ، وَهَذَانِ الْقِسْمَانِ يُفْتَنُونَ، وَالثَّالِثُ كُفَّارٌ خُلَّصُوا، فَفِي فِتْنَتِهِمْ خِلَافٌ، وَقَدْ رَجَعَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِ (الرُّوحِ) ^(١) أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ.

وَهَلْ تُسْأَلُ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ؟

ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - وَهُوَ الصَّحِيحُ - إِلَى أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ - وَهِيَ أَشْرَفُ الْأُمَمِ - تُسْأَلُ فَمَنْ دُونَهَا مِنْ بَابِ أُولَى.

* قَوْلُهُ: «فِي قُبُورِهِمْ»: جَمْعٌ قَبْرٍ، وَهِيَ مَدْفَنُ الْأَمْوَاتِ، وَالْمُرَادُ مَا هُوَ أَعَمُّ، فَيَشْمَلُ الْبَرْزَخَ، وَهُوَ مَا بَيْنَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، سَوَاءٌ دُفِنَ الْمَيِّتُ أَوْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ فِي الْبَرِّ أَوْ الْحَيَاتَانِ فِي الْبَحْرِ أَوْ أَتَلَفَتْهُ الرِّيَّاحُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا إِذَا انْتَهَتْ الْأَحْوَالُ الدُّنْيَوِيَّةُ، وَسَلَّمَ إِلَى عَالَمِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا تَأَخَّرَ دَفْنُهُ يَوْمًا أَوْ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنِ السُّؤَالُ حَتَّى يُدْفَنَ.

* قَوْلُهُ: «فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ».

الْقَائِلُ: مَلَكَانِ يَأْتِيَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ فِي قَبْرِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ

نِعَالِ الْمُتَصَرِّفِينَ عَنْهُ، وَهُمَا يَسْأَلَانِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا دُفِنَ الْمَيِّتَ وَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، واسألوا له التَّشْيِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(١).

ووردَ في بعض الآثار أن اسمَهما: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ^(٢).

وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين، قال: كَيْفَ يُسَمَّى الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأوصافِ الشَّاءِ بهذين الاسمين المنكرين، وَضَعَفَ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي ذَلِكَ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْحَدِيثَ حُجَّةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ لَيْسَ لِأَتَمِّهَا مُنْكَرَانِ مِنْ حَيْثُ ذَوَاتُهُمَا، وَلَكِنَّهُمَا مُنْكَرَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَيِّتَ لَا يَعْرِفُهُمَا، وَلَيْسَ لَهُ بِهِمَا عِلْمٌ سَابِقٌ، وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأُضْيَافِهِ الْمَلَائِكَةَ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُمْ، فَهَذَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ؛ لِأَتَمِّهَا غَيْرَ مَعْرُوفَيْنِ لِلْمَيِّتِ.

ثُمَّ هَذَانِ الْمَلَكَانِ هَلْ هُمَا مَلَكَانِ جَدِيدَانِ، مُوَكَّلَانِ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ؟ أَوْ هُمَا الْمَلَكَانِ الْكَاتِبَانِ اللَّذَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ؟

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَصْحَبَانِ الْمَرْءَ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَتَيْنِ فِي الدُّنْيَا يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ، وَفِي الْقَبْرِ يَسْأَلَانِهِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ الثَّلَاثَةَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ هُمَا مَلَكَانِ آخَرَانِ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وَالْمَلَائِكَةُ خُلُقٌ كَثِيرٌ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّتْ لَهَا أَنْ تَطِطَّ (وَالْأَطِيطُ: صَرِيرُ الرَّحْلِ) مَا مِنْ مَوْضِعٍ شِبْرٍ (أَوْ قَالَ: أَرْبَعِ أَصَابِعَ) إِلَّا وَفِيهِ مُلْكٌ قَائِمٌ لِلَّهِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت، رقم (٣٢٢١)، والحاكم (١/٣٧٠)، والبيهقي (٥٦/٤)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وجَوَّدَ إسناده النووي في «المجموع» (٥/٢٩٢)، وانظر: «أحكام الجنائز» للألباني (ص: ١٥٦).

(٢) لما أخرجه الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٠٧١)، وابن أبي عاصم في «اللسنة» رقم (٨٦٤)، والأجري في «الشریعة» رقم (٨٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت -أو قال: أحدم- أنه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير...».

والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٩١).

أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»^(١)، وَالسَّمَاءُ وَاسِعَةُ الْأَرْجَاءِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فَالْمِثْمُ أَنَّهُ لَا غَرَابَةَ أَنْ يُنْسِيَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِكُلِّ مَذْفُونٍ مَلَكَيْنِ يُرْسِلُهُمَا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

❖ قَوْلُهُ: «مَنْ رَبُّكَ؟».

يَعْنِي: مَنْ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَتَعَبَّدُهُ وَتَخَصُّهُ بِالْعِبَادَةِ؟ لِأَجْلِ أَنْ تَتَّظِمَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ.

❖ قَوْلُهُ: «مَا دِينُكَ؟».

يَعْنِي: مَا عَمَلُكَ الَّذِي تَدِينُ بِهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَتَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ؟
وَالثَّالِثُ:

«مَنْ نَبِيُّكَ؟».

يَعْنِي: مَنْ النَّبِيُّ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ وَتَتَّبِعُهُ؟

❖ قَوْلُهُ: «فَ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»

[إبراهيم: ٢٧].

أَيُّ: يَجْعَلُهُمْ ثَابِتِينَ لَا يَرْتَدُّونَ وَلَا يَتَلَعَثُمُونَ فِي الْجَوَابِ.

وَالْقَوْلُ الثَّابِتُ: هُوَ التَّوْحِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَلَفْظُهُ: «أُطِيتُ السَّاءَ وَحَقُّهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعُ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلِكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لَهُ...»، والحديث أخرجه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

* وَقَوْلُهُ: «(فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)»: يُحْتَمَلُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يُثَبِّتُ﴾ بِعَنِي: أَنَّ اللَّهَ يَثْبُتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالثَّابِتِ، فَتَكُونُ وَصْفًا لِلْقَوْلِ، بِعَنِي: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ ثَابِتٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

وَلَكِنْ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَحْسَنُ وَأَقْرَبُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، فَهُمْ يُثَبِّتُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ.

* قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّي اللَّهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي».

فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: «رَبِّي اللَّهُ» عِنْدَمَا يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَيَقُولُ إِذَا قِيلَ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: «الْإِسْلَامُ دِينِي». وَيَقُولُ كَذَلِكَ: «مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي» إِذَا قِيلَ لَهُ: مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْجَوَابُ صَوَابًا، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ.

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ! لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ».

الْمُرْتَابُ: الشَّاكُّ وَالْمُنَاقِقُ وَشِبْهَهُمَا.

«فَيَقُولُ: هَاهُ! هَاهُ! لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ». بِعَنِي: لَمْ يَلِجِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ. وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ: «هَاهُ! هَاهُ!» كَأَنَّهُ شَيْئًا غَابَ عَنْهُ، يُرِيدُ أَنْ يَتَذَكَّرَهُ، وَهَذَا أَشَدُّ فِي التَّحَسُّرِ، أَنْ يَتَحَيَّلَ أَنَّهُ يَعْرِفُ هَذَا الْجَوَابَ، وَلَكِنْ يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَيَقُولُ: هَاهُ! هَاهُ! ثُمَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ. وَلَا يَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ! وَلَا: دِينِي الْإِسْلَامُ! وَلَا: نَبِيِّي مُحَمَّدًا! لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مُرْتَابٌ شَّاكٌّ!

هَذَا إِذَا سِيلَ فِي قَبْرِهِ وَصَارَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى الْجَوَابِ الصَّوَابِ، يَعْجِزُ وَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ.

إِذَنْ: إِيْمَانُهُ قَوْلٌ فَقَطْ!!

* قَوْلُهُ: «يُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ».

* «يُضْرَبُ» يعني: الَّذِي لَمْ يُجِبْ، سواءً كَانَ الْكَافِرِ أَوْ الْمُنَافِقِ، وَالضَّارِبُ لَهُ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَسْأَلَانِهِ.

وَالْمِرْزَبَةُ: هِيَ مِطْرَقَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ مَنَى مَا أَقْلَوْهَا.

فَإِذَا ضُرِبَ يَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ.

* قَوْلُهُ: «يُضْرَبُ فَيَصِيحُ» أَي: صِيَاحًا مَسْمُوعًا، يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ حَوْلَهُ مِمَّا يَسْمَعُ صَوْتَهُ، وَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ فِي أَفْطَارِ الدُّنْيَا يَسْمَعُهُ، وَأَحْيَانًا يَتَأَثَّرُ بِهِ مَا يَسْمَعُهُ، كَمَا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَقْبَرٍ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى بَغْلَتِهِ فَحَادَتْ بِهِ، حَتَّى كَادَتْ تُلْقِيهِ؛ لِأَنَّهَا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ يُعَذِّبُونَ^(١).

* قَوْلُهُ: «إِلَّا الْإِنْسَانَ» يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ هَذَا الصَّيْحَ، وَذَلِكَ لِحُكْمِ عَظِيمَةٍ، مِنْهَا: أَوَّلًا: مَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَتُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢).

ثَانِيًا: أَنْ فِي إِخْفَاءِ ذَلِكَ سِرًّا لِلْمَيِّتِ.

ثَالِثًا: أَنَّ فِيهِ عَدَمَ إِزْعَاجٍ لِأَهْلِهِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهُ إِذَا سَمِعُوا مَيِّتَهُمْ يُعَذِّبُ وَيَصِيحُ لَمْ يَسْتَقِرَّ لَهُمْ قَرَارٌ.

رَابِعًا: عَدَمَ تَحْجِيلِ أَهْلِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: هَذَا وَلَدُكُمْ! هَذَا أَبُوكُمْ! هَذَا أَخُوكُمْ! وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا، بَابُ عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، رَقْمُ (٢٨٦٧)، مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا، بَابُ عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، رَقْمُ (٢٨٦٧)، مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْحَدِيثِ السَّابِقِ.

خامساً: أَنَّا قَدْ هَمَلْنَا؛ لِأَنَّهَا صِيحَّةٌ لَيْسَتْ هِيئَةً، بَلْ صِيحَّةٌ تُوجِبُ أَنْ تَسْقُطَ الْقُلُوبُ مِنْ مَعَالِيْقِهَا، فَيَمُوتُ الْإِنْسَانُ أَوْ يُغَشَى عَلَيْهِ.

سادساً: لَوْ سَمِعَ النَّاسُ صُرَاحَ هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ لَكَانَ الْإِيمَانُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِالشَّهَادَةِ، لَا مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَحِينَئِذٍ تَقُوتُ مَصْلَحَةُ الْإِمْتِحَانِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ سَوْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَا شَاهَدُوهُ قَطْعًا، لَكِنْ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْحَرِّ، صَارَ مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

* تَنْبِيْهُ: قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَيَصِيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ».

إِنَّمَا وَرَدَ قَوْلُهُ: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ...» إِنْخِ فِي قَوْلِ الْجَنَازَةِ إِذَا احْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي! وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا! أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟! يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ لَصَعِقَ»^(١).

أَمَّا الصِّيْحَةُ فِي الْقَبْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَصِيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي هَذَا اللَّفْظِ^(٢). وَالْمُرَادُ بِالثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ.

* قَوْلُهُ: «ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمُ وَإِمَّا عَذَابٌ».

* «ثُمَّ»: هَذِهِ لِمُطْلَقِ التَّرْتِيبِ، وَلَيْسَتْ لِلتَّرَاحِي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَذَّبُ أَوْ يُنْعَمُ فَوْرًا، كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: لَا أَذْرِي! يُضْرَبُ بِمِرْرَتِهِ، وَأَنْ ذَاكَ الَّذِي أَجَابَ بِالصَّوَابِ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُوسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ.

وَهَذَا النَّعِيمُ أَوِ الْعَذَابُ هَلْ هُوَ عَلَى الْبَدَنِ أَوْ عَلَى الرُّوحِ أَوْ يَكُونُ عَلَى الْبَدَنِ وَالرُّوحِ

جَمِيعًا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب حمل الرجال الجنائز دون النساء، رقم (١٣١٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤)، من حديث أنس بن مالك رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

نقول: المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه في الأصل على الروح، والبدن تابع لها، كما أن العذاب في الدنيا على البدن، والروح تابعة له، وكما أن الأحكام الشرعية في الدنيا على الظاهر، وفي الآخرة بالعكس، ففي القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعاً، وليس على سبيل الاستقلال، وربما يكون العذاب على البدن، والروح تتبعه، لكن هذا لا يقع إلا نادراً، إنما الأصل أن العذاب على الروح، والبدن تبع، والنعيم للروح والبدن تبع.

وقوله: «إِنَّمَا نَعِيمٌ وَإِنَّمَا عَذَابٌ»: فيه إثبات النعيم والعذاب في القبر، وقد دل على ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل لنا أن نقول: وإجماع المسلمين.

■ أما من كتاب الله: فالثلاثة أصناف التي في آخر الواقعة ظاهرة في ثبوت عذاب القبر ونيعمه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُمُ (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنْظَرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانٌ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِينَ (٨٨) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ (٩٤)﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٤].

وهذا أمرٌ مشاهد، يُسمعُ المختصرُ يُرحَّبُ بالقادِمِينَ عليه مِنَ الملائكة، ويقول: مَرَحَبًا! وأحياناً يقول: مَرَحَبًا! اجلس هنا! كما ذكره ابن القيم في كتاب (الروح) (٩) وأحياناً يحسُّ بأن هذا الرجل أصيب بشيءٍ خفيف، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب، والعباد بالله.

ومن أدلة القرآن قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴿١٠٦﴾ وَهَذَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ، بدليل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٠٧﴾﴾ [غافر: ٤٦].

وَمِنْ أَدْلَةِ الْقُرْآنِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ وَهُمْ شَاخُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجَ، لِأَنَّهُمْ قَدْ بَشَّرُوا بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ، فَتَجِدُ الرُّوحَ تَأْبَى الْخُرُوجَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ آلِهَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٣]: ﴿الْيَوْمَ﴾: (أَل): لِلْعَهْدِ الْحُضُورِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] يَعْنِي: الْيَوْمَ الْحَاضِرَ.

وَكَذَلِكَ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾: (أَل) لِلْعَهْدِ الْحُضُورِيِّ، وَالْمَرَادُ بِهِ: يَوْمَ حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ مِنْ حِينَ أَنْ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ، وَهَذَا هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ.

وَمِنْ أَدْلَةِ الْقُرْآنِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ نَفَقَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]. وَذَلِكَ فِي حَالِ الْوَفَاةِ.

ولهذا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يُقَالُ لِنَفْسِ الْمُؤْمِنِ: اخْرُجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»^(١)، فَتَفْرَحُ بِهَذِهِ الْبُشْرَى، وَتَخْرُجُ مُنْقَادَةً سَهْلَةً، وَإِنْ كَانَ الْبَدَنُ قَدْ يَتَأَلَّمُ، لَكِنَّ الرُّوحَ مُنْقَادَةً مُسْتَبْشِرَةً.

■ وَأَمَّا السُّنَّةُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ فَمُتَوَاتِرَةٌ، وَمِنْهَا مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ...»^(٢) الْحَدِيثُ.

■ وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ فِي صَلَاتِهِمْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ... وَلَوْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ غَيْرُ ثَابِتٍ مَا صَحَّ أَنْ يَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُ؛ إِذْ لَا تَعَوَّذَ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ مُوجُودًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٨٧/٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنَفِ رَقْمَ (١٢١٨٥)، وَالْحَاكِمُ (٣٧/١)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الشَّعْبِ رَقْمَ (٣٩٠)، مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَانْظُرْ أَحْكَامَ الْجَنَائِزِ لِلْأَلْبَانِيِّ (ص: ١٥٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابَ الْوُضُوءِ، بَابَ مَا جَاءَ فِي غَسْلِ الْبُولِ، رَقْمَ (٢١٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابَ الطَّهَارَةِ، بَابَ الدَّلِيلِ عَلَى نَجَاسَةِ الْبُولِ، رَقْمَ (٢٩٢)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ الْعَذَابُ أَوْ النَّعِيمُ فِي الْقَبْرِ دَائِمٌ أَوْ يَنْقَطِعُ؟

فالجواب أن يُقَالَ:

■ أَمَّا الْعَذَابُ لِلْكَفَّارِ فَإِنَّهُ دَائِمٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَزُولَ الْعَذَابُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ
لِذَلِكَ، وَلِأَنَّهُ لَوْ زَالَ الْعَذَابُ عَنْهُمْ لَكَانَ هَذَا رَاحَةً لَهُمْ، وَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ، فَهُمْ
بِاسْتِمْرَارٍ فِي عَذَابٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ طَالَتْ الْمُدَّةُ، فَقَوْمٌ نُوحِ الَّذِينَ أَغْرَقُوا مَا زَالُوا
يُعَذَّبُونَ فِي هَذِهِ النَّارِ الَّتِي أُدْخِلُوا فِيهَا، وَيَسْتَمِرُّ عَذَابُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ أَلْ فِرْعَوْنَ
يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُّوًا وَعَشِيًّا.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يُخَفَّفُ عَنِ الْكُفَّارِ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿قَالُوا يَنْوِلُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِإِلَازِمٍ؛ لِأَنَّ قُبُورَهُمْ مَرْقَدٌ لَهُمْ،
وَلِنْ عَذَّبُوا فِيهَا.

■ أَمَّا عَصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ فَهَؤُلَاءِ قَدْ يَدُومُ عَذَابُهُمْ
وَقَدْ لَا يَدُومُ، وَقَدْ يَطُولُ وَقَدْ لَا يَطُولُ، حَسَبَ الذُّنُوبِ، وَحَسَبَ عَفْوِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.
وَالْعَذَابُ فِي الْقَبْرِ أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ فِي الْقَبْرِ لَيْسَ فِيهِ خِزْيٌ
وَعَارٌ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ فِيهِ الْخِزْيُ وَالْعَارُ؛ لِأَنَّ الْأَشْهَادَ مُوجُودُونَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ تَمَرَّقَ أَوْ صَالَ، وَأَكَلَتْهُ السَّبَاعُ، وَذَرْنَتْهُ الرِّيَّاحُ، فَكَيْفَ
يَكُونُ عَذَابُهُ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ سُؤَالُهُ؟

فالجواب: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ
يَجْمَعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، وَإِنْ كُنَّا نُشَاهِدُهَا فِي الدُّنْيَا مَتَمَرِّقَةً مُتَبَاعِدَةً، لَكِنْ فِي
عَالَمِ الْغَيْبِ رَبُّهَا يَجْمَعُهَا اللَّهُ.

فَانْظُرْ إِلَى الْمَلَائِكَةِ تَنْزِلُ لِقَبْضِ رُوحِ الْإِنْسَانِ فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] وَمَعَ ذَلِكَ لَا تُبْصِرُهُمْ.

وَمَلَكُ الْمَوْتِ يُكَلِّمُ الرُّوحَ، وَنَحْنُ لَا نَسْمَعُ.

وَجَزِيْلٌ يَتَمَثَّلُ أحيانًا لِلرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيُكَلِّمُهُ بِالْوَحْيِ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، وَالنَّاسِ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ.

فَعَالَمُ الْغَيْبِ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يُقَاسَ بِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَهَذِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَتَفْسُكَ الَّتِي فِي جَوْفِكَ مَا تَذَرِي كَيْفَ تَتَعَلَّقُ بِبَدَنِكَ. كَيْفَ هِيَ مُوزَعَةٌ عَلَى الْبَدَنِ؟! وَكَيْفَ تَخْرُجُ مِنْكَ عِنْدَ النَّوْمِ؟! هَلْ تُحِسُّ بِهَا عِنْدَ اسْتِيقَاطِكَ بِأَنَّهَا تَرْجِعُ؟! وَمَنْ أَيْنَ تَدْخُلُ لِجَسْمِكَ؟!

فَعَالَمُ الْغَيْبِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا التَّنْسِلِيمُ، وَلَا يُمَكِّنُ فِيهِ الْقِيَاسُ إِطْلَاقًا، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الْمُتَفَرِّقَاتِ مِنَ الْبَدَنِ الْمُتَمَرِّقِ الَّذِي ذَرَنَهُ الرِّيَّاحُ، ثُمَّ يَحْصُلُ عَلَيْهِ الْمُسَاءَلَةُ وَالْعَذَابُ أَوْ النَّعِيمُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْمَيِّتُ يُذْفَنُ فِي قَبْرِ صَبِيٍّ، فَكَيْفَ يُوسَّعُ لَهُ مَدَّ الْبَصَرِ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ عَالَمَ الْغَيْبِ لَا يُقَاسُ بِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، بَلْ إِنَّا لَوْ فُرِضَ أَنْ أَحَدًا حَفَرَ حُفْرَةً مَدَّ الْبَصَرِ، وَدَفَنَ فِيهَا الْمَيِّتَ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ التُّرَابَ، فَالَّذِي لَا يَعْلَمُ بِهَذِهِ الْحُفْرَةِ هَلْ يَرَاهَا أَوْ لَا يَرَاهَا؟! لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَرَاهَا، مَعَ أَنَّ هَذَا فِي عَالَمِ الْحِسِّ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَرَى هَذِهِ السَّعَةَ، وَلَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا مَنْ شَاهَدَهَا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نَحْنُ نَرَى الْمَيِّتَ الْكَافِرَ إِذَا حَفَرْنَا قَبْرَهُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ نَرَى أَنَّ أَضْلَاعَهُ لَمْ تَخْتَلِفْ وَتَتَدَاخَلُ مِنَ الصَّبِيِّ!

فَالْجَوَابُ كَمَا سَبَقَ: أَنَّ هَذَا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ تَكُونَ مُخْتَلِفَةً، فَإِذَا كُشِفَ عَنْهَا أَعَادَهَا اللَّهُ، وَرَدَّ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَكَانِهِ؛ امْتِحَانًا لِلْعِبَادِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ مُخْتَلِفَةً وَنَحْنُ قَدْ دَفَنَاهُ وَأَضْلَاعُهُ مُسْتَقِيمَةٌ صَارَ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ إِيمَانًا شَهَادَةً.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ كَمَا قَالَ الْفَلَاسِفَةُ: نَحْنُ نَضَعُ الرُّتْبَ عَلَى الْمَيِّتِ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْأَشْيَاءِ حَرَكًا وَمُرُوفًا، وَإِذَا جِئْنَا مِنَ الْغَدِ وَجَدْنَا الرُّتْبَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ

يَأْتُونَ وَيُجْلِسُونَ هَذَا الرَّجُلَ، وَالَّذِي يَجْلِسُ كَيْفَ يَنْقَى عَلَيْهِ الزُّبْتُ؟!

فَنَقُولُ أَيْضًا كَمَا قُلْنَا سَابِقًا: هَذَا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، وَعَلَيْنَا الْإِيهَانُ وَالتَّصَدِيقُ، وَمِنْ الْجَائِزِ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَرُدُّ هَذَا الزُّبْنَ إِلَى مَكَانِهِ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ بِالْجُلُوسِ.

وَنَقُولُ أَيْضًا: انظُرُوا إِلَى الرَّجُلِ فِي الْمَنَامِ، يَرَى أَشْيَاءَ لَوْ كَانَ عَلَى حَسَبِ رُؤْيَيْهِ إِيَّاهَا مَا بَقِيَ فِي فِرَاشِهِ عَلَى السَّرِيرِ، وَأَخْيَانًا تَكُونُ رُؤْيَا حَقٍّ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَتَقَعُ كَمَا كَانَ يَرَاهَا فِي مَنَامِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَحْنُ نُؤْمِنُ بِهَذَا الشَّيْءِ.

وَالْإِنْسَانُ إِذَا رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يَكْرَهُ أَصْبَحَ وَهُوَ مُتَكَدِّرٌ، وَإِذَا رَأَى مَا يُبْغِضُهُ أَصْبَحَ وَهُوَ مُسْتَبْشِرٌ، كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أُمُورَ الرُّوحِ لَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الْمُشَاهَدَةِ، وَلَا تُقَاسُ أُمُورُ الْغَيْبِ بِالْمُشَاهَدِ، وَلَا تُرَدُّ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ لَاسْتِبْعَادِنَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ حَسَبَ الْمُشَاهَدِ.



فَصْلٌ فِي الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى

* قَوْلُهُ: «إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى».

الشَّرْحُ:

الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى هِيَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.
وَأَفَادَنَا الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى» أَنَّ هُنَاكَ قِيَامَةً صُغْرَى، وَهِيَ قِيَامَةُ
كُلِّ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ، فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ قِيَامَةٌ، فَمَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ.

وَسَكَتَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَلَمْ يَذْكُرْهَا؛ لِأَنَّ الْمُؤَلَّفَ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَشْرَاطُ السَّاعَةِ إِلَّا مُجَرَّدُ عَلَامَاتٍ وَإِنْدَارَاتٍ لِقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ لِيَسْتَعِدَّ
لَهَا مَنْ يَسْتَعِدُّ.

وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ صَنَّفُوا فِي الْعَقَائِدِ ذَكَرُوا أَشْرَاطَ السَّاعَةِ هُنَا، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ
لَا تَعْلُقُ لَهَا فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي
الْقُرْآنِ وَفَصَّلَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّنَّةِ.

* الْأَمْرُ الْأَوَّلُ بِمَا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ: مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ:

«فَتَعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ».

هَذَا أَوَّلُ الْأُمُورِ، وَيَكُونُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ فِي الصُّورِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْهَا بِالْمَوْتِ،
وَهَذِهِ غَيْرُ الْإِعَادَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ حِينَ سُؤَالِ الْمَيِّتِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ، فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ
يَنْفُخُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى فَتَسْطَايِرُ الْأَرْوَاحُ مِنَ الصُّورِ إِلَى أَجْسَادِهَا، وَتُحِلُّ فِيهَا.

* وَفِي قَوْلِ الْمُؤَلَّفِ: «إِلَى الْأَجْسَادِ»: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تَخْرُجُ مِنَ الصُّورِ إِلَّا بَعْدَ

أَنْ تَتَكَامَلَ الْأَجْسَادُ مَخْلُوقَةً، فَإِذَا كُمُلَتْ خَلَقْتُهَا نُفُخَ فِي الصُّورِ، فَأُعِيدَتِ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا.

* وفي قوله: «تُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ»: دليلٌ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ إِعَادَةٌ، وَلَيْسَ تَجْدِيدًا، بَلْ هُوَ إِعَادَةٌ لِمَا زَالَ وَنَحْوَلْ، فَإِنَّ الْجَسَدَ يَتَحَوَّلُ إِلَى تُرَابٍ، وَالْعِظَامَ تَكُونُ رَمِيمًا، يَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمُتَفَرِّقَ، حَتَّى يَتَكَوَّنَ الْجَسَدُ، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا، وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَجْسَادَ تُخْلَقُ مِنْ جَدِيدٍ فَإِنَّ هَذَا زَعْمٌ بَاطِلٌ يَرُدُّهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْعَقْلُ:

■ أَمَّا الْكِتَابُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أَي: يُعِيدُ ذَلِكَ الْخَلْقَ الَّذِي ابْتَدَأَهُ.

وفي الحديث القدسي: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»^(١)، فَالْكُلُّ عَلَى اللَّهِ هَيْئٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْتُونَ﴾^(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعَثُونَ

[المؤمنون: ١٥-١٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨-٧٩].

■ وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَبِهِيَ كَثِيرَةٌ جَدًّا فِي هَذَا؛ حَيْثُ يَبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ «أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا»^(٢) فَالنَّاسُ هُمُ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ، وَلَيْسَ سِوَاهُمْ. فَالْمُهِمُّ أَنَّ الْبَعْثَ إِعَادَةٌ لِلْأَجْسَادِ السَّابِقَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٤٩٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٥٦/٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَإِذَا قُلْتُ: رَبِّمَا يُؤْكَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَبْلِ السَّبَاعِ، وَيَتَحَوَّلُ جِسْمُهُ الَّذِي أَكَلَهُ السَّبْعُ إِلَى تَغْذِيَةِ لِهَذَا الْآكِلِ تَحْتَطُّ بِدَمِهِ وَلَحْمِهِ وَعَظْمِهِ وَتَخْرُجُ فِي رَوْثِهِ وَيُولِيهِ، فَمَا الْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ؟
فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْأَمْرَ هَيَّئَ عَلَى اللَّهِ، يَقُولُ: كُنْ. فَيَكُونُ، وَيَتَخَلَّصُ هَذَا الْجِسْمُ الَّذِي سَيَبْعُثُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي اخْتَلَطَ بِهَا، وَقُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَوْقَ مَا تَتَصَوَّرُهُ، فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

* قَوْلُهُ: «وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَاجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ».

هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَاجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ.

■ فَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ هَذِهِ الْقِيَامَةَ، وَذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَوْصَافٍ عَظِيمَةٍ، تُوجِبُ الْخَوْفَ وَالِاسْتِعْدَادَ لَهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ زَلَزَلُوهَ السَّاعَةَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْفَارِغَةُ ۝ مَا الْفَارِغَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِغَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [الفارغة: ١-٥].
وَالْأَوْصَافُ لَهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، كُلُّهَا مَرُوعَةٌ مُحَوِّفَةٌ؛ لِأَنَّهَا عَظِيمَةٌ، وَإِذَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهَا فَلَنْ نَعْمَلَ لَهَا؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ لِهَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ وَحَتَّى يُذَكَّرَ لَهُ أَوْصَافُهُ الَّتِي تُوجِبُ الْعَمَلَ لِهَذَا الْيَوْمِ.

■ وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَالْأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِ الْقِيَامَةِ كَثِيرَةٌ، بَيَّنَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَا مَا يَكُونُ فِيهَا، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ وَالصِّرَاطِ وَالْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بَيَّنَّهُ الرَّسُولُ ﷺ.

▪ وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ - وَهُوَ النَّوْعُ الثَّالِثُ - فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ إجماعاً قَاطِعاً عَلَى الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ، إِلَّا إِذَا كَانَ غَرِيباً عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَاهِلاً فَإِنَّهُ يُعَرَّفُ، فَإِنْ أَصَرَ عَلَى الْإِنْكَارِ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ.

▪ وَهُنَاكَ نَوْعٌ رَابِعٌ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَهُوَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ؛ حَيْثُ اتَّفَقَتْ عَلَى إثْبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَحَتَّى الْآنَ يُؤْمِنُونَ بِهِ؛ وَلِهَذَا تَسْمَعُونَهُمْ يَقُولُونَ: فَلَنْ الْمَرْحُومُ، أَوْ: رَحِمَهُ اللَّهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

▪ وَثَمَ نَوْعٌ خَامِسٌ، وَهُوَ الْعَقْلُ، وَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْيَوْمُ لَكَانَ إِيجَادُ الْخَلَائِقِ عَبَثًا، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ مُتَرَدٍّ عَنِ الْعَبَثِ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ قَوْمٍ يُخْلِقُونَ وَيُؤْمِرُونَ وَيُنْهَوْنَ وَيُلْزَمُونَ بِمَا يُلْزَمُونَ بِهِ وَيُنْدَبُونَ إِلَى مَا يُنْدَبُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَمُوتُونَ، وَلَا حِسَابَ، وَلَا عِقَابَ؟!

ولِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون: ١١٥-١١٦﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [الفصل: ٨٥].

كَيْفَ يُفَرِّضُ الْقُرْآنُ وَيُفَرِّضُ الْعَمَلُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ هُنَاكَ مَعَادٌ تُحَاسَبُ عَلَى مَا تَقْدَرْنَا مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْنَا؟!

فَصَارَتْ أَنْوَاعُ الْأَدِلَّةِ عَلَى ثُبُوتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ خَمْسَةً.

* الْأَمْرُ الثَّانِي بِمَا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:

«فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا».

* قَوْلُهُ: «مِنْ قُبُورِهِمْ»: هَذَا بِنَاءٌ عَلَى الْأَغْلَبِ، وَإِلَّا فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ غَيْرَ مَدْفُونٍ.

* قَوْلُهُ: «لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» يَعْنِي: لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُنَادِيهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝١١٦﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤١-٤٢﴾، فَيَقُومُونَ لِهَذَا النَّدَاءِ الْعَظِيمِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ عَزَّجَلَّ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا يَنْظُرُونَ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

* قَوْلُهُ: «حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلَا»: «حُفَاةٌ»: لَيْسَ عَلَيْهِمْ نِعَالٌ وَلَا خِفافٌ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ لِبَاسٌ لِلرَّجُلِ.

* «عُرَاةٌ»: لَيْسَ عَلَيْهِمْ لِبَاسٌ لِلْجَسَدِ.

* «غُرُلَا»: لَمْ يَنْقُصْ مِنْ خَلْقِهِمْ شَيْءٌ، وَالْغُرْلُ: جَمْعُ أَغْرَلٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُخْتَنَ، أَيْ أَنَّ الْقُلْفَةَ الَّتِي قُطِعَتْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا تَعُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَيُعَادُ كَامِلًا، لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ، يَعُودُونَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ مُحْتَطِطِينَ رِجَالًا وَنِسَاءً.

وَلَمَّا حَدَّثَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ» ^(١) (وَفِي رِوَايَةٍ: «مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» ^(٢)).

فَكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٩﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٤٠﴾ وَصَنْبُوهِ وَبَنِيهِ ﴿٤١﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

لَا رَجُلٌ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ، وَلَا امْرَأَةٌ تَنْظُرُ إِلَى رَجُلٍ، حَتَّى إِنَّ ابْنَهُ أَوْ أَبَاهُ يَفِرُّ مِنْهُ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالِبَهُ بِحُقُوقِ لَهُ، وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْظُرَ الْمَرْأَةُ إِلَى الرَّجُلِ، وَلَا الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ؛ الْأَمْرُ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ.

وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يُكْسُونَ بَعْدَ هَذَا، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا ثَبَتَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ كَيْفِ الْحَشْرِ، رَقْمُ (٦٥٢٧)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا، بَابُ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَبَيَانِ الْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٥٦/٢٨٥٩)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

* الأَمْرُ الثَّالِثُ مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:

«وَتَذْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ».

* «تَذْنُو»: أَي: تَقْرُبُ مِنْهُمْ الشَّمْسُ، وَتَقْرُبُ مِنْهُمْ مَقْدَارَ مِيلٍ.

وهَذَا الْمِيلُ سَوَاءٌ كَانَ الْمَسَافَةُ أَوْ مِيلَ الْمُكْحَلَةِ فَإِنَّهَا قَرِيبَةٌ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَرَارَتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْبُعْدِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ عَنِ الرُّؤُوسِ بِمَقْدَارِ مِيلٍ^(٢)؟! قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: الْعُرُوفُ الْآنَ أَنَّ الشَّمْسَ لَوْ تَذْنُو بِمَقْدَارِ شَعْرَةٍ عَنْ مُسْتَوَى خَطِّهَا لَأَحْرَقَتْ الْأَرْضَ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِهَذَا الْمَقْدَارِ مِنَ الْبُعْدِ، ثُمَّ لَا تَحْرِقُ الْخَلْقَ؟

فَالْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسُوا عَلَى الْقُوَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا الْآنَ، بَلْ هُمْ أَقْوَى وَأَعْظَمُ وَأَشَدُّ تَحَمُّلاً.

لَوْ أَنَّ النَّاسَ الْآنَ وَقَفُوا خَمْسِينَ يَوْمًا فِي شَمْسٍ لَا ظِلَّ وَلَا أَكْلَ وَلَا شُرْبَ، فَلَا يُمَكِّنُهُمْ ذَلِكَ، بَلْ يَمُوتُونَ! لَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْقَوْنَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا أَكْلَ وَلَا شُرْبَ وَلَا ظِلَّ، إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَمَعَ ذَلِكَ يُشَاهِدُونَ أَهْوَآءَ عَظِيمَةً، فَيَتَحَمَّلُونَ.

وَاعْتَبِرْ بِأَهْلِ النَّارِ، كَيْفَ يَتَحَمَّلُونَ هَذَا التَّحَمُّلَ الْعَظِيمَ ﴿كَلَّمَ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٥٨/٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما جاء في صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة يوم القيامة، رقم (٢٨٦٤)، من حديث المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله يقول: «تُذْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمَقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رِكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْجِئُهُ الْعَرَقُ إِلَى جَانِبِهَا» قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه.

وبأهل الجنة: يُنظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه، كما ينظر إلى أذناه، كما روي ذلك عن النبي ﷺ^(١).

فإن قيل: هل أحد يسلم من الشمس؟

فالجواب: نعم! هناك أناس يُظلمهم الله في ظل يوم لا ظل إلا ظله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئها ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(٢).

وهناك أيضا أصناف أخرى يُظلمهم الله في ظل يوم لا ظل إلا ظله.

* وقوله: «لا ظل إلا ظله» يعني: إلا الظل الذي يخلقه، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عز وجل؛ فإن هذا باطل؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عز وجل.

ففي الدنيا نحن بنبي الظل لنا، لكن يوم القيامة لا ظل إلا الظل الذي يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده.

* الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله:

«وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ».

«يُلْجِمُهُمُ» أي: يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم.

ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق، ولأبعضهم يصل العرق إلى كعبته، وإلى ركبته،

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣/٢)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، والحاكم (٥٠٩/٢)، من حديث

ابن عمر رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (١٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة،

باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ، فَهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا الْعَرَقِ، وَيَعْرِقُونَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ زَحَامٍ وَشِدَّةٍ وَدُثُوِّ شَمْسٍ، فَيَعْرِقُ الْإِنْسَانُ مِمَّا يَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لَكُنْهُمْ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ^(١).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّا أَصْلَنَّا قَاعِدَةً يَحِبُّ الرُّجُوعُ إِلَيْهَا، وَهِيَ: أَنَّ الْأُمُورَ الْعَيْبِيَّةَ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا وَنُصَدِّقَ دُونَ أَنْ نَقُولَ: كَيْفَ؟! وَلِمَ؟! لِأَنَّهَا شَيْءٌ وَرَاءَ عُقُولِنَا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُدْرِكَهَا أَوْ نُحِيطَ بِهَا.

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ دُفِنَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ، وَالثَّانِي: كَافِرٌ، فَإِنَّهُ يَنَالُ الْمُؤْمِنُ مِنَ النَّعِيمِ مَا يَسْتَحِقُّ، وَيَنَالُ الْكَافِرُ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَحِقُّ، وَهُمَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، وَهَكَذَا نَقُولُ فِي الْعَرَقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْمَعُ مَنْ يُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ فِي مَكَانٍ، وَمَنْ يَصِلُ إِلَى كَعْبِيهِ فِي مَكَانٍ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ فِي مَكَانٍ، وَإِلَى حَقْوَيْهِ فِي مَكَانٍ؟

فَالْجَوَابُ: لَا نَجْزِمُ بِهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بَلْ نَقُولُ: مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ الَّذِي يَصِلُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ إِلَى جَانِبِ الَّذِي يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهَذَا نَظِيرُ النُّورِ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، وَالْكَفَّارِ فِي ظُلْمَةٍ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَبِمَا يَكُونُ فِيهِ. أَمَّا كَيْفَ؟! وَلِمَ؟! فَهَذَا لَيْسَ إِلَيْنَا.

* الْأَمْرُ الْخَامِسُ مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ:

«فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ».

الَّذِي يَنْصَبُ الْمَوَازِينَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ لِتُوزَنَ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ.

وَالْمَوْلُفُ يَقُولُ: «الْمَوَازِينُ»: بِالْجَمْعِ، وَقَدْ وَرَدَتْ النُّصُوصُ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ:

■ فَمِثَالُ الْجَمْعِ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

■ وَأَمَّا الْإِفْرَادُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

فَقَالَ: «فِي الْمِيزَانِ» فَأَفْرَدَ.

فَكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَبَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ؟!

فَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا جُمِعَتْ بِاعْتِبَارِ الْمَوَازِينِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ مُتَعَدَّدٌ، وَأَفْرَدَتْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمِيزَانَ وَاحِدٌ، أَوْ مِيزَانَ كُلِّ أُمَّةٍ.

أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمِيزَانِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ» أَيُّ: فِي الْوَزْنِ.

وَلَكِنْ الَّذِي يَظْهَرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمِيزَانَ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ جُمِعَ بِاعْتِبَارِ الْمَوَازِينِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

لَكِنْ يَتَوَقَّفُ الْإِنْسَانُ: هَلْ يَكُونُ مِيزَانًا وَاحِدًا لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِيزَانٌ؟ لِأَنَّ الْأُمَّةَ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ تَخْتَلِفُ بِاعْتِبَارِ أُجْرِهَا.

وَقَوْلُهُ: «تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ»: ظَاهِرُهُ أَنَّهَا مَوَازِينُ حِسِّيَّةٌ، وَأَنَّ الْوَزْنَ يَكُونُ عَلَى حَسَبِ الْمَعْهُودِ بِالرَّاجِحِ وَالْمَرْجُوحِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلِمَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَمْلُهَا عَلَى الْمَعْهُودِ الْمَعْرُوفِ، إِلَّا إِذَا قَامَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا خِلَافُ ذَلِكَ، وَالْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ مُنْذُ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى الْيَوْمِ أَنَّ الْمِيزَانَ حِسِّيٌّ، وَأَنَّ هُنَاكَ رَاجِحًا وَمَرْجُوحًا. وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ جَمَاعَةٌ:

■ فَاِلْمُعْتَزَلَةُ قَالُوا: إِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مِيزَانٌ حِسِّيٌّ، وَلَا حَاجَةَ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ أَعْمَالَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الْعِبَادِ وَأَحْصَاهَا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِالْمِيزَانِ: الْمِيزَانُ الْمَعْنَوِيُّ الَّذِي هُوَ الْعَدْلُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ قَوْلَ الْمُعْتَزَلَةِ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لظَاهِرِ اللَّفْظِ وَاجْتِمَاعِ السَّلَفِ، وَلَآتِنَا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمِيزَانِ: الْعَدْلُ. فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نُعَبِّرَ بِالْمِيزَانِ، بَلْ نُعَبِّرُ بِالْعَدْلِ؛ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى النَّفْسِ مِنْ كَلِمَةِ (مِيزَانٍ) وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

■ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الرُّجْحَانَ لِلْعَالِي؛ لِأَنَّهُ يَخْصُلُ فِيهِ الْعُلُوُّ، لَكِنَّ الصَّوَابَ أَنْ نُجَرِّيَ الْوِزْنَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَنَقُولَ: إِنَّ الرَّاجِحَ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ، وَيَدُلُّ لَذَلِكَ حَدِيثُ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ؛ فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ السَّجِلَاتِ تَطْيِشُ وَتَنْثَقُلُ الْبِطَاقَةُ، وَهَذَا وَاضِحٌ بِأَنَّ الرُّجْحَانَ يَكُونُ بِالنُّزُولِ.

وَقَوْلُهُ: «فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ»: كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ صَرِيحٌ بِأَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْعَمَلُ. وَهُنَا مَبْحَثَانِ:

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: كَيْفَ يُوزَنُ الْعَمَلُ، وَالْعَمَلُ وَضْفٌ قَائِمٌ بِالْعَامِلِ، وَلَيْسَ جِسْمًا فَيُوزَنُ؟! وَالْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَجْسَامًا، وَلَيْسَ هَذَا بِغَرِيبٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَهُ تَطْيِيرٌ، وَهُوَ الْمَوْتُ؛ فَإِنَّهُ يُجْعَلُ عَلَى صُورَةِ كَبَشٍ، وَيُذَبِّحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ^(١) مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ مَعْنَى، وَلَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَيْسَ الَّذِي يُذَبِّحُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّهُ نَفْسُ الْمَوْتِ؛ حَيْثُ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى جِسْمًا يُشَاهَدُ وَيُرَى، كَذَلِكَ الْأَعْمَالُ يَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَجْسَامًا تُوزَنُ بِهَذَا الْمِيزَانِ الْحِسِّيِّ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: صَرِيحٌ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْعَمَلُ، سَوَاءٌ كَانَ خَيْرًا أَمْ شَرًّا، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ [الزلزلة: ٦-٨]، فَهَذَا وَاضِحٌ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْعَمَلُ، سَوَاءٌ كَانَ خَيْرًا أَمْ شَرًّا.

(١) كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ»: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رَقْمُ (٤٧٣٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا، بَابُ النَّارِ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ، رَقْمُ (٢٨٤٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ»^(١)، وهذا ظاهرٌ أيضًا، بل صريحٌ في أنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْعَمَلُ، والنُّصُوصُ في هذا كثيرةٌ.

ولكن هُناك نُصُوصٌ قَدْ يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا هَذَا الْحَدِيثَ:

■ مِنْهَا حَدِيثُ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ فِي سَجَلَاتٍ تَبْلُغُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا يَبْلُغُ مَدَّ الْبَصَرِ، فَيُقَرَّبُ بِهَا، فَيَقَالُ لَهُ: أَلَمْكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ اللَّهُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً. فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ صَغِيرَةٍ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟! فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ. قَالَ: فَوُضِعَ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ... الْحَدِيثُ^(٢).

وظَاهِرُ هَذَا أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ.

■ وَهُنَاكَ نُصُوصٌ أُخْرَى تُدَلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْعَامِلُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يُنَازَعُ فِي الْاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَيَقَالُ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ يَعْنِي: قَدَرًا.

وَمِثْلُ مَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْنِي سَوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، جَعَلَتِ الرِّيحُ تُحَرِّكُهُ، فَضَحِكَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسييح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٥٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، وللحافظ حزة الكفائي «جزء البطاقة».

«مِمَّ تَصْحَكُونَ؟». قَالُوا: مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهَمَّا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أَحَدٍ»^(١).

فصار هاهنا ثلاثة أشياء: العمل، والعامل، والصحائف.

فقال بعض العلماء: إنَّ الجمعَ بينها أن يُقال: إنَّ من الناس من يُوزَنُ عمله، ومن الناس من يُوزَنُ صحائف عمله، ومن الناس من يُوزَنُ هو بنفسه.

وقال بعض العلماء: الجمعُ بينها أن يُقال: إنَّ المرادَ بوزن العمل أن العمل يُوزَنُ وهو في الصحائف، ويبقى وزن صاحب العمل، فيكون لبعض الناس.

ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدلُّ على أن الذي يُوزَنُ هو العمل، ويخصُّ بعض الناس، فتوزَنُ صحائف أعماله، أو يُوزَنُ هو نفسه.

وأما ما وردَ في حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة فقد يكون هذا أمراً يخصُّ الله به من يشاء من عباده.

❖ قوله: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [المؤمنون: ١٠٢].

❖ فَمَنْ: مَرَطِيَّةٌ.

وجواب الشرط جملة: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحضر «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»، والجملة الاسمية تُفيد الثبوت والاستمرار.

وجاءت باسم الإشارة الدالَّ على البعد «فَأُولَئِكَ» ولم يقل: فهُمُ الْمُفْلِحُونَ؛ إشارةً إلى علو مرتبتهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٤/١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٤٢٠-٤٢١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٩/٩): «رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني طرقاً.. وأمثلة طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».

وجاءت بِصِفَةِ الْحَضَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمْ﴾ وَهُوَ صَمِيرٌ فَضْلٌ يُفِيدُ الْحَضَرَ وَالتَّوَكِيدَ، وَالْفَضْلُ بَيْنَ الْحَيِّ وَالصِّفَةِ.

والمُفْلِحُ: هُوَ الَّذِي فَازَ بِمَطْلُوبِهِ وَنَجَا مِنْ مَرْهُوبِهِ، فَحَصَلَ لَهُ السَّلَامَةُ بِمَا يَكْرَهُ، وَحَصَلَ لَهُ مَا يُحِبُّ.

والمَرَادُ بِثِقَلِ الْمَوَازِينِ رُجْحَانُ الْحَسَنَاتِ عَلَى السَّيِّئَاتِ.

* وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»: فِيهِ إِشْكَالٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ فَإِنَّ «مَوَازِينَهُ» الصَّمِيرُ فِيهِ مُفْرَدٌ، وَ«فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الصَّمِيرُ فِيهِ جَمْعٌ!!

وَجَوَابُهُ أَنَّ (مَنْ) الشَّرْطِيَّةُ صَالِحَةٌ لِلْإِفْرَادِ وَالْجَمْعِ، فَبِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ يَعُودُ الصَّمِيرُ إِلَيْهَا مُفْرَدًا، وَبِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى يَعُودُ الصَّمِيرُ إِلَيْهَا جَمْعًا.

وَكَلَّمَا جَاءَتْ (مَنْ) فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُعِيدَ الصَّمِيرَ إِلَيْهَا بِالْإِفْرَادِ أَوْ بِالْجَمْعِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فَتَجِدُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا مُرَاعَاةَ اللَّفْظِ، ثُمَّ الْمَعْنَى، ثُمَّ اللَّفْظِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠٣].

وَالْإِشَارَةُ هُنَا لِلْبُعْدِ؛ لَانْحِطَاطِ مَرْتَبَتِهِمْ، لَا لَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: الْكَافِرُ قَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ١٥] بَيْنَمَا الْمُؤْمِنُ الْعَامِلُ لِلصَّالِحَاتِ قَدْ رَجَحَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ وَانْتَفَعَ بِهِ.

فَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ وُجُودِهِمْ فِي الدُّنْيَا سَيِّئًا، بَلْ مَا اسْتَفَادُوا إِلَّا الضَّرَرَ، وَخَسِرُوا أَمْوَالَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّقِعُوا بِهَا، حَتَّى مَا أَعْطَوْهُ لِلخَلْقِ لِيُسْتَفَعَ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿[التوبة: ٥٤].

وَحَسِرُوا أَهْلِيهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي النَّارِ، فَصَاحِبُ النَّارِ لَا يَأْتِسُ بِأَهْلِهِ، بَلْ إِنَّهُ مُغْلَقٌ عَلَيْهِ فِي تَابُوتٍ، وَلَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا.

والمرادُ بخِفَّةِ الموازين: رُجْحَانُ السَّيِّئَاتِ عَلَى الْحَسَنَاتِ، أَوْ فَقْدَانُ الْحَسَنَاتِ بِالْكُلِّيَّةِ، إِنْ قُلْنَا بِأَنَّ الْكُفَّارَ تُوزَنُ أَعْمَالُهُمْ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْثَالِهَا، وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْكُفَّارَ لَا تُوزَنُ أَعْمَالُهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٠١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّانَتْ رَزِيَّتُهُمْ وَلِقَائِهِمْ فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَّا ﴿[الكهف: ١٠٣-١٠٥]. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* الْأَمْرُ السَّادِسُ بِمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَتُنَشَّرُ الدَّوَاوِينُ».

* «تُنَشَّرُ» أَيُّ: تُفَرَّقُ وَتُفْتَحُ لِقَارِئِهَا.

* «الدَّوَاوِينُ»: جَمْعُ دِيْوَانٍ، وَهُوَ السَّجَلُ الَّذِي تُكْتَبُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَمِنْهُ دَوَاوِينُ بَيْتِ الْمَالِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

* قَالَ: «وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ».

يعني: الَّتِي كَتَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا بَلْ نَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ﴿١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٣﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿[الانفطار: ٩-١٢].

فَيُكْتَبُ هَذَا الْعَمَلُ، وَيَكُونُ لَازِمًا لِلْإِنْسَانِ فِي عُنُقِهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿٣٧﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿[الإسراء: ١٣-١٤].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ.

وَالكِتَابَةُ فِي صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ: إِمَّا لِلْحَسَنَاتِ وَإِمَّا لِلْسَيِّئَاتِ، وَالَّذِي يُكْتَبُ مِنَ الْحَسَنَاتِ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ، وَمَا نَوَاهُ، وَمَا هَمَّ بِهِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:
■ فَأَمَّا مَا عَمِلَهُ: فظَاهِرٌ أَنَّهُ يُكْتَبُ.

■ وَأَمَّا مَا نَوَاهُ: فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ، لَكِنْ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ النِّيَّةِ فَقَطْ كَامِلًا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ لَهُ مَالٌ يُنْفِقُهُ فِي سُبُلِ الْحَرِّ، فَقَالَ الرَّجُلُ الْفَقِيرُ: لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فَلَانٍ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَهُوَ بَيْنَتَهُ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»^(١).

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَا سَوَاءً فِي الْأَجْرِ مِنْ حَيْثُ الْعَمَلُ: أَنَّ قُرَاءَةَ الْمُهَاجِرِينَ لَمَّا أَتَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَهْلَ الدُّثُورِ سَبَقُونَا. فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: «تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ...» فَلَمَّا سَمِعَ الْأَغْنِيَاءُ بِذَلِكَ، فَعَلُوا مِثْلَهُ، فَرَجَعَ الْفُقَرَاءُ يَشْكُونَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُمْ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(٢) وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّكُمْ بَيْنَكُمْ أَدْرَكْتُمْ عَمَلَهُمْ.

وَلِأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ، فَرَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ لَا يَكُونُ كَالَّذِي عَمِلَ، لَكِنْ يَكُونُ مِثْلَهُ فِي أَجْرِ النِّيَّةِ فَقَطْ.

■ وَأَمَّا الِهِمُّ: فَيَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَهْمَ بِالشَّيْءِ وَيَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْهُ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِكْمَالِهِ.

فَهَذَا يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ كَامِلًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه بُشِّرَى لَطَلَبَةِ الْعِلْمِ: إِذَا تَوَى الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَ النَّاسَ بِعِلْمِهِ، وَيَذُبَّ عَنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَنْشُرَ دِينَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ لَهُ ذَلِكَ بَأَنْ مَاتَ مَثَلًا وَهُوَ فِي طَلَبِهِ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرٌ مَا تَوَاهُ وَسَعَى إِلَيْهِ.

بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مِنْ عَادِيَةِ الْعَمَلِ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ لَسَبٍ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهُ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(١).

الْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُمْ بِالشَّيْءِ وَيَتْرُكُهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ بِهِ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ لِنَبِيِّهِ. وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ: فَإِنَّهُ يُكْتَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا عَمِلَهُ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ مَا أَرَادَهُ وَسَعَى فِيهِ وَلَكِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ مَا تَوَاهُ وَمَتَّاهُ. فَالأَوَّلُ: وَاضِحٌ.

وَالثَّانِي: يُكْتَبُ عَلَيْهِ كَامِلًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفِهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قَالَ: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٢). وَمِثْلُهُ مَنْ هَمَّ أَنْ يَشْرَبَ الْحَمْرَ، وَلَكِنْ حَصَلَ لَهُ مَانِعٌ، فَهَذَا يُكْتَبُ عَلَيْهِ الْوَرُزُّ كَامِلًا؛ لِأَنَّهُ سَعَى فِيهِ.

وَالثَّالِثُ: الَّذِي تَوَاهُ وَمَتَّاهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ، لَكِنْ بِالنَّبِيِّ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ رَجُلٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَكَانَ يَتَخَبَّطُ فِيهِ، فَقَالَ رَجُلٌ فَقِيرٌ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فَلَانٍ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَهُوَ بَيْنَهُمَا سَوَاءٌ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنباري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٤).

وَلَوْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ تَرَكَهَا، فَهَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

١- إِنْ تَرَكَهَا عَجْزًا: فَهُوَ كَالْعَامِلِ إِذَا سَعَى فِيهَا.

٢- وَإِنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ كَانَ مَأْجُورًا.

٣- وَإِنْ تَرَكَهَا لِأَنْ نَفْسَهُ عَزَفَتْ عَنْهَا، أَوْ لَمْ تَطْرَأْ عَلَى بَالِهِ، فَهَذَا لَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَا أَجْرَ.

وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُجْزِي بِالْحَسَنَاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا مِثْلَ الْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمِنْ كَوْنِ رَحْمَتِهِ سَبَقَتْ غَضَبُهُ.

* قَوْلُهُ: «فَأَخِذْ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ».

«أَخِذْ»: مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: فَمِنْهُمْ آخِذٌ.

وَجَازَ الْإِبْتِدَاءُ بِهِ وَهُوَ نَكِيرَةٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ التَّفْصِيلِ، أَيْ أَنَّ النَّاسَ يَنْقَسِمُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَهَذَا إِمَارَةٌ إِلَى أَنَّ لِلْيَمْنَى الْإِكْرَامَ؛ وَلِذَلِكَ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنُ كِتَابَهُ بِهَا، وَالْكَافِرُ يَأْخُذُ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «وَأَخِذْ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ».

* وَقَوْلُهُ: «أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ».

«أَوْ» لِلتَّنَوُّعِ، وَلَيْسَتْ لِلشَّكِّ.

فَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّ النَّاسَ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: بِالْيَمِينِ، وَبِالشِّمَالِ، وَمِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ.

وَلَكِنِ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْإِخْتِلَافَ اخْتِلَافُ صِفَاتٍ، فَالَّذِي يَأْخُذُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، فَيَأْخُذُ بِالشِّمَالِ، وَتُجْعَلُ يَدُهُ مِنَ الْخَلْفِ، فَكَوْنُهُ يَأْخُذُهُ بِالشِّمَالِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشِّمَالِ، وَكَوْنُهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا اسْتَدْبَرَ كِتَابَ اللَّهِ، وَوَلَّى ظَهْرَهُ إِيَّاهُ فِي الدُّنْيَا صَارَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُجْعَلَ كِتَابُ أَعْمَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَعَلَى هَذَا تُخْلَعُ الْيَدُ

الشَّاهِدُ حَتَّى تَكُونَ مِنَ الْخَلْفِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

* قَوْلُهُ: «كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِرَهُ فِي عُنُقِهِ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

* «﴿طَلِرَهُ﴾»: أَي: عَمَلُهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَشَاءَمُ بِهِ أَوْ يَتَفَاعَلُ بِهِ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَطِيرُ بِهِ فَيَعْلُو أَوْ يَطِيرُ بِهِ فَيَنْزِلُ.

* «﴿فِي عُنُقِهِ﴾»: أَي: رَقَبَتِهِ، وَهَذَا أَقْوَى مَا يَكُونُ تَعَلُّقًا بِالْإِنْسَانِ؛ حَيْثُ يُرْبَطُ فِي الْعُنُقِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْفَصِلَ إِلَّا إِذَا هَلَكَ الْإِنْسَانُ، فَهَذَا يُلْزَمُ عَمَلَهُ.

وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أَي: مَفْتُوحًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَبٍ وَلَا إِلَى مَشَقَّةٍ فِي فَتْحِهِ.

* وَيُقَالُ لَهُ: ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ﴾ وَانْظُرْ مَا كُتِبَ عَلَيْكَ فِيهِ.

* «﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾»: وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، أَنْ يُوَكَّلَ الْحِسَابُ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

وَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ لَا بُدَّ أَنْ يَنْظُرَ مَاذَا كُتِبَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي سَوْفَ يَجِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا.

وَلَكِنْ نَحْنُ أَمَامَنَا بَابٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَفْضِيَ عَلَى كُلِّ السَّيِّئَاتِ، وَهُوَ التَّوْبَةُ، وَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ -مَهْمَا عَظُمَ ذَنْبُهُ- فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، وَحَتَّى لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِنْهُ، وَهُوَ يَتُوبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، فَمَا دَامَ الْأَمْرُ بِأَيْدِينَا الْآنَ فَعَلَيْنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَى أَنْ لَا يُكْتَبَ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

* الْأَمْرُ السَّابِعُ بِمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَيُحَاسِبُ اللهُ الْخَلَائِقَ».

الْمَحَاسِبَةُ: اِطَّلَاعُ الْعِبَادِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقد دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْعَقْلُ:

■ أَمَّا الْكِتَابُ: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِمِيزَانٍ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۚ وَنُفِثَ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٠ وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصَلَ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

■ وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَةَ أَحَادِيثَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ.

■ وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَإِنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ.

■ وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَوَاضِحٌ؛ لِأَنَّا كُلُّنَا بَعْمَلٍ، فِعْلًا وَتَرْكًا وَتَصَدِيقًا، وَالْعَقْلُ وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِيَانِ أَنَّ مَنْ كُلَّفَ بَعْمَلٍ فَإِنَّهُ يُحَاسَبُ عَلَيْهِ وَيُنَاقَشُ فِيهِ.

وَقَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «الْخَلَائِقُ»: جَمْعُ خَلِيقَةٍ، يَشْمَلُ كُلَّ مَخْلُوقٍ.

إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ مَنْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى أُمَّتَهُ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَطْطِيرُونَ، وَعَلَى رِجْلِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(١).

وقد رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: أَنَّ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/١) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٠/١٠): «رواه أحمد، وأبو يعلى، وفيها المسعودي وقد اختلط وتابعه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». وأخرجه الإمام أحمد أيضا (١٩٧/١) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤١٠/١٠-٤١١): «رواه أحمد والبزار بنحوه، والطبراني بنحوه، وفي أسانيدهم القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد، وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، ذكره ابن حبان في «الثقات» والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في «الميزان» وأنه لم يرو عنه إلا سليم بن عمرو النخعي، وليس كذلك، فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان، وباقي إسناده محتج بهم في الصحيح».

فَنَضْرِبُ سَبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا، وَيُزَادُ سَبْعُونَ أَلْفًا. هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلاَ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

وَقَوْلُهُ: «الْخَلَائِقُ»: يَشْمَلُ أَيْضًا الْجِنَّ؛ لِأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ؛ وَلِهَذَا يَدْخُلُ كَافِرُهُمُ النَّارَ بِالنَّصِّ وَالِإِجْمَاعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وَيَدْخُلُ مُؤْمِنُهُمُ الْجَنَّةَ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٦].

وَهَلْ تَشْمَلُ الْمُحَاسِبَةُ الْبَهَائِمَ؟!

أَمَّا الْقِصَاصُ: فَيَشْمَلُ الْبَهَائِمَ؛ لِأَنَّهُ تَبَتَّ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّهُ يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ»^(١)، وَهَذَا قِصَاصٌ، لَكِنَّهَا لَا تُحَاسَبُ حِسَابَ تَكْلِيفٍ وَالزَّامِ؛ لِأَنَّ الْبَهَائِمَ لَيْسَ لَهَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ.

* قَوْلُهُ: «وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ»:

هَذَا صِفَةُ حِسَابِ الْمُؤْمِنِ:

يَخْلُو بِهِ اللَّهُ عَزَّجَلْ دُونَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ أَيُّ يَقُولُ لَهُ: عَمِلْتَ كَذَا، وَعَمِلْتَ كَذَا... حَتَّى يُقَرَّ وَيَعْتَرَفَ، ثُمَّ يَقُولُ: «سَرَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٢).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَضَعُ عَلَيْهِ سِتْرَهُ، بَحِيثٌ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلْ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَرَرَكَ بِجِنَايَاتِكَ أَمَامَ النَّاسِ -وإن سَمَحَ عَنْكَ- فَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْفَضِيحَةِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ وَحْدَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرٌّ مِنْهُ عَلَيْكَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم:

كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* قَوْلُهُ: «كَمَا وَصَفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

«ذَلِكَ»: المشارُ إِلَيْهِ الْحِسَابُ، يَعْنِي: كَمَا وَصَفَ الْحِسَابُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الْمُتَوَقَّفَةِ عَلَى الْخَبَرِ الْمَحْضِ، فَوَجَبَ الرُّجُوعُ فِيهِ إِلَى مَا وَصَفَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مَن تُوَزَّنَ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتٍ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ فَتُحْصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُخْرَجُونَ بِهَا».

هَكَذَا جَاءَ مَعْنَاهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَما ذَكَرَ حِسَابَ اللَّهِ تَعَالَى لَعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَأَنَّهُ يَخْلُو بِهِ، وَيُقَرَّرُهُ بِذُنُوبِهِ. قَالَ: «وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَنَادِي بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَى الْعَبْدُ -أَيُّ: يَلْقَى اللَّهُ الْعَبْدَ، يَعْنِي: الْمُنَافِقَ- فَيَقُولُ: يَا فُلَّ -أَيُّ: يَا فُلَانٌ- أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأَسْوَدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَحَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟! فَيَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَانِي؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَسْأَلُهُ فَيُجِيبُ كَمَا أَجَابَ الْأَوَّلَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَهُنَا إِذْنٌ. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ مَن ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لَفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَن نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْحَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٢).

تَنْبِيْهُ: فِي قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُحَاسَبَةً مَن تُوَزَّنَ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ...» إلخ، إِشَارَةٌ إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رَقْمُ (٢٤٤١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، رَقْمُ (٢٧٦٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) صَحِيحُ مُسْلِمٍ: كِتَابُ الزَّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، رَقْمُ (٢٩٦٨).

أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحَاسَبَةِ الْمَنْفِيَّةِ عَنْهُمْ هِيَ مُحَاسَبَةُ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَأَمَّا مُحَاسَبَةُ التَّقْرِيرِ وَالتَّقْرِيعِ فَثَابِتَةٌ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَالثَّابِتَةُ: أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ الدِّمَاءُ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، وَالدِّمَاءُ أَعْظَمُ مَا يُعْتَدَى بِهِ فِي حُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ. * الْأَمْرُ الثَّامِنُ مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمُرْزُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ».

* «الْعَرَصَاتُ»: جَمْعُ عَرَصَةٍ، وَهِيَ الْمَكَانُ الْمُتَسِعُ بَيْنَ الْبُنْيَانِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا مَوَاقِفُ الْقِيَامَةِ.

وَالْحَوْضُ فِي الْأَصْلِ: مَجْمَعُ الْمَاءِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: حَوْضُ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالْكَلَامُ عَلَى الْحَوْضِ مِنْ عِدَّةِ وُجُوهِ:

أَوَّلًا: هَذَا الْحَوْضُ مَوْجُودٌ الْآنَ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: «وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ»^(١).

وَأَيْضًا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَنْ يَرَى عَلَى حَوْضِي»^(٢).

وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنَّهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ، لَكِنْ لَا نُشَاهِدُهُ؛ لِأَنَّهُ غَيْبِيٌّ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمِنْبَرَ يُوضَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْحَوْضِ.

ثَانِيًا: هَذَا الْحَوْضُ يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْكَوْثَرِ، وَهُوَ النَّهْرُ الْعَظِيمُ، الَّذِي أُعْطِيَهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ، يُنْزَلُ إِلَى هَذَا الْحَوْضِ^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٩٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٦)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، رقم (١٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) لما أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٣٠٠) و (٢٣٠١)، من حديث أبي ذر وثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثالثاً: زَمَنُ الْحَوْضِ قَبْلَ الْعُبُورِ عَلَى الصَّرَاطِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي ذَلِكَ؛ حَيْثُ إِنَّ النَّاسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الشَّرْبِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ قَبْلَ عُبُورِ الصَّرَاطِ^(١).

رابعاً: يَرِدُ هَذَا الْحَوْضُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، الْمُتَّبِعُونَ لِشَرِيعَتِهِ، وَأَمَّا مَنْ اسْتَكْفَ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّهُ يُطْرَدُ مِنْهُ^(٢).

خامساً: فِي كَيْفِيَّةِ مَائِهِ: فَيَقُولُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«مَائُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ هَذَا فِي اللَّوْنِ.

أَمَّا فِي الطَّعْمِ فَقَالَ:

«وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ».

وَفِي الرَّائِحَةِ: أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، كَمَا ثَبَتَ بِهِ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣).

سادساً: فِي آيَتِهِ: يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ:

«آيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ».

هَذَا كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ، وَفِي بَعْضِهَا: «آيَتُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ» وَهَذَا اللَّفْظُ أَشْمَلٌ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ كَالنُّجُومِ فِي الْعَدَدِ وَفِي الْوَصْفِ بِالنُّورِ وَاللَّمَعَانِ، فَآيَتُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ كَثْرَةً وَإِضَاءَةً.

(١) لما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على المسند (١٣/٤-١٤) في الحديث الطويل عن أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الحافظ في الفتح (١١/٤٦٧) بعد أن عزاه لابن أبي عاصم في «السنن» والطبراني والحاكم قال: «وهو صريح في أن الحوض قبل الصراط».

(٢) ثبت ذلك في «صحيح البخاري»: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٧٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «أَنَا قَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلِيرْفَعَنَّ رِجَالُكُمْ ثُمَّ لِيُخْتَلَجَنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سابعاً: أَنَارَ هَذَا الْحَوْضُ: قَالَ الْمُؤَلَّفُ:

«مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَداً».

حَتَّى عَلَى الصَّرَاطِ وَبَعْدَهُ، وَهَذِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَشْرَبُ مِنَ الشَّرِيعَةِ فِي الدُّنْيَا لَا يَجْسُرُ أَبَداً كَذَلِكَ.

ثامناً: مِسَاحَةُ هَذَا الْحَوْضِ: يَقُولُ الْمُؤَلَّفُ:

«طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ».

هَذَا إِذَنْ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَدَوَّرًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِهَذِهِ الْمِسَاحَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَّا إِذَا كَانَ مَدَوَّرًا، وَهَذِهِ الْمَسَافَةُ بِاعْتِبَارِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ سَيْرِ الْإِبِلِ الْمُعْتَادِ.

تاسعاً: هَلْ لِلْأَنْبِيَاءِ الْآخَرِينَ أَحْوَاضٌ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ؛ فَإِنَّهُ جَاءَ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ -وإن كَانَ فِيهِ مَقَالٌ-: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا»^(١).

لَكِنْ هَذَا يُؤَيِّدُهُ الْمَعْنَى، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَمَا جَعَلَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ حَوْضًا يَرِدُّهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا؛ حَتَّى يَنْتَفِعَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، لَكِنْ الْحَوْضُ الْأَعْظَمُ هُوَ حَوْضُ النَّبِيِّ ﷺ.

* الْأَمْرُ التَّاسِعُ مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الصَّرَاطُ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَالصَّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْحِجْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ».

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي كَيْفِيَّتِهِ:

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة الحوض، رقم (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنن» رقم (٧٣٤)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث أورده الهيثمي في «المجمع» (٣٦٣/١٠) بلفظ آخر، وقال: رواه الطبراني وفيه مروان بن جعفر السمرى، وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وبقي رجاله ثقات. وقال الألباني في «الصحيح» (١٥٨٩): وجملته القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم. وانظر: «فتح الباري» (١١/٤٦٧).

■ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: طَرِيقٌ وَاسِعٌ يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ الصِّرَاطِ مَذْلُومُهَا اللَّغْوِيُّ هُوَ هَذَا؛ وَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ بَأَنَّهُ دَحْضٌ وَمِرْلَةٌ^(١) وَالِدَحْضُ وَالْمِرْلَةُ لَا يَكُونَانِ إِلَّا فِي طَرِيقٍ وَاسِعٍ، أَمَّا الصَّيْقُ فَلَا يَكُونُ دَحْضًا وَمِرْلَةً.

■ وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: بَلْ هُوَ صِرَاطٌ دَقِيقٌ جَدًّا، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِلَاغًا^(٢) أَنَّهُ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ.

عَلَى هَذَا يَرِدُ سَوَالٌ وَهُوَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ الْعُبُورُ عَلَى طَرِيقِ كَهَذَا؟
وَالْجَوَابُ: أَنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا، فَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا نَدْرِي كَيْفَ يَعْبُرُونَ! هَلْ يَجْتَمِعُونَ جَمِيعًا فِي هَذَا الطَّرِيقِ، أَوْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ؟
وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ لَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ يَجِزُّ بِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّيْهَمَا لَهُ وَجْهَةٌ قَوِيَّةٌ.
* وَقَوْلُهُ: «مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ» يَعْنِي: عَلَى نَفْسِ النَّارِ.



* قَوْلُهُ: «يَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمَحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ خُطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْحِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ»^(٣).

* قَوْلُهُ: «يَمُرُّ النَّاسُ»: الْمُرَادُ بِ«النَّاسِ» هُنَا: الْمُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُهَيِّذُ نَاصِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (٣٠٢ / ١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال: وبلغني أن الحسر أدق من الشعرة وأحد من السيف.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُهَيِّذُ نَاصِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمَحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ - وَلَمَحَ الْبَصَرِ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ - وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، أَيْ: الْهَوَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْهَوَاءَ سَرِيعٌ، لَا سَيِّئًا قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ الطَّائِرَاتِ، وَالْهَوَاءُ الْمَعْرُوفُ يَصِلُ أَحْيَانًا إِلَى مِثَّةِ وَأَرْبَعِينَ مِيلًا فِي السَّاعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كِرْكَابِ الْإِبِلِ، وَهِيَ دُونَ الْفَرَسِ الْجَوَادِ بكَثِيرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، أَيْ: يُسْرِعُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْحَفُ رَحْفًا، أَيْ: يَمْشِي عَلَى مَقْعَدَتِهِ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يُرِيدُ الْعُبُورَ.

وهذا بغير اختيار الإنسان، ولو كان باختياره لكان يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بِسُرْعَةٍ، وَلَكِنْ السَّيْرُ عَلَى حَسَبِ سُرْعَتِهِ فِي قَبُولِ الشَّرِيعَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَ سَرِيعًا فِي قَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كَانَ سَرِيعًا فِي عُبُورِ الصِّرَاطِ، وَمَنْ كَانَ بَطِيئًا فِي ذَلِكَ كَانَ بَطِيئًا فِي عُبُورِ الصِّرَاطِ، جَزَاءً وَفَاقًا، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

* وَقَوْلُهُ: «وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ» أَيْ: يُؤْخَذُ بِسُرْعَةٍ، وَذَلِكَ بِالْكَلَالِيْبِ الَّتِي عَلَى الْحِيسْرِ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ.

* «وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ»: يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ النَّارَ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الْعَصَاةُ هِيَ النَّارُ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الْكُفَّارُ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ بِالْعَذَابِ كَعَذَابِ الْكُفَّارِ، بَلْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهَا تَكُونُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِمْ كَمَا كَانَتِ النَّارُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَلَكِنْ الظَّاهِرُ خِلَافَ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا تَكُونُ حَارَّةً مُؤَلِّمَةً، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ كَحَرَارَتِهَا بِالنَّسَبَةِ لِلْكَافِرِينَ.

ثُمَّ إِنَّ أَعْضَاءَ السُّجُودِ لَا تَمْسُهَا النَّارُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) ^(١) وَهِيَ الْجَبْهَةُ وَالْأَنْفُ وَالْكَفَّانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَأَطْرَافُ الْقَدَمَيْنِ.

* قَوْلُهُ: «فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

أَيْ: لِأَنَّهُ نَجَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَبُورٌ يُؤْمَرُ تَأْتِيهِ الرُّسُلُ﴾، رقم (٧٤٣٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ، وَتَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ».

* «القَنْطَرَةُ»: هِيَ الْجِسْرُ، لَكِنَّهَا جِسْرٌ صَغِيرٌ، وَالْجِسْرُ فِي الْأَصْلِ مَرٌّ عَلَى الْمَاءِ مِنْ تَهَرٍ وَنَحْوِهِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْقَنْطَرَةِ: هَلْ هِيَ طَرَفُ الْجِسْرِ الَّذِي عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَوْ هِيَ جِسْرٌ مُسْتَقِلٌّ؟!

وَالصَّوَابُ فِي هَذَا أَنْ نَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَيْسَ يَغْنِينَا شَأْنُهَا، لَكِنْ الَّذِي يَغْنِينَا أَنَّ النَّاسَ يُوقِفُونَ عَلَيْهَا.

* قَوْلُهُ: «فَيَقْتَصِّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ».

وَهَذَا الْقِصَاصُ غَيْرُ الْقِصَاصِ الْأَوَّلِ الَّذِي فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا قِصَاصٌ أَخْصَصْ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَذْهَبَ الْغُلُّ وَالْحِقْدُ وَالْبَغْضَاءُ الَّتِي فِي قُلُوبِ النَّاسِ، فَيَكُونُ هَذَا بِمَنْزِلَةِ التَّنْفِيَةِ وَالتَّطْهِيرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا فِي الْقُلُوبِ لَا يَزُولُ بِمُجَرَّدِ الْقِصَاصِ.

فَهَذِهِ الْقَنْطَرَةُ الَّتِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِأَجْلِ تَنْفِيَةِ مَا فِي الْقُلُوبِ؛ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾

[الحجر: ٤٧].

* قَوْلُهُ: «فَإِذَا هُذِّبُوا وَتَقَفُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

إِذَا هُذِّبُوا بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَتَقَفُوا مِنْهَا، فَإِنَّهُ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ فَلَا يَجِدُونَ الْبَابَ مَفْتُوحًا، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَشْفَعُ إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ الْجَنَّةِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي أَقْسَامِ الشَّفَاعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

* الْأَمْرُ الْعَاشِرُ مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: دُخُولُ الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٥).

«وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ».

ودليله ما ثبت في (صحيح مسلم) أن النبي ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»، وفي لفظ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ»^(١)، وفي لفظ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاسْتَفْتِحَ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ»^(٢).

وقوله ﷺ: «فَاسْتَفْتِحْ» أي: أطلب فتح الباب.

وهذا من نعمة الله على محمد ﷺ؛ فإن الشفاعة الأولى التي يشفعها في عرصات القيامة لإزالة الكرب والهموم والغموم، والشفاعة الثانية لتبيل الأفراح والشُرور، فيكون شافعاً للخلق عليه الصلاة والسلام في دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم.

ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن ذلك ثبت في السنة كما سبق، وأشار إليه الله عز وجل بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] فإنه لم يقل: حتى إذا جاؤوها ففتح! وفيه إشارة إلى أن هناك شيئاً قبل الفتح، وهو الشفاعة. أما أهل النار فقال فيهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتُحْتُ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]؛ لأنهم يأتونها مهينة فتبغثهم، نعوذ بالله منها.

* قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَّمِ أُمَّتُهُ».

هذا حق ثابت، دليله ما ثبت في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٣)، وَقَالَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة»، رقم (١٩٦)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة»، رقم (١٩٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٢٠/٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وهذا يَشْمَلُ كُلَّ مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ، وانظر «حَادِي الْأَزْوَاحِ» لابن القيم.
* تَبَيَّنَ:

أَبْوَابُ الْجَنَّةِ لَمْ يَذْكُرْهَا الْمُؤَلِّفُ، لَكِنَّهَا مَعْرُوفَةٌ أَتَمَّا ثَمَانِيَّةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَتَوْهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَمَنُ تَوَضَّأَ وَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ وَتَشْهَدُ: «إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٢).

وهذه الأبواب كانت ثمانية بحسب الأعمال؛ لأنَّ كُلَّ بَابٍ لَهُ عَمَلٌ، فَأَهْلُ الصَّلَاةِ يُنَادُونَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَأَهْلُ الصَّدَقَةِ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَأَهْلُ الْجِهَادِ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَأَهْلُ الصِّيَامِ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ.

وقد يُوَفِّقُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بَعْضَ النَّاسِ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ شَامِلَةٍ، فَيُدْعَى مِنْ جَمِيعِ الْأَبْوَابِ، كَمَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا خَيْرٌ...»^(٣) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وفيه: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضُرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

فإن قلت: إذا كانت الأبواب بحسب الأعمال لَزِمَ أَنْ يُدْعَى كُلُّ أَحَدٍ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْأَبْوَابِ إِذَا عَمِلَ بِأَعْمَالِهَا، فَمَا هُوَ الْجَوَابُ؟

فالجواب: أَنْ يُقَالَ: يُدْعَى مِنَ الْبَابِ الْمُعَيَّنِ مَنْ كَانَ يُكْثِرُ مِنَ الْعَمَلِ الْمُخَصَّصِ لَهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عقبه بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

مثلاً: إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، فَيُذْعَى مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ. كَثِيرَ الصَّيَامِ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ تَحْصُلُ لَهُ الْكَثْرَةُ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ؛ لِأَنَّكَ تَجِدُ فِي نَفْسِكَ بَعْضَ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ وَأَنْشَطَ مِنْ بَعْضٍ، لَكِنْ قَدْ يَمُنُّ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَيَكُونُ نَشِيطاً قَوِيّاً فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، كَمَا سَبَقَ فِي قِصَّةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



* الْأَمْرُ الْحَادِي عَشَرَ يَمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الشَّفَاعَةُ، وَقَدْ ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَلَهُ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ».

* «لَهُ»: الضَّمِيرُ يَعُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

* وَالشَّفَاعَاتُ: جَمْعُ شَفَاعَةٍ، وَالشَّفَاعَةُ فِي اللُّغَةِ: جَعَلَ الشَّيْءَ شَفْعًا. وَفِي الْأَصْطِلَاحِ: التَّوَسُّطُ لِلغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، وَمُنَاسَبَتُهَا لِلِاشْتِقَاقِ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا تَوَسَّطْتَ لَهُ صِرْتَ مَعَهُ شَفْعًا تَشْفَعُهُ.

وَالشَّفَاعَةُ تُنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: شَفَاعَةِ بَاطِلَةٍ، وَشَفَاعَةِ صَحِيحَةٍ.

■ فَالشَّفَاعَةُ الْبَاطِلَةُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمَشْرُكُونَ فِي أَصْنَائِهِمْ؛ حَيْثُ يَعْبُدُونَهُمْ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

لَكِنْ هَذِهِ الشَّفَاعَةُ بَاطِلَةٌ لَا تَنْفَعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

■ وَالشَّفَاعَةُ الصَّحِيحَةُ مَا جَمَعَتْ شُرُوطًا ثَلَاثَةً:

الْأَوَّلُ: رِضَا اللَّهِ عَنِ الشَّافِعِ.

الثَّانِي: رِضَاهُ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، لَكِنْ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى فِي الْمَوْقِفِ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَرْضَ عَنْهُمْ.

الثَّالِثُ: إِذْنُهُ فِي الشَّفَاعَةِ.

وَالْإِذْنَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الرِّضَا عَنِ الشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، ولم يقل: عَنِ الشَّافِعِ، وَلَا: الْمَشْفُوعَ لَهُ؛ لِيَكُونَ أَشْمَلًا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالآية الأولى تَضَمَّنَتْ الشُّرُوطَ الثَّلَاثَةَ، والثانية تَضَمَّنَتْ شَرْطَيْنِ، والثالثة تَضَمَّنَتْ شَرْطًا وَاحِدًا.

فَلِلنَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

١- الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى.

٢- وَالشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لِيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

٣- وَالشَّفَاعَةُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدْخُلَهَا، وَفِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا.



* قَالَ الْمُؤَلِّفُ مُبَيَّنًا هَذِهِ الثَّلَاثَ:

«أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ؛ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الْأَنْبِيَاءُ: آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ».

* قَوْلُهُ: «حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ»: (حَتَّى) هَذِهِ تَعْلِيلِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ غَائِيَّةٌ؛ لِأَنَّ شَفَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ تَنْتَهِي إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ إِذَا شَفَعَ نَزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِلْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَقَضَى بَيْنَهُمْ.

وَنُظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾: لِلتَّعْلِيلِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْفَضُوا، وَلَيْسَتْ لِلْغَايَةِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَفْسَدُ بِذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: «بَعْدَ أَنْ يَتَرَجَعَ الْأَنْبِيَاءُ آدَمَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ»: أَيُّ: يَرُدُّهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى الْآخَرِ.

شَرَحَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ فِيهِ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَفْقَهُهُمْ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيُلْغِ النَّاسُ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ! فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ!

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ! إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ!

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَإِنِّي قَدْ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى!

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤَمَرْ بِقَتْلِهَا، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى!

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «ذُرِّيَّةٌ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ»، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الأرض منزلة فيها، رقم (١٩٤).

مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا. اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ! وَكُلُّهُمْ يَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ: نَفْسِي نَفْسِي!

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ...» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

وَالْكَذِبَاتُ الثَّلَاثُ الَّتِي ذَكَرَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَرَتْ بِهَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ؛ اثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَذَكَرَ قَوْلَهُ عَنْ أَمْرَاتِهِ سَارَةً: إِنَّهَا أُخْتِي.

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ السَّابِقِ أَنَّ الثَّلَاثَةَ قَوْلُهُ فِي الْكُوكَبِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وَلَمْ يَذْكُرْ قِصَّةَ سَارَةٍ.

لَكِنْ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي (الْفَتْحِ) ^(١): «الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا وَهُمْ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ وَعِلَلٌ لَذَلِكَ. وَإِنَّمَا سَمَّى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ كَذِبَاتٍ؛ تَوَاضَعًا مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا بِحَسَبِ مُرَادِهِ صِدْقٌ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ، فِيهِ مِنْ بَابِ التَّوْرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* قَوْلُهُ: «حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ» أَيُّ: إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَسَبَقَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى لَا تَكُونُ لِأَحَدٍ أَبَدًا إِلَّا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهِيَ أَعْظَمُ الشَّفَاعَاتِ؛ لِأَنَّ فِيهَا إِرَاحَةَ النَّاسِ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ وَالْكَرْبِ وَالْغَمِّ.

وهؤلاء الرُّسُلُ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ كُلُّهُمْ مِنْ أُولِي الْعِزِّ، وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ: فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَفِي سُورَةِ الشُّورَى.

أَمَّا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وَأَمَّا فِي سُورَةِ الشُّورَى فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣].

تَنْبِيْهُ: قَوْلُهُ: «الْأَنْبِيَاءُ: آدَمُ وَنُوحٌ...» إِلَى آخِرِهِ: جَزَمَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّ آدَمَ نَبِيٌّ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرْعِ أَمْرِهِ وَنَهَاهُ.

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ) ^(١): أَنَّ أَبَا ذَرٍّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: هَلْ كَانَ آدَمُ نَبِيًّا؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فَيَكُونُ آدَمُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْحَى إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا أَوَّلُ الرُّسُلِ فَنُوحٌ، كَمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَّةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ».

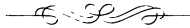
وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَفَقُوا عَلَى قَطْرَةٍ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَهَذَا الْقِصَاصُ غَيْرُ الْقِصَاصِ الَّذِي كَانَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، بَلْ هُوَ قِصَاصٌ أَخْصَصَ يُطَهَّرُ اللَّهُ فِيهِ الْقُلُوبَ، وَيُزِيلُ مَا فِيهَا مِنْ أَحْقَادٍ وَضَغَائِنَ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

(١) صحيح ابن حبان رقم (٣٦١). والحديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٨/٥ - ١٧٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٦٠): رواه أحمد والبخاري والطبراني في «الأوسط» بنحوه.

ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة لا يجدونها مفتوحة كما يجد ذلك أهل النار، فلا تفتح الأبواب حتى يشفع النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها، فيدخل كل إنسان من باب العمل الذي يكون أكثر اجتهداً فيه من غيره، وإلا فإن المسلم قد يدعى من كل الأبواب.

وهذه الشفاعة تُشير إليها القرآن؛ لأن الله قال في أهل الجنة: ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا وَقِيحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وهذا يدل أن هناك شيئاً بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب.

وهو صريح فيما رواه مسلم^(١) عن حذيفة وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا! اسْتَفْتَحْ لَنَا الْجَنَّةَ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُومُ، فَيُؤَذِّنُ لَهُ...» الْحَدِيثَ.



* قَوْلُهُ: «وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ».

يعني: الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، والشفاعة في دخول الجنة.

* «خَاصَّتَانِ لَهُ» أي: للنبي محمد ﷺ؛ ولذلك يعتذر عنهما آدم وأولو العزم من الرسل.

وهناك أيضاً شفاعة نالته خاصة بالنبي ﷺ، لا تكون لغيره، وهي الشفاعة في عمه أبي طالب.

وأبو طالب -كما في (الصحيحين) وغيرهما- مات على الكفر^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٥).

(٢) لما أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما حضرت أبا طالب الوفاة... فذكر الحديث... حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله».

فَأَعْمَاهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشْرَةً، أَدْرَكَ الْإِسْلَامُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةً، فَبَقِيَ اثْنَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَأُسْلِمَ اثْنَانِ:

فَالْكَافِرَانِ هُمَا:

أَبُو لَهَبٍ: وَقَدْ أَسَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِسَاءَةً عَظِيمَةً، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَفِي أَمْرَاتِهِ حَمَالَةَ الْحَطَبِ سُورَةً كَامِلَةً فِي ذَمِّهِمَا وَوَعِيدِهِمَا.

وَالثَّانِي: أَبُو طَالِبٍ، وَقَدْ أَحْسَنَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِحْسَانًا كَبِيرًا مَشْهُورًا، وَكَانَ مِنْ حُكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا كُفْرُهُ مَا حَصَلَ هَذَا الدَّفَاعُ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ كَانَ يُؤَذَى كَمَا يُؤَذَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنْ بِجَاهِهِ الْعَظِيمِ عِنْدَ قُرَيْشٍ وَبِقَائِهِ عَلَى دِينِهِمْ صَارُوا يُعْظِمُونَهُ، وَصَارَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَانِبٌ مِنَ الْحِمَايَةِ بِذَلِكَ.

وَاللَّذَانِ أَسْلَمَا هُمَا الْعَبَّاسُ، وَحَمْزُهُ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَبَّاسِ، حَتَّى لَقَّبَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَسَدَ اللَّهِ، وَقُتِلَ شَهِيدًا فِي أَحَدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ: سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ^(١).

فَأَبُو طَالِبٍ أَذِنَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، مَعَ أَنَّهُ كَافِرٌ، فَيَكُونُ هَذَا تَخْصُوصًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وَلَكِنَّهَا شَفَاعَةٌ لَمْ تُخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، بَلْ كَانَ فِي ضَخْصَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَغَبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ، قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(٢)، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَجْلِ شَخْصِيَّةِ أَبِي طَالِبٍ، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ مَا حَصَلَ مِنْ دِفَاعِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ.



(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٣/ ١٩٥)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَزَاهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (٩/ ٢٦٨) لِلطَّبْرَانِيِّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَالْحَدِيثُ أوردته الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٧٤).
(٢) لَمْ أَخْرَجْهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَنْاقِبِ الْأَنْصَارِ، بَابُ قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ، رَقْمُ (٣٨٨٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ، رَقْمُ (٢٠٩)، مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيْمَنِ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ» أَي: مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذِهِ لَهَا صُورَتَانِ: يَشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَفِيْمَنِ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا.

■ أَمَّا فِيْمَنِ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا: فَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا، بَلْ مُتَوَاتِرَةٌ.

■ وَأَمَّا فِيْمَنِ اسْتَحَقَّهَا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا: فَهَذِهِ قَدْ تَسْتَفَادُ مِنْ دُعَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْغُفْرَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى جَنَائِزِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْ لَزِمِ ذَلِكَ أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْزُقْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ...» الْحَدِيثُ ^(١).

لَكِنْ هَذِهِ شَفَاعَةٌ فِي الدُّنْيَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» ^(٢).

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ يُنْكِرُهَا مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ طَائِفَتَانِ: الْمُعْتَزِلَةُ وَالْحَوَارِجُ؛ لِأَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَالْحَوَارِجَ مَذْهَبُهُمَا فِي فَاعِلِ الْكَبِيرَةِ أَنَّهُ مُخْلَدٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَرَوْنَ مَنْ رَزَى كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، لَا تَنْفَعُهُ الشَّفَاعَةُ، وَلَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِأَحَدٍ بِالشَّفَاعَةِ لَهُ.

وَقَوْلُهُمْ مَرْدُودٌ بِمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: «وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيْمَنِ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا» يَعْنِي: أَنَّهَا لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالنَّبِيِّ ﷺ،

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِي إِغْمَاضِ الْمَيِّتِ، رَقْمُ (٩٢٠)، مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَازَةِ، بَابُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ شَفَعُوا فِيهِ، رَقْمُ (٩٤٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَلْ تَكُونُ لِلنَّبِيِّينَ؛ حَيْثُ يَشْفَعُونَ فِي عَصَاةِ قَوْمِهِمْ. وَلِلصَّادِقِينَ يَشْفَعُونَ فِي عَصَاةِ أَقَارِبِهِمْ
وَعَبِيدِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَلِكَ تَكُونُ لغيرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، حَتَّى يَشْفَعَ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ
وَفِي جِيرَانِهِ، وَفِيَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: «وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ يَفْضِلُهُ وَرَحْمَتِهِ».

يعني: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، وَهَذَا مِنْ نِعْمَتِهِ؛ فَإِنَّ
رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، فَيَشْفَعُ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَغَيْرُهُمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا رَحْمَةُ
أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ يُخْرِجُ بِدُونِ شَفَاعَةٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا أَهْلُهَا الَّذِينَ
هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ.

فَقَدْ رَوَى الشَّيْخَانِ -الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ- مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:
«أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حَمًّا...»
الحديث^(١).

* الْأَمْرُ الثَّانِي عَشَرَ بِمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا».

الْجَنَّةُ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا، وَلَكِنْ لَا تَمْتَلِئُ.

وَقَدْ تَكْفَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِلْوُهَا:

■ «فَالنَّارُ لَا تَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَلَا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ
عَلَيْهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَبُيُوتُهُمْ ثَاغِيرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان،
باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

■ وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَيُنشِئُ لَهَا أَقْوَامًا، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) ^(١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا يَرَوِيهِ عَنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ^(٢).

ولهذا قَالَ الْمُؤَلَّفُ: «فَيُنشِئُ اللَّهُ لَهَا أَقْوَامًا، فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ».

* قَوْلُهُ: «وَأَصْنَافٌ مَا تَصَمَّنْتُهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ».

الأصناف: الأنواع.

وسَبَقَ مَعْنَى الْحِسَابِ.

* «وَالثَّوَابُ»: جَزَاءُ الْحَسَنَاتِ، الْحَسَنَةُ بَعْسَرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

* «وَالْعِقَابُ»: جَزَاءُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

* قَوْلُهُ: «وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ».

«الْجَنَّةُ»: هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَفِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، أَيْ: لَا تَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ وَكُنْهَهُ.

وَالْجَنَّةُ مُوجُودَةٌ الْآنَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُتَوَاتِرَةٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعَزُّبُزُّ الْحَكِيمُ﴾، رقم (٧٣٨٤)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى أَلَمَاءٍ﴾، رقم (٧٤٢٢)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا تَرَأَلْ بَاقِيَةً أَبَدَ الْآبِدِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَنِيَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَأَمَّا «النَّارُ» فَهِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَعْدَائِهِ، وَفِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ مَا لَا يُطَاقُ.

وَهِيَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفِيزَةٌ مَشْهُورَةٌ.

وَأَهْلُهَا خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا] [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ خُلُودَهُمْ أَبَدًا فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، هَذِهِ أَحَدُهَا، وَالثَّانِيَةُ فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ، وَالثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ الْجَنِّ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّ النَّارَ لَا تَرَأَلْ بَاقِيَةً أَبَدَ الْآبِدِينَ.



﴿قَوْلُهُ: «وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ».

يَعْنِي: مِثْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا ذَلِكَ مُبَيَّنًّا مُفَصَّلًا لِحَاجَةِ النَّاسِ، بَلْ صَرُورَتِهِمْ إِلَى بَيَانِهِ وَتَفْصِيلِهِ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُهُمُ الْاسْتِقَامَةُ إِلَّا بِالْإِيَّانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِي يُجَارَى فِيهِ كُلُّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

﴿قَوْلُهُ: «وَالْآثَارُ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ».

اعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ الْمَأْثُورَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ قَسَمَانِ:

١ - قِسْمٌ ثَبَتَ بِالْوَحْيِ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَهَذَا لَا شَكَّ فِي قَبُولِهِ، وَاعْتِقَادِ مَذْلُوقِهِ.

٢- وقسم آخر أتى عن طريق النقل غير الوحي، وهذا هو الذي دخل فيه الكذب والتخريف والتبديل والتغيير.

ولهذا لا بد من أن يكون الإنسان حذراً بما يُنقل بهذه الطريق عن الأنبياء السابقين، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»^(١)؛ لأنك إن صدقت قد تصدق بباطل، وإن كذبت قد تكذب بحق، فلا تصدق ولا تكذب، قل: إن كان هذا من عند الله فقد آمنت به.

وقد قسم العلماء ما أثر عن سبئ ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد شرعنا بصدقه.

والثاني: ما شهد شرعنا بكذبه.

والحكم في هذين واضح.

الثالث: ما لم يحكم بصدقه ولا كذبه.

فهذا مما يجب فيه التوقف، لا يصدق ولا يكذب.

* قوله: «وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي».

العلم الموروث عن محمد صلوات الله وسلامه عليه سواء في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ فيه من ذلك ما يشفي ويكفي.

فلا حاجة إلى أن تبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة، بل نحن في غنى عن هذا كله، ففي العلم الموروث عن محمد رسول الله ﷺ ما يشفي ويكفي في كل أبواب العلم والإيمان.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا»، رقم (٤٤٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد (١٣٦/٤)، وأبو داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٤)، من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

ثُمَّ الْمُنْسُوبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَابِ الْوَعْظِ وَالْفَضَائِلِ تَرْغِيبًا أَوْ تَرْهِيبًا يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: صَحِيحٌ مَقْبُولٌ، وَضَعِيفٌ، وَمَوْضُوعٌ، فَلَيْسَ كُلُّهُ صَحِيحًا مَقْبُولًا، وَنَحْنُ فِي غِنَى عَنِ الضَّعِيفِ وَالْمَوْضُوعِ.

■ فَاَلْمَوْضُوعُ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذِكْرُهُ وَنَشْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، لَا فِي بَابِ الْفَضَائِلِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَلَا فِي غَيْرِهِ، إِلَّا مَنْ ذَكَرَهُ لِيُبَيِّنَ حَالَهُ.

■ وَالضَّعِيفُ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ، وَالَّذِينَ قَالُوا بِجَوَازِ نَشْرِهِ وَنَقْلِهِ اشْتَرَطُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ شُرُوطٍ^(١):

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ لَا يَكُونَ الضَّعْفُ شَدِيدًا.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الْعَمَلِ الَّذِي رُبِّبَ عَلَيْهِ النَّوَابُ أَوْ الْعِقَابُ ثَابِتًا بِدَلِيلٍ صَحِيحٍ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أَنْ لَا يَعْتَقِدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ، بَلْ يَكُونَ مُتَرَدِّدًا غَيْرَ جَازِمٍ، لَكِنَّهُ رَاجٍ فِي بَابِ التَّرْغِيبِ، خَائِفٌ فِي بَابِ التَّرْهِيبِ.

أَمَّا صِبْغَةُ عَرْضِهِ: فَلَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَلْ يَقُولُ: رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ: ذَكَرَ عَنْهُ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَإِنْ كُنْتَ فِي عَوَامٍّ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ (ذَكَرَ .. وَقِيلَ .. وَقَالَ) فَلَا تَأْتِ بِهِ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْعَامِّيَّ يَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ، فَمَا قِيلَ فِي الْمِحْرَابِ فَهُوَ عِنْدَهُ الصَّوَابُ!

تَنْبِيْهُ: هَذَا الْبَابُ -أَيُّ: بَابُ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ- ذُكِرَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِيهَا ضَعْفٌ وَفِيهَا وَضْعٌ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ هَذِهِ فِي كُتُبِ الرِّقَاقِ وَالْمَوَاعِظِ؛ فَلِذَلِكَ يَجِبُ التَّحَرُّرُ مِنْهَا، وَأَنْ نَحْذَرَ الْعَامَّةَ الَّذِينَ يَقَعُّ فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ هَذِهِ الْكُتُبِ.

(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه السخاوي في «القول البدیع» (ص: ٢٥٥)، وجاء عن الإمام أحمد أنه قال: «إذا جاء الحلال والحرام شددنا في الأسانيد، وإذا جاء الترهيب والتساهلنا في الأسانيد» «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/٦٥)، وانظر: مقدمة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني لكتاب «الترغيب والترهيب» فقد ذكر أفعال العلماء في حكم العمل بالحديث في فضائل الأعمال.

﴿ قَوْلُهُ: «فَمَنْ ابْتَغَاهُ».

أَي: طَلَبَهُ.

«وَجَدَهُ».

وهذا صحيح، فالقرآن بين أدينا، وكُتِبَ الأحاديث بين أدينا، لكنها تحتاج إلى تنقيح، وبيان الصحيح منها والضعيف؛ حتى يبنى الناس ما يعتقدونه في هذا الباب على أساس سليم.



فَصْلٌ

فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

﴿قَوْلُهُ: «وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ، أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، بِالْقَدَرِ، خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

الشَّرْحُ:

﴿قَوْلُهُ: «الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ، أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»:

الْكِتَابِ.

﴿وَقَوْلُهُ: «بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»:

■ الْقَدَرُ فِي اللُّغَةِ بَعْنَى: التَّقْدِيرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المسلات: ٢٣].

■ وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: الْحُكْمُ.

ولهذا نقول: إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ مُتْبَايَنَانِ إِنْ اجْتَمَعَا، وَمُتَرَادِفَانِ إِنْ تَفَرَّقَا، عَلَى حَدِّ

قَوْلِ الْعُلَمَاءِ: هُمَا كَلِمَتَانِ إِنْ اجْتَمَعَتَا افْتَرَقَتَا، وَإِنْ افْتَرَقَتَا اجْتَمَعَتَا.

فَإِذَا قِيلَ: هَذَا قَدَرُ اللَّهِ، فَهُوَ شَامِلٌ لِلْقَضَاءِ. أَمَّا إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

مَعْنَى.

■ فَالتَّقْدِيرُ: هُوَ مَا قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَزَلِ أَنْ يَكُونَ فِي خَلْقِهِ.

■ وَأَمَّا الْقَضَاءُ: فَهُوَ مَا قَضَى بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ مِنْ إِيجَادٍ أَوْ إِعْدَامٍ أَوْ تَغْيِيرٍ،

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّقْدِيرُ سَابِقًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَتَى قُلْنَا: إِنَّ الْقَضَاءَ هُوَ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ مِنْ إِيجَادٍ

أَوْ إِعْدَامٍ أَوْ تَغْيِيرٍ، وَإِنَّ الْقَدَرَ سَابِقٌ عَلَيْهِ إِذَا اجْتَمَعَا، فَإِنَّ هَذَا يُعَارِضُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ

كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ظَاهِرُهَا أَنَّ التَّقْدِيرَ بَعْدَ الْخَلْقِ!

فالجوابُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ وَجْهَيْنِ:

■ إِمَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّرْتِيبِ الذِّكْرِيِّ لَا الْمَعْنَوِيِّ، وَإِنَّمَا قُدِّمَ الْخَلْقُ عَلَى التَّقْدِيرِ؛ لِتَنَاسُبِ رُؤُوسِ الْآيَاتِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى أَنَّ مُوسَى أَفْضَلُ مِنْ هَارُونَ، لَكِنْ قُدِّمَ هَارُونُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ طه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ السَّحَرَةِ: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]؛ لِتَنَاسُبِ رُؤُوسِ الْآيَاتِ.

وهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَأَخَّرَ فِي اللَّفْظِ مُتَأَخَّرٌ فِي الرُّتْبَةِ.

■ أَوْ نَقُولُ: إِنَّ التَّقْدِيرَ هُنَا بِمَعْنَى التَّسْوِيَةِ، أَيُّ: خَلَقَهُ عَلَى قَدَرٍ مُعَيَّنٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢٠]، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ بِمَعْنَى التَّسْوِيَةِ.

وهَذَا الْمَعْنَى أَقْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ مُطَابِقٌ تَمَامًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ فَلَا إِشْكَالَ. وَالْإِيمَانُ بِالتَّقْدِيرِ وَاجِبٌ، وَمَرَّتَبَتُهُ فِي الدِّينِ أَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَّةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحَبْرَيْلَ حِينَ قَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالتَّقْدِيرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

وَالْإِيمَانُ بِالتَّقْدِيرِ فَوَائِدُ، مِنْهَا:

أَوَّلًا: أَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ، وَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِذَلِكَ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِالرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ قَدَرَ اللَّهِ مِنْ أَفْعَالِهِ.

ثَالِثًا: رَدُّ الْإِنْسَانِ أُمُورَهُ إِلَى رَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ فِي دَفْعِ الصَّرَاءِ وَرَفْعِهَا، وَتُضِيفُ الصَّرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَيَعْرِفُ أَنَّهَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ. رَابِعًا: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ قَدَرَ نَفْسِهِ، وَلَا يَفْخَرُ إِذَا فَعَلَ الْخَيْرَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

خامساً: هوانُ المصائبِ عَلَى الْعَبْدِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قَالَ عَلَقَمَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُوَ الرَّجُلُ نُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»^(١).

سادساً: إِضَافَةُ النِّعَمِ إِلَى مُسْئِدِيهَا؛ لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ أَصَفْتَ النِّعَمَ إِلَى مَنْ بَاشَرَ الْإِنْعَامَ، وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي الَّذِينَ يَتَزَلَّفُونَ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَءِ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ جَعَلُوا الْفَضْلَ إِلَيْهِمْ، وَنَسُوا فَضْلَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ.

صَحِيحٌ أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَشْكُرَ النَّاسَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ»^(٢)، وَلَكِنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَصْلَ كُلَّ الْأَصْلِ هُوَ فَضْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، جَعَلَهُ عَلَى يَدِ هَذَا الرَّجُلِ.

سابعاً: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ بِهِ حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هَذَا الْكَوْنِ وَمَا يَخْدُثُ فِيهِ مِنْ تَغْيِيرَاتٍ بَاهِرَةٍ عَرَفَ بِهَذَا حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بِخِلَافِ مَنْ نَسِيَ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ هَذِهِ الْفَائِدَةَ.

❖ وَقَوْلُهُ: «خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»:

■ الشَّرُّ فِي الْقَدَرِ: مَا لَا يُلَاقِي طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ، بَحِثُ يَخْضُلُ لَهُ بِهِ أَذِيَّةٌ أَوْ ضَرَرٌ.

■ وَالْحَقِيرُ: مَا يُلَاقِي طَبِيعَتَهُ، بَحِثُ يَخْضُلُ لَهُ بِهِ خَيْرٌ أَوْ اِزْتِيَاحٌ وَسُرُورٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

(١) انظر: «نسخة وكيع عن الأعمش» رقم (٥)، وأخرجه الطبري في التفسير (١٢/٢٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦٦/٤)، وفي الشعب رقم (٩٥٠٣)، وعزاه ابن كثير في التفسير (١٣٨/٨) لابن أبي حاتم، كما عزاه السيوطي في الدر المنثور (١٨٣/٨ - ١٨٤) لعبد بن حميد وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/٦٨)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عَزَّجَلَّ، رقم (١٦٧٢)، والنسائي: كتاب الزكاة، من سأل بالله عَزَّجَلَّ، رقم (٢٥٦٧)، وابن حبان رقم (٣٤٠٨)، والحاكم (٤١٢/١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٥٤) و«الإرواء» رقم (١٦١٧).

ولكن إن قيل: كَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ فِي قَدَرِ اللَّهِ شَرًّا. وقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ»؟^(١).

فالجواب عَلَى ذَلِكَ أَنَّ يُقَالَ: الشَّرُّ فِي الْقَدَرِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِ تَقْدِيرِ اللَّهِ لَهُ، لَكِنَّهُ بِاعْتِبَارِ الْمَقْدُورِ لَهُ؛ لِأَنَّ لَدَيْنَا قَدَرًا -هُوَ التَّقْدِيرُ- وَمَقْدُورًا، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ خَلْقًا وَمَخْلُوقًا، وَإِرَادَةً وَمُرَادًا، فَبِاعْتِبَارِ تَقْدِيرِ اللَّهِ لَهُ لَيْسَ بِشَرٍّ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ لَا يُلَايِمُ الْإِنْسَانَ وَيُؤْذِيهِ وَيَضُرُّهُ، لَكِنْ بِاعْتِبَارِ الْمَقْدُورِ فَقُولُ: الْمَقْدُورُ إِمَّا خَيْرٌ وَإِمَّا شَرٌّ، فَالْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ يُرَادُ بِهِ الْمَقْدُورُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ.

وَنَضْرِبُ لِهَذَا مَثَلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَا حَدَثَ مِنَ الْفَسَادِ، وَسَبَبَهُ، وَالْغَايَةَ مِنْهُ، فَالْفَسَادُ شَرٌّ، وَسَبَبُهُ عَمَلُ الْإِنْسَانِ السَّيِّئِ، وَالْغَايَةُ مِنْهُ: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فَكَوْنُ الْفَسَادِ يَظْهَرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِيهِ حِكْمَةٌ، فَهُوَ نَفْسُهُ شَرٌّ، لَكِنْ لِحِكْمَةِ عَظِيمَةٍ، بِهَا يَكُونُ تَقْدِيرُهُ خَيْرًا.

كَذَلِكَ الْمَعَاصِي وَالْكُفْرُ شَرٌّ، وَهُوَ مِنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ، لَكِنْ لِحِكْمَةِ عَظِيمَةٍ، لَوْلَا ذَلِكَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ خَلْقُ النَّاسِ عَبَثًا.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ لَا يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَقْدُورٍ، بَلِ الْمَقْدُورُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَوْنِيٍّ وَإِلَى شَرْعِيٍّ:

■ فَالْمَقْدُورُ الْكَوْنِيُّ: إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْكَ مَكْرُوهًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ، رَضِيتَ أَمْ أَبَيْتَ.

■ وَالْمَقْدُورُ الشَّرْعِيُّ: قَدْ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ الرِّضَا بِهِ فِيهِ تَفْصِيلٌ: إِنْ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَجَبَ الرِّضَا بِهِ، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً وَجَبَ سَخَطُهُ وَكَرَاهَتُهُ وَالْقَضَاءُ

(١) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧١).

عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وَعَلَى هَذَا: يَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِالْمَقْضِيِّ كُلِّهِ، مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ قَضَاءً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ مَقْضِيًّا فَقَدْ تَرْضَى بِهِ وَقَدْ لَا تَرْضَى، فَلَوْ وَقَعَ الْكُفْرُ مِنْ شَخْصٍ فَلَا تَرْضَى بِالْكَفْرِ مِنْهُ، لَكِنْ تَرْضَى بِكَوْنِ اللَّهِ أَوْفَعَهُ.



فَصْلٌ

فِي دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

* قَوْلُهُ: «وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ».

الشرح:

إِنَّمَا قَسَمَ الْمُؤَلَّفُ هَذَا التَّقْسِيمَ مِنْ أَجْلِ الْخِلَافِ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي الْقَدَرِ لَيْسَ شَامِلًا لِكُلِّ مَرَاتِبِهِ، وَبَابُ الْقَدَرِ مِنْ أَشْكَلِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ وَالذِّنِّ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَقَدْ كَانَ التَّرَاغُ فِيهِ مِنْ عَهْدِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَكِنَّهُ لَيْسَ مُشْكِلًا لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ.

* الدَّرَجَةُ الْأُولَى مِنْ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ قَوْلُهُ:

«فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَرْزَلاً وَآبِدًا».

الشرح:

* قَوْلُهُ: «فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ»: وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُؤَلَّفُ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَ فِيهَا خِلَافٌ، إِنَّمَا ذَكَرَ مَا فِيهِ الْخِلَافُ، وَهُوَ: هَلِ اللَّهُ يُعَلِّمُ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِهِ مِنْهُمْ؟ وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِذَلِكَ.

* قَوْلُهُ: «بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ»: الْقَدِيمُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ: هُوَ الَّذِي لَا أَوَّلَ لَانْتِدَائِهِ، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِيهَا مَضَى مِنَ الْأَزْمَنِ الَّتِي لَا نِهَابَ لَهَا عَالِمًا بِمَا يَعْمَلُهُ الْخَلْقُ، بِخِلَافِ الْقَدِيمِ فِي اللُّغَةِ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا كَانَ قَدِيمًا نَسِيًّا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» [يس: ٣٩]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ عُرْجُونَ النَّخْلَةِ لَيْسَ بِقَدِيمٍ أَرِئِي، بَلْ قَدِيمٌ بِالنَّسْبَةِ لِمَا بَعْدَهُ.

فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الْأَرِئِي، الَّذِي لَا نِهَابَ

لأَوَّلِهِ، عَالِمٌ جَزَعَلَا بَأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ سَيَعْمَلُ كَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِيِّ، فَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِذَلِكَ.

ودليل ذلك من الكتاب والسنة والعقل:

■ أما الكتاب: فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله، مثل: ﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]... إلى غير ذلك من الآيات التي لا تُحصى كثرة.

■ أما في السنة: فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة^(١)، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٢)، وأن الأقلام قد جفت وطويت الصحف^(٣)... والأحاديث في هذا كثيرة.

■ وأما العقل: فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالى هو الخالق، وأن ما سواه مخلوق، ولا بد عقلاً أن يكون الخالق عالماً بمخلوقه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل على أن الله تعالى عالم بما الخلق عاملون بعلمه الأزلي.

※ قوله: «الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً»: ففي كونه موصوفاً به أزلاً نفياً للجهل، وفي كونه موصوفاً به أبداً نفياً للنسيان.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليها السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣/٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه: في المقدمة، باب في القدر، رقم (٧٧)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

ولهذا كَانَ عِلْمُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ غَيْرَ مَسْبُوقٍ بِجَهْلِ وَلَا مَلْحُوقٍ بِنِسْيَانٍ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] بخلاف عِلْمِ المَخْلُوقِ الْمَسْبُوقِ بِالْجَهْلِ وَالْمَلْحُوقِ بِالنَّسْيَانِ.

إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمٍ سَابِقٍ مَوْصُوفٍ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا.

* قَوْلُهُ: «عِلْمُ جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ».

ودليلُ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ...» وَذَكَرَ أَطْوَارَ الْجَنِينِ، وَفِيهِ: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدًا...» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ ^(١).

فَاللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ.

فَطَاعَتُنَا مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ، وَمَعَاصِينَا مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ، وَأَرْزَاقُنَا مَعْلُومَةٌ لَهُ، وَآجَالُنَا مَعْلُومَةٌ لَهُ، إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ سَبَبٌ مَعْلُومٌ أَوْ بَغَيْرِ سَبَبٍ مَعْلُومٍ، فَإِنَّهُ لِلَّهِ مَعْلُومٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ، بِخِلَافِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِأَجَلِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَجَلَهُ، فَلَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَمُوتُ، وَلَا مَتَى يَمُوتُ، وَلَا يَعْرِفُ بِأَيِّ سَبَبٍ يَمُوتُ، وَلَا يَعْرِفُ عَلَى أَيِّ حَالٍ يَمُوتُ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى حُسْنَ الْخَاتِمَةِ.

وَهَذَا هُوَ الشَّيْءُ الْأَوَّلُ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى.

* قَوْلُهُ: «ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ».

هَذَا الشَّيْءُ الثَّانِي مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى: وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ.

اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ لَا نَعْرِفُ مَا هَيْئَتُهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، أَمِنْ خَشَبٍ، أَمْ مِنْ حَدِيدٍ، أَمْ مِنْ ذَهَبٍ، أَمْ مِنْ فِصَّةٍ، أَمْ مِنْ زُمُرَدٍ؟ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، إِنَّمَا نُؤْمِنُ أَنَّ هُنَاكَ لَوْحًا كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَقَادِيرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

كُلُّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لَنَا الْحَقُّ فِي أَنْ تَبْحَثَ وَرَاءَ ذَلِكَ، لَكِنْ لَوْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يَدُلُّنَا عَلَى شَيْءٍ فَالْوَاجِبُ أَنْ نَعْتَقِدَهُ.

وَوُصِفَ بِكَوْنِهِ مَحْفُوظًا؛ لِأَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنْ أَيْدِي الْخَلْقِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُلْحِقَ أَحَدٌ بِهِ شَيْئًا، أَوْ يُغَيِّرَ بِهِ شَيْئًا أَبَدًا.

ثَانِيًا: مَحْفُوظٌ مِنَ التَّغْيِيرِ؛ فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُغَيِّرُ فِيهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ كَتَبَهُ عَنْ عِلْمٍ مِنْهُ، كَمَا سَيَذْكُرُهُ الْمُؤَلَّفُ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْمَكْتُوبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَا يَتَغَيَّرُ أَبَدًا»، وَإِنَّمَا يَخْصُلُ التَّغْيِيرُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي بَأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ.

* قَوْلُهُ: «مَقَادِيرُ الْخَلْقِ» أَي: مَقَادِيرُ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَظَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّهُ شَمِلَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ، وَمَا يَفْعَلُهُ الْبَهَائِمُ، وَأَنَّهُ عَامٌّ وَشَامِلٌ.

وَلَكِنْ: هَلْ هَذِهِ الْكِتَابَةُ إِجْمَالِيَّةٌ أَوْ تَفْصِيلِيَّةٌ؟

قَدْ نَقُولُ: إِنَّمَا لَا نَجْزِمُ بِأَنَّهَا تَفْصِيلِيَّةٌ أَوْ إِجْمَالِيَّةٌ.

فَمَثَلًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، هَلْ هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَالْحُرُوفِ، أَوْ أَنَّ الْمَكْتُوبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرُهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

فِيهِ اخْتِمَالٌ: إِنْ نَظَرْنَا إِلَى ظَاهِرِ النُّصُوصِ قُلْنَا: إِنَّ ظَاهِرَهَا أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مَكْتُوبٌ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِالْقُرْآنِ حِينَ نَزُولِهِ قُلْنَا: إِنَّ الَّذِي كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرُ الْقُرْآنِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ذِكْرِهِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنْ يَكُونَ قَدْ كُتِبَ فِيهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، يَعْنِي: كُتِبَ الْأَوَّلِينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُوجَدَ نَصُّهُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَإِنَّمَا وَجَدَ ذِكْرُهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ مِثْلَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [النجم: ٣] فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: ٢١-٢٢]، أَي: ذِكْرُهُ فِي هَذَا اللَّوْحِ.

فَالْمُهِمُّ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ مَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَأَنَّ هَذَا اللَّوْحَ لَا يَتَغَيَّرُ مَا كُتِبَ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

* قَوْلُهُ: «فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ! قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

قَوْلُهُ: «فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»: فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ، مَعَ أَنَّ الْقَلَمَ جَهَادًا! فَكَيْفَ يُوَجِّهُ الْخِطَابُ إِلَى الْجَهَادِ؟!

والجواب عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْجَهَادَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَاقِلٌ، يَصِحُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فَوَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَيْهِمَا، وَذَكَرَ جَوَابَهُمَا، وَكَانَ الْجَوَابُ بِجَمْعِ الْعُقُلَاءِ (طَائِعِينَ) دُونَ (طَائِعَاتٍ).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا يَنْتَازُكُونِ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت كذلك.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ﴾ [سبا: ١٠]، فكانت الجبال تُؤَوِّبُ مَعَهُ.

والحاصلُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْقَلَمَ أَنْ يَكْتُبَ، وَقَدْ امْتَثَلَ الْقَلَمَ، لَكِنَّهُ أَشْكَلَ عَلَيْهِ مَاذَا يَكْتُبُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُجْمَلٌ، فَقَالَ: «مَا أَكْتُبُ؟» أَيُّ: أَيِّ شَيْءٍ أَكْتُبُ؟

* «قَالَ» أَيُّ: اللَّهُ.

* «اَكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»: فَكَتَبَ الْقَلَمُ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥ / ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (١٠٥)، من حديث عباد بن الصامت رضي الله عنه. وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٠٨)، والأجري في «الشریعة» رقم (١٧٨)، والحاكم (٤٩٨ / ٢) وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٠٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٣)، وفي «ظلال الجنة» (١ / ٤٨ - ٤٩).

فانْظُرْ كَيْفَ عَلِمَ الْقَلَمُ مَاذَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُتِبَ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَرُدُّ.
* وَقَوْلُهُ: «مَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»: يَشْمَلُ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا كَانَ مِنْ أَفْعَالِ الْخَلْقِ.

* قَوْلُهُ: «فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ».

إِذَا آمَنْتَ بِهِذِهِ الْجُمْلَةَ اطمأننت: مَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ أَبَدًا.
وَمَعْنَى «مَا أَصَابَ»: يُخْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى: مَا قُدِّرَ أَنْ يُصِيبَهُ، فَإِنَّهُ لَنْ يُخْطِئَهُ، وَيُخْتَمَلُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ بِالْفِعْلِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْطِئَهُ، حَتَّى لَوْ تَمَنَّى الْإِنْسَانُ، وَهُمَا مَعْنَيَانِ صَحِيحَانِ لَا يَتَنَافَيَانِ.

وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ، أَيْ: مَا قُدِّرَ أَنْ يُخْطِئَهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ، أَوْ الْمَعْنَى: مَا أَخْطَأَهُ بِالْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ غَيْرُ صَائِبٍ، وَلَوْ تَمَنَّى الْإِنْسَانُ، وَهُمَا مَعْنَيَانِ صَحِيحَانِ لَا يَتَنَافَيَانِ.



* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ».

* «الْأَقْلَامُ»: هِيَ أَقْلَامُ الْقَدْرِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ بِهَا الْمَقَادِيرَ، جَفَّتْ وَانْتَهَتْ.

* «وَالصُّحُفُ»: طُوِيَتِ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى.

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ جُعْشُمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ: فِيمَ الْعَمَلِ الْيَوْمَ، أَفَيِمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ؟ أَمْ فَيِمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فَيِمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ». قَالَ: فَيِمَ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مُيسَّرٍ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٨).

﴿قَوْلُهُ: «كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى».

الكافُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْيِيرِ لِلتَّعْلِيلِ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ [الحج: ٧٠].

أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ.

﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

وَهَذَا عَامٌّ، عَلِمَ لِمَا فِيهِمَا مِنْ أَعْيَانٍ وَأَوْصَافٍ وَأَعْمَالٍ وَأَحْوَالٍ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠].

وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

أَي: الْكِتَابَةُ عَلَى اللَّهِ أَمْرٌ يَسِيرٌ.

﴿قَوْلُهُ: «وَقَالَ: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ

قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]».

﴿فِي الْأَرْضِ﴾: كَالْجَذْبِ وَالزَّلَازِلِ وَالْفَيْضَانَاتِ وَغَيْرِهَا.

﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: كَالْمَرَضِ وَالْأَوْبَةِ الْمُهْلِكَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

﴿نَبْرَأَهَا﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَهَا، وَالضَّمِيرُ فِي «نَبْرَأَهَا»: يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى

الْمُصِيبَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَنْفُسِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَرْضِ، وَالْكُلُّ صَحِيحٌ،

فَالْمُصِيبَةُ قَدْ كُتِبَتْ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ النَّفْسَ الْمُصَابَةَ، وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ

الْأَرْضَ.

وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ

الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ^(١).

* قَوْلُهُ: «وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا».

* قَوْلُهُ: «فِي مَوَاضِعَ» يَعْنِي: مَوَاضِعَ غَيْرِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ بِقَوْلِهِ:

«فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ، وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ».

فَهَذَانِ مَوْضِعَانِ:

الْأَوَّلُ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَسَبَقَ دَلِيلُ ذَلِكَ، وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِيهِ.

وَالثَّانِي: الْكِتَابَةُ الْعُمَرِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ لِلْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَسَبَقَ دَلِيلُهَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

وَالْمَوْضِعُ الثَّالِثُ: مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَنَحْوَ ذَلِكَ» وَهُوَ التَّقْدِيرُ الْحَوْلِيُّ الَّذِي يَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ؛ فَإِنَّ لَيْلَةَ الْقَدَرِ يُكْتَبُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ^(٣) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤-٥].



* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غَلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكَرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ».

* «هَذَا التَّقْدِيرُ» يَعْنِي: الْعِلْمَ وَالْكِتَابَةَ، يُنْكِرُهُ غَلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعَبْدِ إِلَّا بَعْدَ وُجُودِهَا، وَأَنَّهُمَا لَمْ تُكْتَبْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَمْرَ أَتَى، أَيْ: مُسْتَأْتَفٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق

الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

لكن مُتَأَخَّرُوهُمْ أَقْرَأُوا بِالْعِلْمِ وَالكِتَابَةِ، وَأَنْكَرُوا الْمَشِيشَةَ وَالْخَلْقَ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ لِأَفْعَالِ الْمَخْلُوقِينَ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِأَفْعَالِ اللَّهِ: فَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهَا قَبْلَ وَقُوعِهَا.

وهؤلاء الَّذِينَ يُنْكِرُونَ عِلْمَ اللَّهِ بِأَفْعَالِ الْعَبْدِ حُكْمُهُمْ فِي الشَّرْعِ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَغَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ، وَخَالَفُوا الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الدِّينِ.

* الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

* قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ».

بِعَنِي: مِنْ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

* قَوْلُهُ: «فَهِيَ مَشِيشَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سَكُونٍ إِلَّا بِمَشِيشَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

بِعَنِي: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ مَشِيشَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، سَوَاءٌ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ أَوْ يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ شَامِلَةٌ ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَتْ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذه الدَّرَجَةُ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ: الْمَشِيشَةَ وَالْخَلْقَ:

■ أَمَّا الْمَشِيشَةُ: فَيَجِبُ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ مَشِيشَةَ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ شَامِلَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَفْعَالِ الْمَخْلُوقِينَ.

■ فَأَمَّا كَوْنُهَا شَامِلَةً لِأَفْعَالِهِ فَلَا مَرُ فِيهَا ظَاهِرٌ.

■ وَأَمَّا كَوْنُهَا شَامِلَةً لِأَفْعَالِ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَلَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ

فِي مِلْكِهِ إِلَّا مَا شَاءَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمۡ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلِ الَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُمْ مَّنۢ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنۢ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهذه الآيات تدلُّ على أنَّ أفعال العبادٍ مُتعلِّقةٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنۢ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهذه تدلُّ على أنَّ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ دَاخِلَةٌ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَتَابِعَةٌ لَهَا.



❖ قَوْلُهُ: «لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ».

هذه العبارة تحتاجُ إلى تفصيل: لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ بِالْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، أَمَّا بِالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ فَيَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ.

وحينئذٍ نحتاجُ إلى أنْ نُقَسِّمَ الْإِرَادَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِرَادَةً كُونِيَّةً، وَإِرَادَةً شَرْعِيَّةً:

■ فالإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ، وَمِثَالُهَا قَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصَحِيَّ إِنۢ أَرَدْتُ أَنۢ أَنۡصَحَ لَكُمۡ إِنۢ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنۢ يُغْوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤].

■ وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ، وَمِثَالُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنۢ يَتُوبَ عَلَيْكُمۡ﴾

[النساء: ٢٧].

وَتَخْتَلِفُ الْإِرَادَتَانِ فِي مُوجِبِهِمَا وَفِي مُتَعَلِّقَيْهِمَا:

■ ففِي الْمُتَعَلِّقِ: الْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ تَتَعَلَّقُ فِيمَا وَقَعَ، سَوَاءٌ أَحَبَّهُ أَمْ كَرِهَهُ، وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَتَعَلَّقُ فِيمَا أَحَبَّهُ، سَوَاءٌ وَقَعَ أَمْ لَمْ يَقَعْ.

■ وَفِي مُوجِبِهِمَا: الْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ يَتَعَيَّنُ فِيهَا وَقُوعُ الْمُرَادِ، وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ لَا يَتَعَيَّنُ فِيهَا وَقُوعُ الْمُرَادِ.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «وَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ» يَعْنِي بِهِ: الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ الْمَعَاصِي مُرَادَةٌ لِلَّهِ؟

فَالْجَوَابُ: أَمَّا بِالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَتْ مُرَادَةٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّهَا، وَأَمَّا بِالْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ فَهِيَ مُرَادَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّهُا وَاقِعَةٌ بِمَشِيئَتِهِ.

❖ قَوْلُهُ: «وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ».

كُلُّ شَيْءٍ فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، فَيُعِدُّهَا أَوْ يُغَيِّرُهَا، وَمِنَ الْمَعْدُومَاتِ فَيُوجِدُهَا.

فَالْقُدْرَةُ تَتَعَلَّقُ فِي الْمَوْجُودِ بِإِيجَادِهِ أَوْ إِعْدَامِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ، وَفِي الْمَعْدُومِ بِإِعْدَامِهِ أَوْ إِيجَادِهِ.

فَمَثَلًا: كُلُّ مَوْجُودٍ فَاللَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُعِدِّمَهُ، وَقَادِرٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ، أَيْ: يَنْقُلَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَكُلُّ مَعْدُومٍ فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُوجِدَهُ مَهْمَا كَانَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ اسْتِثْنَاءً مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِلَّا ذَاتَهُ، فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ! وَزَعَمَ أَنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ!!

فَنَقُولُ: مَاذَا تُرِيدُ بِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَاتِهِ؟

❑ إِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِدِّمَ نَفْسَهُ أَوْ يُلْحِقَهَا نَقْصًا، فَنَحْنُ نُوَافِقُكَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُلْحِقُهُ النِّقْصُ أَوْ الْعَدَمُ، لَكِنَّا لَا نُوَافِقُكَ عَلَى أَنَّ هَذَا يَمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْقُدْرَةُ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالشَّيْءِ الْمُمْكِنِ، أَمَّا الشَّيْءُ الْوَاجِبُ أَوْ الْمُسْتَحِيلُ فَهَذَا لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْقُدْرَةُ أَصْلًا؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ مُسْتَحِيلُ الْعَدَمِ، وَالْمُسْتَحِيلُ مُسْتَحِيلُ الْوُجُودِ.

❑ وَإِنْ أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَاتِهِ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؛ فَلَا يَقْدِرُ

أَنْ يَجِيءَ أَوْ نَحْوَهُ! فَهَذَا خَطَأٌ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، وَفَاعِلٌ لَهُ، وَلَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ النَّقْصِ الْمُمْتَنِعِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَبِهَذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا الْاِسْتِدْرَاكَ مِنْ عُمُومِ الْقُدْرَةِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ.

وَأَمَّا نَصُّ الْمُؤَلِّفِ عَلَى هَذَا؛ رَدًّا عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى فِعْلِ الْعَبْدِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ!

وَلَكِنْ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ شُمُولِ قُدْرَةِ اللَّهِ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ.



* قَوْلُهُ: «فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ».

وَهَذَا صَحِيحٌ بِلَا شَكٍّ.

وَلِهَذَا دَلِيلٌ أَتْرَبِيٌّ وَدَلِيلٌ نَظَرِيٌّ:

■ أَمَّا الدَّلِيلُ الْأَتْرَبِيُّ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦].

فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ وَحْدَهُ.

وَلَقَدْ تَحَدَّى اللَّهُ الْعَابِدِينَ لِلْأَصْنَامِ تَحَدًى أَمَرَنَا أَنْ نَسْتَمِعَ لَهُ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ

ضَرِبَ مِثْلَ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا

لَهُ﴾ [الحج: ١٧٣]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي الْقِمَّةِ عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوهُمْ

أَرْبَابًا، فَإِذَا عَجَزَ هَؤُلَاءِ الْقِمَّةَ عَنْ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا، وَهُوَ أَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ وَأَهْوَنُهَا، فَمَا فَوْقَهُ مِنْ

بَابٍ أَوْلَى، بَلْ قَالَ: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، فَيَعْجِزُونَ

حَتَّى عَنْ مُدَافَعَةِ الذُّبَابِ وَأَخِذَ حَقِّهِمْ مِنْهُ.

فإن قيل: كَيْفَ يَسْلُبُ الذُّبَابُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ شَيْئًا؟!

فالجواب: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ، يَعْنِي: عَلَى فَرْضٍ أَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا، لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ عَلَى سَبِيلِ الْوَاقِعِ، فَيَقَعُ الذُّبَابُ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَيَمْتَصُّ مَا فِيهَا مِنْ أَطْيَابٍ، فَلَا تَسْتَطِيعُ الْأَصْنَامُ أَنْ تُخْرِجَ مَا امْتَصَّهُ الذُّبَابُ.

وَإِذَا كَانَتْ عَاجِزَةً عَنِ الدَّفْعِ عَنْ نَفْسِهَا، وَاسْتِنْقَازِ حَقِّهَا، فَهِيَ عَنِ الدَّفْعِ عَنْ غَيْرِهَا وَاسْتِنْقَازِ حَقِّهِ أَعْجَزُ.

وَالْمُهِمُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِعُمُومِ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى أَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وَعَمَلُ الْإِنْسَانِ مِنَ الشَّيْءِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]... وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَفِيهِ آيَةٌ خَاصَّةٌ فِي الْمَوْضُوعِ، وَهُوَ خَلْقُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ف(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، وَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

فإن قيل: أَلَا يُجْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ (مَا) اسْمًا مَوْضُوعًا، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ؟ فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ فِي الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، أَنَّ (مَا) مَوْضُوعَةٌ؟

فالجواب: أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَعْمُولُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقًا؛ لِأَنَّ الْمَعْمُولَ كَانَ بِعَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَالْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي بَاشَرَ الْعَمَلَ فِي الْمَعْمُولِ، فَإِذَا كَانَ الْمَعْمُولُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ، وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِعْلُ الْعَبْدِ مَخْلُوقًا، فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ عَلَى كِلَا الْاِحْتِمَالَيْنِ.

■ وَأَمَّا الدَّلِيلُ النَّظَرِيُّ عَلَى أَنَّ أَفْعَالَ الْعَبْدِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ: فَتَقْرِيرُهُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ نَاشِئٌ عَنْ أَمْرَيْنِ: عَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ وَقُدْرَةٍ تَامَّةٍ.

مثال ذلك: أَرَدْتُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ، فَلَا يُوْجَدُ هَذَا الْعَمَلُ حَتَّى يَكُونَ مَسْبُوقًا بِأَمْرَيْنِ، هُمَا:

أَحَدُهُمَا: الْعَزِيمَةُ الصَّادِقَةُ عَلَى فِعْلِهِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ لَمْ تَعَزِّمْ مَا فَعَلْتَهُ.

الثَّانِي: الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ؛ لِأَنَّكَ لَوْ لَمْ تَقْدِرْ مَا فَعَلْتَهُ، فَالَّذِي خَلَقَ فِيكَ هَذِهِ الْقُدْرَةَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي أَوْدَعَ فِيكَ الْعَزِيمَةَ، وَخَالَقَ السَّبَبَ التَّامَّ خَالِقًا لِلْمُسَبَّبِ.

■ وَجْهٌ ثَانٍ نَظَرِيٌّ: أَنْ نَقُولَ: الْفِعْلُ وَصْفُ الْفَاعِلِ، وَالْوَصْفُ تَابِعٌ لِلْمَوْصُوفِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بَدَأَتْهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ؛ فَأَفْعَالُهُ مَخْلُوقَةٌ؛ لِأَنَّ الصِّفَّةَ تَابِعَةٌ لِلْمَوْصُوفِ.

فَتَبَيَّنَ بِالذَّلِيلِ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وَدَاخِلٌ فِي عُمُومِ الْخَلْقِ أَثَرِيًّا وَنَظَرِيًّا، وَالدَّلِيلُ الْأَثَرِيُّ قِسْمَانِ عَامٌّ وَخَاصٌّ، وَالدَّلِيلُ النَّظَرِيُّ لَهُ وَجْهَانِ.

* وَقَوْلُهُ: «لَا خَالِقَ غَيْرُهُ»:

إِنْ قُلْتَ: هَذَا الْخَضِرُ يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّ هُنَاكَ خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ، فَاَلْمُصَوِّرُ يُعَدُّ نَفْسَهُ خَالِقًا، بَلْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ خَالِقٌ: «فَإِنَّ الْمُصَوِّرِينَ يُعَذَّبُونَ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(١)، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فَهُنَاكَ خَالِقٌ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فَمَا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ؟

الْجَوَابُ: أَنَّ الْخَلْقَ الَّذِي نَنْسِبُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ هُوَ الْإِبْجَادُ وَتَبْدِيلُ الْأَعْيَانِ مِنْ عَيْنٍ لِأُخْرَى، فَلَا أَحَدَ يُوْجَدُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَلَا أَحَدَ يُبَدِّلُ عَيْنًا إِلَى عَيْنٍ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

وَمَا قِيلَ: إِنَّهُ خَلَقَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَحْوِيلِ شَيْءٍ مِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، فَالْحَسْبُ مَثَلًا بَدَلًا مِنْ أَنْ كَانَتْ فِي الشَّجَرَةِ، تَحَوَّلَتْ بِالنَّجَارَةِ إِلَى بَابٍ، فَتَحَوَّلَتْ لَهَا إِلَى بَابٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لم يدخل بيتا فيه صورة، رقم (٥٩٦١)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يُسَمَّى خَلْقًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ الْخَلْقُ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْإِيجَادُ مِنَ الْعَدَمِ، أَوْ تَبْدِيلُ الْعَيْنِ مِنْ عَيْنٍ إِلَى أُخْرَى.

وَقَوْلُهُ: «لَا رَبَّ سِوَاهُ» أَي: أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الرَّبُّ الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ، وَهَذَا حَضَرُ حَقِيقَتِي.

وَلَكِنْ رَبًّا يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ إِبْثَاتُ الرُّبُوبِيَّةِ لِعَبْدِ اللَّهِ:

فَفِي لُقْطَةِ الْإِبِلِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرُدُّ الْمَاءَ، وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدُهَا رَبُّهَا»^(١) وَرَبُّهَا: صَاحِبُهَا.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ أَفْظَادِ حَدِيثِ جَبْرِيلَ يَقُولُ: «إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا»^(٢).

فَمَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ: «لَا رَبَّ سِوَاهُ»؟

نَقُولُ: إِنَّ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ عَامَّةٌ كَامِلَةٌ، كُلُّ شَيْءٍ فَاللَّهُ رَبُّهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ فِي خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَهُ كُلُّهُ رَحْمَةً وَحِكْمَةً؛ وَلِهَذَا يُقَدِّرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْجَذْبَ وَالْمَرَضَ وَالْمَوْتَ وَالْجُرُوحَ فِي الْإِنْسَانِ وَفِي الْحَيَوَانِ، وَنَقُولُ: هَذَا غَايَةُ الْكَمَالِ وَالْحِكْمَةِ.

أَمَّا رُبُوبِيَّةُ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ: فَرُبُوبِيَّةٌ نَاقِصَةٌ قَاصِرَةٌ، لَا تَتَجَاوَزُ مَحَلَّهَا، وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا الْإِنْسَانُ تَصَرُّفًا تَامًّا، بَلْ تَصَرُّفُهُ مُقَيَّدٌ إِمَّا بِالشَّرْعِ، وَإِمَّا بِالْعُرْفِ.



* قَوْلُهُ: «وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ».

يَعْنِي: وَمَعَ عُمُومِ خَلْقِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ لَمْ يَتْرُكْ الْعِبَادَ هَمَلًا، وَلَمْ يَرْفَعْ عَنْهُمْ الْإِخْتِيَارَ، بَلْ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ اللَّقْطَةِ، بَابُ إِذَا لَمْ يَوْجَدْ صَاحِبُ اللَّقْطَةِ بَعْدَ سَنَةٍ فَهِيَ لِمَنْ وَجَدَهَا، رَقْمُ (٢٤٢٩)،

وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ اللَّقْطَةِ، رَقْمُ (١٧٢٢)، مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ سُؤَالِ جَبْرِيلَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، رَقْمُ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ:

كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، رَقْمُ (٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمْرُهُ بِذَلِكَ أَمْرٌ مُمَكِّنٌ؛ فَاَلْأَمْرُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَفِعْلُهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُؤْمَرُ وَيُنْهَى.

وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ مُجْبَرًا عَلَى عَمَلِهِ لَكَانَ أَمْرُهُ أَمْرًا بَغَيْرِ مُمَكِّنٍ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ، وَعَلَى تَجَنُّبِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكْرَهِينَ عَلَى ذَلِكَ.

﴿قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ».

يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآخِصُوا إِنَّا اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَالْمُتَّقِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا اسْتَفْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وَالْمُقْسِطِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاقْصِدُوا إِنَّا اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].
فَهُوَ عَزَّجَلَّ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي قَدَّرَ لَهُمْ هَذَا الْعَمَلَ الَّذِي يُحِبُّهُ، فَكَانَ فِعْلُهُمْ مَحْبُوبًا إِلَى اللَّهِ، مُرَادًا لَهُ كَوْنًا وَشَرْعًا، فَالْمُحْسِنُ قَامَ بِالْوَاجِبِ وَالْمُنْدُوبِ، وَالْمُتَّقِي قَامَ بِالْوَاجِبِ، وَالْمُقْسِطُ اتَّقَى الْجَوْرَ فِي الْمَعَامَلَةِ.

﴿قَوْلُهُ: «وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

«يَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»: وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُتَحَرِّينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٧-٨].

﴿قَوْلُهُ: «وَلَا يُحِبُّ».

اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

«الكافرين».

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

مع أَنَّ الْكُفْرَ واقعٌ بِمَشِيئَتِهِ، لكنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ وُقُوعِهِ بِمَشِيئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا لَهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* قوله: «وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
[التوبة: ٩٦].

والفاسق - وهو الخارج عن طاعة الله - قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصي.

■ ففي قوله تعالى: ﴿أَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ
كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ
[السجدة: ١٨-٢٠] فالمراد بالفاسق الكافر.

■ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَرَاغَ عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الحجرات: ٦] فالمراد
بالفاسق العاصي.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، لَا هَوْلًا وَلَا هَوْلًا، لكنَّ الْفَاسِقِينَ بِمَعْنَى
الْكَافِرِينَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ مُطْلَقًا، وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ بِمَعْنَى الْعَصَاةِ فَلَا يَرْضَى عَنْهُمْ فِيمَا فَسَقُوا
فِيهِ، وَيَرْضَى عَنْهُمْ فِيمَا أَطَاعُوا فِيهِ.

* قوله: «وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ».

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] لَا يُهْمُ إِذَا فَعَلُوا
فَاحِشَةً: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فَاخْتَجُوا بِأَمْرِنِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وَسَكَتَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا﴾؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ لَا يُنْكَرُ،

لكن ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ كَذِبٌ؛ ولهذا كَذَّبَهُمْ وأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ولم يقل: ولم يَجِدُوا عَلَيْهَا آباءَهُمْ؛ لأنَّهُمْ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْهَا آباءَهُمْ.

* قَوْلُهُ: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ».

لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، لكن يُقَدَّرُ أَنْ يَكْفُرُوا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَقْدِيرِهِ الْكُفْرَ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ يُقَدَّرُ وَهُوَ يَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ.

* قَوْلُهُ: «وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ».

دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

كَرَّرَ الْمُؤَلِّفُ مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ إِرَادَتِهِ الشَّيْءَ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا لَهُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِلشَّيْءِ أَنْ لَا يَكُونَ مُرَادًا لَهُ بِالْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، بَلْ هُوَ عَزَّجَلْ يَكْرَهُ الشَّيْءَ وَيُرِيدُهُ بِالْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، وَيُوقِعُ الشَّيْءَ وَلَا يَرْضَىٰ عَنْهُ، وَلَا يُرِيدُهُ بِالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُوقِعُ مَا لَا يَرْضَاهُ وَمَا لَا يُحِبُّهُ؟! وَهَلْ أَحَدٌ يَكْرَهُهُ عَلَى أَنْ يُوقِعَ مَا لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ؟!

فَالْجَوَابُ: لَا أَحَدٌ يَكْرَهُهُ عَلَى أَنْ يُوقِعَ مَا لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ، وَهَذَا الَّذِي يَقَعُ مِنْ فِعْلِهِ عَزَّجَلْ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ، هُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ وَجْهِ مَحْبُوبٍ لَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ.

فَمَثَلًا: الْإِيْمَانُ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ، وَالْكُفْرُ مَكْرُوهٌ لَهُ، فَأَوْقَعَ الْكُفْرَ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ؛ لِمَصَالِحِ عَظِيمَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا وَجُودُ الْكُفْرِ مَا عُرِفَ الْإِيْمَانُ، وَلَوْلَا وَجُودُ الْكُفْرِ مَا عُرِفَ الْإِنْسَانُ قَدَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْإِيْمَانِ، وَلَوْلَا وَجُودُ الْكُفْرِ مَا قَامَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَى الْمَعْرُوفِ، وَلَوْلَا وَجُودُ الْكُفْرِ مَا قَامَ الْجِهَادُ، وَلَوْلَا وَجُودُ الْكُفْرِ

لَكَانَ خَلْقُ النَّارِ عَبَثًا؛ لِأَنَّ النَّارَ مَتَوًى الْكَافِرِينَ، وَلَوْ لَا وُجُودُ الْكُفْرِ لَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَعْرِفُوا مَعْرُوفًا وَلَمْ يُنْكِرُوا مُنْكَرًا، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مُخِلٌ بِالْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَوْ لَا وُجُودُ الْكُفْرِ مَا عَرَفْتَ وَلَايَةَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ أَنْ تَبْغِضَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَأَنْ تُحِبَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ.

وكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ: فَالصَّحَّةُ مَحْبُوبَةٌ لِلْإِنْسَانِ وَمُلايِمَةٌ لَهُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ظَاهِرَةٌ، لَكِنِ الْمَرَضُ مَكْرُوهٌ لِلْإِنْسَانِ، وَقَدْ يَكُونُ عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ يُوقِعُهُ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ.

كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ إِذَا أَشْبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ النُّعْمَةَ بِالْبَدَنِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ وَالْبَيْتِ وَالْمَرْكُوبِ - تَرَفَّعَ، وَرَأَى أَنَّهُ مُسْتَعْنٍ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ [العلق: ٦-٧].

وهذه مفسدة عظيمة، فإذا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ هَذَا الْإِنْسَانَ إِلَى مَكَانِهِ ابْتِلَاءً؛ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ، وَشَاهِدَ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِذَا فَكَّرْتَ هَذَا التَّفَكِيرَ الصَّحِيحَ فِي تَقْدِيرَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَرَفْتَ مَا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْحِكْمَةِ فِيمَا يَقْدَرُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَكْرَهُهُ، وَيُقَدِّرُ مَا يَكْرَهُهُ لِمَصَالِحِ عَظِيمَةٍ، قَدْ تُحِيطُ بِهَا، وَقَدْ لَا تُحِيطُ بِهَا وَيُحِيطُ بِهَا غَيْرُكَ، وَقَدْ لَا يُحِيطُ بِهَا لَا أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ الشَّيْءُ مَكْرُوهًا لِلَّهِ وَمُرَادًا لَهُ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ، فَهَاهُوَ الدَّوَاءُ الْمُرُّ طَعْمًا، الْحَبِيثُ رَائِحَةً - يَتَنَاوَلُهُ الْمَرِيضُ وَهُوَ مُرْتَاخٌ؛ لِأَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ مَصْلَحَةِ الشِّفَاءِ، وَهَاهُوَ الْأَبُ يُمْسِكُ بَابِيهِ الْمَرِيضَ لِيَكُونَهُ الطَّيِّبُ، وَرَبِّمَا كَوَاهُ هُوَ بِنَفْسِهِ، مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَشَدَّ الْكُرْهُ أَنْ يُحْرِقَ ابْنَهُ بِالنَّارِ.



﴿قَوْلُهُ: «وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ».﴾

هذا صحيح؛ فالعبد هو المباشِر لفِعْلِهِ حَقِيقَةً، والله خَالِقُ فِعْلِهِ حَقِيقَةً، وهذه عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وقد سبق تَقْرِيرُهَا بِالْأَدِلَّةِ.

وخالفَهُمْ فِي هَذَا الْأَصْلِ طَائِفَتَانِ:

الطائفة الأولى: القَدَرِيَّةُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا: إِنَّ الْعِبَادَ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَهُمْ.

الطائفة الثانية: الجَرِيَّةُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ، وَلَيْسُوا فَاعِلِينَ حَقِيقَةً، لَكِنْ أُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَابِ التَّجَوُّزِ، وَإِلَّا فَالْفَاعِلُ حَقِيقَةً هُوَ اللَّهُ.

وهذا الْقَوْلُ يُؤَدِّي إِلَى الْقَوْلِ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ هُوَ اللَّهُ، ثُمَّ يُؤَدِّي إِلَى قَوْلٍ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَ مِنْهُمْ الزَّانِي، وَمِنْهُمْ السَّارِقُ، وَمِنْهُمْ شَارِبُ الْحَمْرِ، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِي بِالظُّلْمِ، فَحَاشَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ مَنْسُوبَةً إِلَى اللَّهِ!! وَلَهُ لَوَازِمٌ بِاطِلَّةٌ أُخْرَى.

وبهذا تَبَيَّنَ أَنَّ فِي قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ: «وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ» رَدًّا عَلَى الْجَرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.



﴿قَوْلُهُ: «وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ».﴾

يعني: أَنَّ الْوَصْفَ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالْبَرِّ وَالْفُجُورِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَصْفٌ لِلْعَبْدِ لَا لِعَبْدِهِ، فَهُوَ الْمُؤْمِنُ، وَهُوَ الْكَافِرُ، وَهُوَ الْبَارُّ، وَهُوَ الْفَاجِرُ، وَهُوَ الْمُصَلِّي، وَهُوَ الصَّائِمُ... وكذلك هُوَ الْمُرْكَبُ، وَهُوَ الْحَاجُّ، وَهُوَ الْمُعْتَمِرُ... وهكذا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ بِمَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ حَقِيقَةً.

وهذه الْجُمْلَةُ تَتَضَمَّنُ الرَّدَّ عَلَى الْجَرِيَّةِ.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ:

■ فالعامة: هِيَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣].

■ والعبودية الخاصة: هِيَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِ اللَّهِ الشَّرْعِيِّ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وَهَذِهِ أَحْصَى مِنَ الْأَوَّلَى.



■ قَوْلُهُ: «وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ».

■ «لِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَلَهُمْ إِرَادَةٌ» خِلَافًا لِلجَبَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُمْ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ وَلَا إِرَادَةَ، بَلْ هُمْ مُجْبَرُونَ عَلَيْهَا.

■ «وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ» خِلَافًا لِلْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ خَالِقًا لِفِعْلِ الْعَبْدِ وَلَا لِإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَكَانَ الْمُؤَلَّفُ يُشِيرُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ إِلَى وَجْهِ كَوْنِ فِعْلِ الْعَبْدِ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ فِعْلُهُ صَادِرٌ عَنْ قُدْرَةِ وَإِرَادَةِ، وَخَالِقُ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ هُوَ اللَّهُ، وَمَا صَدَرَ عَنْ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ.

وَيُشِيرُ بِهَا أَيْضًا إِلَى كَوْنِ فِعْلِ الْعَبْدِ اخْتِيَارِيًّا لَا إِجْبَارِيًّا؛ لِأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ قُدْرَةِ وَإِرَادَةِ، فَلَوْلَا الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ الْفِعْلُ، وَلَوْلَا الْإِرَادَةُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ الْفِعْلُ، وَلَوْ كَانَ الْفِعْلُ إِجْبَارِيًّا مَا كَانَ مِنْ شَرْطِهِ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ.

■ ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلَّفُ لَذَلِكَ فَقَالَ:

«كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْقِيَ﴾^{١٨} وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»

[التكوير: ٢٨-٢٩].

فَقَوْلُهُ: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْقِيَ»: فِيهَا رَدٌّ عَلَى الْجَبَرِيَّةِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ.

* قَوْلُهُ: «وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ».

أَي: دَرَجَةُ الْمَشِيئَةِ وَالْحَلْقِ.

«يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةَ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ».

* «عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ» أَي: أَكْثَرُهُمْ، يُكَذِّبُونَ بِهِذِهِ الدَّرَجَةَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ مَشِيئَةٌ وَلَا خَلْقٌ.

* «وَسَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١)؛ لِأَنَّ الْمَجُوسَ يَقُولُونَ: إِنَّ لِلْحَوَادِثِ خَالِقَيْنِ: خَالِقًا لِلْخَيْرِ، وَخَالِقًا لِلشَّرِّ! فَخَالِقُ الْخَيْرِ هُوَ النُّورُ، وَخَالِقُ الشَّرِّ هُوَ الظُّلُمَةُ، فَالْقَدَرِيَّةُ يُسَبِّهُونَ هَؤُلَاءِ الْمَجُوسَ مِنْ وَجْهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَوَادِثَ نَوْعَانِ: حَوَادِثُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ، فَهَذِهِ خَلْقُ اللَّهِ، وَحَوَادِثُ مِنْ فِعْلِ الْعِبَادِ، فَهَذِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِقْلَالًا، وَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا خَلْقٌ.

* قَوْلُهُ: «وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا».

* «يَغْلُو فِيهَا» أَي: فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ.

* «قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ» أَي: إِثْبَاتِ الْقَدَرِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٦/٢)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩١)، والآجري في الشريعة رقم (٣٨٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٤٠٦/٥ - ٤٠٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٣٢٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (١١٥٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر». والحديث حسنه الألباني بمجموع طرقه في «ظلال الجنة» (١/١٤٥).

وهؤلاء القوم هم الجبريَّة؛ حيث إنهم سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إنه مجبرٌ على عمله؛ لأنه مكتوب عليه.

* قوله: «ويُخْرِجُونَ عَنْ أفعالِ الله وأحكامِهِ حكمَهَا ومصالحَهَا». «يُخْرِجُونَ»: معطوفةٌ على قوله: «يَغْلُو».

ووجه كونهم يُخْرِجُونَ الحِكمَ والمصالحَ عَنْ أفعالِ الله وأحكامِهِ: أنَّهم لَا يُثْبِتُونَ لله حِكْمَةً أو مصلَحَةً، فهو يفعلُ ويحكمُ لِمَجَرَّدِ مِشِيئَةٍ؛ ولهذا يُثَبِّطُ المطيعَ وإن كان مُجْبَرًا على الفعلِ، ويُعاقِبُ العاصيَ وإن كان مُجْبَرًا على الفعلِ. ومن المعلومِ أنَّ المُجْبَرَ لَا يَسْتَحِقُّ الحمدَ على محمودٍ، وَلَا الذَّمَّ على مذمومٍ؛ لأنه بغيرِ اختيارِهِ.

وهنا مسألةٌ يَحْتَجُّ بها كثيرٌ مِنَ العُصاةِ: إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْهِ الْمُنْكَرَ قَالَ: هَذَا هُوَ مَا قَدَرَهُ اللهُ عَلَيَّ، أَتَعْرِضُ عَلَى اللهِ؟! فَيَحْتَجُّ بِالْقَدْرِ عَلَى معاصيِ الله، ويقولُ: أَنَا عَبْدٌ مُسِيرٌ! ثُمَّ يَحْتَجُّ أَيْضًا بِحَدِيثِ: «نَحَاجَ آدَمَ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ أَبُونَا، خَيَّيْنَا وَأَخْرَجْنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى! اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ! أَتُلَوْنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!»، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» قَالَهَا ثَلَاثًا^(١)، وعند أحمد: «فَحَجَّهُ آدَمُ»^(٢)، وهي صريحةٌ في أَنَّ آدَمَ عَلَبَ مُوسَى بِالْحُجَّةِ.

قال: فَهَذَا آدَمُ لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَيْهِ مُوسَى اخْتَجَّ عَلَيْهِ بِالْقَدْرِ، وَآدَمُ نَبِيٌّ، وَمُوسَى رَسُولٌ، فَسَكَتَ مُوسَى، فَلِمَاذَا تَحْتَجُّ عَلَيَّ؟

والجوابُ على حديثِ آدَمَ:

■ أَمَّا عَلَى رَأْيِ الْقَدَرِيَّةِ: فَإِنَّ طَرِيقَتَهُمْ أَنَّ أَخْبَارَ الْأَحَادِ لَا تُوجِبُ الْيَقِينَ، قَالُوا: وَإِذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب نَحَاجَ آدَمَ وَمُوسَى عند الله، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢/٢٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَارَضَتِ الْعَقْلَ وَجَبَ أَنْ تَرُدَّ. وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ قَالُوا: هَذَا لَا يَصِحُّ، وَلَا نَقْبَلُهُ، وَلَا نُسَلِّمُ بِهِ.

■ أَمَّا الْجَبَرِيَّةُ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ، وَدَلَالَتُهُ حَقٌّ، وَلَا يُلَامُ الْعَبْدُ عَلَى مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ.

■ أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَقَالُوا: إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَعَلَ الذَّنْبَ، وَصَارَ ذَنْبُهُ سَبَبًا لِحُزْرِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، لَكِنَّهُ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ، وَبَعْدَ تَوْبَتِهِ اجْتَبَاهُ اللَّهُ وَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَمِنْ الْمَحَالِ أَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُوَ أَحَدُ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ - يَلُومُ أَبَاهُ عَلَى شَيْءٍ تَابَ مِنْهُ ثُمَّ اجْتَبَاهُ اللَّهُ بَعْدَهُ وَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ، وَإِنَّا لَللَّوْمِ عَلَى الْمُعْصِيَةِ الَّتِي حَصَلَتْ بِفِعْلِهِ، وَهِيَ إِخْرَاجُ النَّاسِ وَنَفْسِهِ مِنَ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ سَبَبَ هَذَا الْإِخْرَاجِ هُوَ مَعْصِيَةُ آدَمَ. عَلَى أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا لِيُخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ حَتَّى يُلَامَ، فَكَيْفَ يَلُومُهُ مُوسَى؟!

وهَذَا وَجْهٌ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرْذَلْ لَوَمِ آدَمَ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ، إِنَّمَا عَلَى الْمُعْصِيَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِلْجَبَرِيَّةِ. فَتَحْنُ نَقْبَلُهُ وَلَا نُنْكِرُهُ كَمَا فَعَلَ الْقَدَرِيُّ، وَلَكِنَّا لَا نَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ كَمَا فَعَلَ الْجَبَرِيُّ.

وهناك جواب آخر أشار إليه ابن القيم ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ: الْإِنْسَانُ إِذَا فَعَلَ الْمَعْصِيَةَ وَاحْتَجَّ الْإِنْسَانُ بِالْقَدَرِ عَلَيْهَا بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْهَا، فَلَا بَأْسَ بِهِ.

ومعناه: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ أَنْ ثُبِتَ مِنْهَا، وَقُلْتُ: هَذَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي هَذَا. فَادَّعَى أَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ بَعْدَ أَنْ تَابَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ وَجْهٌ حَسَنٌ، لَكِنْ يُبْعَدُهُ أَنَّ مُوسَى لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلُومَ آدَمَ عَلَى مَعْصِيَةٍ تَابَ مِنْهَا.

وَرَجَّحَ ابْنُ الْقَيْمِ قَوْلَهُ هَذَا بِمَا جَرَى لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ طَرَّقَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟». فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص: ١٨).

أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا. فَأَنْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَضْرِبُ فِخْذَهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] ^(١).

وعندي أن في الاستدلال بهذا الحديث نظرًا؛ لأنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ احتجَّ بالقدر بنوميه، والإنسان النائم له أن يَحْتَجَّ بالقدر؛ لأنَّ فعله لا يُنسَبُ إليه؛ ولهذا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْكَهْفِ: ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ أَلَمَيْنِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، فَنسَبَ التَّقْلِبَ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَتَقَلَّبُونَ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ بَغْيَرُ إِرَادَةِ مِنْهُمْ لَمْ يُضَفْهُ إِلَيْهِمْ.

وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ فِي الْجَوَابِ عَنْ حَدِيثِ آدَمَ وَمُوسَى - وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - هُوَ الصَّوَابُ.

فإذن: لَا حُجَّةَ لِلْجَبَرِيِّ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَلَا لِلْعَصَاةِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لاختِجَاجِهِمْ بِالْقَدَرِ.

فنقول له: إِنَّ اخْتِجَاجَكَ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعَاصِي يُبْطِلُهُ السَّمْعُ وَالْعَقْلُ وَالْوَاقِعُ:

■ فَأَمَّا السَّمْعُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قَالُوا ذَلِكَ اخْتِجَاجًا بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: كَذَّبُوا الرُّسُلَ، وَاخْتَجَّجُوا بِالْقَدَرِ ﴿حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَا﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُجَّتَهُمْ بَاطِلَةٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ حُجَّةً مَقْبُولَةً مَا دَافُوا بِأَسْنَا.

وَدَلِيلُ سَمْعِي آخَرُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً مَا بَطَلَتْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَدَرُ لَا يَبْطُلُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، بَلْ هُوَ بَاقٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل، رقم (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: يَرُدُّ عَلَيْكَ فِي الدَّلِيلِ الْأَوَّلِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿أَتَبَعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿[الأنعام: ١٠٦-١٠٧]، فُهنا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.

فنقول: إِنَّ قَوْلَ الْإِنْسَانِ عَنِ الْكُفَّارِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ قَوْلٌ صَحِيحٌ وَجَائِزٌ، لَكِنْ قَوْلُ الْمُشْرِكِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] يُرِيدُ أَنْ يَخْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ قَوْلٌ بَاطِلٌ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا قَالَ لِرَسُولِهِ هَكَذَا؛ تَسْلِيَةً لَهُ وَبَيَانًا أَنَّ مَا وَقَعَ فَهُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

■ وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى بُطْلَانِ احْتِجَاجِ الْعَاصِي بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ لَهُ: مَا الَّذِي أَعْلَمَكَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ لَكَ أَنْ تَعْصِيَهُ قَبْلَ أَنْ تَعْصِيَهُ؟ فَنَحْنُ جَمِيعًا لَا نَعْلَمُ مَا قَدَّرَ اللَّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ، أَمَّا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فَلَا نَذْرِي مَاذَا يُرَادُ بِنَا. فنقول للعاصي: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ قَبْلَ أَنْ تُمَارِسَ الْمَعْصِيَةَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ لَكَ الْمَعْصِيَةَ؟ سيقول: لَا.

فنقول: إِذَنْ: لِمَاذَا لَمْ تُقَدِّرْ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ لَكَ الطَّاعَةَ وَتُطِيعَ اللَّهَ؟! فَالْبَابُ أَمَامَكَ مَفْتُوحٌ، فَلَمَّاذَا لَمْ تَدْخُلْ مِنَ الْبَابِ الَّذِي تَرَاهُ مُصْلِحَةً لَكَ؛ لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ مَا قَدَّرَ لَكَ. وَاحْتِجَاجُ الْإِنْسَانِ بِحُجَّةٍ عَلَى أَمْرٍ فَعَلَهُ قَبْلَ أَنْ تَتَقَدَّمَ حُجَّتُهُ عَلَى فِعْلِهِ احْتِجَاجٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْحُجَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ طَرِيقًا يَمْشِي بِهِ الْإِنْسَانُ؛ إِذْ إِنَّ الدَّلِيلَ يَتَقَدَّمُ الْمَذْذُولَ. ونقول له أيضًا: أَلَسْتَ لَوْ ذُكِرَ لَكَ أَنَّ لِكَلِّهِ طَرِيقَيْنِ، أَحَدُهُمَا طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ آمِنٌ، وَالثَّانِي طَرِيقٌ صَعْبٌ مَخُوفٌ، أَلَسْتَ تَسْأَلُكَ الْآمِنُ؟ سيقول: بَلَى.

فنقول: إِذَنْ: لِمَاذَا تَسْأَلُكَ فِي عِبَادَتِكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ الْمَخُوفَ بِالْأَخْطَارِ، وَتَدْعُ الطَّرِيقَ الْآمِنَ الَّذِي تَكْفُلُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْآمِنِ لِمَنْ سَلَكَهُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآمِنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وَهَذِهِ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ.

ونقولُ له: لو أعلَنتِ الحُكُومَةُ عَنْ وَظِيفَتَيْنِ: إحداهُما بِالْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ، والثانيةُ بِالْمَرْتَبَةِ السُّفْلَى، فَأَيُّهُمَا تُرِيدُ؟ بَلَا شَكٍّ سَتُرِيدُ الْمَرْتَبَةَ الْعَالِيَةَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ تَأْخُذُ بِالْأَكْمَلِ فِي أُمُورِ دُنْيَاكَ. فَلِمَاذَا لَمْ تَأْخُذْ بِالْأَكْمَلِ فِي أُمُورِ دِينِكَ؟! وَهَلْ هَذَا إِلَّا تَنَاقُضٌ مِنْكَ؟! وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا وَجْهَ أَبَدًا لاجْتِنَاجِ الْعَاصِي بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



فَصْلٌ

فِي الْإِيمَانِ

* قَوْلُهُ: «فَصْلٌ: وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ».

* «الدِّينُ»: هُوَ مَا يُدَانُ بِهِ الْإِنْسَانُ، أَوْ يَدِينُ بِهِ، فَيُطْلَقُ عَلَى الْعَمَلِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْجَزَاءِ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿[الافتطار: ١٨-١٩]، فالمراد بالدِّينِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْجَزَاءُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] أَيْ: عَمَلًا تَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ. وَيُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أَيْ: كَمَا تَعْمَلُ تُجَارَى. وَالمرادُ بالدِّينِ فِي كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ: الْعَمَلُ.

وَأَمَّا «الْإِيمَانُ» فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ التَّصَدِيقُ.

وَلَكِنْ فِي هَذَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ فَلِئَلَّا تَتَعَدَّى بِتَعَدِّيَّتِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّصَدِيقَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، وَالْإِيمَانَ لَا يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، فَتَقُولُ مَثَلًا: صَدَّقْتُهُ، وَلَا تَقُولُ: آمَنْتُهُ! بَلْ تَقُولُ: آمَنْتُ بِهِ. أَوْ: آمَنْتُ لَهُ. فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُفَسِّرَ فِعْلًا لَازِمًا لَا يَتَعَدَّى إِلَّا بِحَرْفِ الْجَرِّ بِفِعْلِ مُتَعَدٍّ يَنْصِبُ الْمَفْعُولَ بِهِ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ (صَدَّقْتُ) لَا تُعْطِي مَعْنَى كَلِمَةِ (آمَنْتُ)، فَإِنَّ (آمَنْتُ) تَدُلُّ عَلَى طُمَأْنِينَةٍ بِخَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ (صَدَّقْتُ).

وَلِهَذَا لَوْ فُسِّرَ الْإِيمَانُ بِالْإِقْرَارِ لَكَانَ أَجْوَدَ، فَتَقُولُ: الْإِيمَانُ الْإِقْرَارُ، وَلَا إِفْرَارَ إِلَّا بِتَّصَدِيقٍ، فَتَقُولُ: أَقَرَّ بِهِ كَمَا تَقُولُ: آمَنْ بِهِ. وَأَقَرَّ لَهُ كَمَا تَقُولُ: آمَنْ لَهُ.

هَذَا فِي اللُّغَةِ.

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَقَالَ الْمُؤَلِّفُ: «قَوْلٌ وَعَمَلٌ».

وهَذَا تَعْرِيفٌ مُجْمَلٌ، فَصَّلَهُ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ:

«قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ».

فَجَعَلَ الْمُؤَلَّفُ لِلْقَلْبِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَجَعَلَ لِللِّسَانِ قَوْلًا وَعَمَلًا.

■ أَمَّا قَوْلُ اللِّسَانِ فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ وَهُوَ النُّطْقُ، وَأَمَّا عَمَلُهُ فَحَرَكَاتُهُ، وَلَيْسَتْ هِيَ النُّطْقُ، بَلِ النُّطْقُ نَاشِئٌ عَنْهَا إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْخَرَسِ.

■ وَأَمَّا قَوْلُ الْقَلْبِ فَهُوَ اغْتِرَافُهُ وَتَصْدِيقُهُ، وَأَمَّا عَمَلُهُ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَحْرِيكِهِ وَإِرَادَتِهِ، مِثْلُ الْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ، فَهَذَا عَمَلٌ قَلْبٍ، وَكَذَلِكَ التَّوَكُّلُ وَالرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ، فَالْعَمَلُ لَيْسَ بِمَجْرَدِ الطَّمَأْنِينَةِ فِي الْقَلْبِ، بَلْ هُنَاكَ حَرَكَةٌ فِي الْقَلْبِ.

■ وَأَمَّا عَمَلُ الْجَوَارِحِ فَوَاضِحٌ، رُكُوعٌ وَسُجُودٌ وَقِيَامٌ وَقُعُودٌ، فَيَكُونُ عَمَلُ الْجَوَارِحِ إِيْمَانًا شَرْعًا؛ لِأَنَّ الْحَامِلَ لِهَذَا الْعَمَلِ هُوَ الْإِيْمَانُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيْنَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْإِيْمَانَ يَشْمَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؟

قُلْنَا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١)، فَهَذَا قَوْلُ الْقَلْبِ.

أَمَّا عَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ فَدَلِيلُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «الْإِيْمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ»^(٢)، فَهَذَا قَوْلُ اللِّسَانِ وَعَمَلُهُ وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ، وَالْحَيَاءُ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، وَهُوَ انْكَسَارُ يُصِيبُ الْإِنْسَانَ وَيَغْتَرِيهِ عِنْدَ وُجُودِ مَا يَسْتَلْزِمُ الْحَيَاءَ.

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الْإِيْمَانَ يَشْمَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا شَرْعًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم (٣٥)، من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، وقد أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩) بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

وَيَدُلُّ لَذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ الْمُفسِّرُونَ^(١): أَي: صَلَاتُكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ إِيْمَانًا، مَعَ أَنَّهَا عَمَلٌ جَوَارِحٌ وَعَمَلٌ قَلْبٍ وَقَوْلٌ لِسَانٍ.

هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَسُمُّوهُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْأَرْبَعَةِ لَا يَغْنِي أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا مَعَ تَخَلُّفِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ، لَكِنَّهُ يَنْقُصُ إِيْمَانُهُ بِقَدْرِ مَا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ.

وْخَالَفَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي هَذَا طَائِفَتَانِ بِذَعِيَّتَيْنِ مُتَطَرِّفَتَانِ:

الطَّائِفَةُ الْأُولَى: الْمُرْجِيَّةُ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِيْمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِالْقَلْبِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَيْسَ

مِنَ الْإِيْمَانِ!!

وَلِهَذَا كَانَ الْإِيْمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّهُ إِقْرَارُ الْقَلْبِ، وَالنَّاسُ فِيهِ سَوَاءٌ، فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَالَّذِي يَعْبُدُ اللَّهَ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عِنْدَهُمْ، مَا دَامَتْ مَعْصِيَتُهُ لَا تَخْرِجُهُ مِنَ الدِّينِ!!

فَلَوْ وَجَدْنَا رَجُلًا يَزِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَيَعْتَدِي عَلَى النَّاسِ، وَرَجُلًا آخَرَ مُتَّقِيًا لِلَّهِ بَعِيدًا عَنِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، لَكَانَا عِنْدَ الْمُرْجِيَّةِ فِي الْإِيْمَانِ وَالرَّجَاءِ سَوَاءً، كُلُّهُمَا لَا يُعَذِّبُ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ غَيْرَ دَاخِلَةٍ فِي مُسَمَّى الْإِيْمَانِ.

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَّةُ: الْحَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِّلَةُ: قَالُوا: إِنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيْمَانِ، وَأَنَّهَا شَرْطٌ فِي بَقَائِهِ، فَمَنْ فَعَلَ مَعْصِيَةً مِنَ الْكِبَائِرِ خَرَجَ مِنَ الْإِيْمَانِ.

لَكِنِ الْحَوَارِجُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ كَافِرٌ. وَالْمُعْتَزِّلَةُ يَقُولُونَ: هُوَ فِي مَنَزِلَةٍ بَيْنَ مَنَزِلَتَيْنِ، فَلَا نَقُولُ: مُؤْمِنٌ. وَلَا نَقُولُ: كَافِرٌ. بَلْ نَقُولُ: خَرَجَ مِنَ الْإِيْمَانِ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْكُفْرِ، وَصَارَ فِي مَنَزِلَةٍ بَيْنَ مَنَزِلَتَيْنِ.

هَذِهِ أَقْوَالُ النَّاسِ فِي الْإِيْمَانِ.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٤٥٨)، و«الدر المنثور» (١/٣٥٣).

﴿قَوْلُهُ: «وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ».

هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «أَنَّ الدِّينَ...» إلخ. أي: أَنَّ مِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

وَيَسْتَدِلُّونَ لَذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

■ فَمِنَ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٢٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَسْتَفِيزَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا﴾ [المَدَّثَر: ٣١]، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي ثُبُوتِ الزِّيَادَةِ.

■ وَأَمَّا النِّقْصُ: فَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَعَظَ النِّسَاءَ وَقَالَ لَهُنَّ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لَلْبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِخْدَاكُنَّ»^(١)، فَأَثْبَتَ نَقْصَ الدِّينِ.

ثُمَّ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ نَصٌّ فِي ثُبُوتِ النِّقْصِ فَإِنَّ إِبْنَاتِ الزِّيَادَةِ مُسْتَلْزِمٌ لِلنِّقْصِ، فَنَقُولُ: كُلُّ نَصٍّ يَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَقْصِهِ.

وَأَسْبَابُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ أَرْبَعَةٌ:

الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا زَادَ الْإِنْسَانُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ زَادَ إِيْمَانُهُ.

الثَّانِي: النَّظَرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الْعَاشِيَةُ: ١٧ - ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونُس: ١٠١].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَلَّمَا ارْزَادَ الْإِنْسَانُ عَلِمًا بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ مِنْ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْ الْحِكَمِ الْبَالِغَاتِ ارْزَادَ إِيْمَانًا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك النَّظَرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ إِيْمَانًا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لَأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ - وَهِيَ الْأَحْكَامُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ - وَجَدْتَ فِيهَا مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ مِنَ الْحِكَمِ الْبَالِغَةِ وَالْأَسْرَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَعْرِفُ بِهَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، فَتَزْدَادُ بِذَلِكَ إِيْمَانًا.

الثالث: كَثْرَةُ الطَّاعَاتِ وَإِحْسَانُهَا؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةً فِي الْإِيْمَانِ، وَإِذَا كَانَتْ دَاخِلَةً فِيهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَزِيدَ بِكَثْرَتِهَا.

السبب الرابع: تَرْكُ الْمَعْصِيَةِ؛ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَزْدَادُ بِذَلِكَ إِيْمَانًا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أسبابُ نَقْصِ الْإِيْمَانِ أَرْبَعَةٌ:

الأول: الْإِعْرَاضُ عَنِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

الثاني: الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ؛ فَإِنَّ هَذَا يُوجِبُ الْغَفْلَةَ وَقَسْوَةَ الْقَلْبِ.

الثالث: قِلَّةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَيَدُلُّ لَذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي النَّسَاءِ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبُّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نَقْصَانُ دِينِنَا؟ قَالَ: «أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تُصُمْ؟»^(١).

الرابع: فِعْلُ الْمَعَاصِي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وخالفَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَوْلِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ طَائِفَتَانِ: الطَّائِفَةُ الْأُولَى: الْمُرْجِئَةُ، وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: الْحَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان

نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطائفة الأولى: المُرَجَّة، قالوا: إِنَّ الإيمانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ؛ لِأَنَّ الأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الإيمانِ حَتَّى يَزِيدَ بَرِيادَتِهَا وَيَنْقُصَ بِنُقْصَانِهَا، فالإيمانُ هُوَ إِقْرَارُ القلبِ، والإقْرَارُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ.

ونحنُ نَرُدُّ عَلَيْهِمْ فنقولُ:

أولاً: إخراجُكُمُ الأَعْمَالَ مِنَ الإيمانِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ فَإِنَّ الأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي الإيمانِ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ الدَّلِيلِ.

ثانياً: قولُكم: «إِنَّ الإقْرَارَ بِالقلبِ لَا يَحْتَلِفُ زِيَادَةً وَنَقْصًا» لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلِ الإقْرَارُ بِالقلبِ يَتَفَاضَلُ، فَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ إِيْمَانِي كإِيْمَانِ أَبِي بَكْرٍ!! بَلْ يَتَعَدَّى وَيَقُولُ: إِنَّ إِيْمَانِي كإِيْمَانِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ!!

ثُمَّ نقولُ: إِنَّ الإقْرَارَ بِالقلبِ يَقْبَلُ التَّفَاضُلَ، فإقْرَارُ القلبِ بِخَيْرِ الْوَاحِدِ لَيْسَ كإِقْرَارِهِ بِخَيْرِ اثْنَيْنِ، وإِقْرَارُهُ بِمَا سَمِعَ لَيْسَ كإِقْرَارِهِ بِمَا شَاهَدَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْتُمْ يَكْفُرُ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإيمانَ الْكَائِنَ فِي القلبِ يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَ.

ولهذا قَسَمَ الْعُلَمَاءُ دَرَجَاتِ الْيَقِينِ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ: عِلْمُ الْيَقِينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

الطائفةُ الثانيةُ الْمُخَالَفَةُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ طَائِفَةُ الْوَعِيدِيَّةِ، وَهَذِهِ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَرِلَةُ، وَسُمُّوا وَعِيدِيَّةً؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَحْكَامِ الْوَعِيدِ دُونَ أَحْكَامِ الْوَعْدِ، أَيْ: يُغْلَبُونَ نُصُوصَ الْوَعِيدِ عَلَى نُصُوصِ الْوَعْدِ، فَيُخْرِجُونَ فَاعِلَ الْكِبِيرَةِ مِنَ الإيمانِ، لَكِنِ الْخَوَارِجُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَارِجٌ مِنَ الإيمانِ دَاخِلٌ فِي الْكُفْرِ. وَالْمُعْتَرِلَةُ يَقُولُونَ: خَارِجٌ مِنَ الإيمانِ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي الْكُفْرِ، بَلْ هُوَ فِي مَنزِلَةٍ بَيْنَ مَنزِلَتَيْنِ.

وَمُنَاقَشَةُ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ -الْمُرَجَّةُ وَالْوَعِيدِيَّةُ- فِي الْكُتُبِ الْمُطَوَّلَاتِ.

* قَوْلُهُ: «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ».

أَي: مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ.

«لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ».

أَهْلُ الْقِبْلَةِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ وَإِنْ كَانُوا عُصَاةً؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ قِبْلَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ الْكَعْبَةُ.

فَالْمُسْلِمُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُكْفَرُ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ.

وَتَأْمَلْ قَوْلَ الْمُؤَلِّفِ: «بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي» وَلَمْ يَقُلْ: بِالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِي مِنْهَا مَا يَكُونُ كُفْرًا، وَأَمَّا مُطْلَقُ الْمَعْصِيَةِ فَلَا يَكُونُ كُفْرًا.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشَّيْءِ الْمَطْلُوقِ وَمُطْلَقِ الشَّيْءِ: أَنَّ الشَّيْءَ الْمَطْلُوقَ يَعْنِي الْكَمَالَ، وَمُطْلَقُ الشَّيْءِ يَعْنِي: أَصْلَ الشَّيْءِ.

فَالْمُؤْمِنُ الْفَاعِلُ لِلْكِبِيرَةِ عِنْدَهُ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ، فَأَصْلُ الْإِيمَانِ مَوْجُودٌ عِنْدَهُ، لَكِنْ كَمَالُهُ مَفْقُودٌ.

فَكَلَامُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ دَقِيقٌ جَدًّا.

* قَوْلُهُ: «كَمَا يَفْعَلُهُ الْحَوَارِجُ».

يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ فَاعِلَ الْكِبِيرَةِ كَافِرٌ؛ وَلِهَذَا خَرَجُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَبَاحُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

* قَوْلُهُ: «بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي».

يَعْنِي: أَنَّ الْأُخُوَّةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ثَابِتَةٌ! وَلَوْ مَعَ الْمَعْصِيَةِ، فَالزَّانِي أَخٌ لِلْعَفِيفِ، وَالسَّارِقُ أَخٌ لِلْمَسْرُوقِ مِنْهُ، وَالْقَاتِلُ أَخٌ لِلْمَقْتُولِ.



* ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلَّفُ لَذَلِكَ فَقَالَ:

«كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾

[البقرة: ١٧٨].

آيَةُ الْقِصَاصِ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الْآيَةَ، وَالْمَرَادُ بِـ«أَخِيهِ» هُوَ الْمَقْتُولُ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ فَاعِلَ الْكِبِيرَةِ لَا يَكْفُرُ: أَنَّ اللَّهَ سَمَّى الْمَقْتُولَ أَخًا لِلْقَاتِلِ، مَعَ أَنَّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ كِبِيرَةٌ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

* وَقَالَ:

﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوهُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [الحجرات: ٩-١٠].

وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرُ لِقَوْلِ أَهْلِ الشُّنَّةِ: إِنَّ فَاعِلَ الْكِبِيرَةِ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ.

﴿أَفْتَنَلُوهُمَا﴾ جَمَعَ، و﴿بَيْنَهُمَا﴾ مُثْنًى، و﴿طَائِفَتَيْنِ﴾ مُثْنًى، فَكَيْفَ يَكُونُ مُثْنًى وَجَمْعٌ وَمُثْنًى آخَرُ وَالْمَرْجِعُ وَاحِدٌ؟!

نَقُولُ: لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿طَائِفَتَيْنِ﴾: الطَّائِفَةُ عِدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَصِحُّ أَنْ أَقُولَ: أَفْتَنَلُوهُ. وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَأْتِي طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ تُصَلِّ. فَالطَّائِفَةُ أُمَّةٌ وَجَمَاعَةٌ؛ وَلِهَذَا عَادَ الصَّيْبُ إِلَيْهَا جَمْعًا، فَيَكُونُ الصَّيْبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفْتَنَلُوهُ﴾ عَائِدًا إِلَى الْمَعْنَى، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عَائِدًا إِلَى اللَّفْظِ.

فَهَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوهُمَا وَحَمَلَ السَّلَاحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَقَتَالَ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كُفْرًا، وَمَعَ هَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِالصُّلْحِ بَيْنَهُمَا لِلطَّائِفَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي لَمْ تَدْخُلِ الْقِتَالَ: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿٩١﴾ [الحجرات: ٩-١٠]، فَجَعَلَ
 اللَّهُ تَعَالَى الطَّائِفَةَ الْمُصَلِّحَةَ إِخْوَةً لِلطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَبِلَتَيْنِ.

وَعَلَى هَذَا: فِيهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكَبَائِرَ لَا تُخْرِجُ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَعَلَى هَذَا: لَوْ مَرَزَتْ بِصَاحِبِ كَبِيرَةٍ فَإِنِّي أَسْلَمْتُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ مِنْ حُقُوقِ
 الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ: «إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ»^(١)، وَهَذَا الرَّجُلُ مَا زَالَ مُسْلِمًا، فَأَسْلَمْتُ عَلَيْهِ، إِلَّا
 إِذَا كَانَ فِي هَجْرِهِ مُصَلِّحَةً، فَحِينَئِذٍ أَهْجَرُهُ لِلْمُصَلِّحَةِ، كَمَا جَرَى لَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبِيهِ
 الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَهَجَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ خَمْسِينَ لَيْلَةً حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(٢).

وَهَلْ نُجِبُهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ أَوْ نَكْرُهُهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ؟

نَقُولُ: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، نُجِبُهُ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَكْرُهُهُ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، وَهَذَا
 هُوَ الْعَدْلُ.



* قَوْلُهُ: «وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكُلِّيَّةِ».

* «الْفَاسِقُ»: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ.

وَالْفُسْقُ - كَمَا أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا - يَنْقَسِمُ إِلَى فُسْقٍ أَكْبَرَ يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، وَفُسْقٍ أَصْغَرَ لَيْسَ يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ،
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يُنَبِّئُ فَنَبِّئُوهُمْ أَنَّ نُصِيبُوا قَوْمًا بِمِصْرِهِمْ﴾ [الحجرات: ٦].
 وَالْفَاسِقُ الَّذِي لَا يُخْرِجُ مِنَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ، وَهُوَ مَنْ فَعَلَ كَبِيرَةً، أَوْ أَصَرَّ
 عَلَى صَغِيرَةٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، رَقْمُ (١٢٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ السَّلَامِ، بَابُ مَنْ
 حَقَّ الْمُسْلِمُ لِلْمُسْلِمِ رَدُّ السَّلَامِ، رَقْمُ (٥/٢١٦٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْفَلِظُ لِمُسْلِمٍ.
 (٢) قِصَّةُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَخْرَجَهَا الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، رَقْمُ (٤٤١٨)، وَمُسْلِمٌ:
 كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبِيهِ، رَقْمُ (٢٧٦٩)، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا قَالَ الْمُؤَلَّفُ: «الْمَلْسَى» يَعْنِي: الْمُتَسَبِّبَ إِلَى الْمِلَّةِ، الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا.
فَأَهْلُ الشُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولُوا:
إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، لَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ هَذَا نَاقِصُ الْإِسْلَامِ أَوْ نَاقِصُ الْإِيمَانِ.
* قَوْلُهُ: «وَلَا يُحْلِدُونَهُ فِي النَّارِ».

مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَلَا يَسْلُبُونَ»: وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: «كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ»: عَائِدًا
لِلْأَمْرَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ يَسْلُبُونَهُ الْإِسْلَامَ وَيُحْلِدُونَهُ فِي النَّارِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ الْكُفْرَ.
* قَوْلُهُ: «بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ».

مِرَادُ الْمُؤَلَّفِ بِ«الْمُطْلَقِ» هُنَا يَعْنِي: إِذَا أُطْلِقَ الْإِيمَانُ فَالْوَصْفُ يَعُودُ إِلَى الْاسْمِ لَا إِلَى
الْإِيمَانِ، كَمَا سَيَبَيِّنُ مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ، الشَّامِلُ لِلْفَاسِقِ
وَالْعَدْلِ.

* قَوْلُهُ: «كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]».

فَإِنَّ (الْمُؤْمِنَةَ) هُنَا يَدْخُلُ فِيهِ الْفَاسِقُ.

فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا اشْتَرَى رَقِيقًا فَاسِقًا وَأَعْتَقَهُ فِي كَفَّارَةٍ، أَجْزَأُهُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فَكَلِمَةُ ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ تَشْمَلُ الْفَاسِقَ وَغَيْرَهُ.

* قَوْلُهُ: «وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ».

أَيُّ: فِي مُطْلَقِ اسْمِ الْإِيمَانِ.

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فـ ﴿إِنَّمَا﴾ أَدَاءُ حَصْرِ، يَعْنِي: مَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا هَؤُلَاءِ، وَالْمُرَادُ
بِالْمُؤْمِنِينَ يَعْنِي: ذَوِي الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ الْكَامِلِ.

فَلَا يَدْخُلُ فِي الْمُؤْمِنِينَ هُنَا الْفَسَّاقُ؛ لِأَنَّ الْفَاسِقَ لَوْ تَلَوَتْ عَلَيْهِ آيَاتِ اللَّهِ مَا زَادَتْهُ إِيْمَانًا،
وَلَوْ ذَكَرَتْ اللَّهُ لَهُ لَمْ يَوْجَلْ قَلْبُهُ.

فَبَيَّنَ الْمُؤَلِّفُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ يُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِيمَانُ الْمَطْلُوقُ.

فَإِذَا رَأَيْنَا رَجُلًا: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ لَمْ يَوَجَلْ قَلْبُهُ، وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُهُ لَمْ يَزِدْ إِيمَانًا، فَيَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ. وَيَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ. فنقول: مُؤْمِنٌ. أي: مَعَهُ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ، بَعْنِي: أَصْلُهُ، وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، أي: لَيْسَ مَعَهُ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ.

❖ قَوْلُهُ: «وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَزِيهِ الرَّائِي حِينَ يَزِيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١).

هَذَا مِثَالٌ ثَانٍ لِلْإِيمَانِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْإِيمَانُ الْمَطْلُوقُ، أَيِ: الْكَامِلِ.

قَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَزِيهِ الرَّائِي حِينَ يَزِيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»: هُنَا نَقَى عَنْهُ الْإِيمَانُ الْكَامِلَ حِينَ زِنَاهُ، أَمَّا بَعْدَ أَنْ يَفْرُغَ مِنَ الزَّنَا فَقَدْ يُؤْمِنُ، فَقَدْ يَلْحَقُهُ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ يُتِمَّ الزَّنَا فَيَتَوَبُّ، لَكِنْ حِينَ إِفْدَامِهِ عَلَى الزَّنَا لَوْ كَانَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ كَامِلٌ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، بَلْ إِيْمَانُهُ ضَعِيفٌ جَدًّا حِينَ أَقْدَمَ عَلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: «حِينَ يَزِيهِ»: اخْتِرَارًا مِنْ أَنَّهُ قَبْلَ الزَّنَا وَبَعْدَهُ تَخْتَلِفُ حَالُهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ لَمْ يَفْعَلِ الْفَاحِشَةَ، وَلَوْ هَمَّ بِهَا، فَهُوَ عَلَى أَمَلٍ أَلَّا يَقْدَمَ عَلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أَيِ: كَامِلِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَرُدُّعُهُ عَنْ سَرِقَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أَيِ: كَامِلِ الْإِيمَانِ.

«وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ»: «ذَاتَ شَرَفٍ» أَيِ: ذَاتَ قِيَمَةٍ عِنْدَ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا يَرْفَعُونَ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ «فَلَا يَنْتَهَبُهَا حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أَيِ: كَامِلِ الْإِيمَانِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب النهي بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هَذِهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الزَّنَا (وَهُوَ الْجِمَاعُ فِي فَرْجِ حَرَامٍ)، وَالسَّرِقَةُ (وَهِيَ اخْذُ الْمَالِ الْمُحْتَرَمِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ حِرْزِ مِثْلِهِ)، وَشُرْبُ الْخَمْرِ (وَالْمَرَادُ تَنَاوُلُهُ بِأَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، وَالْحَمَرُ كُلُّ مَا أَسْكَرَ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ وَالطَّرَبِ)، وَالنُّهْبَةُ الَّتِي لَهَا شَرَفٌ وَقِيَمَةٌ عِنْدَ النَّاسِ (قِيلَ: الْإِنْتِهَابُ: اخْذُ الْمَالِ عَلَى وَجْهِ الْغَنِيمَةِ) لَا يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْأَرْبَعَةَ أَحَدٌ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ حِينَ فَعَلِهِ لَهَا. فَاَلْمَرَادُ بِنَفْيِ الْإِيمَانِ هُنَا: نَفْيُ تَمَامِ الْإِيمَانِ.



* قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ:

«وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ بَيَّانُهُ فَاسِقٌ بِكِبَرِيَّتِهِ، فَلَا يُعْطَى الْأِسْمَ الْمَطْلُوقَ، وَلَا يُسَلَّبُ مُطْلَقُ الْأِسْمِ».

هَذَا بَيَانٌ لِلْوَصْفِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ مُطْلَقِ الشَّيْءِ وَالشَّيْءِ الْمَطْلُوقِ: أَنَّ الشَّيْءَ الْمَطْلُوقَ هُوَ الشَّيْءُ الْكَامِلُ، وَمُطْلَقُ الشَّيْءِ يَعْنِي: أَصْلَ الشَّيْءِ، وَإِنْ كَانَ نَاقِصًا. فَالْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ لَا يُعْطَى الْأِسْمَ الْمَطْلُوقَ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ الْأِسْمُ الْكَامِلُ، وَلَا يُسَلَّبُ مُطْلَقُ الْأِسْمِ، فَلَا نَقُولُ: لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ. بَلْ نَقُولُ: مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ. أَوْ: مُؤْمِنٌ بَيَّانُهُ فَاسِقٌ بِكِبَرِيَّتِهِ.

هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْعَدْلُ الْوَسْطُ. وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ طَوَائِفُ:

* الْمُرْجِيَّةُ، يَقُولُونَ: مُؤْمِنٌ كَامِلُ الْإِيمَانِ.

* وَالْحَوَارِجُ، يَقُولُونَ: كَافِرٌ.

* وَالْمُعْتَزِّلَةُ، يَقُولُونَ: فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ.



فَصْلٌ

فِي مَوْقِفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

* قَوْلُهُ: «وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».

أَي: مِنْ أَصْوَافِ عَقِيدَتِهِمْ.

* قَوْلُهُ: «سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

وَلَمْ يَقُلْ: (وَأَفْعَالِهِمْ)؛ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ مُتَعَدَّرَةٌ بَعْدَ مَوْتِ الصَّحَابَةِ، حَتَّى لَوْ فُرِضَ أَنَّ أَحَدًا نَبَشَ قُبُورَهُمْ وَأَخْرَجَ جَثَثَهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُؤْذِيهِمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ، لَكِنَّ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ مَوْتِ الصَّحَابَةِ نَحْوُهُمْ هُوَ مَا يَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَمَا يَنْطَلِقُ بِهِ اللِّسَانُ.

فَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. سَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنَ الْبُغْضِ وَالْغِلِّ وَالْحَقْدِ وَالْكَرَاهَةِ، وَسَلَامَةُ أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ لَا يَلِيْقُ بِهِمْ.

فَقُلُوبُهُمْ سَالِمَةٌ مِنْ ذَلِكَ، مَمْلُوءَةٌ بِالْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّعْظِيمِ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِهِمْ.

فَهُمْ يُحِبُّونَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُفَضِّلُونَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ مُحَبَّتَهُمْ مِنْ مُحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَ مُحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مُحَبَّةِ اللَّهِ.

وَأَلْسِنَتُهُمْ أَيْضًا سَالِمَةٌ مِنَ السَّبِّ وَالسَّتَمِ وَاللَّغَنِ وَالتَّفْسِيقِ وَالتَّكْفِيرِ، وَمَا أَشَبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي بِهِ أَهْلُ الْبِدْعِ. فَإِذَا سَلِمَتْ مِنْ هَذَا مُلِئَتْ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّرْضَى عَنْهُمْ، وَالتَّرْحَمِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ لِلْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أَوَّلًا: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ:

«خَيْرَ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١).

ثانياً: أَنَّهُمْ هُمُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ، فَمِنْهُمْ تَلَقَّتِ الْأُمَّةُ عَنْهُ الشَّرِيعَةَ.

ثالثاً: مَا كَانَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ.

رابعاً: أَنَّهُمْ تَنَزَّهُوا الْفَضَائِلَ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّدَقِ وَالنُّصْحِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ الَّتِي لَا تُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا مَنْ كَانَ يَقْرَأُ عَنْهُمْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ، بَلْ لَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ عَاشَ فِي تَارِيخِهِمْ، وَعَرَفَ مَنَاقِبَهُمْ وَفَضَائِلَهُمْ وَإِثَارَهُمْ وَاسْتَجَابَتَهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

فَنَحْنُ نُشْهَدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ عَلَى حَبَّةٍ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ، وَنُثْنِي عَلَيْهِمْ بِأَلْسِنَتِنَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، وَتَبَرُّاً مِنْ طَرِيقَيْنِ ضَالِّينَ: طَرِيقِ الرِّوَافِضِ الَّذِينَ يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ، وَيُغْلَوْنَ فِي آلِ الْبَيْتِ، وَمِنْ طَرِيقِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يَبْغِضُونَ آلَ الْبَيْتِ.

وَنَرَى أَنَّ لَالَ الْبَيْتِ إِذَا كَانُوا صَحَابَةً ثَلَاثَةَ حُقُوقٍ: حَقَّ الصُّحْبَةِ، وَحَقَّ الْإِيَابِ، وَحَقَّ الْقَرَابَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: «لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»: سَبَقَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ مَنْ اجْتَمَعَ بِهِ، مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَسُمِّيَ صَاحِبًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ بِالرَّسُولِ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ فَقَدِ التَّزَمَ اتِّبَاعَهُ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ صُحْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ. أَمَّا غَيْرُ الرَّسُولِ فَلَا يَكُونُ الشَّخْصُ صَاحِبًا لَهُ حَتَّى يُلَازِمَهُ مُلَازِمَةً طَوِيلَةً يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ بِهَا صَاحِبًا.

* ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَوْقِفِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِقَوْلِهِ:

«كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة (رضي الله عنهم)، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).

هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ آيَتَيْنِ سَابِقَتَيْنِ هُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَنْجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّانِدُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وَعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

* فَبَيَّنَّ قَوْلُهُ: «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا»: إِخْلَاصُ النِّيَّةِ، وَفِي قَوْلِهِ: «وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»: تَحْقِيقُ الْعَمَلِ، وَقَوْلُهُ: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّانِدُونَ»: أَيُّ: لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَكِنْ عَنْ صِدْقِ نِيَّةٍ.

ثُمَّ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: «وَالَّذِينَ نَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْآيَمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» [الحشر: ٩]، فَوَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَوْصَافٍ ثَلَاثٍ: «يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ»، «وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا»، «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ».

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ» [الحشر: ١٠]، وَهُمْ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَتَابِعُوهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ بِالْأُخُوَّةِ، وَبِأَتَمِّهِمْ سَبْقُوهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لَهُمْ.

فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ فِي ذَلِكَ وَقَدَحَ فِيهِمْ وَلَمْ يَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّهُمْ فَلَيْسَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا».

وَلَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قَوْمٍ يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ قَالَتْ: لَا تَعْجَبُونَ! هَؤُلَاءِ قَوْمٌ انْقَطَعَتْ أَعْمَالُهُمْ بِمَوْتِهِمْ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يَجْزِيَ أَجْرَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ!!^(١)

* وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا» وَلَمْ يَقُلْ: لِلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ؛ لِيَشْمَلَ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ وَغَيْرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) لما رواه جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: قيل لعائشة: «إن ناسًا يتناولون أصحاب النبي ﷺ، حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر» ذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٨/ ٥٥٤) وعزاه لرزين.

* «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» : وَلَرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ نَسْأَلُكَ الْمَغْفِرَةَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ.



* قَوْلُهُ: «وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).

* «طَاعَةُ»: مَعُطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «سَلَامَةٌ» أَي: مِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ... إلخ.

السَّبُّ: هُوَ الْقَذْحُ وَالْعَيْبُ، فَإِنْ كَانَ فِي عَيْبَةِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ غَيْبَةٌ.

* وَقَوْلُهُ: «أَصْحَابِي» أَي: الَّذِينَ صَحَبُوهُ، وَصُحْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَا شَكَّ أَنَّهَا تَحْتَلِفُ، صُحْبَةٌ قَدِيمَةٌ قَبْلَ الْفَتْحِ، وَصُحْبَةٌ مُتَأَخِّرَةٌ بَعْدَ الْفَتْحِ.

وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُخَاطَبُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حِينَ حَصَلَ بَيْنَهُ وَيَبْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ مَا حَصَلَ مِنَ الْمَشَاجِرَةِ فِي بَنِي جَدِيمَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَخَالِدٍ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي» وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَمثَالَهُ أَفْضَلُ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ سَبَقَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ لِهَذَا قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي» يُخَاطَبُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَمثَالُهُ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَأَمثَالِهِ، فَمَا بِالْكَ تَبَالُغَ النَّسْبَةِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ!!؟

وَقَوْلُهُ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا...» إلخ.

أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ بِدُونِ قَسَمٍ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* «أُحَدِّدُ»: جَبَلٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ مَعْرُوفٌ فِي الْمَدِينَةِ.

* وَالْمُدُّ: رُبْعُ الصَّاعِ.

* «وَلَا نَصِيفَهُ» أَيُّ: نِصْفُهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الطَّعَامِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُقَدَّرُ بِالْمُدِّ وَالنَّصِيفِ هُوَ الطَّعَامُ، أَمَّا الذَّهَبُ فَيُوزَنُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الذَّهَبِ، بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَنْفَقَ مِثْلُ أُحَدِّدْ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» يَعْنِي: مِنَ الذَّهَبِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَإِنْ قُلْنَا: مِنَ الطَّعَامِ. فَمِنَ الطَّعَامِ، وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ الذَّهَبِ. فَلْيَكُنْ مِنَ الذَّهَبِ، وَنِسْبَةُ الْمُدِّ أَوْ نِصْفِ الْمُدِّ مِنَ الذَّهَبِ إِلَى جَبَلٍ أُحَدِّدُ مِنَ الذَّهَبِ لَا شَيْءَ.

فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِذَا أَنْفَقَ الْإِنْسَانُ مِثْلَ أُحَدِّدْ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ، وَالْإِنْفَاقُ وَاحِدٌ، وَالْمُنْفَقُ وَاحِدٌ، وَالْمُنْفَقُ عَلَيْهِ وَاحِدٌ، وَكُلُّهُمْ بَشَرٌ، لَكِنْ لَا يَسْتَوِي الْبَشَرُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، فَهَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَهُمْ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ وَالْإِخْلَاصِ وَالِاتِّبَاعِ مَا لَيْسَ لغيرِهِمْ، فَلِإِخْلَاصِهِمُ الْعَظِيمِ، وَاتِّبَاعِهِمُ الشَّدِيدِ، كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِمْ فِيمَا يُنْفِقُونَ.

وَهَذَا النَّهْيُ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْبَّ الصَّحَابَةَ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَا أَنْ يَسْبَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ، فَإِنْ سَبَّهُمْ عَلَى الْعُمُومِ كَانَ كَافِرًا، بَلْ لَا شَكَّ فِي كُفْرٍ مَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ.

أَمَّا إِنْ سَبَّهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ فَيُنْظَرُ فِي الْبَاعِثِ لِذَلِكَ، فَقَدْ يَسُبُّهُمْ مِنْ أَجْلِ أَشْيَاءَ خَلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ أَوْ دِينِيَّةٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ حُكْمُهُ.



* قَوْلُهُ: «وَيَقْبَلُونَ».

أَيُّ: أَهْلُ السَّنَةِ.

* قَوْلُهُ: «مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ».

* الفضائل: جَمْعُ فَضِيلَةٍ، وَهُوَ مَا يَفْضَلُ بِهِ الْمَرْءُ غَيْرُهُ وَيُعَدُّ مَنْقَبَةً لَهُ.

* وَالْمَرَاتِبُ: الدَّرَجَاتُ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبُ، كَمَا سَيَذْكُرُهُمُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَمَا جَاءَ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ وَمَرَاتِبِهِمْ فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقْبَلُونَ ذَلِكَ:

■ فَمَثَلًا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَ عَنْهُمْ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ صِيَامٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ جِهَادٍ أَوْ غَيْرِ

ذَلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ.

■ وَيَقْبَلُونَ مَثَلًا مَا جَاءَ فِي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ

أَبُو بَكْرٍ بِجَمِيعِ مَالِهِ^(١)، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ.

■ وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ وَحْدَهُ صَاحِبَ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هِجْرَتِهِ فِي الْغَارِ.

■ وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَبِي بَكْرٍ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ

النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبَا بَكْرٍ»^(٢).

■ وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ فِي عُمَرَ وَفِي عُثْمَانَ وَفِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمَا جَاءَ فِي غَيْرِهِمْ مِنْ

الصَّحَابَةِ مِنَ الْفَضَائِلِ، يَقْبَلُونَ هَذَا كُلَّهُ.

■ وَكَذَلِكَ الْمَرَاتِبُ، فَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ فِي مَرَاتِبِهِمْ، فَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ هُمْ الْقِمَّةُ فِي

هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْمَرْتَبَةِ، وَأَعْلَاهُمْ مَرْتَبَةُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، كَمَا سَيَذْكُرُهُ

الْمُؤَلِّفُ.

... ..

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك؛ أي أن يخرج الرجل من ماله، رقم (١٦٧٨)، والترمذي:

كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ كِلَيْهِمَا، رقم (٣٦٧٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في «المشكاة» رقم (٦٠٣٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم:

كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من

حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «وَيُقَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ - وَهُوَ صَلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ - وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ».

ودليل ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

فَالَّذِينَ أَنْفَقُوا وَقَاتَلُوا قَبْلَ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكَانَ صَلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَالَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَأَنْفَقُوا وَقَاتَلُوا أَفْضَلُ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نَعْرِفُ ذَلِكَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِتَارِيخِ إِسْلَامِهِمْ، كَأَن تَرْجِعَ إِلَى (الإِصَابَةِ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ) لِابْنِ حَجَرٍ، أَوْ (الاسْتِيعَابِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ) لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَيَعْرِفُ أَنَّ هَذَا أَسْلَمَ مِنْ قَبْلُ أَوْ أَسْلَمَ مِنْ بَعْدُ.

وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: «وَهُوَ صَلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ»:

هَذَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، وَدَلِيلُهُ قِصَّةُ خَالِدٍ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَقَوْلُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: «تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحَدِيثِيَّةِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

وَقِيلَ: الْمُرَادُ فَتَحَ مَكَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ^(٢).

* قَوْلُهُ: «وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ».

الْمُهَاجِرُونَ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٠).

(٢) انظر: «الدرر المشورة» (٥١٠/٧).

وَالْأَنْصَارُ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ.

وَأَهْلُ السَّنَةِ يُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ؛ لِأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَالْأَنْصَارُ أَتَوْا بِالنُّصْرَةِ فَقَطُّ.

فَالْمُهَاجِرُونَ تَرَكَوا أَهْلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَتَرَكَوا أَوْطَانَهُمْ، وَخَرَجُوا إِلَى أَرْضٍ هُمْ فِيهَا غُرَبَاءُ، كُلُّ ذَلِكَ هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُصْرَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَالْأَنْصَارُ أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي بِلَادِهِمْ، وَنَصَرُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مَنَعُوهُ بِمَا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ.

وَدَلِيلُ تَقْدِيمِ الْمُهَاجِرِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيِّقُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فَقَدَّمَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، فَقَدَّمَ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَوْلُهُ فِي الْفَيْءِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

* قَوْلُهُ: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ -: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

أَهْلُ بَدْرٍ مَرْتَبَتُهُمْ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الصَّحَابَةِ.

وَبَدْرٌ مَكَانٌ مَعْرُوفٌ، كَانَتْ فِيهِ الْغَزْوَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فِي رَمَضَانَ، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَهَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ.

وَسَبَّحَهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدِمَ بِعِيرٍ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَكَّةَ، فَدَبَّ أَصْحَابُهُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِيرِ فَقَطُّ، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا وَفَرَسَانِ، وَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ لَا يُرِيدُونَ قِتَالًا، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِحُكْمَتِهِ جَمَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ.

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ بِذَلِكَ، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ إِلَيْهِ لَتَلْقَى الْعِيرَ أَخَذَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ، وَأَرْسَلَ صَارِخًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَاتَدَبَّ أَهْلُ مَكَّةَ لَذَلِكَ، وَخَرَجُوا بِأَشْرَافِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ وَرُعَمَائِهِمْ، خَرَجُوا عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ جَاءَهُمُ الْخَبَرُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ نَجَا بِالْعِيرِ، فَتَأَمَّرُوا بَيْنَهُمْ فِي الرُّجُوعِ، لَكِنْ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: وَاللَّهِ! لَا تَرْجِعْ حَتَّى نَقْدَمَ بَدْرًا، فَنُقِيمَ فِيهَا نَحْرَ الْجَزَرِ، وَنَسْقِيَ الْحُمُورَ، وَتَضْرِبَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بَنَا الْعَرَبِ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا!!

وَهَذَا الْكَلَامُ يَدُلُّ عَلَى الْفَخْرِ وَالْحَيَلَاءِ وَالاعْتِزَالِ بِالنَّفْسِ، وَلَكِنْ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- كَانَ الْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ مَا يَقُولُ، سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِهِزِيمَتِهِمُ النَّكْرَاءَ، فَهَانُوا فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ!! قَدِمُوا بِدْرًا، وَالتَقَتِ الطَّائِفَتَانِ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَتَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [٣٢] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُسَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٤].

حَصَلَ الْلقاءُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالنَّصْرُ الْمُبِينُ لِلْمُؤْمِنِينَ، انْتَصَرُوا، وَأَسْرَوْا مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا، وَقَتَلُوا سَبْعِينَ رَجُلًا، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلًا مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ، سُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلْبٍ مِنْ قَلْبِ بَدْرٍ خَيْبَةَ قَيْبَةِ.

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ رَكِبَ نَاقَتَهُ، وَوَقَفَ عَلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: «يَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ! أَيُسِّرُكُمْ أَنْتُمْ أَطْعَمُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟!». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَكَلَّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَزْوَاجَ لَهَا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعٍ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٣)، (٢٨٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦)، ومسلم: رقم (٢٨٧٥)، من حديث أنس عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَفَ عَلَيْهِمْ تَوْبِيحًا وَتَقْرِيعًا وَتَنْذِيرًا، وَهُمْ قَدْ وَجَدُوا مَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٤]، فَوَجَدُوا النَّارَ مِنْ حِينِ مَاتُوا، وَعَرَفُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُمُ التَّائِبُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

فَأَهْلُ بَدْرِ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ هَذَا النَّصْرَ الْمُبِينَ وَالْفُرْقَانَ الَّذِي هَابَ الْعَرَبُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَكَانَ لَهُمْ مَنَزِلَةٌ عَظِيمَةٌ بَعْدَ هَذَا النَّصْرِ -اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١)، فَكُلُّ مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنْ ذُنُوبٍ فَإِنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُمْ؛ بِسَبَبِ هَذِهِ الْحَسَنَةِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمْ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنَ الْكَبَائِرِ مَعَهَا عَظَمٌ فَهُوَ مَغْفُورٌ لَهُمْ. وَفِيهِ بَشَارَةٌ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَمُوتُوا عَلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَحَدَ أَمْرَيْنِ: **■** إِمَّا أَنَّهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكْفُرُوا بَعْدَ ذَلِكَ.

■ وَإِمَّا أَنَّهُمْ إِنْ قُدِّرَ أَنْ أَحَدَهُمْ كَفَرَ، فَسَيُوفَّقُ لِلتَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَأَيًّا كَانَ فَفِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُمْ، وَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ.



*** قَوْلُهُ: «وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ»^(٢)، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ»^(٣).**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لما أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٦)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول:

عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها». وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٥٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٥٣)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل

من بايع تحت الشجرة، رقم (٣٨٥٩)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٤)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ هُمْ أَصْحَابُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الْبَيْعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ، وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ وَالْهَدْيُ، وَكَانُوا نَحْوَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ رَجُلٍ، لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْعُمْرَةَ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْحَدِيثِيَّةَ - وَهِيَ مَكَانٌ قُرْبَ مَكَّةَ، فِي طَرِيقِ جُدَّةِ الْآنَ، بَعْضُهَا مِنَ الْحِلِّ وَبَعْضُهَا مِنَ الْحَرَمِ - وَعَلِمَ بِذَلِكَ الْمَشْرِكُونَ، مَنَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَحُمَاةُ الْبَيْتِ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ﴾ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ ﴿الأنفال: ٣٤﴾، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ مَفَاوِضَاتٌ.

وَأَرَى اللَّهَ تَعَالَى مِنْ آيَاتِهِ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَى تَنَازَلُ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمُصْلَحَةِ، فَإِنَّ نَاقَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَرَكَتْ وَأَبَتْ أَنْ تَسِيرَ، حَتَّى قَالُوا: «خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ» يَعْنِي: حَرَكْتَ وَأَبَتْ الْمَسِيرَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُدَافِعًا عَنْهَا: «وَاللَّهِ مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَسَنَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»^(١).

جَرَى التَّفَاوُضُ، وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ؛ لِأَنَّ لَهُ رَهْطًا بِمَكَّةَ يَحْمُونُهُ، أَرْسَلَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا جَاءَ مُعْتَمِرًا مُعْطَمًا لِلْبَيْتِ، فَشَاعَ الْخَبَرُ بِأَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، وَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، يُبَايِعُ أَصْحَابَهُ عَلَى أَنْ يُقَاتِلُوا أَهْلَ مَكَّةَ الَّذِينَ قَتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ الرُّسُلُ لَا تُقْتَلُ، فَبَايَعَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنْ يُقَاتِلُوا وَلَا يَقْرَءُوا إِلَى الْمَوْتِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةِ يُبَايِعُ النَّاسَ، يَمُدُّ يَدَهُ فَيُبَايِعُونَهُ عَلَى هَذِهِ الْبَيْعَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿الفتح: ١٠﴾، وَكَانَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَائِبًا، فَبَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ عَنْ يَدِ عُثْمَانَ، وَقَالَ بِيَدِهِ الْيَمْنَى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم. قال الحافظ في «الفتح» (٣٣٣/٥): وهذه الرواية بالنسبة إلى مروان مرسلّة، لأنّه لا صحبة له، وأما المسور فهي بالنسبة إليه أيضًا مرسلّة، لأنّه لم يحضر القصّة... وقد سمع المسور ومروان من جماعة من الصحابة شهدوا هذه القصّة.

ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ عُثْمَانَ لَمْ يُقْتَلَ، وَصَارَتِ الرُّسُلُ تَأْتِي وَتَرْوُحُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُرَيْشٍ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي صَارَ فَتَحًا مُبِينًا لِلرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿لَقَدْ رَجَعْنَا اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ (١٨) وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿[الفتح: ١٨-١٩].

وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُبَايِعِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ.

فَوَصَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُرَضِيٌّ عَنْهُ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»^(١)، فَالَرِّضَا ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ، وَانْتِفَاءُ دُخُولِ النَّارِ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَهُ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مریم: ٧١]؟

فَالْجَمْعُ مِنْ أَحَدٍ وَجِهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمَفْسِّرِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصَّرَاطِ؛ لِأَنَّ هَذَا نَوْعٌ وَرُودٌ بِلَا شَكٍّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ وَسَطَ الْمَاءِ، بَلْ كَانَ حَوْلَهُ وَقَرِيبًا مِنْهُ، وَبَنَاءٌ عَلَى هَذَا لَا إِشْكَالَ وَلَا تَعَارُضَ أَصْلًا.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ يَقُولُ: الْمُرَادُ بِالْوُرُودِ الدُّخُولُ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَيَدْخُلُ النَّارَ، وَبَنَاءٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَيُحْمَلُ قَوْلُهُ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»: لَا يَدْخُلُهَا دُخُولَ عَذَابٍ وَإِهَانَةٍ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُهَا تَنْفِيذًا لِلْقَسَمِ: ﴿وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٥٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٥٣)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، رقم (٣٨٥٩)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٦)، من حديث جابر، عن أم مبشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ .. بنحوه.

أَوْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْعَامِّ الْمُخْصُوصِ بِأَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ.

* وَقَوْلُهُ: «الشَّجَرَةُ»: الشَّجَرَةُ هَذِهِ شَجَرَةُ سِدْرٍ، وَقِيلَ: شَجَرَةُ سَمُرٍ. وَلَا طَائِلَ تَحْتَ هَذَا الْخِلَافِ، كَانَتْ ذَاتَ ظِلٍّ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَهَا يُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَتْ مُوجُودَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَهْدُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَوَّلَ خِلَافَةِ عُمَرَ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ إِلَيْهَا - أَيْ: يَأْتُونَهَا - يُصَلُّونَ عِنْدَهَا. أَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَطْعِهَا، فَقُطِعَتْ.

قَالَ فِي (الْفَتْحِ)^(١): «وَجَدْتُهُ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ» لَكِنْ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «رَجَعْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ - يَعْنِي: بَعْدَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ - فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ»^(٢). وَهَكَذَا قَالَ الْمُسَيْبُ وَالِدُ سَعِيدٍ: «فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، نَسِينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا»^(٣).

وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ ابْنِ سَعْدٍ؛ لِأَنَّهُ نَسِيَانَا لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَهَا وَلَا عَدَمَ تَذَكُّرِهَا بَعْدُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَهَذِهِ مِنْ حَسَنَاتِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّنَا نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ لَوْ كَانَتْ بَاقِيَةً إِلَى الْآنَ لَعُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.



* وَقَوْلُهُ: «وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كَالْعَسَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ».

* «يَشْهَدُونَ» أَيْ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

* وَالشَّهَادَةُ بِالْجَنَّةِ تَوْعَانِ: شَهَادَةٌ مُعَلَّقَةٌ بِوَصْفٍ، وَشَهَادَةٌ مُعَلَّقَةٌ بِالشَّخْصِ.

■ أَمَّا الْمُعَلَّقَةُ بِالْوَصْفِ: فَإِنَّ نَشْهَدَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، وَكُلُّ مُتَّقٍ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ،

(١) فتح الباري (٧/٤٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب ألا يفروا، رقم (٢٩٥٨)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٦٢)، عن والد سعيد بن المسيب.

بُدُونِ تَعَيِّنِ شَخْصٍ أَوْ أَشْخَاصٍ.

وهذه شهادة عامة، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشْهَدَ بِهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ﴾ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [لقمان: ٨-٩]، وَقَالَ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ رَبِّكُمْ وَجَنِّهِ عَرِضُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

■ وَأَمَّا الشَّهَادَةُ الْمُعْلَقَةُ بِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ: فَإِنْ نَشْهَدَ لِفُلَانٍ أَوْ لِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ. وهذه شهادة خاصة، فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ، سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين.

مثال ذلك ما ذكره المؤلف بقوله: «كَالْعَشْرَةِ» يعني بهم: العشرة المبشرين بالجنة، لقُبُوا بهذا الاسم؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ جَمَعَهُمْ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ: الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ. وَانْظُرْ تَرَاجُمَهُمْ فِي الْمَطُولَاتِ.

وَقَدْ جُمِعَ السَّتَّةُ الزَّائِدُونَ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَاحْفَظْهُ:

سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وَابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَعَامِرٌ فَهَرٍ وَالزُّبَيْرُ الْمَدَحُ^(١)

هَؤُلَاءِ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ...»^(٢)، وَلِهَذَا لَقِبُوا بِهَذَا اللَّقَبِ، فَيَجِبُ أَنْ نَشْهَدَ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ لِشَهَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ.

(١) البيت لابن أبي داود من قصيدته الحاثية المشهورة، انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٥٣/٢)، التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحاثية (ص: ٥٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/١٨٧، ١٨٨)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٤٩)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٧٤٨)، وابن ماجه: في مقدمة السنن، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، فضائل العشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (١٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٦٩٩٣)، والحاكم في «المستدرک» (٣/٣١٦-٣١٧)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٨٧٥).

* قَوْلُهُ: «وَنَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ شَمَّاسٍ»: ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدُ خُطَبَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] خَافَ أَنْ يَكُونَ حِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

فَاخْتَفَى فِي بَيْتِهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا يَسْأَلُهُ عَنِ اخْتِفَائِهِ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ قَوْلَهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وَأَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، حِطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ!!

فَأَتَى الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ ثَابِتٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَذْهَبَ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١)، فَبَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ.

* قَوْلُهُ: «وَعِزِّرْهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ»: مِثْلُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُنَّ فِي دَرَجَةِ الرُّسُولِ ﷺ. وَمِنْهُمْ: بِلَالٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مُحَصِّنٍ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، رقم (٤٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيذان، باب بخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أما بلال: ففي حديث جابر عند مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سليم وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٥٧)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةَ أُمَامِي، فَإِذَا بِلَالٌ».

* وأما عبد الله بن سلام: ففي حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨١٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٨٣)؛ قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة؛ إلا لعبد الله بن سلام.

* وأما عكاشة بن محصن: فقد دعا له النبي ﷺ بأن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وذلك في حديث ابن عباس عند البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيذان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

* وأما سعد بن معاذ: ففي حديث البراء عند البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

* قَوْلُهُ: «وَيَقْرُونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ».

* التَّوَاتُرُ: خَبَرٌ يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ طَائِفَةٌ لَا يُمَكِّنُ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكَذِبِ.

ففي (صحيح البخاري)^(١) وَغَيْرِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي رَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَخَيَّرَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ».

وفي (صحيح البخاري)^(٢) أَيْضًا أَنَّ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ. وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: عُثْمَانُ. قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَإِذَا كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ وَهُوَ فِي رَمَنِ خِلَافَتِهِ: إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، فَقَدْ ائْتَحَضَتْ حُجَّةُ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ فَضَّلُوهُ عَلَيْهِمَا.

* قَوْلُهُ: «وَوَعْدُهُ» يعني: غَيْرَ عَلِيٍّ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُئِمَّةِ.

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَشُكُّ فِي تَقْدِيمِهِمَا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَمْ يَخْتَلَفِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فِي تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا الْإِجْمَاعِ فَقَدْ أَتَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.



* قَوْلُهُ: «وَيُثَلَّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَّعُونَ بِعَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَثَارُ».

= رقم (٣٨٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٦٨) قال: أُهْدِيتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذه والبن».

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ، رقم (٣٦٥٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٧١).

* «يُثَلَّثُونَ» يعني: أهل السُّنَّة، أي: يَجْعَلُونَ عُثْمَانَ هُوَ الثَّالِثَ.

* «وَيُرَبِّعُونَ بَعْلِيَّ» أي: يَجْعَلُونَ عَلِيًّا هُوَ الرَّابِعَ.

وَعَلَى هَذَا: فَأَفْضَلُ هَذِهِ الْأَمَّةِ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَهَذَا بِالْإِجْمَاعِ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ لِهَذَا التَّرْتِيبِ بِدَلِيلَيْنِ:

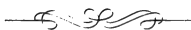
الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: «كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَثَارُ».

وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْهَا.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ:

«وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ».

فَصَارَ فِي تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آثَارٌ ثَقِيلَةٌ، وَفِيهِ أَيْضًا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ، وَهُوَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ؛ فَإِنَّ إِجْمَاعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَأْتِي أَنْ يُؤَيِّيَ عَلَى خَيْرِ الْقُرُونِ رَجُلًا وَفِيهِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «كَمَا تَكُونُونَ يُؤَيِّيَ عَلَيْكُمْ»، فَخَيْرُ الْقُرُونِ لَا يُؤَيِّيَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ هُوَ خَيْرُهُمْ.



* قَوْلُهُ: «مَعَ أَنْ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ -، أَتَيْتُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ، وَسَكَنُوا، أَوْ رَبَّعُوا بَعْلِيَّ».

فَيَقُولُونَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، وَيَسْكُتُونَ، أَوْ يَقُولُونَ: ثُمَّ عَلِيٌّ.

* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا».

فَقَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، ثُمَّ عُثْمَانُ. وَهَذَا رَأْيٌ مِنْ آراءِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا».

فَقَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَتَوَقَّفُوا أُيُّهُمَا أَفْضَلُ: عُثْمَانُ أَوْ عَلِيٌّ؟ وَهَذَا غَيْرُ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ.

فَالْآرَاءُ أَرْبَعَةٌ:

■ الرَّأْيُ الْمَشْهُورُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ.

■ الرَّأْيُ الثَّانِي: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ السُّكُوتُ.

■ الرَّأْيُ الثَّالِثُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، ثُمَّ عُثْمَانُ.

■ الرَّأْيُ الرَّابِعُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ تَوَقَّفَ أُيُّهُمَا أَفْضَلُ: عُثْمَانُ أَوْ عَلِيٌّ. فَهُمْ يَقُولُونَ:

لَا نَقُولُ: عُثْمَانُ أَفْضَلُ، وَلَا عَلِيٌّ أَفْضَلُ. لَكِنْ لَا نَرَى أَحَدًا يَتَقَدَّمُ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فِي الْفَضِيلَةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

* قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ».

هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقَالُوا: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ،

ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، عَلَى تَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ، وَهُوَ الصَّوَابُ، كَمَا سَبَقَ دَلِيلُهُ.



* قَوْلُهُ: «وَأِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي يُصَلَّلُ

الْمُخَالَفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ».

بِعَنِي: الْمَافَاضِلَةُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَيْسَتْ مِنَ الْأَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الَّتِي يُصَلَّلُ

فِيهَا الْمُخَالَفُ. فَمَنْ قَالَ: إِنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْ عُثْمَانَ. فَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ ضَالٌّ. بَلْ نَقُولُ: هَذَا رَأْيٌ

مِنْ آراءِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَا نَقُولُ فِيهِ سَيِّئًا.

﴿قَوْلُهُ: «لَكِنَّ الَّذِي يُضَلُّ فِيهَا مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ».

فَيَجِبُ أَنْ نَقُولَ: الْخَلِيفَةُ بَعْدَ نَبِيِّنَا فِي أُمَّتِهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْخِلَافَةَ لِعَلِيٍّ دُونَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ. فَهُوَ ضَالٌّ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لِعَلِيٍّ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَهُوَ ضَالٌّ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ».

وَهَذَا مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي مَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ.

﴿قَوْلُهُ: «وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارٍ أَهْلِهِ».

الَّذِي يَطْعَنُ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْخِلَافَةَ! أَوْ: إِنَّهُ أَحَقُّ بِمَنْ سَبَقَهُ! فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارٍ أَهْلِهِ.

وَعَبَّرَ الْمُؤَلِّفُ بِهَذَا التَّعْبِيرِ؛ لِأَنَّهُ تَعْبِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَضَلُّ مِنْ حِمَارٍ أَهْلِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحِمَارَ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَدُ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَهُوَ أَقْلُ الْحَيَوَانَاتِ فَهَمَّا، فَالطَّعْنُ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْ فِي تَرْبِيَةِ طَعْنٍ فِي الصَّحَابَةِ جَمِيعًا.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَأَنَّهُمْ فِي أَحَقِّيَّةِ الْخِلَافَةِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ، حَتَّى لَا نَقُولَ: إِنَّ هُنَاكَ ظُلْمًا فِي الْخِلَافَةِ. كَمَا ادَّعَتْهُ الرَّاغِصَةُ حِينَ رَعَمُوا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَالصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ ظَلَمُوا؛ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؛ حَيْثُ اغْتَصَبُوا الْخِلَافَةَ مِنْهُ.

أَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ: فَإِنَّمَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ كُلَّ خَلِيفَةٍ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ فَهُوَ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيْسُوا فِي خَيْرِ الْقُرُونِ، بَلْ حَصَلَ فِيهِمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِجْرَافِ وَالْفُسُوقِ مَا اسْتَخَفُّوا بِهِ أَنْ يُوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ لَيْسَ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ

الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

واعلم أن الترتيب في الأفضلية على ما سبق لا يعني أن من فضل غيره فإنه يفضل في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة، فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد.

* قوله: «وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ».

أي: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله ﷺ، يحبونهم لأمرين: للإيمان، وللقرابة من رسول الله ﷺ، ولا يكرهونهم أبداً. ولكن لا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً!! وعلى هذا: فلا يمكن أن نحب علياً حتى نبغض أبا بكر وعمر!! وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلي بن أبي طالب!! مع أنه قد تواتر النقل عن علي رضي الله عنه أنه كان يثني عليهما على المنبر. فنحن نقول: إننا نشهد الله على محبة آل بيت الرسول ﷺ وقرابته، نحبهم لمحبة الله ورسوله.

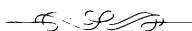
ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَا أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) ولئن كنتن تردن الله ورسوله، والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً (٢٩) بئساة النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً (٣٠) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين وأعدنا لها رزقاً كريماً (٣١) بئساة النبي لسنن كاحر من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً (٣٢) وقرن في بيوتكن ولا تخرجن تنج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وءاتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل

الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُ تَطْهِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٢٨-٣٣]، فَأَهْلُ الْبَيْتِ هُنَا يَدْخُلُ فِيهَا أَزْوَاجُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِلَا رَيْبٍ.

وكَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ قَرَابَتُهُ: فَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَغَيْرُهُمْ كَالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبْنَائِهِ.

فَنَحْنُ نُحِبُّهُمْ لِقَرَابَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا يَبَايِنُهُمْ بِاللَّهِ.

فَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّا لَا نُحِبُّهُمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقَارِبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَبُو لَهَبٍ عَمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَجُوزُ أَنْ نُحِبَّهُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، بَلْ يَحِبُّ أَنْ نَكْرَهُهُ؛ لَكُفْرِهِ وَلِإِذْنِهِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ أَبُو طَالِبٍ، يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَكْرَهُهُ لَكُفْرِهِ، لَكِنْ نُحِبُّ أَفْعَالَهُ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْحِمَايَةِ وَالذَّبِّ عَنْهُ.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ:

«وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ».

أَيُّ: يَتَجَلَّوْنَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ، وَالْوَلِيُّ: يُطْلَقُ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ، يُطْلَقُ عَلَى الصَّدِيقِ، وَالْقَرِيبِ، وَالتَّوَلَّى لِلْأَمْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَالَاةِ وَالنُّصْرَةِ. وَهَذَا يَشْمَلُ النُّصْرَةَ وَالصَّدَاقَةَ وَالْمَحَبَّةَ.



* قَوْلُهُ: «وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ حُمٍّ: «أَذْكُرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(١).

«وَصِيَّةَ الرَّسُولِ ﷺ» أَيُّ: عَهْدُهُ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ إِلَى أُمَّتِهِ.

و«يَوْمَ غَدِيرِ حُمٍّ»: هُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. وَهَذَا الْغَدِيرُ يُنسَبُ إِلَى رَجُلٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٨)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُسَمَّى: (حُم)، وهو في الطريق الذي بين مكة والمدينة، قريب من الجحفة، نزل الرسول عليه الصلاة والسلام فيه منزلاً في رُجوعه من حجة الوداع، وخطب الناس، وقال: «أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً، يعني: اذكروا الله، اذكروا خوفه وانتقامه إن أصغتم حتى آل البيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم في حقهم.



* قوله: «وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قریش يحفون بني هاشم، فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»^(١).

* «أيضاً»: مَصْدَرُ آصَ يَئِضُ، أي: رَجَعَ، وهو مَصْدَرٌ لِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ، والمَعْنَى: عَوْدًا عَلَى مَا سَبَقَ.

* «يَحْفُونَ»: يَتَرَفَعُونَ وَيَكْرَهُ.

* «هاشم»: هُوَ جَدُّ أَبِي الرَّسُولِ ﷺ.

فأقسم أنهم لا يؤمنون، أي: لا يتم إيمانهم حتى يحبوكم لله، وهذه المحبة يُشارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لأنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ لِلَّهِ.

* لكن قال: «ولقرابتي»: فهذا حُبٌّ زَائِدٌ عَلَى الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ، وَيَخْتَصُّ بِهِ آلُ الْبَيْتِ، قَرَابَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفي قول العباس: «إن بعض قریش يحفون بني هاشم»: دليل على أنَّ جَفَاءَ آلِ الْبَيْتِ كَانَ مَوْجُودًا مِنْذُ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وذلك لأنَّ الْحَسَدَ مِنْ طَبَائِعِ الْبَشَرِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلْ، فَكَانُوا يَحْسُدُونَ آلَ بَيْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَرَابَةٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٧/١)، وفي «فضائل الصحابة» رقم (١٧٥٧)، من حديث العباس رضي الله عنه، بلفظ: «والله لا يدخل قلب امرئ إيمان، حتى يحبكم الله ولقرابتي»، وفيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٢٨٧٧)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» رقم (١٧٥٦)، عن أبي الضحى مرسلاً، بلفظ: «لن ينالوا خيراً حتى يحبكم الله ولقرابتي»، ووصله الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٢٩٦٣)، عن أبي الضحى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بنحوه.

النَّبِيِّ ﷺ، فَيَجُفُّوهُمْ وَلَا يَقُومُونَ بِحَقِّهِمْ.

* قَوْلُهُ: «وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١).

وهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ مُصْطَفَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ، مُخْتَارُونَ مِنْ خَلْقِهِ.

فَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالنَّسَبِ لِآلِ الْبَيْتِ: أَنَّهُمْ يُحِبُّوهُمْ، وَيَتَوَلَّوْهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي التَّذْكِيرِ بِهِمْ، وَلَا يُنْزِلُونَهُمْ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِمْ، بَلْ يَتَبَرَّؤُونَ مِمَّنْ يَغْلُونَ فِيهِمْ، حَتَّى يَوْصُلُوهُمْ إِلَى حَدِّ الْأُلُوهِيَّةِ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَّاحٍ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ قَالَ لَهُ: أَنْتَ اللَّهُ! وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ.

* و«إِسْمَاعِيلُ»: هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِهِ، وَقِصَّتُهُ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ.

* و«كِنَانَةٌ»: هُوَ الْأَبُ الرَّابِعَ عَشَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* و«قُرَيْشٌ»: هُوَ الْأَبُ الْحَادِي عَشَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ فَهْرُ بْنُ مَالِكٍ. وَقِيلَ: الْأَبُ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَهُوَ النَّضْرُ بْنُ كِنَانَةَ.

* و«هَاشِمٌ»: هُوَ الْأَبُ الثَّالِثُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* قَوْلُهُ: «وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ».

* قَوْلُهُ: «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ»: هَذِهِ صِفَةٌ لـ«أَزْوَاجِ» فَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّهَاتٌ لَنَا فِي الْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِرَامِ وَالصَّلَاةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَخَنُّ تَوَلَّاهُنَّ بِالنُّصْرَةِ وَالِدْفَاعِ عَنْهُنَّ وَاعْتِقَادِ أَنَّهُنَّ أَفْضَلُ أَزْوَاجِ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُنَّ زَوَاجَاتُ الرَّسُولِ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٦)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم (٣٦٠٥)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَرْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ».

لأَحَادِيثَ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْصَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [عافر: ٧-٨]، فَقَالَ: «وَأَرْوَاجُهُمْ» فَأَنْبَتَ الزَّوْجِيَّةَ هُنَّ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ زَوْجَةَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا تَكُونُ زَوْجَتَهُ فِي الْآخِرَةِ إِذَا كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.



* قَوْلُهُ: «خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ».

* «خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»: «خُصُوصًا»: مَصْدَرٌ مَحْذُوفُ الْعَامِلِ، أَيُّ: أَخْصَصْ خُصُوصًا.

* «خَدِيجَةَ» بِنْتُ خُوَيْلِدٍ: تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ مَا تَزَوَّجَ، وَكَانَ عُمُرُهُ حِينَ ذَاكَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَعُمُرُهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَتْ امْرَأَةً عَاقِلَةً، وَانْتَفَعَ بِهَا ﷺ انْتِفَاعًا كَثِيرًا؛ لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ ذَاتُ عَقْلٍ وَذَكَاءٍ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا أَحَدًا.

فَكَانَتْ كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ: «أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ»: الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَلَمْ يَقُلِ الْمُؤَلِّفُ: أُمُّ أَوْلَادِهِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَوْلَادِهِ مَنْ لَيْسَ مِنْهَا، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ مَّارِيَةِ الْقَبِيطَةِ.

وَأَوْلَادُهُ الَّذِينَ مِنْ خَدِيجَةَ هُمُ ابْنَانِ وَأَرْبَعُ بَنَاتٍ: الْقَاسِمُ، ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ، وَيُقَالُ لَهُ: الطَّيِّبُ، وَالطَّاهِرُ. وَأَمَّا الْبَنَاتُ فَهُنَّ: زَيْنَبُ، ثُمَّ أُمُّ كُلْثُومٍ، ثُمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ رُقَيْةُ. وَأَكْبَرُ أَوْلَادِهِ الْقَاسِمُ، وَأَكْبَرُ بَنَاتِهِ زَيْنَبُ.

* قَوْلُهُ: «وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاصَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ».

لَا شَكَّ أَنَّهَا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا جَاءَهَا وَأَخْبَرَهَا بِمَا رَأَى فِي غَارِ حِرَاءٍ، قَالَتْ: «كَلَّا وَاللَّهِ! لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا». وَآمَنَتْ بِهِ، وَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، وَقَصَّتْ عَلَيْهِ

الخبَر، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا النَّامُوسَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى ^(١) - النَّامُوسُ: أَيْ: صَاحِبُ السِّرِّ - فَأَمَنَ بِهِ وَرَقَّةٌ.

ولهَذَا نَقُولُ: أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ خَدِيجَةُ، وَمِنَ الرِّجَالِ وَرَقَّةُ بْنُ تَوْفَلٍ.

* قَوْلُهُ: «وَعَاظِدُهُ عَلَى أَمْرِ» أَيْ: سَاعَدَهُ، وَمَنْ تَدَبَّرَ السَّيْرَةَ وَجَدَ لَأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ مُعَاظِدَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَمْ يَحْصُلْ لغيرِهَا مِنْ نِسَائِهِ.

* قَوْلُهُ: «وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ».

حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَذْكُرُهَا بَعْدَ مَوْتِهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَيُرْسِلُ بِالشَّيْءِ إِلَى صَدِيقَاتِهَا، وَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ» ^(٢)، فَكَانَ يُنَبِّئُ عَلَيْهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمِ مَنْزِلَتِهَا عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ.

* قَوْلُهُ: «وَالصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا».

أَمَّا كَوْنُهَا صَدِيقَةً؛ فَلِكَمَالِ تَصَدِيقِهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِكَمَالِ صِدْقِهَا فِي مُعَامَلَتِهِ، وَصَرِيحِهَا عَلَى مَا حَصَلَ مِنَ الْأَدَى فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ، وَيَدُلُّكَ عَلَى صِدْقِهَا وَصِدْقِ إِيْمَانِهَا بِاللَّهِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ بِرَأْيِهَا قَالَتْ: «إِنِّي لَا أَحْمَدُ غَيْرَ اللَّهِ». وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ إِيْمَانِهَا وَصِدْقِهَا.

وَأَمَّا كَوْنُهَا بِنْتُ الصَّدِيقِ فَكَذَلِكَ أَيْضًا؛ فَإِنَّ أَبَاهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الصَّدِيقُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، بَلْ صَدِيقُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ الْأُمَمِ، فَإِذَا كَانَ صَدِيقَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُوَ صَدِيقُ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (٣)، ومسلم:

كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٨١٨)،

من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

* قَوْلُهُ: «الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

* قَوْلُهُ: «عَلَى النَّسَاءِ»: ظاهرُهُ الْعُمُومُ، أَي: عَلَى جَمِيعِ النَّسَاءِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ، أَي: مِنْ أَزْوَاجِهِ اللَّاتِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَلَا تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ خَدِيجَةُ.

لَكِنْ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ الْعُمُومُ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «كَمَلَمِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنْ النَّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» وَقَدْ أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ^(١) بِذَوْنِ ذِكْرِ خَدِيجَةَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَفْضَلُ النَّسَاءِ مُطْلَقًا.

وَلَكِنْ لَيْسَتْ أَفْضَلُ مِنْ فَاطِمَةَ بِاعْتِبَارِ النَّسَبِ؛ لِأَنَّ فَاطِمَةَ بِلَا شَكٍّ أَشْرَفُ مِنْ عَائِشَةَ نَسَبًا.

وَأَمَّا مَنْزِلَةُ: فَإِنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَهَا مِنَ الْفَضَائِلِ الْعَظِيمَةِ مَا لَمْ يُذَرِّكُهُ أَحَدٌ غَيْرَهَا مِنْ النَّسَاءِ.

وظَاهِرُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَاتَيْنِ الزَّوْجَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «خُصُوصًا خَدِيجَةَ... وَالصَّديقَةَ» وَلَمْ يَقُلْ: ثُمَّ الصَّديقَةَ.

وَالْعُلَمَاءُ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ:

■ فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: خَدِيجَةُ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ لَهَا مَرَايَا لَمْ تَلَحَقْهَا عَائِشَةُ فِيهَا.

■ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بَلْ عَائِشَةُ أَفْضَلُ؛ لِهَذَا الْحَدِيثِ؛ وَلِأَنَّ لَهَا مَرَايَا لَمْ تَلَحَقْهَا خَدِيجَةُ فِيهَا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رَقْمُ (٣٧٦٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، رَقْمُ (٢٤٣١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَزِيَادَةُ خَدِيجَةَ عَزَاهَا الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٦/٤٤٧) لِلطَّبْرَانِيِّ وَأَبِي نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَةِ».

▪ وفَصَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَرِيَّةً لَمْ تَلْحَقْهَا الْأُخْرَى فِيهَا، ففِي
أَوَّلِ الرِّسَالَةِ لَا شَكَّ أَنَّ الْمَرَايَا الَّتِي حَصَلَتْ عَلَيْهَا خَدِيجَةٌ لَمْ تَلْحَقْهَا فِيهَا عَائِشَةُ، وَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ تُسَاوِيَهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ، وَبَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ، حَصَلَ مِنْ عَائِشَةَ مِنْ نَشْرِ الْعِلْمِ وَنَشْرِ
السُّنَّةِ وَهَدَايَةِ الْأُمَّةِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَخَدِيجَةَ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تُفَضَّلَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى تَفْضِيلًا
مُطْلَقًا، بَلْ نَقُولُ: هَذِهِ أَفْضَلُ مِنْ وَجْهِ، وَهَذِهِ أَفْضَلُ مِنْ وَجْهِ. وَنَكُونُ قَدْ سَلَكَنَا مَسَلَكَ
الْعَدْلِ، فَلَمْ نُهْزِرْ مَا لِهَذِهِ مِنَ الْمَرِيَّةِ، وَلَا مَا لِهَذِهِ مِنَ الْمَرِيَّةِ، وَعِنْدَ التَّفْصِيلِ يَحْصُلُ التَّحْصِيلُ.
وَهُمَا وَبَقِيَّةُ أَزْوَاجِ الرَّسُولِ فِي الْجَنَّةِ مَعَهُ.



* قَوْلُهُ: «وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَبْغُضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّوهُمْ».

الرَّوَافِضُ: طَائِفَةٌ غُلَاةٌ فِي عِلِّيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ الْبَيْتِ، وَهُمْ مِنْ أَصْلِ أَهْلِ الْبِدْعِ،
وَأَشَدَّهُمْ كُرْهًا لِلصَّحَابَةِ رَضِيَّ اللَّهِ عَنْهُمْ، وَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ فَلْيَقْرَأْ فِي
كُتُبِهِمْ وَفِي كُتُبِ مَنْ رَدَّ عَلَيْهِمْ.

وَسُمُّوا رَوَافِضَ؛ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَمَا
سَأَلُوهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَنْتَى عَلَيْهِمَا، وَقَالَ: هُمَا وَزِيرَا جَدِّي.

أَمَّا النَّوَاصِبُ: فَهُمْ الَّذِينَ يَنْصِبُونَ الْعَدَاءَ لآلِ الْبَيْتِ، وَيَقْدَحُونَ فِيهِمْ، وَيَسُبُّوهُمْ،
فَهُمْ عَلَى النَّقِيصِ مِنَ الرَّوَافِضِ.

فَالرَّوَافِضُ اعْتَدَوْا عَلَى الصَّحَابَةِ بِالْقُلُوبِ وَالْأَلْسُنِ.

▪ ففِي الْقُلُوبِ يَبْغُضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَكْرَهُوهُمْ، إِلَّا مَنْ جَعَلُوهُمْ وَسِيلَةً لِنَيْلِ مَارِيهِمْ
وَعَلَوْا فِيهِمْ، وَهُمْ آلُ الْبَيْتِ.

▪ وَفِي الْأَلْسُنِ يَسُبُّوهُمْ فَيَلْعَنُوهُمْ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ ظُلَمَةٌ! وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ ازْدَنُوا بَعْدَ
النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا قَلِيلًا. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَعْرُوفَةِ فِي كُتُبِهِمْ.

وفي الحقيقة إنَّ سبَّ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليسَ جَرْحًا فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقط، بَلْ هُوَ قَدْحٌ فِي الصَّحَابَةِ وَفِي النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَفِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

■ أَمَّا كَوْنُهُ قَدْحًا فِي الصَّحَابَةِ فَوَاضِحٌ.

■ وَأَمَّا كَوْنُهُ قَدْحًا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَحَيْثُ كَانَ أَصْحَابُهُ وَأَمَنَّاؤُهُ وَخُلَفَاؤُهُ عَلَى أَمْرِهِ مِنْ شَرَارِ الْخَلْقِ، وَفِيهِ قَدْحٌ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ تَكْذِيبُهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ.

■ وَأَمَّا كَوْنُهُ قَدْحًا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ: فَلأنَّ الْوَاسِطَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَقْلِ الشَّرِيعَةِ هُمُ الصَّحَابَةُ، إِذَا سَقَطَتْ عَدَالَتُهُمْ لَمْ يَبْقَ ثِقَةٌ فِيمَا نَقَلُوهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ.

■ وَأَمَّا كَوْنُهُ قَدْحًا فِي اللَّهِ سُبحَانَهُ: فَحَيْثُ بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ فِي شَرَارِ الْخَلْقِ، وَاخْتَارَهُمْ لَصُحْبَتِهِ، وَحَمَلَ شَرِيعَتَهُ وَنَقَلَهَا لِأُمَّتِهِ!!

فَانْظُرْ مَاذَا يَتَرْتَّبُ مِنَ الطَّوَامِ الْكُبْرَى عَلَى سَبِّ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَنَحْنُ نَنْتَبِرُّ مِنْ طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ الرَّاغِبِينَ الَّذِينَ يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ وَيَبْغُضُونَهُمْ، وَنَعْتَقِدُ أَنَّ مُحِبَّتَهُمْ فَرَضٌ، وَأَنَّ الْكَفَّ عَنْ مَسَاوِيئِهِمْ فَرَضٌ، وَقُلُوبُنَا -وَاللَّهُ الْحَمْدُ- مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ؛ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَنَشْرِ الْعِلْمِ وَنُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

* قَوْلُهُ: «وَطَرِيقَةُ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ».

يعني: يَتَبَرَّأُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ.

وهَؤُلَاءِ عَلَى عَكْسِ الرَّاغِبِينَ، الَّذِينَ يَغْلُونِ فِي آلِ الْبَيْتِ، حَتَّى يُخْرِجُوهُمْ عَنْ طَوْرِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى طَوْرِ الْعِصْمَةِ وَالْوِلَايَةِ.

أَمَّا النَّوَاصِبُ: فَقَابِلُوا الْبِدْعَةَ بِبِدْعَةٍ، فَلَمَّا رَأَوْا الرَّافِضَةَ يَغْلُونَ فِي آلِ الْبَيْتِ قَالُوا: إِذَنْ: نَبْغُضُ آلَ الْبَيْتِ وَنَسُبُهُمْ؛ مُقَابَلَةً لَهُؤُلَاءِ فِي الْغُلُوِّ فِي مُحِبَّتِهِمْ وَالنَّاءِ عَلَيْهِمْ، وَدَائِمًا يَكُونُ الْوَسْطُ هُوَ خَيْرُ الْأُمُورِ، وَمُقَابَلَةُ الْبِدْعَةِ بِبِدْعَةٍ لَا تَزِيدُ الْبِدْعَةَ إِلَّا قُوَّةً.

* قَوْلُهُ: «وَيُمَسِّكُونَ عَمَّا سَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ».

يعني: عَمَّا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ النَّزَاعِ.

فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِزَاعَاتٌ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ، فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ مَا وَقَعَ، مِمَّا أَدَّى إِلَى الْقِتَالِ.

وهذه القضايا مشهورة، وقد وقعت -بلا شك- عَنْ تَأْوِيلِ وَاجْتِهَادِ كُلِّ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عَائِشَةَ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ قَاتِلًا عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَأَنَّ عَلِيًّا عَلَى حَقٍّ.

وَاعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ.

ولكن إذا كانوا مُحْطِئِينَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يُقَدِّمُوا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا عَنِ اجْتِهَادٍ؛ فَإِنَّهُ تَبَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أخطأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(١)، فنقول: هُم مُحْطِئُونَ مُجْتَهِدُونَ، فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ.

فهذا الذي حَصَلَ مَوْقِفُنَا نَحْنُ مِنْهُ لَهُ جِهَتَانِ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: الْحُكْمُ عَلَى الْفَاعِلِ.

وَالْجِهَةُ الثَّانِيَّةُ: مَوْقِفُنَا مِنَ الْفَاعِلِ.

■ أَمَّا الْحُكْمُ عَلَى الْفَاعِلِ: فَقَدْ سَبَقَ، وَأَنَّ مَا نَدِينُ اللَّهُ بِهِ أَنْ مَا جَرَى بَيْنَهُمْ فَهُوَ صَادِرٌ عَنِ اجْتِهَادٍ، وَالْاجْتِهَادُ إِذَا وَقَعَ فِيهِ الْخَطَأُ فَصَاحِبُهُ مُعَذُّورٌ مُغْفُورٌ لَهُ.

■ وَأَمَّا مَوْقِفُنَا مِنَ الْفَاعِلِ: فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا الْإِمْسَاكُ عَمَّا سَجَرَ بَيْنَهُمْ، لَمَّاذَا نَتَّخِذُ مِنْ فِعْلِهِ هَوْلًا مَجَالًا لِلسَّبِّ وَالسُّتْمِ وَالْوَقِيعَةِ فِيهِمْ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَنَا؟! وَنَحْنُ فِي فِعْلِنَا هَذَا إِمَّا أَنْمُونُ وَإِمَّا سَالِمُونَ، وَلَسْنَا غَانِمِينَ أَبَدًا!!

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأفضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا نَجَاهَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنْ نَسْكُتَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَأَنْ لَا نَطَالِعَ الْأَخْبَارَ أَوْ التَّارِيخَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، إِلَّا الْمُرَاجَعَةَ لِلضَّرُورَةِ.



* قَوْلُهُ: «وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ وَنُقِصَ وَغَيَّرَ عَنْ وَجْهِهِ الصَّرِيحِ».

فَسَمِ الْمَوْلُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

■ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ مَخْضُ لَمْ يَفَعْ مِنْهُمْ، وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِيمَا يَرْوِيهِ النَّوَاصِبُ فِي آلِ الْبَيْتِ، وَمَا يَرْوِيهِ الرَّوَافِضُ فِي غَيْرِ آلِ الْبَيْتِ.

■ وَمِنْهَا شَيْءٌ لَهُ أَصْلٌ، لَكِنْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغَيَّرَ عَنْ وَجْهِهِ.

وَهَذَانِ الْقِسْمَانِ كِلَاهُمَا يَجِبُ رَدُّهُ.

■ الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مَا هُوَ صَحِيحٌ، فَمَاذَا نَقُولُ فِيهِ؟

بَيِّنَهُ الْمَوْلُفُ بِقَوْلِهِ:

«وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْدُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ».

وَالْمُجْتَهِدُ إِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(١).

فَمَا جَرَى بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صَادِرٌ عَنِ اجْتِهَادٍ وَتَأْوِيلٍ.

لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ عَلِيًّا أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ فِيهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ، بَلْ قَدْ نَكَادُ نَجْزِمُ بِصَوَابِهِ، إِلَّا أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ مُجْتَهِدًا.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَيْحَ عَمَارِ! نَقُتِلُهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأفضية،

باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»^(١)، فَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ، وَهَذَا عَرَفْنَا أَنَّهَا فِتْنَةٌ بَاغِيَّةٌ، خَارِجَةٌ عَلَى الْإِمَامِ، لَكِنَّهُمْ مَتَأَوُّوْنَ، وَالصَّوَابُ مَعَ عَلِيٍّ إِمَّا قَطْعًا وَإِمَّا ظَنًّا.

■ وَهَنَاكَ قِسْمٌ رَابِعٌ، وَهُوَ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ حَصَلَتْ لَا عَنِ اجْتِهَادٍ وَلَا عَنْ تَأْوِيلٍ:

فَبَيَّنَهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ:

«وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ».

لَا يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢). وَلَكِنْ الْعِصْمَةُ فِي إِجْمَاعِهِمْ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُجْمِعُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَصَغَائِرِهَا، فَيَسْتَحِلُّوها أَوْ يَفْعَلُوها.

لَكِنْ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ قَدْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الْكِبَائِرِ، كَمَا حَصَلَ مِنْ مُسْطَحِ بْنِ أَثَاثَةَ وَحَسَّانِ ابْنِ ثَابِتٍ وَحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ^(٣)، وَلَكِنْ هَذَا الَّذِي حَصَلَ تَطَهَّرُوا مِنْهُ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ.

* قَوْلُهُ: «بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ».

يَعْنِي: كَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، لَكِنْ يَمْتَارُونَ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةً مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، رقم (٤٤٧)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت، رقم (٢٩١٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤) وصححه، من حديث أنس بن مالك، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢٣٤١).

(٣) حديث الإفك؛ أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم (٤١٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَمْحُو اللَّهُ بِهَا عَنْهُمْ مَا فَعَلُوهُ مِنَ الصَّغَائِرِ أَوْ الْكِبَائِرِ، وَهُوَ مَا لَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ الَّتِي لَمْ يَلْحَقْهُمْ فِيهَا أَحَدٌ؛ فَهُمْ نَصَرُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَبَذَلُوا رِقَابَهُمْ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، فَهَذِهِ تَوْجِبُ مَغْفِرَةَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، إِذَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْكُفْرِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ حِينَ أُرْسِلَ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ عَنْ مَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، حَتَّى أَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَصِلْهُمْ الْخَبَرُ، فَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَ حَاطِبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١).

* قَوْلُهُ: «حَتَّى إِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يَغْفِرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمَدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ».

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»^(٢)، وَفِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(٣).

* قَوْلُهُ: «ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: وإذا تاب منه ارتفع عنه وبأله ومعرفته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، ومن تاب من الذنب كان كمن لا ذنب له، فلا يؤثر عليه.

* قوله: «أو أتى بحسنات تحوّه».

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

* قوله: «أو غفر له بفضل سابقته».

لقوله تعالى في الحديث القدسي في أهل بدر: «اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»^(١).

* قوله: «أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته».

وقد سبق أن النبي ﷺ يشفع في أمته، والصحابة رضي الله عنهم أحق الناس في ذلك.

* قوله: «أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه».

فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرضٍ فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته، كما تحطُّ الشجرة ورقها»^(٢)، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

* قوله: «فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين:

إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور».

وسبق دليله، فتكون هذه من باب أولى ألا تكون سبباً للقبح فيهم والعيب.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب وضع اليد على المريض، رقم (٥٦٦٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القَدَح في الصحابة، وهي قِسْمَان: الأول: خاصٌ بهنَّ، وهو ما لهنَّ من السَّوابق والفضائل. والثاني: عامٌّ، وهي التَّوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النبي ﷺ، والبلاء.

* قوله: «ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلٍ بَعْضُهُمْ قَلِيلٌ نَزَرَ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ».

الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلٍ بَعْضُهُمْ قَلِيلٌ جَدًّا. نَزَرَ: أَقَلَّ القليل؛ ولهذا قَالَ: «مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ». وَلَا شَكَّ أَنَّهُ حَصَلَ مِنْ بَعْضِهِمْ سَرِيقَةٌ وَشَرَبُ خَمْرٍ وَقَذْفُ زِنًا بِإِحْصَانٍ وَزِنًا بِغَيْرِ إِحْصَانٍ، لَكِنْ كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ مَغْمُورَةً فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ، وَبَعْضُهَا أُقِيمَ فِيهِ الْحُدُودُ، فَيَكُونُ كَفَّارَةً. ثُمَّ بَيَّنَ الْمَوْلَفُ رَحِمَهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَحَاسِنِهِمْ بِقَوْلِهِ:

«مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهَجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ».

فَكُلُّ هَذِهِ مَنَاقِبُ وَفَضَائِلُ مَعْلُومَةٌ مَشْهُورَةٌ، تَغْمُرُ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ مَسَاوِي الْقَوْمِ الْمُحَقَّقَةِ، فَكَيْفَ بِالْمَسَاوِي غَيْرِ الْمُحَقَّقَةِ أَوْ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ مُتَأَوِّلِينَ!!؟



* قوله: «وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بَعْلَمَ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ».

هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب

وَعَلَى هَذَا تَثَبُّتُ خَيْرِيَّتُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ بِالنَّصِّ وَالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِهِمْ.

فَإِذَا نَظَرْتَ بَعْلُماً وَبَصِيرَةً وَإِنصَافٍ فِي مُحَاسِنِ الْقَوْمِ وَمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْفَضَائِلِ عِلِمْتَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ أَصْحَابِ عِيسَى، وَخَيْرٌ مِنَ النَّبِيِّينَ أَصْحَابِ مُوسَى، وَخَيْرٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ نُوحٍ وَمَعَ هُودٍ وَغَيْرِهِمْ، لَا يُوجَدُ أَحَدٌ فِي أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَالْأَمْرُ فِي هَذَا ظَاهِرٌ مَعْلُومٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَخَيْرُنَا الصَّحَابَةُ، وَلَأنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَيْرُ الْخَلْقِ، فَأَصْحَابُهُ خَيْرُ الْأَصْحَابِ بِلَا شَكٍّ.

هَذَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَمَّا عِنْدَ الرَّافِضَةِ فَهُمْ شَرُّ الْخَلْقِ، إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَأَ مِنْهُمْ.

* قَوْلُهُ: «لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ».

أَيُّ: مَا وَجَدَ وَلَا يُوجَدُ مِثْلُهُمْ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» فَلَا يُوجَدُ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِثْلُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا سَابِقًا وَلَا لَاحِقًا.

* قَوْلُهُ: «وَأَنَّهُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

* أَمَّا كَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَيْرَ الْأُمَمِ؛ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وَلَأنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَيْرُ الرُّسُلِ، فَلَا جَرَمَ أَنْ تَكُونَ أُمَّتُهُ خَيْرَ الْأُمَمِ.

* وَأَمَّا كَوْنُ الصَّحَابَةِ صَفْوَةً قُرُونِ الْأُمَّةِ؛ فَلِقَوْلِهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»^(١)، وَفِي لَفْظٍ:

= فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب

فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث

عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»^(١)، والمراد بقرنه: الصَّحَابَةُ، وبالدِّينَ يَلُومُهُمُ: التَّابِعُونَ، وبالدِّينَ يَلُومُهُمُ: تابِعُوا التَّابِعِينَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَالْأَعْيَارُ بِالْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ بِجُمْهُورِ أَهْلِ الْقَرْنِ، وَهُمْ وَسَطُهُ، وَجُمْهُورُ الصَّحَابَةِ أَنْقَرُوا بِانْقِرَاضِ خِلَافَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ بَدْرِ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ. وَجُمْهُورُ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ أَنْقَرُوا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ أَصَاغِرِ الصَّحَابَةِ فِي إِمَارَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ. وَجُمْهُورُ تَابِعِي التَّابِعِينَ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَأَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ» اهـ^(٢).

وَكَانَ آخِرَ الصَّحَابَةِ مَوْتًا أَبُو الطُّفَيْلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ اللَّيْثِيُّ سَنَةَ مِئَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَقِيلَ: مِئَةٌ وَعَشْرٌ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي (الْفَتْحِ)^(٣): «وَاتَّفَقُوا أَنْ آخَرَ مَنْ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِمَّنْ يُقْبَلُ قَوْلُهُ مَنْ عَاشَ إِلَى حُدُودِ الْعَشِيرِينَ وَمِثَّتَيْنِ».



(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥٠)، من حديث

عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٧).

(٣) فتح الباري (٦/ ٧).

فَصْلٌ

فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ

كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ مَسْأَلَةٌ هَامَّةٌ، يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْحَقُّ فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ، هَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، أَوْ هِيَ مِنْ بَابِ التَّخِيلَاتِ؟

فَبَيَّنَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيهَا بِقَوْلِهِ:

«وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ».

فَمَنْ هُمْ الْأَوْلِيَاءُ؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ يَبَيِّنُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ اللَّهُ وَلِيًّا»^(١).

لِسَبِّ الْوَلَايَةِ بِالْدَّعْوَى وَالتَّمَنِّي، الْوَلَايَةُ إِنَّمَا هِيَ بِالْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى، فَلَوْ رَأَيْنَا رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّهُ وَلِيٌّ! وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَتَّقٍ لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَوْلُهُ مُرْدُودٌ عَلَيْهِ.

أَمَّا الْكَرَامَاتُ: فَفِي جَمْعِ كَرَامَةٍ، وَالْكَرَامَةُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، يُجْرِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ وَلِيٍّ؛ تَأْيِيدًا لَهُ، أَوْ إِعَانَةً، أَوْ تَنْشِيطًا، أَوْ نَصْرًا لِلدِّينِ.

■ فَالرَّجُلُ الَّذِي أَحْيَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَرَسَهُ، وَهُوَ صَلَافُ بْنُ أَشْيَمَ، بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَهْلِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى أَهْلِهِ قَالَ لِابْنِهِ: أَلْقِ السَّرَجَ عَنِ الْفَرَسِ؛ فَإِنَّهَا عَرِيَّةٌ! فَلَمَّا أَلْقَى السَّرَجَ عَنْهَا سَقَطَتْ مَيِّتَةً^(٢). فَهَذِهِ كَرَامَةٌ لِهَذَا الرَّجُلِ؛ إِعَانَةٌ لَهُ.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤).

(٢) انظر: «الزهد» لابن المبارك (ص: ٢٩٥، رقم ٨٦٣)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٢٨)؛ إِلَّا أَنَّهُمَا ذَكَرَا

ذَهَابَ بَغْلَتَهُ وَلَيْسَ مَوْتَهَا.

■ أَمَا الَّتِي لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ فَمِثْلُ الَّذِي جَرَى لِلْعَلَاءِ بْنِ الْحَضَرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عُبُورِ مَاءِ الْبَحْرِ. وَكَمَا جَرَى لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عُبُورِ نَهْرٍ دَجَلَةٍ، وَقَصَّتْهَا مَشْهُورَةٌ فِي التَّارِيخِ.

فَالْكَرَامَةُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ.

أَمَّا مَا كَانَ عَلَى وَفْقِ الْعَادَةِ فَلَيْسَ بِكَرَامَةٍ.

وَهَذَا الْأَمْرُ إِنَّمَا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى يَدِ وَلِيِّ؛ احْتِرَازًا مِنْ أُمُورِ السَّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ؛ فَإِنَّهَا أُمُورٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ، لَكِنَّهَا تُجْرِي عَلَى يَدِ غَيْرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، بَلْ عَلَى يَدِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ كَرَامَةً.

وَقَدْ كَثُرَتْ هَذِهِ الْكَرَامَاتُ الَّتِي تُدْعَى أَنَّهَا كَرَامَاتٌ فِي هَؤُلَاءِ الْمَشْهُودِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَالْوَاجِبُ الْحَذَرُ مِنْهُمْ وَمِنْ تَلَاعُبِهِمْ بِعُقُولِ النَّاسِ وَأَفْكَارِهِمْ.

فَالْكَرَامَةُ ثَابِتَةٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْوَاقِعِ، سَابِقًا وَلَا حَقًّا.

* فَمِنْ الْكَرَامَاتِ الثَّابِتَةِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ سَبَقَ: قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، الَّذِينَ عَاشُوا فِي قَوْمٍ مُشْرِكِينَ، وَهُمْ قَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَخَافُوا أَنْ يُغْلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ، فَخَرَجُوا مِنَ الْقَرْيَةِ مُهَاجِرِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ غَارًا فِي جَبَلٍ، وَجَهَ هَذَا الْغَارَ إِلَى الشَّالِ، فَلَا تَدْخُلُ الشَّمْسُ عَلَيْهِمْ فَتُفْسِدُ أَبْدَانَهُمْ وَلَا يُخْرَمُونَ مِنْهَا، إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرَّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتُ الشَّالِ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ.

وَبَقُوا فِي هَذَا الْكَهْفِ ثَلَاثَ مِئَةِ سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا، وَهُمْ نَائِمُونَ، يُقَلِّبُهُمُ اللَّهُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّالِ، فِي الصَّيْفِ وَفِي الشِّتَاءِ، لَمْ يُزَعْجَهُمُ الْحَرُّ، وَلَمْ يُؤْلِمَهُمُ الْبَرْدُ، مَا جَاعُوا وَمَا عَطِشُوا وَمَا مَلُّوا مِنَ النَّوْمِ. فَهَذِهِ كَرَامَةٌ بِلَا شَكٍّ، بَقُوا هَكَذَا حَتَّى بَعَثَهُمُ اللَّهُ وَقَدْ زَالَ الشُّرْكُ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَسَلِمُوا مِنْهُ.

■ وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ مَرْيَمَ، أَكْرَمَهَا اللَّهُ حَيْثُ أَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ، وَأَمَرَهَا اللَّهُ أَنْ تَهْرَبَ بِجَذْعِهَا لِتَسَاقُطَ عَلَيْهَا رُطْبًا جَنِيًّا.

■ ومن ذَلِكَ قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ؛ كَرَامَةً لَهُ؛ لِيَتَبَيَّنَ لَهُ قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَزِدَّادَ ثَبَاتًا فِي إِيمَانِهِ.

* أَمَّا فِي السُّنَّةِ: فَالكَرَامَاتُ كَثِيرَةٌ، وَرَاجِعُ (كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) وَكِتَابِ (الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ) لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ.

* وَأَمَّا شَهَادَةُ الْوَاقِعِ بِثُبُوتِ الْكَرَامَاتِ فَظَاهِرٌ، يَعْلَمُ بِهِ الْمَرْءُ فِي عَصْرِهِ: إِمَّا بِالْمُشَاهَدَةِ، وَإِمَّا بِالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ.

فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَهُنَاكَ مَذْهَبٌ مُخَالِفٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْمُعْتَزَلَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الْكَرَامَاتِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّكَ لَوْ أَثْبَتَ الْكَرَامَاتِ لَأَشْتَبَهَ السَّاحِرُ بِالْوَلِيِّ وَالْوَلِيُّ بِالنَّبِيِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَأْتِي بِخَارِقٍ.

فَيُقَالُ: لَا يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ عَلَى يَدِ وَلِيٍّ، وَالْوَلِيُّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْعِيَ النُّبُوَّةَ، وَلَوْ ادَّعَاهَا لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا، آيَةُ النَّبِيِّ تَكُونُ عَلَى يَدِ نَبِيِّ، وَالشَّعْوَذَةُ وَالسَّحَرُ عَلَى يَدِ عَدُوٍّ بَعِيدٍ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَتَكُونُ بِفَعْلِهِ بِاسْتِعَانَتِهِ بِالشَّيَاطِينِ، فَيَنَالُهَا بِكَسْبِهِ، بِخِلَافِ الْكَرَامَةِ فَهِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَطْلُبُهَا الْوَلِيُّ بِكَسْبِهِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: كُلُّ كَرَامَةٍ لَوَلِيٍّ فَهِيَ آيَةٌ لِلنَّبِيِّ الَّذِي اتَّبَعَهُ؛ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ شَهَادَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ طَرِيقَ هَذَا الْوَلِيِّ طَرِيقٌ صَحِيحٌ.

وَعَلَى هَذَا: مَا جَرَى مِنَ الْكَرَامَاتِ لِلأَوْلِيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّهَا آيَاتٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ولهذا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَا مِنْ آيَةٍ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ إِلَّا وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلُهَا.

فَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُلْقَ فِي النَّارِ فَيَخْرُجَ حَيًّا كَمَا حَصَلَ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ!

فَأَجِيبَ بَأَنَّهُ جَرَى ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ^(١)، وَإِذَا أُكْرِمَ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجِنْسِ هَذَا الْأَمْرِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ دِينَ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ؛ لَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِجِنْسِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِإِبْرَاهِيمَ.

* وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْبَحْرَ لَمْ يُفْلَقْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ فُلِقَ لِمُوسَى!

فَأَجِيبَ بَأَنَّهُ حَصَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ فِي الْبَحْرِ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لِمُوسَى، وَهُوَ الْمَشْيُ عَلَى الْمَاءِ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضَرَمِيِّ^(٢) حَيْثُ مَشَوْا عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لِمُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى مَشَى عَلَى أَرْضٍ بِإِسْةٍ.

* وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ مِنْ آيَاتِ عِيسَى إَحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

فَأَجِيبَ بَأَنَّهُ وَقَعَ لِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي مَاتَ حِمَارُهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحْيِيَهُ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى.

* وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ إِيرَاءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ!

فَأَجِيبَ بَأَنَّهُ حَصَلَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ لَمَّا جُرِحَ فِي أَحَدٍ نَذَرَتْ عَيْنُهُ حَتَّى صَارَتْ عَلَى خَدِّهِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ، وَوَضَعَهَا فِي مَكَانِهَا، فَصَارَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ^(٣).

فَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ.

(١) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٦٩)، وقال: إن الأسود العنسي المتنبئ طرح أبا مسلم الخولاني في النار، فلم تضره، فكان يُشَبَّهُ بِالْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مجاوب الدعوة» رقم (٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٩٥ رقم ١٦٧)، والأوسط رقم (٣٤٩٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة رقم (٥٢١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ مِنَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضَرَمِيِّ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَمْ أَشْهَدْهَا مِنْ أَحَدٍ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ.. فَذَكَرَ مِنْهَا: وَكُنْتُ مَعَهُ فَانْتَهِنَا إِلَى مَكَانٍ فِيهِ مَاءٌ فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَى الْعُبُورِ، فَدَعَا اللَّهُ، فَمَشَى عَلَى الْمَاءِ حَتَّى عَبَرَ ذَلِكَ الْجَانِبَ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٧٩٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٨، رقم ١٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥٣). وقد أوردها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٥/ ٣١٨)؛ وعزاها للبغوي وأبي يعلى والدارقطني والبيهقي في «دلائل النبوة». وعزاها الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٩٨) للطبراني وأبي يعلى، وقال: في إسناده الطبراني من لم أعرفهم، وفي إسناده أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو ضعيف.

فَالْآيَاتُ الَّتِي كَانَتْ لِلْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ كَانَ مِنْ جِنْسِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْ لِأُمَّتِهِ، وَمَنْ أَرَادَ الْمَزِيدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» فِي التَّارِيخِ لِابْنِ كَثِيرٍ.

تَنْبِيْهُ: الْكَرَامَاتُ قُلْنَا: إِنَّمَا تَكُونُ تَأْيِيدًا أَوْ تَنْشِيطًا أَوْ إِعَانَةً لِلشَّخْصِ أَوْ نَصْرًا لِلْحَقِّ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْكَرَامَاتُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ عَنْدهُمْ مِنَ التَّشْيِيبِ وَالتَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ مَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ عَنِ الْكَرَامَاتِ؛ فَإِنَّ الرُّسُولَ ﷺ كَانَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ. وَأَمَّا التَّابِعُونَ فَإِنَّهُمْ دُونَ ذَلِكَ؛ وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ الْكَرَامَاتُ فِي رَمَتِهِمْ؛ تَأْيِيدًا لَهُمْ وَتَنْشِيطًا وَنَصْرًا لِلْحَقِّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ.

* قَوْلُهُ: «وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ».

* «خَوَارِقِ»: جَمْعُ خَارِقٍ. وَ«الْعَادَاتِ»: جَمْعُ عَادَةٍ.

وَالْمُرَادُ بـ«خَوَارِقِ الْعَادَاتِ»: مَا يَأْتِي عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ الْكُونِيَّةِ.

وَهَذِهِ الْكَرَامَاتُ لَهَا أَرْبَعُ دَلَالَاتٍ:

أَوَّلًا: بَيَانُ كِمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ حَيْثُ حَصَلَ هَذَا الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ بِأَمْرِ اللَّهِ.

ثَانِيًا: تَكْذِيبُ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الَّتِي تَفْعَلُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الطَّبِيعَةُ هِيَ الَّتِي تَفْعَلُ لَكَانَتِ الطَّبِيعَةُ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ، فَإِذَا تَغَيَّرَتِ الْعَادَاتُ وَالطَّبِيعَةُ دَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْكَوْنِ مُدَبِّرًا وَخَالِقًا.

ثَالِثًا: أَنَّهَا آيَةٌ لِلنَّبِيِّ الْمُتَّبُوعِ كَمَا أَسْلَفْنَا قَرِيبًا.

رَابِعًا: أَنَّ فِيهَا تَنْشِيطًا وَكَرَامَةً لِهَذَا الْوَلِيِّ.



* قَوْلُهُ: «فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ».

يَعْنِي: أَنَّ الْكَرَامَةَ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ يَتَعَلَّقُ بِالْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ، وَقِسْمٍ آخَرَ يَتَعَلَّقُ بِالْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ.

- أَمَّا الْعُلُومُ: فَأَنْ يَحْصُلَ لِلإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ مَا لَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِ.
- وَأَمَّا الْمُكَاشَفَاتُ: فَأَنْ يَظْهَرَ لَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُكْشَفُ لَهُ عَنْهَا مَا لَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِ.

مثال الأول - العلوم - : مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَهُ عَلَى مَا فِي بَطْنِ زَوْجَتِهِ الْحَمْلِ - أَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ أَنْثَى ^(١).

ومثال الثاني - المُكَاشَفَاتِ - : مَا حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَسَمِعُوهُ يَقُولُ: يَا سَارِيَّةُ! الْجَبَلُ! فَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ كُشِفَ لَهُ عَنْ سَارِيَّةَ بْنِ زُنَيْمٍ - وَهُوَ أَحَدُ قَوَادِمِهِ فِي الْعِرَاقِ - وَأَنَّهُ مَحْضُورٌ مِنْ عَدُوِّهِ، فَوَجَّهَهُ إِلَى الْجَبَلِ، وَقَالَ لَهُ: يَا سَارِيَّةُ! الْجَبَلُ! فَسَمِعَ سَارِيَّةُ صَوْتَ عُمَرَ، وَانْحَاذَ إِلَى الْجَبَلِ، وَتَحَصَّنَ بِهِ ^(٢)!

هَذِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُكَاشَفَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ وَاقِعٌ، لَكِنَّهُ بَعِيدٌ.

▪ أَمَّا الْقُدْرَةُ وَالتَّأْيِيرَاتُ: فَمِثْلُ مَا وَقَعَ لِمَرْيَمَ مِنْ هَرَاها لِحُذَعِ النَّحْلِ وَتَسَاقُطِ الرُّطَبِ عَلَيْهَا. وَمِثْلُ مَا وَقَعَ لِلَّذِي عَنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ؛ حَيْثُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.



* قَوْلُهُ: «وَالْمَأْتُورُ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ فِرْقِ الْأُمَّةِ».

(١) أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» رقم (٦٣)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأوردها ابن حجر في «الإصابة» (٨٠ / ٨).

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٢٧ / ٩) رقم (٦٧)، والبيهقي في الاعتقاد (ص: ٣١٤)، وانظر تاريخ الطبري (١٧٨ - ١٧٩)، وذكره ابن كثير في «البداية» (١٧٥ / ١٠) وقال: وهذا إسناد جيد حسن. وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١١١٠).

الكَرَامَاتُ مَوْجُودَةٌ فِيمَا سَبَقَ مِنَ الْأَمَمِ، وَمِنْهَا قِصَّةُ أَصْحَابِ الْغَارِ الَّذِينَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ^(١)، وَمَوْجُودَةٌ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ، كَقِصَّةِ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ^(٢)، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ عِنْدَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ^(٣)، وَمَوْجُودَةٌ فِي التَّابِعِينَ، مِثْلُ قِصَّةِ صِلَةَ بْنِ أَشِيمٍ الَّذِي أَحْيَا اللَّهُ لَهُ فَرَسَهُ^(٤).

يَقُولُ سَيِّحُ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابِ (الْفُرْقَانِ): «وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، قَدْ بَسِطَ الْكَلَامَ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ عَيَانًا وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ»^(٥).

❖ قَوْلُهُ: «وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: سَمْعِيٌّ وَعَقْلِيٌّ:

■ أَمَّا السَّمْعِيُّ: فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ فِي قِصَّةِ الدَّجَالِ أَنَّهُ يَدْعُو رَجُلًا مِنَ النَّاسِ مِنَ الشَّبَابِ، يَأْتِي وَيَقُولُ لَهُ: كَذَبْتَ! إِنَّمَا أَنْتَ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ الَّذِي أَخْبَرْنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتِي الدَّجَالُ، فَيَقْتُلُهُ قِطْعَتَيْنِ، فَيَجْعَلُ وَاحِدَةً هُنَا وَوَاحِدَةً هُنَا رَمِيَّةَ الْغَرَضِ (يَعْنِي: بَعِيدًا مَا بَيْنَهُمَا) وَيَمْشِي بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيَقُومُ يَتَهَلَّلُ، ثُمَّ يَدْعُوهُ لِيَقَرَّ

(١) قصة أصحاب الغار؛ أخرجها البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم:

كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قصة أسيد بن حضير؛ أخرجها البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة

القرآن، رقم (٥٠١٨) معلقا، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم (٧٩٦)،

من حديث أبي سعيد الخدري، عن أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجها البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، رقم (٦٠٢)، ومسلم: كتاب

الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم (٢٠٥٧)، من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) انظر: «الزهد» لابن المبارك (ص: ٢٩٥، رقم ٨٦٣)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٢٨)، إلا أنها ذكرها

ذهاب بغلته وليس موتها، وقد سبق.

(٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ١٦٦).

لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، فيَقُولُ الرَّجُلُ: مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ! فَيُرِيدُ الدَّجَالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِ^(١).

فهذه (أي: عَدَمُ تَمَكُّنِ الدَّجَالِ مِنْ قَتْلِ ذَلِكَ الشَّابِّ) مِنَ الْكَرَامَاتِ بِلَا شَكٍّ.

■ وَأَمَّا الْعَقْلِيُّ: فيُقَالُ: مَا دَامَ سَبَبُ الْكَرَامَةِ هِيَ الْوِلَايَةُ فَالْوِلَايَةُ لَا تَزَالُ مَوْجُودَةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم (٧١٣٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب في صفة الدجال، رقم (٢٩٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ فِي طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ

* قَوْلُهُ: «تَمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا».

لَمَّا فَرَعَ الْمُؤَلَّفُ مِمَّا يُرِيدُ ذِكْرَهُ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْعَقِيدَةِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ طَرِيقَتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ.

* قَوْلُهُ: «اتَّبَاعُ آثَارِ»: لَا اتِّبَاعَ إِلَّا بِعِلْمٍ. إِذَنْ: فَهُمْ حَرِيصُونَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ؛ لِيَعْرِفُوا آثَارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ يَتَّبِعُوهَا.

فَهُمْ يَتَّبِعُونَ آثَارَ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يَدْعُونَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ، وَكَلِمًا اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ أَنْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ دَعْوًا إِلَى اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَخْطِطُونَ خَطًّا عَشْوَاءَ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ بِالْحِكْمَةِ، يَتَّبِعُونَ آثَارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ، وَتَنْزِيلِ كُلِّ إِنْسَانٍ مَنَزِلَتَهُ، يَتَّبِعُونَهُ أَيْضًا فِي أَخْلَاقِهِ مَعَ أَهْلِهِ، فَتَجِدُهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا أَحْسَنَ النَّاسِ لِأَهْلِيهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(١).

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْصَرَ آثَارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنْ نَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُلُقِ وَالِدَّعْوَةِ.

فِي الْعِبَادَةِ لَا يَتَشَدَّدُونَ وَلَا يَتَهَاوَنُونَ، وَيَتَّبِعُونَ مَا هُوَ أَفْضَلُ.

وَرَبَّمَا يَسْتَعْلُونَ عَنِ الْعِبَادَةِ بِمُعَامَلَةِ الْخَلْقِ لِلْمَصْلَحَةِ، كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَأْتِيهِ الْوُفُودُ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَيَقْضِيهَا فِيهَا بَعْدُ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩٥)، وابن حبان رقم (٤١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وأخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء، رقم (١٩٧٧)، وابن حبان رقم (٤١٨٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. والحديث صحيحه الألباني في «الصحيحه» رقم (٢٨٥).

* قَوْلُهُ: «ظَاهِرًا وَبَاطِنًا»: الظُّهُورُ وَالبُطُونُ أَمْرٌ نَسِيٌّ: ظَاهِرًا فِيمَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ، وَبَاطِنًا فِيمَا يَسِرُّ وَنَهْ بِأَنْفُسِهِمْ. ظَاهِرًا فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَبَاطِنًا فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ...

فَمِثْلًا: التَّوَكُّلُ وَالْحَقُوفُ وَالرَّجَاءُ وَالْإِنَابَةُ وَالْمَحَبَّةُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَذِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، يَقُومُونَ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ.

وَالصَّلَاةُ فِيهَا الْقِيَامُ وَالْقُعُودُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْحَجُّ، وَالصِّيَامُ، وَهَذِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، فِيهَا ظَاهِرَةٌ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ آثَارَ الرَّسُولِ ﷺ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ أَوْ أَكْثَرَ:

أَوَّلًا: مَا فَعَلَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَبُّدِ، فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَظْهَرُ فِيهِ أَنَّهُ فَعَلَهُ تَأَثُّرًا بِعَادَةٍ أَوْ بِمُقْتَضَى جِبَلَةٍ وَفِطْرَةٍ أَوْ حَصَلَ اتِّفَاقًا، فَإِنَّهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَبُّدِ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِهِ.

ثَانِيًا: مَا فَعَلَهُ اتِّفَاقًا، فَهَذَا لَا يُشْرَعُ لَنَا النَّاسِي فِيهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ، كَمَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قُدُومُنَا إِلَى مَكَّةَ فِي الْحَجِّ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ! لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدِمَ مَكَّةَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ^(١). فنقول: هَذَا غَيْرُ مَشْرُوعٍ؛ لِأَنَّ قُدُومَهُ ﷺ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَقَعَ اتِّفَاقًا.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: يَنْبَغِي إِذَا دَفَعْنَا مِنْ عَرَفَةَ وَوَصَلْنَا إِلَى الشَّعْبِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ ﷺ وَبَالَ أَنْ نَنْزِلَ وَنُبُولَ، وَنَتَوَضَّأَ وَنُصَوِّأَ خَفِيفًا كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ! فنقول: هَذَا لَا يُشْرَعُ.

وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي وَقَعَتْ اتِّفَاقًا، فَإِنَّهُ لَا يُشْرَعُ النَّاسِي فِيهِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ فَعَلَهُ لَا عَلَى سَبِيلِ الْقَصْدِ لِلتَّعَبُّدِ. وَالنَّاسِي بِهِ تَعَبُّدٌ.

ثَالِثًا: مَا فَعَلَهُ بِمُقْتَضَى الْعَادَةِ، فَهَلْ يُشْرَعُ لَنَا النَّاسِي بِهِ؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج، رقم (١٢٤٠/١٩٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/٣٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/١٢٣)، رقم (٦٥٧٠)، من حديث جابر رضي الله عنه.

الجواب: نَعَمْ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَأَسَّى بِهِ، لَكِنْ بِجِنْسِهِ لَا بِنَوْعِهِ.

وهذه المسألة قَلَّ مَنْ يَتَقَطَّنُ لَهَا مِنَ النَّاسِ، يَظُنُّونَ أَنَّ التَّأَسِّيَ بِهِ فِيهَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْعَادَةِ بِالنَّوْعِ، ثُمَّ يَنْفَوْنَ التَّأَسِّيَ بِهِ فِي ذَلِكَ.

ونحنُ نقولُ: نَتَأَسَّى بِهِ، لَكِنْ بِاعْتِبَارِ الْجِنْسِ، بِمَعْنَى أَنْ نَفْعَلَ مَا تَقْتَضِيهِ الْعَادَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّاسُ، إِلَّا أَنْ يَمْنَعَ مِنْ ذَلِكَ مانِعٌ شَرْعِيٌّ.

رابعاً: مَا فَعَلَهُ بِمُقْتَضَى الْجِلَّةِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْعِبَادَاتِ قَطْعاً، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ عِبَادَةً مِنْ وَجْهِ، بَأَنْ يَكُونَ فَعَلُهُ عَلَى صِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ عِبَادَةً، كَالنَّوْمِ فَإِنَّهُ بِمُقْتَضَى الْجِلَّةِ، لَكِنْ يُسْنُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْيَمِينِ، وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ جِلَّةٌ وَطَبِيعَةٌ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ عِبَادَةً مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذَا قَصَدَ بِهِ الْإِنْسَانُ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ، وَالتَّعَمُّعَ بِنِعَمِهِ، وَالْقُوَّةَ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَحِفْظَ الْبَدَنِ. ثُمَّ إِنَّ صِفَتَهُ أَيْضاً تَكُونُ عِبَادَةً كَالْأَكْلِ بِالْيَمِينِ، وَالبَسْمَلَةِ عِنْدَ الْبَدَاةِ، وَالْحَمْدَلَةَ عِنْدَ الْإِنْتِهَاءِ.

وَهُنَا نَسْأَلُ: هَلِ اتَّخَاذُ الشَّعْرِ عَادَةً أَوْ عِبَادَةً؟

يَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ عِبَادَةٌ، وَأَنَّهُ يُسْنُ لِلْإِنْسَانِ اتِّخَاذُ الشَّعْرِ.

وَيَرَى آخَرُونَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ لِلَّذِي رَأَاهُ قَدْ حَلَقَ بَعْضَ رَأْسِهِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «اْخْلِقُوا كُلَّهُ أَوْ ذَرُّوا كُلَّهُ»^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اتَّخَاذَ الشَّعْرِ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ، وَإِلَّا لَقَالَ: أَبْقِهِ، وَلَا تَحْلِقْ مِنْهُ شَيْئاً!

وهذه المسألة يَنْبَغِي التَّثَبُّتُ فِيهَا، وَلَا يُحْكَمُ عَلَى شَيْءٍ بِأَنَّهُ عِبَادَةٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعِبَادَاتِ الْمَنْعُ إِلَّا مَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٨/٢)، وأبو داود: كتاب الترجل، باب في الذؤابة، رقم (٤١٩٥)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الرخصة في حلق الرأس، رقم (٥٠٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «اْخْلِقُوا كُلَّهُ أَوْ ذَرُّوا كُلَّهُ»، وهذا يدلُّ على كونه «كلمة».

وأخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب كراهة القزع، رقم (٢١٢٠) ولم يسق لفظه. ونقل الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٢٥١/٢)، عن أبي مسعود الدمشقي أن في رواية لمسلم: قال: «اْخْلِقُوا كُلَّهُ أَوْ ذَرُّوا كُلَّهُ»، وانظر: جامع الأصول لابن الأثير (٧٥٣/٤).

* قَوْلُهُ: «وَاتَّبَاعِ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ»

أَيُّ: وَمِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ اتِّبَاعُ... إلخ، فَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى «اتِّبَاعِ الْأَثَارِ».

* قَوْلُهُ: «السَّابِقِينَ»؛ يَعْنِي: إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

* وَقَوْلُهُ: «الْأَوَّلِينَ» يَعْنِي: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

* «وَالْمُهَاجِرُونَ»: مَنْ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.

* «وَالْأَنْصَارُ»: أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُ سَبِيلِهِمْ مِنْ مَنَهِجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَالْحَقِّ يَمْنُ بَعْدَهُمْ، وَكَلَّمَا بَعَدَ النَّاسُ عَنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ بَعُدُوا مِنَ الْحَقِّ، وَكَلَّمَا قَرَّبَ النَّاسُ مِنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ قَرَّبُوا مِنَ الْحَقِّ، وَكَلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَحْرَصَ عَلَى مَعْرِفَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ.

ولهذا تَرَى اخْتِلَافَ الْأُمَّةِ بَعْدَ زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَكْثَرَ انْتِشَارًا، وَأَشْمَلَ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ، لَكِنِ الْخِلَافُ فِي عَهْدِهِمْ كَانَ مُحْضُورًا.

فَمِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنْ يَنْظُرُوا فِي سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَيَتَّبِعُوهَا؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَهَا يُؤَدِّي إِلَى مُحِبَّتِهِمْ، مَعَ كَوْنِهِمْ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، خِلَافًا لِمَنْ زَهَدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَصَارَ يَقُولُ: هُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ رِجَالٌ! وَلَا يُبَالِي بِخِلَافِهِمْ!! وَكَأَنَّ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ كَقَوْلِ فَلَانٍ وَفُلَانٍ مِنْ أَوَاخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ!! وَهَذَا خَطَأٌ وَضَلَالٌ؛ فَالصَّحَابَةُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ، وَقَوْلُهُمْ مُقَدَّمٌ عَلَى قَوْلِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَجْلِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ السَّلِيمِ وَالتَّقْوَى وَالْأَمَانَةِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ صُحْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ.



* قَوْلُهُ: «وَاتَّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

* «اتَّبَاعُ»: مَعْطُوفَةٌ عَلَى «اتَّبَاعِ الْأَثَارِ».

* وَالْوَصِيَّةُ: الْعَهْدُ إِلَى غَيْرِهِ بِأَمْرٍ هَامٍّ.

* وَمَعْنَى: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي...» إلخ: الْحَثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا، وَأكَّدَ هَذَا بِقَوْلِهِ: «وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» وَهِيَ أَقْصَى الْأَضْرَاسِ، فَأَمَرَ بِالتَّمَسُّكِ بِهَا بِالْيَدِ، وَالْعَضُّ عَلَيْهَا بِالْأَضْرَاسِ؛ مُبَالَغَةً فِي التَّمَسُّكِ بِهَا.

وَالسُّنَّةُ: هِيَ الطَّرِيقَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ: هُمُ الَّذِينَ خَلَفُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي أُمَّتِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَدَعْوَةً.

وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَصْفِ وَأَوَّلَى مَنْ يَدْخُلُ فِيهِ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ.

ثُمَّ يَأْتِي رَجُلٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ، لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ شَيْءٌ، وَيَقُولُ: أَذَانُ الْجُمُعَةِ الْأَوَّلُ بِدْعَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَعْرُوفًا عَلَى عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَجِبُ أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى الْأَذَانِ الثَّانِي فَقَطْ!

فَنَقُولُ لَهُ: إِنَّ سُنَّةَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ إِذَا لَمْ تُخَالِفْ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ مِنْكَ وَأَعْيَرُ عَلَى دِينِ اللَّهِ بِمُعَارَضَتِهِ، وَهُوَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، الَّذِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِاتِّبَاعِهِمْ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، وابن حبان رقم (٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦)، من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي. وقد نقل الألباني في «إرواء الغليل» رقم (٢٤٥٥) تصحيحه عن جماعة من أهل العلم.

ثُمَّ إِنَّ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعْتَمَدَ عَلَى أَصْلٍ، وَهُوَ أَنَّ بِلَالًا [كَانَ] يُؤَدِّنُ قَبْلَ الْفَجْرِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، لَا لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، وَلَكِنْ لِرَجْعِ الْقَائِمِ وَيُوقِظُ النَّائِمِ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١)، فَأَمَرَ عُمَانُ بِالْأَذَانِ الْأَوَّلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ^(٢)، لَا لِحُضُورِ الْإِمَامِ، وَلَكِنْ لِحُضُورِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَثُرَتْ وَاتَّسَعَتْ، وَاحْتِاجُ النَّاسِ أَنْ يَعْلَمُوا بِقُرْبِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ حُضُورِ الْإِمَامِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ حُضُورُهُمْ قَبْلَ حُضُورِ الْإِمَامِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَّبِعُونَ مَا أَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، إِلَّا إِذَا خَالَفَ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَالَفَةً صَرِيحَةً، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَعْتَذِرَ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ، وَنَقُولَ: هَذَا مِنْ بَابِ الاجْتِهَادِ الْمَعْدُورِ فِيهِ.

قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «وَايَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»: «إِيَّاكُمْ» هَذِهِ لِلتَّحْذِيرِ، أَيْ: أَحْذَرُكُمْ. وَ«الْأُمُورِ»: بِمَعْنَى الشُّؤُونِ، وَالْمَرَادُ بِهَا أُمُورُ الدِّينِ. أَمَّا أُمُورُ الدُّنْيَا فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا الْحِلَّ، فَمَا ابْتَدَعَ مِنْهَا فَهُوَ حَلَالٌ، إِلَّا أَنْ يَدُلَّ الدَّلِيلُ عَلَى تَحْرِيمِهِ.

لَكِنْ أُمُورُ الدِّينِ الْأَصْلُ فِيهَا الْحَظَرُ، فَمَا ابْتَدَعَ مِنْهَا فَهُوَ حَرَامٌ بِدْعَةٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنْ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَالَّةٌ»: الْجُمْلَةُ مُفْرَعَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ التَّحْذِيرِيَّةِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهَا هُنَا تَوْكِيدُ التَّحْذِيرِ، وَبَيَانُ حُكْمِ الْبِدْعَةِ.

«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَالَّةٌ»: هَذَا كَلَامٌ عَامٌّ مُسَوَّرٌ بِأَفْوَى لَفْظٍ دَالٌّ عَلَى الْعُمُومِ، وَهُوَ لَفْظُ (كُلُّ) فَهُوَ تَعْمِيمٌ مُحْكَمٌ صَدَرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان قبل الفجر، رقم (٦٢١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، رقم (١٠٩٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب المؤذن الواحد يوم الجمعة، رقم (٩١٣)، عن السائب بن يزيد: أن الذي زاد التأذين الثالث يوم الجمعة؛ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَنْصَحُ الْخَلْقَ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَأَفْصَحُ الْخَلْقَ بَيَانًا، وَأَصْدُقُهُمْ خَبْرًا، فَاجْتَمَعَتْ فِي حَقِّهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ: عِلْمٌ وَنُصْحٌ وَفَصَاحَةٌ وَصِدْقٌ، نَطَقَ بِقَوْلِهِ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

فَعَلَى هَذَا: كُلُّ مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِعَقِيدَةٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ.

■ فَالْجَهْمِيَّةُ يَتَعَبَّدُونَ بِعَقِيدَتِهِمْ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مُتَزَهَوْنَ لِلَّهِ، وَالْمُعْتَزِلَةُ كَذَلِكَ، وَالْأَشَاعِرَةُ يَتَعَبَّدُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ بَاطِلَةٍ.

■ وَالَّذِينَ أَحَدُثُوا أَذْكَارًا مُعَيَّنَةً يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ بِذَلِكَ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مَأْجُورُونَ عَلَى هَذَا.

■ وَالَّذِينَ أَحَدُثُوا أَفْعَالًا يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ بِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مَأْجُورُونَ عَلَى هَذَا.

كُلُّ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا فِي الْعَقِيدَةِ أَوْ فِي الْأَقْوَالِ أَوْ فِي الْأَفْعَالِ، كُلُّ بِدْعَةٍ مِنْ بَدْعِهِمْ فِيهِ ضَلَالَةٌ، وَوَصَفَهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالضَّلَالَةِ؛ لِأَنَّهَا مَرْكَبٌ، وَلِأَنَّهَا انْحِرَافٌ عَنِ الْحَقِّ.

وَالْبِدْعَةُ تَسْتَلْزِمُ مَحَازِيرَ فَاسِدَةٍ:

فَأَوَّلًا: تَسْتَلْزِمُ تَكْذِيبَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ بِبِدْعَةٍ جَدِيدَةٍ يَعْتَبِرُهَا دِينًا، فَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الدِّينَ لَمْ يَكْمُلْ.

ثَانِيًا: تَسْتَلْزِمُ الْقَدْحَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ، فَأَكْمَلَهَا هَذَا الْمُبْتَدِعُ.

ثَالِثًا: تَسْتَلْزِمُ الْقَدْحَ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بِهَا، فَكُلُّ مَنْ سَبَقَ هَذِهِ الْبِدْعَ مِنَ النَّاسِ دِينُهُمْ نَاقِصٌ! وَهَذَا خَطِيرٌ!!

رَابِعًا: مِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْبِدْعَةِ أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنِ اشْتَغَلَ بِبِدْعَةٍ انْشَغَلَ عَنِ سُنَّتِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَا أَحَدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلَّا هَدَمُوا مِثْلَهَا مِنَ السُّنَّةِ».

خَامِسًا: أَنَّ هَذِهِ الْبِدْعَ تُوجِبُ تَفَرُّقَ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعَةَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ هُمْ أَصْحَابُ الْحَقِّ، وَمَنْ سِوَاهُمْ عَلَى ضَلَالٍ!! وَأَهْلُ الْحَقِّ يَقُولُونَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ عَلَى ضَلَالٍ! فَتَفَرَّقَ قُلُوبُهُمْ.

فهذه مفاسد عظيمة، كلها تترتب على البدعة من حيث هي بدعة، مع أنه يتصل بهذه البدعة سفة في العقل وخلل في الدين.

وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلى أقسام ثلاثة أو خمسة أو ستة، فقد أخطأ، وخطؤه من أحد وجهين:

■ إما أن لا ينطبق شرعاً وصف البدعة على ما سماه بدعة.

■ وإما أن لا يكون حسناً كما زعم.

فالنبي ﷺ قال: «كُلُّ بدعة ضلالة» فقال: «كُلُّ» فما الذي يُخرجنا من هذا السور العظيم حتى نُقسم البدع إلى أقسام؟

فإن قلت: ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان، فقال: نعمت البدعة هذه. فأنتى عليها، وسماها بدعة^(١)!

فالجواب أن نقول: ننظر إلى هذه البدعة التي ذكرها، هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا.

فإذا نظرنا ذلك وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بأصحابه في رمضان ثلاث ليالٍ، ثم تركه؛ خوفاً من أن تفرض عليهم، فثبت أصل المشروعية، وانتفى أن تكون بدعة شرعية، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، والرسول ﷺ قد صلاتها!!

وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة؛ لأن الناس تركوها، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، بل أوزاعاً، الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط، فلما جمعهم على إمام واحد صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولاً من هذا التفريق.

فإنه خرج رضي الله عنه ذات ليلة، فقال: لو أني جمعت الناس على إمام واحد لكان أحسن.

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان، رقم (٢٠١٠).

فَأَمَرَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَتَمِيمَا الدَّارِيَّ أَنْ يَقُومَا لِلنَّاسِ بِأَحْدَى عَشْرَةِ رُكْعَةٍ، فَقَامَا لِلنَّاسِ بِأَحْدَى عَشْرَةِ رُكْعَةٍ، فَخَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِإِمَامِهِمْ، فَقَالَ: نِعِمَّتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ.
إِذَنْ: هِيَ بِدْعَةٌ نَسِيَّةٌ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تَرِكَتْ ثُمَّ أُنْشِئَتْ مَرَّةً أُخْرَى.
فَهَذَا وَجْهٌ تَسْمِيَّتُهَا بِبِدْعَةٍ.

وَأَمَّا أَنَّهَا بِدْعَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَثُبُنِي عَلَيْهَا عُمَرُ، فَكَلَّا.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُعَارِضُهُ كَلَامُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، فَأُثْبِتْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسُنُّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الْإِسْلَامِ؟

فَنَقُولُ: كَلَامُ الرَّسُولِ ﷺ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَا يَتَنَاقَضُ، فَيُرِيدُ بِالسُّنَّةِ الْحَسَنَةِ السُّنَّةَ الْمَشْرُوعَةَ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِسُنَّتِهَا الْمُبَادَرَةُ إِلَى فِعْلِهَا.

يُعْرَفُ هَذَا بَيَّانِ سَبَبِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ حِينَ جَاءَ أَحَدُ الْأَنْصَارِ بِضَرَّةٍ (يعني: مِنَ الدَّرَاهِمِ) وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ دَعَا أَصْحَابَهُ أَنْ يَتَبَرَّعُوا لِلرَّهْطِ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ مُضَرَ، مُجْتَائِي النَّهَارِ، وَهُمْ مِنْ كِبَارِ الْعَرَبِ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ، فَدَعَا إِلَى التَّبَرُّعِ لَهُمْ، فَجَاءَ هَذَا الرَّجُلُ أَوَّلَ مَا جَاءَ بِهِذِهِ الضَّرَّةَ، فَقَالَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أَوْ يُقَالُ: الْمُرَادُ بِالسُّنَّةِ الْحَسَنَةِ مَا أُحْدِثَ لِيَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى مَا ثَبَّتَ مَشْرُوعِيَّتُهُ، كَتَصْنِيفِ الْكُتُبِ، وَبِنَاءِ الْمَدَارِسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ كَلَامَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ هُوَ مُتَّفِقٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قَوْلُهُ: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ».

هَذَا عَلِمْنَا وَاعْتَقَدْنَا، وَأَنْ لَيْسَ فِي كَلَامِ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ، بَلْ هُوَ أَصْدَقُ الْكَلَامِ، فَإِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ شَيْءٍ بَأَنَّهُ كَائِنٌ فَهُوَ كَائِنٌ، وَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ بَأَنَّهُ سَيَكُونُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ، وَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ بَأَنَّهُ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ صِفَتَهُ كَذَا وَكَذَا.

فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْأَمْرُ عَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ ظَنَّ التَّغْيِيرَ فَإِنَّهَا ظَنُّهُ خَطَأٌ؛ لِقُصُورِهِ أَوْ تَقْصِيرِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ قَدْ سُطِحَتْ، فَقَالَ: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الناحية: ٢٠] وَنَحْنُ نُشَاهِدُ أَنَّ الْأَرْضَ مُكَوَّرَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ خَبَرُهُ خِلَافَ الْوَاقِعِ؟

فَجَوَابُهُ: أَنَّ الْآيَةَ لَا تُخَالِفُ الْوَاقِعَ، وَلَكِنْ فَهْمُهُ خَاطِئٌ إِمَّا لِقُصُورِهِ أَوْ تَقْصِيرِهِ، فَالْأَرْضُ مُكَوَّرَةٌ مُسَطَّحَةٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مُسْتَدِيرَةٌ، وَلَكِنْ لِكَبَرِ حَجْمِهَا لَا تَظْهَرُ اسْتِدَارَتُهَا إِلَّا فِي مَسَاحَةٍ وَاسِعَةٍ تَكُونُ بِهَا مُسَطَّحَةً، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْخَطَأُ فِي فَهْمِهِ؛ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ كَوْنَهَا قَدْ سُطِحَتْ تُخَالِفُ لَكَوْنَهَا كُرْوَةً.

فَإِذَا كُنَّا نُوْمِنُ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، فَلَا زِمَ ذَلِكَ أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

﴿قَوْلُهُ: «وَحَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ».

﴿الْهَدْيُ﴾: هُوَ الطَّرِيقُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا السَّالِكُ.

وَالطَّرِيقُ سَتَى، لَكِنْ خَيْرُهَا طَرِيقُ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ ذَلِكَ وَنُؤْمِنُ بِهِ، نَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَأَنَّ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ بِقَاصِرٍ، لَا فِي حُسْنِهِ وَتَمَامِهِ وَانْتِظَامِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَلَا فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ تَقَعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَامِلٌ تَامٌ، فَهُوَ خَيْرُ الْهَدْيِ، أَهْدَى مِنْ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزُّبُورِ وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ، وَجَمِيعِ الْهَدْيِ.

فَإِذَا كُنَّا نَعْتَقِدُ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ لَا نَبْغِي بِهِ بَدِيلًا.

وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ لَا نُعَارِضُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، كَانَتْ أَوْ
كَانَ، حَتَّى لَوْ جَاءَنَا قَوْلُ لَأَيِّ بَكْرٍ - وَهُوَ خَيْرُ الْأُمَّةِ - وَقَوْلُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخَذْنَا بِقَوْلِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَنَوْا هَذَا الْاِعْتِقَادَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

■ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

■ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «خَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ
هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

وَلِهَذَا نَحْدُ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْهَدْيِ وَخَالَفُوا فِيهِ إِمَّا مُقْصِرِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ ﷺ،
وَأَمَّا غَالِينَ فِيهَا، بَيْنَ مُتَشَدِّدِينَ وَبَيْنَ مُتَهَاوِنِينَ، بَيْنَ مُقَرِّطٍ وَمُقَرِّطٍ، وَهَدْيُ الرَّسُولِ ﷺ
يَكُونُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.



❖ قَوْلُهُ: «وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ».

❖ «يُؤْثِرُونَ» أَيُّ: يُقَدِّمُونَ.

❖ «كَلَامَ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ غَيْرِهِ»: مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ النَّاسِ فِي الْحَبْرِ وَالْحُكْمِ، فَأَخْبَارُ اللَّهِ
عِنْدَهُمْ مُقَدَّمَةٌ عَلَى خَبَرِ كُلِّ أَحَدٍ.

فَإِذَا جَاءَتْنا أَخْبَارٌ عَنْ أُمَّمٍ مَضَتْ، وَصَارَ الْقُرْآنُ يُكَذِّبُهَا، فَإِنَّا نُكَذِّبُهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: اشْتَهَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ إِدْرِيسَ قَبْلَ نُوحٍ، وَهَذَا كَذِبٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ
يُكَذِّبُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّتِّينِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]،
وإِدْرِيسُ مِنَ النَّبِيِّينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٥١) ...

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تحفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[مريم: ٥٦] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، فَلَا يَبْيِ قَبْلَ نُوحٍ إِلَّا آدَمُ فَقَطْ.

* قَوْلُهُ: «وَيُقَدِّمُونَ هَذِي مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَذِي كُلِّ أَحَدٍ».

* «يُقَدِّمُونَ هَذِي مُحَمَّدٍ ﷺ» أَي: طَرِيقَتَهُ وَسُنَّتَهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا.

* «عَلَى هَذِي كُلِّ أَحَدٍ»: فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

* قَوْلُهُ: «وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

* قَوْلُهُ: «وَلِهَذَا»: اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «وَلِهَذَا» لِلتَّعْلِيلِ، أَي: وَمِنْ أَجْلِ إِثَارِهِمْ كَلَامَ اللَّهِ وَتَقْدِيمِ هَذِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ «سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»: لِتَصْدِيقِهِمَا وَالتَّزَامِهِمَا وَإِثَارِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا. وَمَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَادَّعَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ كَاذِبٌ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَلْزَمَهُ وَيَلْتَزِمَ بِهِ.

* قَوْلُهُ: «وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الْاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ».

* قَوْلُهُ: «وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الْاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ» فَالْجَمَاعَةُ اسْمُ مَصْدَرٍ اجْتَمَعَ بِجَمْعٍ اجْتِمَاعًا وَجَمَاعَةً، فَالْجَمَاعَةُ هِيَ الْاجْتِمَاعُ، فَمَعْنَى أَهْلِ الْجَمَاعَةِ أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى السُّنَّةِ، مُتَأَلِّفُونَ فِيهَا، لَا يُضَلُّلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يُدَّعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ بِخِلَافِ أَهْلِ الْبِدْعِ.

* قَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِلنَّفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ»:

هَذَا فِي اسْتِعْمَالِ ثَانٍ؛ حَيْثُ صَارَ لَفْظُ (الْجَمَاعَةِ) عُرْفًا: اسْمًا لِلْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

وَعَلَى مَا قَرَّرَهُ الْمُؤَلَّفُ تَكُونُ (الْجَمَاعَةُ) فِي قَوْلِنَا: «أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»: مَعْطُوفَةٌ عَلَى (السُّنَّةِ) وَلِهَذَا عَبَّرَ الْمُؤَلَّفُ بِقَوْلِهِ: «سُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ» وَلَمْ يَقُلْ: سُمُّوا جَمَاعَةً، فَكَيْفَ يَكُونُونَ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ وَهُمْ جَمَاعَةٌ؟!

نَقُولُ: الْجَمَاعَةُ فِي الْأَصْلِ: الْاجْتِمَاعُ، فَأَهْلُ الْجَمَاعَةِ يَعْنِي: أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ، لَكِنْ نُقَلِّ اسْمُ الْجَمَاعَةِ إِلَى الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ نَقْلًا عَرَفِيًّا.



❖ قَوْلُهُ: «وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ».

يَعْنِي بِهِ الدَّلِيلُ الثَّلَاثُ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ أَصُولَ الْأَحْكَامِ؛ حَيْثُ تُبْنَى عَلَيْهَا. وَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الْكِتَابُ، وَالثَّانِي السُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ؛ وَلِهَذَا يُسَمَّوْنَ: أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَصُولٍ يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ، وَهِيَ: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ.

أَمَّا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَأَصْلَانِ ذَاتَيَانِ، وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَأَصْلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى غَيْرِهِ؛ إِذْ لَا إِجْمَاعَ إِلَّا بِكِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ.

أَمَّا كَوْنُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَصْلًا يُرْجَعُ إِلَيْهِ فَأَدِلَّتُهُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

❖ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

❖ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

❖ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

❖ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وَمَنْ أَتَكَرَّ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ أَصْلًا فِي الدَّلِيلِ فَقَدْ أَتَكَرَّ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ أَصْلًا.

وَلَا شَكَّ عِنْدَنَا فِي أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ السُّنَّةَ لَا يُرْجَعُ إِلَيْهَا فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّهُ كَافِرٌ

مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ مُكَذَّبٌ وَمُنْكَرٌ لِلْقُرْآنِ، فَالْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ جَعَلَ السُّنَّةَ أَصْلًا يُرْجَعُ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ أَصْلٌ، فَيُقَالُ:

أَوَّلًا: هَلِ الْإِجْمَاعُ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا إِجْمَاعَ مَوْجُودٌ، إِلَّا عَلَى مَا فِيهِ نَصٌّ، وَحِينَئِذٍ يُسْتَعْنَى بِالنَّصِّ عَنِ الْإِجْمَاعِ.

فَمَثَلًا: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْعُلَمَاءُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةَ خَمْسٌ، فَهَذَا صَحِيحٌ، لَكِنْ ثُبُوتُ فَرَضِيَّتِهَا بِالنَّصِّ.

وَمُجْمِعُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الزِّنَا، فَهَذَا صَحِيحٌ، لَكِنْ ثُبُوتُ تَحْرِيمِهِ بِالنَّصِّ.

وَمُجْمِعُونَ عَلَى تَحْرِيمِ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ، فَهَذَا صَحِيحٌ، لَكِنْ ثُبُوتُ تَحْرِيمِهِ بِالنَّصِّ.

وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: مَنْ ادَّعَى الْإِجْمَاعَ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَمَا يُذَرِّيه؟ لَعَلَّهُمْ اخْتَلَفُوا^(١).

وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مَوْجُودٌ، وَأَنَّ كَوْنَهُ دَلِيلًا ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ:

■ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فَإِنْ

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ﴾: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا أَجْمَعْنَا عَلَيْهِ لَا يَجِبُ رَدُّهُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ اخْتِفَاءً بِالْإِجْمَاعِ! وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ فِيهِ شَيْءٌ!!

■ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فَقَالَ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

■ وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِحَدِيثٍ: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ»^(١).

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «مسائله» عن أبيه (ص: ٤٣٨ - ٤٣٩)، وانظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٥٣ - ٥٤).

وهَذَا الْحَدِيثُ حَسَنُهُ بَعْضُهُمْ وَضَعَفَهُ آخَرُونَ، لَكِنْ قَدْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ السَّنَدِ، لَكِنْ يَشْهَدُ لِمَنْتِهِ مَا سَبَقَ مِنَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

فَجَمْعُهُمُ الْأُمَّةُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ، وَأَنَّا إِذَا وَجَدْنَا مَسْأَلَةً فِيهَا إِجْمَاعٌ أَثْبَتْنَاهَا بِهَذَا الْإِجْمَاعِ.

وَكَانَ الْمُؤَلَّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُرِيدُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِبْتِاثَ أَنَّ إِجْمَاعَ أَهْلِ السُّنَّةِ حُجَّةٌ.

* قَوْلُهُ: «وَهُمْ يَزْنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِلَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ».

* «الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ»: هِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ.

يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَزْنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، بَاطِلٍ أَوْ ظَاهِرٍ، لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ حَقٌّ إِلَّا إِذَا وَزَنُوهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، فَإِنْ وَجَدَ لَهُ دَلِيلٌ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَ عَلَى خِلَافِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ.

* قَوْلُهُ: «وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثْرُ الْاِخْتِلَافِ وَانْتَشَرَتِ الْأُمَّةُ».

يَعْنِي: أَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي يُمَكِّنُ صَبْطُهُ وَالْإِحَاطَةُ بِهِ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَهُمْ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ، الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، رَقْمُ (٣٩٥٠)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لَزُومِ الْجَمَاعَةِ، رَقْمُ (٢١٦٧)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١/١١٥)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَذَكَرَهُ السَّخَاوِيُّ فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ» رَقْمُ (١٢٨٨) وَقَالَ عَنْهُ: «وَالْجُمْلَةُ فَهُوَ حَدِيثُ مَشْهُورِ الْمُتَنِّ ذُو أَسَانِيدٍ كَثِيرَةٍ وَشَوَاهِدٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الْمَرْفُوعِ وَغَيْرِهِ».

وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (١٢٩/٥) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ: «أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادَيْنِ، رِجَالُ أَحَدِهِمَا ثِقَاتُ رِجَالِ الصَّحِيحِ، خِلاَ مَرْزُوقِ مَوْلَى آلِ طَلْحَةَ وَهُوَ ثِقَةٌ».

وَحَسَنَهُ الْأَبْيَانِيُّ فِي «ظِلَالِ الْجَنَّةِ» (١/٤١).

ثُمَّ عَلَّلَ الْمُؤَلِّفُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الْاِخْتِلَافُ وَانْتَشَرَتِ الْأُمَّةُ» يَغْنِي: أَنَّهُ كَثُرَ الْاِخْتِلَافُ ككَثْرَةِ الْأَهْوَاءِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ تَفَرَّقُوا طَوَائِفَ، وَلَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ يُرِيدُونَ الْحَقَّ، فَاخْتَلَفَ الْأَرَاءُ وَتَنَوَّعَتِ الْأَقْوَالُ.

* «وَانْتَشَرَتِ الْأُمَّةُ»: فَصَارَتْ الْإِحَاطَةُ بِهِمْ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ.

فَشَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَنْ ادَّعَى الْإِجْمَاعَ بَعْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ - وَهُمْ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ - فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ دَعْوَاهُ الْإِجْمَاعَ؛ لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي يَنْضَبُطُ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ إِجْمَاعٌ بَعْدَ الْخِلَافِ؟

فَنَقُولُ: لَا إِجْمَاعَ مَعَ وُجُودِ خِلَافٍ سَابِقٍ، وَلَا عِبْرَةَ بِخِلَافٍ بَعْدَ تَحَقُّقِ الْإِجْمَاعِ.



فَصْلٌ

فِي مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخِصَالِ

* قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

«ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

* «هُمْ» أَيُّ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

* «مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ»: السَّابِقَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا قَبْلَ هَذَا، وَهُوَ اتِّبَاعُ آثَارِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاتِّبَاعُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَإِثَارُهُمْ كَلَامَ اللَّهِ وَكَلَامَ رَسُولِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَاتِّبَاعُ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ:

* «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»:

وَالْمَعْرُوفُ: كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ، فَهُمْ يَأْمُرُونَ بِهِ.

وَالْمُنْكَرُ: كُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ، فَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ.

لَأَنَّ هَذَا هُوَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ

عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٣٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٤٧)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (٤٠٠٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث عن محمد بن مسلم بن أبي الرضاح، عن علي بن بزيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله، عن النبي ﷺ نحوه، وبعضهم يقول: عن أبي عبيدة، عن النبي ﷺ مرسل». وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٩) للطبراني من

فَهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ ذَلِكَ.

ولكن يُشْتَرَطُ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أَنْ يَكُونَا عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ وَتَقْتَضِيهِ، ولذلك شُرُوطٌ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِحُكْمِ الشَّرْعِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْ يَنْهَى عَنْهُ، فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا عَلِمَ أَنَّ الشَّرْعَ أَمَرُ بِهِ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا عَلِمَ أَنَّ الشَّرْعَ نَهَى عَنْهُ، وَلَا يَعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ عَلَى ذَوْقٍ وَلَا عَادَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

فَلَوْ رَأَى شَخْصًا يَفْعَلُ شَيْئًا الْأَضْلُ فِيهِ الْحِلُّ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْهَاهُ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَلَوْ رَأَى شَخْصًا تَرَكَ شَيْئًا يَظُنُّهُ الرَّائِي عِبَادَةً، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالتَّعَبُّدِ بِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ أَمَرُ بِهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَعْلَمَ بِحَالِ الْمَأْمُورِ، هَلْ هُوَ مِمَّنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ أَوْ النَّهْيُ أَمْ لَا؟ فَلَوْ رَأَى شَخْصًا يَشْكُ هَلْ هُوَ مُكَلَّفٌ أَمْ لَا، لَمْ يَأْمُرْهُ بِمَا لَا يُؤْمَرُ بِهِ مِثْلُهُ حَتَّى يَسْتَفْصِلَ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِحَالِ الْمَأْمُورِ حَالِ تَكْلِيفِهِ، هَلْ قَامَ بِالْفِعْلِ أَمْ لَا؟ فَلَوْ رَأَى شَخْصًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ ثُمَّ جَلَسَ، وَشَكَّ هَلْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَأْمُرُهُ بِهِمَا، حَتَّى يَسْتَفْصِلَ.

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقال: ورجاله رجال الصحيح. وانظر: «الدر المشور» (٣/ ١٢٤) في تفسير قوله تعالى: ﴿لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

ودليل ذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَجَلَسَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصَلَّيْتَ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «قُمْ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»^(١).

ولقد نُقِلَ لِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: يَحْرُمُ أَنْ يُسَجَّلَ الْقُرْآنَ بِأَشْرَطِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِهَانَةٌ لِلْقُرْآنِ عَلَى رَعْمِهِ!! فَيَنْهَى النَّاسَ أَنْ يُسَجَّلُوا الْقُرْآنَ عَلَى هَذِهِ الْأَشْرَطَةِ؛ لِظَنِّهِ أَنَّهُ مُنْكَرٌ!! فنقول له: إِنَّ الْمُنْكَرَ أَنْ تَنْهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ مُنْكَرٌ!! فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذَا مُنْكَرٌ فِي دِينِ اللَّهِ، وَهَذَا فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ.

أَمَّا الْعِبَادَاتُ: فَإِنَّا لَوِ رَأَيْنَا رَجُلًا يَتَعَبَّدُ بِعِبَادَةٍ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِنَّا نَنْهَاهُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعِبَادَاتِ الْمَنْعُ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِلَا ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ، فَإِنْ لَحِقَهُ ضَرَرٌ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ، لَكِنْ إِنْ صَبَرَ وَقَامَ بِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ مَشْرُوطَةٌ بِالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإِذَا خَافَ إِذَا أَمَرَ شَخْصًا بِمَعْرُوفٍ أَنْ يَقْتُلَهُ فَإِنَّهُ لَا يَلْزِمُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ يَحْرُمُ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالصَّبْرُ، وَإِنْ تَضَرَّرَ بِذَلِكَ، مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْقَتْلِ. لَكِنْ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِذَا لَحِقَهُ الضَّرَرُ بِحَسْبِ وَنَحْوِهِ فَإِنَّ غَيْرَهُ قَدْ يَتْرُكُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ خَوْفًا يَمَّا حَصَلَ، حَتَّى فِي حَالٍ لَا يُخْشَى مِنْهَا ذَلِكَ الضَّرَرُ.

وَهَذَا مَا لَمْ يَصِلِ الْأَمْرُ إِلَى حَدٍّ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ، كَمَا لَوْ أَمَرَ بِسُنَّةٍ وَنَهَى عَنْ بِدْعَةٍ، وَلَوْ سَكَتَ لاسْتِطَالَ أَهْلُ الْبِدْعَةِ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ يَجِبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، رقم (٩٣١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥/٥٩) واللفظ له، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِظْهَارُ السُّنَّةِ وَبَيَانُ الْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يُعَذَّرُ مَنْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ بِالخَوْفِ عَلَى نَفْسِهِ.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ لَا يَتَرَتَّبَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْ الشُّكُوتِ، فَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَيْهَا ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ، بَلْ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ.

ولهذا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ إنْكَارَ الْمُنْكَرِ يَنْتُجُ مِنْهُ إِحْدَى أَحوَالِ أَرْبَعَةٍ: إمَّا أَنْ يَزُولَ الْمُنْكَرُ، أَوْ يَتَحَوَّلَ إِلَى أَخَفِّ مِنْهُ، أَوْ إِلَى مِثْلِهِ، أَوْ إِلَى أَعْظَمَ مِنْهُ.

■ أَمَّا الْحَالَةُ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ: فَلَا إنْكَارَ وَاجِبٌ.

■ وَأَمَّا فِي الثَّالِثَةِ: فَهِيَ فِي مَحَلِّ نَظَرٍ.

■ وَأَمَّا فِي الرَّابِعَةِ: فَلَا يَجُوزُ الْإِنْكَارُ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ إِرَازِلُهُ أَوْ تَخْفِيفُهُ.

مثال ذلك: إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْمُرَ شَخْصًا بِفِعْلِ إِحْسَانٍ، لَكِنْ يَسْتَلْزِمُ فِعْلَ هَذَا الْإِحْسَانِ أَلَّا يُصَلِّيَ مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَهنا لَا يَجُوزُ الْأَمْرُ بِهَذَا الْمَعْرُوفِ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ وَاجِبٍ مِنْ أَجْلِ فِعْلِ مُسْتَحَبٍّ.

وكذلك فِي الْمُنْكَرِ لَوْ كَانَ إِذَا تَمَّ عَنْ هَذَا الْمُنْكَرِ تَحَوَّلَ الْفَاعِلُ لَهُ إِلَى فِعْلِ مُنْكَرٍ أَعْظَمَ، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْهَى عَنْ هَذَا الْمُنْكَرِ؛ دَفْعًا لِأَعْلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ بِأَدْنَاهُمَا.

ويَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فَإِنَّ سَبَّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَمْرٌ مَحْظُورٌ أَعْظَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي تَكُونُ بِسَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ سَبُّهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ - تَمَّ اللَّهُ عَنْ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْحَالِ.

ولو وَجَدْنَا رَجُلًا يَشْرِبُ الْخَمْرَ - وَشُرْبُ الْخَمْرِ مُنْكَرٌ - فَلَوْ نَهَيْنَاهُ عَنْ شُرْبِهِ لَذَهَبَ يَسْرِقُ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَسْتَحِلُّ أَعْرَاضَهُمْ، فَهنا لَا نَنْهَاهُ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ؛ لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ.

الشَّرْطُ السَّادِسُ: أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ أَوْ النَّاهِي قَائِمًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ مُتَّهِيًا عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ، وَهَذَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنْ كَانَ غَيْرَ قَائِمٍ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فَإِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ لَا يُصَلِّي فَلَا يَأْمُرُ غَيْرُهُ بِالصَّلَاةِ، وَإِنْ كَانَ يَشْرَبُ الْحَمْرَ فَلَا يَنْهَى غَيْرُهُ عَنْهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ^(١):

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
فَهُمْ اسْتَدَلُّوا بِالْآثَرِ وَالنَّظَرِ.

ولكن الْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَقَالُوا: يَحِبُّ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَأْتِيهِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِنْ كَانَ يَأْتِيهِ، وَإِنَّا وَبَّحَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ، وَلَكِنْ عَلَى جَمْعِهِمْ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالْبِرِّ وَنَسْيَانِ النَّفْسِ.

وهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ، فنقول: أَنْتَ الْآنَ مَأْمُورٌ بِأَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: فِعْلُ الْبِرِّ، وَالثَّانِي: الْأَمْرُ بِالْبِرِّ. مِنْهَيٌّ عَنْ أَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: فِعْلُ الْمُنْكَرِ، وَالثَّانِي: تَرْكُ النَّهْيِ عَنْ فِعْلِهِ. فَلَا تَجْمَعُ بَيْنَ تَرْكِ الْمَأْمُورِينَ وَفِعْلِ الْمَنْهِيِّينَ؛ فَإِنَّ تَرْكَ أَحَدِهِمَا لَا يَسْتَلْزِمُ سُقُوطَ الْآخَرِ.

فهذه سِتَّةُ شُرُوطٍ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ لِلْجَوَازِ، وَهُنَّ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثُ وَالْخَامِسُ، عَلَى تَفْصِيلٍ فِيهِ، وَاثْنَانِ لِلْوُجُوبِ، وَهُمَا الرَّابِعُ وَالسَّادِسُ عَلَى خِلَافٍ فِيهِنَّ.

وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ لَا يَكُونَ مِنَ أَصُولِ الْأَمْرِ أَوْ النَّاهِي، كَأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ أَوْ جَدِّهِ أَوْ جَدَّتِيهِ، بَلْ رَبِّمَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا يَتَأَكَّدُ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ أَنْ يَنْهَاهُمَا عَنْ فِعْلِ الْمَعَاصِي وَيَأْمُرُهُمَا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ.

قَدْ يَقُولُ: أَنَا إِذَا نَهَيْتُ أَبِي غَضِبَ عَلَيَّ، وَرَعَلَ، وَهَجَرَنِي، فَمَاذَا أَصْنَعُ؟

نقول: اصْبِرْ عَلَى هَذَا الَّذِي يَنَالُكَ بِغَضَبِ أَبِيكَ وَهَجَرِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَاتَّبِعْ مِلَّةَ

(١) البيت نسبته ابن هشام في شرح شذور الذهب (ص: ٣١٠) لأبي أسود الدؤلي. وانظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٣٤)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ٦٧٤)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ١٥٩).

أَيْبِكَ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حَيْثُ عَاتَبَ أَبَاهُ عَلَى الشَّرِكِ فَقَالَ: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ⑪ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ⑫ قَالَ ﴿أَيُّ أَبَوُهُ: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرْهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَه لَأَرْحَمَنَّ وَأَهْجُرَنَّ مَلِيًّا﴾ [مریم: ٤٢-٤٦]، وَقَالَ إِبرَاهِيمُ أَيْضًا لِأَبِيهِ أَرَزَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤].



* قَوْلُهُ: «وَيَرْوُونَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمُعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأَمْرَاءِ، أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا».

الأبرار: جَمْعُ بَرٍّ، وَهُوَ كَثِيرُ الطَّاعَةِ.

والفجَّار: جَمْعُ فَاجِرٍ وَهُوَ الْعَاصِي كَثِيرُ الْمَعْصِيَةِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يُخَالِفُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ تَمَامًا، فَيَرْوُونَ إِقَامَةَ الْحَجِّ مَعَ الْأَمِيرِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَفْسَقِ عِبَادِ اللَّهِ.

وَكَانَ النَّاسُ فِيمَا سَبَقَ يَجْعَلُونَ عَلَى الْحَجِّ أَمِيرًا، كَمَا جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ فِي الْعَامِ التَّاسِعِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَمَا زَالَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ، يَجْعَلُونَ لِلْحَجِّ أَمِيرًا قَائِدًا يَدْفَعُونَ بَدْفِعِهِ، وَيَقْفُونَ بِوُقُوفِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَخْتَّاجُونَ إِلَى إِمَامٍ يَقْتَدُونَ بِهِ. أَمَّا كَوْنُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى رَأْسِهِ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ قَوْصَى وَاخْتِلَافٌ.

فَهُمْ يَرْوُونَ إِقَامَةَ الْحَجِّ مَعَ الْأَمْرَاءِ وَإِنْ كَانُوا فُسَاقًا، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي الْحَجِّ، لَا يَقُولُونَ: هَذَا إِمَامٌ فَاجِرٌ، لَا نَقْبَلُ إِمَامَتَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَرْوُونَ أَنَّ طَاعَةَ وَلِيِّ الْأَمْرِ وَاجِبَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا، بِشَرَطِ أَنْ لَا يُخْرِجَهُ فِسْقُهُ إِلَى الْكُفْرِ الْبَوَاحِ الَّذِي عِنْدَنَا فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ، فَهَذَا لَا طَاعَةَ لَهُ، وَيَجِبُ أَنْ يُزَالَ عَنْ تَوَلِّي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنِ الْفُجُورُ الَّذِي دُونَ الْفِسْقِ مَهْمَا بَلَغَ فَإِنَّ الْوِلَايَةَ لَا تَزُولُ بِهِ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ، وَالطَّاعَةُ لَوَلِيِّ الْأَمْرِ وَاجِبَةٌ فِي غَيْرِ الْمَعْصِيَةِ،

خلافًا للخوارج، الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِلإِمَامِ وَالْأَمِيرِ إِذَا كَانَ عَاصِيًّا؛ لِأَنَّ مِنْ قَاعِدَتِهِمْ: أَنَّ الْكَبِيرَةَ تُخْرَجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

وخلافًا للرافضة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا إِمَامَ إِلَّا الْمَعْصُومُ، وَإِنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مُنْذُ غَابَ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ لَيْسَتْ عَلَى إِمَامٍ، وَلَا تَبَعًا لِإِمَامٍ، بَلْ هِيَ تَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى الْيَوْمِ. وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا إِمَامَ إِلَّا الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ، وَلَا حَجَّ وَلَا جِهَادَ مَعَ أَيِّ أَمِيرٍ كَانَ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ لَمْ يَأْتْ بَعْدُ.

لكن أهل السنة والجماعة يَقُولُونَ: نَحْنُ نَرَى إِقَامَةَ الْحَجِّ مَعَ الْأُمَرَاءِ، سَوَاءً كَانُوا أَبْرَارًا أَوْ فُجَارًا، وَكَذَلِكَ إِقَامَةُ الْجِهَادِ مَعَ الْأَمِيرِ، وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا، وَيُقِيمُونَ الْجِهَادَ مَعَ أَمِيرٍ لَا يُصَلِّي مَعَهُمُ الْجَمَاعَةَ، بَلْ يُصَلِّي فِي رَحْلِهِ.

فأهل السنة والجماعة لَدَيْهِمْ بَعْدُ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْمَخَالَفَاتِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُخْرِجُ إِلَى فِتْنٍ عَظِيمَةٍ.

فَمَا الَّذِي فَتَحَ بَابَ الْفِتَنِ وَالْقِتَالِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْاِخْتِلَافِ فِي الْأَرَاءِ إِلَّا الْخُرُوجُ عَلَى الْأُمَّةِ؟!

فَبَرَى أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَجُوبَ إِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ كَانُوا فُجَارًا. وَلَكِنْ هَذَا لَا يَغْنِي أَنْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَرَوْنَ أَنَّ فِعْلَ الْأَمِيرِ مُنْكَرٌ، بَلْ يَرَوْنَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ، وَأَنَّ فِعْلَ الْأَمِيرِ لِلْمُنْكَرِ قَدْ يَكُونُ أَشَدَّ مِنْ فِعْلِ عَامَّةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ فِعْلَ الْأَمِيرِ لِلْمُنْكَرِ يَلْزَمُ مِنْهُ -زِيَادَةً عَلَى إِثْمِهِ- مَحْذُورَانِ عَظِيمَانِ:

الْأَوَّلُ: اقْتِدَاءُ النَّاسِ بِهِ وَتَهَاوُنُهُمْ بِهَذَا الْمُنْكَرِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْأَمِيرَ إِذَا فَعَلَ الْمُنْكَرَ سَيَقِلُّ فِي نَفْسِهِ تَغْيِيرُهُ عَلَى الرَّعِيَّةِ، أَوْ تَغْيِيرُ مِثْلِهِ أَوْ مُقَارِبِهِ.

لَكِنْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقُولُونَ: حَتَّى مَعَ هَذَا الْأَمْرِ الْمُسْتَلْزَمِ لِهَذَيْنِ الْمَحْذُورَيْنِ أَوْ لَغَيْرِهِمَا -فَإِنَّهُ يُحِبُّ عَلَيْنَا طَاعَةَ وَوَلَاةَ الْأُمُورِ وَإِنْ كَانُوا عُصَاةً، فَتُقِيمُ مَعَهُمُ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ،

وكذلك الجمعة، تُقِيمُهَا مَعَ الْأُمَرَاءِ، وَلَوْ كَانُوا فُجَارًا.

فَالْأَمِيرُ إِذَا كَانَ يَشْرِبُ الْخَمْرَ مِثْلًا، وَيَظْلِمُ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ، نُصَلِّيَ خَلْفَهُ الْجُمُعَةَ، وَتَصِحُّ الصَّلَاةُ، حَتَّى إِنْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَرَوْنَ صِحَّةَ الْجُمُعَةِ خَلْفَ الْأَمِيرِ الْمُتَبَدِّعِ إِذَا لَمْ يَصِلْ بِدَعْوَتِهِ إِلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْاِخْتِلَافَ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ شَرٌّ، وَلَكِنْ لَا يَلِيقُ بِالْأَمِيرِ الَّذِي لَهُ إِمَامَةُ الْجُمُعَةِ أَنْ يَفْعَلَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ.

وكَذَلِكَ أَيْضًا إِقَامَةُ الْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بِهِمْ، أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَارًا. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ الْهَادِيَّةُ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ وَسَطٌ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ. فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَيْفَ نُصَلِّيَ خَلْفَ هَؤُلَاءِ وَنُتَابِعُهُمْ فِي الْحُجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجَمْعِ وَالْأَعْيَادِ؟!

فَنَقُولُ: لِأَنَّهُمْ أَتَمَّتْنَا، نَدِينُ لَهُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وَلِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكَرُونَهَا». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: «أَدُوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُّوا اللَّهَ حَقَّكُمْ»^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَحَقُّهُمْ: طَاعَتُهُمْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

فَعَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتِ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا؛ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمُسْتَطَرِّ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورا تنكرونها»، رقم (٧٠٥٢)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٦).

عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ^(١).

وَلَا نَأْتِي لَوْ تَخَلَّفْنَا عَنْ مُتَابَعَتِهِمْ لَشَقَقْنَا عَصَا الطَّاعَةِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَى شَقِّهِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ، وَمَصَائِبٌ جَسِيمَةٌ.

وَالْأُمُورُ الَّتِي فِيهَا تَأْوِيلٌ وَاخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِذَا ارْتَكَبَهَا وَلَا هُؤُلاَءِ الْأُمُورِ لَا يَحِلُّ لَنَا مُنَابَذَتُهُمْ وَمُخَالَفَتُهُمْ، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا مُنَاصَحَتُهُمْ بِقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ، مِمَّا لَا يَسُوعُ فِيهِ الاجْتِهَادُ. وَأَمَّا مَا يَسُوعُ فِيهِ الاجْتِهَادُ فَنَبِّحُ مَعَهُمْ فِيهِ بِحَثِّ تَقْدِيرٍ وَاحْتِرَامٍ؛ لِئِنَّ لَهُمُ الْحَقَّ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِقَادِ لَهُمْ وَالْإِنْتِصَارِ لِلنَفْسِ. وَأَمَّا مُنَابَذَتُهُمْ وَعَدَمُ طَاعَتِهِمْ فَلَيْسَ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.



* قَوْلُهُ: «وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ».

أَيُّ: يُحَافِظُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ، أَيُّ: عَلَى إِقَامَةِ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَوَاتِ الْحَمْسِ، يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا مُحَافَظَةً تَامَةً، بَحِثُ إِذَا سَمِعُوا النِّدَاءَ أَجَابُوا وَصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْحَمْسِ فَقَدْ فَاتَهُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ.

وَرَبَّمَا يَدْخُلُ فِي الْجَمَاعَاتِ الْاجْتِمَاعُ عَلَى الرَّأْيِ وَعَدَمُ النَّزَاعِ فِيهِ، فَإِنَّ هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبَا مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تُخْتَلِفَا»^(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»، رقم (٧٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، رقم (٣٠٣٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قَوْلُهُ: «وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ».

* «يَدِينُونَ» أَي: يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ دِينًا.

وَالنَّصْحُ لِلْأُمَّةِ قَدْ يَكُونُ الْحَامِلُ عَلَيْهِ غَيْرَ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ، فَقَدْ يَكُونُ الْحَامِلُ عَلَيْهِ الْغَيْرَةُ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَامِلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَامِلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يُرِيدُ بِهَا نَفْعَ الْمُسْلِمِينَ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ.

لَكِنْ هَؤُلَاءِ يَنْصَحُونَ لِلْأُمَّةِ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدْبِئًا لَهُ؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثِ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ، الَّذِينَ النَّصِيحَةُ». قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(١).

■ فَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ: صِدْقُ الطَّلَبِ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

■ وَالنَّصِيحَةُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: صِدْقُ الْإِتِّبَاعِ لَهُ، وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ الذُّودَ عَنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «وَلِكِتَابِهِ».

■ فَيَنْصَحُ لِلْقُرْآنِ بَيَانُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُتَرْتِّلٌ غَيْرُ مَحْلُوقٍ، وَأَنَّهُ يَحِبُّ تَصْدِيقَ خَبَرِهِ وَامْتِثَالَ أَحْكَامِهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ يَعْتَقِدُهُ فِي نَفْسِهِ.

■ «وَأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ»: كُلُّ مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ إِمَامٌ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ، فَهُنَاكَ إِمَامٌ عَامٌّ كَرَيْسِ الدَّوْلَةِ، وَهُنَاكَ إِمَامٌ خَاصٌّ، كَالْأَمِيرِ وَالْوَزِيرِ وَالْمُدِيرِ وَالرَّئِيسِ وَأُتَمَّةِ الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهِمْ.

■ «وَعَامَّتِهِمْ» يَعْنِي: عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ التَّابِعُونَ لِلْأُتَمَّةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أُتَمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْعُلَمَاءُ، وَالنَّصِيحَةُ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ هِيَ نَشْرُ مُحَاسِنِهِمْ، وَالْكَفُّ عَنْ مَسَاوِيهِمْ، وَالْحَرَصُ عَلَى إِصَابَتِهِمْ الصَّوَابَ، بَحِيثُ يُرْشِدُهُمْ إِذَا أَخْطَوْا، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْخَطَأَ عَلَى وَجْهِ لَا يَخْذِشُ كَرَامَتَهُمْ، وَلَا يَحْطُ مِنْ قَدْرِهِمْ؛ لِأَنَّ تَحْطِئَةَ الْعُلَمَاءِ عَلَى وَجْهِ

يَحْطُّ مِنْ قَدَرِهِمْ ضَرَرٌ عَلَى عُمُومِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْعَامَّةَ إِذَا رَأَوْا الْعُلَمَاءَ يُضَلِّلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَقَالُوا: كُلُّ هَؤُلَاءِ رَادٌّ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ، فَلَا نَذَرِي مِنَ الصَّوَابِ مَعَهُ! فَلَا يَأْخُذُونَ بِقَوْلِ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

لَكِنْ إِذَا احْتَرَمَ الْعُلَمَاءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ يُرْشِدُ أَخَاهُ سِرًّا إِذَا أَخْطَأَ، وَيُعْلِنُ لِلنَّاسِ الْقَوْلَ الصَّحِيحَ - فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ النَّصِيحَةِ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «لِلْأُمَّةِ»: يَشْمَلُ الْأُمَّةَ وَالْعَامَّةَ، فَاهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ، أَيْمَتِهِمْ وَعَامَتِهِمْ.

وَكَانَ مِمَّا يَبَايِعُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ: «وَالنَّصِيحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا هُوَ مِزَانُ النَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ؟

فَالْمِزَانُ هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢)، فَإِذَا عَامَلْتَ النَّاسَ هَذِهِ الْمَعَامَلَةَ فَهَذَا هُوَ تَمَامُ النَّصِيحَةِ.

فَقَبَّلْ أَنْ تُعَامِلَ صَاحِبَكَ بِنَوْعِ مِنَ الْمَعَامَلَةِ فَكَّرْ: هَلْ تَرْضَى أَنْ يُعَامَلَكَ شَخْصٌ بِهَا؟ فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى فَلَا تُعَامِلْهُ!!



* قَوْلُهُ: «وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة..»، رقم (٥٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٦)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم (٦٠٢٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، رقم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَبَّ النَّبِيِّ ﷺ الْمُؤْمِنَ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِالْبُيَّانِ الَّذِي يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، حَتَّى يَكُونَ بِنَاءٌ مُحْكَمًا مُتَبَاسِكًا يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَقْوَى بِهِ، ثُمَّ قَرَّبَ هَذَا وَأَكْدَهُ، فَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

فَالْأَصَابِعُ الْمُتَفَرِّقَةُ فِيهَا ضَعْفٌ، فَإِذَا اشْتَبَكَتْ قَوَى بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُيَّانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَالْبُيَّانُ يُمَسِّكُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مَعَ أَخِيهِ إِذَا صَارَ فِي أَخِيهِ نَقْصٌ فَإِنَّ هَذَا يُكْمِلُهُ، فَهُوَ مِرْأَةُ أَخِيهِ، إِذَا وَجَدَ فِيهِ النِّقْصَ كَمَّلَهُ، إِذَا احْتَاجَ أَخُوهُ سَاعَدَهُ، إِذَا مَرَضَ أَخُوهُ عَادَهُ... وَهَكَذَا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ هَذَا الْمَعْنَى وَيُطَبِّقُونَهُ عَمَلًا.



* قَوْلُهُ: «وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ»^(١)».

الشرح:

* «قَوْلُهُ» هُنَا مَعْطُوفٌ عَلَى «قَوْلُهُ» فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ.

* «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ» أَي: مَوَدَّةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

* «وَتَرَاحُمِهِمْ»: رَحْمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

* «وَتَعَاطُفِهِمْ»: عَطْفٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

* «كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ» أَي: أَنَّهُمْ يَسْتَرْكُونَ فِي الْأَمَالِ وَالْأَلَامِ، فَيَرْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِذَا احْتَاجَ أزال حاجته، وَيُعْطِفُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِاللِّينِ وَالرَّفْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَيَوَدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِذَا رَأَى فِي قَلْبِهِ بَغْضَاءً لِأَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ حَاوَلَ أَنْ يُزِيلَهُ وَأَنْ يَذْكُرَ مِنْ مُحَاسِنِهِ مَا يُوجِبُ زَوَالَ هَذِهِ الْبَغْضَاءِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاذدهم، رقم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجسدُ الواحدُ إذا اشتكى منه عضوٌ ولو من أصغرِ الأَعْضاءِ تداعى له سائرُ الجسدِ، فإذا أوجعَكَ أَصْبُعُكَ الْخِنْصَرُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَصْغَرِ الأَعْضاءِ فَإِنَّ الْجِسْدَ كُلَّهُ يَتَأَلَّمُ... إذا أَوْجَعْتَكَ الأُذُنُ تَأَلَّمَ الْجِسْدُ كُلُّهُ... وإذا أَوْجَعْتَكَ الْعَيْنُ تَأَلَّمَ الْجِسْدُ كُلُّهُ... وَغَيْرُ ذَلِكَ.

فهذا المثلُ الَّذِي صَرَبَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَثَلُ مُصَوِّرٍ لِلْمَعْنَى، ومُقَرَّبٌ لَهُ غَايَةُ التَّقْرِيبِ.



﴿قَوْلُهُ: «وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّحَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ».﴾

﴿يَأْمُرُونَ﴾: قَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَشْمَلُ أَمْرَ نَفْسِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمَرْتُ نَفْسِي أَنْ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالشَّوْءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فَهُمْ يَأْمُرُونَ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ.

﴿بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ﴾: الصَّبْرُ: هُوَ تَحْمُلُ الْبَلَاءِ، وَحَبْسُ النَّفْسِ عَنِ التَّسَخُّطِ بِالْقَلْبِ أَوِ اللِّسَانِ أَوِ الْجَوَارِحِ.

وَالْبَلَاءُ: الْمُصِيبَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرُّتِ وَبَشِيرٍ أَصْدِرِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿[البقرة: ١٥٥-١٥٦].﴾

فَالصَّبْرُ يَكُونُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَأَفْضَلُهُ وَأَعْلَاهُ الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى، وَهَذَا عُنْوَانُ الصَّبْرِ الْحَقِيقِيِّ، كَمَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا وَهِيَ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ لَهَا: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي»، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي. وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ! فَاتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى»^(١)، أَمَّا بَعْدُ أَنْ تَبَرَّدَ الصَّدَمَةُ فَإِنَّ الصَّبْرَ يَكُونُ سَهْلًا، وَلَا يُنَالُ بِهِ كَمَا الصَّبْرُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٨٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر عند الصدمة الأولى، رقم (٩٢٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا يُتَكَلَّى إِمَّا فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا فِي أَهْلِهِ، وَإِمَّا فِي مَالِهِ، وَإِمَّا فِي صَحْبِهِ، وَإِمَّا فِي بَلَدِهِ، وَإِمَّا فِي الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً. وَيَكُونُ ذَلِكَ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الدِّينِ، وَالْمُصِيبَةُ فِي الدِّينِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُصِيبَةِ فِي الدُّنْيَا.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ فِي الْأَمْرَيْنِ:

■ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ الدُّنْيَا: فَأَنْ يَتَحَمَّلَ الْمُصِيبَةَ كَمَا سَبَقَ.

■ وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ الدِّينِ: فَأَنْ يُثَبَّتَ عَلَى دِينِهِ، وَلَا يَتَزَعَّزَعَ عَنْهُ، وَلَا يَكُنْ كَمَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

* «وَيَأْمُرُونَ» أَي: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

* بـ «الشُّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ»: الرَّخَاءُ: سَعَةٌ فِي الْعَيْشِ، وَالْأَمْنُ فِي الْوَطَنِ، فَيَأْمُرُونَ عِنْدَ ذَلِكَ بِالشُّكْرِ.

وَأَيُّهَا أَشَقُّ: الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ، أَوْ الشُّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ؟

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْبَلَاءِ أَشَقُّ. وَقَالَ آخَرُونَ: الشُّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ أَشَقُّ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَقْتَهُ وَمَشَقَّتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾^١ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿[هود: ٩-١٠].

لَكِنْ كُلُّ مِنْهُمَا قَدْ يُمُونُهُ بَعْضُ التَّفَكِيرِ: فَاَلْمُصَابُ إِذَا فَكَّرَ وَقَالَ: إِنَّ جَزْعِي لَا يَرُدُّ الْمُصِيبَةَ وَلَا يَرْفَعُهَا، فِيمَا أَنْ أَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ، وَإِمَّا أَنْ أَسْلُوَ سَلَوَ الْبَهَائِمِ، فَهَانَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ، وَكَذَلِكَ الَّذِي فِي رَخَاءٍ وَرَغَدٍ.

لَكِنْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِهَذَا وَهَذَا، بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ.

* «وَيَأْمُرُونَ» أي: أهل السُّنَّة والجماعة.

* «بِالرَّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ»: الرِّضَا أَعْلَى مِنَ الصَّبْرِ، وَمُرُّ الْقَضَاءِ: هُوَ مَا لَا يُلَايِمُ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ؛ وَلِهَذَا عَبَّرَ عَنْهُ بِ«الْمُرِّ».

فَإِذَا قَضَى اللَّهُ قَضَاءً لَا يُلَايِمُ طَبِيعَةَ الْبَشَرِ، وَتَأَدَّى بِهِ، سُمِّيَ ذَلِكَ مُرَّ الْقَضَاءِ، فَهُوَ لَيْسَ لَدِيدًا وَلَا حُلُوءًا، بَلْ هُوَ مُرٌّ، فَهُمْ يَأْمُرُونَ بِالرَّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَعَلِمَ أَنَّ مُرَّ الْقَضَاءِ لَنَا فِيهِ نَظَرَانِ:

النَّظَرُ الْأَوَّلُ: بِاعْتِبَارِهِ فِعْلًا وَاقِعًا مِنَ اللَّهِ.

وَالنَّظَرُ الثَّانِي: بِاعْتِبَارِهِ مَفْعُولًا لَهُ.

فَباعْتِبَارِ كَوْنِهِ فِعْلًا مِنَ اللَّهِ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ تَرْضَى بِهِ، وَأَلَّا نَعْتَرِضَ عَلَى رَبَّنَا بِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا.

وَأَمَّا بِاعْتِبَارِهِ مَفْعُولًا لَهُ: فَهَذَا يُسَنُّ الرِّضَا بِهِ، وَيَحِبُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ.

فَالْمَرْصُ بِاعْتِبَارِ كَوْنِ اللَّهِ قَدَرَهُ: الرِّضَا بِهِ وَاجِبٌ. وَبِاعْتِبَارِ الْمَرَضِ نَفْسِهِ: يُسَنُّ الرِّضَا بِهِ. وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَيْهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَالشُّكْرُ عَلَيْهِ مُسْتَحَبٌّ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: الْمَصَابُونَ لَهُمْ ثُجَاهُ الْمَصَائِبِ أَرْبَعَةُ مَقَامَاتٍ: الْمَقَامُ الْأَوَّلُ: السَّخَطُ. وَالثَّانِي: الصَّبْرُ. وَالثَّالِثُ: الرِّضَا. وَالرَّابِعُ: الشُّكْرُ.

فَأَمَّا السَّخَطُ فَحَرَامٌ، بَلْ هُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، مِثْلُ أَنْ يُلْطَمَ خَدَّهُ، أَوْ يَنْتَفَ شَعْرَهُ، أَوْ يُشَقَّ نَوْبُهُ، أَوْ يَقُولَ: وَابْشُورَاهُ! أَوْ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْهَلَاكِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى السَّخَطِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، وَلَطَمَ الْخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

الثَّانِي: الصَّبْرُ: بِأَنْ يَحْسِبَ نَفْسُهُ - قَلْبًا وَلِسَانًا وَجَوَارِحَ - عَنِ التَّسَخُّطِ، فَهَذَا وَاجِبٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: الرضا: والفرق بينه وبين الصبر: أَنَّ الصَّابِرَ يَتَجَرَّعُ الْمُرَّ، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْخَطَ، إِلَّا أَنْ هَذَا الشَّيْءَ فِي نَفْسِهِ صَعْبٌ وَمُرٌّ، وَيَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ^(١):

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ

لَكِنْ الرَّاضِي لَا يَذُوقُ هَذَا مُرًّا، بَلْ هُوَ مُطْمَئِنٌّ، وَكَأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي أَصَابَهُ لَا شَيْءَ. وَجُهِوْرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرِّضَا بِالْمَقْضِيِّ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ اخْتِيَارُ سَبِيحِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

الرابع: الشكر: وَهُوَ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ وَحَالِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَيَرَى أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ نِعْمَةً.

لَكِنْ هَذَا الْمَقَامُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَيْفَ يَكُونُ؟!

فنقول: يَكُونُ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَأَوَّلًا: لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ كَفَّارَةٌ لِلذَّنْبِ، وَأَنَّ الْعُقُوبَةَ عَلَى الذَّنْبِ فِي الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ - صَارَتْ هَذِهِ الْمُصِيبَةُ عِنْدَهُ نِعْمَةً يَشْكُرُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

وثانيًا: أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ إِذَا صَبَرَ عَلَيْهَا أُثِيبَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فَيَشْكُرُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْأَجْرِ.

وثالثًا: أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ أَرْبَابِ السُّلُوكِ، لَا يُنَالُ إِلَّا بِوُجُودِ أَسْبَابِهِ، فَيَشْكُرُ اللَّهُ عَلَى تَبَلِّ هَذَا الْمَقَامِ.

وَيَذْكُرُ أَنَّ بَعْضَ الْعَابِدَاتِ أُصِيبَتْ فِي أَضْبُعِهَا فَشَكَرَتْ اللَّهَ، فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: إِنَّ حَلَاوَةَ أَجْرِهَا أَتَسَنَّنِي مَرَارَةً صَبْرَهَا.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ رَجَعُوا إِلَى الْيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرِّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

(١) البيت لأبي نصر محمود بن حسين المعروف بكشاجم، بلفظ: (في كل نائبة) بدلًا من: (مر مذاقة). انظر: ديوان كشاجم (ص: ٤٦٠).

تَتِمَّةٌ:

الْقَضَاءُ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ:

أحدهما: حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ قَضَاؤُهُ وَوُضِفُهُ، فَهَذَا يَجِبُ الرِّضَا بِهِ بِكُلِّ حَالٍ، سِوَا مَا كَانَ قَضَاءً دِينِيًّا أَمْ قَضَاءً كَوْنِيًّا؛ لِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ تَمَامِ الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ.

■ فَمِثَالُ الْقَضَاءِ الدِّينِيِّ: قَضَاؤُهُ بِالْوُجُوبِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْحِلِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

■ وَمِثَالُ الْقَضَاءِ الْكَوْنِيِّ: قَضَاؤُهُ بِالرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبا: ١٤]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكُتُبِ لِنُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَ عُلُوكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

الْمَعْنَى الثَّانِي: الْمَقْضِيُّ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: الْمَقْضِيُّ سَرْعًا، فَيَجِبُ الرِّضَا بِهِ وَقَبُولُهُ، فَيَفْعَلُ الْمَأْمُورَ بِهِ، وَيَتْرُكُ الْمَنْهَى عَنْهُ، وَيَتَمَتَّعُ بِالْحَلَالِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْمَقْضِيُّ كَوْنًا:

■ فَإِنْ كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْجَذْبِ وَالْهَلَائِكِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الرِّضَا بِهِ سُنَّةٌ لَا وَاجِبٌ، عَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ.

■ وَإِنْ كَانَ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ جَزَتْ فِيهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ، فَالرِّضَا بِالْوَاجِبِ وَاجِبٌ، وَبِالْمَنْدُوبِ مَنْدُوبٌ، وَبِالْمُبَاحِ مُبَاحٌ، وَبِالْمَكْرُوهِ مَكْرُوهٌ، وَبِالْحَرَامِ حَرَامٌ.

* قَوْلُهُ: «وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ».

* «مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ» أَي: أَطْيَبِهَا، وَالكَرِيمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ أَطْيَبُ مِنْهُ بِحَسَبِ ذَلِكَ

السَّيِّءِ، مِنْهُ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ لَمُعَاذٍ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١)، حِينَ أَمَرَهُ بِأَخْذِ الزَّكَاةِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ.

والأخلاق: جَمْعُ خُلُقٍ، وَهُوَ الصُّورَةُ الْبَاطِنَةُ فِي الْإِنْسَانِ، يَعْنِي: السَّجَايَا وَالطَّبَائِعَ، فَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ سَرِيرَتُهُ كَرِيمَةً، فَيُحِبَّ الْكَرَمَ وَالشَّجَاعَةَ وَالتَّحَمُّلَ مِنَ النَّاسِ وَالصَّبْرَ، وَأَنْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ، وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، كُلُّ هَذِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَأَمَّا «مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ» فَهِيَ يَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ، وَيَشْمَلُ الْأَعْمَالَ التَّعَبُّدِيَّةَ وَالْأَعْمَالَ غَيْرَ التَّعَبُّدِيَّةِ، مِثْلَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْإِجَارَةِ؛ حَيْثُ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الصَّدَقِ وَالنُّصْحِ فِي الْأَعْمَالِ كُلِّهَا، وَإِلَى تَجَنُّبِ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ، وَإِذَا كَانُوا يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ فَهُمْ بِفِعْلِهِ أَوْلَى.

❖ قَوْلُهُ: «وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٢).

هَذَا الْحَدِيثُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نُصَبَ عَيْنِي الْمُؤْمِنِ، فَأَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا مَعَ اللَّهِ، وَمَعَ عِبَادِ اللَّهِ.

■ أَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ اللَّهِ: فَأَنْ تُتَلَقَّى أَوَامِرُهُ بِالْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ وَالْإِنْشِرَاحِ وَعَدَمِ الْمَلَلِ وَالضَّجْرِ، وَأَنْ تُتَلَقَّى أَحْكَامُهُ الْكَوْنِيَّةُ بِالصَّبْرِ وَالرَّضَا وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ.

■ أَمَّا حُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ: فَقِيلَ: هُوَ بِذَلِ النَّدَى، وَكَفَّ الْأَذَى، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ. بِذَلِ النَّدَى يَعْنِي: الْكَرَمَ، وَلَيْسَ خَاصًّا بِالْمَالِ، بَلْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْسِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ بِذَلِ النَّدَى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى

الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)،

والترمذي: كتاب الرضا، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢)، وابن حبان رقم (٤٧٩)،

والحاكم (٣/ ١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث حسنه الألباني في «الصحيفة» (٢٨٤).

وطلاقة الوجه ضده العُبُوسُ.

وكذلك كف الأذى لا يؤذي أحدًا لا بالقول ولا بالفعل.



* قوله: «وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

* «يَنْدُبُونَ» أي: يَدْعُونَ.

* «أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»: مِنَ الْأَقَارِبِ مِمَّنْ نَحِبُ صَلَاتَهُمْ عَلَيْكَ، إِذَا قَطَعُوكَ فَصِلَهُمْ، لَا تَقُلْ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلْتُهُ! فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِصَلَةٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، إِنَّمَا الْوَاصِلُ مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»^(١)، فَالوَاصِلُ هُوَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا.

وَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ لِي أَقَارِبَ أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

* «تُسْفِهُمُ الْمَلَّ» أي: كَأَنَّمَا تَضَعُ التُّرَابَ أَوْ الرَّمَادَ الْحَارَّ فِي أَفْوَاهِهِمْ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَنْ تَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ بِالْأُولَى؛ لِأَنَّ مَنْ وَصَلَكَ وَهُوَ قَرِيبٌ صَارَ لَهُ حَقَّانٍ: حَقُّ الْقَرَابَةِ، وَحَقُّ الْمُكَافَاةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم (٥٩٩١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عَزَّجَلَّ، رقم (١٦٧٢)، والنسائي: كتاب الزكاة، من سأل بالله عَزَّجَلَّ، رقم (٢٥٦٧)، وابن حبان رقم (٣٤٠٨)، والحاكم (١/ ٤١٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* «وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ» أَي: مَنْ مَنَعَكَ، وَلَا تَقُلْ: مَنَعَنِي، فَلَا أُعْطِيهِ.

* «وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ» أَي: مَنْ انْتَقَصَكَ حَقَّكَ، إِمَّا بِالْعُدْوَانِ وَإِمَّا بَعْدَ الْقِيَامِ

بِالْوَاجِبِ.

وَالظُّلْمُ يَدُورُ عَلَى أَمْرَيْنِ: اعْتِدَاءٍ وَجُحُودٍ. إِمَّا أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْكَ بِالضَّرْبِ وَأَخْذِ الْمَالِ وَهَتِكِ الْعَرَضِ، وَإِمَّا أَنْ يَحْجِدَكَ فَيَمْنَعَكَ حَقَّكَ.

وَكَمَالُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ.

وَلَكِنْ الْعَفْوُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَإِنَّ تَعْفُوَ مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

أَوَّلًا: رَجَاءُ لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَحْمَتِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ.

ثَانِيًا: لِإِصْلَاحِ الْوُدِّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَاحِبِكَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قَابَلْتَ إِسَاءَتَهُ بِإِسَاءَةٍ اسْتَمَرَّتِ الْإِسَاءَةُ بَيْنَكُمَا، وَإِذَا قَابَلْتَ إِسَاءَتَهُ بِإِحْسَانٍ عَادَ إِلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ، وَخَجِلَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصل: ٣٤].

فَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ مِنْ سِمَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، لَكِنْ بَشَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْعَفْوُ إِصْلَاحًا، فَإِنْ تَضَمَّنَ الْعَفْوُ إِسَاءَةً فَإِنَّهُمْ لَا يَنْدُبُونَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اشْتَرَطَ فَقَالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]، أَي: كَانَ فِي عَفْوِهِ إِصْلَاحٌ.

أَمَّا مَنْ كَانَ فِي عَفْوِهِ إِسَاءَةٌ، أَوْ كَانَ سَبَبًا لِلْإِسَاءَةِ، فَهُنَا نَقُولُ: لَا تَعْفُ! مِثْلُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ مُجْرِمٍ، وَيَكُونَ عَفْوُهُ هَذَا سَبَبًا لاسْتِمْرَارِ هَذَا الْمُجْرِمِ فِي إِجْرَامِهِ، فَتَرَكَ الْعَفْوُ هُنَا أَفْضَلَ، وَرَبَّمَا يَجِبُ تَرْكُ الْعَفْوِ حِينَئِذٍ.



﴿قَوْلُهُ: «يَأْمُرُونَ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ».

وَذَلِكَ لِعِظَمِ حَقِّهِمَا.

وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِأَحَدٍ حَقًّا يَلِي حَقَّهُ وَحَقَّ رَسُولِهِ إِلَّا لِلْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، سَبْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وَحَقُّ الرُّسُولِ فِي ضَمَنِ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا تَتَحَقَّقُ الْعِبَادَةُ حَتَّى يَقُومَ بِحَقِّ الرُّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَحَبَّتِهِ وَاتِّبَاعِ سَبِيلِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ دَاخِلًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ سَبْعًا﴾ وَكَيْفَ يُعْبَدُ اللَّهُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الرُّسُولِ ﷺ!؟

وَإِذَا عَبْدَ اللَّهُ عَلَى مُقْتَضَى شَرِيعَةِ الرُّسُولِ فَقَدْ أَدَّى حَقَّهُ.

ثُمَّ يَلِي ذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ، فَالْوَالِدَانِ تَعَبَا عَلَى الْوَلَدِ، وَلَا سِيَّامَا الْأُمُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحاف: ١٥]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، وَالْأُمُّ تَتَعَبُ فِي الْحَمْلِ، وَعِنْدَ الْوَضْعِ، وَبَعْدَ الْوَضْعِ، وَتَرْحَمُ صَبِيحَهَا أَشَدَّ مِنْ رَحْمَةِ الْوَالِدِ لَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ أَحَقَّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ وَالْبِرِّ، حَتَّى مِنَ الْأَبِ.

قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ». ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «ثُمَّ أَبُوكَ»^(١).

وَالْأَبُ أَيْضًا يَتَعَبُ فِي أَوْلَادِهِ، وَيَضْجُرُ بِضَجَرِهِمْ، وَيَفْرَحُ لِفَرَحِهِمْ، وَيَسْعَى بِكُلِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي فِيهَا رَاحَتُهُمْ وَطُمَأْنِينَتُهُمْ وَحُسْنُ عَيْشِهِمْ، يَضْرِبُ الْفَيَافِي وَالْقِفَارَ مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ الْعَيْشِ لَهُ وَلِأَوْلَادِهِ.

فَكُلٌّ مِنَ الْأُمِّ وَالْأَبِ لَهُ حَقٌّ، مِنْهَا عَمِلَتْ مِنَ الْعَمَلِ لِنِ تَقْضِي حَقَّهُمَا؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فَحَقُّهُمَا سَابِقٌ حَيْثُ رَبَّيَاكَ صَغِيرًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنها أحق به، رقم (٢٥٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حِينَ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَوَاجِبُهُمَا الْبِرُّ.

وَالْبِرُّ فَرَضٌ عَيْنٌ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَدَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وَالْوَالِدَانِ هُمَا الْأَبُ وَالْأُمُّ، أَمَّا الْجَدُّ وَالْجَدَّةُ فَلَهُمَا بَرٌّ، لَكِنَّهُ لَا يُسَاوِي بَرَّ الْأُمِّ وَالْأَبِ؛ لِأَنَّ الْجَدَّ وَالْجَدَّةَ لَمْ يَخْصُلْ لهُمَا مَا خَصَّ لِلْأُمِّ وَالْأَبِ مِنَ التَّعَبِ وَالرَّعَايَةِ وَالْمُلَاحَظَةِ، فَكَانَ بَرُّهُمَا وَاجِبًا مِنْ بَابِ الصَّلَةِ، لَكِنْ هُمَا أَحَقُّ الْأَقَارِبِ بِالصَّلَةِ، أَمَّا الْبِرُّ فَإِنَّهُ لِلْأُمِّ وَالْأَبِ.

لَكِنْ مَا مَعْنَى الْبِرِّ؟

الْبِرُّ: إِيْصَالُ الْخَيْرِ بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُ، وَكَفُّ الشَّرِّ.

إِیْصَالُ الْخَيْرِ بِالْمَالِ، إِیْصَالُ الْخَيْرِ بِالْخِدْمَةِ، إِیْصَالُ الْخَيْرِ بِإِدْخَالِ الشُّرُورِ عَلَيْهِمَا، مِنْ طَلَاقِ الْوَجْهِ، وَحُسْنِ الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ، وَبِكُلِّ مَا فِيهِ رَاحَتُهُمَا.

وَلِهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ وَجُوبُ خِدْمَةِ الْأَبِ وَالْأُمِّ عَلَى الْأَوْلَادِ، إِذَا لَمْ يَخْصُلْ عَلَى الْوَلَدِ صَرَرٌ، فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ صَرَرٌ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ خِدْمَتُهُمَا، اللَّهُمَّ إِلَّا عِنْدَ الصَّرُورَةِ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ طَاعَتَهُمَا وَاجِبَةٌ فِيمَا فِيهِ نَفْعٌ لهُمَا، وَلَا صَرَرَ عَلَى الْوَلَدِ فِيهِ، أَمَّا مَا فِيهِ صَرَرٌ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ صَرَرًا دِينِيًّا كَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ - فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لَهُمَا فِي ذَلِكَ. أَوْ كَانَ صَرَرًا بَدَنِيًّا، فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتُهُمَا.

أَمَّا الْمَالُ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْرَهُمَا بِبَذْلِهِ وَلَوْ كَثُرَ، إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ صَرَرٌ، وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ حَاجَتُهُ، وَالْأَبُ خَاصَّةٌ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالٍ وَلَدِهِ مَا شَاءَ، مَا لَمْ يَضُرَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المواقيت، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا فِي أَحْوَالِ النَّاسِ الْيَوْمَ وَجَدْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يَبْرُؤُا بِوَالِدَيْهِ، بَلْ هُوَ عَاقٍ، نَحْدُهُ يُحْسِنُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَلَا يَمَلُّ الْجُلُوسَ مَعَهُمْ، لَكِنْ لَوْ يَجْلِسُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ لَوَجَدْتَهُ مُتَمَلِّمًا، كَأَنَّمَا هُوَ عَلَى الْجَمْرِ، فَهَذَا لَيْسَ بَبَارًّا، بَلِ الْبَارُّ مَنْ يَنْشِرُحُ صَدْرُهُ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَيَخْدُمُهُمَا عَلَى أَهْدَابِ عَيْنَيْهِ، وَيَخْرُصُ غَايَةَ الْحَرَصِ عَلَى رِضَاهُمَا بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ.

وَكَمَا قَالَتِ الْعَامَّةُ: «الْبِرُّ إِسْلَافٌ» فَإِنَّ الْبِرَّ مَعَ كَوْنِهِ يَحْصُلُ بِهِ الْبَارُّ عَلَى ثَوَابٍ عَظِيمٍ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يُجَازَى بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَالْبِرُّ وَالْعُقُوقُ كَمَا يَقُولُ الْعَوَامُّ: «إِسْلَافٌ» أَقْرِضْ تُسْتَوْفَ، إِنْ قَدَّمْتَ الْبِرَّ بَرَّكَ أَوْلَادُكَ، وَإِنْ قَدَّمْتَ الْعُقُوقَ عَقَّكَ أَوْلَادُكَ.

وَهُنَا حِكَايَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ فَبَرَّ بِهِ أَوْلَادُهُ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوقُ فِيهِ حِكَايَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عَقَّهُ أَوْلَادُهُ كَمَا عَقَّ هُوَ آبَاءَهُ. فَاهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

* وَكَذَلِكَ يَأْمُرُونَ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ

فَفَرَّقُوا بَيْنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقَارِبِ الْآخَرِينَ، الْأَقَارِبُ لَهُمُ الصَّلَةُ، وَالْوَالِدَانِ لَهُمَا الْبِرُّ، وَالْبِرُّ أَعْلَى مِنَ الصَّلَةِ؛ لِأَنَّ الْبِرَّ كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، لَكِنْ الصَّلَةُ أَلَّا يَقْطَعَ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ فِي تَارِكِ الْبِرِّ: إِنَّهُ عَاقٍ. وَيُقَالُ فِيمَنْ لَمْ يَصِلْ: إِنَّهُ قَاطِعٌ!

فِصْلَةُ الْأَرْحَامِ وَاجِبَةٌ، وَقَطْعُهَا سَبَبٌ لِلْعَنَةِ وَالْحِرْمَانِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [عهد: ٢٢-٢٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(١) أَيْ: قَاطِعُ رَحِمٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٦)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

وَالصَّلَاةُ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مُطْلَقَةً.

وَكُلُّ مَا آتَى وَلَمْ يُجَدِّدْ بِالشَّرْعِ كَالْحِرْزِ فَبِالْعُرْفِ اخْدُدْ^(١)

وَعَلَى هَذَا: يُرْجَعُ إِلَى الْعُرْفِ فِيهَا، فَمَا سَبَّاهُ النَّاسُ صَلَاةً فَهُوَ صَلَاةٌ، وَمَا سَمَّوْهُ قَطِيعَةً فَهُوَ قَطِيعَةٌ، وَهَذِهِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَكِينَةِ وَالْأُمَمِ.

■ إِذَا كَانَ النَّاسُ فِي حَالَةٍ فَقْرٍ وَأَنْتَ غَنِيٌّ، وَأَقَارِبُكَ فَقَرَاءٌ، فَصِلْتَهُمْ أَنْ تُعْطِيَهُمْ بِقَدْرِ حَالِكَ.

■ وَإِذَا كَانَ النَّاسُ أَغْنِيَاءَ، وَكُلُّهُمْ فِي خَيْرٍ، فَيُمْكِنُ أَنْ [يُعَدَّ] الذَّهَابُ إِلَى أَقَارِبِكَ فِي الصَّبَاحِ أَوْ الْمَسَاءِ يُعَدَّ صَلَاةً.

وَفِي زَمَانِنَا هَذَا الصَّلَاةُ بَيْنَ النَّاسِ قَلِيلَةٌ؛ وَذَلِكَ لِانْتِشَاعِ النَّاسِ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَانْشَغَالِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، وَالصَّلَاةُ التَّامَّةُ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ حَالِهِمْ، وَكَيْفَ أَوْلَادِهِمْ، وَتَرَى مَشَاكِلَهُمْ، وَلَكِنْ هَذِهِ مَعَ الْأَسَفِ مَفْقُودَةٌ، كَمَا أَنَّ الْبِرَّ التَّامَّ مَفْقُودٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.



* قَوْلُهُ: «وَحُسْنُ الْجَوَارِ».

أَيُّ: وَيَأْمُرُونَ - يَعْنِي: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - بِحُسْنِ الْجَوَارِ مَعَ الْجِيرَانِ، وَالْجِيرَانُ هُمُ الْأَقَارِبُ فِي الْمَنْزِلِ، وَأَذْنَاهُمْ أَوْلَاهُمْ بِالْإِحْسَانِ وَالْإِكْرَامِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، فَأَوْصَى اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْجَارِ الْقَرِيبِ وَالْجَارِ الْبَعِيدِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(٢).

(١) البيت لفضيلة الشيخ الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: منظومة أصول الفقه وقواعده (ص: ٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، مسلم:

كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٨)، من حديث أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(١).

وقال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٢).

وقال: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(٣).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْجَارِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَإِكْرَامِهِ.
وَالْجَارُ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا قَرِيبًا كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ.

وإِنْ كَانَ كَافِرًا قَرِيبًا فَلَهُ حَقَّانِ: حَقُّ الْقَرَابَةِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ.
وإِنْ كَانَ مُسْلِمًا غَيْرَ قَرِيبٍ فَلَهُ حَقَّانِ: حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ.
وإِنْ كَانَ كَافِرًا غَيْرَ قَرِيبٍ فَلَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَقُّ الْجَوَارِ.
فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِحُسْنِ الْجَوَارِ مُطْلَقًا أَيَّا كَانَ الْجَارُ، وَمَنْ كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ أَوْلَى.

وَمِنَ الْمُؤَسَفِ أَنْ بَعْضَ النَّاسِ الْيَوْمَ يُسَيِّئُونَ إِلَى الْجَارِ أَكْثَرَ مِمَّا يُسَيِّئُونَ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَجِدُهُ يَعْتَدِي عَلَى جَارِهِ بِالْأَخِذِ مِنْ مَلِكِهِ وَإِزْعَاجِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي آخِرِ بَابِ الصُّلْحِ فِي الْفَقْهِ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ الْجَوَارِ، فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم (١٤٢/٢٦٢٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الوصية بالجار، رقم (٦٠١٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم (١٤١/٢٦٢٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* قوله: «والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل».

كذلك يأمرُونَ -أي: أهلُ الشَّئَةِ والجماعةِ- بالإحسانِ إلى هؤلاءِ الأصنافِ الثلاثةِ.

* «اليتامى»: جَمْعُ يَتِيمٍ، وهو الَّذِي ماتَ أبوه قَبْلَ بُلُوغِهِ.

وقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بالإحسانِ إلى اليتامى، وكذلك النَّبِيُّ ﷺ حَثَّ عَلَيْهِ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثٍ ^(١).

ووجهُ ذَلِكَ أَنَّ اليتيمَ قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ بِفَقْدِ أَبِيهِ، فهو فِي حاجةٍ إلى العِنايةِ والرِّفقِ.

والإحسانُ إلى اليتامى يَكُونُ بِحَسَبِ الحالِ.

* «المساكين»: هُمُ الْفُقَرَاءُ، وهو هُنَا شَامِلٌ لِلْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ.

فالإحسانُ إِلَيْهِمْ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَجَعَلَ لَهُمْ حُقُوقًا خَاصَّةً فِي الْفَيءِ وَغَيْرِهِ.

ووجهُ الإحسانِ إِلَيْهِمْ أَنَّ الْفَقْرَ أَسْكَنَهُمْ وَأَضْعَفَهُمْ وَكَسَرَ قُلُوبَهُمْ، فَكَانَ مِنْ مُحَاسِنِ الْإِسْلَامِ أَنْ نُحْسِنَ إِلَيْهِمْ؛ جَبْرًا لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ النِّقْصِ وَالانْكَسَارِ.

والإحسانُ إلى المساكينِ يَكُونُ بِحَسَبِ الحالِ، فإذا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى طَعَامٍ فَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ بِأَنْ تُطْعِمَهُ، وإذا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى كِسْوَةٍ فَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ بِأَنْ تُكْسُوَهُ، وَإِلَى اعْتِبَارٍ بِأَنْ تُؤَلِّيهُ اعْتِبَارًا، فإذا دَخَلَ الْمَجْلِسَ تُرَحَّبُ بِهِ، وَتُقَدِّمُهُ لِأَجْلِ أَنْ تَرْفَعَ مِنْ مَعْنَوِيَّتِهِ.

فَمِنْ أَجْلِ هَذَا النِّقْصِ الَّذِي قَدَرَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِهِ أَمَرَنَا عَزَّجَلَّ أَنْ نُحْسِنَ إِلَيْهِمْ.

* كذلك «ابن السبيل» وهو الْمُسَافِرُ، وهو هُنَا الْمُسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ بِهِ السَّفَرُ أَوْ لَمْ يَنْقَطِعْ، بِخِلَافِ الزَّكَاةِ؛ لِأَنَّ الْمُسَافِرَ غَرِيبٌ، وَالْغَرِيبُ مُسْتَوْحِشٌ، فإذا آتَسَتْهُ بِإِكْرَامِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ فَإِنَّ هَذَا يَأْمُرُ بِهِ الشَّرْعُ.

فإذا نَزَلَ ابْنُ سَبِيلٍ بِكَ ضَيْفًا فَمِنْ إِكْرَامِهِ أَنْ تُكْرِمْ ضَيْافَتَهُ.

(١) ومنها ما أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، رقم (٦٠٠٥)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى.

لكن قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ لَا يَجِبُ إِكْرَامُهُ بِضِيَافَتِهِ إِلَّا فِي الْقَرَى دُونَ الْأَمْصَارِ!
ونحنُ نَقُولُ: بَلْ هِيَ وَاجِبَةٌ فِي الْقَرَى وَالْأَمْصَارِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَبَبٌ، كَضِيْقِ الْبَيْتِ
مثلاً، أَوْ أَسْبَابٍ أُخْرَى تَمْنَعُ أَنْ تُصَيِّفَ هَذَا الرَّجُلَ، لكنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَنْبَغِي إِذَا تَعَدَّرَ أَنْ
تُحْسِنَ الرَّدَّ.



❖ قَوْلُهُ: «وَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ».

يعني: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَأْمُرُونَ بِالرَّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَمْلُوكَ الْأَدَمِيَّ وَالْبَهِيمَ:

■ فَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ الْأَدَمِيِّ أَنْ تُطْعِمَهُ إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهُ إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُكَلِّفُهُ
مَا لَا يُطِيقُ.

■ وَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ مِنَ الْبَهَائِمِ سِوَاهُ كَانَتْ يَمَّا تَرْكَبُ أَوْ تُحْلَبُ أَوْ تُقْتَنَى، يَخْتَلِفُ
بِحَسَبِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فِيهِ السَّتَاءُ تُجْعَلُ فِي الْأَمَاكِينِ الدَّافِئَةِ إِذَا كَانَتْ لَا تَتَحَمَّلُ الْبَرْدَ، وَفِي
الصَّيْفِ فِي الْأَمَاكِينِ الْبَارِدَةِ إِذَا كَانَتْ لَا تَتَحَمَّلُ الْحَرَّ، وَيُؤْتَى لَهَا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِنْ لَمْ
تَحْصُلْ عَلَيْهِ بِنَفْسِهَا بِالرَّغْيِ، وَإِذَا كَانَتْ يَمَّا تَحْمِلُ فَلَا تُحْمَلُ مَا لَا تُطِيقُ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الشَّرْعِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْسَ حَتَّى الْبَهَائِمَ، وَعَلَى سُمُولِيَّةِ طَرِيقَةِ أَهْلِ
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.



❖ قَوْلُهُ: «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ وَالْحِيَلَاءِ وَالْبَغْيِ وَالْاِسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ».

الْفَخْرُ بِالْقَوْلِ، وَالْحِيَلَاءُ بِالْفِعْلِ، وَالْبَغْيُ الْعُدْوَانُ، وَالْاِسْتِطَالَةُ الرَّفْعُ وَالْاِسْتِعْلَاءُ.
فَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ: أَنْ يَتَفَاخَرُوا الْإِنْسَانَ عَلَى غَيْرِهِ بِقَوْلِهِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْعَالِمُ! أَنَا الْغَنِيُّ!
أَنَا الشُّجَاعُ!

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول: ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق.

والخيلاء تكون بالأفعال، يتخایل في مشيته، وفي وجهه، وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى، كأنه وصل إلى السماء، والله عز وجل وبخ من هذا فعله، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

فأهل السنة والجماعة ينهون عن هذا ويقولون: كن متواضعا في القول وفي الفعل، حتى في القول لا تشن على نفسك بصفاتك الحميدة إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك، كقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحدا هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»^(١)، فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين:

الأول: حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى.

والثاني: دعوتهم للتلقّي عنه.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدا، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس سقط من أعينهم، فاحذر هذا الأمر.

* «والبغي»: العدوان على الغير، ومواقفه ثلاثة بينها الرسول ﷺ في قوله: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(٢).

فالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض.

■ في الأموال مثل أن يدعي ما ليس له، أو ينكر ما كان عليه، أو يأخذ ما ليس له،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنها، رقم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٧٣٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليلعلم العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

فَهَذَا بَغْيٌ عَلَى الْأَمْوَالِ.

■ وفي الدَّمَاءِ: الْقَتْلُ قَتَا دُونَهُ، يَعْتَدِي عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْجَرْحِ وَالْقَتْلِ.

■ وفي الْأَعْرَاضِ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْأَعْرَاضُ يَعْنِي: السُّمْعَةُ، فَيَعْتَدِي عَلَيْهِ بِالْغِيَةِ الَّتِي يُشَوُّهُ بِهَا سَمْعَتُهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الزَّنَا وَمَا دُونَهُ، وَالْكُلُّ مُحَرَّمٌ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَنْهَوْنَ عَنِ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالِدَّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ.

وكذلك «الاستطالة على الخلق» يعني: الاستِعْلَاءُ عَلَيْهِمْ بِحَقٍّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ.

فالاستِعْلَاءُ عَلَى الْخَلْقِ يَنْهَى عَنْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، سَوَاءً كَانَ بِحَقٍّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ، وَالِاسْتِعْلَاءُ هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَرَفَّعُ عَلَى غَيْرِهِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ إِذَا مَنَّ عَلَيْكَ بِفَضْلٍ عَلَى غَيْرِكَ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سَيَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَزِدَّادَ تَوَاضَعًا؛ حَتَّى تُضَيِّفَ إِلَى الْحُسْنِ حُسْنًا؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتَوَاضَعُ فِي مَوْضِعِ الرُّفْعَةِ هُوَ الْمُتَوَاضِعُ حَقِيقَةً.

ومعنى قَوْلِهِ: «بِحَقٍّ» أَي: حَتَّى لَوْ كَانَ لَهُ الْحَقُّ فِي بَيَانِ أَنَّهُ عَالٍ مُتَرَفِّعٌ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَنْهَوْنَ عَنِ الْاِسْتِعْلَاءِ وَالتَّرَفُّعِ.

أَوْ يُقَالُ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: «الاستِطَالَةُ بِحَقٍّ»: أَنْ يَكُونَ أَصْلُ اسْتِطَالَتِهِ حَقًّا، بَأَنْ يَكُونَ قَدْ اعْتَدَى عَلَيْهِ إِنْسَانٌ، فَيَعْتَدِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَنْهَوْنَ عَنِ الْاِسْتِطَالَةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْخَلْقِ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ بِحَقٍّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ.

* قَوْلُهُ: «وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفْسَافِهَا».

* «وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ» أَي: مَا كَانَ عَالِيًا مِنْهَا، كَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

* «وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا» أَي: رَدِّهَا، كَالْكَذِبِ وَالْحَيَانَةِ وَالْفَوَاحِشِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.



* قَوْلُهُ: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ».

الشرح:

* «كُلُّ مَا يَقُولُونَهُ» أَي: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

* «وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»: وَهَذِهِ حَالٌ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّبَعَ لَهَا، وَهُوَ أَنَّا كُلُّ مَا نَقُولُهُ وَكُلُّ مَا نَفْعَلُهُ نَشْعُرُ حَالُ قَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ أَنَّنَا نَتَّبِعُ فِيهِ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَعَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ؛ لَنَكُونَ أَقْوَالُنَا وَأَفْعَالُنَا كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: إِنَّ عِبَادَاتِ الْعَافِلِينَ عَادَاتٌ، وَعَادَاتِ الْمُتَّبِعِينَ عِبَادَاتٌ.

فَالْإِنْسَانُ الْمُؤَفَّقُ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَوِّلَ الْعَادَاتِ إِلَى عِبَادَاتٍ، وَالْإِنْسَانُ الْغَافِلُ يُجْعَلُ عِبَادَاتِهِ عَادَاتٍ.

فَلْيُحَرِّصِ الْمُؤْمِنُ عَلَى أَنْ يُجْعَلَ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا تَبَعًا لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ لِيَنَالَ بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَيَحْصُلَ بِهِ كَمَالُ الْإِيْمَانِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



* قَوْلُهُ: «لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٠٢/٤) وأبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه (٤٧٩/٢) وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٢)، والأجري في «الشرعة» رقم (٢٩)، والحاكم في «المستدرک» (١٢٨/١)، واللالکائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (١٥٠)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق حديث معاوية: «هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو، وعن الأزهري بن عبد الله الحارزي، وعن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية، أخرجه عنه غير واحد...» وانظر: «اقتضاء الصراط» (١٣٧/١-١٣٨)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢٠٤).

* «أَنَّ أُمَّتَهُ» يعني: أُمَّةَ الإِجَابَةِ، لَا أُمَّةَ الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ أُمَّةَ الدَّعْوَةِ يَدْخُلُ فِيهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَهُمْ مُفْتَرِقُونَ، فَالْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا تَنْسَبُ نَفْسَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَوْلُهُ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»: لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّ عَمَلَهَا بِمَا تَسْتَحِقُّ بِهِ دُخُولَ النَّارِ.

وهذه الثلاث والسبعون فرقة هل وقعت الآن وتمت أو هي في المنظور؟
أَكْثَرَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ قَالُوا: إِنَّمَا وَقَعَتْ وَانْتَهَتْ، وَصَارُوا يُقَسِّمُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ إِلَى خَمْسَةِ أَصُولٍ رَّيْسِيَّةٍ، ثُمَّ هَذِهِ الْخَمْسَةُ الْأُصُولُ يُفَرِّعُونَ عَنْهَا فِرْقًا، حَتَّى أَوْصَلُوهَا إِلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَأَبْقَوْا فِرْقَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَبَهُمْ هَذِهِ الْفِرْقَ، وَلَا حَاجَةَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فَنُقَسِّمَ الْبِدْعَ الْمَوْجُودَةَ الْآنَ إِلَى خَمْسَةِ أَصُولٍ، ثُمَّ نُقَسِّمَ هَذِهِ الْأُصُولَ إِلَى فُرُوعٍ، حَتَّى يَتِمَّ الْعَدَدُ، حَتَّى إِنَّمَا نَجْعَلُ الْفَرْعَ أَحْيَانًا فِرْقَةً تَامَةً مِنْ أَجْلِ مُحَالَفَتِهَا فِي فَرْعٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ فِرْقَةً مُسْتَقِلَّةً.

فَالْأَوَّلَى أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذِهِ الْفِرْقَ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لَنَا، وَلَكِنَّا نَقُولُ: بَلَا شَكَّ أَنَّهَا فِرْقٌ خَرَجَتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، مِنْهَا مَا خَرَجَ فَأَبْعَدَ، وَمِنْهَا مَا خَرَجَ خُرُوجًا مُتَوَسِّطًا، وَمِنْهَا مَا خَرَجَ خُرُوجًا قَرِيبًا، وَلَا نُلْزِمُ بِحَضَرِهَا؛ لِأَنَّهُ رَبِّمَا يَخْرُجُ فِرْقٌ تَنْسَبُ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ غَيْرِ الَّتِي عَدَّهَا الْعُلَمَاءُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ، فَقَدْ خَرَجَ فِرْقٌ تَنْسَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ الْفِرْقِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ عُدَّتْ فِي عَهْدِ الْعُلَمَاءِ السَّابِقِينَ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَالرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَ أَنَّ أُمَّتَهُ - أُمَّةَ الْإِجَابَةِ - سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا ضَالَّةٌ وَفِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً.

قَالَ: «وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» يعني: الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى الْحَقِّ وَلَمْ تَتَفَرَّقْ فِيهِ.



* قَوْلُهُ: «وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»^(١)، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمُخْصِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».

* قَالَ: «وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي: وَالَّذِينَ كَانُوا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ هُمْ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ امْتَثَلُوا مَا وَصَّى اللَّهُ بِهِ: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ» [الشورى: ١٣]، فَهُمْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا، بَلْ كَانُوا جَمَاعَةً وَاحِدَةً.

* قَالَ: «صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمُخْصِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ، هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»: جُمْلَةُ «صَارَ» جَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: «لَكِنْ لَمَّا».

فَإِذَا سُئِلْنَا: مَنْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؟

فَنَقُولُ: هُمْ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمُخْصِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ.

وَهَذَا التَّعْرِيفُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ يَقْتَضِي أَنَّ الْأَشَاعِرَةَ وَالْمَاتَرِيدِيَّةَ وَنَحْوَهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِمَا أَدْخَلُوا فِيهِ مِنَ الْبِدْعِ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ؛ أَنَّهُ لَا يُعَدُّ الْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتَرِيدِيَّةُ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَكَيْفَ يُعَدُّونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي ذَلِكَ مَعَ مُحَالَفَتِهِمْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؟!

لَأَنَّهُ يُقَالُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتَرِيدِيَّةُ، أَوْ الْحَقُّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ السَّلَفُ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ السَّلَفُ؛ لِأَنَّ السَّلَفَ هُنَا هُمْ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيذان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤١)، والأجري في الشريعة رقم (٢٣-٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (١٤٧)، والحاكم (١٢٩/١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، بإسناد فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف لسوء حفظه، ولكن للحديث شاهد عن أنس رضي الله عنه أخرجه العُقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٦٢)، والطبراني في «المعجم الصغير» رقم (٧٢٤)، وبه يرتقي إلى درجة الحسن.

الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَأَيْمَةُ الْهُدَى مِنْ بَعْدِهِمْ. فَإِذَا كَانَ الْحَقُّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ السَّلَفُ وَهُوَ لَاءٌ يُخَالِفُونَهُمْ، صَارُوا لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي ذَلِكَ.



* قَوْلُهُ: «وَفِيهِمْ».

أَيُّ: فِي أَهْلِ السُّنَّةِ.

«الْصَّادِقُونَ».

جَمْعُ صَدِيقٍ، مِنَ الصِّدْقِ، وَهَذِهِ الصَّيْغَةُ لِلْمُبَالَغَةِ، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، فَهُوَ صَادِقٌ فِي قَضِيهِ، وَصَادِقٌ فِي قَوْلِهِ، وَصَادِقٌ فِي فِعْلِهِ.

■ أَمَّا صِدْقُهُ فِي قَضِيهِ: فَعِنْدَهُ تَمَامُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَمَامُ الْمَتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَدْ جَرَدَ الْإِخْلَاصَ وَالْمَتَابَعَةَ، فَلَمْ يَجْعَلْ لغيرِ اللَّهِ تَعَالَى شِرْكَاً فِي الْعَمَلِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لغيرِ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ اتِّبَاعاً فِي عَمَلِهِ، فَلَا شِرْكَ عِنْدَهُ وَلَا ابْتِدَاعَ.

■ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ: لَا يَقُولُ إِلَّا صِدْقًا، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»^(١).

■ صَادِقٌ فِي فِعْلِهِ: أَنْ فِعْلُهُ لَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ، فَإِذَا قَالَ فَعَلَ، وَهَذَا يُخْرِجُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ.

■ وَأَيْضًا يُصَدَّقُ بِمَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَى صِدْقِهِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ رَدُّ لِلْحَقِّ، وَلَا اخْتِقَارُ

لِلخَلْقِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا كان أبو بكرٍ أَوَّلَ مَنْ سُمِّيَ الصَّدِيقَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، صَارَ الْكُفَّارُ يَضْحَكُونَ بِهِ وَيُكْذِبُونَهُ، وَيَقُولُونَ: كَيْفَ تَذْهَبُ يَا مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَتَصِلُ فِي لَيْلَةٍ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ فِي السَّمَاءِ وَتَحْنُ إِذَا ذَهَبْنَا إِلَى الشَّامِ نَبْقَى شَهْرًا حَتَّى نَصِلَهُ وَشَهْرًا لِلرُّجُوعِ؟! فَاتَّخَذُوا مِنْ هَذَا سَلَمًا لِيُكْذِبُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَالُوا: إِنَّ صَاحِبَكَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ كَذَا وَكَذَا! قَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ^(١). فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمِّيَ الصَّدِيقَ، وَهُوَ أَفْضَلُ الصَّدِيقَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَغَيْرِهَا.

* قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الشُّهَدَاءُ».

جَمْعُ شَهِيدٍ، بِمَعْنَى: شَاهِدٍ.

فَمَنْ هُمُ الشُّهَدَاءُ؟

قِيلَ: هُمُ الْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ يَشْهَدُ بِشَرِّعِ اللَّهِ، وَيَشْهَدُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِأَنَّهُمَا قَامَتِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؛ وَلِهَذَا يُعَدُّ الْعَالِمُ مُبَلِّغًا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ شَرِيعَتُهُ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَكُونُ شَاهِدًا بِالْحَقِّ عَلَى الْخَلْقِ.

وقِيلَ: إِنَّ الشَّهِيدَ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ لِهَذَا وَهَذَا.

* قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الصَّالِحُونَ».

وَالصَّالِحُ ضِدُّ الْفَاسِدِ، وَهُوَ الَّذِي قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ، وَهُوَ غَيْرُ الْمُضْلِحِّ، فَالْإِضْلَاحُ وَصْفٌ زَائِدٌ عَلَى الصَّلَاحِ، فَلَيْسَ كُلُّ صَالِحٍ مُضْلِحًا، فَإِنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ مَنْ هُمُّهُ هُمْ نَفْسِهِ، وَلَا يَهْتَمُّ بغيرِهِ، وَتَمَامُ الصَّلَاحِ بِالْإِضْلَاحِ.

✍

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣/ ٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٦٠-٣٦١)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٠٦).

﴿قَوْلُهُ: «وَمِنْهُمْ أَغْلَامُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى».

الأغْلَامُ: جَمْعُ عِلْمٍ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الْجَبَلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ مَّابِتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]، يَعْنِي: الْجِبَالَ، وَسُمِّيَ الْجَبَلُ عَلَمًا؛ لِأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ وَيُسْتَدَلُّ بِهِ. و«أغْلَامُ الْهُدَى»: الَّذِينَ يَسْتَدِلُّ النَّاسُ بِهِمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِمْ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الرَّبَانِيُّونَ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْهُدَاةُ، وَهُمْ مَصَابِيحُ الدُّجَى.

وال«مَصَابِيحُ»: جَمْعُ مِصْبَاحٍ، وَهُوَ مَا يُسْتَصْبَحُ بِهِ لِلْإِضَاءَةِ. و«الدُّجَى»: جَمْعُ دُجِيَّةٍ، وَهِيَ الظُّلْمَةُ، أَيْ: هُمُ مَصَابِيحُ الظُّلَمِ، يَسْتَضِيءُ بِهِمُ النَّاسُ، وَيَمْشُونَ عَلَى نُورِهِمْ.

﴿قَوْلُهُ: «أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْتُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ».

﴿«الْمَنَاقِبُ»: جَمْعُ مَنْقَبَةٍ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ، أَيْ: مَا يَبْلُغُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الشَّرَفِ وَالسُّودُدِ. وَأَمَّا «الْفَضَائِلُ» فَهِيَ جَمْعُ فَضِيلَةٍ، وَهِيَ الْخِصَالُ الْفَاضِلَةُ، الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَالْكَرَمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَالْفَضَائِلُ سُلَمٌ لِّلْمَنَاقِبِ.

﴿قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ».

﴿«الْأَبْدَالُ»: جَمْعُ بَدَلٍ، وَهُمْ الَّذِينَ تَمَيَّزُوا عَنْ غَيْرِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، وَسُمُّوا أَبْدَالًا إِمَّا لِأَنَّهُمْ كَلَّمَا مَاتَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ خَلَفَهُ بَدَلُهُ، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُبَدَّلُونَ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا لِكُونِهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةً كَانُوا يُبَدَّلُونَ أَعْمَالِ النَّاسِ الْخَاطِئَةِ إِلَى أَعْمَالٍ صَائِبَةٍ، أَوْ لِهَذَا كُلِّهِ وَغَيْرِهِ.

﴿قَوْلُهُ: «وَفِيهِمْ أَيْمَةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ».

الإمام: هُوَ الْقُدْوَةُ.

وفي أهل السنة والجماعة أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، مثل: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

* وقوله: «أئمة الدين»: خرج به أئمة الضلال من أهل البدع، فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة، وهم وإن سمو أئمة فإن من الأئمة أئمة يذعون إلى النار، كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْكَافِرِ وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الفصص: ٤١].

* قوله: «وهم الطائفة المنصورة».

يعني: أن أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التي نصرها الله عز وجل؛ لأنهم داخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، فهم منصورون، والعاقبة لهم.

ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعب وجهاد؛ لأن النصر يقتضي منصوراً ومنصوراً عليه. إذن: فلا بد من مغالبة، ولا بد من محنة، ولكن كما قال ابن القيم رحمه الله^(١):

الحق منصور ومُنتَحَنٌ فالأ

تَعَجَّبَ فَهَذِي سُنَّةَ الرَّحْمَنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تيسر لك بأول مرة، بل اصبر وكرّر مرة بعد أخرى، واصبر على ما يُقال فيك من استهزاء وسخرية؛ لأن أعداء الدين كثيرون.

لا يُثني عزمك أن ترى نفسك وحيداً في الميدان، فأنت الجماعة وإن كنت وحيداً ما دمت على الحق؛ ولهذا ثبت بأنك منصورٌ إماماً في الدنيا وإماماً في الآخرة.

ثُمَّ إِنَّ النَّصْرَ لَيْسَ نَصْرَ الْإِنْسَانِ بِشَخْصِهِ، بَلِ النَّصْرُ الْحَقِيقِيُّ أَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، أَمَّا إِذَا أُصِيبَ الْإِنْسَانُ بِذُلٍّ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُنَافِي النَّصْرَ أَبَدًا، فَالْنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُوذِيَ إِيْدَاءً عَظِيمًا، لَكِنْ فِي النَّهَايَةِ انْتَصَرَ عَلَى مَنْ آذَاهُ، وَدَخَلَ مَكَّةَ مَنْصُورًا مُؤَزَّرًا ظَافِرًا بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا.



* قَوْلُهُ: «الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَدَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

هَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١) بَنَحَوْ مَا سَاقَهُ الْمُؤَلِّفُ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

* قَوْلُهُ: «لَا تَزَالُ»: هَذَا مِنْ أَفْعَالِ الْاسْتِمْرَارِ، وَأَفْعَالُ الْاسْتِمْرَارِ أَرْبَعَةٌ، وَهِيَ: فَتَيَعَ وَانْفَلَكَ وَبَرَحَ وَزَالَ، إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّفْيُ أَوْ شِبْهُهُ.

* فَقَوْلُهُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ» يَعْنِي: تَسْتَمِرُّ عَلَى الْحَقِّ.

وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ غَيْرُ مَحْصُورَةٍ بَعْدَ وَلَا بِمَكَانٍ وَلَا بِزَمَانٍ، يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ بِمَكَانٍ تُنْصَرُّ فِيهِ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ تُنْصَرُّ فِيهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى، وَبِمَجْمُوعِ الطَّائِفَتَيْنِ يَكُونُ الدِّينُ بَاقِيًا مَنْصُورًا مُظَفَّرًا.

* وَقَوْلُهُ: «لَا يَضُرُّهُمْ» وَلَمْ يَقُلْ: لَا يُؤْذِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْأَذْيَةَ قَدْ تَحْصُلُ، لَكِنْ لَا تَضُرُّ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الضَّرَرِ وَالْأَذَى؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي»^(٢)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْاِعْتَصَامِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ»، رَقْمُ

(٧٣١١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ»، رَقْمُ (١٩٢١)،

مِنْ حَدِيثِ الْمَغْرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رَقْمُ (٢٥٧٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْآخِرَةُ ﴿[الأحزاب: ٥٧]﴾، وفي الحديث القدسي: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ»^(١) فاثبت الأذى ونفى الضرر، وهذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، ولا يتضرر بها.

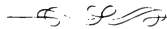
* وفي قوله: «حتى تقوم الساعة» إشكال؛ لأنه قد ثبت في الصحيح أنها «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»^(٢) أي: حتى يمعى الإسلام كله، ولا يبقى من يعبد الله أبداً. فكيف قال هنا: «حتى تقوم الساعة»؟!

وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين:

■ إما أن يكون المراد: حتى قرب قيام الساعة، والشيء قد يعبر به عما قرب منه إذا كان قريباً جداً، وكأن هؤلاء المنصورين إذا ماتوا فإن الساعة تكون قريبة جداً.

■ أو يقال: إن المراد بالساعة ساعتهم.

ولكن القول الأول أصح؛ لأنه إذا قال: «حتى تقوم الساعة» فقد تقوم ساعتهم قبل الساعة العامة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث أن هذا النضر سيمتد إلى آخر الدنيا، فالصواب أن المراد بذلك إلى قرب قيام الساعة. والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يَهْدِكُمْ إِلَّا أَلَدَهُرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، رقم (١٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

الْخَاتِمَةُ

قَوْلُهُ: «فَتَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَكَ مِنْهُمْ، وَأَنْ لَا يُزَيِّغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا».

وبهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هذه الرسالة القليلة اللفظ، الكثيرة المعنى، وهي تُعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، وفيها فوائد عظيمة، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها.

والحمد لله رب العالمين على الإتمام، وتَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ والثَّوَابِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قُمْتُ بِمُراجَعَةِ الْكِتَابِ وإِضَافَةٍ مَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ وَحَذْفِ مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ١٤١٤ هـ وَقُمْتُ بِمُراجَعَتِهِ مَعَ الْمُضَافِ مَسَاءَ يَوْمِ الْخَمِيسِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ ١٤١٥ هـ

تَعْلِيْقٌ عَلَى مَا فِي شَرْحِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ خَلِيلِ الْهَرَّاسِ
عَلَى مَتْنِ الْعَقِيْدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ - الطَّبْعَةُ الْأُولَى

أخبره رب العالمين وأصله وأصله من بني نينا من مدغلقه وصاحبه ولابا على من العيون ؟
وبعد فهذا تليق ما في شرح الشيخ محمد بن أبي بكر من هذا الكتاب العتيق
الطبعة الأولى في هذا الشرح غير بالعناية به لأنه أحسن ما رأينا من شرحه
لاختصاره ووضوحه وعمله العلم الكثير فمن ذلك :

أولاً : قوله ص ٥ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل كلام لم يرد
فيه بيلاد لم يذكّر بصيغة التزيين وهو كذلك وقدرى بدع الفناط بعض
نانيا : قوله ص ٦ في تعريف كبره للناس باللسان على الجليل الاختيار
فيه قصص إذا أن كبره يكون علم أحسانه ولم أفضالاً لا اختيارية وعلى كذا
النائية اللادرة ولعل قصده كبر النسبة إلى الخلق .

ثالثاً : قوله ص ١٤ في تعريف الصابية أنهم كل من لقوا النبي صلى الله عليه وسلم
مربوا ومات مما ذكره مؤيداً بالرسول صلى الله عليه وسلم لأن الحلاق الإيثار
يضيق إلى الأيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ولوقوله ذلك به فكان أحسن

رابعاً : قوله ص ١٩ والمعلم للناس أي من الكتب التي نزلت على الأنبياء
أربعة إلى الصواب أنها خمسة هذه الاربعة ومنهم إبراهيم وقد تنبه المؤلف
في الطبعة الثانية فقال ص ١٥ والمعلم لنا محمد إبراهيم إلى .

خامساً : ذكر ص ١٥ بيتين في عدل الأنبياء وغيرهم ذكر الكفل وفيه ما
سادساً : ذكر ص ١٦ أن النصارى يكونون البعث الجسماني وفيه نظر
بل قد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجسد الجسماني يستقل عليه بين المسلمين

١١

الشرع ما ذكره العلم أعرج البخاري ومسلم وغيرهما في حديث آخره ابن تيمية
بزيادة غريبة بنت غويلد :

قال ابن كثير رحمه الله ص ٩١ في كتاب البداية والنهاية بعد كبره
الذين وهذا الأئمة في هذه الاربعة كبرية وفاطمة رضي الله عنها وأمرها
عائشة رضي الله عنها في غديره في طائفة من علماء السنة والفق والأحسن
الذين لأن قوله صلى الله عليه وسلم وفصل عائشة في النساء كفضل النبي في الرجال
العلم يحتل أن يكون عائداً بالنسبة المذكورة في غيرهم ويحتل أن يكون عائداً
بالنسبة إلى عائدة المذكورة والمعلم (١) بمناه

ومن لم يعرف شيخ الإسلام رحمه الله بعبارة قلن في شراكها في الفضل
عليه زوجهات النبي صلى الله عليه وسلم في ترتيب بينها وقد تبعه الشارح
في الطبعة الثانية في كبره بالبن وعقالتن وأفضلهن على الإطلاق غديره
وعائشة رضي الله عنهما .

لذلك : قوله ص ١٥٥ لقولنا صلى الله عليه وسلم كل من عرفنا
هذا الحديث صحيح لم يعلم من طريق الجامع الصغير للناظر ص ٤١
وأما قوله صلى الله عليه وسلم من رواه عنك من غيرك لم يسمع من ذلك لئلا يخطئ القارئ
١٤-١٥ ص ١٥٥ من كتابه على رواية المصنف : من رواه عنك من غيرك لم يسمع من ذلك لئلا يخطئ القارئ
المعلم بالرقم الحرف هو الذي أرسلنا صورة منه للإطراف العت
المسند وتوزيعه من غيره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا تعلیق على ما في شرح الشيخ محمد خليل الهراس على متن العقيدة الواسطية الطبعة الأولى؛ فإن هذا الشرح جديرٌ بالعناية به؛ لأنه أحسن ما رأينا من شروحه لاختصاره ووضوحه وجمعه العلم الكثير.. فمن ذلك:

أولاً: قوله (ص: ٥): «روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ...» إلخ ذكره بصيغة التمریض وهو كذلك، وقد روي بعدة ألفاظ بعضها حسن^(١).

ثانياً: قوله (ص: ٦): في تعريف الحمد: «هو: الثناء باللسان على الجميل الاختياري» فيه قصور، إذ أن الحمد لله يكون على إحسانه وعلى أفعاله الاختيارية، وعلى صفاته الذاتية اللازمة، ولعل قصده الحمد بالنسبة إلى المخلوق.

ثالثاً: قوله (ص: ١٢) في تعريف الصحابة: «أنهم كل من لقي النبي ﷺ مؤمناً، ومات على ذلك» مراده مؤمناً بالرسول ﷺ؛ لأن إطلاق الإيمان ينصرف إلى الإيمان بالرسول ﷺ، ولو قيد ذلك به لكان أحسن.

رابعاً: قوله (ص: ١٤): «والمعلوم لنا منها - أي من الكتب التي أنزلت على الأنبياء - أربعة...» إلخ الصواب أنها خمسة، هذه الأربعة، وصحف إبراهيم، وقد تنبه المؤلف لذلك في الطبعة الثانية فقال (ص: ١٥): «والمعلوم لنا صحف إبراهيم...» إلخ.

خامساً: ذكر (ص: ١٥) يبتين في عدد الأنبياء، وعد منهم ذا الكفل، وفيه خلاف، ولم يثبت.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب المهدي في الكلام، رقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَادَسًا: ذَكَرَ (ص: ١٦) أَنَّ النَّصَارَى يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ الْجَسَامِيَّ، وَفِيهِ نَظَرٌ، بَلْ قَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: أَنَّ الْمَعَادَ الْجَسَامِيَّ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى وَالْيَهُودِ^(١).

سَابِعًا: قَوْلُهُ (ص: ٤٠) فِي سَمْعِ اللَّهِ أَنَّهُ «بِسْمَعٍ هُوَ صِفَةٌ لَهُ لَا يُثَابِلُ أَسْمَاعَ خَلْقِهِ» إِنْ أَرَادَ بِهِ: «لَا يُثَابِلُهُ فِي مُطْلَقِ السَّمْعِ وَالْإِدْرَاكِ» فَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الْمَطْلَقَ الْكُلِّيَّ مُشْتَرِكٌ وَهُوَ إِدْرَاكُ الْمَسْمُوعِ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ: «لَا يُثَابِلُهُ فِيهَا يَخْتَصُّ بِهِ سَمْعُ اللَّهِ مِنَ الْإِحَاطَةِ، وَالشُّمُولِ، وَانْتِفَاءِ النَّقْصِ، وَالْحُدُوثِ» فَهَذَا حَقٌّ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: «بِسْمَعٍ يَلِيْقُ بِهِ».

ثَامَنًا: قَوْلُهُ (ص: ٤١): «وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ، وَيَرَى بِعَيْنٍ» فِيهِ صَوَابٌ وَخَطَأٌ، أَمَّا الصَّوَابُ فَفِي قَوْلِهِ: «وَيَرَى بِعَيْنٍ» فَإِنَّ الْعَيْنَ قَدْ ثَبَتَتْ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَى فِي الْكِتَابِ^(٢)، وَالسُّنَنِ^(٣)، وَالْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا لَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِهَا، وَلَا عَلَى نَفْيِهَا، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى تَحْقِيقِ صِفَةِ الْبَصَرِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا الْخَطَأُ؛ فَفِي قَوْلِهِ: «يَسْمَعُ بِأُذُنٍ» فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ لَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الْأُذُنِ لِلَّهِ، وَلَا نَفْيِهَا عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ صِفَةِ السَّمْعِ لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْبَصَرِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْأُذُنِ نُصُوصٌ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ كَمَا جَاءَ فِي الْعَيْنِ، وَصِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَثْبُتُ بِالْإِحْتِمَالِ، فَالصَّوَابُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ الْأُذُنِ لِلَّهِ وَلَا نَفْيُهَا عَنْهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْقِيفٍ مِنَ الشَّارِعِ؛ وَلِذَلِكَ عَدَلَ الْمَصْنَفُ -جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا- إِلَى الصَّوَابِ فِيهَا فِي الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ حَيْثُ قَالَ فِي (ص: ٤٢): «وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ بِسَمْعٍ وَيَرَى بِعَيْنٍ...» إلخ.

تَاسِعًا: قَوْلُهُ (ص: ٤٥): «وَهُوَ الْقَوَامُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ» إِنْ أَرَادَ أَنَّ

(١) الجواب الصحيح (٦/ ١٠).

(٢) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِرْ لِمُكْرِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [١٣] تَجَرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ [القمر: ١٣-١٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَيْنُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِثْقَالِ عِثْقِ﴾ [طه: ٣٩].

(٣) كَالْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]،

رَقْم (٣٤٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَالِ، رَقْم (١٦٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الدَّجَالِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ»، وَغَيْرِهِ.

الله تعالى أمر به بصيغة الأمر المعروفة؛ فغير صحيح، فإن الله لم يأمر به فيها، وإن أراد أن الله أمر به ضمناً، ولازمًا؛ حيث أخبر أنه من صفات عباد الرحمن الذين أثنى عليهم ومدحهم؛ فهذا حق.

عاشراً: وكذلك قوله (ص: ٤٨): «إن الله أمر بالتواصي بالرحمة» فإن الذي في القرآن خبرٌ عن صفات من اقتحم العقبة، والأمر مستفادٌ باللازم لا بصيغته المعروفة.

حادي عشر: قوله (ص: ٥٠): «أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ يخرج به الخطأ أي: وشبه العمد؛ لأن الأول لم يقصد الفعل، والثاني لم يقصد القتل، ولا بد في هذا الوعيد من قصد الفعل والقتل، بأن يكون بألة تقتل غالباً.

ثاني عشر: قوله (ص: ٥١) في الجواب عن قوله تعالى في القتال عمداً: «﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾» ينبغي أن يعرف بأن الجواب الأول باطل؛ فإن مستحل قتل المؤمن عمداً كافراً سواء قتله أم لا، وأن الجواب الأخير فيه نظر؛ لأن المعروف أن الخلود المكث الدائم، ثم إن تصويره إمكان أن لا يجازي بأن يتوب أو يأتي بحسنات ماحية فيه قصور؛ لأن أسباب عدم المجازاة لا تنحصر فيما ذكر، ولعل ما ذكره مثال لا حصر.

ثالث عشر: قوله (ص: ٥٣): «على أنه لا يلزم من هذا المجيء والإتيان شغل مكان وتفرغ مكان، ولا الهبوط أو الانتقال» هذا الكلام من التكلف الذي لا حاجة إليه، فلم يأت في الكتاب، والسنة إثبات ذلك، ولا نفيه، فكان الواجب السكوت عنه، ولذلك حذفه المصنف في الطبعة الثانية (ص: ٥٤).

رابع عشر: قوله (ص: ٥٦): «مع ما ورد من إثبات الكف، والأصابع، واليمين، والشمال، والقبض، والبسط، وغير ذلك... إلخ. أقول: إثبات الكف، والأصابع، واليمين، والقبض، والبسط، كل ذلك وارد، وأما الشمال فقد قال الحافظ البيهقي: «وقد ورد ذكر الشمال لله تعالى من طريقين في أحدهما جعفر بن الزبير، وفي الآخر يزيد الرقاشي، وهما متروكان»^(١).

قَالَ: «وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؟! وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ سَمَىٰ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينًا، وَكَأَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ أَرْسَلَهُ مِنْ لَفْظِهِ عَلَىٰ مَا وَقَعَ لَهُ، أَوْ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ مِنْ ذِكْرِ الشَّامِ فِي مُقَابَلَةِ الْيَمِينِ»^(١)، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: «لَيْسَ فِيهَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ مِنْ صِفَةِ الْيَدَيْنِ شَيْئًا»^(٢)، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حُزَيْمَةَ فِي كِتَابِهِ (السُّنَّة): «مَذْهَبُنَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْآثَارِ وَمُتَّبِعِي السُّنَنِ» إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ لَا شَيْئًا فِيهِمَا»^(٣) اهـ. مُلَخَّصًا مِنْ شَرْحِ السَّفَّارِيِّ (ص: ٢٣٤) الطَّبَعَةُ الْآخِرَةُ.

قُلْتُ: وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الشَّامِ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا^(٤)، وَفِي إِسْنَادِهِ عُمَرُ بْنُ حَمْزَةَ. قَالَ أَحْمَدُ: أَحَادِيثُهُ مَنَاقِيرُ^(٥)، وَقَالَ النَّسَائِيُّ: ضَعِيفٌ^(٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثَّقَاتِ^(٧).

خَامَسَ عَشَرَ: قَوْلُهُ (ص: ٥٧): «فَلَا يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا كَوْنَهَا جَارِحَةً مُرَكَّبَةً مِنْ شَحْمٍ وَعَصَبٍ، وَغَيْرَهُمَا». أَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْلَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ نَفَىٰ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَىٰ إِثْبَاتِهَا جَارِحَةً مُقَدِّدَةً بِكَوْنِهَا مُرَكَّبَةً، أَيْ: فَالْتَفَنِي مُتَسَلِّطٌ عَلَىٰ جَارِحَةٍ مُرَكَّبَةٍ مِنْ شَحْمٍ وَعَصَبٍ إلخ، أَمَّا الْجَارِحَةُ الْمَطْلُوقَةُ، فَهَذِهِ لَا يَنْبَغِي إِثْبَاتُهَا لِلَّهِ، وَلَا نَفْيُهَا، إِذْ قَدْ يُرَادُ بِالْجَارِحَةِ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا مُقْتَضَاهَا وَأَثَرُهَا الْمُخْتَصُّ بِهَا؛ مِثْلُ إِدْرَاكِ الْمَرْتِي بِالْعَيْنِ، وَحُصُولِ الْقَبْضِ، وَالْبَسْطِ بِالْيَدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَتَوَصَّلُ بِنَفْيِ الْجَارِحَةِ إِلَىٰ نَفْيِ حَقِيقَةِ الصِّفَةِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ إِطْلَاقَ الْقَوْلِ فِي الْجَارِحَةِ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا لَا يَصِحُّ، بَلِ الْوَاجِبُ التَّفْصِيلُ، فَإِنْ أُريدَ بِالْجَارِحَةِ مَا تَرَكَّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ، وَافْتَقَرَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فِي التَّرَكُّيبِ؛ فَهَذَا مُسْتَحِيلٌ، يَجِبُ نَفْيُهُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ أُريدَ بِالْجَارِحَةِ حَقِيقَةُ

(١) الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ (٢/ ١٣٩ رقم ٧٠٦).

(٢) أَعْلَامُ الْحَدِيثِ (٤/ ٢٣٤٧).

(٣) التَّوْحِيدُ لِابْنِ خُزَيْمَةَ (١/ ١٩١).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رَقْمُ (٢٧٨٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بَلَفْظُ: «ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَيْنِ بِشَيْئِهِ».

(٥) الْعِلَلُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ (٣٣٣٦).

(٦) انْظُرْ: تَهْذِيبُ الْكَمَالِ (٢١/ ٣١٢)، وَقَالَ فِي الضَّعْفَاءِ وَالْمُتْرَوِكِينَ (٤٧٠): لَيْسَ بِالْقَوِيِّ.

(٧) الثَّقَاتُ (٧/ ١٦٨ رقم ٩٤٩٩) وَقَالَ فِيهِ: كَانَ مِنْ يَخْطِئِ.

الصِّفَةِ؛ كَالْعَيْنِ الْمُدْرِكَةِ لِلْمَرْتَبَاتِ، وَالْيَدِ الْقَابِضَةِ الْمَبْسُوطَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا حَقٌّ يَجِبُ اثْبَاتُهُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

سَادِسَ عَشَرَ: قَوْلُهُ (ص: ٥٨): «وَالرُّؤْيُ فِي مَعْنَاهُ، أَيْ فِي مَعْنَى الْبَصَرِ» فِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّ الرُّؤْيَ إِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ بِكَسْرِ الِهْمْزَةِ، لَا بِمَعْنَى الْبَصَرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِبْصَارُ، وَعَلَى هَذَا فَالرُّؤْيُ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ الَّذِي هُوَ مِنْ لَازِمِ الْبَصَرِ، وَقَدْ قَالَ الْمُؤَلِّفُ فِي الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ (ص: ٥٩): «وَالرُّؤْيُ لَازِمَةٌ لَهُ» بَدَلَ «وَالرُّؤْيُ فِي مَعْنَاهُ».

سَابِعَ عَشَرَ: قَوْلُهُ (ص: ٦١): «وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ»^(١) فِي صَحِّهِ إِسْنَادٍ هَذَا الْحَدِيثُ نَظَرٌ، أَمَّا مَعْنَاهُ فَصَحِيحٌ.

ثَامَنَ عَشَرَ: قَوْلُهُ (ص: ٦١-٦٢) فِي تَفْسِيرِ الْعَقُوفِ (بَأَنَّهُ الْمُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ تَابُوا إِلَيْهِ وَأَنَابُوا) تَقْيِيدُ عَفْوِ اللَّهِ عَنْهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، فِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّ عَفْوَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ قَدْ يَكُونُ عَنْ تَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ مِنَ الْعَبْدِ، وَقَدْ يَكُونُ مُجَرَّدَ فَضْلِ وَإِحْسَانٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

تَاسِعَ عَشَرَ: ذَكَرَ فِي (ص: ٦٣) أَنَّ الْعِزَّةَ تَأْتِي بِمَعْنَى الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ، وَهَذَا حَقٌّ، ثُمَّ قَالَ فِي (ص: ٦٤): «وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ»، وَالْحَقُّ أَنَّ الصَّلَابَةَ لَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِشُبُوتِهَا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا بِنَفْيِهَا عَنْهُ؛ لِعَدَمِ وُرُودِ ذَلِكَ.

أَمَّا بَقِيَّةُ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرَهَا فَيَصَحُّ اثْبَاتُهَا لِلَّهِ، مَا عَدَا النَّدْرَةَ، فَلَا يَنْبَغِي الْقَوْلُ بِشُبُوتِهَا، وَلَا نَفْيِهَا، لِمَا سَبَقَ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ كَلَامَهُ الْأَوَّلَ عَلَى مَعَانِي الْعِزَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ وَبَيَانَ اسْتِثْقَائِهَا، ثُمَّ إِنَّ الْوَاجِبَ اثْبَاتُ مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا قَوْلٌ مُحْتَمَلٌ، لَوْلَا قَوْلُهُ: «وَهَذِهِ الْمَعَانِي

كُلُّهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ» فَإِنَّ التَّوَكِيدَ بـ(كل) يَنْفِي احْتِمَالَ إِرَادَةِ الْبَعْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

عُشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ٨٠): «وَلَكِنِ الْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ الَّتِي تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا صِفَةً غَيْرَ خُلُقِيَّةٍ، وَلَا تُشَبِّهُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ وَحُرُوفَهُمْ» فِيهِ نَظَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: جَمْعُ الصَّوْتِ فَإِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ اللَّهَ أَصْوَاتًا مُتَنَوِّعَةً، وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَى إِثْبَاتِهِ أَوْ نَفْيِهِ، وَالْوَارِدُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَيَنَادِي بِصَوْتٍ»^(١) وَلَمْ يَرِدْ (أَصْوَات) بِلَفْظِ الْجَمْعِ، فَإِنَّ أَرَادَ بِالْجَمْعِ الْآحَادَ، أَيْ: أَنَّهُ جَمَعَهُ بِاعْتِبَارِ آحَادِهِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ اخْتِلَافَ صِفَاتِهِ، فَتَارَةً يَكُونُ مُنَادَاةً، وَتَارَةً مُنَاجَاةً؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ نَحْيًا» [مریم: ٥٢]، فَهَذَا صَحِيحٌ.

الثَّانِي: قَوْلُهُ: «إِنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا لَا تُشَبِّهُ حُرُوفَ الْمَخْلُوقِينَ» فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْحُرُوفُ وَالْمَعَانِي، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ هِيَ الْحُرُوفُ الَّتِي تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا، وَهِيَ أَحْرَفُ الْمَخْلُوقِينَ الَّتِي يُكُونُ الْعَرَبُ مِنْهَا لُغَتُهُمْ وَكَلَامُهُمْ، وَلَا ضَرَرَ فِي إِثْبَاتِ كَلَامِ اللَّهِ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ النَّاسُ بِهَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ مِنْ قَوْلِنَا: «إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْحُرُوفُ وَالْمَعَانِي»، وَإِلَّا لَكَانَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ عِبَارَةً أَوْ بَدَلًا عَنْ حُرُوفٍ أُخْرَى لَا نَعْلَمُهَا، فَتَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ تَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ، وَهَذَا خِلَافُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

حَادِي وَعُشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ٨٠): «كَمَا أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ الْقَائِمَ بِذَاتِهِ لَيْسَ مِثْلَ عِلْمِ عِبَادِهِ» يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَى الْعِلْمِ إِدْرَاكُ الْمَعْلُومِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْإِدْرَاكُ يَخْتَلِفُ قُوَّةً وَضَعْفًا وَابْتِدَاءً وَدَوَامًا، فَقَدْ يَكُونُ عِلْمُ شَخْصٍ سَابِقًا لِعِلْمِ شَخْصٍ آخَرَ، وَبِمَا يَبْقَى مُدَّةً أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِ شَخْصٍ آخَرَ، كَمَا أَنَّ إِدْرَاكَه وَإِحَاطَتَهُ لِلشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ أَقْوَى مِنْ إِدْرَاكِ شَخْصٍ آخَرَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مُطْلَقَ صِفَةِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ مِنْهَا ثَابِتَةٌ، وَهِيَ مُطْلَقُ إِدْرَاكِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ «وَرَى النَّاسُ شُكْرِي» [الحج: ٢]، رَقْمُ (٤٧٤١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا علمت ذلك: تبين لك أن علم الله تعالى لا يشبه علم المخلوق من حيث الابتداء والدوام، فعلمه تعالى أزلي أبدي، لم يزل ولا يزال محيطاً بكل شيء جملة وتفصيلاً، بخلاف علم المخلوق؛ فإنه مسبوق بالجهل التام، ويلحقه النسيان والذهول، وكذلك علم الله تعالى لا يشبه علم المخلوق من حيث قوة إدراك المعلوم على ما هو عليه، بل علم الله أكمل وأكمل من علم المخلوق، فإن المخلوق ربما يعلم الشيء مع احتمال، أما علم الله فلا احتمال فيه، لكن يشترك علم الله وعلم المخلوق في مطلق الصفة، وهي مطلق الإدراك، وهذا لا يقتضي تشبيه الخالق بالمخلوق، كما نقول: إن الخالق والمخلوق اشتركا في مطلق معنى الوجود، فيقال: الله موجود، والمخلوق موجود، وليس الوجودان متشابهين، وهكذا بقية الصفات، لا يمكن إنكار اشتراك مطلق المعنى بينهما.

ثانٍ وعشرون: قوله (ص: ٨١): «وناجاه مُشافهةً من وراء حجابٍ» فيه نظر؛ فإن المشافهة مُفاعلة من الجانين في حق من له شفة، وإثبات الشفة لموسى عليه السلام حق معلوم، أما إثباتها لله فإنها من القول على الله بلا علم، فلا يجوز إطلاقها على الله إلا بنص من كتاب أو سنة، والوارد من ذلك: (كفاح)، كما في حديث جابر الذي رواه البيهقي وابن مردويه من طريق علي بن المديني: أن النبي ﷺ قال لجابر أن الله قد كلم أباه كفاحاً، قال علي: والكفاح: المواجهة، ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات^(١).

والمؤلف تفتن لهذا، فلم يذكر مُشافهةً في الطبعة الثانية، وإنما قال (ص: ٨٢): «وناجاه حقيقة من وراء حجابٍ» فجزاه الله خيراً.

تنبيه: إذا قيل: كيف يكلم الله أبا جابر كفاحاً - أي: مواجهة - والله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؟!

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٠-٢٦١).

وأخرجه أيضاً الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيها أنكرت الجهمية، رقم (١٩٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ: فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ -وَمِنْهَا الْبَرْخُ- فَإِنَّهُ يُكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ بِلَا حِجَابٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثَالِثٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ٨٢): «وَلَيْسَ فَقَطْ عِبَارَةً أَوْ حِكَايَةً عَنْ كَلَامٍ كَمَا يَقُولُهُ الْأَشْعَرِيُّ» الْمَعْرُوفُ عَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ عِبَارَةٌ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ حِكَايَةٌ هُمْ الْكَلَابِيَّةُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلَّفُ الشَّارِحُ (ص: ١١٧).

رَابِعٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ٨٤): «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ حَسْبُهُ» صَوَابُهُ: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ حَسْبُهُ».

خَامِسٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ١١٨): «غَيْرَ أَنَّ قَوْلَهُ: «يَرُونَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ»، قَدْ يُوهِمُ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا أَيْضًا خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنِ الْحَقُّ أَنَّهَا عَامَةٌ لَجَمِيعِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ حِينَ يَجِيءُ الرَّبُّ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الْآيَةُ.

أَقُولُ: بَلْ مَا يُفِيدُهُ ظَاهِرُ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَرُونَهُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ هُوَ الْحَقُّ^(١)؛ كَمَا يُفِيدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرْنَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥] فَتَقَسَّمُ الرَّجُوعَةُ إِلَى قِسْمَيْنِ: نَاطِرَةٌ وَبَاسِرَةٌ، وَظَاهِرُهُ أَنَّهَا غَيْرُ نَاطِرَةٍ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُطَفِّفِينَ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وَالْمُرَادُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَسْبُغْهُ» إِلَى أَنْ قَالَ: «وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ»^(٢)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَدْنَى مُؤَدَّنٍ: لَتَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ،

(١) مجموع الفتاوى (٦/٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ إِلَّا يَتَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(۱)، وفي حديث آخر: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قَالَ: وَيَنْزِلُ اللَّهُ عَرْشَ جَلِّ فِي ظِلِّهِ مِنَ الْعَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ: أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَمْ تَرْضَوْا مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا أَنْ يُؤْتِيَ كُلَّ نَاسٍ مِنْكُمْ مَا كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ وَيَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. فَلْيَنْطَلِقْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: وَيَبْقَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَأْتِيَهُمُ الرَّبُّ عَرْشَ جَلِّ»^(۲).

ويدلُّ لذلك: مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَرُونَ اللَّهَ، قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَكَمِ: وَقَدْ سُئِلَ: هَلْ يَرَى الْخَلْقُ كُلَّهُمْ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «لَا يَرَاهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»^(۳).

وَقَالَ السَّفَّارِينِي فِي شَرْحِ عَقِيدَتِهِ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْكُفَّارَ كَالْمُنَافِقِينَ يَرُونَهُ ثُمَّ يُحْجَبُونَ عَنْهُ، فَتَكُونُ الْحُجْبَةُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ. وَخَصَّ النَّوَوِيُّ الْخُلَافَ بِالْمُنَافِقِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ غَيْرُ الْمُنَافِقِ فَلَا يَرَاهُ تَعَالَى اتِّفَاقًا، كَمَا لَا يَرَاهُ غَيْرُ الْعُقَلَاءِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَهـ. (ص ۲۵۰، ج ۲) الطَّبَعَةُ الْجَدِيدَةُ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُؤَلِّفِ بِالْآيَةِ فَغَيْرُ صَرِيحٍ؛ فَإِنَّ الْإِتْيَانَ لَا يُلْزَمُ مِنْهُ الرُّؤْيَى، فَقَدْ يَأْتِي الْآيُ إِلَى الْمَكَانِ فَيَرَاهُ بَعْضٌ وَلَا يَرَاهُ الْبَعْضُ الْآخَرُ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ. ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ فِي (حَادِي الْأَرْوَاحِ) لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص ۵۷، ج ۲) أَنَّ فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ لِأَهْلِ السُّنَّةِ:

(۱) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» [النساء: ۴۰]، رقم (۴۵۸۱)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (۱۸۳)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(۲) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (۳۵۷/۹ رقم ۹۷۶۳)، والحاكم في المستدرک (۳۴۲۴)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(۳) أخرجه اللالكاني في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (۸۱۰).

أحدها: لا يراه إلا المؤمنون.

الثاني: يراه جميع أهل الموقف من مسلم وكافر، ثم يحتجب عن الكفار.

الثالث: يراه المؤمنون والمنافقون دون الكفار.

وقد قال قبل ذلك: «فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه

في عَرَصات القيامة، بل والكفار أيضًا كما في حديث التَّجَلِّي». اهـ

لكن تأملت حديث التَّجَلِّي فلم أجذ فيه ما يدل على أن الكفار يرون ربهم على وجه

صريح، بحيث يصلح لتأويل ظاهر الآية: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]،

فإن تأويلها يحتاج إلى نص صريح يقوى على تأويلها.

نعم، في حديث التَّجَلِّي أن المنافقين يرون الله تعالى، وهو يقوى القول الثالث الذي

نقلناه عن ابن القيم، والله أعلم.

سادس وعشرون: قوله (ص: ١١٩): «وكلُّ ممكنٍ أخبر به الصادقُ يجبُ الإيَّانُ بوقوعه

كما أخبر».

في هذا التعبير نظرٌ من وجهين:

أحدهما: أن ظاهره يقتضي تقسيم ما أخبر الصادق بوقوعه إلى قسمين: ممكن ومستحيل،

وهذا خطأ، فإن ما أخبر الصادق بوقوعه لا يمكن أن يكون مستحيلًا، إذ لو فرض أنه

يجوز أن يكون مستحيلًا لم يكن صادقًا في ذلك، بل يكون كاذبًا. فجميع ما أخبر الصادق

بوقوعه إما ممكن وإما واجب، ليس غير.

الثاني: أن تعليق وجوب الإيَّان بما كان ممكنًا من أخبار الصادق مثارٌ للتكذيب

والتحريف، إذ كل من تصوّر أن هذا الشيء مستحيل أمكنه على هذا الضابط أن يردّ خبر

الصادق؛ لأن هذا الضابط يقتضي تعليق وجوب الإيَّان بخبر الصادق بما إذا كان الشيء ممكنًا،

ومن أجل هذا الضابط كذب كثير من أهل التعطيل بأحاديث نقلها الثقات عن رسول الله

ﷺ، وحرفوا ما لا يمكنهم تكذيبه، بناءً على ظنهم أن مدلول هذه النصوص مستحيل.

وَحِينَئِذٍ فَالْصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: «وَكُلُّ مَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ بِوُقُوعِهِ؛ فَإِنَّهُ يَحِبُّ الْإِيمَانَ بِوُقُوعِهِ كَمَا أَخْبَرَ، لِأَنَّ الصَّادِقَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْبَرَ بِوُقُوعِ مُسْتَحِيلٍ».

سَابِعٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ١٢٨): «وَتَنْضُمُ إِلَيْهَا ثَلَاثَةٌ وَهِيَ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ...» إلخ.

لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ وَرَدَ إِلَّا فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلِأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: «وَهِيَ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْ عَمِّهِ» لِأَنَّ كَلِمَةَ (بَعْضُ) رَبِّهَا يُظَنُّ أَنَّهَا تَتَنَاوَلُ غَيْرَ أَبِي طَالِبٍ.

ثَامِنٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ١٣٣) فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ دَرَجَتِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: «ثَانِيَهُمَا: الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ...» إلخ.

مَعَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّ الْأَمْرَ الثَّانِي هُوَ الْإِيمَانُ بِعُمُومِ خَلْقِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ سَلَكَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الطَّرِيقَ فِي الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ، حَيْثُ قَالَ (ص: ١٣٤): «وِثَانِيَهُمَا: الْإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ، لَا خَالِقَ سِوَاهُ».

تَاسِعٌ وَعِشْرُونَ: قَوْلُهُ (ص: ١٤٧): «وَأَفْضَلُهُنَّ خَدِيجَةُ ثُمَّ عَائِشَةُ» صَرِيحٌ فِي تَرْتِيبِ التَّفَاضُلِ بَيْنَ خَدِيجَةَ وَعَائِشَةَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ خَدِيجَةَ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَفْضَلُ رُوحَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا آيَتُهُمَا أَفْضَلُ؟ فَالْصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: مِنْ جِهَةِ كَثَرَةِ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ فَهَذَا عِلْمُهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ نَفْعِ الْأُمَّةِ وَالْقِيَامِ بِدِينِ اللَّهِ وَنُصْرَتِهِ، فَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَزِيَّةٌ تَخْتَصُّ بِهَا، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا قَامَتْ بِهَا يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ بِهِ، فَخَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَامَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِهَا لَمْ تَقُمْ بِهِ عَائِشَةُ؛ مِنْ تَحْمِيلِ أَعْبَاءِ الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُنَاصَرَتِهِ وَشِدَّةِ أَرْزِهِ وَتَقْوِيَتِهِ مَادِيًا وَمَعْنَوِيًا، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَامَتْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ بِهَا لَمْ تَقُمْ بِهِ خَدِيجَةُ؛ مِنْ تَعْلِيمِ الْأُمَّةِ، وَتَبْلِيغِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ، فَكَمْ مِنْ سُنَّةٍ حَفَظَتْهَا عَلَى الْأُمَّةِ، وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ أَظْهَرَتْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ دَلَالَةِ النُّصُوصِ عَلَى فَضْلِ إِحْدَاهَا عَنِ الْأُخْرَى، فَإِنِّي أَسْأَلُ هُنَا بِإِذْنِ اللَّهِ

مَا قَدْ عَرَفْتُهُ فِي ذَلِكَ:

الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ ﷺ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١).

الْحَدِيثُ الثَّانِي: قَوْلُهُ ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ» ﷺ. رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ^(٢) وَنَحْوُهُ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: قَوْلُهُ ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا^(٤)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ «إِلَّا ثَلَاثٌ» بزيادة خديجة بنت خويلد^(٥).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص: ٦١، ج ٢ - مِنْ كِتَابِ (الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ) بَعْدَ ذِكْرِ حَدِيثِ الشَّيْخَيْنِ): «وَهَذَا لَا يَنْفِي كَمَالَ غَيْرِهِمَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَخَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَمَّا عَائِشَةُ فَهِيَ أَفْضَلُ مِنَ خَدِيجَةَ فِي قَوْلِ طَائِفَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَالْأَحْسَنُ الْوَقْفُ؛ لِأَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَلَقَكِ عَلَى نَيْسِكَ الْكَلِيمِ﴾ [آل عمران: ٤٣]، رَقْمُ (٣٤٣٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ فَضَائِلِ خَدِيجَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، رَقْمُ (٢٤٣٠)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ٦٠)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٩٣، ٣١٦، ٣٢٢)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ (٧/ ٣٨٨) رَقْمُ (٨٢٩٧)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التَّحْرِيمِ: ١١]، رَقْمُ (٣٤١١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ فَضَائِلِ خَدِيجَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، رَقْمُ (٢٤٣١)، وَالتِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ الْأَطْعَمَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الثَّرِيدِ، رَقْمُ (١٨٣٤)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْأَطْعَمَةِ، بَابُ فَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ، رَقْمُ (٣٢٨٠)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ٦٠)، مِنْ حَدِيثِ قُرَّةِ بِنِ إِيَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله ﷺ: «وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(۱) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا
بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَذْكُورَاتِ وَغَيْرِهِنَّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عَدَا الْمَذْكُورَاتِ.
وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ. بمعناه.

وَمِنْ ثَمَّ عَبَّرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِعِبَارَةٍ تَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُمَا فِي الْفَضْلِ عَلَى بَقِيَّةِ
زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ تَبَعَهُ الشَّارِحُ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ حَيْثُ عَبَّرَ بِالْوَاوِ
فَقَالَ (ص: ۱۴۸): «وَأَفْضَلُهُنَّ عَلَى الْإِطْلَاقِ خَدِيجَةُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا».

ثَلَاثُونَ: قَوْلُهُ (ص: ۱۵۵): «لِقَوْلِهِ ﷺ: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»^(۲)، هَذَا الْحَدِيثُ
ضَعِيفٌ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ «شرح الجامع الصغير» للمناوي (ص: ۲۰۱، ج ۴)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



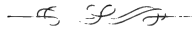
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

تَمَّ ذَلِكَ لَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ ۱۴-۱۵ مُحَرَّم، سَنَةِ ۱۳۸۴

عَلَى يَدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ

مُحَمَّدُ الصَّالِحُ الْعُثَيْمِينُ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْالَدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ



(۱) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَأَتِ فِرْعَوْنَ»

[التحريم: ۱۱]، رقم (۳۴۱۱)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم

المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم (۲۴۳۱)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(۲) أخرجه بهذا اللفظ الدارقطني في السنن (۱۷۶۸)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (۲۹/۴)، من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْحَدِيثُ	الصفحة	الْحَدِيثُ	الصفحة
أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ..... ٣٥٩		أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ..... ٥٢٧	
اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، واسألوا لَهُ الشَّيْءَ؛ فَإِنَّهُ		اتَّزَوْا أَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ طَارِحَةٌ وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟..... ١٨٧	
الآن يَسْأَلُ..... ٤١٧		اتَّقُوا اللَّهَ واعبدوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ..... ١٦٨	
اسْمَعُوا وأطيعوا، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ		اتَّقِيَ اللَّهَ واضْطِرِّي..... ٥٨٦	
مَا حُمِّلْتُمْ..... ٥٨١		آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، فَيَقُولُ	
أَطَلَبَ السَّيِّئُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ..... ٤٨، ٤١٧		الْحَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟..... ٤٥٤	
أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا		أَجِبُوا اللَّهَ لِيَا يَغْنُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ..... ١٧٨	
أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ..... ٥٧		أَحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ..... ١٦٠	
اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ..... ٥٢٣، ٥٤٦		أَحْلِقُوا كُلَّهُ أَوْ ذَرُّوا كُلَّهُ..... ٥٦٠	
أَعَوَّرَ الْعَيْنَ الْيُمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَيْنَهُ طَافِيَةً..... ٢٢٩		أَخْبَرَنِي عَنِ السَّاعَةِ..... ١٤٣	
أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ		أَخْرَجَ أَهْلَ الْجَنَّةِ دُخُولًا، يُعْطِيهِ اللَّهُ عَزَّيْزَلٌ نَبِيًّا، وَنَبِيًّا	
..... ٢٩٨، ٣٦٧		إِذَا انْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي	
أَفَلَا أَتُوكُنْ عَبْدًا شَكُورًا؟..... ٣٠٤، ٣٤٠		النَّارِ..... ٤٤٢	
أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ..... ٤٠٠		إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا	
أَكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى		تُكَلِّبُوهُمْ..... ٤٦٧	
تَمَلُّوا..... ٣٧٥		إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ..... ٥٤٢	
أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ..... ٣٤٠		إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ حِيرَانَكَ..... ٥٩٨	
أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ..... ٢٨٥، ٣٦٤		إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَنْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ..... ٣٦٨	
إِلَّا قُبِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَهْلِهَا		إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ..... ٥١٠	
شَاءَ..... ٤٥٥		إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ بِمِثْلِ مَا كَانَ يَعْمَلُ	
أَلَا هَلْ بَلَغْتُ..... ٦٣، ٢٨٥		مُقِيمًا صَاحِبًا..... ٤٤٢	
أَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظْمُوا فِيهِ الرَّبَّ..... ٣٤٣		إِذَا وَلَدَتِ الْأُمُّ رَجُلًا..... ٤٨٩	
أَمَّا يَحْسَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوَّلَ اللَّهُ		أَذْهَبَ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،	
رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ..... ١٧٤		وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ..... ٥٢٨	

إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابَّ نَشَأً فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ
 ٤٣٣..... مُعَلَّقٌ بِالسَّاجِدِ
 الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُمِهمُ ذَلِكَ ٤٣١
 أَمَرَ عُثْمَانُ بِالْأَذَانِ الْأَوَّلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ٥٦٣
 أَمَرُوها كَمَا جَاءَتْ بِهَا كَيْفَ ٧٧
 أَمُك. لِمَنْ سَأَلَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ ٥٩٤
 إِنَّ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ٤٧٧
 إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلُو بِهِ اللَّهُ عَزَّجَلُ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ
 فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ٢٠٧
 أَنَّ الدَّجَالَ يَدْعُو رَجُلًا مِنَ النَّاسِ مِنَ الشَّبَابِ،
 يَأْتِي وَيَقُولُ لَهُ: كَذَبْتَ ٥٥٦
 إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُتْقِ رَاحِلَتِهِ ٤٠١
 أَنَّ الرَّسُولَ قَدِمَ مَكَّةَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ ذِي
 الْحِجَّةِ ٥٥٩
 أَنَّ الرُّوحَ إِذَا قُضِيَ تَبِعُهُ الْبَصَرُ ٥٨
 إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ قَامَ بَيْنَ عَيْنَيْ الرَّحْمَنِ ٢٣٠
 أَنَّ الْقَائِلَ لَيْسَ لَهُ نَوْبَةٌ ١٩٦
 إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ١٧٦
 أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَهُ [أَبُو بَكْرٍ] عَلَى مَا فِي بَطْنِ رُوحِيهِ -
 الْحَتْلِ ٥٥٥
 إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي
 أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ ٢٠١
 أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ
 النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ٤٦٤
 إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ٨٠، ٨١، ٢١٥
 إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ فِيلًا وَقَالَ: ٢٠٠
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ١٢٣
 إِنَّ اللَّهَ لَيُثْبِتِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُغْلِنَهُ ١٩٢

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرَيْكِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ ٣٦١
 إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا ١٩١
 إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي
 نِصْفَيْنِ ٣٧٧
 أَنَّ اللَّهَ يُوجِي إِلَى عَيْسَى أَلِّي أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا
 يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ٢٢٤
 أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلُ يَخْلُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدِي، وَيُقرُّهُ بِثَنُوهِ ١٨٦
 أَنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللَّهَ قَبَلَ وَجْهَهُ ٢١٢، ٣٦٨
 أَنَّ النَّاسَ يُخْشَوْنَ حَقًّا عَرَا غُرْلًا ٤٢٨
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى أُمَّتَهُ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ٤٤٥
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَى حَمْرَةً: سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ ٤٦٢
 أَنَّ النَّبِيَّ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِجَمِيعِ
 مَالِهِ ٥١٩
 أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ اسْتَعَاذَ
 بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٦٨
 إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ ٨٠، ٨١
 أَنَّ بِلَالًا [كَانَ] يُؤَدِّنُ قَبْلَ الْعَجْرِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ٥٦٣
 أَنَّ تَوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ،
 وَتَوْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ٤١، ٤٧١
 إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ٦٠١
 إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ٢٢٩
 إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ٤٦٥
 أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَوَجَدَ
 تَمَلَّةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا ٤٤
 إِنَّ كَانَ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ ٦٠٧
 إِنَّ كُنْتُ كَمَا قُلْتُ، فَكَأَنَّا تُسْفَهُمُ الْمَلَأُ، وَلَا يَزَالُ
 مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ ٥٩٢

الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ٥٠٣
أَيُّنَ اللَّهِ؟ ٣٦٦، ٢٨٦، ٦٤
أَيُّهَا النَّاسُ! اذْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ
أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ٣٧٤
بَابِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ
وَالْيُسْرِ وَالْمُسْطِ وَالْمَكْرَهُ ٥٨١
تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ أَبُونَا،
خَيِّسْنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ ٤٩٧
تَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا
سَحَابٌ ٤٠٩
تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا
وَتَلَاثِينَ ٤٤١
تَعْدُونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ
فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ٥٢٠
تَنْزِلُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَصْطَفُونَ ٢٠٤
جَاءَهُ رَجُلٌ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ ٦٣
حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ
قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ١٦١
حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبْحَاتٍ وَجْهَهُ
مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ ٣٣٥، ٢١١، ٢٠٨
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ
..... ٢٣٦، ١٥٦، ٧٧
حَدَّثَنِي عَبْدِي ٢٩٧
جِئْنَا تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
فَوَضَعَ إِبَاهِمَهُ عَلَى أُذُنَيْهِ الْيُمْنَى ٦٣
خَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ٥٦٨
خَيْرُ النَّاسِ قُرْنِي ٥٤٨، ٥٤٥، ٥١٥

إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا ٤٥٠
إِنَّ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبَا بَكْرٍ ٥١٩
إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ١١٩
إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَانَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ ٤١٣
أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ ٤٥٤
أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرُقُ بَابَ الْجَنَّةِ ٤٥٤
أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٤٥٨
إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي آثَرَهُ وَأُمُورًا تُنْكِرُوهَا ٥٨١
إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ،
لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ ٧٩
إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ،
لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ ٣٧٦
إِنَّمَا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يُجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ،
وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ ٦٤
أَنَّهُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وَاحِدٌ مِنَ السِّيفِ ٤٥١
إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عَنَقِ رَاحِلَتِهِ ٣٩٩
إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ ٤١٤
إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُنْذِرُكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى
أَهْلِ بَدْرِ ٥٤٥
إِنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ ٤١٣
إِنَّهُ مُوضِعُ قَدَمِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ١٢٦
أَنَّهُ يَفْتَقِصُ لِلشَّاءِ الْجُلُخَاءِ مِنَ الشَّاءِ الْقِرْنَائِ ٤٤٦
إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ ٥٣٨
إِنَّهُمْ لَيُعَذِّبَانِ، وَمَا يُعَذِّبَانِ فِي كَبِيرٍ ٤٢٣
أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَكْظَمُ؟ ١٢١
أَيُّعِزُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟ ١١٦
الإيمان بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ ٥٠٣

- خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ٢٣
- خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ٥٥٨
- دَعَاهَا؛ مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرُدُّ الْمَاءَ، وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ ٤٨٩
- الَّذِينَ النَّصِيحَةُ، الَّذِينَ النَّصِيحَةُ ٥٨٣
- الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ ١٣٣
- رَأَى النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، لَهُ سِتْرَانِ جَنَاحَ، قَدْ سَدَّ الْأَفَقَ ٤٩
- رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ٤١٥
- رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ٦٣، ٧٠، ٣٦٢
- رَجَعْنَا مِنَ الْعَامِ الْقَبِيلِ - يَعْنِي: بَعْدَ صَلَاحِ الْحَالِيَةِ - فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ ٥٢٦
- رَجُلٌ يُؤْتِي بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ فِي سَجَلَاتٍ ٤٣٧
- سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ٢٨٥
- سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ٦٧
- سُبْحَانَكَ! لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ٦٤
- سَتَرْتُمَا عَلَيَّكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ٤٤٦، ٣٠١
- سُؤَالَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخَيِّجَهُ رَبُّهُ وَمُسْكِنًا ٣٧٣
- الشَّرُّ لَيْسَ إِلَهًا ٤٧٣
- صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ١٠١، ١٣٢
- صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى .. ٣٦
- الصَّلَاةُ عَلَى وَفَتْهَا ٥٩٥
- عَجِبَ رَبَّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَتَقَرَّبِ غَيْرِهِ ٣٥٥
- عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ، فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ٦٠٦
- فَالنَّارُ لَا تَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ
- مَزِيدٍ؟ ٤٦٤
- فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَذَرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ ٣٧٥
- فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي ٣٩٩
- فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدْ مَوْنِي! وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ ٤٢١
- فَاتَا اللَّيْلَةَ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ٣١
- فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْقَبِيلِ نَسِينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا ٥٢٦
- فَهُوَ بَيْنَهُ فَوْزٌ رُفَاهَا سَوَاءٌ ٤٤٢
- فَهُوَ بَيْنَهُ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ٤٤١
- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْحَنَافِ: أَنْتَ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ ٢٥٢، ٣٦٤
- الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ٣٨٧
- قُلْتُ لَأَيِّ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ ٥٢٩
- قُمْ فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا ٥٧٦
- كَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ ٦٨
- كَانَ النَّبِيُّ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يُفْطِرُ ٣٧٥
- كَانَ مِنْ هَذِهِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ يَكْتَبُونَ كُلَّمَا عَلَوْا نَشْرًا ٢٦٣
- كَتَبَ اللَّهُ مُقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤٨١
- الْكُرْبِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ ٣٩٧
- كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً ٤١٤
- كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِإِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَهْبَرُ ٢٥٦
- كُلُّ نَبِيٍّ آدَمَ حَطَاءً، وَخَيْرُ الْخَطَايَا التَّوَابُونَ ٥٤٤

- كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ٥٣٧
- كَلِمَاتُ يَدَيْهِ يَمِينٌ ٢٢١
- كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ مُخْلِيًا بِهِ ٣٧٧
- كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ،
- تَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ٤٣٧
- كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ٥٣٩
- كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ، فَخَيَّرَ أَبَا بَكْرٍ،
- ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ٥٢٩
- لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مَثَلُنَا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ
- مِنْ أَمْرِي ٣٣٩
- لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ٥٧١
- لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ
- مَزِيدٍ ٣٥٧
- لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ ٣٩
- لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ
- أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُخْدُ ذَهَبًا ٥٤٥
- لَا تَعْجَبُونَ! هَؤُلَاءِ قَوْمٌ انْقَطَعَتْ أَعْمَالُهُمْ بِمَوْتِهِمْ ٥١٦
- لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ! ٦١١
- لَا وَمَقْلَبِ الْقُلُوبِ ٦٣
- لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَاجِرَهُمْ يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا
- يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ٣٨٩
- لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ ٥٩٦
- لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ٥٢٥
- لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ٥٨٤
- لَا، بَلْ فِيهَا جَفَّتْ بِهِ الْأَفْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ ٤٨٠
- لَيْبِكَ وَسَعْدَيْكَ ٣٦٠
- لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ
- عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ٥٧٤
- لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ٣٣٩
- لِلَّهِ أَشَدُّ قَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَأْسِهِ ٣٤٩
- لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ ٤٥٩
- لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ الْقَلَمُ: مَاذَا
- أَكْتُبُ؟ ١٤٦
- لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ ١٣٦
- لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِيبْ
- دَمًا حَرَامًا ١٩٤
- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ، وَانْقِصْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ ٤٦٣
- اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ٢٩٦
- اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّيْعِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ
- الْعَرْشِ الْعَظِيمِ! رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ٣٦٩
- اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ! فَاطِرَ
- السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ٤٦
- اللَّهُمَّ فَهِّمْنِي فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْنِي التَّأْوِيلَ ٦٦
- اللَّهُمَّ! إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غَيْرُكَ عَنْ
- سُقْيَاكَ ٢٨٧
- اللَّهُمَّ! جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا ٢٥٦
- لَوْ أَعْلَمَ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي بَكِتَابِ اللَّهِ تَبْلُغُهُ
- الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ ٦٠١
- لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ١٧٦
- لَوْ لَا أَنَا لَتَدَاغَتْ لَكَ عَوْتُ اللَّهِ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ
- عَذَابِ الْقَبْرِ ٤٢٠
- لَوْ لَا يَدُكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجَنَّتْكَ ٢٢٤
- لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، إِنَّمَا الْوَاصِلُ مَنْ إِذَا فُطِعَتْ
- رَجْهُ وَصَلَهَا ٥٩٢
- لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ وَلَطَمَ الْحُدُودَ وَدَعَا
- بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ٥٨٨

مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ٢٦٣
 مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ
 الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ ١١٦
 مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ٥٩٧
 مَن نَّازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذْبَتُهُ ٦٢
 مَن يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ١٦٢
 نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ
 مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ٤٥٤
 نَعَمْ. لِمَا سُئِلَ: هَلْ كَانَ آدَمُ نَبِيًّا؟ ٤٦٠
 نِعِمَّتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ ٥٦٥
 هَذَا أُخَذَ جَبَلٌ مُّحِبُّنًا وَنُجْبَةً ٣٢٢
 هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ ١٧٧
 هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبَعٌ دَمِيئَةٌ ٢٠٢
 هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ٥١
 هُوَ الرَّجُلُ نُصِيبُهُ الْمُصِيبَةَ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،
 فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ ٤٧٢
 وَإِذَا لَوِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَصِيْقِهِ ١٧٣
 وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ٣٤٢
 وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّوْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ
 الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٣٥٧
 وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ ٤٣٨
 وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ٥٥
 وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ
 يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ٣٦٥
 وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ ٢٨٥
 وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ٥٩٨
 وَاللَّهُ! مَا خَلَقْتَ الْقَصُوءَ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ٥٢٤
 وَالنُّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ٥٨٤

لَيْسَتْ السَّنَةُ إِلَّا تُمَطَّرُوا، إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمَطَّرُوا وَلَا
 تَنْتَبُتِ الْأَرْضُ شَيْئًا ١٤٤
 مَا الْإِحْسَانُ؟ ١٦٥
 مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنْ
 الدَّجَالِ ٤١٣
 مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبُ
 الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ اخْتِدَافٍ ٥٠٥
 مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ
 سَيُورَثُهُ ٥٩٨
 مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ
 أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا ٤٦٣
 مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا
 حَظٌّ أَلَّاهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ ٥٤٦
 مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَهُ تَرْجُحَانٌ ٣٦١
 مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ
 وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ ٣٢٦
 مَا نَزَلَ الرَّسُولُ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لَحْيَتَيْهِ ﷺ ٤٤
 مَطَهْرَةٌ لِلْفَمِ مَرْصَافٌ لِلرَّأْيِ ٣٤٣
 مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخِزَ عَيْنُ النَّارِ ١٦٧
 مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ اللَّهُ بِهِ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ ١٢٤
 مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ
 الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا خَيْرٌ ٤٥٥
 مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئًا حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ
 مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٥٦٦
 مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ٣٧٨
 مَنْ صَنَعَ الْيَكْمَ مَعْرُوفًا فَكَافَرْتُهُ ٤٧٢
 مَنْ صَنَعَ الْيَكْمَ مَعْرُوفًا فَكَافَرْتُهُ ٥٩٢

يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّجَلْ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، يَقُولُ:
 أَنَا اللَّهُ ١٥٦
 يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى
 تُزَلَّفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ٤٦١
 يَدُ اللَّهِ مَلَأَى سَحَاءً ٢١٨
 يَسْرًا وَلَا تُعْصِرًا، وَيَسْرًا وَلَا تُنْفَرًا، وَتَطَوَّعًا وَلَا
 تَحْتَلِفًا ٥٨٢
 يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ١٧٤
 يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ،
 كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ٣٥٢
 يَطُوفُ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ
 إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ ٤٨
 يَطْوِي اللَّهُ تَعَالَى السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ وَالْأَرْضَ بِيَدِهِ
 الْآخَرَى ٢٢١
 يُقَالُ لِنَفْسِ الْمُؤْمِنِ: أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ
 إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ٤٢٣
 يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ ١٩
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ
 إِعَادَتِهِ ٤٢٨
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي .. ١٧٢
 يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: اكْتُبُوا كِتَابَ عِبْدِي فِي
 سَجِّينَ ٤٧
 يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّاءِ الدُّنْيَا ٣٩٥، ٣٤٢، ٧٠
 يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ ٦١١

وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادِي بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ
 الْحَلَائِقِ ٤٤٧
 وَإِنِّي وَاللهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ ٤٤٨
 وَسَتَقَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،
 كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ٣٨
 وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّزَلِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ٤٦٢
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ١٩
 وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا
 وَوِزْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٢٧
 وَمِنْتِرِي عَلَى حَوْضِي ٤٤٨
 وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ٤٦٤
 وَنَبَّحَ عَمَّارًا تَفَنَّلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ ٥٤٣
 يَا أَهْرَابِي! إِنْ يُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَصَبْتَ فِيهَا مَا
 اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ٣٣٢
 يَا رَبِّ! وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تَسْعُ
 مِئَةً وَتِسْعَةً وَتِسْعُونَ ٣٦١
 يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْضَحَكَ رَبُّنَا؟ قَالَ: نَعَمْ ٣٥٤
 يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ نَظَرْتُ أَحَدَهُمْ إِلَى قَدَمِهِ لَأَبْصَرْتَنَا ٣٠٤
 يَا سَارِيَةَ! الْجَبَلُ! ٥٥٥
 يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضَرُّوْنِي ٦١٠
 يَا فُلُ أَلَمْ أَكْرِمْكَ وَأَسْوَدَكَ وَأَزْوَجَكَ وَأَسَخَّرَ
 لَكَ الْجَبَلَ وَالْإِبِلَ ٤٤٧
 يَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ! أَيْسَرْتُكُمْ أَنْتُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ؟ ٥٢٢
 يَا هَذَا! اتَّقِ اللَّهَ! وَلَا تَقْضِ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ٣٧٣

فهرسُ الفَوَائِدِ

الْفَائِدَةُ	الْصَفْحَةُ	الْفَائِدَةُ	الْصَفْحَةُ
أَسْبَابُ تَأْلِيفِ الْكِتَابِ	١٧	صِفَاتُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قِسْمَانِ: مُبْتَنًى وَمَنْفَعَةٌ	١٠٤
دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَى تَوْحِيدِ الْأَلُوْهِیَّةِ	١٧	الْصِّفَاتُ تَوْفِیْقِیَّةٌ عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ ...	١٠٥
قَسَمُ الْعُلَمَاءِ التَّوْحِيدِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ	١٨	طُرُقُ إِبْنَاتِ الصِّفَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	١٠٦
مَعْنَى الْعِبَادَةِ	٢١	هَلْ لِلَّهِ عَلَى الْكَافِرِ نِعْمَةٌ؟	١١٢
أَوَّلُ بِدْعَةٍ حَدَّثَتْ بِدْعَةُ الْخَوَارِجِ	٢٤	وَجْهٌ كَوْنُ الْإِحْلَاصِ تَعْدِيلُ ثُلُثِ الْقُرْآنِ	١١٦
إِعْرَابُ الْبَسْمَلَةِ وَمَعْنَاهَا	٢٩	مَعْنَى الصِّمْدِ	١١٨
إِتِّفَاقُ الْأَعْمِ يَسْتَلْزِمُ إِتِّفَاقَ الْأَخْصِ	٣٥	أَنَّ الْقُرْآنَ يَتَفَاضَلُ	١٢١
مَعْنَى صَلَاةِ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ	٣٦	مِنْ أَقْوَى صَبِغِ الْحَضَرِ النَّعْمِيِّ وَالْإِنْبَاءِ	١٢٢
الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ	٣٧	عُلُوُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: عُلُوُّ ذَاتٍ، وَعُلُوُّ صِفَاتٍ	١٢٧
مَعْنَى (أَمَّا بَعْدُ)	٣٧	بُطْلَانُ قَوْلِ: اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ	١٢٨
مَعْنَى (أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ)	٤٠	الْعُطْفُ يَقْتَضِي الْمَغَايِرَةَ بِالْأَعْيَانِ أَوْ بِالْأَوْصَافِ ..	١٣٤
لَا يَصِحُّ تَفْسِيرُ الْإِيهَانِ بِأَنَّهُ التَّضْدِيقُ فَقَطْ	٤٢	يَنْقَسِمُ الرِّزْقُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامٌّ وَخَاصٌّ	١٤٩
الْإِيهَانُ بِاللَّهِ يَنْقَضِمُنْ أَرْبَعَةً أَشْوَارٍ	٤٢	إِعْرَابُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾	١٥٤
الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ	٤٢	حُكْمُ نَسَبِ فِعْلِ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ	١٥٩
أَدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ	٥٠	الْإِرَادَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى: كَوْنِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ	١٦٣
تَضْعِيفُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ إِدْرِيسٌ قَبْلَ نُوحٍ	٥٠	خَطَأٌ مُقَوَّلٌ: الْإِسْلَامُ دِينُ الْمُسَاوَاةِ!	١٦٩
كَذَبَ مَنْ قَالَ: إِنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ التَّقْوِيضُ ..	٦٩	شُرُوطُ التَّوْبَةِ الْحَقْمَسَةُ	١٧٠
طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَسْلَمٌ وَأَعْلَمٌ وَأَحْكَمٌ	٧١	الصَّلَاةُ جِهَادٌ مُصَغَّرٌ	١٧٤
أَنْوَاعُ الْإِلْحَادِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ	٨٩	حُكْمُ الْاسْتِذْلَالِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى الْغَيْبِيَّاتِ ...	١٧٧
كَلِمَةُ (آيَاتٍ) أَذِلُّ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ (مُعْجَزَاتٍ)	٩٢	الرِّضَا صِفَةٌ فِي اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَشِيئَتِهِ	١٩١
تَفْسِيرُ ﴿أَعْلَمُ﴾ بِ(عَالِمٍ) خَطَأٌ	٩٨	مَسْأَلَةُ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ	١٩٦
اسْمُ الْفَاعِلِ لَا يَمْنَعُ الْمُسَاوَاةَ فِي الرَّصْفِ	٩٨	هَلْ يُوصَفُ اللَّهُ بِالْحَزْنِ وَالنَّدَمِ؟	١٩٩
الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكُذِبِ ..	١٠١	يَحْيَى صِفَةُ الْيَدِ مُفْرَدَةٌ وَمُثَنَّى وَجَمْعًا	٢٢٠

- أَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَدَيْنِ اثْنَتَيْنِ ٢٢١
- الْمَأْتِيَةُ: فِرْقَةٌ مِنَ الْمَجُوسِ ٢٢٤
- أَفْسَامُ الصَّنِ ٢٢٧
- عَقِيدَتُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَيْنَيْنِ اثْنَتَيْنِ ٢٣٠
- السَّمْعُ الْمُضَافُ إِلَى اللَّهِ فِئْمَانِ ٢٣٧
- الرُّؤْيَةُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ لَهَا مَعْنَيَانِ ٢٣٩
- مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَتْ تَوَكُّ﴾ ٢٤٥
- تَعْرِيفُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمِحَالِ ٢٤٦
- عَدَمُ تَقْلٍ مَا يُجَالِفُ دَلِيلٌ عَلَى الْإِجْمَاعِ ٢٤٧
- الْعِزَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٢٥٣
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَيَّةِ مَعَ اللَّهِ وَالْحَيَّةِ لِلَّهِ ٢٦٠
- مَعْنَى الْاِسْتِثْنَاءِ ٢٧٥
- مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ﴾ ٢٨٣
- تَفْسِيرُ: ﴿مَا أَمْنَمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ٢٩١
- أَفْسَامُ مَعِيَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ٢٩٣
- هَلِ الْمَعِيَةُ حَقِيقَةٌ؟ ٢٩٦، ٢٩٤
- اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ مَتَى شَاءَ ٣٠٧
- الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ ٣١١
- بُطْلَانُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ٣١٧
- دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْجَبَلِ إِحْسَاسًا ٣٢٢
- مَقَامُ السُّنَّةِ مَعَ الْقُرْآنِ ٣٤٢
- شُرُوطُ التَّوْبَةِ الْخَمْسَةُ ٣٥١
- هَلِ يَشْتَرِطُ لِصِحَّةِ التَّوْبَةِ أَنْ يُتُوبَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ؟ ٣٥٢
- النَّفْسُ نَفْسَانِ: مُطْمَئِنَّةٌ، شَرِيرَةٌ ٣٧١
- مَعْنَى النَّفْسِ الْوَأَمَةِ ٣٧١
- الْقَدِيمُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ٣٧٢
- الْمُقَاصَلَةُ بَيْنَ صَلَاتِي الْعَصْرِ وَالْعَجْرِ ٣٧٨
- أَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فِي الصِّفَاتِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ ٣٨٢
- طَائِفَةُ الرَّعِيدِيَّةِ تَشْمَلُ: الْمُعْتَزِلَةَ وَالْحَوَارِجَ ٣٨٤
- الْمَعِيَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مُخْتَلِطًا بِالْحَلِيِّ ٣٩٤
- هَلِ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: اللَّهُ مَعَنَا بَدَائِهِ؟ ٣٩٤
- مَرَجُلُ الْإِنْسَانِ الْخَمْسَةُ ٤١١
- الصَّغَارُ وَالْمَجَازِينُ: هَلِ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ؟ ٤١٦
- هَلِ تُسْأَلُ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ فِي قُبُورِهَا؟ ٤١٦
- هَلِ الْعَذَابُ أَوْ النَّعِيمُ فِي الْقَبْرِ دَائِمٌ؟ ٤٢٤
- كَيْفَ يُوزَنُ الْعَمَلُ؟ ٤٣٦
- خَوْصُ النَّبِيِّ ﷺ مُوجُودٌ الْآنَ ٤٤٨
- هَلِ لِلنَّبِيِّاءِ الْآخَرِينَ أَحْوَاضٌ؟ ٤٥٠
- الشَّفَاعَةُ فِئْمَانِ: بَاطِلَةٌ، وَصَحِيحَةٌ ٤٥٦
- لِلنَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ ٤٥٧
- آدَمُ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَنُوحٌ أَوَّلُ الرُّسُلِ ٤٦٠
- أَعْمَامُ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشْرَةٌ ٤٦٢
- الْعِلْمُ الْمَأْثُورُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ فِئْمَانِ ٤٦٦
- شُرُوطُ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الضَّعِيفِ ٤٦٨
- الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ مُتَبَايِنَانِ إِنْ اجْتَمَعَا افْتَرَقَا ٤٧٠
- فَوَائِدُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ ٤٧١
- الْإِرَادَةُ فِئْمَانِ: كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ ٤٧٣، ٤٨٤
- هَلِ الْمَعَاصِي مُرَادَةٌ لِلَّهِ؟ ٤٨٥
- مَقُولَةُ: اللَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَاتِهِ ٤٨٥
- كَيْفَ يَقَعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ؟ ٤٩٢
- حُكْمُ الْاِخْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ٤٩٩
- أَسْبَابُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ أَرْبَعَةٌ ٥٠٥
- أَسْبَابُ نَقْصِ الْإِيمَانِ أَرْبَعَةٌ ٥٠٦

- | | | | |
|----------|---|----------|--|
| ٥٧٥..... | شُرُوطُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ | ٥٢١..... | أَهْلُ السُّنَّةِ يَقْدُمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ |
| ٥٨٧..... | الْمُقَاضَلَةُ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ | ٥٣٩..... | الْمُقَاضَلَةُ بَيْنَ خَدِيجَةَ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا |
| ٥٨٨..... | مَقَامَاتُ الْمُصَابِينَ نُجْمَةُ الْمُصَابِ | ٥٥٢..... | التَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ |
| ٥٩٥..... | مَعْنَى يَرْ الْوَالِدَيْنِ | ٥٥٩..... | أَقْسَامُ آثَارِ الرَّسُولِ ﷺ |
| ٦٠٠..... | الرَّقْفُ بِالْمَمْلُوكِ مِنَ الْبَهَائِمِ | ٥٦٠..... | هَلِ اتِّخَاذُ الشَّعْرِ عَادَةً أَوْ عِبَادَةً؟ |
| | | ٥٦٤..... | مَحَافِظُ فَاسِدَةٍ تَسْتَلِزُّ مَهْمَا الْبِدْعَةُ |



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تقديم	٥	المراء باللهدى ودين الحق	٣١
ترجمة المؤلف	٥	المراء بالظهور	٣١
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين	٧	مناسبة كفى بالله شهيدا لقوله: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٣٢
مقدمة الشارح	١٥	معنى شهادة لا إله إلا الله	٣٣
مقدمة	١٧	معنى شهادة محمد عبده ورسوله	٣٤
أقسام التوحيد	١٨	معنى آية وصحبه	٣٦
القسم الأول: توحيد الربوبية	١٨	قوله: «وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَرِيدًا»	٣٧
كيف نجمع بين أن الرب منفرد بالخلق وبين إثبات الخلق لغير الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؟	١٩	إعراب كلمة (أَتَابَعْتُ)	٣٧
كيف نجمع بين أن الله منفرد بالملك، وبين إثبات الملك للمخلوقين؛ مثل قوله تعالى: ﴿أَوَ مَا مَلَكَتْهُمْ مَكَائِكُهُ﴾؟	٢٠	معنى الاعتقاد: في اللغة والاصطلاح	٣٨
القسم الثاني: توحيد الألوهية	٢١	تعريف الفرقة الناجية	٣٩
معنى العبادية	٢١	معنى أهل السنة والجماعة	٤٠
ما هو الدليل على أن الله منفرد بالألوهية؟	٢٢	أركان الإيمان	٤١
القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات	٢٤	الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور	٤٢
انقسام المبتدعة في أسماء الله وصفاته إلى أقسام متعددة	٢٥	الإيمان بوجود الله والأدلة عليه	٤٢
شرح مقدمة ابن تيمية	٢٩	دلالة العقل	٤٣
الكلام على التسمية	٢٩	دلالة الحس	٤٤
تفسير الحمد	٣٠	دلالة الفطرة	٤٤
المراء بالرسول	٣٠	دلالة الشرع	٤٥
		الإيمان بالملائكة	٤٥
		تعريف الملائكة: لغة واصطلاحاً	٤٥
		الإيمان بالكتب	٤٩
		الإيمان بالرسل	٥٠

- نُوحٌ أَوَّلُ الرُّسُلِ ٥٠
- آدَمُ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ ٥٠
- مُحَمَّدٌ ﷺ آخِرُهُمْ ٥٠
- نَزُولُ عِيسَى وَآلِهِ بِكُمْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ٥١
- الْجَوَابُ عَلَى مَنْ اسْتَشْكَلَ خَيْرِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ بَعِيسَى ٥١
- ابْنُ مَرْيَمَ ٥١
- الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ٥١
- الْإِيْمَانُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهِ ٥٢
- الْإِيْمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ٥٣
- وَصَفُ الْقَدَرِ بِالشَّرِّ وَالْجَوَابُ عَلَيْهِ ٥٣
- الْإِيْمَانُ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَبِمَا وَصَفَهُ ٥٥
- بِهِ رَسُولُهُ ٥٥
- الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: الْإِيْمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ٥٦
- الْمَبْحَثُ الثَّانِي: أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ .. ٥٦
- الْمَبْحَثُ الثَّلَاثُ: أَنَّنَا لَا نَصِفُ اللَّهَ بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ ٥٨
- نَفْسَهُ ٥٨
- الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: وَجُوبُ إِجْرَاءِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ ٥٨
- عَلَى ظَاهِرِهَا ٥٨
- الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: الْكَلَامُ يَشْمَلُ الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ ٥٨
- وَالْفِعْلِيَّةِ ٥٨
- الصِّفَاتِ الدَّائِيَّةِ نَوْعَانِ: مَعْنَوِيَّةٌ وَخَرِيَّةٌ ٥٩
- السَّبَبُ فِي تَسْمِيَةِ الْعُلَمَاءِ لَهَا دَائِيَّةً وَفِعْلِيَّةً ٥٩
- الْمَبْحَثُ السَّادِسُ: الْعَقْلُ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْأَسْمَاءِ ٦٠
- وَالصِّفَاتِ ٦٠
- الْعَقْلُ يُذَكِّرُ مَا يَجِبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَمْتَنِعُ عَلَى ٦١
- سَبِيلِ الْإِنْجَالِ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ ٦١
- لَيْسَ كُلُّ كِتَابٍ لِلْمَخْلُوقِ يَكُونُ كِتَابًا لِلْخَالِقِ ٦٢
- قَوْلُهُ: «وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ ٦٢
- أَنْسَامٍ ٦٣
- الْقَوْلُ ٦٣
- الْفِعْلُ ٦٣
- الْإِقْرَارُ ٦٤
- مَا وَجَّهَ وَجُوبَ الْإِيْمَانِ بِمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ ٦٤
- رَبَّهُ؟ ٦٤
- قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ» ٦٥
- التَّحْرِيفُ إمَّا لَفْظِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ ٦٥
- السَّبَبُ فِي اخْتِيَارِ الْمُؤَلِّفِ كَلِمَةَ التَّحْرِيفِ دُونَ ٦٥
- التَّأْوِيلِ ٦٥
- مَعَانِي التَّأْوِيلِ ٦٦
- الْفَرْقُ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّحْرِيفِ ٦٩
- التَّقْوِيضُ مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدْعِ ٦٩
- الْعِبَارَةُ الْكَاذِبَةُ - طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَشْلَمُ وَطَرِيقَةُ ٧١
- الْحَقْلَفِ أَغْلَمُ وَأَحْكَمُ - قَالَهَا بَعْضُ الْأَغْيَاءِ ٧١
- الْحَيَرَةُ وَالشُّكُّ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا أَهْلُ الْكَلَامِ ٧٢
- مَعْنَى التَّكْيِيفِ ٧٣
- أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُكَيِّفُونَ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَدِلَّتُهُمْ ٧٣
- لِذَلِكَ ٧٣
- الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ ٧٣
- الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ ٧٤
- كَلَامُ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَنْ كَيْفِيَةِ الْأَسْتِوَاءِ ٧٤
- مَعْنَى التَّنْزِيلِ ٧٦
- التَّنْزِيلُ مُنْتَقَبٌ سَمْعًا وَعَقْلًا وَفِطْرَةً ٧٦
- الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ، وَتَنْقَسِمُ إِلَى خَيْرٍ وَطَلَبٍ ٧٦
- الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ ٧٧
- وُجُوهُ انْتِفَاءِ الثَّابِتِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ ٧٧
- الْعَقْلِ ٧٧

- ٩٣..... معنَى الإِخَادِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ ٧٩ الدَّلِيلُ الْفِطْرِيُّ
- ٩٣..... الْقِسْمُ الثَّانِي: شَرْعِيَّةٌ ٧٩ هَلْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تُفِيدُ التَّمثِيلَ ؟
- ٩٣..... معنَى الإِخَادِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ ٧٩ حَدِيثٌ: «إِنَّكُمْ سَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ»
- ٩٤..... قَوْلُهُ: «وَلَا يَكْفُونُ وَلَا يُمَثِّلُونَ» ٧٩ الإِجَابَةُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ وَجْهَيْنِ مُجْمَلٍ
- ٩٥..... قَوْلُهُ: «لَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ» ٧٩ وَمُقْصَلٌ
- ٩٥..... قَوْلُهُ: «وَلَا سَمِيَّ لَهُ» ٨٠ حَدِيثٌ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»
- ٩٥..... قَوْلُهُ: «وَلَا كُفَّ لَهُ وَلَا يَذُّ لَهُ» ٨٠ الإِجَابَةُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ وَجْهَيْنِ مُجْمَلٍ
- ٩٦..... قَوْلُهُ: «وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ» ٨٠ وَمُقْصَلٌ
- ٩٦..... أَقْسَامُ الْقِيَاسِ ٨٢ مَا هِيَ الصُّورَةُ الَّتِي تَكُونُ لِلَّهِ وَيَكُونُ آدَمُ عَلَيْهَا ؟
- ٩٧..... قَوْلُهُ: «فَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ» ٨٣ التَّغْيِيرُ بِالتَّمثِيلِ أَوَّلَى مِنَ التَّغْيِيرِ بِالتَّشْبِيهِ
- وَجُوبُ قَبُولِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَبَرُ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ ٨٣ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّكْيِيفِ وَالتَّمثِيلِ ؟
- ٩٧..... أَوْصَافُ أَرْبَعَةٍ وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ ٨٤ قَوْلُهُ: «بَلْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ» «لَيْسَ كَمِثْلِهِ
- هَلِ الْمُرَادُ بِالْيَدَيْنِ التَّعْمَةُ أَوِ الْفُذْرَةُ ؟ ٨٤ شَيْءٌ»
- ١٠٠..... قَوْلُهُ: «ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ» ٨٦ تَعْمَرَةُ الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
- ١٠٠..... تَصْدِيقُ اللَّهِ لِرُسُلِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ٨٦ تَعْمَرَةُ الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
- ١٠١..... قَوْلُهُ: «بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ» ٨٦ قَوْلُهُ: «فَلَا يَنْفَعُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ»
- ١٠٣..... قَوْلُهُ: «وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٨٧ الصِّفَاتُ الذَّاتِيَّةُ
- ١٠٣..... أَلَمَرَّةُ» ٨٧ الصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ
- ١٠٤..... قَوْلُهُ: «فَسَبَّحْ بِنَفْسِهِ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ» ٨٨ قَوْلُهُ: «وَلَا يُحَرِّفُونَ»
- ١٠٤..... قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا وَصَفًا» ٨٨ قَوْلُهُ: «وَلَا يُلْحَدُونَ»
- ١٠٤..... الصِّفَاتُ قِسْمَانِ: صِفَاتٌ مُثْبِتَةٌ وَصِفَاتٌ مُنْثَبِتَةٌ ٨٩ الإِخَادُ ثَلَاثَةٌ
- ١٠٥..... ضَلَالٌ مَنْ رَعِمَ أَنَّ الصِّفَاتِ الْمُنْبَتَّةَ تَسْتَلْزِمُ التَّمثِيلَ ٨٩ أَنْوَاعُ الإِخَادِ
- ١٠٥..... هَلِ الصِّفَاتُ تَوْقِيفِيَّةٌ كَأَلْسَاءٍ، أَوْ هِيَ اجْتِهَادِيَّةٌ ؟ ٩٠ أَنْوَاعُ دَلَالَاتِ الْأَسْمِ
- ١٠٥..... الصِّفَاتُ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٩٢ الإِخَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ
- ١٠٦..... الطَّرِيقُ لِإثْبَاتِ الصِّفَاتِ ٩٢ التَّغْيِيرُ بِالْآيَاتِ أَحْسَنُ مِنَ التَّغْيِيرِ بِالْمُعْجَزَاتِ
- لَا يَرِدُ النَّفْيُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ ٩٢ مِنْ وَجْهِه
- ١٠٨..... أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ لِسَبَبٍ ٩٢ آيَاتُ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:
- قَوْلُهُ: «فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ ٩٢ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: كَوْنِيَّةٌ

- ١٢١..... دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَتَفَاضَلُ
- ١٢٢..... تَفْسِيرُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ
- ١٢٥..... شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ وَفَائِدَتُهَا
- ١٢٦..... الْكُرْسِيُّ مَوْضِعٌ قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ
- آيَةُ الْكُرْسِيِّ تَتَضَمَّنُ خَمْسَةَ أَسْمَاءٍ لِلَّهِ وَسِتَّةَ وَعِشْرِينَ
- ١٢٧..... صِفَةً
- عُلُوُّ اللَّهِ بِذَاتِهِ
- ١٢٨.....
- الرَّدُّ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي عُلُوِّ اللَّهِ
- ١٢٩.....
- قَوْلُهُ: «وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ...»
- ١٣٢.....
- وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»
- ١٣٣.....
- فَائِدَةُ عَجَبِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ مُقَرَّنَةً بِوَاوِ الْعَطْفِ
- أَخْيَانًا
- ١٣٤.....
- الْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ
- ١٣٤.....
- وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الَّذِي لَا يَمُوتُ»
- ١٣٦.....
- مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَلُوا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ
- ١٣٧.....
- لِمَاذَا لَمْ تَكُنِ الْآيَةُ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ»
- لَأَنَّ الْقُوَّةَ وَالْعِزَّةَ أَنْسَبُ فِيمَا يَدُورُ؟
- ١٣٧.....
- وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ الْعَلِيمُ لِلْمَكِيمِ»
- ١٣٨.....
- حُكْمُ اللَّهِ إِمَّا كَوْنِيٍّ أَوْ شَرْعِيٍّ
- ١٣٨.....
- أَنْوَاعُ الْحِكْمَةِ
- ١٣٩.....
- وَقَوْلُهُ: «الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»
- ١٤٠.....
- الْفَوَائِدُ الْمَسْلُكِيَّةُ لِلْإِيمَانِ بِالْعَلِيمِ الْخَبِيرِ
- ١٤٠.....
- وَقَوْلُهُ: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا»
- ١٤١.....
- صِفَةُ الْعِلْمِ وَالْأَدْلَةُ عَلَيْهَا
- ١٤١.....
- الآيَةُ الْأُولَى: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا»
- ١٤١.....
- الآيَةُ الثَّانِيَّةُ: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
- هُوَ»
- ١٤٢.....
- مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسَةٌ
- ١٤٣.....
- بِهِ الْمُرْسَلُونَ»
- ١٠٩.....
- مَعْنَى الْعُدُولِ
- ١٠٩.....
- كُلُّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ
- مَقْبُولٌ وَصِدْقٌ وَحِبُّ الْإِيمَانِ بِهِ
- ١٠٩.....
- الْأَحْكَامُ الَّتِي لِلرُّسُلِ السَّابِقِينَ اخْتَلَفَ فِيهَا
- الْعُلَمَاءُ، هَلْ هِيَ أَحْكَامٌ لَنَا إِذَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا
- بِخِلَافِهَا، أَوْ لَيْسَتْ أَحْكَامًا لَنَا؟
- ١١٠.....
- الطَّرِيقُ لِمَعْرِفَةِ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ
- ١١١.....
- قَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ...»
- ١١١.....
- قَوْلُهُ: «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...»
- ١١٢.....
- قَوْلُهُ: «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»
- ١١٢.....
- يَعْنِي اللَّهُ عَامَّةً وَخَاصَّةً
- ١١٢.....
- الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ
- ١١٣.....
- تَعْرِيفُ الصَّادِقِينَ
- ١١٣.....
- أَفْضَلُ الصَّادِقِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ
- ١١٤.....
- تَعْرِيفُ الشُّهَدَاءِ
- ١١٤.....
- تَعْرِيفُ الصَّالِحِينَ
- ١١٤.....
- قَوْلُهُ: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ...»
- ١١٥.....
- الْكَلَامُ عَلَى سُورَةِ الْإِنْخِلَاصِ
- ١١٥.....
- وَجْهٌ كَوْنِيٌّ تَعْدِيلُ ثَلَاثِ الْقُرْآنِ
- ١١٦.....
- سَبَبُ ثُرُوعِهَا
- ١١٧.....
- مَعْنَى اللَّهِ
- ١١٧.....
- مَعْنَى الصَّمَدِ
- ١١٨.....
- مَعْنَى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
- ١١٩.....
- سُورَةُ الْإِنْخِلَاصِ اشْتَمَلَتْ عَلَى صِفَاتٍ ثُبُوتِيَّةٍ
- وَصِفَاتٍ سُلْبِيَّةٍ
- ١٢٠.....
- قَوْلُهُ: «وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ»
- ١٢٠.....
- الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَعْظَمُ آيَةٍ
- ١٢١.....

تفسير قوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ ١٦٣

أقسام الإرادة ١٦٣

الفرق بين الإرادتين ١٦٤

الفائدة المسلكية من معرفتنا للإرادة ١٦٥

آيات صفة المحبة ١٦٥

الآية الأولى: ﴿وَأَخِيضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٦٥

الآية الثانية: ﴿وَأَقْصُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْصِطِينَ﴾ ١٦٧

الإسلام دين عدل وليس دين مساواة ١٦٩

الآية الثالثة: ﴿فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ١٦٩

المعاهدون يتقسمون إلى ثلاثة أقسام ١٦٩

الآية الرابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ١٧٠

شروط التوبة ١٧٠

الآية الخامسة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ١٧١

الآية السادسة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ١٧٢

الآية السابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِلُونَكَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانْتُهُمْ مُتْرَكِينَ﴾ ١٧٤

صفات الذين علّق الله المحبة لهم بأعمالهم ١٧٤

الآية الثامنة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ١٧٥

إضافة الشارح آية تاسعة في المحبة: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ١٧٥

أسباب تيل محبة الله ١٧٧

الآثار المسلكية للإيمان بمحبة الله ١٧٩

الرّد على من أنكّر المحبة ١٨١

آيات صفة الرحمة ١٨٢

الآية الثالثة: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ١٤٧

الآية الرابعة: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ شَاطِطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ١٤٧

مناقشة صاحب تفسير الجلالين حول قوله: «وَحَصَّ الْعَقْلُ ذَاتَهُ؛ فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ» ١٤٨

الفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة ١٤٩

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ١٤٩

صفة القوة والأدلة عليها ١٤٩

الرزق قسمان: عام وخاص ١٤٩

إذا كان الله هو الرزاق؛ فهل أسمى لطلب الرزق، أو أبقى في بيتي ويأتي الرزق؟ ١٥٠

الفائدة المسلكية من الإيمان بصفة القوة والرزق ١٥١

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ١٥٢

أقسام السميع الذي بمعنى إذراك الصوت ١٥٢

الفائدة المسلكية من هذه الآية ١٥٣

اختلاف عبارات النحويين في تحريج هذه الآية ١٥٣

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمَ الْبَظَرُ بِهِ﴾ ١٥٤

إثبات السمع والبصر لله ١٥٥

الفائدة المسلكية من الإيمان بصفتي السمع والبصر ١٥٦

آيات إثبات صفتي المشيئة والإرادة ١٥٦

الآية الأولى: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ١٥٧

الآية الثانية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَكُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقُولُ مَا يُرِيدُ﴾ ١٥٨

الآية الثالثة: ﴿أَجَلْتُ لَكُمْ هَيْمَةَ الْأَنْثَمِ إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ﴾ ١٦٠

الآية الرابعة: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِجْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ١٦١

- الآية الأولى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١٨٢
- الآية الثانية: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ١٨٢
- الفرق بين الرِّحْمَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ١٨٣
- الآية الثالثة: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ١٨٤
- الآية الرابعة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ١٨٥
- الآية الخامسة: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ ١٨٥
- الآية السادسة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْرَحِيمُ﴾ ١٨٦
- الآية السابعة: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ١٨٧
- الأدلة العقلية على ثبوت صفة الرحمة ١٨٨
- موقف الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل من صفة الرحمة ١٨٩
- ما نستفيد من الناحية المسلكية في الإبان بصفة الرحمة ١٩٠
- صفة الرِّضَا ١٩٠
- رضا الله متعلق بالعمل وبالعامل ١٩١
- الدليل العقلي على ثبوت صفة الرِّضَا ١٩١
- آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض ١٩٢
- الآية الأولى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاءُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَصِيبٌ عَلَى عُنُقِهِ وَلَعَنَهُ﴾ ١٩٢
- مسألة: هل القاتل يُخلَّد في النار؟ ١٩٣
- مسألة: إذا تاب القاتل هل يستحق الوعيد ١٩٦
- هل للقاتل توبة؟ ١٩٦
- الآية الثانية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ١٩٧
- الآية الثالثة: ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ١٩٨
- هل يوصف الله بالخزْنِ والنَّدَمِ ١٩٩
- الآية الرابعة: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ لِيُعَاقِبَهُمْ فَتَنْبَظُهُمْ﴾ ٢٠٠
- الآية الخامسة: ﴿كَبُرَ مَقْنَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٢٠١
- آيات صفة المجيء والإتيان ٢٠٢
- الآية الأولى: ﴿هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ٢٠٢
- الآية الثانية: ﴿هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ٢٠٣
- الآية الثالثة: ﴿كَلَّا إِذَا دُكِّي الْأَرْضُ دُكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ٢٠٤
- الآية الرابعة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَغُلَّتْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا﴾ ٢٠٥
- هل نعلم كيفية هذا المجيء؟ ٢٠٦
- مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم ٢٠٦
- المراد بالإتيان في قوله تعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ ٢٠٧
- الآداب المسلكية المستفادة من الإبان بصفة المجيء والإتيان لله تعالى ٢٠٧
- آيات صفة الوجه لله سبحانه ٢٠٨
- الآية الأولى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ٢٠٨
- الآية الثانية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ٢١٠
- مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم ٢١١
- هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافاً إلى الله يُراد به وجهه الذي هو صفته؟ ٢١٢
- اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَقَلَّ الشَّرُّ﴾

- وَأَلْتَرَبْتُ فَأَيْتَسَا تَوَلُّوا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ ٢١٢
- آيَاتُ صِفَةِ الْيَدَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى ٢١٤
- الآيَةُ الْأُولَى: «مَا مَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي» ٢١٤
- الآيَةُ الثَّانِيَةُ: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِئُلَّا يَمُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيضُ كَيْفَ يَشَاءُ» ٢١٦
- الْيَهُودُ يَبْحَثُهُمُ اللَّهُ يَصِفُونُ اللَّهَ تَعَالَى بِأَوْصَافِ الْعُيُوبِ ٢١٦
- عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْيَهُودِ ٢١٧
- إِبْطَالُ اللَّهِ تَعَالَى لِدَعْوَى الْيَهُودِ ٢١٨
- الْبُدَّ جَاءَتْ مُفْرَدَةً وَمُثَنًّا وَجَمْعًا وَكَيْفِيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَهَا ٢٢٠
- مُخَالِفُوا أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي إِبْثَابِ صِفَةِ الْيَدِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ ٢٢٣
- آيَاتُ صِفَةِ الْعَيْنَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى ٢٢٦
- الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: «وَاصْبِرْ لِمَكْرِ رِبِّكَ» ٢٢٦
- أَقْسَامُ الصَّبْرِ ٢٢٧
- حَدِيثُ وَصْفِ الدَّجَالِ: «إِنَّهُ أَعْوَرٌ، وَإِنَّ رِجْلَهُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» ٢٢٩
- الآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: «وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ» ٢٣٢
- لِمَاذَا عَدَلَ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْفُلُقِ وَالسَّفِينَةِ إِلَى التَّعْبِيرِ بِذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ؟ ٢٣٣
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةَ يَنْبَى» ٢٣٣
- مُخَالِفُوا أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِبْثَابِ صِفَةِ الْعَيْنِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ ٢٣٥
- آيَاتُ صِفَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِلَّهِ تَعَالَى ٢٣٦
- الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» ٢٣٦
- السَّمْعُ الْمُضَافُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٢٣٧..
- السَّمْعُ الَّذِي بَعْنَى إِذْ رَأَى الصَّوْتَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٢٣٧
- الآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ» ٢٣٨
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَأَسْمَعُ» ٢٣٨
- الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «وَإِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» ٢٣٩
- الآيَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ بِرَأْسِهِ» ٢٣٩
- الرُّؤْيُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ لَهَا مَعْنَانِ ٢٣٩
- الآيَةُ السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَدْعُونَ تَقُومُ» ٢٤٠
- الآيَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «وَقُلْ أَصْلَحُوا فَيَرَى اللَّهُ» ٢٤١
- خُلَاصَةُ مَا سَبَقَ مِنْ صِفَتِي السَّمْعِ وَالرُّؤْيِ ٢٤١
- مَا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ بِصِفَتِي السَّمْعِ وَالرُّؤْيِ ٢٤٢
- آيَاتُ صِفَةِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمِحَالِ لِلَّهِ تَعَالَى ٢٤٣
- الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» ٢٤٣
- الآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: «وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» ٢٤٤
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا» ٢٤٤
- الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا» ٢٤٤
- تَعْرِيفُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمِحَالِ ٢٤٦
- مُخَالِفُوا أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي إِبْثَابِ صِفَاتِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمِحَالِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ ٢٤٧
- مَا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ فِي إِبْثَابِ صِفَاتِ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْمِحَالِ ٢٤٧
- آيَاتُ صِفَةِ الْعَفْوِ وَالْمَغْفَرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ ٢٤٩
- الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: «إِنْ يُدْأَوْ خَيْرٌ أَوْ تَخْفَوْهُ أَوْ قَفَوْا» ٢٤٩
- الآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا» ٢٥٠
- قِصَّةُ الْإِفْكِ ٢٥٠
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ ٢٥١

- الآية الثالثة: قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ٢٥٢
- وَالْمُؤْمِنِينَ ٢٥٣
- أقسام العِزَّة ٢٥٤
- الآية الرابعة: قَوْلُهُ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُخَيِّبُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٢٥٥
- مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ فِي الْعَفْوِ وَالصَّحِيحِ ، وَالْعِزَّة ٢٥٦
- إثبات الاسم لله ٢٥٦
- قَوْلُهُ: ﴿بِذَلِكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْمَلِكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ٢٥٧
- آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي النثل عنه ٢٥٧
- الآية الأولى: قَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَذَابِهِ﴾ ٢٥٧
- الآية الثانية: قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ٢٥٩
- الآية الثالثة: قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ ٢٥٩
- الآية الرابعة: قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ ٢٦٠
- الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله ٢٦٠
- مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ مِنَ الْآيَاتِ ٢٦٠
- الآية الخامسة: قَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ٢٦١
- مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ ٢٦٣
- الآية السادسة: قَوْلُهُ: ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ٢٦٤
- التسبيح نوعان ٢٦٤
- الآية السابعة والثامنة: قَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ ٢٦٥
- مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ ٢٦٦
- الآية التاسعة والعاشرية: قَوْلُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ٢٦٧
- مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ ٢٦٩
- الآية الحادية عشرة: قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا إِلَهًا﴾ ٢٦٩
- الفائدة المسلكية من هذه الآية ٢٧١
- الآية الثانية عشرة: قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ ٢٧١
- الفائدة المسلكية من هذه الآية ٢٧٣
- استيواء الله على عرشه ٢٧٣
- الموضع الأول: في سورة الأعراف ٢٧٣
- تعريف العرش في اللغة ٢٧٤
- تفسير الاستيواء عند السلف ٢٧٥
- تفسير الاستيواء عند أهل التعطيل ٢٧٥
- استدلال أهل التعطيل ٢٧٥
- الرد عليهم ٢٧٦
- معنى الجِسم ٢٧٨
- معنى الحد ٢٧٨
- خلاصة رد أهل السنة والجماعة على أهل التعطيل ٢٧٩
- خبر أبي المعالي الجويني مع أبي العلاء الهمداني ٢٧٩
- الموضع الثاني: في سورة يونس ٢٨٠
- الموضع الثالث: في سورة الرعد ٢٨٠
- الموضع الرابع: في سورة طه ٢٨٠
- الموضع الخامس: في سورة الفرقان ٢٨١
- الموضع السادس: في سورة الم سجد ٢٨١
- الموضع السابع: في سورة الحديد ٢٨١
- أصل مادة (س.و.ي) ٢٨١
- أوجه هذه المادة ٢٨١
- إثبات علو الله على مخلوقاته ٢٨٣
- الآية الأولى: قَوْلُهُ: ﴿يُعِيسِي إِيَّيْ مُتَوَفِّكَ وَرَأْسَكَ إِلَيْكَ﴾ ٢٨٣
- ذكر العلماء فيها ثلاثة أقوال ٢٨٣

- أَصْلًا..... ٢٩٦
- الْوَجْهَ الثَّالِثُ: لَوْ تَعَدَّرَ أَجْبَاعُهَا فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ؛
- لَمْ يَكُنْ مُتَعَدِّرًا فِي حَقِّ الْخَالِقِ..... ٢٩٦
- تَنْبِيْهُ: كُلُّ الصَّمَائِرِ فِي الْآيَةِ تَعَوُّدٌ إِلَى اللَّهِ
- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..... ٢٩٧
- الْمَبْحَثُ السَّادِسُ: فِي شُبْهَةِ الْقَائِلِينَ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا
- وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ..... ٢٩٨
- آيَاتُ الْمَعِيَةِ..... ٣٠٠
- الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾..... ٣٠٠
- الآيَةُ الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾..... ٣٠٠
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾..... ٣٠١
- الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾..... ٣٠٣
- الآيَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾..... ٣٠٣
- الآيَةُ السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
- الصَّابِرِينَ﴾..... ٣٠٤
- الآيَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿كَمْ مِنْ فَتْرَةٍ قَبْلِكَ﴾..... ٣٠٥
- الشَّمَرَاتُ الَّتِي تَسْتَقْبِلُهَا بِأَنَّ اللَّهَ مَعَنَا..... ٣٠٦
- إثْبَاتُ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى..... ٣٠٦
- الآيَةُ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
- حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾..... ٣٠٦
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِىَ ابْنَ
- مَرْيَمَ﴾..... ٣٠٧
- الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَوَسَّتُ كَلِمَةً رَبِّكَ﴾..... ٣٠٨
- الآيَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾..... ٣٠٨
- الآيَةُ السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿فِيهِمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾..... ٣٠٩
- الآيَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا
- وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾..... ٣٠٩
- الآيَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾..... ٣٠٩
- الْعُلُوُّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عُلُوٌّ مَغْنَوِيٌّ وَعُلُوٌّ ذَاتِيٌّ. ٢٨٤
- أَوَّلُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الذَّاتِيٌّ..... ٢٨٤
- أَوَّلًا: الْكِتَابُ..... ٢٨٤
- ثَانِيًا: السُّنَّةُ..... ٢٨٥
- ثَالِثًا: الْإِجْمَاعُ..... ٢٨٦
- رَابِعًا: الْعَقْلُ..... ٢٨٦
- خَامِسًا: الْفِطْرَةُ..... ٢٨٧
- مُخَالِفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ..... ٢٨٨
- الآيَةُ الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾..... ٢٨٩
- الآيَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾..... ٢٨٩
- الآيَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿يَهْتَمُّنَ ابْنُ بَنِي صَرِمًا﴾..... ٢٨٩
- الآيَةُ الْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أَمِئْتُمْ مَنْ فِي
- السَّمَاءِ﴾..... ٢٩٠
- إشْكَالٌ حَوْلَ (فِي) وَجَوَابِ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ..... ٢٩١
- الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلَيْهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي
- الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ وَقَوْلَيْهِ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
- الْأَرْضِ﴾..... ٢٩٢
- الْفَوَائِدُ الْمَسْلُوكَةُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ..... ٢٩٣
- إثْبَاتُ مَعِيَةِ اللَّهِ لِحَلْفِهِ فِيهِ مَبَاحٌ..... ٢٩٣
- الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: فِي أَقْسَامِهَا..... ٢٩٣
- الْمَبْحَثُ الثَّانِي: هَلِ الْمَعِيَةُ حَقِيقَةٌ أَوْ هِيَ كِتَابِيَّةٌ؟..... ٢٩٤
- الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: هَلِ الْمَعِيَةُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ
- أَوْ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ؟..... ٢٩٥
- الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: هَلِ الْمَعِيَةُ حَقِيقَةٌ أَوْ لَا؟..... ٢٩٦
- الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: هَلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعُلُوِّ تَنَاقُضٌ
- وَالْجَوَابُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِ..... ٢٩٦
- الْوَجْهَ الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَهُمَا..... ٢٩٦
- الْوَجْهَ الثَّانِي: لَيْسَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَةِ تَعَارُضٌ

- الآية التاسعة: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ رِبَّكَ مُوسَى﴾ ٣١٠
- الآية العاشرة: قَوْلُهُ: ﴿وَتَادِعُهَا رَجَبًا﴾ ٣١٠
- الآية الحادية عشرة: قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ٣١٠
- إثبات أن القرآن كلام الله ٣١١
- محنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ٣١١
- الآية الأولى: قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ أَحَدٌ مِنَ الشِّرْكِ يَكُتِبُ﴾ ٣١٢
- استنكاره ٣١٢
- عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن وأدلتهم ٣١٣
- على ذلك ٣١٣
- الدليل السمي ٣١٣
- الدليل العقلي ٣١٤
- قَوْلُهُمْ: «وَاللَّهِ يَعُودُ» فِي مَعْنَاهُ وَجْهَانِ ٣١٤
- مخالفة المعتزلة لأهل السنة والجماعة وأدلتهم ٣١٦
- والرد عليهم ٣١٦
- الآية الثانية: قَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ٣١٨
- كَلَّمَ اللَّهُ ٣١٨
- الآية الثالثة: قَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ﴾ ٣١٨
- الله ٣١٨
- الآية الرابعة: قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ﴾ ٣١٩
- الآية الخامسة: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ٣٢٠
- إثبات أن القرآن منزل من الله تعالى ٣٢٠
- الآية الأولى: قَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ٣٢٠
- الآية الثانية: قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ٣٢١
- الرد على الثنيتين للمجاز ٣٢٢
- الآية الثالثة والرابعة والخامسة: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا﴾ ٣٢٣
- بَدَلْنَا آيَاتِ مَكَاتٍ ٣٢٣
- ما نستفيد من الناحية المسلكية من هذه الآيات ٣٢٨
- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ٣٢٨
- الآية الأولى: قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ﴾ ٣٢٨
- نَاطِقَةٌ ٣٢٨
- الآية الثانية: قَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْأَرْبَابِ يُنْظَرُونَ﴾ ٣٣٠
- الآية الثالثة: قَوْلُهُ: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمَ زِيَادَةٌ﴾ ٣٣١
- الآية الرابعة: قَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ٣٣٢
- إضافة الشارح لآية خامسة استدل بها الشافعي ٣٣٣
- مخالفو أهل السنة والجماعة في إثبات الرؤية، وأدلتهم ٣٣٤
- الدليل الأول والرد عليه من وجوه ٣٣٤
- الدليل الثاني والرد عليه ٣٣٥
- أدلة نفاة الرؤية العقلية والرد عليهم ٣٣٦
- ما نستفيد من الناحية المسلكية من هذه الآيات ٣٣٦
- قوله: «وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ...» ٣٣٧
- فصل في سنة رسول الله ﷺ ٣٣٩
- السنة لغة واصطلاحًا ٣٣٩
- قَوْلُهُ: «فَالسُّنَّةُ تَقْسَمُ الْقُرْآنَ وَبُيِّنَتْ...» ٣٤٠
- قَوْلُهُ: «وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّجَلٌ مِنْ» ٣٤٢
- الأحاديث الصحاح ٣٤٢
- موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث ٣٤٣
- المخالفة لأهوائهم ٣٤٣
- فصل في أحاديث الصفات ٣٤٥
- الحديث الأول: في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا ٣٤٥
- مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم ٣٤٦
- أقوال علماء أهل السنة في خلو الله من العرش ٣٤٧
- قوائد الحديث ٣٤٨
- القوائد المسلكية من هذا الحديث ٣٤٩
- الحديث الثاني: في إثبات الفرج ٣٤٩

- فَوَائِدُ الْحَدِيثِ ٣٥٠
- الفوائدُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٥٠
- شُرُوطُ التَّوْبَةِ ٣٥١
- هَلْ يَشْتَرِطُ لِصِحَّةِ التَّوْبَةِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ؟ ٣٥٢
- الحديثُ الثالثُ: في إثباتِ الصَّحاحِ ٣٥٢
- مُحَالِفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ ٣٥٣
- الْفَائِدَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٥٤
- الحديثُ الرَّابِعُ: في إثباتِ الْعَجَبِ وَصِفَاتِ أُخْرَى ٣٥٥
- أَسْبَابُ الْعَجَبِ ٣٥٥
- الْصِّفَاتُ الَّتِي تَصْمَنُهَا هَذَا الْحَدِيثُ ٣٥٦
- الْفَائِدَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٥٦
- الحديثُ الْخَامِسُ: في إثباتِ الرَّجُلِ أَوْ الْقَدَمِ ٣٥٧
- الْصِّفَاتُ الَّتِي تَصْمَنُهَا هَذَا الْحَدِيثُ ٣٥٨
- مُحَالِفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ ٣٥٩
- الْفَائِدَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٦٠
- الحديثُ السَّادِسُ: في إثباتِ الْكَلَامِ وَالصَّوْتِ ٣٦٠
- الحديثُ السَّابِعُ: في إثباتِ الْكَلَامِ وَالصَّوْتِ ٣٦١
- الفَوَائِدُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ ٣٦٢
- الحديثُ الثَّامِنُ: في إثباتِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ وَصِفَاتِ أُخْرَى ٣٦٢
- الحديثُ التَّاسِعُ: في إثباتِ الْعُلُوِّ أَيْضًا ٣٦٤
- سَبَبُ الْحَدِيثِ ٣٦٥
- الحديثُ الْعَاشِرُ: في إثباتِ الْعُلُوِّ أَيْضًا ٣٦٥
- الْفَائِدَةُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٦٦
- الحديثُ الْحَادِي عَشَرَ: في إثباتِ الْعُلُوِّ أَيْضًا ٣٦٦
- الحديثُ الثَّانِي عَشَرَ: في إثباتِ الْمَعِيَةِ ٣٦٧
- الحديثُ الثَّالِثُ عَشَرَ: في إثباتِ كَوْنِ اللَّهِ قَبْلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي ٣٦٨
- الْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي السَّمَاءِ وَأَنَّهُ أَمَامَ وَجْهِ الْمُصَلِّي ٣٦٩
- مَا يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ النَاحِيَةِ الْمُسْلِكِيَّةِ ٣٦٩
- الحديثُ الرَّابِعُ عَشَرَ: في إثباتِ الْعُلُوِّ وَصِفَاتِ أُخْرَى ٣٦٩
- أَقْسَامُ النَّفْسِ ٣٧١
- أَهْلُ الْفَلَسُفَةِ يُسَمُّونَ اللَّهَ: الْقَدِيمَ ٣٧٢
- الْأَسْمَاءُ وَالْصِّفَاتُ الَّتِي تَصْمَنُهَا هَذَا الْحَدِيثُ ٣٧٣
- الْفَوَائِدُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٧٤
- الحديثُ الْخَامِسَ عَشَرَ: في إثباتِ قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى ٣٧٤
- مَا يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٧٥
- الْفَوَائِدُ الْمُسْلِكِيَّةُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ٣٧٦
- الحديثُ السَّادِسَ عَشَرَ: في إثباتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ ٣٧٦
- الْصِّفَاتُ الَّتِي تَصْمَنُهَا هَذَا الْحَدِيثُ ٣٧٨
- فَضْلُ: مَكَانَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ فِرْقِ الْأُمَّةِ وَأَنْصَافِهِمْ بِالْوَسْطِيَّةِ ٣٨٠
- الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: بَابُ الْأَسْمَاءِ وَالْصِّفَاتِ ٣٨١
- الْأَصْلُ الثَّانِي: أَعْمَالُ اللَّهِ ٣٨٢
- انْقِسَامُ النَّاسِ فِي بَابِ الْقَدَرِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٣٨٣
- الْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْوَعِيدُ ٣٨٤
- الْمُرْجَةُ ٣٨٤
- الْوَعِيدَةُ ٣٨٤
- الْأَصْلُ الرَّابِعُ: أَسْمَاءُ الْإِيمَانِ وَالذِّينِ ٣٨٥
- الْأَصْلُ الْخَامِسُ: الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٣٨٧
- الرَّوَافِضُ ٣٨٨
- الْحَوَارِجُ ٣٨٨

- فَصَلِّ فِي قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِجَابَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَافِي
عُلُوَّهُ وَقَوْفِيَّتَهُ ٣٩٩
- الْأِدْلَةُ عَلَى قُرْبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ عِبَادِهِ ٣٩٩
- تَقْسِيمُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ قُرْبُ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى
قِسْمَيْنِ كَالْمَعِيَّةِ وَمُنَاقَشَةُ هَذَا الْقَوْلِ ٤٠٠
- قَوْلُهُ: «كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾
..... ٤٠١
- قَوْلُهُ: «وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ
لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَقَوْفِيَّتِهِ ..» ٤٠١
- فَصَلِّ فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً ٤٠٢
- قَوْلُهُ: «فَصَلِّ: وَمَنْ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَكُنْهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ
الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ» ٤٠٢
- قَوْلُهُ: «وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً» ٤٠٣
- تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ ٤٠٣
- قَوْلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي اللَّفْظِ ٤٠٣
- قَوْلُهُ: «وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ هُوَ
كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً ..» ٤٠٤
- قَوْلُهُ: «وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ
كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ» ٤٠٥
- قَوْلُهُ: «بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ;
لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى
حَقِيقَةً ..» ٤٠٥
- قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْخُرُوفُ دُونَ الْمَعَانِي» ٤٠٦
- قَوْلُهُ: «وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْخُرُوفِ» ٤٠٧
- فَصَلِّ: فِي الْإِيمَانِ بِرُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمَوَاضِعِ الرُّؤْيَا ٤٠٨
- قَوْلُهُ: «فَصَلِّ: وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُنْهِ» ٤٠٨
- فَصَلِّ: فِي الْمَعِيَّةِ وَبَيَانِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عُلُوِّ اللَّهِ
وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ٣٩٠
- الْأِدْلَةُ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ ٣٩٠
- قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانُهُ مَعَهُمْ أَيَّمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا
هُمْ عَامِلُونَ» ٣٩١
- أَقْسَامُ الْمَعِيَّةِ ٣٩١
- قَوْلُهُ: «كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾
..... ٣٩٢
- وُجُوهُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ ٣٩٢
- قَوْلُهُ: «وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ
مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ» ٣٩٢
- قَوْلُهُ: «فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللَّغَةُ» ٣٩٣
- قَوْلُهُ: «وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ،
..... ٣٩٣
- قَوْلُهُ: «بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ
مَخْلُوقَاتِهِ، ..» ٣٩٣
- تَقْرِيرُ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَعِيَّةَ حَقٌّ
عَلَى حَقِيقَتِهَا ٣٩٤
- سُؤَالٌ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: هُوَ مَعَنَا بِذَاتِهِ؟ ٣٩٤
- قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانُهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى
خَلْفِهِ، مُهَيِّمٌ عَلَيْهِمْ، ..» ٣٩٥
- قَوْلُهُ: «وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ أَنَّهُ
فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا؛ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، ..» ٣٩٥
- قَوْلُهُ: «وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظَّنِّ الْكَاذِبَةِ» ٣٩٦
- قَوْلُهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ» ٣٩٦
- قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي «يُمِيتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ
تَزُولَا» ٣٩٧

- قوله: «عَيْنًا بِأَبْصَارِهِمْ»..... ٤٠٨
- قوله: «كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُوتَهَا سَحَابٌ»..... ٤٠٨
- قوله: «يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتٍ الْقِيَامَةِ»..... ٤٠٩
- أَخْنَأَسَ النَّاسِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ..... ٤٠٩
- قوله: «ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى»..... ٤١٠
- فَضَّلَ: فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ..... ٤١١
- قوله: «فَضَّلَ: وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ...»..... ٤١١
- حُكْمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ..... ٤١١
- لِلْإِنْسَانِ خَمْسَ مَرَاجِلَ وَالْأَدْلَةُ عَلَيْهِ..... ٤١١
- قوله: «فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَيُعَذِّبُ الْقَبْرَ وَنَعِيمِهِ»..... ٤١٣
- الْمُرَادُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَالْأَدْلَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ..... ٤١٣
- قوله: «فَأَمَّا الْفِتْنَةُ: فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ»..... ٤١٤
- تَفْصِيلُ الْمَسْأَلَةِ فِي فِتْنَةِ النَّاسِ عَامَّةً فِي الْقَبْرِ..... ٤١٤
- أَوَّلًا: الْأَنْبِيَاءُ..... ٤١٤
- ثَانِيًا: الصُّدُيقُونَ..... ٤١٥
- ثَالِثًا: الشُّهَدَاءُ..... ٤١٥
- رَابِعًا: الْمُرَاطِبُونَ..... ٤١٥
- خَامِسًا: الصَّغَارُ وَالْمَجَانِينُ..... ٤١٦
- تَنْبِيْهُ فِي فِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِ..... ٤١٦
- هَلْ تُسْأَلُ الْأَمْمُ السَّابِقَةُ فِي قُبُورِهَا..... ٤١٦
- الْفِتْنَةُ لَا تَكُونُ حَتَّى يُدْفَنَ الْمَيِّتُ..... ٤١٦
- قوله: «فَيُحَالُ لِلرَّجُلِ»..... ٤١٦
- اسْمُ الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَأْتِيَانِ الْإِنْسَانَ فِي قَبْرِهِ..... ٤١٧
- الْأَسْئَلَةُ الَّتِي تُوجَّهُ لِلْمَيِّتِ..... ٤١٨
- قوله: «مَنْ رَبُّكَ؟»..... ٤١٨
- قوله: «مَا دُنْتُكَ؟»..... ٤١٨
- قوله: «فَ» يُخَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِيَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ..... ٤١٨
- الْقَوْلُ الثَّانِي هُوَ التَّوْحِيدُ..... ٤١٨
- قوله: «فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَ مُحَمَّدٌ نَبِيِّ»..... ٤١٩
- قوله: «وَأَمَّا الْمُرْتَابُ، فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ! لَا أَذْرِي...»..... ٤١٩
- قوله: «فِيضْرَبُ بِمِزْرَتِهِ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ»..... ٤٢٠
- الْحِكْمَةُ فِي عَدَمِ سَمَاعِ الْإِنْسَانِ لِعَذَابِ الْقَبْرِ..... ٤٢٠
- تَنْبِيْهُ..... ٤٢١
- قوله: «ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ»..... ٤٢١
- النَّعِيمُ أَوْ الْعَذَابُ: هَلْ هُوَ عَلَى الْبَدَنِ أَوْ عَلَى الرُّوحِ أَوْ يَكُونَا عَلَى الْبَدَنِ وَالرُّوحِ جَمِيعًا؟..... ٤٢١
- الْأَدْلَةُ فِي إِنْثَابِ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ فِي الْقَبْرِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ..... ٤٢٢
- الْأَدْلَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ..... ٤٢٢
- الْأَدْلَةُ مِنَ السُّنَّةِ..... ٤٢٣
- الْإِجْمَاعُ..... ٤٢٣
- هَلِ الْعَذَابُ أَوْ النَّعِيمُ دَائِمٌ فِي الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ؟..... ٤٢٤
- كَيْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ عَلَى مَنْ تَمَرَّقَ أَوْصَالَ أَوْ أَكَلَتْهُ السَّعَابُ أَوْ ذَرَّتْهُ الرِّيَّاحُ؟..... ٤٢٤
- كَيْفَ يَوْسَعُ لِلْمَيِّتِ مَدَّ الْبَصَرِ وَهُوَ يُدْفَنُ فِي قَبْرِ صَبِيٍّ؟..... ٤٢٥
- كَيْفَ تَحْتَلِفُ أَضْلَاعُ الْمَيِّتِ الْكَافِرِ وَنَحْنُ لَا نَرَى ذَلِكَ؟..... ٤٢٥
- إِنْكَارُ الْفَلَاسِفَةِ إِبْجَاسِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمَيِّتِ..... ٤٢٥

الأمر السادس: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «تَشْرِ
الدَّوَابِّ» ٤٤٠
الهِمَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٤٤١
قوله: «فَاخِذْ كِتَابَهُ يَمِينِهِ» ٤٤٣
قوله: «أَوْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» ٤٤٣
قوله: «كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ
أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَقْوِهِ. وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا﴾» ٤٤٤
الأمر السابع: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُ
الْحَقْلَاتِيقَ» ٤٤٤
الدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْعَقْلُ ٤٤٥
هَلْ تَشْمَلُ الْمُحَاسَبَةُ الْبَهَائِمَ؟! ٤٤٦
قوله: «وَيُخْلَوُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيَقْرَرُهُ بِذُنُوبِهِ» ٤٤٦
قوله: «كَمَا وَصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» ٤٤٧
قوله: «وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مِنْ
تُورَنُ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ» ٤٤٧
تَنْبِيهِ فِي قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُحَاسَبَةٌ مَنْ تُورَنُ
حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ» ٤٤٧
فائدة: أَوَّلُ مَا مُحَاسَبَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنَ الْأَعْمَالِ
الصَّلَاةُ ٤٤٨
الأمر الثامن: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «الْحَوْضُ» ٤٤٨
الْكَلَامُ عَلَى الْحَوْضِ مِنْ عِدَّةٍ وَجُوهٍ ٤٤٨
الأمر التاسع: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «الصِّرَاطُ» ٤٥٠
اِخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي كَيْفَةِ الصِّرَاطِ ٤٥٠
قوله: «يَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ» ٤٥١
قوله: «فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ٤٥٢
قوله: «فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ، وَفَقُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ
الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» ٤٥٣

فَضْلٌ: فِي الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى ٤٢٧
قوله: «إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى» ٤٢٧
الأمر الأول: مِمَّا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ «إِعَادَةُ الْأَزْوَاجِ
إِلَى الْأَجْسَادِ» ٤٢٧
الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ إِعَادَةٌ، وَلَيْسَ تَجْدِيدًا، مِنَ
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَقْلِ ٤٢٨
قوله: «وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ
وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ» ٤٢٩
قيامُ السَّاعَةِ وَالْأَوَّلَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ
وَالْكِتَابِ السَّامَوِيِّ وَالْعَقْلِ ٤٢٩
الأمر الثاني: مِمَّا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ «قيامُ النَّاسِ مِنْ
قُبُورِهِمْ» ٤٣٠
الأمر الثالث: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «دُثُو الشَّمْسِ
مِقْدَارَ مِيلٍ» ٤٣٢
سُؤَالٌ: هَلْ أَحَدٌ يَسْلَمُ مِنَ الشَّمْسِ؟ ٤٣٣
الأمر الرابع: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «عَرَقُ النَّاسِ
بِالْعَرَقِ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ» ٤٣٣
هَلْ تَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْمَعُ مَنْ يُلْجِئُهُمْ
الْعَرَقُ فِي مَكَانٍ؟ ٤٣٤
الأمر الخامس: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «نَضْبُ
الْمَوَازِينِ» ٤٣٤
مُخَالَفَةُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مِيزَانٌ
جَسَدِيٌّ ٤٣٥
كَيْفَ يوزَنُ الْعَمَلُ، وَالْعَمَلُ وَصِفٌ قَائِمٌ بِالْعَامِلِ،
وَلَيْسَ جَسَدِيٌّ فَيُوزَنُ؟! ٤٣٦
الْجَمْعُ بَيْنَ النَّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي وَزَنِ الْعَمَلِ
وَالْعَامِلِ وَالصَّحَافِيفِ ٤٣٨
قوله: «﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾» ٤٣٨

قوله: «وأصناف ما تَصَمَّتْهُ الدُّارُ الآخِرَةُ مِنْ
الحِسَابِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ» ٤٦٥
قوله: «والجَنَّةُ وَالنَّارُ» ٤٦٥
قوله: «وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة
مِنَ السَّاءِ» ٤٦٦
قوله: «والآثارُ مِنَ العِلْمِ المَأْثُورِ عَنِ الأنبياءِ» ٤٦٦
أقسام العِلْمِ المَأْثُورِ عَنِ الأنبياءِ وَحُجَّتُهُ ٤٦٦
قوله: «وفي العِلْمِ الموروثِ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنْ ذَلِكَ ما
يُشْفِي وَيُخْفِي» ٤٦٧
اختلاف العلماء في جواز العمل بالحديث الضعيف
في فضائل الأعمال ٤٦٨
تنبيه: هذا الباب ذَكَرَتْ فيه أحاديث كثيرة فيها
صَغَفٌ ٤٦٨
قوله: «فَمَنْ ابْتِغَاهُ وَجَدَهُ» ٤٦٩
فَصْلٌ: في الإيمان بالقدر ٤٧٠
قوله: «وَتَوْثُومُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ،
بِالْقَدَرِ، خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» ٤٧٠
القضاء والقدر لغة واصطلاحاً ٤٧٠
فَوَائِدُ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ ٤٧١
الحَيْرُ وَالشَّرُّ فِي الْقَدَرِ ٤٧٢
كيف يُقال: إِنَّ فِي قَدَرِ اللَّهِ شَرًّا؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ:
«الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ»؟ ٤٧٣
المَقْدُورُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَوْنِيٍّ وَشَرْعِيٍّ ٤٧٣
فَصْلٌ: في دَرَجَاتِ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ ٤٧٥
قوله: «وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ
تَتَّصِفُ بِسِتَيْنِ» ٤٧٥
- الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الإِيمَانُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ مَا خَلَقَ
عَامِلُونَ ٤٧٥

قوله: «فَيَقْتَصِرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ» ٤٥٣
قوله: «فَإِذَا هُذِبُوا وَتَقَوَّأْ؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ
الْجَنَّةِ» ٤٥٣
الأمرُ العاشرُ: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «دُخُولُ
الْجَنَّةِ» ٤٥٣
قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتَحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ» ٤٥٤
قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ» ٤٥٤
تَيْمَّةُ: «أَبْوَابُ الْجَنَّةِ» ٤٥٥
الأمرُ الحادي عشرُ: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
«الشَّفَاعَةُ» ٤٥٦
أقسام الشَّفَاعَةِ ٤٥٦
شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ ٤٥٦
شَفَاعَاتُ النَّبِيِّ ﷺ ٤٥٧
قوله: «أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى؛ فَيَسْفَعُ فِي أَهْلِ
الْمَوْفِقِ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَهُمْ ..» ٤٥٧
حديث الشَّفَاعَةِ ٤٥٨
تنبيه: قوله: «الأنبياءُ؛ آدَمُ وَنُوحٌ...» إِلَى آخِرِهِ ٤٦٠
قوله: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَسْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ
أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» ٤٦٠
قوله: «وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ» ٤٦١
شَفَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ٤٦١
أَعْمَامُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ عَشْرَةٌ ٤٦٢
قوله: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَسْفَعُ فِيْمَنْ
اسْتَحَقَّ النَّارَ ..» ٤٦٣
قوله: «وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا يَغْفِرُ شَفَاعَةً،
بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ» ٤٦٤
الأمرُ الثاني عشرُ: مِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «أَنَّهُ يَبْقَى
فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا» ٤٦٤

٤٨٦..... لِهَذَا دَلِيلٌ أَتَرَى وَدَلِيلٌ نَظَرِيٌّ.

٤٨٨..... تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿قَبَّلَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ *
الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ الْمُؤَلِّفِ: «لَا رَبَّ سِوَاهُ» وَقَوْلِهِ
٤٨٩..... ﷺ: «حَتَّى تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّهَا».....
قَوْلُهُ: «وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ
رُسُلِهِ، وَتَهَاوَمَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ»..... ٤٨٩.....
قَوْلُهُ: «وَهُوَ سُبْحَانُهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ
وَالْمُقْسِطِينَ»..... ٤٩٠.....
قَوْلُهُ: «وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»..... ٤٩٠.....
قَوْلُهُ: «وَلَا يُحِبُّ»..... ٤٩٠.....
قَوْلُهُ: «وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»..... ٤٩١.....
قَوْلُهُ: «وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»..... ٤٩١.....
قَوْلُهُ: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ»..... ٤٩٢.....
قَوْلُهُ: «وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ»..... ٤٩٢.....
كَيْفَ يَكُونُ الشَّيْءُ مَكْرُوهًا لِلَّهِ وَمُرَادًا لَهُ؟..... ٤٩٣.....
قَوْلُهُ: «وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَالِقٌ
أَفْعَالِهِمْ»..... ٤٩٤.....
قَوْلُهُ: «وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ،
وَالْمُصَلِّيُّ وَالصَّائِمُ»..... ٤٩٤.....
الْعُبُودِيَّةُ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ..... ٤٩٤.....
قَوْلُهُ: «وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ،
وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ»..... ٤٩٥.....
قَوْلُهُ: «وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ»..... ٤٩٦.....
قَوْلُهُ: «وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِنْبَاءِ...»..... ٤٩٦.....
حَدِيثُ مُحَاجَّةِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ..... ٤٩٧.....
الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ وَالْعَقْلِيُّ عَلَى بَطْلَانِ احْتِجَاجِ
العاصي بالقدرِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ..... ٤٩٩.....

٤٧٦..... الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَالْعَقْلِ.....
قَوْلُهُ: «عَلِمَ جَمِيعُ أَخْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي
وَالْأَزْوَاقِ وَالْأَجَالِ»..... ٤٧٧.....
قَوْلُهُ: «ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ
الْحَقِّقِ»..... ٤٧٧.....
قَوْلُهُ: «فَأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ! قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»..... ٤٧٩.....
قَوْلُهُ: «فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَأَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ»..... ٤٨٠.....
قَوْلُهُ: «حُجَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَ الصُّحُفُ»..... ٤٨٠.....
قَوْلُهُ: «كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى»..... ٤٨١.....
قَوْلُهُ: «وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾»..... ٤٨١.....
قَوْلُهُ: «وَهَذَا التَّقْدِيرُ النَّاتِجُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانُهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا»..... ٤٨٢.....
قَوْلُهُ: «فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُبَكِّرُهُ غَلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكَرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ»..... ٤٨٢.....
- الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: دَرَجَةُ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ..... ٤٨٣.....
قَوْلُهُ: «لَا يَكُونُ فِي مَلِكِهِ مَا لَا يُرِيدُ»..... ٤٨٤.....
الإِرَادَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ، وَإِرَادَةُ شَرْعِيَّةٍ..... ٤٨٤.....
هَلِ الْمَعَاصِي مُرَادَةٌ لِلَّهِ؟..... ٤٨٥.....
قَوْلُهُ: «وَأَنَّهُ سُبْحَانُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ»..... ٤٨٥.....
مَقُولُهُ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَاتِهِ..... ٤٨٥.....
قَوْلُهُ: «فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانُهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ»..... ٤٨٦.....

- فَصَّلْ: فِي الْإِيمَانِ ٥٠٢
- قوله: «فَصَّلْ: وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ
أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ» ٥٠٢
- تَعْرِيفُ الْإِيمَانِ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ ٥٠٢
- مُخَالَفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ ٥٠٤
- قوله: «وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَقْصُ بِالْمَعْصِيَةِ» ٥٠٥
- أَدِلَّةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ ٥٠٥
- أَسْبَابُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ أَرْبَعَةٌ ٥٠٥
- أَسْبَابُ نَقْصِ الْإِيمَانِ أَرْبَعَةٌ ٥٠٦
- مُخَالَفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ
وَنُقْصَانِهِ ٥٠٦
- قوله: «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفِرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ
بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكِبَايِرِ» ٥٠٨
- قوله: «كَمَا يَقَعْلُهُ الْحَوَارِجُ» ٥٠٨
- قوله: «بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ نَائِبَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي» ٥٠٨
- أَدِلَّةٌ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ فَاعِلَ الْكَبِيرَةِ لَا يَخْرُجُ
مِنَ الْإِيمَانِ ٥٠٩
- قوله: «وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمَلِيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكَلْبَةِ» ٥١٠
- قوله: «وَلَا يُخْلِدُونَهُ فِي النَّارِ» ٥١١
- قوله: «بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ» ٥١١
- قوله: «كَمَا فِي قَوْلِهِ: «فَتَحْرِجُ رَفَكَهُ مَوْمَسَةً» ٥١١
- قوله: «وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ» ٥١١
- قوله: «وَقَوْلُهُ ﷺ: لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ
مُؤْمِنٌ...» ٥١٢
- قوله: «وَتَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ
بِلِيَاظِنِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ...» ٥١٣
- مُخَالَفُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ٥١٣
- فَصَّلْ: فِي مَوْقِفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٥١٤
- قوله: «وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ
قُلُوبِهِمْ وَالسِّيَاقَةِ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» ٥١٤
- أَسْبَابُ حُبِّهِمْ لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٥١٤
- أَدِلَّةٌ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى حُبِّهِ الصَّحَابَةِ ٥١٥
- قوله: «وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا
أَصْحَابِي...» ٥١٧
- قوله: «وَيَقُولُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ
مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ» ٥١٨
- قوله: «وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ» ٥٢٠
- قوله: «وَهُوَ صُلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ» ٥٢٠
- قوله: «وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ» ٥٢٠
- الدَّلِيلُ عَلَى تَقْدِيمِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ ٥٢١
- قوله: «وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: اعْمَلُوا
مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ٥٢١
- قوله: «وَيَأْتِيهِ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ
الشَّجَرَةِ...» ٥٢٣
- قوله: «وَيَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
ﷺ...» ٥٢٦
- قوله: «وَيَقُولُونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ: مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ
الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ» ٥٢٩
- قوله: «وَيُثْبِتُونَ عُثْمَانَ، وَيُرِيدُونَ بَعْلِيَّ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا» ٥٢٩
- كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَنْثَارُ ٥٢٩
- الدَّلِيلُ النَّقْلِيُّ وَالْعَقْلِيُّ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٥٣٠
- قوله: «مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا
فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا...» ٥٣٠
- قوله: «وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا» ٥٣٠

- قوله: «وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا»..... ٥٣١
- قوله: «لَكِنْ اسْتَغْرَى أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ»..... ٥٣١
- قوله: «وَأِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي يُضَلُّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ مُجْهَرِ أَهْلِ السُّنَّةِ»..... ٥٣١
- قوله: «لَكِنْ الَّتِي يُضَلُّلُ فِيهَا مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ»..... ٥٣٢
- قوله: «وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْحَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ»... ٥٣٢
- قوله: «وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ»..... ٥٣٢
- قوله: «وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ»..... ٥٣٣
- قوله: «وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ»..... ٥٣٤
- الولي: يُطَلَّقُ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ..... ٥٣٤
- قوله: «وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»..... ٥٣٤
- قوله: «وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمَّهُ وَقَدْ اسْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْهَرُونَ بِبَنِي هَاشِمٍ...»..... ٥٣٥
- قوله: «وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ...»..... ٥٣٦
- قوله: «وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ أَهْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ»..... ٥٣٦
- قوله: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَهْلِ أَزْوَاجِهِ فِي الْآخِرَةِ»..... ٥٣٧
- قوله: «خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ»..... ٥٣٧
- قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاصِدُهُ عَلَى أَمْرِهِ»..... ٥٣٧
- قوله: «وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ»..... ٥٣٨
- قوله: «وَالصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»..... ٥٣٨
- قوله: «الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ: فَضْلٌ عَائِشَةُ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»..... ٥٣٩
- اختلاف العلماء في المفصلة بين عائشة وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا..... ٥٣٩
- قوله: «وَيَتَرَوُّونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ الصَّحَابَةَ وَيُسَبِّحُونَهُمْ»..... ٥٤٠
- قوله: «وَطَرِيقَةُ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ»..... ٥٤١
- قوله: «وَيُمَسِّكُونَ عَمَّا سَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ»..... ٥٤٢
- قوله: «وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ؛ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ وَقُصِّصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ الصَّرِيحِ»..... ٥٤٣
- قوله: «وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْدُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ»..... ٥٤٣
- قوله: «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ»..... ٥٤٤
- قوله: «بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ»..... ٥٤٤
- قوله: «حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ...»..... ٥٤٥
- قوله: «ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ»..... ٥٤٥
- قوله: «أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ»..... ٥٤٦
- قوله: «أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقِهِ»..... ٥٤٦
- قوله: «أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ»..... ٥٤٦
- قوله: «أَوْ ابْنِي بِلَاءٍ فِي الدُّنْيَا تُكْفِّرُ بِهِ عَنْهُ»..... ٥٤٦
- قوله: «فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ...»..... ٥٤٦
- قوله: «ثُمَّ إِنَّ الْقَدَرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزَرَ مَعْمُورٌ فِي جَنِبِ فُضَائِلِ الْقَوْمِ وَخَاسِنِهِمْ»..... ٥٤٧

الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ وَالْعَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ الْكَرَامَاتِ
مَوْجُودَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٥٥٦

فَضْلٌ فِي طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ ٥٥٨

قَوْلُهُ: «ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ
آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا» ٥٥٨

أَقْسَامُ آثَارِ الرَّسُولِ ﷺ ٥٥٩

سُؤَالٌ: هَلِ اتَّخَذَ الشَّعْرُ عَادَةً أَوْ عِبَادَةً؟ ٥٦٠

قَوْلُهُ: «وَاتَّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ» ٥٦١

قَوْلُهُ: «وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» ٥٦٢

الْبِدْعَةُ تَسْتَلْزِمُ تَحَاذِيرَ فَايِدَةٍ ٥٦٤

بَيَانُ وَجُوهٍ خَطَأً مَنِ قَسَمَ الْبِدْعَةَ إِلَى أَقْسَامٍ ٥٦٥

قَوْلُهُ: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ» ٥٦٧

قَوْلُهُ: «وَحَزْبُ الْهَذْيِ هَذْيٌ مُخْتَدٍ» ٥٦٧

قَوْلُهُ: «وَيُؤَثِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ
كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ» ٥٦٨

اشْتَهَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ إِدْرِيسَ قَبْلَ
نُوحٍ، وَهَذَا كَذِبٌ ٥٦٨

قَوْلُهُ: «وَيُقَدِّمُونَ هَذِي مُخْتَدٍ عَلَى هَذِي كُلِّ أَحَدٍ» ٥٦٩

قَوْلُهُ: «وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ
الاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ» ٥٦٩

قَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ
الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ» ٥٦٩

قَوْلُهُ: «وَالِإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ
عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ» ٥٧٠

الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ أَصْلٌ مِنَ أَصُولِ التَّشْرِيعِ ٥٧١

قَوْلُهُ: «وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا
عَلَيْهِ النَّاسُ» ٥٧٢

قَوْلُهُ: «وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بَعْلَمَ وَبَصِيرَةً،
وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا
أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ» ٥٤٧

قَوْلُهُ: «لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ» ٥٤٨

قَوْلُهُ: «وَأَتَتْهُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي
هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ٥٤٨

أَخْرَجَ الصَّحَابَةُ مَوْتًا أَبُو الطُّفَيْلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ
اللَّيْثِي ٥٤٩

فَضْلٌ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ٥٥٠

قَوْلُهُ: «وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِ
الْأَوْلِيَاءِ» ٥٥٠

تَعْرِيفُ الْكَرَامَةِ ٥٥٠

الْكَرَامَاتُ نَائِبَةٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ٥٥١

مُخَالَفَةُ الْمُعْتَزَلَةِ لِذَهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي
الْكَرَامَاتِ ٥٥٢

الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَلِيِّ وَالنَّبِيِّ ٥٥٢

الْآيَاتُ الَّتِي كَانَتْ لِلْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ كَانَتْ مِنْ
جَنْبِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْ لَأَمْتِهِ ٥٥٢

تَنْبِيهُ: الْكَرَامَاتُ قُلْنَا: إِنَّمَا تَكُونُ تَأْيِيدًا أَوْ تَنْبِيْيًا
أَوْ إِعَانَةً لِلشَّخْصِ ٥٥٤

قَوْلُهُ: «وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ
الْعَادَاتِ» ٥٥٤

الْكَرَامَاتُ لَهَا أَرْبَعُ دَلَالَاتٍ ٥٥٤

قَوْلُهُ: «فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ
الْقُدْرَةِ وَالتَّأَثُّرَاتِ» ٥٥٤

أَقْسَامُ الْكَرَامَةِ ٥٥٤

قَوْلُهُ: «وَالْمَأْثُورُ عَنِ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ
وغيرِهِ...» ٥٥٥

قَوْلُهُ: «وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٥٥٦

قوله: «والإجماعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ
 ٥٧٢..... السلفُ الصالحُ»
 قَوْلُهُ: فِي مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْأَمْرِ
 ٥٧٤..... بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخِصَالِ
 قَوْلُهُ: «ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 ٥٧٤..... وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»
 تَعْرِيفُ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ..... ٥٧٤
 الْأَدِلَّةُ عَلَى جُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
 ٥٧٤..... الْمُنْكَرِ.....
 شُرُوطُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ..... ٥٧٥
 قَوْلُهُ: «وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجَمْعِ
 ٥٧٩..... وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ..»
 قَوْلُهُ: «وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ»..... ٥٨٢
 قَوْلُهُ: «وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ»..... ٥٨٣
 مَا هُوَ مِيزَانُ النَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ؟..... ٥٨٤
 قَوْلُهُ: «وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ
 ٥٨٤..... كَالْبُنْيَانِ...»
 قَوْلُهُ: «وَقَوْلُهُ ﷺ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ
 ٥٨٥..... وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ...»
 قَوْلُهُ: «وَيَأْتُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ
 ٥٨٦..... عِنْدَ الرِّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ»
 اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي أَيُّهَا أَشَقُّ: الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ،
 ٥٨٧..... أَوِ الشُّكْرُ عِنْدَ الرِّخَاءِ.....
 تَبَيُّهُ الْقَضَاءِ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَتَيْنِ..... ٥٩٠
 قَوْلُهُ: «وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَنَحَاسِنِ
 ٥٩٠..... الْأَعْمَالِ»
 قَوْلُهُ: «وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ
 ٥٩١..... إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»
 قَوْلُهُ: «وَيَتَذَبُّونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مِنْ قَطْعِكَ، وَتُعْطِيَ

مَنْ حَرَمَكَ...»..... ٥٩٢
 قَوْلُهُ: «وَيَأْتُرُونَ بِرِ الْوَالِدَيْنِ»..... ٥٩٤
 مَعْنَى الرَّبِّ..... ٥٩٥
 صِلَةُ الْأَرْحَامِ..... ٥٩٦
 قَوْلُهُ: «وَحُسْنُ الْجَوَارِ»..... ٥٩٧
 قَوْلُهُ: «وَالِإِحْسَانُ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
 ٥٩٩..... السَّبِيلِ»
 قَوْلُهُ: «وَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ»..... ٦٠٠
 قَوْلُهُ: «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ وَالْحِيَلَاءِ وَالتَّبَغْيِ
 ٦٠٠..... وَالْإِسْطِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ...»
 قَوْلُهُ: «وَيَأْتُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ»..... ٦٠٢
 قَوْلُهُ: «وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفْسَافِهَا»..... ٦٠٣
 قَوْلُهُ: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا
 ٦٠٣..... وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ...»
 قَوْلُهُ: «لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرُونَ عَلَى
 ٦٠٣..... ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً،
 وَهِيَ الْجَمَاعَةُ».....
 قَوْلُهُ: «وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى
 ٦٠٥..... مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي...»
 مَنْ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؟..... ٦٠٥
 الْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتَرِيدِيَّةُ لَبَسُوا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ..... ٦٠٥
 قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الصَّدِّيقُونَ»..... ٦٠٦
 قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الشُّهَدَاءُ»..... ٦٠٧
 قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الصَّالِحُونَ»..... ٦٠٧
 قَوْلُهُ: «وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى»..... ٦٠٨
 قَوْلُهُ: «أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ
 ٦٠٨..... الْمَذْكُورَةِ»
 قَوْلُهُ: «وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ»..... ٦٠٨

قوله: «وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون	قوله: «الذين قال فيهم النبي: لا تزال طائفة من
على هدايتهم»..... ٦٠٨	أمتي على الحق منصوراً...»..... ٦١٠
قوله: «وهم الطائفة المنصورة»..... ٦٠٩	الخاتمة..... ٦١٢
تعلیق على ما في شرح الشيخ محمد خليل الهراس على متن العقيدة الواسطية - الطبعة الأولى..... ٦١٥	
فهرس الأحاديث النبوية والآثار..... ٦٢٩	
فهرس الفوائد..... ٦٣٧	
فهرس الموضوعات..... ٦٤١	

